$20

كتاب

المواعظ السديدة الأدبيّة

في تثقيف المسيحيّ في طريقته الدينيّة

تأليف

الباتري بولس سنيري اليسوعيّ

قد ذُيِّل بنبذة مواعظ منثورة

المجلّد الثاني

طُبع في الموصل

في دير الآباء الدومنكيّين

سنة ١٨٩٢

IMPRIMATUR

† Fr. Henricus Victor ALTMAYER

Sacri Ordinis Prædicatorum

Archiepiscopus Babylonensis, Delegatus Apostolicus

الموعظة الثانية والاربعون

في بيان عظمة الخطيّة المبيّنة من سقطة آدم وعقابها

انّي لا ازال اكلّمكم يا مباركين عن عظمة شرّ الخطيّة ووجوب بغضها. لانّ كل حكمة دون معرفة هذا الشرّ هي باطلة. وعلى هذه البغضة بغضة الخطيّة قائم الخلاص – فهلمّ اذًا نتأمّل اليوم في خطيّة آدم اوّل ملوك الارض وملك المسكونة باسرها. ولننظر فيهِ كيف انهُ لاجل خطيّة واحدة سقط عن كرامتهِ وحصل على حال لا توصف شقاوتهُ – لاحظوا حسن سعادة الحال التي خُلق فيها. ثمَّ تفرَّسوا في سقطتهِ وعقاب اثمهِ *

انهُ لم يكن قطّ ولن يكون ابدًا ملك في العالم نظير آدم الاب الاوّل. لان سلطتهُ كانت تشمل الارض كلّها وتمتدّ من الشرق الى الغرب ومن الجنوب الى الشمال. وكلّ الخليقة كانت خاضعة لرئاستهِ – وهذا الملك العظيم كان متّصفًا بحكمة كافية لتدبير الارض كلّها حسب قول الحكيم: ملأها من تدرّب الفهم (سيراخ ١٧ : ٥) – وما عدا ذلك حاز آدم من الله النعمة. وبها كان يقدر ان يستحقّ السعادة السماويّة. ومع هذه النعمة أُوتي كلّ مواهب روح القدس وكلّ الفضائل المفاضة. الفعليّة والملكيّة المقترنة بالنعمة دائمًا. مثلما اذا خرجت الملكة الى خارج ترافقها النساء الشريفات – ثمّ انَّ الله خصّ آدم بعطيّة اخرى جليلة. وهي البرّ الاصليّ الذي هو مجموع من فضائل كثيرة وبها يحصل الجسد والنفس على حال الكمال. لانَّ هذا البرّ الاصليّ كان يُخضع النفس لله. اذ كان يجعل العقل ان يعرف البارئ تعالى. والارادة ان تحبّهُ. والقوّة الذاكرة ان تذكرهُ – ثمَّ انهُ اي البرّ الاصليّ كان يُخضع الحواسّ للعقل. والجزء الادنى من

النفس للجزء الاعلى - ثمّ انّ البرّ الاصليّ كان يجعل الجسد خاضعًا للعقل خضوعًا تامًّا حتّى انّهُ اعني الجسد لم يكن يثقّل على النفس. لا بل كان يسعفها ويعضدها ايضًا. وهذا الاختضاع التامّ كان يصيّر الجسد غير قابلٍ للموت والامراض والاوجاع وبقيّة البلايا المفعمة منها هذه الحيوة - وهذه العطيّة تُدعى برًّا. لانَّ كلّ الاشياء السفليّة كانت في الانسان خاضعة للاشياء العليا. وفي هذا قائم البرّ الكامل - وهذا البرّ يُدعى البرّ الاصليّ. لانّهُ أُعطي ليكون ارثًا لكلّ اولاد هذا الانسان الاوّل - ومن الواجب علينا ان نشكر فضل الله على هذا الاحسان العظيم. ولو انّهُ لم يتّصل الينا كما انّهُ ينبغي ان نشكر الملك اذا ارسل لنا هديّة ثمينة على يد احد عبيدهِ. ولو انها ضاعت فيما بعد بذنب العبد *

ولنرجع الآن الى ما كنّا عليهِ. فأَسألكم يا مباركين هل يوجد على الارض ملك نظير ابينا آدم. ملك لهُ سلطان مطلق على ذاتهِ وعلى كلّ ما تحت ملكهِ. ملكٌ مع هاذين السلطانين خاضع لسلطة خالقهِ. ملك لا يمكن ان يؤْخذ منهُ هذا السلطان الاّ برضائهِ - انّ اكثر ملوك الارض هم خاضعون لسلطان شهواتهم مع انَّ تسلّطهم محدود وسريع الزوال - هم معتبرون عند الناس. الاّ انهم كما قال النبيّ: مثل الناس يموتون (مزمور ٨١ : ٧) - وامّا آدم فمع انّهُ كان على الارض كلّها متسلّطًا. فانّهُ لم يكن خاضعًا للموت. وذلك امّا لاجل طاعة جسدهِ لنفسهِ. كما زعم القدّيس مار توما. وامّا لانّهُ كان قادرًا ان يسند قوّتهُ بتناولهِ من ثمر شجرة الحيوة. كما قال آخرون من المعلّمين اللاهوتيين - وفي حال سعادتهِ هذه لم يكن عليهِ خطر الاّ من جهة الخطيّة. وهذا العدوّ نفسهُ لم يكن يقدر ان يضرّهُ الاّ برضى ارادتهِ وسعيها مع هذا العدو - ومع هذا كلّهِ انغلب آدم وسلّم لعدوّهِ هذا باختيارهِ ورضاهُ - انّ زلّة آدم هذه لسرٌّ عظيم في الديانة المسيحيّة حقًّا. واذ كان ركنًا تتعلّق بهِ سائر أسرار ايماننا يجب ان نشرحهُ الآن. فأَحسنوا الاصغاء *

اعلموا يا مباركين. انهُ بعد انّ الباريَ تعالى خلق آدم وسلّطهُ على الفردوس الارضيّ. فاذ كان اوّل واجبات الخليقة لخالقها هي الطاعة. اراد الله من آدم ان ياتي ذلك اي ان يطيع الله. فاذن لهُ ان ياكل من اثمار كلّ اشجار جنّة النعيم ما خلا اثمار شجرة واحدة عينّها لهُ وتوعّدهُ بالموت هو وكلّ ذرّيتهِ ويفقد كلّ اختصاصاتهِ الشريفة ان خالف وصيّتهُ هذه. وقال لهُ: لا تاكل من شجرة معرفة الخير والشرّ. لانّك في ايّ يوم تاكل منها تمُتْ موتًا (تكوين ٢: ١٧) — فلمّا سمع آدم هذه الوصيّة قبلها بكمال الخضوع وتعجّب من انّهُ تعالى لم يضع عليهِ وصايا اصعب من هذه بعد ان ملأَهُ من الخيرات وكلّلهُ بمجدٍ عظيم — غير لم انهُ يستقم زمانًا مديدًا على حال الخضوع. لانّ الشيطان حسدهُ وحسد ذرّيتهُ على سعادتهم واستخدم الحيّة ليسقطهُ منها — نعم انّ الشطان لم يبتدئ ان يجرّبهُ هو بل اخذ يجرّب حوّآء اوّلاً لرجائهِ انّهُ اذا انتصر عليها يظفر بهِ في الآخر بسهولة — وبعد ان دبّر في فكرهِ مقصودهُ هذا تقدّم الى حوّآء وكانت منفردة تسرح في الفردوس. وشرع يخاطبها ويوسوس لها انّ وصيّة الله لهما بان لا ياكلا من ثمر شجرة معرفة الخير والشرّ تخالف الصواب وتثلم حرّيتهما. وانّ التوعّد بالموت اذا اكلا من هذه الشجرة هو توعّد باطل اخترعهُ لتخويفهما فقط. من حيث انّه لا يُصدَّق انّ الله يريد ان يُهلك هكذا عاجلاً شخصين شريفين مثلهما بعد أن خلق لاجلهما السمآء والارض — وفي أثنآء ذلك طفق يمدح لحوّآء ثمر تلك الشجرة. ويذكر لها السبب الذي من اجلهِ منعهما الله عن الاكل من ذلك الثمر وهو خوفهُ من انّهما اذا اكلا منهُ يحصلان على انوار وعلوم فائقة حتى انّهما يستطيعان ان يميّزا الخير من الشرّ ولا يحتاجان فيما بعد الى عون الله وهدايتهِ — هذا ما قالهُ المحتال. وبهِ اطغى حوّآء اذ استحوذ عليها روح التعظّم حسبما قال إمام مدرسة اللاهوت. فاستحسنت مشورة ابليس. ومدّت يدها الى الثمرة المنهيّ عنها واكلتها. وهكذا خالفت وصيّة الله — الاّ انّ الشيطان لم يعدّ انتصارهُ شيئًا

كثيرًا لعلمهِ انّ الضرر الناتج من سقوط حوّآء يكون يسيرًا ان لم يسقط آدم معها. لانّهُ من سقوط آدم في الخطيّة كان يصدر هلاكهُ وهلاك ذرّيّتهِ كلّها. وذلك لسبب انّ بقيّة الناس كانوا مضمومين اليهِ كانضمام الاعضآء الى الراس. فحرّك حوّآء وعلّمها ماذا تقول وماذا تفعل لكي تستميل آدم الى رايها - فاستعملت حوّآء كلّ ما امكنها من التحبّب والتلطّف والاطناب في مدح الثمرة المحرّمة والتوسّل اليهِ لياكل منها على حبّها - وازالت من خاطرهِ كلّ خوفٍ بقولها لهُ: لا تخَفْ ان تموت اذا اكلتَ منها. لانّي اكلتُ ولم امُتْ بل بقيتُ حيّةً متعافية - فانخدع آدم واكل الثمرة المنهي عنها وسقط حالاً من حال برّهِ الاوّل وسُلبت منه كلّ اختصاصاتهِ الشريفة المتعلّقة بهِ. وذلك بعد تكوينهِ بثمانية ايّام - وحالما دخلت الخطيّة كان دخولها كدخول لصّ دخل في الليل سرًّا ونهب ما اراد. هكذا هذه نهبت كلّ كنزهما الروحيّ. اعني الحكمة والنعمة والبرّ الاصليّ. وهذه كلّها خسرناها نحن معهما لاجل اشتراكنا في ذنبهما. لانّ الرجل المذنب الذي سقط عن كلّ وظائفهِ الشريفة لخيانتهِ على ملكهِ. لاحقٌ لاولادهِ على مراتبهِ. وكذلك بعد ان تمرّد آدم ابونا على العزّة الالهيّة قد اضاع لنفسهِ ولذرّيّتهِ كلّها كلّ ما كان يمتلكهُ من الخيرات والكرامات والاختصاصات *

وقبل ان نذكر ما صنع بهِ ربّ الانتقام قصاصًا عن معصيتهِ هذه اعتبروا قليلاً سبب سقطة آدم. ومنهُ انتجوا ما يجديكم نفعًا - من ذا كان يختلج في فكرهِ انّ رجلاً حكيمًا مثل آدم المتملّك كنوز النعمة الالهيّة المتصف بصفات منتظمة في النفس وبطبيعة مائلة للصلاح الناجي من كلّ تمرّد باطن مسبّب من الشهوة الذي لم يُجرَّب الاّ من خارج فقط. وذلك بالكلام لا غير. كان عتيدًا ان ينخدع ويُغلَب عاجلاً وانّهُ يبلغ الى مخالفة خالقهِ بحركة محبّة مفرطة لامرأتهِ. وكما قال القدّيس اوغسطينس. لخوفهِ من ان يحزنها ويسبّب لها الموت اذا ردّها عن طلبتها - فالشاب المتبرقع بالجهل المتولّع في الشرّ

المحارَب باطنًا بشهوات حارّة الملتهب قلبهُ بنار دنسة كيف لا يخاف من السقوط في الخطيّة اذا ترك عقلهُ مشتغلاً بافكار زنويّة وحضر مجالس اللهو والخلاعة وسمع حديثًا مائلاً بهِ الى الدنس . وعاشر اناسًا متولّعين مثلهُ في الشرّ ينصبون لهُ فخاخ الهلاك . وكيف مثل هذا يرجو الانتصار والخلاص – اعلموا يا مباركين انّ جهنّم مملوّة من الذين القوا انفسهم في مثل هذه الاخطار *

ولناتينّ الآن الى ما حدث بعد سقطة آدم – انّ الله الذي كان ابًا لهُ اصبح عليهِ قاضيًا . وحينئذٍ احضرهُ امام عدلهِ . وبعدما فحص عن دعواهُ واثبت عليهِ ذنبهُ . حكم عليهِ بالعقاب – وما هذا العقاب . انّهُ جلّ جلالهُ عزل آدم من شرف درجتهِ وعظمة سلطانهِ . ونزع عنهُ كلّ خيراتهِ ونفاهُ . وجزم عليهِ ان يعيش من تعب يديهِ . واخضعهُ للاوجاع والموت – قد اعتاد الملوك اذا تمرّد عليهم احد من الناس . ان يهدموا بيتهُ ويضبطوا اموالهُ . هكذا حكم الله على الجسد الذي تسكن فيهِ النفس ان يُهدَم ويُعاد الى رماد – من يصف الذهول والحيرة التي تصيبكم لو رأيتم ملكًا كان قبلاً في اعلى درجة من العزّ والعظمة وسقط من كرامتهِ وشرفهِ مخذولاً ذليلاً منفيًا مضطرًا الى ان يفلح الارض لئلاّ يموت من الجوع – فهذه هي حال آدم بعد خطيّتهِ . بل انّ حال هذا الملك هو كلا شيء بالنسبة الى حال آدم – الاّ انّ الامر الذي يستحقّ كلّ الاسف هو انّ عقاب آدم اتّصل بنا جميعًا . فقلب الله حينئذٍ كلّ ترتيب عنايتهِ المرسوم قبل خطيّة آدم ابينا الاوّل . على انّهُ أبطل اهتمامهُ الخاصّ بنا وتركنا خاضعين لكلّ انواع البلايا الزمنيّة والروحيّة . لانّهُ بخطيّة آدم حسبما قال المجمع التريدنتيّ تغيّر الانسان كلّهُ وعدم منزلتهُ الشريفة التي تتعلّق بالجسد والتي تتعلّق بالنفس – فيا لعظمة هذه الضربة التي اصابت الطبيعة البشريّة . انّهُ ولو كان يعسر بيان جسامتها . فانّي اجتهد في ذلك على قدر ما يمكنني . فاقول : انّ النهر العظيم اذا هدم السدّ الذي يضبطهُ يطغى حالاً ويتلف كلّ

الاراضي التي حولهُ. هكذا الطبيعة البشريّة حينما زال البرّ الاصليّ الذي كان يضبطها تلفت وغاصت في جميع الرذائل. لانّ الجسم تمرّد على الروح والحواسّ انحرفت وتسلّطت. وحصلنا مائلين الى اللذّات حتّى انهُ من دون عون الرحمة الالهيّة واجتهاد بليغ منّا نحن عاجزون عن مقاومتها - وما عدا تمرّد كلّ اهوائنا نشعر ايضًا بتمرّد كلّ الخلائق. وحالنا حال ملك قد اصطفّ حولهُ شعبهُ ليحاربهُ. لانّ اكثر الحيوانات القت عنها نير الطاعة لنا. والعناصر تبلبلت. والارض ضُربت بلعنة الله فصارت لا تنبت من ذاتها سوى اشواك. واقول بالاجمال انهُ حينما صار الانسان عدوّ الله تسلّحت حالاً عليهِ كلّ الخلائق وشعر بحربٍ متّصل في باطنهِ - هذا هو سبب كلّ بلايانا. ومن هنا صدر جهلنا بالاشياء الروحيّة واستصعابنا العمل بالصلاح وتغلّب الشرّ علينا وميلنا المفرط الى اللذّات المحرّمة وانحراف كلّ اهوائنا: هذا ما نتج من الخطيّة *

امّا الانسان الغبيّ ينسب ذلك كلّهُ الى الله. واذا زجرناهُ عن رذائلهِ يعتذر قائلاً: انّ الله صنعني هكذا. ومنهُ اتّخذتُ هذه الطبيعة وهذا الميل وهذه الاخلاق - يا جاهلاً اذا نظرت الى ساعة تعلم انها عمل معلّم ماهر ورايت انّها تسبق او تتأخّر. فهل تنسب نقائص هذه الساعة الى من عملها. أما تقول انّ الذي اخذها منهُ هو الذي أخربها - فلماذا اذًا تنسب الى الله نقائص طبيعتك. لِمَ لا تقول وتقرّ انّ الخطيّة هي التي اتلفتها. وانهُ يجب ان نرغب الى صانعها لكي يصلحها - قال الحكيم: انّ الله صنع الانسان مستقيمًا (جامعة ٧ : ٣٠) - ولنلاحظنّ ايضًا قليلاً كثرة الشرور الناتجة من الخطيّة. من اين القحط والجوع والمرض والطاعون وحروب البرّ وعواصف البحر وزلازل الارض والحرّ الذي يحرق والبرد الذي يجفّف - من اين القتل والخطف والظلم - من اين الحزن والبكاء والولاول والأياس - من اين هلاك انفس لا يُحصَى عددها. لانهُ اولاً من الاكيد ان كلّ الاطفال الذين يموتون بلا معموذيّة هم محرومون من ملكوت

السماء لاجل مجرّد خطية آدم فلا ينالون السعادة الابديّة. ومن يقدر ان يحصي عدد الاطفال الذين يموتون من اولاد المسيحيين قبل ان يعتمدوا. وكذلك اطفال اليهود والامم - الاّ انّ عدد هولاء مهما كان يفوق ادراك البشر. فانهُ هو شيءٌ يسير بالنسبة الى كثرة الذين يهلكون في كلّ دقيقة من الزمان بعد ادراك سنّ المعرفة والتمييز في العالم كلّهِ - وذلك كلّهُ سببهُ الاوّل هو الخطيّة الاصليّة التي اتلفت الطبيعة البشريّة - فكما انّ الزرع يحوي في ذاتهِ كلّ الاثمار العتيدة ان تنبت منهُ. هكذا الخطيّة الاصليّة تتضمن كلّ الخطايا العتيدة - ولذلك قالت العلماء: انّ الخطايا التي نرتكبها كلّ يوم هي سيّئة نظرًا الى ارادتنا. الاّ انها عقاب نظرًا الى ابينا الاوّل - فما ظنكم يا مباركين بهذا العقاب الهائل: انهُ لو كان الله يعاقبنا بالبلايا الزمنيّة المذكورة فقط لكان هذا العقاب وحدهُ شديدًا جدًّا. الاّ انّ الكتاب المقدَّس يدعوهُ نقطة من بحر اللعنة المسبّبة من الخطيّة - انّ دانيال النبيّ لمّا تكلّم عن شدائد الشعب الاسرائيليّ. اعني النفي والفقر والسجن وغير ذلك قال: قطر الله علينا اللعنة (دانيال ٩ : ١١). ولكن لمّا تكلّم الكتاب المقدّس عن الخطايا التي يسمح الله بحدوثها شبّهها بنهر عظيم مندفق: قال صاحب المزامير: افض عليهم رجزك. وليدركهم حموّ غضبك. زِدْ إثمًا على إثمهم (مزمور ٦٨ : ٢٥ و ٢٨) - قال الانبا بلرمينس في تفسيرهِ هذه الآية. متى ما سمح الله ان يزيد الخطاة خطايا جديدة على خطاياهم القديمة فذلك اشدّ ما يكون من العقاب عن الخطايا الماضية. فانهُ تعالى يسكب حينئذٍ كلّ غضبهِ - انهُ لو كان الله ياذن بفعل خطيّة واحدة انتقامًا من خطيّة آدم. لكان هذا عقابًا اعظم من حكمهِ تعالى على جميع الناس بارهب الميتات - والامر العجيب هنا هو انّ الله ينتقم هكذا من خطيّة آدم ومن سببها يسمح بورود البلايا المقدّم ذكرها بعد انّ آدم ندم عليها وتاب عنها توبةً شديدة مدّة ثمانمائة سنة وبعد انّ الله وفى للعدل الالهيّ عن هذه الجريمة وفاءً وافرًا. ومع هذا لم

يبطل عقاب خطيئة آدم. اذ انّ الخطايا المسببة منها اصليًّا لا تبطل بل تكثر يومًا فيومًا. ولا يزال الله يعاقب الخطيئة بكلّ الانواع المذكورة. اي ببلايا ارضيّة زمنيّة وبلايا روحيّة ابديّة - من ذا يفهم كيف انّ دوآءً الهيًّا اي دم السيّد المسيح لا يشفي الجرح الصادر من الخطيّة الاصليّة وكيف لم يحصل بهِ البشر على قوة افضل من القوّة التي كانوا اتّصفوا بها لو لم يخطئ آدم - هكذا يحكم العقل البشريّ. ولكنّ حكمة الله بعيدة عن افكارنا كبعد المشرق من المغرب. لانهُ تعالى اذ اراد أنْ نعقل جيّدًا عظمة شرّ الخطيّة وقضى بعدلهِ ان لا تزال الخطيّة التي وفى عنها السيّد المسيح تصدر مفعولاتها الخبيثة الى زماننا والى انتهاء الدهور بل الى الابد في كلّ الذين تسبّب هلاكهم - فهل يمكن بعد ذلك ان يستخفّ احد منكم بالخطيّة *

ولكن يمكن ان تقولوا انّ هذا الشرّ يوجد في خطيّة آدم لا في خطايا ذريّتهِ. كلاّ: انكم في ضلال. لا يُذكَر انّ خطيّة آدم كانت عظيمة جدًّا نظرًا الى فاعلها. على انّهُ لكونهِ راس جنس البشر وقد كان حاز من الله حكمةً ونعمةً وافرة. كان يجب عليهِ ان يردّ امراتهُ عن الضلال. الاّ انّهُ اذا تفرّسنا بخطيّتهِ ولاحظناها في ذاتها ومجرّدةً عن اعراضها فانّها تتبيّن اقلّ ثقلاً من خطايانا. وذلك على الخصوص نظرًا الى ثلاثة اعراض. اعني المادّة. والعدد. والمكان - امّا من جهة المادّة. فقد اتّضح انّ مادّة خطيّة آدم كانت خفيفة ذاتًا. اذ انّ مادّة خطيّتهِ هي قائمة في اكل فاكهة فقط. وهل توجد مناسبة بين هذا وبين خطايانا خطايا النفاق والظلم والتجديف والقتل وهلمّ جرًّا - فماذا نقول عن القوم الخطاة الذين يعتذرون بقولهم. انهم لا يقتلون ولا يسرقون. بل انّ ذنوبهم كلّها تصدر من الضعف البشريّ المائل بهم الى الأهوآء الفاسدة - انّ آدم كان يقدر ان يتعلّل بمثل هذا الاعتذار لانّهُ لم يخالف بخطيّتهِ الناموس الطبيعيّ - وان فحصنا عن العرض الثاني وهو العدد. فمن المعلوم انّ آدم لم

يخطئ سوى مرّة واحدة . والحال انّ عدد خطايا اكثر الناس لا يُدرك - وامّا العرض الثالث وهو الزمن الذي يزيد خطايانا ثقلاً عظيمًا فانّهُ يخفّف خطيّة آدم . لانّهُ اخطأ قبل ان يرى احدًا اصابهُ العقاب في الخطيّة . وقبل ان تكون غُفرت له خطيّة سالفة . وقبل ان اظهر ابن الله عظمة الخطيّة بموتهِ لاجلها على عود الصليب - وامّا نحن فنخطئ بعد ان ارانا الايمان الوفًا وربوات من الخطاة مصابين بعقوبات هائلة . وبعد ان غفر الله لنا مرارًا متعدّدة . وبعد ان سفك السيّد المسيح لاجلنا دمهُ كلّهُ . وبعد ان تفضّل علينا بنعم جزيلة ووهب لنا اسرارهُ الالهيّة . ودفع لنا جسدهُ ماكلاً ودمهُ مشربًا *

فيا ايّتها الخطيّة من يجعلنا ان نعرف كلّ شرّك وان نبغضكِ بحسب استحقاقكِ - فحسبنا يلقّبكِ الكتاب المقدّس عمل الظلمة والجهل . لانّ اكثر الناس لا يفهمون شرّ الخطيّة . بل انّ الذين يظنّون انّهم يعرفونها لا يعرفون منها الاّ شيئًا يسيرًا - أَجل لا يدرك احدٌ كلّ شرّها الاّ الله وحدهُ . لانّهُ وحدهُ يعلم ما يجب على خلائق دنيّة ان تؤدّيهُ من الاكرام والتهيّب والطاعة لعزّتهِ غير المتناهية *

فان اردتم يا مباركين ان تحسنوا مذهبكم في الخطيّة فطابقوهُ مع حكم الله فيها . قيسوا شرّ الخطيّة بقياس العدل الالهيّ . وهكذا ابغضوها قبل ان تخطئوا وبعد ان تكونوا قد اخطأتم . وبعد ان تكونوا قد اعترفتم بالخطيّة ووفيتم عنها - فيا محبّي الربّ ابغضوا الخطيّة (مزمور ٩٦ : ١٠) - لا تتشبّهوا بهولآء الجهّال الاغبياء الذين يصيّرهم رجاء المغفرة ان يخطئوا بسهولة وطمانينة قائلين . انّنا سنفعل هذه الخطيّة ثمّ نعترف بها - فيا ليتهم يعرفون شرّ الخطيّة وصعوبة التوبة عنها وكثرة البلايا التي تعقبها بعد التوبة عنها - فخافوا اذًا من الخطيّة قبل ان ترتكبوها . وخافوها ايضًا بعد ارتكابها *

انّي لا افهم كيف انّ المسيحيّين الذين قد اعتادوا على فعل الخطيّة

يستطيعون ان يمكثوا في هذا الحال مستريحين متنزّهين ضاحكين منتظرين هكذا عيد الفصح لكي يعترفوا. وكيف يمكن ان يستريح وينام من يرى فوق راسهِ سيفًا مجرّدًا معلّقًا بخيط رفيع. اعني سيف العدل الالهيّ الذي لا يصدّهُ عن السقوط سوى خيط الحياة السريعة العطب - فلو انقطع هذا الخيط ما الذي كان يصيبكم. لكان مسكنكم اتون النار. ونوركم الظلام. ورفقتكم الشياطين القساة. وماكلكم مرارة التنانين. وشغلكم الولاول والتجاديف واللعنات وكلّ تعزيتكم الخوف والرجز والاياس - كيف يمكنكم في هذه الحال التعيسة حال الخطيّة ان تُسرّوا وتذوقوا لذّات هذه الحيوة وانتم تزيدون خطيّة على خطيّة - كيف لا تخافون من ان تتساقط عليكم صواعق العدل الالهيّ. كيف تعتمدون على الرجآء الذي كما قال القديس اوغسطينس خدع ابانا الاوّل. وهو انّ الله سيغفر لكم فيما بعد - ولا تعتذروا ايضًا بانّ قصدكم في ما بهِ تخالفون شريعة الله ليس هو ان تسيئوا الى الله او ان تسخطوهُ. بل ان ترضوا شخصًا عزيزًا عليكم. لانّ مثل هذا صنع آدم كما قال مارتوما اللاهوتيّ اي انّهُ خالف وصيّة الله لا بنيّة ان يهين الله. بل بنيّة ان يرضي امراتهُ العزيزة المحبوبة ولا يكدّر خاطرها بمنعهِ طلبتها - هكذا يخاف كثيرون من ان يغيظوا اصدقاءَهم ولكي يحفظوا محبّتهم. يستخفّون بفقد محبّة ربّ العالمين - فابغضوا انتم الخطيّة بعد ارتكابها. بل ابغضوها ايضًا بعد التكفير عنها في سرّ الاعتراف *

قولوا اذًا كيف ابغضتموها بعد الاعتراف. ما الذي فعلتموهُ من افعال التوبة بعد تورّطكم في خطايا كثيرة - انّ آدم بعد خطيّتهِ استمرّ نادمًا مواظبًا على افعال التوبة مدّة ثمانمائة سنة وذلك بتقدمة الذبائح وصلوات حارّة متواصلة والدعآء الدائم الى ابن الله الذي كان عتيدًا ان ياتي ليخلّصهُ هو وذريّتهُ التي كان قد حكم عليها بالهلاك. والمواظبة على فلاحة الارض بصبر وتواضع - وامّا انتم فاذا تبتم فتكتفون بالاعتراف بخطاياكم وتلاوة صلوات يسيرة -

اتظنّون انّكم بهذا كفّرتم عن خطاياكم - فاعلموا انّ من كان حالهُ هكذا لا يبغض الخطيّة كما يجب ولا يعدّها الشرّ الاعظم والوحيد *

غير انّهُ لا يكفي ان تبغضوا الخطيّة في ذاتها ومفعولاتها . بل يجب عليكم ايضاً ان تبغضوا اسبابها القريبة والبعيدة - انّ آدم وحوّآء كانا مستعدَّين أن يقطعا الشجرة التي صارت سبب سقطتهما . لو جاز لهما ذاك : فافعلوا هكذا يا مباركين . تجنّبوا كلّ ما يمكن ان يكون لكم سبب عثرة . اتركوا الاشخاص . باينوا الجمعيّات . اهربوا من البيوت والاشيآء التي بسببها سقطتم في الخطيّة . بهذا نعلم انّكم تبغضون الخطيّة حقّاً . بهذا تعلمون بتاكيد ادبيّ انّ الله قد غفر لكم - فابغضوا اذاً الخطيّة بغضاً تامّاً اكثر من بغضكم كلّ ما سواها . بهذا تدركون البركة من آدم الجديد . وبعد ان تزرعوا مع آدم القديم بالبكآء في وادي هذه الدنيا الشقيّة تحصدون بالفرح ثمار توبتكم في ملكوت السمآء آمين *

الموعظة الثالثة والاربعون

في انّ الدينونة العامّة تظهر لنا عظم الخطيّة

انّ من يتأمّل في ما حدث في العالم من انشائهِ الى زماننا هذا . يرى الارض كميدان فيهِ لا يزال الله يحارب الخطيّة لكي يبيدها . ولا يبرح البشر يبذل كلّ مجهودهِ ليديم وجودها وتسلّطها - فنرى الله تارةً يغرّق الخطاة في مياه الطوفان . وتارةً يحدر عليهم ناراً من السمآء . وطوراً يضربهم بالسيف . وآونةً يبيدهم بالجوع والطاعون . او بانواع اخر كثيرة من البلايا يضيّق عليهم . ومع هذا كلّهِ فهؤلآء لا يرعوون ولا يقلعون عن شرّهم . بل يزيدون شرّاً يوماً فيوماً - غير انّ الله ربّ الجيوش المقتدر قد جعل لهُ يوماً ينتصر فيهِ عليهم انتصاراً

قاطعًا. وفيهِ يبيد خطاياهم من الارض – وهذا اليوم العظيم هو يوم الدينونة العامّة المسمّى في الكتاب المقدّس يوم الربّ. لانهُ فيهِ يظهر عزّة ربوبيتهِ وقدرتهِ – هذا ما اتّخذناهُ اليوم مادّة لهذه الموعظة. وسنبيّن لكم ما يسبق هذه المهاجمة المرهبة استعدادًا لها. ثمّ نشرح المعركة. ثمّ نصف الغلبة. اعني بذلك اتيان الربّ الديّان وكشفهُ سرائر القلوب وجزمهُ بالحكم الاخير وانجازهُ ايّاهُ. وارجو الله انّ هذا يصيّركم أن تبغضوا الخطيّة الى اقصى غاية ما يكون *

انهُ كلّ مرّة قصد الله ان يرسل على الارض بليّة عظيمة سبق وانذر بها بعلامات مفزعة لكي ينتبه الخطاة فيتوبوا. او لكي لا يكون لهم حجّة للاعتذار اذا لم ينتصحوا – ومن جملة الاخبار المثبتة هذا المقال. يكفي ان نذكر ما حدث لاورشليم المدينة الشقيّة قبل هدمها – روى يوسف المؤرّخ اليهوديّ المشهور الذي كتب ما شاهدهُ انّهُ قبل محاصرة اورشليم بسنة واحدة ظهر فوقها في الجوّ نجمٌ ذو ذَنَب يشبه سيفًا مجرّدًا. كان بلسان الحال يتوعّدها. ومكث هكذا مدّة سنة كاملة. وانّ بقرةً سيقت الى المذبح للذبح انتجت حَمَلاً في الهيكل المقدّس. وانّ باب الهيكل المتّجه الى المشرق الذي كان من نحاس وكان بالكدّ عشرون نفرًا يقدرون أن يفتحوهُ. انفتح من تلقآء نفسهِ مع انهُ كان مقفلاً بقفل شديد ثقيل – وكان اليهود يزدادون قساوة ويسدّون آذانهم عن كلّ هذه الانذارات السماويّة. فشرع العدل الالهي ينذرهم بنوع اوضح وارهب وهو انّهُ ظهر فوق المدينة المذكورة في الجوّ اجواق من الجنود متسلّحون يحاربون بعضهم بعضًا. وسُمع هاتف داخل المقدس الالهيّ يقول مرّات كثيرة لنخرجنّ من هاهنا. مع انّهُ لم يكن داخلهُ احد – فهذه المعجزات وغيرها كثيرًا كانت في مقام مرسلين ينذرون اليهود ويحثّونهم على التوبة *

فان كان الله سبق وانذر بخراب مدينة واحدة بمثل هذه الآيات. فانتجوا من ذلك كيف تكون العلامات السابقة لخراب العالم كلّهِ. وعن ذلك قال

الربّ على وجه العموم. انيّ اظهر معجزات في السمآء وعلى الارض دمًا ونارًا (يوال ٢ : ٣٠) - غير انهُ بين علامات هدم اورشليم وبين علامات خراب العالم يوجد هذا الفرق وهو. انّ الله كان في هدم اورشليم يدعو الخطاة الى التوبة. وبخراب العالم يدعو الناس الى منبر عدلهِ ليحكم عليهم حكمًا شديدًا - ولهذا قال تعالى سيكون حينئذٍ ضيق عظيم لم يكن مثلهُ من اوّل العالم حتى الآن ولن يكون. الشمس تظلم. والقمر لا يعطي ضوءهُ (متى ٢٤ : ٢١ و٢٩) - وقال على لسان حزقيال النبيّ: أكمدُ جميع انوار السمآء المنيرة (حزقيال ٣٢ : ٨) - حينئذٍ تتسلّح كلّ العناصر وتنهض على الخطاة. لانّ النار تكوّن في الجوّ نجومًا ذات ذنب تتساقط على الارض كحجارة ملتهبة وبصورتها وجلبتها ونتانتها ترعب كلّ الشعوب - واحدى هذه النجوم تُدعى افسنتين. لانّها تصيّر كل مياه الانهار والينابيع مرّة كريهة (رويا ٨ : ١١) - ثمّ انّ الهوآء يفسد. والبحر يثور ويفور. ويتجاوز حدودهُ ويبتلع اولئك الاشقياء. والارض تضطرب وتزلزل وتخسف تحت ارجلهم - واقول بالاجمال مع يوال النبيّ. انّ ذلك اليوم هو يوم الربّ يوم مخيف جدًا (يوال ٢ : ١٠ و١١) وأمّا صفنيا النبيّ فسمّى هذا اليوم يوم السخط والغضب. يوم الضيق والشدّة. يوم الخراب والدمار. يوم الظلام والقتام (صفينا ١ : ١٥) - قال هذا النبيّ لعجزهِ عن وصف هذا اليوم الاخير المخيف - وقال عاموس النبيّ: وبعدما اصنع بك هذه فاستعدّ للقآء الاهك يا اسرائيل (عاموس ٤ : ١٢) *

غير انّهُ قبل ان يظهر مجدهُ. النار قدّامه تسلك. وتحرق حولهُ أعداءهُ (مزمور ٢٦ : ٣). وتكون كسيلٍ ناريّ يطوف الارض ويغطّيها كلّها كما غطّتها مياه طوفان نوح - وهذه النار تحرق كلّ ما على الارض من المدن والقرى. بل انّها تتّقد في قلب الارض. فتذوب الصخور والمعادن كالشمع. وحينئذٍ تعلم الخطاة بطلان ما احبّوهُ على الارض *

انهُ بعد ان قتل دانيال النبيّ التنين الذي كان يسجد لهُ اهل بابل التفت اليهم وقال: ها هوذا من كنتم تعبدونهُ (دانيال ١٤ : ٢٦) فانظروا انهُ ما هو الاّ جيفة – فمثل هذا يمكن ان يقول الربّ الآن بعد هدم المدن وتلاف كلّ حطام الارض وجعلها رمادًا: ها هوذا الذي كنتم تعبدونهُ . هذا انقضاء غناكم وتنعّمكم وكبريائكم *

وبعد ان يكون العدل الالهيّ قد حرّك كلّ النعاصر الى القتال . يخرج هو كجبّار مقتدر (اشعيا ٤٢ : ١٣) – ومن يقدر ان يصف مجدهُ عند مجيئهِ . يا ما اخوف ما يكون ظهورهُ . قال عنهُ ملاخي النبيّ: من يحتمل يوم مجيئهِ (ملاخي ٣ : ٢) – انهُ لشدّة ما يكون مخيفًا كما قال الانجيل المقدّس: انَّ قوّات السماء ترتجّ وتضطرب (متى ٢٤ : ٢٩) اي انَّ القدّيسين انفسهم يرتعدون كما يحدث لمن يتطلّع من العلوّ الى لجّة عميقة اذ يرتجف مع انهُ في موضع امين . او لانهم اعني القدّيسين ولو كان ادراك عقولهم عظيمًا لا يستطيعون ان يدركوا غور احكام الله *

وبايّ سلاح يحارب الربّ الخطاة في يوم ظهورهِ المجيد المخيف: انهُ سيتسلّح على الخصوص بسلاحين وهما عزّة وجههِ . وصوتهُ المرعب – فلا ريب في ان عزّتهُ تكون عزّة تليق باقنوم الهيّ متقد بالغضب – انهُ لمّا انحدر الربّ من السماء على طور سينا ليسلّم شريعتهُ للشعب الاسرائيليّ . ظهر فيما بين البروق والرعود راكبًا سحابة ملتهبة وحولهُ ارواح سماويّة لا يُحصى عددهم – فان كان الله احبّ ان يظهر بهذه العزّة المخيفة حينما وضع شريعتهُ فما اخوف ما يكون ظهورهُ حينما ياتي ليدين مخالفي هذه الشريعة ويكتسي بثياب النقمة كما قال اشعياء النبيّ (٥٩ : ١٧) – على انهُ تعالى لم يظهر باقنومهِ على ذاك الجبل . انّما ظهر بشخص ملاك كان ينوب عنهُ تعالى ويتكلّم من قِبَلهِ – فما اعظم ما تكون عزّة الربّ الذي وهب خادمهُ مثل هذه العزّة . وقد قال الكتاب المقدّس انَّ ابن الله يظهر بعزّتهِ لا بعزّة مستعارة بل بالعزّة المختصّة بشخصهِ الالهيّ . ولهذا لا يُسأل

حينئذٍ من هو . العلهُ ايليّاء او ارمياء او يوحنّا المعمدان او واحد من الانبياء (متى ٢٥ : ٢١) لانهُ سيُعرَف الله حينئذٍ حينما يضع الاحكام (مزمور ٩ : ٧١) – انّ الخطاة لا يعرفونهُ الآن بل يستبين لهم الاه لا يبصر الاثم او لا يبغضهُ او كأنّهُ لا يشعر بما بهِ يُهان اسمهُ القدّوس . الاّ انّهم سيعلمون وقتئذٍ انّ الله يبغض الخطيّة بغضًا بليغًا . فيظهر ابن الله بجسدهِ الاقدس . قال اشعياء النبيّ . يخجل القمر وتَخزى الشمس اذا ملك ربّ الجيوش (اشعيا ٢٤ : ٢٣) . اي انّهُ في ذلك اليوم العظيم الذي اختارهُ الله يظهر مجدهُ . فانهُ يكون هذا المجد عظيماً حتّى انّ نور الشمس والقمر يضمحلّ او يذلّ ويحتسب كلا شيء *

ثمّ انّ مجدهُ هذا يزداد قدرًا بصحبة جميع الملائكة والقدّيسين . فان الملائكة يظهرون بطلعة منيرة ذات عزّة جليلة مهيبة مخيفة . فماذا تكون حينئذٍ افكار الخطاة امام هذا الجيش السماويّ المرهوب – ماذا تكون افكار الذين وضعوا قلوبهم ومحبّتهم في خيرات الارض وتغافلوا عن خيرات السماء – قال يوال النبيّ : انّهم يتعذّبون من مجرّد نظرهم الى وجه ربّ هذا الجيش (يوال ٢ : ٦) . بل انهُ تعالى بمجرّد نظرهِ اليهم يسقطهم على الارض مرتعدين مرتجفين . وهذا ما اشار اليهِ حبقوق النبيّ قائلاً : نظر فارخى الامم (حبقوق ٣ : ٦) – فماذا يكون من الخطاة اذا اسمعهم الله صوتهُ . لانّ الربّ كما قال النبيّ اعطى صوتهُ امام جيشهِ (يوال ٢ : ١١) – ولشدّة ما ترتعد الخطاة من غضب الديّان الالهيّ يتمنّون ان تقع الجبال عليهم بل ان يُزجّوا الى جهنّم . وكل منهم يقول ما سُطّر في سفر ايوب الصدّيق : يا ليتك تواريني في الهاوية وتسترني حتّى يجوز غضبك (ايوب ١٤ : ١٣) – ذكر العلماء انّ الباشق يرعب صنفاً من الطيور يقال لها العصافير رعبًا شديدًا حتّى انّها تزجّ نفسها في بئرٍ عميقة او اتون متّقد – فمثل هذا يتمنى ان يفعلهُ الهالكون ويختارون ان يُطرَحوا في اعمق اللجج لو أمكنهم بذلك ان ينجوا من الامتثال امام ربّ القوّات . وقد سلّ عليهم

سيف الانتقام - قال صاحب الجليان الويل للارض والبحر لانّ ابليس قد اتى بغضب عظيم (رويا ١٢ : ١٢) - فان كان الرسول يرثي هكذا لشقاء الارض لانّ الشيطان اتى بغضب عظيم . فما اشقى ما يكون حالها اذا اتاها لا الشيطان الذي لا يقدر من تلقاء ذاتهِ ان يفعل شيئًا . بل الله نفسهُ القادر على كلّ شيءٍ وهو متّقد غضبًا بمقدار ما كان في السابق حليمًا صبورًا - لانهُ بمقدار اطالة صبرهِ على الخطاة وتاخيرهِ الانتقام منهم . يكون حينئذٍ عقابهم وانتقامهُ تعالى منهم اشدّ وارعب - انّهُ تعالى كما قال بولس الرسول احبَّ ان يظهر غضبهُ ويعرّف قوّتهُ فاحتمل بكثرة الاناة آنية الغضب المستعدّين للهلاك (رومية ٩ : ٢٢) كأنّهُ يقول : انّ الله جمع كلّ امواج غضبهِ ليفيضها كلّها بغتةً على الخطاة القساة . فكيف يحتملون ثقل هذا الغضب الالهيّ غير المحتمل الذي لا نظير لهُ - لانهُ لا يكون حينئذٍ ممتزجًا بالرافة كما كان آنفًا حسب شهادة النبيّ : في الغضب أُذكر الرحمة (حبقوق ٣ : ٢) . لكن غضبهُ في يوم الدينونة يكون محضًا غير مقترن بالرحمة - وقد عنى الله ذلك لمّا اوصى هوشع النبيّ ان يسمّي احدى بنتيهِ لا رحمة (هوشع ١ : ٦) . لانهُ تعالى لم يكن ليرحم - وهذه الحقيقة قد اثبتها حزقيال النبيّ بقولهِ لكلّ كروب وجهان (حزقيال ٤١ : ١٨) . كان من احدى الجهتين وجههُ وجه انسان . ومن الجهة الاخرى وجه اسد - فاعلموا يا مباركين انّ هذا الكروب الرمزيّ كان صورة السيّد المسيح المتّصف بوجهين . لانّ لهُ وجه انسان انيس حليم وديع . وبهذ الوجه ينظر الآن الى الخطاة داعيًا ايّاهم الى التوبة بالرحمة والرافة . ولهُ ايضًا وجه آخر وجه اسد متّقد بالغضب . وبهذا الوجه يلتفت الى الخطاة في يوم الحشر - لا يهدأ غضبهُ بتضرّع الاشقياء . ولا يلين قلبهُ بدموعهم وصراخهم . بل انهُ تعالى كما قال هوشع النبيّ . يهجم عليهِ كالدبّة التي خُطفت منها أَجريتها ويشقّ باطن كبدهم ويفترسهم كالأَسد (هوشع ١٣ : ٨) - لو كان الخطاة يفهمون هذه الحقيقة لكفتهم ليرتدّوا

عن الخطيّة - كما حدث لشابٍّ كان غارقًا في حماة الرذائل . ولم تكن نصائح الاقرباءَ والكهنة تؤثّر فيهِ اصلاً. واذا بهِ في ليلة من الليالي رأى في الحلم سيّدنا يسوع المسيح جالسًا على عرش ملتهب ملتحفًا بعزّة لا تُدرَك . وكان حولهُ كلّ طغمات الملائكة محدقة بهِ تعالى - فالتفت ربّ المجد اليهم وقال لهم : من هو هذا الذي اراهُ . اهذا هو الشقيّ الوقح الذي يهين رحمتي وصبري عليهِ : فليتُبْ سريعًا بلا مهلٍ ولا ابطاءَ . والاّ فانّي احضرهُ عن قريب الى امام عرش مجدي وادينهُ واعاقبهُ بحسب افعالهِ - ولمّا قال هذا زالت الرؤيا . فانتبه الشابّ برعبة أثّرت فيهِ تاثيرًا شديدًا حتّى انّ شعر راسهِ تغيّر وابيضّ كشعر راس شيخ هرم وقد تغيّر معهُ قلبهُ ايضًا . ومن كونهِ خاطئًا وقحًا أصبح انسانًا تقيًا فاضلاً : وصنع بقيّة أيّام حياتهِ أصعب أفعال التوبة والسيرة القشفيّة - فمن هذا المثل تعلّموا يا مباركين كم يكون ذكر الدينونة الاخيرة مفيدًا للخطاة لينشلهم من لجّة الرذائل وكم يكون الامتثال امام هذا الديّان العظيم مرهبًا مرعبًا لدى الخطاة . اذ انّ مجرّد نظرهِ وتصوّرهِ في الحلم اثّر هكذا في جسد ونفس خاطىء مستغرق في وحل الشرور - انّهُ لو ساغ للهالكين لكانوا يقلعون اعينهم لئلاّ يبصروا هذا المنظر المخيف اعني الاهًا مقتدرًا مظهرًا اقصى الغضب ماسكًا في يدهِ سيف انتقامهِ . لا فرار منهُ ولا خلاص - الاّ انّهم سيبصرونهُ رغمًا وقهرًا . ولا يستطيعون ان يغضّوا اعينهم . بل تكون الحاظهم شاخصة فيهِ لا يمكنهم ان يحوّلوها عنهُ : ويصحّ فيهم ما جاءَ في الكتاب : سينظرون الى الذي طعنوهُ (يوحنا ١٩ : ٣٧) وسيسمعون صوتهُ فترتعد فرائصهم وتنقبض قلوبهم . وحينئذٍ يفهمون عظمة الخطيّة التي لا يريدون ان يفهموها الآن - هذا ما يجب عليكم يا مباركين ان تتأمّلوهُ جيّدًا لكي تفهموا شرّ الخطيّة غير المدرك *

فما ظنّكم بهذه النار الملتهبة بنفخة رجز غضب الله التي كما قال الرسول تحترق الارض وما فيها من المصنوعات (٢ بطرس ٣ : ١٠) - انّ الله يفعل

بالارض وبكلّ ما خلق فيها ما يفعلهُ قوم بأمتعة المطعونين اذ يطرحونها في النار لازالة الفساد المميت - لقد كان تعالى قد طهّر الارض بمياه الطوفان. ولانّها تدنّست ثانيةً برجسات الخطاة . فيريد الله ان يزيل هذا الفساد الجديد بطوفان جديد اكثر قوّةً وشدّةً لكي يبيّن كم يبغض الخطيّة ويمقتها *

اذا راينا قائد جيش لا يكتفي بعد انتصارهِ على اعدائهِ بان يسبيهم وينهب كلّ اموالهم . بل يامر بهدم كلّ مدنهم ومنازلهم واحراق حقولهم وامتعتهم . فاننّا ننتج من ذلك انّهُ يبغضهم بغضاً مميتاً . فلنتفلسفنّ هكذا عن الحريق الاخير الذي يمتدّ الى اقاصي الارض ويعمّ الافلاك العليا والسفلى - ايّ شرٍّ صنعت السموات والارض حتّى ينتزع منها كلّ حسنها . وها انّها لم تفعل شيئاً سوى انّها صارت مادّة او آلة استخدمتها الخطاة لفعل الشرّ . اي انّها صارت لهم سبباً اتّفاقيًّا ليخطأوا : السماوات بتاثيراتها . والشمس بنورها . والارض باثمارها وبحملها ايّاهم حين عصيانهم على الله - ولاجل هذا فقط حكم الله على كلّ هذه الخلائق ان تُحرَق وتفنى وان يصنع ارضاً جديدة وسموات جديدة سالمةً من فساد الخطيّة . وقصد بهذا ان يعلم العالم كلّهُ شدّة بغضهِ للخطيّة من حيث انّهُ بسببها ينتقم على نوعٍ ما من خلائق بريّة من الاثم ويلاشي الارض والعناصر والسموات لمعاقبة الخطاة المتمرّدين على عزّتهِ تعالى *

غير اننّا حتّى الآن لم نتكلّم الاّ عمّا يتقدّم المعركة واستعدادها - فاسمعوا الآن ما يحدث حينما يظهر ربّ الجيش في الميدان - فتصوّروا اوّلاً في الجوّ جميع الملائكة والقدّيسين جالسين على سُحُبٍ مضيّة متردّين بأجسام متلألئة افضل من الشمس . وتبصّروا تحتهم اسفل كلّ الشياطين والمغضوب عليهم لابسين أجساماً كثيفة هائلة منتظرين بغاية الخوف انتهاء هذا اليوم الاخير - فبعد ان تكون قد ترتّبت الامور هكذا يضع الله امام الخاطئ كلّ ما فعل من الشرّ وكلّ ما اهملهُ من الخير وكان ملتزماً بفعلهِ وكلّ ما صنع من الخير بنوع

ذميم - هذا ما يراهُ الخاطئ من احدى الجهات . ومن الجهة الاخرى توضع امامهُ وضدّهُ كلّ احسانات الله اليهِ . فيرى كلّ البلايا التي خلّصهُ تعالى منها . وكلّ الخيرات التي تفضّل عليهِ بها . وكل البركات التي وعدهُ بها واعدّها لهُ - فمن يقدر ان يفهم كم يحزن الخاطئ ويخجل من مقابلتهِ هذه الاحسانات الآلهيّة بخطاياهُ . انّهُ بهذه المقابلة سيعرف الخاطئ عظمة العزّة الالهيّة التي جهلها واهانها قبلاً - نعم انّ الله لمّا خلق البشر واعطاهم شريعتهُ وانحدر من السمآء ليعلّمهم بكلامهِ ويقوّيهم بسيرتهِ ويخلّصهم بسفك دمهِ . لم يقصد حينئذٍ سوى ان يظهر لنا رحمتهُ غير المتناهية وبغضهُ غير المتناهي للخطيّة - الاّ ان الخطاة لم يريدوا ان يسعوا في هذا المقصود الالهيّ . فمع انهُ عزّ وجلّ كان في العالم خالقًا ومخلّصًا اتّصلوا الى انهم ما عرفوهُ حسب كلام الانجيليّ : في العالم كان والعالم لم يعرفهُ (يوحنا ١ : ٤) . كانّهُ لم يكن قد خلقهم وخلّصهم *

غير انّ هذا الظلام الكثيف والجهل المهلك يضمحلّ اخيرًا لخزي الهالكين ولمجد الباري تعالى الذي جهلوهُ بذنبهم وأسخطوهُ بقحة غير محتملة . وذلك سيكون اوّلاً بكشف جميع الخطايا جهارًا . ثانيًا باظهار عظمة شرّ خطاياهم اظهارًا جليًّا - اننا الآن نجهل اشياء كثيرة لعدم وجود النور الواجب . واما عين ابن الله التي هي كلهيب النار فلا يخفى عليها شيءٌ . وبنورهِ وبعلمهِ يظهر كلّ شيءٍ . وبضوءِ وجههِ يضع آثامنا امامهُ (مزمور ٨٩ : ٨) - فايّما خجل يستحوذ عليهم اذا شهر الله كلّ قبائحهم الخفيّة واراها امام الجميع - كانوا يظنّون بهِ تعالى انهُ كان عن شرورهم متغافلاً . لانهُ كان يؤخّر عقابهم . الاّ انهم في يوم الدينونة سيعلمون انهُ كان يطّلع عليهم ويعدّ كلّ ذنوبهم . وفضلاً عن انهُ سوف يظهر عدد خطاياهم سيظهر ايضا عظمة شرّها وخباثتها - فالخاطئ الآن جالس في لجّة الظلام . وقلبهُ ادهى كلّ شيءٍ وهو عقام ومن يعرفهُ كما قال النبيّ (ارميا ١٧ : ٩) . لا يعرفهُ غير الله - واما في يوم الدينونة فيبدّد الله هذا الظلام ويشرق

نورًا في وسط قلب الخاطئ. بهِ يرى تفاقم شرّ الخطيّة الذي كان يستخفّ بهِ سابقًا ويحسبهُ كلا شيء. ويراه كما هو ويحكم عليهِ بحسب حكم الله نفسهِ. لانهُ تعالى يؤتي الخطاة نور حكمتهِ. وبهذا النور الفائق يرون الاثم على ما هو وذلك بمقابلتهم اياهُ بجلال عزّة الله المهان وبدناءة الانسان المهين - ومن يقدر ان يوضح كم يخزى الخاطئ حينئذٍ من قبل هذه المعرفة - وهذا الخزي لن يكون وقتيًّا بل يدوم في قلب الخاطئ الى دهر الداهرين *

فماذا يفعل الخطاة الحاصلون على هذا الحال الموجع اذ تكون ممتلآت وجوههم من الخزي وقلوبهم من الحزن والقنوط. لا اعتذار لهم ولا ملجأ - فيا ليتهم يقدرون ان يهربوا: نعم انَّ الله ياذن لهم بالهرب. وليس ذلك فقط بل يلزمهم بهِ ايضًا - الاّ انهُ قبل ذلك ينبغي ان يسمعوا صوت الديّان المرهوب وحكمهُ الاخير عليهم بالهلاك الابدي. فيصرخ ابن الله نحوهم قائلاً: اذهبوا عنّي يا ملاعين الى النار المؤبّدة (متى ٢٥ : ٤١). فيهرب حينئذٍ الخطاة من الانتهار الالهيّ. ويجفلون من صوت رعدهِ (مزمور ١٠٣ : ٧) - لانّهم سيفهمون كلّ معنى هذا الحكم وكلّ عظمة العقاب المحكوم بهِ عليهم - فانّ هذا الحكم يتضمّن كلّ عقابات الهالكين. لانّ هذه الكلمات الاولى وهي اذهبوا عنّي معناها العقاب المدعوّ عقاب الخسران. والكلمات التالية وهي الى النار المؤبّدة. تدلّ على عقاب الحسّ. فكانهُ تعالى يقول للهالكين. اذهبوا عنّي انا الاهكم ومبداكم وغايتكم القصوى. اذهبوا عنّي انا مخلّصكم الذي من اجلكم ومن اجل خلاصكم صرتُ انسانًا ولم ازل في زمن تردّدي على الارض اظهر لكم غزارة محبّتي. وبذلتُ عنكم حياتي واخترت موت الصليب لكي انجّيكم من الموت الابديّ واربح لكم حيوةً وسعادةً ابديّة - اذهبوا عنّي لانكم قد سقطتم عن محبّتي ورؤيتي وملكوتي - اذهبوا عنّي وعن الذين معي. اذهبوا عن جماعة الملائكة والقدّيسين وعن ملكتهم والدتي المجيدة. اذهبوا عنّي يا ملاعين نفسًا وجسمًا الى ابد الآبدين - احببتم اللعنة فأتتكم

ولم تشاؤوا البركة فتباعدت منكم (مزمور ١٠٨ : ١٨) - اذهبوا اذهبوا والى اين تذهبون. اذهبوا الى النار المؤبدة - انّي انفيكم عنّي وعن ملكي. لا لكي ترجعوا الى الارض وتتنعموا فيها كما كنتم قبلاً. بل أنفيكم وابعدكم عنّي لكي تمكثوا الى الابد في سجنٍ حيطانهُ وحضيضهُ وسقفهُ وهواؤهُ وامتعتهُ كلّها نار تحيط بكم. وتنفذكم وتحرقكم الى الابد بلا فتور ولا ملل - هذا ما سيفهمهُ المغضوب عليهم حينما يجزم الله عليهم بحكمهِ الاخير *

ذكر الكتاب المقدَّس انهُ لمّا فرغ موسى النبيّ عن مخاطبة قورح وداثان وابيروم الاثمة انفلقت الارض تحتهم وابتلعتهم - فهذا نفسهُ سيحدث في اليوم الاخير. لانّهُ بعد ان ربّ الكلّ يكون حكم على الاشرار بالموت الابديّ يتشقّق وادي يوشافاط فيزُجّ جميع الهالكين الى لجّة جهنّم. بل انّهم كما قيل في الانجيل المقدَّس يذهبون هم من ذواتهم الى العذاب الدائم (متى ٢٥ : ٤١) : لا يحتاجون ان يزجّهم احد في دركات جهنّم. لانّهم يسقطون من تلقآء انفسهم بثقل آثامهم. كما انّ الحجر بثقلهِ وبذاتهِ يسقط الى اسفل - فيذهبون الى المكان المعدّ لهم. الى جهنّم مركز الخطيّة. واذ تفتح الارض فاها يزجّون انفسهم في السجن الذي هو اسفل ما يكون وابعد ما يكون من السمآء. لانّهم فضّلوا الارض على السماء. والجسد على النفس. والزمنيّ على الابديّ - ويا لها من ضوضاء وضجيج وولاول وصرير ترافق القضاء الالهيّ *

اسالكم الآن يا مباركين ما ظنّكم بانتصار الله هذا على الخطاة وعلى الخطيّة: من منكم فيما بعد يريد ان يتجنّد تحت رايتهم ليحارب ابن الله: انفصلوا منهم عاجلاً. واحذروا من الابطآء - انّ الآن اوان الرحمة وزمن الغفران. الآن يدعوكم الله الى التوبة. الآن يمدّ لكم يد الرحمة. الآن يفتح لكم احشآء المحبّة - اغتنموا الفرصة المقدَّمة لكم للخلاص. لانّهُ ها هوذا ياتي وقد اقترب اليوم العظيم الاخير. يوم الانتقام والغضب والهلاك. وكما قال النبيّ يوم الربّ الاه الجنود

يوم نقمة لينتقم من اعدائهِ فياكل السيف ويشبع ويروَى من دمائهم (ارميا ٤٦ : ١٠) - فاهربوا اذًا من وجه السيف كما قال ايوب البار. لانّ الله بالسيف ينتقم من الخطايا (ايوب ١٩ : ٢٩) - اجعلوا بالتوبة ان يكون لكم ذلك اليوم يوم الدينونة . يوم عزآء ومجد وابتهاج تملكون فيهِ حياة ابديّة. آمين *

الموعظة الرابعة والاربعون

في انّ عذاب جهنّم يظهر لنا عظمة الخطيئة المبينة

انّهُ من جملة المخترعات المختلفة التي اخترعها ديونيسيوس الملك المغتصب سجن بناهُ بصورة اذن فيهِ ثقب صغير بهِ كان يستطيع ان يسمع كلام المسجونين وصراخهم وتذمّرهم - فيا ليت السجن الجهنّمي كان مبنيًا على هذا الاسلوب لكي يستطيع كلٌّ منّا ان ينصت ويسمع ولاول الهالكين وانتحابهم فنعتبر ونجو من هذا السجن الجهنّمي - غير انَّ الايمان يغني عن ذلك اذ يخبرنا عمّا يخصّ هذا المكان الشقيّ مركز كلّ الشرور والبلايا تخبيرًا افضل توكيدًا من جميع ما يمكن ان تخبرنا عنهُ حواسنا وتوكّدهُ - فيجب اذًا علينا ان نركن الى شهادتهِ ركونًا تامًّا - وقصدتُ انا اليوم ان اشرح لكم مصرّحًا ومفصّلاً ما يخبرنا بهِ الايمان عن عذابات جهنّم ليجعلكم الله يا مباركين ان تستفيدوا من اقتصاص هذا الخبر المهول ويصيّركم ان تبغضوا الخطيّة بغضًا حقيقًا اذ تتصوّرون انّهُ لاجلها خلق الله جهنّم واخترع هذا العذاب قصاصًا عنها *

قال سيّدنا يسوع المسيح لهُ المجد عمّن رذل ناموسهُ الالهيّ وتعدّاهُ . انّهُ لا يعاين الحيوة بل يحلّ عليهِ غضب الله (يوحنا ٣ : ٣٦). وعنى تعالى بكلامهِ هذا اشدّ

عذابات جهنّم اعني عذاب الخسران وعذاب الحسّ - هذا ما اخذنا ان نشرحهُ لكم. ولنبتدئنّ ببيان العذاب الثاني وهو عذاب الحسّ *

انّ من الموكّد يا مباركين ما قالهُ ربّ الكلّ عن جهنّم. وهو انّهُ هناك يسكب على الهالك كلّ غضبهِ. وانّ هذا الغضب الالهيّ يستقرّ فيهِ ثابتًا - هلمّ يا أيّها المومنون وانظروا ما اعجب وارهب عدل الله في معاقبتهِ الهالكين - قال تعالى على لسان حزقيال النبيّ ستعلمون انّي انا الربّ الضارب (حزقيال ٧ : ٩). وينتج من هذا انّ عذابات الخطاة في جهنّم تكون على نوعٍ ما عذابًا غير محدود. اذ انّهُ بهِ يريد الله ان يعرف كلّ احدٍ عدلهُ الغير المتناهي وانّهُ من بغضهِ غير المدرك للخطيّة ينتج جلال قداستهِ التي هي فوق كلّ قياس وتقدير. على انّهُ يجب ان تكون افعال عدل الله وبقيّة كمالاتهِ مناسبة مطابقة لهذه الكمالات الالهيّة. وان يُعرَف بها انّ الله هو مصدرها - وكما انّهُ تعالى اظهر قدرتهُ ورحمتهُ الغير المتناهية بافعال ومعجزات تفوق ادراك البشر. هكذا يظهر عدلهُ غير المحدود باحكام اي عذابات غير مدركة غير متناهية - ثم انّهُ لاجل سبب آخر يجب ان تكون عذابات جهنّم مناسبة مطابقة لعظمة العدل الالهيّ وهو الذي قصدهُ الله في معاقبتهِ الهالكين قصدًا خصوصيًا. وهو ان يكفّر بمعاقبتهم عمّا حصل لمجدهِ من الضرر بخطاياهم - فيا ما اعظم ما يكون العذاب الذي يكفّر بهِ عن اسخاطهم ربوبيّة الله وقداستهُ وجودتهُ وبقيّة كمالاتهِ غير المحدودة *

انّهُ لايمكننا ان نعلم عظمة عذاب جهنّم الّا بان نقيس عمق الكمالات الالهيّة وعلوّها وعرضها واتّساعها غير المتناهي. وهو فوق طاقتنا لانّهُ قد علمتم يا مباركين انّ شرائع العدل البشريّ تقضي على من يهين احدًا من الناس ان يزداد عقابهُ مقدارًا بمقدار ما يزيد المهان شرفًا على المهين - فاذا تجاسر رجل فلّاح ان يلطم فلّاحًا آخر يكون عقابهُ خفيفًا ايّ انّهُ يقاصَص مثلًا بالسجن زمانًا يسيرًا - واذا لطم رجلًا شريفًا من حواشي الملك يزداد عقابهُ ايضًا عذابًا

لا محالة. ولكن اذا اتّصل الى هذا الحدّ من الجسارة والقحة حتى انهُ لطم الملك نفسهُ. افليس يُحكَم عليهِ باشدّ الميتات – فعلى موجب هذا القياس احكموا ماذا يكون عقاب خليقة دنيّة شقيّة خائنة تجاسرت واهانت مجد الله بوقاحة غير محتملة – ماذا يكون العقاب لمن اسخط بخطاياهُ ربّهُ ومولاهُ وسيّدهُ الذي يستحق ان تعبدهُ وتمجّدهُ كلّ الخلائق – قال صاحب المزامير: اشكرك عجيبة هي اعمالك ونفسي عرفت ذلك (مزمور ١٣٨ : ١٤). وقال موسى النبيّ: يمينك يا ربّ معتزّة بالقوّة … وبكثرة عظمتك هدمت مقاوميك (خروج ١٥ : ٧) – هكذا يتمجّد الله بعقاب الاشرار. لانّهُ بشدّتهِ وابديّتهِ يعرف كم اسخطوا العزّة الالهيّة. وكم كان يجب عليهم ان يطيعوا اوامرها *

ثمّ انهُ اذا تأمّلنا عذاب جهنّم نظرًا الى الآلة التي يستخدمها الله لمعاقبة الخاطئين. ولاحظنا قوّة اليد التي تضربهم. نعلم من ذلك جليًّا عظمة جراحاتهم – فالآلة التي يستعملها الله لمعاقبة اهل جهنّم. هي النار التي تشبهُ سيفًا مسنونًا بغضب الله يتّقد كالبرق ويضرب كالصاعقة – فلا يختلج في فكركم يا مباركين انّ نار جهنّم هي نظير النار التي تضيءُ لنا ونصطلي عليها ونستخدمها في اشياء كثيرة. كلّا. لانّ هذه النار خُلقت لمنفعتنا. وامّا نار جهنّم فقد خُلقت للتعذيب – فان كانت النار العنصريّة موءلمة جدًّا مع انها عطيّة لنا من كرم الله فكم تكون اكثر الما نار جهنّم التي هي نفخة غضب الله – اعتبروا يا مباركين انّ هذه النار الجهنميّة لها ثلاث صفات تصيّرها مرعبة. اعني كميّتها. وكيفيّتها. وحدّة فاعليّتها – امّا الصفة الاولى فقد علمنا بالتجربة انهُ كلّما اتّسع الاتون زاد لهيبهُ. والحال انّ اتون جهنّم لا بدّ من ان يكون متّسعًا جدًّا لكي يسع الهالكين الذين لا يُحصَى عددهم. وهذا الاتون كلّهُ يكون ممتلئًا نارًا تحرقهم كذبائح مقدّمة للعدل الالهيّ كفّارةً عن الاهانة الملحقة بمجد الله – فماذا تكون قوّة هذه النار العجيب اتّساعها المرهوب علوّها *

وزيدوا على ذلك الصفة الثانية التي لهذه النار اعني كيفيّتها - قد اخترعت العلماء نارًا صفتها انها تشتعل في وسط المياه ولا تنطفئ. الّا انّ هذه النار ونار اعظم الاتاتين اذا قُوبلت بنار جهنّم ليست سوى نار تبن. لانّها اي نار جهنّم هي نار لم يصنعها البشر بل هي نار قد صنعتها حكمة الله بحركة عدلهِ لتعذيب الهالكين الى ابد الآبدين - ثمّ انَّ الذي يجعل هذه النار اكثر قوّة هو صفتها الثالثة اعني حدّة فاعليّتها الصادرة من سدّ المكان الذي تحترق فيهِ. فمن حيث انّ هذا الاتون مسدود من كلّ جهة لا يزال اللهيب مرتفعًا نازلًا دائرًا نافذًا اجسام الهالكين من كلّ ناحية بكلّ شدّة *

فما ظنّكم يا مباركين بهذا السيف الملتهب يا ما ارهبهُ في يد الربّ المتسلّح بهِ. لانهُ تعالى جعل لهذه النار قوّة فائقةً كلّ قوّة طبيعيّة. لانهُ ولو انّ نار جهنّم ليست مختلفة نوعًا من نارنا العنصريّة. الّا انّ الاختلاف ما بين النار المحرَّكة من الطبيعة وبين هذه النار المحرَّكة والمستعملة من الله هو نظير الاختلاف الموجود بين سيف في يد امرأة وبين هذا السيف في يد رجل جبّار - فليس لنا ان نتعجّب من انّ هذا السيف الملتهب الذي تضرب بهِ ذراع القدير يفعل ما يفوق ادراكنا - ولهذا لمّا قال الله انّي سننتُ سيفي كالبرق. استتلى قائلًا انّي وضعتُ هذا السيف في يد عدلي. لانّ هذا السيف يستمدّ اخصّ قوّتهِ من يد ماسكهِ - وعلى حسب هذا المعنى قال مار توما اللاهوتيّ انّ عدل الله يستعمل هذه النار كآلةٍ لتعذيب الهالكين. والآلة تتّخذ اخصّ قوّتها ممّن يستعملها - فمن اجل هذا السبب تختلف مفعولاتها من مفعولات نارنا. لانّ هذه تتعلّق بالاجزاء الخارجة قبل ان تنفذ في الاجزاء الباطنة. وتؤثّر قوّتها في الاجزاء الخارجة اكثر ممّا تؤثّر في الاجزاء الباطنة. ثمّ انّها من بعد ان تؤثّر في الجسد يزول تاثيرها فيهِ او ينقص ويخفّ المهُ بالتمادي - وامّا نار جهنّم المتحرّكة بحسب قصد قدرة الله الفائقة. فانّها تصدر كلّ حماوتها في الباطن

والخارج معًا. ولا ينقص تألّم الاجزاء التي تحرقها. بل يجعلها ان تشعر بهِ دائمًا على حدٍ سوى وتحفظ ما تبتلعهُ. وتحيي ما تميتهُ لكي لا يزال الهالك معذّبًا كقول يهوديت. الربّ يجعل لحومهم للنار والدود. فيحترقون ويتعذّبون الى الابد (يهوديت ١٦: ٢١) – ولهذا شبّه السيّد المسيح الهالك بذبيحة مملّحة بالنار (مرقس ٩: ٢٨). لانّ النار تكون لدى الهالك بمنزلة ملح. فكما انّ الملح يسري في اللحم الذي يُرشّ عليهِ ويحفظهُ من الفساد. هكذا النار الجهنميّة التي تسري في اجسام الهالكين تحفظها من الفساد *

وما عدا ذلك فانّ نارنا العنصريّة تحرق الجسد فقط لا النفس. نعم انّ النفس تتعذّب بها. الّا انّ سبب تألّمها هو اتّحادها مع الجسد. لا فعل النار فيها راسًا – واما في جهنّم فليس الامر كذلك. لانّ الله بتوفيقٍ فائق الطبيعة يرفع النار الى ما يفوق طبعها لتكون آلة انتقامهِ. وحينئذٍ يتّصل فعلها الى النفس ويحرقها راسًا ويؤلّمها اكثر من الجسد لانّها اعني النفس هي سبب خطايانا الاوّل والاخصّ. ومن ثمّ تستحق عقابًا اشدَّ – غير انّ هذه النار ولو انّها تحرق اجسام جميع الهالكين. الّا انها تؤلّمها على نوعٍ مختلف من حيث انّها تحرقها وتؤلّمها بحسب عدد خطايا المذنبين وعظمتها. ولهذا دعاها الآباء القدّيسون نارًا حكيمةً لانّها لا تحرق ولا تعذّب بلا تمييز مثل نارنا التي تؤلّم الشهيد والاثيم على نوعٍ واحد. بل انَّ نار جهنّم تفرز الكثيري الآثام من الذين هم اقلّ ذنبًا. وتوافق العذاب مع المعصية – واقول بالاجمال انّها تسعى في تعذيب الخطاة كما يليق بآلة يستعملها الله لغاية عظيمة. اعني مجدهُ الذي يجب عليها ان تنتقم لهُ بنوعٍ يليق بعزتّهِ تعالى *

ففي وسط هذه النار يسكن الهالكون الى الابد. وهذه النار المرعبة بذاتها المخوفة بصفاتها الفائقة التي جعلها الله فيها تكون الى ابد الدهور مسكن الهالك وكسوتهُ وفراشهُ ولحافهُ ومتاعهُ. وستتّحد بجسدهِ وتحرقهُ هو والنفس حتّى انهُ من

المستحيل ان يتميّز الهالك من النار او النار من الهالك*

ذُكر في تواريخ رهبانيّة القدّيس برنردس انّ رئيساً من رؤساء هذه الرهبانيّة بعد وفاتهِ ظهر لخليفتهِ ووجههُ مبلول بالدموع. فسأله عن سبب ذلك فقال انّي ابكي لانّي لا احترق. والالم الذي اشعر بهِ لا يوصف وان اردتَ ان تفهم قليلاً من الكثير فخذ هذا شمعدان النحاس الذي على مائدتك وضعهُ في هذا الاناء المملوّ ماءً – ولمّا فرغ من التكلّم بلّ الميت يدهُ في الماء فذاب الشمعدان حالاً كشمع ليّن موضوع في وسط النار*

قال النبيّ: من منكم يقدر ان يسكن مع هذه النار الآكلة. من منكم يقدر ان يلبث في المواقد الابديّة (اشعيا ٣٣ : ١٤) – انّ الانسان العاقل قبل ان يضع حملاً ثقيلاً على كتفيهِ يجرّب نفسهُ اوّلاً ويقيم الحمل من الارض قليلاً. فافعلوا هكذا: اختبروا هل تستطيعون ان تحتملوا ثقل هذه النار نار الغضب الالهيّ – لو كانت اجسامكم كلّها من نحاس لما قدرت ان تحتمل منها شرارةً واحدة. فماذا يصير اذًا من هذا الجسد الناعم المحبّ اللّذة المشمأزّ من كلّ الم والمعتاد على التنعم – قال النبيّ: لا تحتقر بلحمك (اشعيا ٥٨ : ٧) – فان كنت لا تشفق على نفسك لانّك لا تعرف شرفها. فارحم على الاقلّ جسدك الذي توجّه اليهِ كلّ اعتبارك وحبّك وهمّك. ونجّهِ من هذا العذاب غير المحتمل. ولا تلقهِ في هذهِ النار الآكلة *

انّ كلّ ما ذكرناهُ الى الآن عن عذاب جهنّم ولو كان عظيماً فانّ ثمّ عذابًا اعظم منهُ جدًّا جدًّا. وهو عذاب الخسران وفقد مشاهدة الله والتمتّع بهِ. وهو العذاب الذي عناهُ ربّ المجد بقولهِ عن الهالك انّهُ لا يعاين الحيوة. وان غضبهُ تعالى يحلّ عليهِ ويستقرّ فيهِ الى الابد (يوحنا ٣ : ٣٦) – وهذا العذاب اي فقد مشاهدة الله عظيم اعظم ما يكون. حتّى انّ كلّ نيران جهنّم هي كلا شيءَ بالنسبة اليهِ. كما قال يوحنّا فم الذهب – وذهب مار توما اللاهوتيّ انّهُ عندما

بحكم ابن الله على الهالكين بالهلاك الابديّ. يظهر لهم اشعّة يسيرة من وجههِ الالهيّ. وبها يعرفون معرفة خارقة سامية عظم الفرح والسرور الذي كانوا حصلوا عليهِ على الارض لو حفظوا اوامرهُ - فهذا الفكر اي معرفتهم بعظم خسارتهم وعلمهم بسعادة القدّيسين تسبّب لهم حزنًا واياسًا وكمدًا غير مدرك. فاذا راوا ذلك فكما قال الحكيم يضطربون بخوف شديد (حكمة ٥ : ٢) - وهذا العذاب الذي هو اعظم كلّ عذابات جهنّم يتوقّف على انفصال النفس من الخير الاعظم اذ تُحرَم من المشاهدة الالهيّة. لانّ الله يهمل الهالكين كلّ الاهمال كأنّهم ليسوا اعمال يديهِ. فيرذلهم قائلاً ما سُطّر في سفر هوشع النبي. انّكم لستم أُمّتي وانا لستُ لكم (١ : ٩) - فيا لشقاء الهالكين حينما يخسرون كلّ خيرٍ ويحلّ عليهم كلّ شرّ *

انهُ كان يمكن ان يتعزّوا يسيرًا لو كان يمكنهم ان يرجوا انقضاء عذاباتهم بالموت. الاّ انّ الموت هناك غير قابل الانتهاء. ويقول كلّ هالك: ويلي قد باد انتهائي لستُ اجد سمّ العطب (حكمة ١ : ١٤) - وقال صاحب الجليان انّ الهالكين يتمنّون الموت. والموت يهرب عنهم. يطلبون الموت ولا يجدونهُ. لانّ الله يقفل باب سجن جهنّم بمفتاح الابديّة. والمسجونون هناك لا يجدون لاوجاعهم نهاية او علاجًا الى الابد. وهذا المفتاح يحفظهُ ابن الله ولا يسلمهُ لاحد لانّهُ قد قال. انّ معي مفاتيح الموت والجحيم *

ومن ذا يفهمنا معنى لفظة الى الابد - ذهب الاب انطونينس انّهُ لو نال الهالك ان يموت بعد مكابدة عذاباتهِ مدّة سنين يوازي عددها عدد نقط مياه البحر وحبوب رملهِ. لقبل الموت بفرح واحتسبهُ احسانًا عظيمًا. الاّ انهُ لن يسمع ابدًا هذه البشارة المبهجة. ولا يزول عذابهم الاّ اذا امكن ان يزول الله - هذه هي الابديّة التي تزيد عذابات جهنّم زيادةً لا توصَف ولا تُدرَك. لانّ الهالكين لا يبرحون مفتكرين في انّ كلّ ما قاسوهُ من العذابات منذ السنين العديدة لا ينتهي ولا يخفّ - يتمنّون دائمًا بتحرّق ما لا يمكنهم ان ينالوهُ اصلاً. ويبغضون

دائمًا ما لا يقدرون ان يفرّوا منهُ . ويصعد دخان عذاباتهم الى دهر الداهرين (رويا ١٤ : ١١) *

هذه هي حال جهنّم . بل انّ كلّ الذي قلناهُ عنها لا يقارب شدّة عذاباتها . لانّها لجّة شرور اعظم جدًّا من كلّ وصف وادراك بشريّ - قال الملاك ليوحنّا : تعال فاريك دينونة الزانية (رويا ١٧ : ١) اي دينونة النفس الخاطئة - فتعالوا انتم ايضًا يا مباركين وتفرّسوا في عذابات جهنّم . هناك يرينا الله تفاقم شرّ الخطيّة المميتة - هذا ما ينادي بهِ الهالكون بلسان الحال حال كلّ الشرور وشرور مؤبّدة - لانّهُ كما قال مار توما اللاهوتيّ لو كانت الخطيّة زلّة خفيفة وشرًّا دنيًّا ونقيصة زهيدة كما يظنّ بها الاكثرون . هل كان الله اضرم جزاءً بها هذه النار الهائلة . اذ انّهُ تعالى هو الحكمة بالذات ولا يمكن ان يجزي بالخطيّة عقابًا اعظم من الذي تستحقّهُ - وما عدا ذلك فانّهُ هو الجود بالذات . ويعاقب دائمًا اقلّ ما يستحقّهُ المذنب - وبالنتيجة فكلّ عذابات جهنّم المذكورة ولو كانت كثرتها وصرامتها فائقة ادراكنا فانّها لا توازي عظمة شرّ الخطيّة - ويجوز ان نقول عن الهالك انّ الله يعاملهُ برحمةٍ كقول النبيّ : انّ الله لا يحبس برجزهِ رافتهُ (مزمور ٧٦ : ١٠) - لانّهُ ولو انّ الرحمة لا تمنع عدل الله عن ان يعاقب عن الخطيّة الهالكين . الّا انّها تصدّهُ عن معاقبتهم بحسب استحقاقها *

افهمتم هذا يا مباركين . افهمتم ما هي الخطيّة التي تلزم من هو الجود والرحمة بالذات ان يعاقب عنها بالعذاب المتقدّم ذكرهُ - قال هوشع النبيّ : لتجازَينّ السامرة لانّها قد تمرّدت على الاهها (هوشع ١٣ : ١٦) . فكانّهُ يقول انّ الخاطئ يستحقّ ان يهلك ويتعذّب الى الابد بعد انّهُ بشرورهِ احال عذوبة رحمة الله الى مرارة - ولقد اصاب اشعياء النبيّ حيث تعجّب من انّ الانسان يجسر ان يخطئ وغضب الله يتوعّدهُ (اشعياء ٦٤ : ٥) - فهل يمكن لأحدٍ منّا

ان يخطئ او ان يستمرّ في حال الخطية بعد ان سمع ما ذكرناهُ من العذابات الجهنّميّة المعدَّة للخطاة - انّي اجسر ان اقول عن مثل هذا ما قالهُ السيّد المسيح انهُ هو مَدِين لا يعاين الحيوة (يوحنّا ٣ : ١٧) - بل انّ غضب الله قد حلّ عليهِ ويستقرّ فيهِ ثابتًا (يوحنّا ٣ : ٣٦) - على انّ من يؤمن بهذه الحقائق ويستجري ان يخطئ مع ايمانهِ بها. يستحقّ ان يُدان ويهلك هلاكًا ابديًّا - فخافوا اذًا يا مباركين من الخطيّة خوفًا بليغًا فانكم بهذا الخوف تنجون من جهنّم وترثون ملكوت السماء . آمين *

الموعظة الخامسة والاربعون

في الفردوس السماويّ وفي بيان شرّ الخطيّة المميتة اذ تخسّرنا هذا النعيم الابديّ

انَّ الذي صنعهُ ادريانس الملك باليهود بعد ما قتلوا السيّد المسيح هو امر مستغرب جدًّا . وذلك انهُ بعد ما فتك بهم وقتل اكثرهم وهدم اكثر مدنهم اراد ان يمنعهم من ان يعودوا الى بنائها فأخرجهم من وطنهم واوصاهم بوصيّة شديدة وتحت عقاب شديد ان لا يرجعوا الى اورشليم بل ان لا يطّلعوا عليها من بعد. وان لا يصعدوا الى الجبال التي منها يستطيعون ان يبصروها - فمثل هذا يصنع الشيطان بالخطاة . لانهُ أَخزاهُ الله بعدما ينزع عنهم حقّهم على رؤية اورشليم السماويّة . لا يكتفي بان يسدّ عليهم الطريق المؤدّية اياهم الى وطنهم السعيد بالافعال الصالحة . بل يصدّهم ايضًا عن ان يلحظوهُ بالايمان الحيّ وحسن التأمّل - أمّا انا فقد قصدتُ اليوم ان اريكم جمال هذه المدينة المقدّسة التي لا يمكن للانسان ان يصف عظمة غناها وجزيل بهائها - الاّ انّي ارجو انّ الذي اقولهُ عنها يكفيكم لكي تفهموا من الجهة الواحدة عظمة الخيرات غير المتناهية المعدّة لكم في السماء . ومن الجهة الاخرى عظمة الشرور المسبّبة من الخطيّة المميتة اذ تصيّرنا ان نرتضي بفقد خيرات عظيمة ابديّة لاجل اكتساب خيرات حقيرة زائلة *

انّ المعلّمين اللاهوتيّين لمّا تكلّموا عن السعادة الابديّة قالوا . انّهُ يجب ان نعتبر فيها ثلاثة اشياء : اوّلاً موضوع هذه الغبطة . ثانياً القوّة التي تشعر بها . ثالثاً كيفيّة الشعور بهذا الموضوع الذي يجعلها سعيدة - هذا ما نعتبرهُ الآن لكي نفهم جيّداً غبطتنا الابديّة . اعني حقيقة الخير الذي هو موضوعها واتّساع القوّة التي تشعر بهِ ونوع تمتّعها بهِ - انّ الموضوع هو عظيم . والقوّة هي سامية . والتمتّع هو فائق - فنقول :

انّ موضوع غبطتنا الجوهريّ هو الله نفسهُ حسب قولهِ تعالى لابراهيم البارّ . انا اجرك العظيم جدًّا (تكوين ١٥ : ١) - فالخير الذي فيهِ قائمة سعادة الله تتوقّف عليهِ سعادتنا . وان جاز ان اقول قلتُ اننا سنكون على نوعٍ ما جلوساً معهُ جلّت اسماؤهُ على مائدة واحدة . ويكون ماكلنا ومشربنا ماكل الله ومشربهُ حسب قول السيّد المسيح . انّي اعدّ لكم الملكوت كما اعدّهُ لي ابي لتاكلوا وتشربوا على مائدتي (لوقا ٢٢ : ٢٩) - نعم انّ الطوباويّين لايتمتّعون بهذا الموضوع نظير ما يتمتّع الله بهِ تمتّعاً تامًّا كاملاً . الاّ انهم يتمتّعون بالموضوع الذي فيهِ قائمة غبطة الله الغير المتناهية - فيا لعظمة الايمان المسيحيّ الذي يرينا هذه الخيرات السامية . ويا لسعادة الرجاء المسيحيّ الذي يتوقّعها . ويا ما اعظم قوّة المحبّة المسيحيّة التي تستحقّها وتبلّغ اليها *

انّهُ لكي يتّضح سموّ هذه الغبطة العليا يكفي ان نقول شيئاً واحداً . وهو انّ انفسنا تحيا فيها حياة تشبه حيوة الله . وتذوق اللذّات غير المدركة التي يتنعّم لها الثالوث الاقدس - وعن هذهِ الغبطة قال صاحب المزامير انّ القدّيسين في السماء يروون من دسم بيت الله . لانّهُ يسقيهم من وادي لذّاتهِ (مزمور ٣٥ : ٩) - اسألكم يا مباركين ما الذي صنعهُ الله في ازليّتهِ كلّها . انّهُ صرف كلّ هذا الزمان في رؤية ذاتهِ . وتأمّل كمالاتهِ وحبّها والاستلذاذ بها - فان كان الله قد امكنهُ ان يشبع نفسهُ من السرور بكلّ الملء مع انها تبتغي سروراً

غير متناهٍ . افما يشبع قلب البشر من السرور - انّ الالوهيّة هي بحرٌ عظيم عميق حتى انهُ لو اراد الله ان يكشف كمالاتهِ للطوباويين واحدة فواحدة لامكنهُ ان يقدّم لهم في مدّة غير متناهية من الدهور موضوعات جديدة يندهشون منها دائمًا . فماذا يكون اذا راوا جملةً ومعًا دائمًا معدن كلّ الخيرات الممكن وجودها *

من يقدر ان يدرك هذا . ومن يستطيع ان يصفهُ باللسان - اعلموا يا مباركين انّ اعظم ما يمكننا ان نقولهُ ونتصوّرهُ عن الفردوس هو شيءٌ يسير . بل انهُ ليس بشيء اصلاً . ولكي تحقّقوا ذلك لنفترضنَّ ما سياتي ذكرهُ . اي لنفترض انّ ابن ملك معظّم وهو بعد في مستودع امهِ قد ادرك التمييز كمثل القدّيس يوحنا المعمذان . وانّ امهُ تخاطبهُ قائلةً لهُ : هلمَّ يا جنيني لقد حان وقت خروجك من مستودعي لتستوطن بلادًا اوسع من المكان الذي انت فيهِ الوف مرّات وربوّات مرّات - انّك انت الآن في سجن لا يمكنك ان تحرّك فيهِ كما تشاء . ولا يعرفك احد . ولا تعرف انت احدًا حتّى اقرباءك واباك الملك نفسهُ - فاخرج من هذا السجن الحالك . وحينئذٍ تبصر نورًا عجيبًا وسماءً متلألئةً بكواكب بديعة . وترى جبالاً سامية وبحورًا عميقة واراضي مزهرة مشحونة من اشجار مثمرة . وتشاهد مدنًا عظيمة وقصرًا جليلاً ومملكة واسعة فيها الجميع يوقّرونك ويرغبون خدمتك - انّك انت الآن عريان واذا خرجت من مخدعك هذا الضيّق المظلم تكتسي باثواب فاخرة وتفوز بكلّ انواع الملذّات والملاهي - وبعد هذا الخطاب لو كان الطفل يابى الانتقال ويفضّل السكنى في حشا امهِ على السكنى فيما بين اللذّات والكرامات المذكورة . اما كانت امهُ ترثي لجهلهِ وشقاء حالهِ - فكيف الكنيسة امنا لا ترقّ لغباوتنا وحماقتنا نحن بنيها اذ ترانا نفضّل الحيوة الحاضرة على الحيوة العتيدة - فها انها ترينا عظمة الخيرات السماويّة . وتوضح لنا خساسة مسكننا الارضيّ الذي بالنسبة الى المسكن السماويّ ليس هو شيئًا غير سجن محزن ومقرّ الشقاء - وهي بفمها الصادق تخبرنا باننا اذا فارقنا هذا المنفى

نصل الى وطننا الحقيقي السعيد الذي فيهِ نجد كلّ ما نرغبهُ ونرى ابانا السماويّ على عرش العزّة فيما بين عبيدٍ لا يحصى عددهم يخدمونهُ بغاية التجليل والهيبة ونملك على كلّ الخلائق . ونفوز بكلّ الخيرات واللذّات . اي بسعادة تامّة ثابتة لا تنتزع منّا اصلاً - فيا للعجب العجاب كيف بعد ان امّنا العزيزة الصادقة اخبرتنا بهذه كلّها نستخفّ بها ونختار ان نسكن دائمًا على هذه الارض ارض اللعنة افضل من ان نسكن في ملكوت السمآء وطننا المجيد والسعيد - وامّا سبب جهلنا هذا فهو اننّا نحكم على كلّ شيءٍ بحسب شهادة حواسنا المضلّة عقولنا والمهلكة انفسنا *

فلنتدرّبنَّ اذًا بشهادة الايمان وتعليم امّنا الكنيسة المنزّهة من كلّ غشٍّ وضلال . ولنتيقّن غاية التيقّن هذه الحقيقة التي لايشوبها ريب . وهي انّ الفرق بين خيرات السمآء وخيرات الارض هو اعظم من الفرق الذي بين العالم كلّهِ ومستودع الامّ . وانّهُ بمقدار ما العالم كلّهُ يفوق بالعظمة والحُسْن والهنآء مسكننا صغيرًا ضيقًا كمستودع الامّ . بمقدار ذلك بل بافضل منهُ بما لا قياس لهُ ولا تقدير يفوق ملكوت السمآء على كلّ العالم في الاتّساع والجمال والنعيم وبقيّة الخيرات - قال الابآء القدّيسون . انّ احدى الحجج التي من اجلها ملأ الله هذا العالم من الخيرات هي هذه . وهي ان نرتقي بنظر هذه الدنيا الى معرفة الخيرات المحجوبة عن نظرنا المحفوظة لنا في ملكوت السماوات - ومن اجل هذا السبب كما جآء في اخبار العبرانيّين لمّا رام يوسف البارّ ان يرغّب الاقوام الغريبة في الاتيان الى مدينة مصر المخصبة السعيدة التي على وجه نهر النيل مقدارًا عظيماً من التبن ليشير بذلك الى الخيرات الوافرة الموجودة في مصر لكي ياتوا اليها - ولنَزِد على ذلك شيئًا آخر وهو انّهُ لم يسمح الله بزوال الخيرات الارضيّة العزيزة علينا . وانّما يريد ان يعلّمنا بذلك انّ الخيرات الارضيّة تشبه تبنًا يابسًا لا ينفع الاّ لحفظ حياة حيوانيّة فقط . وانّهُ بخلاف ذلك الخيرات السماويّة تشبه الحنطة

الجيّدة التي اذخرها الله للنفوس التقيّة المجرّدة من الشهوات الارضيّة - فان كان اولئك الاغنياء يطلبون تبن هذه الخيرات الارضيّة الكثيفة بافراط الرغبة والعشق ويحفظونها باهتمام بليغ. فماذا يكون افراط سرورنا اذا منَّ الله علينا بهذه النعمة ان نستحقّ الخيرات الابديّة ونحصل على التمتّع بالله نفسهِ معين كلّ الخيرات *

واذ قد تكلّمنا عن موضوع سعادتنا الابديّة المتوقّف على رؤية الله والحظوة بهِ. فلنتكلّم الآن عن القوّة التي تشعر بهذا الموضوع الالهيّ - اعلموا يا مباركين انّ السعادة التي كلامنا عنها يشعر بها قوّتان وهما العقل والارادة - فلكي تفهموا اتّساع هذا الخير الذي منهُ تمتلئ هاتان القوّتان الى الابد. تأمّلوا جزيل اتّساع قلب الانسان - انّ قلب الانسان متّسع جدًّا حتّى انّهُ اذا خزنتم فيهِ كلّ الكنوز واللذّات والكرامات وكلّ العلوم والممالك. واقول بالاجمال ان جمعتم فيهِ كلّ الخيرات المخلوقة. فهذا القلب البشريّ لا يمتلئ منها ابدًا ولا يقتنع ولا يشبع. بل لا يبرح مشتهيًا متمنّيًا مرتاحًا الى خيرات اخر اعظم منها - فلو امتلك ربوات عوالم نظير عالمنا هذا وافضل منهُ. فانّهُ يشعر دائمًا بضيقة وعوز مع وفور كلّ هذه الخيرات. ويزداد جوعًا وعطشًا الى خيرات اخر. واذا ناها لا يشبع منها ابدًا - فيا ما اعجب اتّساع قلب الانسان واشواقهِ - فما اعظم ما تكون الخيرات السماويّة التي تملأ اتّساع هذا القلب الذي لا حدّ لهُ في اشواقهِ - قال داود النبيّ والملك: ساشبع عند استيقاظ صورتك اي مجدك (مزمور ١٦: ١٥) - الاّ انّ الجود الالهيّ لا يكتفي بذلك. اي لا يكتفي بان تمتلئ انفسنا من السرور بحسب اتّساعهِ الطبيعي. بل انّهُ باعجوبة من عجائب كَرَمهِ يزيد قلوبنا اتّساعًا ويقوّي فهمنا بنور المجد لكي نشعر بسعادة الله نفسهِ. اي ليكون فرحهُ فينا كما قال السيّد المسيح (يوحنا ١٥: ١١) وهكذا يتمّ فرحنا ونمتلئ فرحًا - فيا لعظمة سعادتنا غير المدركة التي هي سعادة الله نفسهِ.

هذه هي السعادة التي تفوز بها الانفس التي حفظت الناموس الالهيّ الى الانتهاء *

تأمّلوا الآن كيف القدّيسون في السمآء يتمتّعون بالله. لانهُ من هذا تتّضح عظمة سعادتهم - انّ هذه السعادة لا تكون كاملة الاّ على ان يكون الموضوع عظيماً والقوّة الشاعرة بهِ متسامية كما شرحنا الى الآن. وفوق ذلك يقتضي ان تكون هذه القوّة تتّحد بموضوعها كلّ الاتّحاد. وتتمتّع بالخير المحبوب كلّ التمتّع. لانهُ في هذا التمتّع التامّ قائمٌ كمال سعادتها - فاعلموا اذًا يا مباركين انّ القدّيسين بمشاهدتهم الله في السمآء يتّحدون بهِ تعالى. كما انّ الحديد الملتهب يتّحد بالنار في الاتون - وقد اشار القدّيس يوحنّا البشير الى ذلك قائلاً: اننا نكون شبههُ. لانّنا سنراهُ على ما هو عليهِ (١ يوحنا ٣: ٢). اي اننا سنمتلكهُ امتلاكًا اكمل من امتلاك النفس ما هي حاصلة عليهِ باطنًا. واننا نتّحد بهِ تعالى بغير واسطة. لا يكون بينهُ وبيننا شيء متوسّط - والسرور الناتج من ذلك لا يمكن ان يُدرَك - انَّ صاحب المزامير لمّا اراد ان يفهمنا ذلك على قدر الامكان شبّههُ بسكرٍ روحيّ بقولهِ عن عبيد الله الامنآء انهم يسكرون من نعيم بيتهِ (مزمور ٣٥: ٩) مشيرًا بذلك الى انهُ كما انَّ الانسان في حال السكر يظهر كانّهُ عائش عيشةً خصوصيّةً غير مناسبة لنفس ناطقة. كذلك القدّيسون في السمآء لا يعيشون عيشة انسانيّة بل عيشتهم هي الهيّة كأنّهم مختطفون خارجًا عن انفسهم ومستحالون الى الله على نوعٍ غير مُدرَك. وذلك لشدّة ما يكونون ممتلئين من مجدهِ - هذا ما عناهُ مار اوغسطينس المعظّم بقولهِ. انَّ النفس تضيع ذاتها لتجدها في الله حيث تكون على نوع ما نظير الله - بل انَّ السيّد المسيح نفسهُ اشار الى ذلك بقولهِ. انّهُ سيعامل القدّيسين في السمآء كمعاملة نفسهِ وكأنّهم نظيرهُ وآلهة مثلهُ. لانّهُ قال: الذي يغلب اعطيهِ ان يجلس معي على عرشي (رؤيا ٣: ٢١) فكانّهُ تعالى يقول من يظفر بصعوبة السلوك في خدمتي وعبادتي ويحفظ وصاياي. فانّي اقيمهُ على كرسيّ الله ويفوز بسعادتهِ كأنّهُ الاهٌ مثلهُ. وانّهُ يتمتّع بكلّ كنوز

ربّ السمآء ويتردّى بمجدهِ *

ثمّ انّ هذه السعادة لا تتمتّع بها النفس فقط . بل انّ الحواسّ البدنيّة تشترك فيها ايضاً . ولهذا كلّ واحد من القدّيسين يحقّ لهُ ان يقول مع صاحب المزامير : قلبي وجسمي قد ابتهجا بالآله الحيّ " (مزمور ٨٢ : ٢) - اما الآن فالجسد هو مادّة ارضيّة ثقيلة كثيفة . الاّ انّ المجد الذي سيملأ كلّ قوى النفس يطفح على الجسد بالكمال حتى انهُ مع كونهِ هيوليًّا يشترك في صفات الجواهر الروحيّة - لانهُ في يوم القيامة تتّصف أجساد القدّيسين بأربع صفات مجيدة وهي النفوذ . والخفّة . والعصمة من الالم . واللمعان - فاذًا اذا اتّخذ الجسد حيوةً ثانيةً بالقيامة تصيّرهُ الصفة الاولى ان ينفذ اصلب الأجرام اسهل ممّا تنفذ اشعّة الشمس البلّور الجليّ والخفّة تجعلهُ قادرًا ان ينحدر في دقيقة واحدة من الزمن من اعلى السموات الى الارض . والنفس تناولهُ من خاصّة عدم التألّم التي لها . ويكون لامعًا افضل من الشمس - واقول بالاجمال مع مار توما اللاهوتي : كما انّ سعادة النفس تكون باشتراكها في المجد المختصّ بالله . هكذا سعادة الجسد تكون باشتراكهِ في المجد المختصّ بالنفس *

فيا ما اسعد ما يكون حظّ قلبنا اذ يحظى بهذه الخيرات الوافرة . بل يتنعّم بل يستغرق في وسطها . ولهذا لم يقل الكتاب المقدَّس . انّ فرح الله يدخل في قلوب القدّيسين . لانهُ غير ممكن ان تسعهُ . بل قال انَّ القدّيسين يدخلون الى فرح الله اذ يقول لكلّ منهم : ادخل الى فرح سيّدك (متى ٢٥ : ٢٠) . وانّهم على نوعٍ ما يستحيلون الى فرح حسب قول الله على لسان النبيّ : اجعلك فرحًا الى جيل فجيل (اشعيا ٦٠ : ١٥) - وفي هذا قال القدّيس اوغسطينس . انَّ سعادة القدّيسين في السمآء عظيمة جدًّا حتّى انهُ لو نزلت الى جهنّم نقطةٌ واحدة من بحر الفرح الذي هم بهِ متنعّمون ومستغرقون فيهِ لزالت حالاً كلّ اوجاع الهالكين وانطفأت نيرانهم ومُسحت دموعهم واستحالت جهنّم التي هي مركز

الشقآء والأياس الى مكان عزآء ونعيم غير مدرك *

افهمتم يا مباركين قول هذا القدّيس المعظّم. فمن منكم لا يعتبر ويستعظم الخيرات المعدّة لكم في السمآء. من منكم لا يشتاق الى امتلاكها - ثمّ انّ القدّيس المقدّم ذكرهُ يقول ايضًا. انّ افراح هذه الدنيا وخيراتها كلّها هي شيء دنيّ خسيس حتى انّ حمّى يسيرة تستطيع ان تبيدها. او ان تصيّر الدنيا مرّة كريهة - لانّهُ مثلاً اذا اعتراك وجع راس او وجع اضراس فانّك تشمأزّ حالاً من الذّ الولائم وابهى المناظر واشهى المنادمات - فما احقر خيرات الارض التي تزول بشيء طفيف. وبخلاف ذلك ما اعظم والذّ خيرات السمآء التي تكفي نقطة واحدة منها لتطفئ كلّ نيران جهنّم - فليتصوّر كلٌّ منّا اللجج السفليّة المفعمة نارًا حيث الظلمة والنتانة والجوع والعطش والحزن والموت والياس وسائر الشدائد هي مؤبّدة. وليقُل بغير ارتياب انّي اذا نجوتُ من هذا الشقآء ودخلتُ ملكوت السمآء فانّي وحدي سوف افرح فرحًا اعظم من كلّ الاوجاع التي يكابدها اهل جهنّم جميعًا - فيا ليت المسيحيّين يردّدون في عقولهم مرّات كثيرة هذه الحقائق الخلاصيّة. اذ كيف يمكن وقتئذٍ ان يخطئوا - لعمري انّهم لو فعلوا ذلك لكان يحصل لهم ما ذكرهُ حزقيال النبيّ عن الحيوانات الروحيّة التي كانت تسير بسرعة البرق. ومن اين كانت لهم هذه السرعة. فيقول النبيّ انّهم كانوا يرون فوق رؤوسهم صورة السمآء (حزقيال ١ : ١٤ و٢٢) - فمثلهم كنّا نسير راكضين في طريق الوصايا لو كانت صورة الملكوت مرسومة في عقولنا جيّدًا وموضوعة امام ذكرنا دائمًا - من منّا كان يختار لذّة وقتيّة تعدمهُ لذّة السعادة الابديّة *

وقولي ابديّة لانّ الخير العظيم العتيد للابرار في ملكوت السمآء ليس هو عظيمًا في ذاتهِ فقط. بل هو ابديّ في دوامهِ ايضًا - لانّهُ بعدما تكون قد مضت من الزمان الوف وربوات وربوات ربوات من الدهور بمقدار عدد الدقائق التي مضت منذ انشآء العالم الى الآن ستكون وقتئذٍ ابديّة سعادة القدّيسين في

السمآء على صحّتها كما كانت من الابتدآء. لا ينقص منها شيء البتّة - فان كان الخير يزداد قدرًا واعتبارًا بمقدار طول مدّة دوامهِ. فكم يجب ان نستعظم هذا الخير العظيم المؤبّد - لانّ الخير الدنيّ اذا كان مقترنًا بالابديّة فانّهُ يصيرهُ خيرًا ذا قيمة غير متناهية. حتّى انهُ لو امكن ان تنتهي سعادة الله لكانت سعادة احد الطوباويّين اعظم من سعادة الله نفسهِ *

فهل يمكن انّ من يؤمن بهذه الحقائق الدينيّة لا يشتاق الى هذه السعادة الحاوية خيرات لا عدد لكثرتها ولا حدّ لعظمتها ولا انتهآء لدوامها - فيا لحماقة القوم الذين لا يعتبرون هذا الخير العظيم الابديّ اعني ملكوت السماوات الذي سمّاهُ صاحب المزامير الارض الشهيّة (مزمور ١٠٥ : ٢٤) . ويختارون ان يعيشوا هنا عيشة سيّئةً في قبائح الرذائل. فيتعذّبوا بعد ذلك في جهنّم الى الابد بعذابات هائلة. افضل من ان يستحقّوا بسيرة مسيحيّة ان يكتسبوا خيرًا لا حدّ لعظمتهِ ولا لدوامهِ - انّهم حقًّا يستحقّون كما قال صاحب المزامير ان يبيدهم الله من الارض - اخبرنا احد الفضلآء انّ الشيطان التزم مرّات كثيرة بان ينطق بهذه الحقيقة بقولهِ. انهُ يرتضي بان يكابد وحدهُ الى يوم الدينونة كلّ العذابات الجهنميّة التي يستحقّها جميع الهالكين لو كان يمكنهُ ان يحظى بذلك بسعادة السمآء دقيقةً واحدة من الزمن - فوا اسفاه على جهل المومنين الذين يفرّون من ذكر هذه الحقائق وتاملّها محتقرين هذه السعادة - الاّ انهّم سيذكرونها ويتاملّونها ويستعظمونها في جهنّم. ويبكون لاجل انهم ازدروا بما كان يستحقّ كلّ اعتبارهم وحبّهم وشوقهم ويصرّون باسنانهم اذ يرون الصدّيقين في ملكوت الله. وهم مطرودون منهُ الى الابد *

فالآن يا مباركين ينبغي ان تختاروا احد هاذين الامرين. اي امّا ان تتعبوا وتتألّموا يسيرًا هاهنا لكي تدخلوا بعد ذلك الى ملكوت السمآء وتفوزوا بسعادة الله الى الابد. وإمّا ان تذوقوا الآن زمانًا قصيرًا لذّات تنهاكم عنها الشريعة

الالهيَّة فتطرَدوا بعد ذلك من ملكوت السماء وتتعذّبوا في جهنّم الى الابد - تذكّروا ما قالهُ النبيّ والملك داود : انّ الذين يزرعون الآن بالدموع يحصدون فيما بعد بابتهاج (مزمور ١٢٥ : ٥) . لانهُ غير ممكن لمن يعيش الآن في فردوس اللذّات الارضيّة ان ينتقل الى فردوس اللذّات السماويّة . لانهُ قد قال السيّد المسيح : خارجًا الكلاب والزناة (رويا ٢٢ : ١٥) - أسألكم ايها الخطاة الذين ما فقدوا كلّ الايمان بعد ويترجّون الخلاص والوصول الى الملكوت مع انّكم سائرون في طريق جهنّم . قولوا لي في اية رتبة من رُتب القدّيسين يمكن ان تُقتبلوا . هل تُقتبَلون بين الرسل الاطهار . واين الانفس التي ربحتموها للسيّد المسيح . بل كم من الانفس اختلستموها ودفعتموها للشيطان - هل تُحصَون بين الشهداء الذين اختاروا ان يخسروا كلّ شيء ويكابدوا اشدّ العذابات والميتات افضل من ان يرتكبوا خطيّة واحدة . وها انتم ترتضون بالخطيّة كلّ يوم لئلاّ تخسروا خيرًا زمنيًّا او لئلاّ يصيبكم ضرر زمنيّ - هل تجلسون في الملكوت في مصافّ القدّيسين التائبين . واين الاثمار التي تليق بالتوبة : خارجًا الكلاب . خارجًا الزناة . وكلّ من يحبّ الكذب وخيرات هذه الدنيا الكاذبة *

من اراد ان يصل الى ملكوت السماء ينبغي ان يسلك في طريق الوصايا طريق البرّ . ولهذا بعدما قال الانجيليّ . انّنا نعلم انّهُ اذا ظهر الله لنا وشاهدناهُ عيانًا نكون شبههُ لانّنا سنراهُ كما هو قال وكلّ من لهُ هذا الرجاء رجاء دخول الملكوت فهو يقدّس نفسهُ كما انّ الله هو قدّوس - فان قدّستم انفسكم بالعمل بالشريعة الالهيّة فلا مانع يصدّكم عن اكتساب السماء . لا فقر ولا عري ولا ضعة النسب ولا خمول الحال ولا نقص من النقائص الطبيعيّة . اذ انّهُ تعالى يدعو الى وليمتهِ السماويّة المساكين والضعفاء والعميان والمقعدين (لوقا ١٤ : ٢١) ولا يردّ الاّ الخطاة والخطيّة - طوبى للنقيّة قلوبهم والمسيحيّة سيرتهم . فانّهم يعاينون الله (متى ٥ : ٢) ويفوزون بغبطتهِ غبطة ابديّة آمين *

الموعظة السادسة والاربعون

في انّ عذاب المطهر يرينا عظم الخطيّة

انَّ كثيرين من علمآء الطبّ ذهبوا الى انَّ الحمّى تتكوَّن من حرارتين مقترنتين بعضهما ببعض . احداهما مسببةٌ من الحمّى نفسها . والاخرى غريزيّة معطاة للانسان لحفظ حياتهِ - فالذي قالهُ هولآء عن المرضى يجوز ان نقولهُ عن انفس الابرار التي في المطهر. لانّها من الجهة الواحدة تتالّم من قِبَل نار تحرقها خارجًا . ومن جهة اخرى تتعذّب باطنًا من قِبَل حرارة اشتياقها الى رؤية الله - امّا العذاب الذي يصيبها من قِبَل هذه النار الباطنة فهو اعظم جدًّا من عذاب النار التي تاكلها من خارج . وشقآء حالها هذا يرينا جليًّا عظمة الخطيّة المسبّبة لها هذه الآلام - ويسوغ لي ان اقول انّ عذاب المطهر يظهر لنا شرّ الخطيّة على وجه اجلى وأتمّ ممّا يظهرهُ عذاب جهنّم عينهُ - ولا شكّ انكم ستقرّون بذلك اذا تأمّلتم معي في العذابات التي تكابدها الانفس من قِبَل هاتين النارَين . اعني بهما عذاب الحسّ وعذاب الخسران . لانّهُ على هذا يتوقّف كلّ عذاب المطهر *

انّي اقرّ مصدّقًا مع مار توما اللاهوتيّ انّ المحبّة التي تصحّ بها توبة الخاطئ اذا كانت محبّةً كاملة تحلّ كلّ ذنوبهِ وتوفي كلّ ديونهِ كما جرى في اللصّ التائب الذي لاجل كمال توبتهِ وشدّة محبّتهِ صعد من اعلى صليبهِ الى اعلى الفردوس حسب شهادة ابن الله اذ قال لهُ . الحقّ اقول انّك اليوم تكون معي في الفردوس (لوقا ٢٣ : ٤٢) - غير انَّ الخطاة الذين يتوبون هكذا قليلون . بل انَّ اكثرهم لا يوفون بالتمام ما هم مديونون بهِ للعدل الالهيّ لسبب خطاياهم ومن ثمَّ فيلتزمون

بعد وفاتهم بوفاء ديون كثيرة . وكما اعتبر مار توما اللاهوتيّ انّ الصواب والعدل يقضي على ارادة الانسان التي ابت الخضوع لارادة الله لاتباعها هواها المائل بها الى لذّة محرّمة ان تخضع لهُ تعالى بمقاساة العذاب والالم بحسن الصبر - وهذا العذاب هو نار مادّية ونار روحية - فانهُ من المؤكّد اوّلاً انّ العدل الالهي يستخدم النار المادّية كآلة لمعاقبة الخطاة والتكفير عن الخطيّة - نعم انّهُ يستعمل ايضاً بقيّة العناصر في هذا الغرض فتسعى معهُ تعالى الارض بزلازلها . والبحر بعواصفهِ . والهواء بالطاعون والصواعق والرعود : الاّ انّ الآلة الخصوصيّة التي يستعملها الله لمعاقبة الخطاة هي النار كما قال موسى النبيّ (تثنية ٣٢ : ٢٢) اذا ما سخط الله بالغضب يضرم النار كما فعل بالخمس المدن الفاسدة - الاّ انّ هذا يجري على الخصوص في الحيوة الآخرة حيث ينتقم الله من اعدائهِ في جهنّم ويعذّب اصدقاءهُ في المطهر بالنار - هناك الله كما قال ارمياء النبيّ يضرم النار بكلّ رجزهِ وبها يحرقهم (ارميا ١٥ : ١٤) *

ولكي تفهموا جيّداً عظمة هذا العذاب اعتبروا شيئين . اي صفة هذه النار التي يستعملها الله لقضاء اوامر عدلهِ . وصفة هؤلاء الارواح الشريفة المعذّبة بيد هذا الجلاّد القاسي - فنقول : انّ نار المطهر ليست مختلفة نوعاً من نار جهنّم . كما قال القدّيس اوغسطينس والقدّيس توما اللاهوتي . غير انَّ النار التي يصلاها المختار والهالك تطهّر الواحد وهو المختار لا الهالك . كما انَّ النار التي تسوّد الفحّام هي تنقّي الذهب - الاّ انّ النار المطهريّة تختلف جدّاً عن نار هذه الحيوة من جهة قوّتها ولهذا اي لسبب حرارة نار المطهر قد دعاها اشعيا النبيّ روح حرارة تطهّر بنات صهيون (اشعيا ٤ : ٤) اي انفس الابرار من ادناسها - فهذه النار هي مادّية هيوليّة الاّ انّها تبين كأنها روحيّة لشدّة حرارتها . لانّ ادنى شرارة منها تشعل اعظم نار الاتاتين واكثرها قوّةً - وانا اعتقد انّهُ لو خرجت نفس من المطهر وأُلقيت في اتون كلس مشتعل لكان حالها حال من يخرج من خلقين زيت

مغليّ وبلج حمام ماء فاتر طيب - زيدوا على ذلك ما قلناهُ في الموعظة المتقدّمة وهو. انّ الله خلق النار العنصريّة لاجل منفعتنا. واما نار جهنم فانّهُ تعالى خلقها لتعذيب الخطاة - انظروا يا مباركين الى الفرق الموجود بين ضرب الجلّاد وتشريح الجرّاح. فانّ الجلّاد عن امر الحاكم يضرب بلا شفقة ولا مداراة. واما الجرّاح فبخلاف ذلك. لانّهُ يلاطف المريض ويداريهِ حينما يؤلمهُ لانّهُ يقصد شفاءَهُ لا اطالة سقمهِ او زيادتهُ - فان كانت النار العنصريّة المخلوقة لمنفعتنا تؤلمنا بنوع غير محتمل. فماذا يكون الالم المسبّب في نار مخلوقة للتعذيب فقط. فضلاً عن انّ نار المطهر كما قلنا عن نار جهنّم يزيد الله على فاعليّتها الطبيعيّة فاعلية اخرى فائقة. بها يكون الله كأنهُ هو الذي يحرق هذه النفوس من غير سعي النار حسب قولهِ تعالى على لسان زكرياء النبيّ: امحصهم كمحص الفضة (زكريا ١٣ : ٩) - وهكذا الله الذي للمختارين الأَطهار هو نار المحبّة نار مبهجة يصبح للمختارين المتدنّسين بشيءٍ من الخطايا نارًا مؤلمةً محرقة. لانّهُ يسعى مع النار المطهريّة ويشركها في قوّة يده الضابطة الكلّ - ثم انّ هذه النار ما عدا انّها تاخذ من الله قوّةً فائقة الطبيعة. يمنحها الله حكمةً ايضًا لانّهُ كما قال اشعيا النبيّ ان الربّ يطهّر أدناس بنات صهيون بروح العدل وبروح الايقاد (اشعيا ٤ : ٤) فيصيّر النار ان تميّز ذنوب الانفس وتعذّبها بموجب استحقاقها. لانّ هذه النار تضبط فعلها بمقتضى قصد من يستخدمها - انَّ النار الارضيّة لا تتبع في فعلها سوى حركتها الغريزيّة وتحرق البارّ والخاطئ على حدٍّ سوى. واما النار المطهريّة فانّها تتبع مقاصد من يستعملها. وتقيس فعلها على ذنوب المذنبين - فيا ما اشدّ ما تكون حرارة هذه النار التي هي في نفسها حادّة وتتّخذ من الله قوّةً فائقة الطبيعة - قال القدّيس اوغسطينس. انّ حكمة الله ولطفهُ يجزيان الناس بذنوبهم على قدر ذنبهم *

فانجوا من ذلك يا مباركين ضلال وحماقة القوم الذين لا يميّزون

خطيّة من خطيّة والسقوط فيها مرّة واحدة من التورّط فيها مرارًا عديدة. فيقولون بعد زلّة واحدة: لا باس من تكثير الزلّات. لانّهُ بازديادها لا يزداد ما نحن ملتزمون بهِ. اذ انّنا سنذكر الكثير كما نذكر القليل في سرّ الاعتراف بغير زيادة تكلّف — غير انّ النار المطهريّة لا تتفلسف هكذا. بل تفرز وتميّز بحكمة من اذنب مرّة واحدة ممّن اذنب مرّات متعدّدة. والذين زلّوا بضعف بشريّ من الذين زلّوا بتعمّد *

فهناك الانفس المتراخية في عبادة الله والمستخفّة بزلّاتها اليوميّة تستمرّ شهورًا وسنين كثيرة على قدر فتورها وكثرة ذنوبها — قلتُ الانفس لا الاجساد. وهذا أمرٌ آخر يرينا شدّة عذاب المطهر. لانّ النار هناك تحرق الانفس لا الاجساد — وكما انّ النفس هي طبعًا قابلة السرور اكثر من الجسد كذلك هي قابلة الالم اكثر من الجسد. وبالنتيجة فمن يمكنهُ أن يصف العذاب الذي يصيب النفس هناك من عذاب النار التي يوقدها العدل الالهيّ — انّكم تعلمون الفرق الذي بين مزاج رجل شريف لطيف وبين مزاج رجل فلّاح معتاد على التعب — فانّ الفلّاح مع كونهِ لابسًا ثيابًا رثّة وعائشًا من مواكيل غليظة وساكنًا في بيت لا يحفظهُ من برد الشتاء ولا من حرّ الصيف. ويصرف اكثر ايّام البرد والصيف في اشغال شاقّة مضنية فعافيتهُ لا تتضرّر من ذلك اصلاً. وبخلاف ذلك نرى الرجل الشريف فانّهُ مع ثيابهِ المطهّمة ومسكنهِ المبهج وطعامهِ اللذيذ يتضيّق من ادنى شيءٍ — فالجسد المركّب من التراب يشبهُ هذا الفلّاح. والنفس التي هي روح سماويّة تشبهُ ذلك الرجل الشريف الحسب والنسب فهي تتألم من النار اكثر ممّا يتألم منها الجسد — ومن ذلك انتج القدّيس توما اللاهوتي مع آخرين كثيرين من القدّيسين والمعلّمين. انّ اقلّ ألمٍ من آلام انفس المطهر هو اعظم من اشدّ عذابات هذه الحيوة *

غير انّ عذاب انفس الابرار لو كان قائمًا في هذا فقط لكانت تحسبهُ

خفيفاً . لأنّها تتعذّب ايضاً من قِبَل نار اخرى ليست هيوليّة لكن روحيّة . اعني بها شوقها المتقّد الى معاينة الله - على انّ سبب تألّم النفس هو المحبّة . وانفس المطهر تحبّ الله محبّةً لا توصف ولا تُدرَك . فمن الضرورة انّ حزنها الناتج من عدم امكان وصولها بعد الى امتلاكهِ تعالى يفوق كلّ وصف وادراك المخلوق . فلا ريب انّ هذا اللهيب الباطن والروحيّ لهيب أشواقها المضطرمة يحرق هذه النفوس ويعذّبها اشدّ ممّا تحرقها وتعذّبها النار الهيوليّة الخارجيّة التي هي نار سجنها *

وعذابها الاعظم يتولّد من ثلاثة انواع المحبّة الموجودة فيها وهي المحبّة الطبيعيّة . والمحبّة الفائقة الطبيعة . والمحبّة الالهيّة - امّا المحبّة الاولى فهي طبيعيّة قائمة في شدّة ميل النفس الناطقة الى الاقتران بخالقها الذي هو مصدرها وغايتها القصوى اذ ترى ذاتها معتوقة من قيود اسر الحواسّ لأنّها تشعر حالاً بهيام عظيم الى خيرها الاعظم واليهِ تتوق بعزم تفوق شدّتهُ على عزم سهم مرشوق بيد رجل جبّار . ولانّ سجن المطهر يصدّها عن بلوغ اربها تشعر بقسر لا تُدرَك صعوبتهُ ووجعهُ *

وامّا محبّتها الاخرى الفائقة الطبيعة فتسبّب لها كمداً اشدّ من الاوّل . لانّهُ من هذه المحبّة يتولّد شوقها الآخر المتأسّس على حرارة رجائها . وذلك لانّ هذه المحبّة تريها انّ الله هو خيرها الاعظم . ومعرفتها هذه الجليلة المنتبهة تضرم فيها شوقاً للوصول اليهِ تعالى والتمتّع بهِ حتّى انّ شدّة عزمها هذا يفوق بما لا قياس لهُ على شدّة عزم الصاعقة وسرعتها - فانتجوا من ذلك كم تتضيّق وتتوجّع هذه الانفس المقدَّسة من قبل اشواقها هذه المتقدة حتّى انّها لو كانت قابلة الموت لكانت تموت من شدّة حزنها ولاسيّما عند تأمّلها انّها بذنبها خسرت الى الابد درجات سامية من المجد الابديّ كان يمكنها ان تكتسبها *

وامّا محبّتها الثالثة فهي الالهيّة . وهذه المحبّة تسبّب لانفس المطهر هياماً

يتوقّف عليه اشدّ عذابها. لانّ محبّتها لله مقترنة ببقيّة الفضائل تصيّرها ان تهيم الى الحظوة بخيرها الاعظم لكي تعاينهُ بل لكي تسبّحهُ ايضاً بكلّ ما يمكن من افعال التقوى والتعبّد الاكمل – ولمّا كانت هذه الفضائل هي في النفوس كهيب يوقّدها ويجذبها الى الله. فمن ثمّ لا لسان يقدر ان يصف ولا عقل يستطيع ان يفهم شدّة شوقها وهيامها وتألّمها – نعم انها تخضع كلّ اشواقها لارادة الله. الّا انّ هذا لا ينقص من آلامها شيئاً. كما انّ خضوع السيّد المسيح لمشيئة ابيه لم يخفّف مرارة آلامه. بل انّ خضوع هذه النفوس المطابقة لارادة الله يزيدها عذاباً. لانّ رجاءها بتأخّر خلاصها من شانهِ ان يحزنها كما قال الحكيم (امثال ١٣ : ١٢). فلا تزال متنهّدة قائلة: ويلي لانّ غربتي قد طالت (مزمور ١١٩ : ٥) ✽

فان اردتم يا مباركين ان تفهموا شيئاً يسيراً من هذا العذاب المتولّد من شوق هذه النفوس المضطرم للتمتّع بالله. فاعتبروا ما جاء عن القدّيسة تاريا وغيرها من القدّيسات. وهو انهنّ لفرط ما كنّ يشتقن الى معاينة ختنهنّ الالهيّ والحظوة به كنّ يئنّ من شدّة هيامهنّ. وكان سبيهنّ عدم امكان الموت امرّ من الموت – فان كان الشوق الى مشاهدة الله قد سبّب مثل هذا الالم لهؤلاء القدّيسات مع انهنّ كنّ متحدات بعد بحجاب الجسم الغليظ. فكم وكم تتألّم انفس المطهر المعتوقة من قيود هذا الجسد الشقيّ والناجية من الحواس. والعارفة كمالات الله معرفة سامية. والمشتاقة اليها بكلّ عزمها – هذه هي النار الروحيّة التي تحرقها وتسبّب لها عذاباً لا يدركهُ غير الذي يعرف الله ويحبّهُ مثلها ✽

وما هي الفوائد التي يجب ان نجتنيها من هذا التعليم: يجب ان نجتني منهُ فائدتين. الاولى تخصّ خير انفس المطهر. والاخرى تتعلّق بخيرنا – فيلزمنا اوّلاً ان نبذل الجهد في اسعاف هذه الانفس الطاهرة وذلك بالصلوة والصوم والصدقة وبقيّة الافعال الصالحة ولاسيّما بتقدمة القدّاس الالهيّ لاجلها – ذكر

المؤرخون انهُ في مسالف الزمان حدث طاعون كان كل من يُصاب بهِ ويبرأ ينسى كل شيء حتى لا يعود يعرف والديهِ ولا اقرباءهُ - والآن نرى انَّ مثل هذا المرض قد اعترى كثيرين من المومنين اذ يتناسون اعزّ اصدقائهم واقربائهم ويهملونهم في وسط لهيب نار المطهر الآكلة - يا للعجب انّ الذين في زمن حياتهم كنتم تهتمّون بالقيام بحاجاتهم واظهرتم عند موتهم جزيل محبّتكم لهم بشدّة حزنكم وكثرة دموعكم . كيف بعد ذلك اي بعد موتهم بزمن يسير صاروا عندكم كأنّهم ارتدّوا الى العدم او كأنّهم لم يكونوا سابقًا بالوجود . ولا عرفتموهم اصلاً - مع انّهم لو لم يكونوا اقرباءكم واصدقاءكم لكان ضربًا من القساوة ان تهملوهم في ضرورتهم - خبّرنا الكتاب المقدَّس انَّ بني يعقوب بعد ان القوا يوسف اخاهم في بئرٍ عميقة جلسوا على حافتهِ وطفقوا يشربون خمرًا غير متأسّفين على آلام اخيهم (عاموس ٦ : ٦) - فمن ذا لا يغتاظ من قساوتهم هذه - الاّ انّ حالهم هذه حال كثيرين وهم الذين بعدما سقط اخوتهم واقرباؤهم بل آباؤهم ايضًا في بئر المطهر يتغاضون عنهم وينسونهم - اعلم ايّها المومن انَّ اباك وامّك يتعذّبان في المطهر بسببك او بسبب محبّتهما لك الزائدة . اعلم انَّ فلانًا صاحبك يحترق الآن في السجن المطهريّ لانّهُ حبًّا لك ارتضى بالخطيّة. فكيف لا تبادر مسرعًا الى اسعافهِ وانت يمكنك ان تخلّصهُ من عذابهِ من غير كلفة ولا تعب. لانّهُ لا يقتضي لذلك سوى ان تفعل من اجلهِ شيئًا من الافعال الصالحة يجازيك الله عنها بعد موتك وفي زمن حياتك *

فها انَّ انفس الابرار التي في المطهر تصرخ نحونا من عمق سجنها قائلة : ارحمونا ارحمونا أَقلّها يكون انتم يا احبّاءنا لانّ يد الله قد ضربتنا (ايوب ١٩ : ٢١). ارحمونا يا اخوتنا المسيحيّين الكاثُليكيّين . اسعفونا انقذونا من هذه البئر المحرقة بصلواتكم وافعالكم الصالحة ولاسيّما باكتساب غفرانات الكنيسة لاجلنا - فيا لقساوة القلوب الصخريّة التي لا تلين بهذه الاصوات المحزنة اصوات انفس نقيّة

عزيزة على الله حاصلة في بلآء لا يُرى مثلهُ على الارض - ولا تظنّوا يا مباركين انّ اجتهادكم في تخليص هذه النفوس يعود سدًى غير نافع لكم. لانهُ ما عدا الاستحقاقات الوافرة التي تكتسبونها بما تفعلونهُ من اجلها من افعال المحبّة فانكم تربحون بها ايضًا اصدقاء امناء يكافئونكم بفائدة وافرة عمّا تحسنون بهِ اليهم - ولكي تسعوا في مساعدة الانفس المعذَّبة في المطهر باشدّ الرغبة سنورد لكم خبرًا عجيبًا حدث من نحو مائة سنة - كان سنة الف وستماية وعشرين للتاريخ المسيحيّ في مدينة رومية غلام متعمّق في الآثام ولكن كان حافظًا دائمًا عبادةَ خصوصيّة للانفس التي في المطهر فشعر ذات يوم انّ قومًا من الناس عزموا على قتلهِ وخرجوا في طلبهِ . فركب فرسهُ وخرج من المدينة هاربًا - الاّ انّ أعداءَهُ سبقوهُ في الطريق واختبأُوا في سياج وقد اعدّوا سلاحهم لقتلهِ - فلمّا قرب الغلام من هذا الكمين رأَى جسد رجل مجرم قد قُتل بحكم المحكمة بجرائمهِ وقد قطّعوا جثّتهُ اربع قِطَع وعلّقوها على شجرة - فلمّا رأى هذا الامر نزل من فرسهِ وصلّى جاثيًا على روح هذا الشخص . ولمّا فرغ من الصلوة تساقطت أجزاء جسد الميّت من على الشجرة وتلاصق بعضها ببعض . وقام الميّت حيًّا . ودنا من الشاب وأَمسك عنان فرسهِ وقال لهُ : ثق يا صاح ولا تخَف . انتظرني هاهنا قليلاً الى ان أَعود اليك - الاّ انّهُ لم يكن يحتاج ان يامرهُ بالمكث . لانهُ من شدّة رعبهِ كان قد جمد كلّ دمهِ . ولم يقدر ان يتكلّم ولا ان يتحرّك - فذهب ذاك . ولمّا وصل الى حيث كان الاربعة كامنين لقضاء أَربهم ورأوهُ نهضوا حالاً ورفعوا عليهِ بندقيّاتهم . فنفذت الرصاصات صدرهُ ومزّقت هامتهُ . فسقط على الارض - فظنّ اولئك انهُ قد مات . فهربوا حذرًا من ان يدري بهم احد من الذين في تلك النواحي . وفي تلك الغضون قام ذلك من الارض وركب الفرس وعاد الى الغلام واخبرهُ بما صنع لخلاص جسدهِ من الموت ونفسهِ من الهلاك الابديّ جزاءً بما فعلهُ لاجل الانفس المعتقلة في المطهر . ثمّ زجرهُ عن سيرتهِ الرديّة واوصاهُ بالتوبة

سريعًا لئلّا ينتقم الله منهُ فيموت موتًا شنيعًا — ولمّا قال هذا عاد جسدهُ كما كان اربعة اجزآء وتعلّقت على الشجرة — فاعتبر الغلام. وفي الحين هجر العالم ودخل في رهبانيّة جزيلة التقشّف. وقضى هناك اجلهُ بموت صالح *

ارأيتم يا مباركين كم العبادة الانفس الذين في المطهر هي مفيدة لنا من حيث اجسادنا ونفوسنا. فما ظنكم في الانسان الذي من بعد موت والديهِ وأقربائهِ لا يقضي ما هو ملتزم بهِ ليس من قِبَل المحبّة المسيحيّة فقط بل من قِبَل العدل ايضًا. وما قولكم في الذين اذا وجدوا في وصيّة الميت الاخيرة وقفًا للكنائس او الاديرة او للفقرآء يصدّهم البخل عن اجرآء هذه الوصيّة. ويجعلون بذلك سببًا للموتى ان يستمرّوا معذَّبين في نار المطهر زمانًا مستطيلًا — اسمعوا في ذلك خبرًا — ذُكر انّ الاسكندر الملك المظفَّر قبل وفاتهِ بزمن يسير دفع لقوّاد جيشهِ ممالكهُ ليتقاسموها. وبعد موتهِ ترك اولئك القوّاد جثّتهُ بلا دفن مقدار ثلاثين يومًا كأنّها جثّة احقر البهائم. وذلك لاهتمامهم بإرث الملك — وكم من المومنين يفعلون اليوم شرًّا من ذلك. اذ لا يكتفون باهمالهم اجساد اقربائهم على الارض بل يغفلون عن ارواحهم وهي في وسط نار آكلة — انّ هؤلاء قد دعتهم الكنيسة في قوانينها قاتلي النفوس. فانّ الشرائع المسيحيّة تحكم بانّ من يهمل امراتهُ في مرضها يُحسَب قاتلها. فما قولكم بالذين يهملون النفوس لا على فراش ليّن. بل على فراش ملتهب بالنار — فعن هذه النفوس يسوغ لنا ان نقول ما قالهُ صاحب المزامير عن اعدائهِ وهو انهّم يدخلون في اسافل الارض. ويُدفَعون الى ايدي السيوف. ويكونون انصبة للثعالب (مزمور ٦٢ : ١٠) — ولكي تفهموا ذلك تذكّروا انَّ الانسان يمتلك على الارض ثلاثة انواع من الخيرات. وهي خيرات الجسد. وخيرات النفس. وخيرات المال — امّا خيرات الجسد فانهّا تبيد كلّها بالموت. فانّ الموتى يدخلون في اسافل الارض. وتستعجل اقرباؤهم في دفنهم حذرًا من ان يفسد البيت من

نتانتهم - واما خيرات النفس فانها اي النفس تُدفَع الى يد سيف عدل الله فيلزمها بوفاءَ كلّ ما عليها من الدين لاجل خطاياها - واما خيرات المال فانّها تكون انصبة للثعالب. لانّ وارثيهم كثعالب خبيثة يخترعون حِيَلاً مختلفة ليحرزوا لانفسهم ما كان ينبغي ان يدفعوهُ لمساعدة الانفس التي في المطهر - قال يعقوب الرسول: انّ دينونة من لم يستعمل الرحمة تكون بلا رحمة (يعقوب ٢ : ١٣) - فماذا يجري بالقوم الذين لا يقضون ما هم ملتزمون بهِ. لا من قِبَل الرحمة فقط بل من قِبَل العدل ايضًا - هكذا بذنبكم وبتاخيركم قضاءَ وصايا الموتى الاخيرة تلزمونهم الاستمرار في سجن مظلم وفي اتون مشتعل حيث كلّ دقيقة تبين ساعة. وكلّ ساعة تظهر يومًا. وكلّ يوم يُحسَب سنة. وكلّ سنة تُعَدّ دهرًا *

واما الفائدة الثانية التي يجب علينا ان نجتنيها مما قلناهُ عن عذاب المطهر. فانها تخصّ الاحياءَ وهي اننا نرى في عظمة هذا العذاب عظمة الخطيّة وعظمة بغض الله اياها - انّي اجسر ان اقول انّ المطهر يرينا صرامة العدل الالهيّ على وجه اجلى واكمل مما تريناها جهنّم نفسها. لانّي اسالكم يا مباركين من هم الذين يعذّبهم الله في جهنّم. انهم قوم اثمة ارديا َ وعبيد اشقياءَ تمرّدوا على مولاهم ولا يزالون الآن يبغضونهُ من كلّ قلوبهم. فليس بعجب انّ الله يعذّبهم بكلّ صرامة عدلهِ - ولكن الذين في المطهر هم البنون الذين أحبّوا الله سابقًا ويحبّونهُ الآن ايضًا افضل من حبّهم لانفسهم. ومع ذلك لا يطيق الله ان يحتمل فيهم ادنى اثر خطيّة. بل يعذّبهم عذابًا شديدًا بنار لا يوجد بينها وبين نار جهنّم فرق غير الدوام والابديّة - فحقًا حقًا انّ صرامة عدل الله هذه تظهر لنا قداسة الله وشدّة احكامهِ. وهذا من شانهِ ان يملأ قلب المومن خوفًا ورعبةً - والامر المذهل العقول والمرجف القلوب هو انّ الله يعامل هكذا لا الصدّيقين الذين هم من اوّل طبقة فقط. لكن ايضًا القدّيسين الجزيلي الفضيلة والكثيري

الاستحقاق . بخلاف ما يجري في هذا العالم . لانهُ اذا عاد الجيش من الحرب منتصرًا لا يحاسب الملك الجنود وبحجّة أولى لا يحاسب قوّادهم المظفَّرين على ما اغتنموهُ من مال الاعداء - واما ربّ الجيوش والديّان العادل فاذا امتثل امام عرشهِ رجل بارّ قد كسب للسيّد المسيح من النفوس اكثر مما كسب لهُ منها جميع الرسل الاطهار فان وجد في نفسهِ درن خطيّة خفيفة واحدة فقط . فانّهُ تعالى لا يعفو لهُ عنها . بل انّ عدلهُ يصرخ قائلاً : أَوفِني أَوفِني ما لي عليك الى آخر فلس (متى ١٨ : ٢٨) *

ولكي تفهموا من ذلك عظم شرّ الخطيّة افضل اسمعوا ما سياتي ذكرهُ :

اعلموا ايها المومنون انّ الابرار الذين في المطهر يقابلون شدّة عذابهم بعظم شرّ الخطيّة العرضيّة فيعترفون مصدّقين انّ عذابهم لا يقابل شرّ خطيّتهم - بل انّهم لشدّة ما يستعظمون شرّ خطيّتهم ويبغضونهُ . فلو كان الله ياذن لهم ان يخرجوا من المطهر ويدخلوا ملكوت السماء قبل تمام تطهيرهم من هذه الخطيّة . لكانوا يستعفون ويطلبون منهُ تعالى ان يتركهم في هذا العذاب الى ان يتطهّروا بالكمال فيصبحوا مستحقّين الامتثال امام الاله القداسة - ولنوضحنّ هذه الحقيقة بمثل عرفيّ فنقول : ازعموا انّ فتاةً جميلة حسناء خطبها ملك معظّم فارسل ليتّخذها ويستجلبها الى قصرهِ فعرض لها داء الجدريّ وذهب جمالها بهِ - فلا ريب في انّ هذه الفتاة تابى الذهاب الى قصر الملك . بل تطلب متوسّلة ان يدعها في منزلها الى ان تعود الى حال حسنها الاوّل - فعلى حسب هذا المثل اقول : انّهُ لو امكن ما هو من المحال اي لو ارسل الله ملاكًا يدعو الى السماء نفسًا غير مطهَّرة بعد من درن خطيّة عرضيّة واحدة لاختارت ان تلبث في وسط لهيب المطهر افضل من ان تقف قدّام ختنها الالهيّ في حال دنس مهما كان طفيفًا . بل انّ النفس عند مفارقتها جسدها اذ ترى ذاتها متدنّسة بخطيّة عرضيّة تستكره شناعة حالها جدًّا حتى انها تتمنّى ان تلقي ذاتها في لجّة اتون مشتعل لكي تطهر فيهِ افضل

من ان تدخل ملكوت السماء وتقف امام الله في حال الدنس *

فما ظنكم الآن بالخطيئة المميتة بعد تاملكم شر الخطيئة العرضية. من منكم لا يتعجب من حماقتهِ السالفة. من ذا لا يرثي جهل الذين يستخفون بالخطيئة المميتة - السيتم تختارون منذ الآن فصاعدًا ان تموتوا افضل من ان ترتكبوها - ولنختم هذا الخطاب بما قالهُ النبي: اعلمي وابصري انهُ شرٌّ ومرٌّ انكِ تركتِ الربَّ الاهكِ (ارميا ٢ : ١٩) - اعتقدوا يا احبائي انَّ شرَّ الخطيئة لا نظير لهُ. وانهُ بالعدل يجزي الله مرتكبها بعقاب ليس لهُ مثيل - فابغضوا اذًا من كل قلوبكم وكل قوتكم ما يستحق كل البغضة - تعلموا من المطهر كم يبغض الله الخطيئة. من حيث انهُ بسببها يعذب هناك عذابًا هائلاً لا عبيدًا شرسين متمردين بل بنين اتقياء محبين - فمن لا يفهم عظمة الخطيئة من عذاب المطهر. فليذهب الى مدرسة جهنم. هناك يتعلم ويفهم ما لا يريد ان يفهمهُ الآن ويعقلهُ. هناك كما قال دانيال النبي يستيقظ الخطاة الى العار والخزي ليروا دائمًا (دانيال ١٢ : ٢). لانَّ شرَّ الخطيئة لا يزال منتصبًا بازاء اعينهم. فيرون الى الابد ما ابوا ان يروهُ ويتأملوهُ قبلاً. وحينئذٍ يعترفون بانهُ ليس شرٌّ اعظم من شر الخطيئة - معاذ الله يا مباركين ان تختبروا في مدرسة الهلاك هذه الحقيقة. بل خافوا الآن من الخطيئة خوفًا يجعلكم ان تحيدوا دائمًا عنها وتبلغوا سعادة القديسين الى ابد الابدين آمين *

الموعظة السابعة والاربعون

في شر الخطيئة العرضية

قال صاحب المزامير الزلات من يفهم (مزمور ١٨ : ١٢) - يا ما اقل الذين يفهمون ما هي الخطيئة وعظمتها. ومن ثمَّ يستخفون بها - فقد اتيتُ اليوم

لازيل عنكم حجاب هذا العمى وابيّن لكم شرّ الخطيّة العرضيّة لكي اطبع في قلوبكم بغضها. فتبيدوها من على وجه الارض – فنقول انَّ الخطيّة العرضيّة هي شرّ عظيم نظرًا الى ذاتها ومفعولاتها وجزائها – لعلّكم قد بلغكم يا مباركين انَّ قومًا من الهراطقة جعلوا كلّ الخطايا على حدٍ سوى بقولهم. انَّ جميع الخطايا هي مميتة. الّا انّ الآباء القدّيسين دحضوا هذا التعليم الهرطوقيّ. وذلك بكلّ صواب. لانّهُ كما انّ امراض الجسد ليس كلّها للموت. كذلك امراض النفس اعني خطاياها ليس كلّها للهلاك. بل انَّ النفس كما قال مار توما اللاهوتيّ تحصل احيانًا على حال الموت بفقدها معين حياتها ومصدرها. ومن غير العون الالهيّ لا تقدر ان تحصل على ما فقدتهُ – فهذه هي حال النفس حينما تفعل خطيّة باهظة بها تحيد عن غايتها الاخيرة لكي تلتصق بخيرٍ زمنيّ – غير انّهُ قد يحدث مرّات كثيرة انَّ النفس بالتصاقها بخيرٍ ما زائل لا تجحد غايتها القصوى ولا تفقد النعمة الالهيّة. وفي هذه الحال حال الخطيّة العرضيّة تحفظ مصدر الحيوة. اي النعمة الالهيّة فيمكنها ان تستردّ ما قد خسرتهُ *

ولكي تفهموا جيّدًا ما نحن عتيدون ان نشرحهُ. فاعلموا انهُ يمكن ان نخطئ خطيّةً عرضيّة على نوعين. اي امّا بالجهل والضعف البشريّ وبعدم الانتباه. وامّا بانتباه وتعمّد تامّ – امّا انا فلستُ اقصد اليوم التكلّم على النوع الاوّل من الخطايا العرضيّة. بل انني اتكلّم عن النوع الثاني اي عن الخطايا العرضيّة التي تُرتكَب بمعرفة كليّة وباختيار وتعمّد – فاقول: انَّ روح القدس على ما أرى عنى هذا النوع من الخطايا العرضيّة حينما قال على لسان الحكيم. لا ترضَ بان تكذب ايّ كذب كان (سيراخ ٧: ١٣). لم يقُل على الاطلاق لا تكذب. بل قال لا ترضَ ان تكذب مشيرًا بذلك الى انّ اعظم شرّ الخطيّة العرضيّة لا يتوقّف على السقوط فيها غفلةً. بل انّهُ هو قائم في ارتكابها بالتعمّد والاختيار – فعن هذه الخطايا العرضيّة اقول. اوّلاً انها خفيفة حقًّا بالنسبة

الى الخطايا المميتة . الاّ انّ شرّها ليس هو بخفيف . بل انهُ عظيم جدًّا – قال القدّيس باسيليوس انّي لستُ افهم كيف يجسر المسيحي ان يقول عمّا هو خطيّة مميتة كانت او عرضيّة . انّها شرّ يسير خفيف – وقال ايضاً القدّيس مار توما اللاهوتيّ متفلسفاً عمّا نحن في صددهِ : لنا ان ننظر الى الخطيّة العرضيّة على وجهين . اي من جهة النفس التي ترتكبها ومن جهة الله الذي يهان بها – امّا من جهة النفس . فنجد انَّ الخطيّة العرضيّة هي عيب لا يعدم النفس جمالها الجوهريّ اعني بهِ النعمة الملكيّة المبرّرة . الاّ انهُ يعدمها بهاءَها الخارج الذي يزيّن جمالها الجوهريّ . ومن ثمّ فالخطيّة العرضيّة تُذهِب الطف ما يوجد في النفس وابهجهُ وهو الذي كان يصيّر الله وملائكتهُ ان يُسرّوا بمشاهدتها – فلو كنّا نفهم جيّدًا جمال النفس الحاصلة على حال النعمة لاستعظمنا كلّ ما يُنقص منهُ ادنى شيء – انّ التي صارت عروسًا لملك عظيم يحبّها ويبتهج بجمالها تحترس على حسنها وجمالها احتراسًا بليغاً . واذا وُجدت امام ختنها بوجه موسَّخ بالطين تخزى وتستحي وتبادر الى تنظيف وجهها – فالنفس هي عروس مَلِك السماء . فكيف تستخفّ بما يُنقص جمالها . كيف لا تسرع في ازالة العيوب التي تخلّ بالطف ما يوجد في حسنها *

ثمّ انهُ اذا نظرنا الى الخطيّة العرضيّة من جهة الله فاننا نقول مع القدّيس باسيليوس . ان كلّ ما يهان بهِ الله ليس هو بشرّ خفيف – تذكّروا يا مباركين انَّ الله عظيم ومرتفع بعزّتهِ وجلال كمالاتهِ فوق كلّ ما يمكننا ان نؤدّي لهُ من التجليل والتوقير حتى انهُ يقتضي العقل ويلزمنا العدل ان نفضّل رضاهُ على رضى جميع الملوك وسائر الخلائق – فهل يجوز لنا ان نستخفّ بما يُنقص كرامة هذا المولى المتعالي *

انّي اقرّ معترفاً بانهُ اذا تكلّمنا بحصر المعنى . لا يجوز لنا ان نقول عمّن يخطئ خطيّة عرضيّة انهُ يهين الله . لانهُ هو مستعدٌّ حقّاً اقلّما يكون استعدادًا

ملكيًا ليرفض موضوع خطيّتهِ كلّ مرّة يظنّ انهُ يجلب على نفسهِ الغضب الالهيّ. اني اعترف ايضًا مع كوكب العلماء اللاهوتيّين. انّ الذي يفعلهُ الانسان بالخطيّة العرضيّة ليس هو مخالف للناموس بل هو خارج عنهُ. اي انهُ يخطئ بمخالفة كيفيّة العمل الواجب بالشريعة اكثر مما يخطئ بمخالفة غايتها. نعم انهُ لا يحفظ الناموس بالتدقيق الواجب. الاّ انهُ لا يعدم ما يلزمهُ بهِ الناموس من المحبّة لله وللقريب. بل انّما يضعفهُ فقط. ولكن مع هذا كلّهِ فلا شكّ في انّ من يخطئ خطيّة عرضيّة وان كان لا يعزل الله في عقلهِ عن المقام الواجب لعزّتهِ. ولا يهينهُ تعالى اهانةً صوريّةً الاّ انهُ لا يعتبرهُ الاعتبار الواجب – نعم انهُ لا يتباعد من الناموس الالهيّ تباعدًا كليًّا. الاّ انهُ لا يعمل بهِ بكلّ الضبط *

ولا ريب انّ الخطيّة تضادّ ارادة الله على نوعٍ ما. وبالنتيجة تُنقص كرامتهُ وتغيظهُ حقًّا – والحال انّ هذا الشرّ الذي بهِ يباد كمال حفظ الناموس الالهيّ هو اعظم من كلّ شرور الخلائق. فكيف هذا الشرّ شرّ الخطيّة العرضيّة يُدعى خفيفًا – قال ربّ المجد للقدّيسة بريجيتا: احذري من ان تستخفّي بخطيّة من جميع الخطايا – انهُ تعالى قدَّم للعدل الالهيّ آلامهُ وموتهُ وفاءً لا عن الخطايا المميتة فقط. بل عن العرضيّة ايضًا. فهل يجوز ان نقول عن دين قد وفى ابن الله عنهُ بكلّ دمهِ الزكيّ انهُ دين دنيّ غير معتبر – وان قلتم فلماذا اذًا تُدعَى الخطيّة العرضيّة غالبًا خطيّة خفيفة. لا انكر انّ الخطيّة العرضيّة هي خطية خفيفة. الاّ انها ليست هي شرًّا خفيفًا. نعم الخطيّة العرضيّة هي خفيفة حقًّا لانّها لا تصيّر فاعلها شرّيرًا مطلقًا ولا تستحقّ بذاتها ان يُجزَى صاحبها بعقابٍ ابديّ. ولا تميت النفس ولا تعدمها النعمة المبرّرة ولا تبعدها عن غايتها القصوى. ولا تجلب عليها غضب الله. الاّ انّها شرٌّ عظيم لا يوجد اعظم منهُ الاّ شرّ الخطيّة المميتة وشرّ جهنّم لكونهِ مقترنًا ببغض الله – لانّهُ نظرًا الى جميع عذابات جهنّم فقد قالت القدّيسة ترازيا. انهُ يجب على كلّ مسيحيّ ان يعتقد خلوًّا من كلّ

ارتياب . انّ خطيّة عرضيّة واحدة هي شرّ اعظم من شرّ جهنّم نفسهِ - فهل يمكن ان نستخفّ بمثل هذا الشرّ الذي بالنسبة اليهِ يجب ان نقول انّ تلاشي هذا العالم كلّهِ وكلّ الخلائق ليس شيئًا - تذكّروا يا مباركين كيف كان حال العالم لمّا ابتلعت المياه كلّ ذي جسدٍ في عصر نوح سوى ثماني انفس - فلو تفرّستم في الارض في ذلك الحين ورأيتموها مشحونة بالوف الوف وربوات ربوات من الناس لصرختم متأسّفين منذهلين قائلين : يا لهُ من منظر محزن مرعب - والحال انّ كذبة واحدة بسيطة خفيفة هي شرّ اعظم من هذا كلّهِ . لانّهُ لو امكن ان تنجو الناس من الطوفان بأدنى خطيّةٍ عرضيّة لم يكن ذلك جائزًا . بل كان يجب ان يهلكوا جميعًا بالمياه افضل من ان يكذب احد كذبًا بسيطًا *

فاحسبوا اذًا حكمكم في الخطيّة العرضيّة . واعلموا انّها تُدعى خطيّة خفيفة لا نظرًا الى ذاتها . بل بالنسبة الى الخطيّة المميتة . كما انّ النهر مهما كان عظيمًا واسعًا عميقًا . يُدعى صغيرًا بالنسبة الى البحر . وهكذا يقال عن الارض انّها ليست سوى نقطة صغيرة نظرًا الى العالم كلّهِ مع انّ قطر كرة الارض هو ربوات من الاميال - وقد جاءَ في سيرة الطوباويّة كاترينا الجنويّة انّهُ اضاءَ لها يومًا نور سماويّ بهِ عرفت كما حكمت كم يجب ان نخاف من ظلّ اصغر خطيّة عرضيّة . وكادت تموت من هول هذا المنظر وشهدت هي بانّها لو لم تضمحلّ هذه الصورة عاجلاً لماتت لا محالة او لجمد كلّ دمها - فاذ كان ذلك كذلك فماذا يقتضي ان يكون شرّ الخطيّة المميتة . ما اخوف ما تكون مشاهدتها ان كان ظلّ اصغر الخطايا العرضيّة ترعب بهذا المقدار - هكذا حكم القدّيسون الذين نظروا الى شرّ الخطيّة بنور الاهيّ . الشرّ الذي انتم تستصغرونهُ - فقد صحّ اذًا واتّضح انّ الخطيّة العرضيّة ليست بشرّ يسير خفيف اذا لاحظناها في ذاتها *

بقي علينا ان نبيّن عظم شرّها من مفعولاتها - قال الربّ الالهُ : احترز من ضربة البرص (تثنية ٢٤ : ٨) - قال جمهور العلماءَ في تفسيرهم هذه الآية انهُ

بلفظة البرص ينبغي ان نفهم الخطيّة العرضية لانّها وان كانت النفس لا تموت بها . الاّ انها بها تستعدّ للموت الروحيّ . ومن ثمَّ يلزمنا ان نتحفّظ منها تحفظًا بليغًا – ان اشرّ ما يوجد في الامراض هو انها غالبًا تكون استعدادًا قريبًا للموت . وكذلك اشرّ ما يوجد في الخطيّة العرضيّة هو استعداد النفس بها للموت الروحيّ . اي للسقوط في الخطيّة المميتة التي تعدمها النعمة الالهيّة القائمة فيها حياتها الروحيّة – وذلك يمكن ان يحدث على نوعين حسب تعليم معلّم اللاهوتيّين . اعني على وجه مستقيم وعلى وجه غير مستقيم *

فنقول اوّلاً انَّ الخطيّة العرضيّة تعدّ النفس للخطيّة المميتة على وجه غير مستقيم . بهدم ما كان يصون النفس ويقويها ضدّ اعدائها . والحال انَّ الشيء الاخصّ الذي يصوننا ويحفظنا من الخطيّة المميتة هي الفضيلة – نعم انَّ الخطيّة المميتة وحدها تستطيع ان تبيد ملكة الفضلية . الاّ انَّ الخطيّة العرضيّة تبيد افعال الفضيلة : فان كانت لا تبيدها بالكلية . فانّها تزيل حسن حرارتها . وتصيّر من ارتكبها ان لا يقضي رياضة العبادة بنشاطهِ الاعتياديّ – وما عدا ذلك اسألكم يا مباركين . ما الذي يمكّن ارادتنا في الخير ويصدّها عن مخالفة الوصايا الالهيّة : انهُ هو عزمها الراسخ على الخضوع التام لله . والحال انَّ هذا الانحراف عن الخضوع التام لله تعالى في اشياء خفيفة من شانهِ ان يصيّر النفس ان تستخفّ رويدًا رويدًا بما يخالف ناموس الله في اشياء افضل اعتبارًا – فيا ما اكثر الشرور الناتجة من الاستخفاف بالخطايا العرضيّة . ويا ليت محبّي الفضيلة يعقلون جيدًا هذه الشرور فيخافوا جدًّا من ان يرخوا العنان لحواسّهم فيسمعوا ويبصروا مهما اتّفق – على انهُ قد يمكن انّ كثرة الخطايا العرضيّة تحمل الله على ان يسلب منهم وفور نعمهِ المنتصرة . ومن ثمَّ يحدث انّ النفس تتورّط في خطايا باهظة تستمرّ فيها – ولهذا قال الحكيم : الذي يحقر اليسير يسقط قليلاً قليلاً (سيراخ ٩ : ١) في اسفل لجج القبائح – فهل يجوز لنا بعد ذلك ان ندعو الخطايا العرضيّة خطايا

خفيفة – انها شرارة ضعيفة. الاّ انّ الشيطان ينفخها فتضطرم كالنار (سيراخ ٢٨ : ١٤) – قد رأيتم الى الآن كيف انَّ الخطيئة العرضيّة تعدّ النفس للخطيئة المميتة على الوجه غير المستقيم. فانظروا الآن كيف تعدّنا للخطيئة المميتة على الوجه المستقيم – قال القدّيس اوغسطينس انَّ الانسان من حبّهِ الاشياءَ الباطلة يتّصل الى محبّة الاشياءِ المحرّمة. وذلك اذ يتّفق انّهُ يتعلّق قلبهُ باشياءَ باطلة تعلّقاً مفرطًا يصيّرهُ ان يفعل ما لا يجوز لكي لا يباينها – قد عُلم بالتجربة انّ النار تتولّد في كومة من الصوف من الابخرة المحصورة التي بالتمادي تلتهب وتحرق الصوف ومخزنهُ – انظروا هذا الفتى المتعلّق قلبهُ باشياءَ باطلة. المحبّ الحديث مع تلك الفتاة. فانّهما في الابتداءَ لا يقصدان شيئًا آخر سوى ان يصرفا الزمان ويلتهيا باطلاً. الاّ انّهُ بالتمادي يتقوّى الهوى وتلتهب النار. ومن يقدر حينئذٍ ان يطفيها – غير انَّ الخطيّة العرضيّة تعدّ الانسان للخطيّة المميتة بسهولة اوفر حينما يكون لكليهما موضوع واحد ومادّة واحدة. كما يتّفق لمن يثلم عرض القريب قليلاً او يسرق منهُ شيئًا يسيرًا. لانَّ الخطيّة العرضيّة لا تختلف حينئذٍ الاّ من جهة الكبر كاختلاف الشبل من الاسد فانّهُ وان كان الشبل ليس لهُ انياب بعد ولا مخاليب. الاّ انها ستظهر قليلاً قليلاً – قد قيل في الكتاب المقدَّس: الحكيم يخشى ويحيد عن الشرّ (امثال ١٤ : ١٦) *

الاّ انّ كلّ ما قلناهُ عن الخطيّة العرضيّة ربّما يبين لقوم من الناس شيئًا خفيفًا لا قدر لهُ. اعني بذلك الذين قد اعتادوا على الخطيّة المميتة ويبادرون راكضين الى الهاوية فلا يهمهم انّ الخطيّة العرضيّة تودّي الانسان الى الخطيّة المميتة – لانّ هؤلاءَ لا يريدون ان يتجنّبوا عن الطريق الواصل بهم الى ما يرغبونهُ. فلنشرحنَّ لهم حججًا اخرى اكثر فاعليّة واشدّ تاثيرًا – فنقول: انَّ الخطيّة العرضيّة هي شرّ عظيم لا نظرًا الى ذاتها ومفعولاتها فقط. بل نظرًا الى عقابها ايضًا – فاسالكم يا مباركين اليس عظم الدَّين يُعرَف من عظم وفائهِ. والحال

انَّ الخطيّة هي في مقام الدين والعقاب في مقام الوفاء - فاذا فهمتم ذلك اسالكم. لو رأيتم رجلاً مذنبًا قد حكم عليهِ حاكم عادل بان يموت بالشنق او بالحريق او بتقطيع جسدهِ اربًا اربًا في جريمة لا تعرفونها هل يختلج في فكر احد منكم انهُ يُعاقَب هكذا في ذنب خفيف - والحال انَّ الله يحكم بمثل هذا العقاب وارهب منهُ لاجل الخطيّة العرضيّة مع انّهُ تعالى من عادتهِ ان يمزج رحمتهُ بعدلهِ - ذكر القدّيس اودون رئيس دير كلوني انّ القدّيس جيرَرْدس الامير ضُرب بالعمى لانّهُ كان نظر بتفرّس شديد مرّة واحدة الى فتاة حسناء جميلة. والكتاب المقدَّس يذكر انّ احد الانبياء طلع عليهِ اسد وافترسهُ لمخالفتهِ امر الله في شيءٍ زهيد (١ ملوك ١٣ : ٢٤). وامرأة لوط لانّها خالفت وصيّة الملاك في امر غير معتبر ذاتًا. فاجأها الموت بغتة (تكوين ١٩ : ٢٩). وعوزا اللاويّ لانّهُ مدّ يدهُ الى تابوت العهد بقلّة احترام سقط في ساعتهِ ميّتًا (سموئيل ٦ : ٦). واهل بيت شمس لانّهم نظروا الى هذا التابوت بقلّة الاحترام مات منهم خمسون الفًا ونيّف. وداود الملك لانّهُ بروح العجرفة رام ان يحصي الشعب الاسرائيلي. ارسل الله وبأً على مملكتهِ فاهلك في مدّة ثلاثة ايام سبعين الف نفس. وحنانيا وشفيرة امرأتهُ لسبب كذبة مجرّدة كما زعم اغلب المعلّمين فاجأهما الموت (قصص ٥ : ١٠) - فمن منكم يا مباركين اذا رأى انسانًا فاتكاً بالناس يقتل استعراضًا لا يرتعد فرقًا ولا يهرب منهُ مسرعًا. فكيف ننظر بعين باردة الى الخطيّة العرضيّة التي ملأت مملكة داود من القتلى وبسببها قُتل اناس لا يُحصى عددهم - فحتّى متى نسمع فتيانًا وفتيات يقولون: لا باس ان نخرج الى الشوارع ونذهب الى الكنائس بثياب مزخرفة تجلب الينا عيون الناس. لانّهُ في هذا لا توجد غالبًا الاّ خطيّة عرضيّة - لكن يمكن انّ الله الفاحص القلوب يرى في قلوبكم شرًا اعظم من ذلك - هبوا انّ الامر كما قلتم اي انكم لا تقصدون سوى ان يمدحكم الناس. ومن ثمّ تكون خطيتكم خطيّة

العجرفة. وهذه الخطيّة العرضيّة عينها هي هي التي جلبت على داود بلايا شديدة. فكيف لا تخافون من ان يصنع الله بكم هكذا - فاعلموا انّكم بهذه الخطيّة العرضيّة تستحقّون ان تموتوا حالاً. بل ان تموتوا بأهول نوع من انواع الموت. لانّ السيد المسيح قال يوماً للقدّيسة كاترينا السيانيّة. ان كلَّ اتعاب هذه الحيوة لا تكفي للوفاء عن خطيّة عرضيّة واحدة *

فهل يجوز لنا ان نشكّ في هذا نحن الذين قد عرفنا من الايمان انَّ الله يعاقب الانفس في المطهر لاجل خطيّة عرضيّة بعذابات اخفّها يفوق اشدّ عذابات هذه الحيوة - انّهُ لو وجد احد واسطة بها يحفظ المجرم حيًّا في وسط نار محرقة مدّة ساعة واحدة لكان قد وجد عذابًا اعظم من كلّ انواع العذاب التي اخترعها الطغاة الاقدمون الذين فاقوا في القساوة غيرهم - وما هذا بالنسبة الى من يعيش في نار المطهر لا ساعةً واحدةً بل شهورًا وسنين عديدة - انَّ السنة تشتمل على ثمانية آلاف وسبعماية وستّ وستّين ساعة. فيا لعظم شرّ الخطيّة العرضيّة التي تستحقّ ان يُعذَّب صاحبها هكذا بأمر الله العادل - قال الرسول: انَّ النار تظهر اعمال الناس كيف هي (١ قورنثية ٣ : ١٣) *

نعم يا مباركين انَّ النار المطهريّة تظهر لنا عظم شرّ الخطيّة العرضيّة - ذكر القدّيس غريغوريوس الكبير انّ بسكاسيوس الشمّاس الذي بعد موتهِ كان مجرّد لمس ثوبهِ يخرج الشياطين من اجساد المجانين تعذّب في المطهر لاجل خطيّة عرضيّة - وخبّرنا القدّيس بطرس دمياني انّ القدّيس ساوارينس اسقف كولونيا تعذّب كذلك في المطهر لانّهُ صلّى الصلوة الفرضيّة خارجًا عن الوقت المرسوم *

فهل يمكن بعد ذلك ان نستخفّ بالخطيّة العرضيّة ونستصغر ما يستوجب عذابًا شديدًا - من منّا لا يعتقد الآن ويعترف انَّ شرّها عظيم جدًّا جدًّا نظرًا الى ذاتها ومفعولاتها وعقابها - غير انّ الذي احبّ على الخصوص ان تنتجوهُ من هذا التعليم. هو ان تتيقّنوا جزيل شرّ الخطيّة المميتة مقابلين ايّاهُ

بشرّ الخطيّة العرضيّة - فاجمعوا كلّ الخطايا العرضيّة التي صدرت من ابتدآء العالم الى زماننا هذا. ثمّ اعلموا انّ كلّ هذه الخطايا التي لا تُحصَى عددها لا توازي شرّ خطيّة مميتة واحدة. والسبب هو انّهُ وان كان الانسان بالخطيّة العرضيّة لا يسير الى غايتهِ سيرًا مستقيمًا. الاّ انّهُ يستمرّ في الطريق المودّية اليها. وبخلاف ذلك فانّهُ بالخطيّة المميتة يتباعد عن هذه الطريق كلّ التباعد. وبالنتيجه فالذي لا ريب فيهِ ولا جرم. انَّ شرّ كلّ الخطايا العرضيّة المفعولة والممكن فعلها لا يوازي شرّ خطيّة مميتة واحدة. وشرّ هذه هو اعظم من شرّ كلّ تلك الخطايا بما لا يُدرَك وتستوجب عقابًا اشدّ بما لا يحدّ من العقاب الذي تستحقهُ كلّ الخطايا العرضيّة كافّةً *

وبعد تأمّلنا شرّ الخطيّة في هذه المواعظ المختلفة. فلنختم هذا التعليم بما قالهُ الله على لسان الحكيم: اهرب من وجه الخطيّة كما من وجه الحيّة (سيراخ ٢١ : ٢) - يشير تعالى هنا انّهُ لا يكفي ان نتجنّب الخطيّة. بل انّهُ يجب ان نتباعد عنها حيثما راينا وجهها اي ظلّها وصورتها. كما انَّ الذي يصادف حيّة في الطريق يهرب منها حالاً ولا يقف لكي يميّز صورتها ويسمع صفيرها - فاهربوا يا مباركين من الخطيّة كهربكم من الحيّة. اهربوا من كلّ خطيّة مميتة كانت او عرضيّه. احذروا من ان تستخفّوا بشرّ الخطيّة العرضيّة وتدعوا شرًّا يسيرًا الشرّ الذي يضادّ ارادة الله ويعدّنا لفقد نعمتهِ وملكوتهِ. ويعاقبنا الله بهِ في المطهر بعذابات هائلة - فاهربوا من كلّ خطيّة لاسيّما المميتة. اهربوا منها كهربكم من حيّة جهنّميّة وهكذا تجعلون خلاصكم ثابتًا وتستحقّون المجد الابديّ بنعمة الآب والابن وروح القدس. آمين *

تمّت النبذة الثانية

الموعظة الثامنة والاربعون

في حماقة من يؤخّر توبتهُ الى ساعة الموت

قال سيّدنا يسوع المسيح: صلّوا لئلاّ يكون هربكم في شتآء (متى ٢٤: ٢٠) فكانهُ تعالى يقول بالمعنى الحرفيّ: اعلموا انهُ اذا حاصر الروم يومًا مدينة اورشليم تصبح هذه المدينة في ضيقة شديدة جدًّا. حتى انهُ يضطرّ كلّ احد ان يتداركها ويهتمّ بان يهرب من اورشليم في زمن مناسب ولا يؤخّر هربهُ الى زمان الشتآء الذي فيهِ يكون النهار قصيرًا او مياه الانهر متفاقمة - الاّ انهُ جلّت حكمتهُ يعني لنا شيئًا آخر في المعنى الادبيّ. فيشير الى جميع الخطاة ان لا يؤخّروا توبتهم وهربهم من غضبهِ الى مرضهم الاخير. لانهُ في ذلك الزمان يصعب هذا الهرب جدًّا - فصلّوا واحذروا من ان يكون هربكم في الشتآء. اياكم ثم اياكم ان تؤخّروا سفركم الاخير الى هذا الشتآء الجزيل الصعوبة والكثير الخطر زمن المرض الاخير*

وما الذي يصيّر زمن الشتآء صعبًا غير مناسب للسفر: انّ صعوبة هذا الفصل تتولّد من الرياح والارض والشمس. على انهُ في زمن الشتآء تهبّ رياح عاصفة. والارض تكون باردة. والشمس قليلة التاثير لا تحمي الارض. وهذه الاحوال ترينا جيّدًا حال الخاطئ الذي أخّر توبتهُ الى ساعة الموت - فاعتبروا يا مباركين كم يكون الشتآء صعبًا من قِبَل الرياح التي من عادتها ان تكون شديدة قاصفة. وهذه الرياح هي تجارب الشيطان الذي يشدّد قوّتهُ ويفرغ كلّ حيلهِ لقصر الزمان الباقي لهُ ليكسب النفس لهُ - وقد علمتم انّ الرياح تقوى غالبًا عند انقضاء النهار. وهذا نفسهُ يحدث غالبًا في التجارب. اذ تشتدّ في

آخر حياة الانسان. ولهذا قيل في سفر الرويا. انّهُ ينزل الشيطان بغضب عظيم لعلمهِ انّ لهُ زماناً قليلاً (رويا ١٢ : ١٢) - يمكن انّ قوماً من الحاضرين لا يفهمون صعوبة مقاومة هذه التجارب. فلنضربنَّ مثلاً يسهّل لهم فهم ذلك: اذا اشترى الواحد منكم شيئاً نفيساً من تاجر بثمن يُدفَع في اجل مسمًّى فاذا تلاقى التاجر مع المشتري في المدينة لا يزعجهُ بطلب حقّهِ منهُ. غير انّهُ اذا ما شعر بهِ انّهُ عازم على الذهاب الى بلاد غريبة. وقد تأهّب للسفر. فحينئذٍ ياتيهِ التاجر ويطلب منهُ حقّهُ بلجاجة. بل انّهُ يتوعّدهُ بالسجن اذا لم يوفِ دينهُ في الحال. ولماذا ذلك الاّ لانّهُ يرى المشتري مستعدًّا للسفر والتغرّب - فهذا ما يحدث بالذين يؤخّرون توبتهم الى وقت الموت. لانّ الشيطان اذا رأى خاطئاً مشرفاً على الموت يفتكر متفلسفاً ويقول باطناً: ها هوذا هذه النفس مستعدّة متأهّبة للسفر والتغرّب اي للانتقال من الدنيا الى الآخرة. فان كنتُ الآن لا اخلّص حقوقي منها فلن يمكنني فيما بعد ان اخلّصها. لانّهُ فيما بعد لا يكون زمني البتّة. ولا اقدر ان اجرّبها - ومن اجل ذلك يبذل معهُ الشيطان كلّ جهدهِ وجدّهِ ويحاول ان يغريهُ بأشدّ ما في حيلتهِ من التجاريب - روى سوريوس المؤرّخ الجليل انّ القدّيس اليعازر الامير الذي حفظ بتوليّتهُ في دعوة الزيجة مع القدّيسة دلفينا خطيبتهِ لمّا قارب الموت قال مرتعداً مرتجفاً: يا ما اقوى تجارب الشيطان في ساعة الموت - فيا ما اخوف ما تكون قدرتهُ حينما يجرّب انساناً خاطئاً معتاداً على كلّ نوع من القبائح. لانّ تجاريب الابرار في ساعة الموت تشبه الرياح الاعتياديّة المعتدلة. واما تجاريب الخطاة فتشبه رياح عاصفة حاصلة ممّا في عقولهم وقلوبهم من الافكار والاشواق المضادّة للعقل الطبيعيّ والايمان - قال مار توما اللاهوتيّ: انَّ الشيطان يحرّك احياناً هوى الانسان وبصيرتهُ ان يحسب الاشياء خلاف ما هي. كما يتّفق لمن يحلم في النوم *

ومن هم الذين يعاملهم ابليس على هذا المنوال وبهذا السلطان غير الذين اخضعوا انفسهم لهُ اختياراً – ولا تقولوا انّكم رايتم كثيرين من هؤلآء الخطاة توُفّوا بحسن الهدوّ والسكينة . لانّي اجيب واقول : انّ هذه السكينة شرّ من العاصفة . لانّ الخاطئ المعتاد على الرذيلة اذا شرع عند اقتراب الموت يخاف ويرتجف فانهُ يرعبني اذ اخشى عليهِ انّ ضعف رجائهِ يستحيل الى اياس وقنوط . غير انّي ازداد خوفاً عليهِ اذا رأيتهُ هادئاً غير مضطرب . بل أَيأَس من خلاصهِ . لانّ مثل هذا الموت الهادئ في رجل اثيم هو فعل صادر من انّ الشيطان بشدّة تجاريبهِ سلب منهُ الايمان – قال إمام الاطبآء : اذا حدث انّ المريض يسودّ لسانهُ ولا يشعر بعطش فانّ هذه علامة رديّة جدّاً ودليل على انّهُ يفقد العقل بعد قليل – فمثل هذا يحدث في امراض النفس . أُنظروا الى هذا المريض الذي اسودّت نفسهُ بالوف الوف الخطايا ولم تشعر بحركة باطنة من حركات العبادة كأَنّها لا علم لها بوجود الله وجهنّم والفردوس – لعمري انَّ الشيطان لو لم يرَ هذه الفريسة بين مخاليبهِ لما تركها في حال هذا الهدوّ *

خبّرنا رجل لبيب انّ شاباً غنياً سيئاً تعاهد مع الشيطان ووعدهُ بتسليم نفسهِ لهُ بعد موتهِ اذا بلّغهُ مآربهُ ونجّاهُ من بلايا العالم – فاتّفق بعد ذلك انّ الحاكم درى بجرائمهِ . فأَرسل وقبض عليهِ وحكم ان يموت شنقاً . وفيما هو مسوق الى المقتل في وسط الشرَط فعوضاً عن ان يدعو الى الله بروح التوبة كان يستنجد الشيطان بصوت منخفض ويطلب منهُ ان يخلّصهُ من ايدي خدّام الحاكم . واذا باللعين ظهر لهُ ماسكاً بيدهِ حذآء عتيقاً بالياً وقال لهُ : انظر الى هذا الحذآء انّي قد ابليتهُ بالركض ورآءك لكي الحقك . والآن بعد ما بلغتُ اربي وادركتك . اتظنّ انّي جاهل احمق حتّى اعينك لكي تهرب منّي : اذهب الآن ومُت مقطوع الرجآء . لانّي اتمنّى بكلّ رغبة قلبي ان اراك معي في

لجّة الهلاك - فهذه هي العواصف المختفية تحت تظاهر هدوّ الاثمة في ساعة موتهم - فيا لسوء حظّ النفس التي توَّخّر هربها الى هذه الساعة اذ تكون الرياح عليها شديدة باردة حتّى انّها لا تقدر ان تخطو خطوة واحدة *

الّا انّ الخطر الاعظم ليس هو من قِبَل وساوس الشيطان الخارجة فقط لانّي لستُ اخاف منها كخوفي من خبث ارادة الخاطئ. لانّ قلبهُ الصلد هو كالأَرض التي بيبسها وبرْدها وجليد الملكات الرديّة فيها تزيد السفر في هذا الفصل من السنة تعبًا وعياءً وخطرًا. لانّ حال الخاطئ في ساعتهِ الاخيرة يشبهُ حال اليعازر اذ كان في قبرهِ ويداهُ ورجلاهُ مشدودة وعلى عينيهِ منديل - لانهُ في تلك الساعة الاخيرة ربّما يحدث احد هاذين الامرين اي امّا انَّ الخاطئ المريض لا يقدر ان يتوب مع انهُ يتمنّى ذلك. وامّا انهُ لا يريد ان يتوب مع كونهِ قادرًا على ذلك - امّا انّ الخاطئ لا يقدر ان يتوب فلأَنّهُ يكون حينئذٍ مشدود العينين بعمى روحيّ يصيّرهُ ان يجهل الله اكثر ممّا يجهلهُ في العافية. لانّهُ في العافية وهو صاحي العقل وحسن الحواسّ الظاهرة والباطنة يتعب كثيرًا في أَن يحرّك في قلبهِ شوقًا مقدّسًا او يرفع عقلهُ الى الله. فكيف يفعل ذلك حينما تكون قوّتهُ قد خارت ونُهك جسمهُ بشدّة الحمّى وامتلأَ دماغهُ من الخيالات وخلل العقل - انّ من لا يبصر في وقت الظهر كيف يمكنهُ ان يبصر وقت المساء. ولهذا قد نصحنا ارميا النبيّ قائلاً: اعطوا الربّ الاهكم مجدًا قبل ان ينشر الظلام (ارميا ١٣ : ١٦) . لانّهُ عند اقتراب ظلام اليوم الاخير يعسر عليكم أن تبصروا - انكم في ذلك الزمان ستفهمون عظمة عزّة الله وعظمة اهانة الخطيّة لهُ اقلّ ممّا تفهمونهما الآن. فلا بدّ من انّ تغيير الارادة وتوبتها يعسر حينئذٍ اكثر ممّا يعسر الآن. وهكذا تكون حينئذٍ ايديكم وأَرجلكم مشدودة *

ثمّ اعتبروا انّ الارادة تكون في ذلك الزمان منهمكة بالوجع الحاضر الذي يصدّها عن الاهتمام الواجب بالفرار من الوجع المستقبل - اخبروني

يا مباركين اذا ما اتّفق ان يموت لكم ابن عزيز فما حالكم حينئذٍ . انّكم تستمرّون ايّامًا كثيرة مكروبين لا يمكنكم ان تفتكروا الاّ في سبب حزنكم - تصرفون النهار والليل متغاضين عن ذكر الله مهملين فرائض العبادة لله عائشين عيشة البهائم . وما سبب ذلك الاّ انّ كربتكم الحاضرة تملك ارادتكم وتمنعها عن كلّ فكر آخر - اتظنّون انّكم تحزنون على فقد حياتكم اقلّ من حزنكم على فقد اولادكم . فاسبقوا اذًا وانظروا ماذا يجري لكم في زمن مرضكم الاخير - انَّ القليل الذي سيبقى لكم من العقل فعوضًا عن ان توجّهوهُ الى الله والى ما يحرّككم الى محبّتهِ وبغض الخطيّة توجّهونهُ كلّهُ الى مرضكم واوجاعكم متأسّفين على مفارقتكم عيالكم . متحبّبين على ترك بنيكم واموالكم ولاسيّما ترك هذا الجسد الذي احببتموهُ اكثر من الله - انهُ يقال بالمثل : اليد تركض الى ما يوجع اكثر واذ ذاك فكيف يمكن انّكم اذا احدق بكم ما تفزعون منهُ اكثر الفزع اعني بهِ الموت . تستطيعون ان تعتنوا بما يخصّ خير النفس او ضررها ولاسيّما انتم الذين في حياتكم لا تبالون الاّ بالفوائد والاضرار الارضيّة *

خبّرونا انَّ كارلوس الخامس الملك المشهور لمّا كسر جيش الهراطقة اللوتاريّين وقبض على قائد جيشهم امير سكسونيا شاع خبر بانّ الله شرّف جيش كارلوس بعجائب وآيات سماويّة - وبعد ذلك بزمن اتى الى باريس احد قوّاد جيش كارلوس الملك . فسألهُ ملك فرنسا عن صحّة هذه العجائب والآيات . فاجابهُ القائد وكان من الذين اشتهروا في تلك الواقعة قائلاً : انّي في ذلك اليوم كنتُ مهتمًّا بما كان يحدث على الارض فما وسعني ان اعلم ما كان يحدث في السماء - يا ما اكثر الذين يسوغ لهم ان يقولوا مثل هذا في ساعة الموت . لانّهم لفرط ما يفتكرون في مزاولة اوجاعهم وفي ما يخصّ اهل بيتهم . وفي سائر الامور الارضيّة لا يجدون وقتًا ليفتكروا في الامور السماويّة الخلاصيّة . ويجوز ان اقول عنهم انّهم يبلغون الى الدنيا الآخرة قبل ان يدروا بذهابهم اليها واقترابهم منها *

انّي لستُ انكر انّهم في هذا الحال يستفيقون ويرون خطر الهلاك الابديّ لانّهُ ولو انّ الايمان قد ضعف فيهم. الاّ انهُ لا ينطفئ. ولكن ما الفائدة الحاصلة لهم من ذلك - شتّان ما بين خوف الانسان من العذاب وبين بغض الخطيّة. لانّ الامر الاوّل هيّن وسهل. والبهيمة نفسها ترتجف عند اقترابها من المسلخ. وامّا الامر الثاني فانّهُ عسر ومستصعب جدًّا للخاطئ اذ انّهُ من احدى الجهات قد اعتاد ان يستخفّ بشرّ الخطيّة بل قد اعتاد ان يحبّها ويجعل فيها سرورهُ الوحيد. ومن الجهة الاخرى قد حصل على حال الضعف المذكور - كيف تستطيع يداهُ ورجلاهُ اللتان قد خارت قوّتهما ان تحرّكا هذا الحجر الثقيل. وها انّهما لا تقدران ان تحرّكا الاّ بعناءٍ عظيم اليم جدًّا - وما هو هذا الحجر. انّهُ هو ملكاتهُ الرديّة المستحيلة الى طبيعة - انّك لو كنت قد تعوّدت منذ الابتداء ان تخاف الله وتخضع لهُ ارادتك وتحسب انّ الخطيّة هي الشرّ الاعظم. لجاز لنا حينئذٍ ان نعتقد انّهُ في ساعتك هذه الاخيرة تنتفع من عادتك الصالحة وتلتفت الى الله. مع انّك متضايق جدًّا من قِبَل مرضك المميت - ولكن من كانت حال نفسهِ غير هذه الحال فماذا يصير منهُ - انّك ستشتهي وقتئذٍ ما تجد نفسك عاجزة عنهُ - ان الفيل ولو كان حيوانًا ثقيلاً اذا اعتاد من صغرهِ ان يحني ركبتهُ فانّهُ يحنيها ايضًا في شيخوختهِ لفرط ما يبست عروقهُ - فليتصوّر الخاطئ انّهُ حاصل على هذه الحال: ان كان قد اعتاد من صبائهِ على احترام سلطان الله المطلق على جميع الخلائق وابتدأ من صغر سنّهِ ان ينحني طائعًا لناموسهِ الالهي. فيمكنهُ ان يفعل ذلك ايضًا على الفراش - ولكن الذي لم يفعل ذلك في حياتهِ اعتقدوا انّهُ من المستحيل على نوعٍ ما ان يفعلهُ في ساعة موتهِ - انّهُ سيجد قوى نفسهِ في اشقى حال اذ لا يخطر ببالهِ ما لا بدّ منهُ للخلاص. وهو انّهُ يجب ان يحبّ الله فوق كلّ خير مخلوق. ويبغض الخطيّة فوق كلّ شرّ آخر. وقد اشار الى ذلك ارميا النبي بقولهِ: ليس احد يتوب

عن شرّهِ قائلاً. آه ما فعلتُ (ارميا ٨ : ٦) - هذا تفعلهُ العادة في الخطاة. وهو انهم لا يفيقون على شرّ خطاياهم. ومن ثمَّ يستتلي النبيّ عنهم قائلاً. بل لم يخزوا خزيًا وجهلوا الحياء (ارميا ٨ : ١٢) - وهذا هو بلاء آخر صادر من صلابة قلوبهم التي لا تدعهم ان يتوبوا - فما الذي يحدث بهم عند موتهم. اخبرنا النبيّ عن ذلك قائلاً: لذلك يسقطون مع الساقطين. وفي حين افتقادهم يعثرون. يقول الربّ (ارميا ٨ : ١٢) *

غير انّهم ربما يجدون في ساعة موتهم عونًا وعلاجًا من قِبَل الكهنة والرهبان فيعينونهم على رفع الحجر عن ظهورهم. ولا ريب انّهم لولا الحال الذي هم فيهِ لكانوا يستفيدون جدًّا من معاونتهم. الاّ انّني انذرهم من الآن بخطر هلاكهم من هذه الجهة ايضًا. لانّهُ يوجد حيوان لهُ الف رجل ولكن لا يتحرّك ولا يمشي الاّ بالكدّ الشديد. وذلك لانّهُ قليل الدم جدًّا. ومن ثمَّ فليس لهُ حرارة كافية للحركة - وهكذا نرى قومًا من الخطاة عند موتهم: لهم في ساعة الموت كهنة ورهبان كثيرون. غير انّهم لعدم وجود شرارة واحدة من محبّة الله في قلوبهم لا يستفيدون من هذه الاسباب القدسيّة ويتّفق لهم ما اتّفق لداود الملك في زمن شيخوختهِ. وهو انّهُ لم يكن يستدفئ وكان يجد البرد مع انّهُ كان لابسًا اثوابًا كثيرة (١ ملوك ١ : ١) - نعم انّ هؤلاء الكهنة بنصائحهم يحملونك على ان تعترف. الاّ انَّ اعترافك هذا سيكون لديك كوضع الثياب على جسدك لتدفأ - انّ الامر الذي تحتاج اليهِ ليس هو قائمًا في هذا. بل انّهُ يتوقّف على وجود الحرارة باطنًا وهي التي تصيّرك ان تستفيد من هذه الادوية الروحيّة التي يجود بها الله عليك لخلاصك. اي لتعترف اعترافًا نصوحًا - والحال انَّ لي دليلين قويَّين او علامتين تصيّراني ان اشكّ جدًّا في صحّة اعترافك *

العلامة الاولى هي انّ اعترافك يبين كانّهُ اعتراف غصبيّ اكثر ممّا يظهر انّهُ اعتراف اختياريّ. وعن مثل اعترافك هذا قال القدّيس هيرونمس:

ما هذه التوبة التي تتوبها لاجل هذا فقط. وهو انك ترى انهُ لا يمكن ان تعيش بعد - اخبروني يا مباركين ما قولكم عن حصان تمرّد على راكبهِ وشرع يركض طردًا على رغم من يشدّ فكّيهُ باللجام. اذا وقف هذا الحصان بغتةً عند وصولهِ الى نهر عميق لخوفهِ ان يعبرهُ فهل تقولون عنهُ انهُ وقف وهدأ لاجل اجتهاد راكبهِ في ضبطهِ. الستم تقولون انهُ كفّ عن الركض لانّ الطريق انسدّ عليهِ - فهكذا ايضًا قولوا عن الرجل الخاطئ الذي ما زال راكضًا وراء شهواتهِ ولم يُضبَط باللجام مخافة الله: نعم انهُ لمّا رأى امامهُ الموت كنهر عميق مفزع. كفّ عن الخطيّة لا لسبب انهُ ما عاد يريد ان يخطئ بعد. كلاّ. بل لانهُ ما عاد يمكنهُ ان يخطئ. فليس لجام خوف الله الذي ضبط شهواتهِ - اسمعوا ما يُقرأُ في كتاب قوانين الكنيسة: من تتركهُ الخطايا قبل ان يتركها. فانهُ يرغب عنها لا اختياريًّا بل اضطراريًّا على نوع ما - قال سينكا الفيلسوف: ان اردتَ ان تعلم هل اريد انا شيئًا فاجعلني على حال استطيع فيها ان لا اريد - فان اعترفت بمعاشرتك اناسًا سلكت معهم في طريق الفساد. فلا يصعب عليك في مرضك الاخير ان تقول اعتقد يا ابانا انّي لن اذهب الى بيوتهم ولا اسلك معهم. لانّ هذا المحقّق عندي وهو انّك اذا ذهبت الى القبر ودُفنت فيهِ لا تعود تدخل منازل الخطاة ولا تعاشرهم - كيف تعلم في ساعة موتك. هل سبب ذلك يكون من تغيير الارادة ومن انّك ترغب عن هذه اللذّات اللحميّة. اذ انّك حينئذٍ في حال لا تدعك ان تملك ما ترغبهُ - انهُ لست انت الذي تترك السيرة الرديّة بل السيرة الرديّة هي التي تتركك - قد انتهى سلوكك وسعيك البهيميّ لانّ الطريق قد انتهت قدّامك - وهذه هي العلامة الاولى التي توجب الشكّ في هذه التوبة المتأَخّرة الى ساعة الموت *

العلامة الثانية لعدم صحّة التوبة التي كلامنا عنها هي اختبار ما يحدث غالبًا وهو. انهُ اذا سلم أَحد من هؤلآء الخطاة من الموت وتعافى يرجع سريعًا

الى ما كان عليهِ سابقًا : انهُ لا يردّ ما كان وعد الكاهن بردّهِ . ولا يغلق باب بيتهِ على من كان سبب فسادهِ . وكلّ ما جزم عليهِ من الاعمال الحميدة تعود كمواعيد النوتيّة التي لا دوام لها الاّ ما دام البحر هائجًا – قال القدّيس هيرونمس انهُ رأى كثيرين من الاغنياء بعدما تابوا في حال خطر الموت طابوا بالجسم وازدادت انفسهم شرًّا – ومن اجل ذلك كان هذا القدّيس يشكّ كثيرًا في التوبة المتأخّرة الى حين خطر الموت . لانّ لنا ان نظنّ بهم أنّهم في هذه التوبة المتأخّرة لا يبغضون الخطيّة حقًّا . بل أنّما يخافون من الخطر خوفًا طبيعيًّا لا يكفي للتوبة الحقيقيّة – انّ الاسد اذا افترس فريسةً وركض الراعي وراءهُ يترك الفريسة ويهرب . الاّ انهُ بعد ان يمضي الراعي يرتدّ اليها ويفترسها . دليلاً على انّ السبب في تركهِ الفريسة لم يكن كرههُ لهذا الطعام بل خوفهُ من الراعي – فبالصواب اذًا نشكّ في صحّة توبة الخطاة المؤخِّرين اعترافاتهم الى ساعة الموت *

ان مجرّد تاخيرهم توبتهم الى هذه الساعة الاخيرة من حياتهم . يبيّن جليًّا انهم لم يكونوا يبالون بنعمة الله . ومن ثمّ فاذا خافوا عند اقتراب الموت من الانتقام الالهيّ . فانّ خوفهم هو خوف عبديّ كخوف انطيوخس الملك الهالك . وهو الخوف الذي ولو انّهُ يجعل الانسان ان يعتقد بالسلطان المطلق الذي لله عليهِ . الاّ انهُ لا يجعلهُ ان يحبّهُ ولا يصيّرهُ ان يخاف من اسخاط هذا المولى العظيم حينما لا يريد تعالى ان ينتقم منهُ – وما عدا ذلك من تغاضى عن طلب شيءٍ اضاعهُ مدّةً مديدة أليس ذلك دليلاً واضحًا منهُ على انّ ذلك الشيء لا قدر لهُ عندهُ – اذا ضاع لكم في الطريق كيس مملوءٌ ذهبًا . فهل تتأخّرون يومًا واحدًا في طلبهِ . كلاّ . بل انكم حالما تحسّون باضاعتهِ ترجعون الى الوراء وتفتّشون عليهِ خطوةً فخطوةً بأعين شاخصة وتستخبرون عنهُ كلّ من تجدونهُ في الطريق – فكيف نصدّق ان هؤلاء يعتبرون حقًّا النعمة الالهيّة ويفضّلونها على كلّ شيء .

وهم الذين بعدما فقدوها يستمرّون شهورًا واحيانًا سنة كاملة . بل انّهم ينتظرون ظلام الليل لكي يطلبوها . اعني الزمان غير المناسب لوجدانها . وهو زمن المرض الاخير - الويل لمن يؤخّر توبتهُ الى هذا الزمن . الويل للذي لا يريد ان يفتّش على نعمة الله الاّ في هذه الحال . لانّهُ قد قال السيّد المسيح . انكم تطلبونني ولا تجدونني (يوحنا ٧ : ٣٤) . وقال اشعياء النبيّ : اطلبوا الربّ ما دام يوجد (اشعيا ٥٥ : ٦) . وقيل في سفر الانشاد عن النفس المومنة التي طلبت الله في ظلام الليل انّها ما وجدتهُ (نشيد ٣ : ١) - ولماذا هؤلاء الخطاة لا يجدون الله غالبًا في ساعة حياتهم الاخيرة . لانّهم غالبًا لا يطلبونهُ كما ينبغي . على انهُ قيل في الكتاب المقدّس : اذا طلبت الربّ الاهك فتجدهُ ان بحثت عنهُ من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك (تثنية ٤ : ٢٩) *

فهذا هو السبب الذي من اجلهِ رذل الآباء القدّيسون دائمًا التوبة المؤخّرة الى المرض الاخير - نعم انهم يقرّون انّهُ قد يمكن ان تكون هذه التوبة صحيحة . الاّ انّهم يقولون ايضًا انّها عسيرة ونادرة الوجود . بل انّ ترتليانس يدعوها توبة مغتصبة . ومثلهُ قال القدّيس قبريانس والقدّيس غريغوريوس وهيرونمس وامبروسيوس وبرنردس - وامّا القدّيس اوغسطينس فلمّا تكلّم عن ذلك قال : انّ الذي اقولهُ انّما اقولهُ امام الله كحقيقة لا شكّ فيها . فاقول انهُ اذا اشرف رجل خاطئ على الموت وطلب الاعتراف فاننا لا نمسك عنهُ ما يطلبهُ منّا . الاّ اننّا لا نضمن توبتهُ ولا نجسر ان نقول انّ خلاصهُ هو في امان - اننا نناولهُ سرّ التوبة . وامّا الامان فلا نقدر ان نعدهُ بهِ - واستنتج من ذلك القدّيس قولهُ : ان اردت ان تنجو من هذا الشكّ فتب وكفّ عن الخطيّة ما دمت متعافيًا *

فصلّوا اذًا يا مباركين لئلاّ يكون هربكم في شتاء . لانّهُ ما الذي يبقى لتعزية الخاطئ الحاصل على بردٍ مميت صادر من رياح التجارب الاخيرة ومن

صلابة قلبهِ غير ان تنتصر عليهِ شمس الجود الالهيّ ورحمة الله الذي يشرق شمسهُ على الاخيار والاشرار - الّا انّ هذا نفسهُ يزيدني خوفًا من انّ البرد الناجم من هذه الجهة فضلاً عن انهُ عظيم يكون ايضًا غير محتمل . لانهُ قد قال النبيّ : قدّام وجه بردهِ من يقوم (مزمور ١٤٧ : ١٤) - اعتبروا هنا يا مباركين انّ الذي يسبّب على الخصوص برد الشتاء هو الشمس . لا كأنّ الشمس تسبّب البرد باشعتها . بل لانّهُ حالما تتباعد الشمس من الارض تعدم الارض حرارة الشمس فتبرد - وعلى هذا المنوال يسوغ لنا ان نقول انّ الله يكون السبب الاوّل في ان يبرد قلب الخاطئ وييبس ويقسو في ساعتهِ الاخيرة - وبهذا المعنى قال الله عن فرعون الملك انّي اقسّي قلبهُ . لا كأنّهُ تعالى وضعًا قسّى قلبهُ وزادهُ خبثًا . بل لانّهُ تعالى سلب منهُ رحمتهُ وحينئذٍ قسا قلب فرعون - فاذًا كما انّ الشمس تسبّب برد الشتاء لانّها تستمرّ على الارض قليلاً وتقابل الارض من جنب . هكذا الله يسبّب في قلب الخاطئ هذا الشتاء المهلك . لانّهُ يقلّل عليهِ نعمهُ وما يعطيهِ منها هو اقلّ قوّةً وفاعليّةً - ولكي تفهموا جيّدًا هذه الحقيقة الجليلة الاعتبار اعلموا يا مباركين انّهُ كما انّ الرحمة الالهيّة لا ترذل احدًا من الخطاة الذين يندمون ندامةً حقيقيّة . كذلك ما من احد من الخطاة يقدر ان يندم ندامةً حقيقيّة اذا لم تعاونهُ الرحمة الالهيّة ليندم هذه الندامة الحقيقيّة . وكلّ راي مخالف لهذا القول هو مذهب هرطوقيّ - وسبب ذلك . هو انّهُ ينبغي ان تكون الندامة نظرًا الى جوهرها فائقة الطبيعة . لانّها هي استعداد لنَيْل النعمة الالهيّة . وينبغي ان تكون فائقة الطبيعة ايضًا نظرًا الى محرّكها . ومن هذا ينتج ضرورةً انّهُ غير ممكن ان يندم احد ويتوب توبة حقيقيّة قلبيّة اذا لم يمنحهُ الله ذلك بكرَمٍ محض - ومن هذا يتّضح ايضًا جسامة ضلال الخطاة الجهّال الذين يتفلسفون عن ندامتهم في ساعة الموت كأنّها امرٌ متعلّق كلّهُ بارادتهم وقوّتهم - انّ البحر لا يتّخذ لونهُ من ذاتهِ فقط بل انّهُ يتّخذهُ من السماء ايضًا .

ومن السماء يتخذهُ اكثر مما يتخذهُ من ذاتهِ - كذلك الذي يصيّرنا ان نبغي الخير ليس هو ارادتنا فقط. بل ارادتنا والله معاً. وفي هذا يسعى الله اكثر مما تسعى ارادتنا بما يفوق كلّ قياس ومناسبة - اننا بذواتنا وبقوّتنا الطبيعيّة نقدر ان نسقط في الخطيئة لا ان نقوم منها. كمثل الساعة فانها تخرب ذاتًا. الّا انهُ من المستحيل ان تصطلح بذاتها *

فاذا فهمتم ذلك يجب الآن ان ابرهن لكم عن شيئين. اوّلهما انّ الله يستطيع بعدلٍ ان يمسك عنكم في ساعة موتكم النعمة الضروريّة لتندموا ندامةً نصوحًا - والثانية انّ الله في الغالب ينكر نعمتهُ هذه على الذين يؤخّرون توبتهم الى ساعة الموت - امّا الحقيقة الاولى اي انّ الله يستطيع بعدلٍ ان يمسك عنهم النعمة الفاعلة ليندموا على خطاياهم. فانها هي حقيقة واضحة. وذلك اوّلاً لاجل كونها نعمة. ثانيًا لاجل انّ الخطاة فقدوا بذنبهم كلّ استحقاق لنيلها بل انّهم يستحقّون حقًّا ان تُمسك عنهم. وبالنتيجة لا يستحقّون من الله شيئًا آخر غير العقاب والانتقام - وامّا الحقيقة الاخرى. فانها تتّضح بسهولةٍ بما في الكتب المقدّسة. اذ انّ الله لا يقول فيها ابدًا انّهُ لا يريد ان يقتبل الخاطئ في الزمن الحاضر بل انّهُ يدعوهُ ويحثّهُ على ذلك ويعدهُ بالمغفرة. ولتثبيت ذلك يكفي ان نسمع كلام الرسول حيث يقول نحو جميع المومنين: هوذا الآن الزمن المقبول. هوذا الآن يوم الخلاص (٢ قورنثية ٦. ٢) - اعتبروا يا مباركين هذه اللفظة الرسوليّة وهي لفظة الآن: انّ الرسول يعيّن الزمان الحاضر فقط - وامّا الزمان المستقبل فالكتاب المقدّس عند ذكرهِ لا يتكلّم هكذا. بل بخلاف ذلك نرى الله كلّ مرّة يخاطب الخطاة المؤخّرين توبتهم لا يكلّمهم الّا بتوعّدٍ. ولاسيّما الذين يؤخّرونها الى ساعة الموت - اسمعوا كيف يتكلّم عنهم في سفر الامثال: حينئذٍ يستغيثون بي فلا استجيب. وباكرًا يقومون اليّ فلا يجدوني. لانّهم مقتوا الادب وما قبلوا مخافة الربّ (امثال ١: ٢٨) كأنهُ يقول: حينئذٍ اي في ساعة الموت يدعوني الخطاة

ولا استجيب لهم. لانهم في زمن حياتهم رذلوا ناموسي – وقال ميخا النبي: حينئذٍ يصرخون الى الربّ فلا يجيبهم بل يستر وجههُ عنهم في ذلك الزمن كما اساءوا اعمالهم (ميخا ٣: ٤) – وقال ايوب: أَفيسمع الله صلاتهُ اذا ما جاءت عليهِ الضيقة (ايوب ٢٧: ٩) – وقال حزقيال النبيّ: اذا تعرض لهم الرعبة يطلبون السلام ولا يكون. مصيبة تتبع مصيبة (حزقيال ٧: ٢٦) *

فقد تحقق اذًا ما قلناهُ آنفًا وهو. انهُ كما انَّ الله لا يزال في الكتب المقدّسة يدعو الخطاة الى التوبة ويعدهم بالغفران والرحمة اذا تابوا في الزمن الحاضر. كذلك لا يزال تعالى يتوعّد بالعقاب والانتقام الخطاة الذين لا يريدون ان يتوبوا الاّ فيما بعد وفي حال الضرورة – وقد اتّضح ايضًا انَّ الله ليس بملتزم ان يمنحهم النعمة الفاعلة لكي يتوبوا. بل انهُ ليس من عادتهِ ان يمنحها – ولعمري ان كان الله يحقّ لهُ ان يمسك هذه النعمة عن احدٍ. فمن ذا الذي يستحقّ ان تُمسَك عنهُ اكثر من الخاطئ الذي احتقر صبر الله وطول اناتهِ مدّةً مستطيلة – انَّ المدينة المتمرّدة على ملكها اذا ارسلت اليهِ وهو بعدُ بعيد عنها وسالتهُ عمّا هو للصلح قبل ان يحاصرها وقدَّمت لهُ الخضوع مع مفاتيحها. فانهُ يغفر لها بسهولة. لكن اذا تمادت الى زمن المحاصرة والى ان يضرب الملك اسوارها بالمدافع ويهدمها. فحينئذٍ لا يبقى لها وجه لنيل المغفرة. بل انَّ الملك يفتك بها بلا رحمة – فهذا عينهُ يصيب النفس المؤخّرة توبتها حتّى الموت. لانهُ قال عنها ايوب البارّ: الهاوية تسوق الخاطئين وتنساهم الرحمة (ايوب ٢٤: ١٩ و ٢٠). كأنّهُ يقول انَّ النفس الشقيّة ارادت ان تستمرّ على تمرّدها الى ان اصبحت في حال من لهُ رجل واحدة في الجحيم. فبالعدل اذًا تنساها الرحمة الالهيّة وتتغافل عنها مهملة ايّاها *

ولكن لعلَّ قومًا منكم يا مباركين يستغربون هذا التعليم وينفرون منهُ. بل ربّما يجدونهُ معتمدًا على دلائل ضعيفة ويتفلسفون لدحضهِ قائلين: ان كان

الله يهمل النفس هكذا ولا يستجيب لها حينما تدعوهُ ولا يعينها بعون خصوصيّ ولو انها لاتستحقهُ فكيف يصح انّ رحمة الله لا نهاية لها - غير انّ هذا التفلسف صادر من الجهل . فاعلموا يا مباركين انّ الرحمة الالهيّة هي حقًّا غير متناهية في كونها وذاتها . الاّ انها ليست غير محدودة في عدد افعالها . بل انها نظرًا الى ذلك هي محدودة . اعني انّ عدد الدفعات التي يريد الله فيها ان يعامل الانسان برحمةٍ ويغفر لهُ هو محدود . ومن ثمّ فاذا وصل الصبر الالهيّ الى حدّهِ يتحوّل الى رجز عادل - انَّ المرأة الحبلى تستمرّ على حال الهدوّ حتى حين الولادة . فاذا حان هذا الوقت يرتجف البيت كلّهُ من شدّة صراخها - فهذا عينهُ يقولهُ الصبر الالهيّ عن نفسهِ : قد سكتُّ دائمًا . صمتُّ . صبرتُ صبرًا . اصيح مثل المطلوقة . انفخ . وأنخر معًا (اشعيا ٤٢ : ١٤) - لانَّ الصبر الالهيّ يبين الآن كانهُ يتغافل عن شرّ الخاطئ وكأنّهُ لم يحبل بعد بالغضب . ولكن متى ما حان الوقت ليلد ما حبل بهِ من الغضب وهو وقت ساعة الخاطئ الاخيرة . فوقتئذٍ يصرخ صراخًا هائلاً وينفخ وينخر معًا *

اقول ثانيًا انّهُ ينبغي ان تميّزوا الرحمة التي تتفلسفون عنها بقولكم . انّ الله يرحم دائمًا ويعفو عن خطايانا . لانّهُ كما قال مار توما اللاهوتيّ يجب ان نميّز في الله رحمتين . احداهما متقدّمة . والاخرى تابعة - فالرحمة التابعة هي التي بها يقبل الله الخاطئ الراجع اليهِ ويغفر لهُ ويسرع لاستقبالهِ ويعانقهُ ويقبّلهُ . كما فعل مع الابن الشاطر ابوهُ لمّا رآهُ تائبًا - فعن هذه الرحمة اقول انّ الله لا يمسكها اصلاً عن الخاطئ . ولهذا قال النبيّ : المنافق لا يضرّهُ نفاقهُ يوم يتوب من نفاقهِ (حزقيال ٣٣ : ١٢) - واماّ الرحمة المتقدّمة فهي العون الفائق الطبيعة الذي بهِ يسبق الله ويدعو الخاطئ الى التوبة ويحثّهُ ويقوّيهِ لكي يرجع اليهِ تائبًا - وعن هذه الرحمة اقول : انّ الله يمسكها عن الخطاة المستمرّين على الشرّ الى آخر حياتهم . لا بعض الاحيان فقط بل غالب الاحيان . لانّهم أساءوا الى

الرحمة الالهية نفسها وصيرّوها حجّة لتكثير خطاياهم وعذرًا لاستمرارهم في الشرّ *

هذا ما اثبتناهُ الى الان بشهادات الهيّة. فكما انهُ لا يجوز لنا ان نشك في مواعيد الله. هكذا لا يجوز ان نشكّ في وعيدهِ الالهي - ولا يجوز ان نقول بانّ الذي يتوعّد الله بهِ هؤلآء الخطاة في الكتب المقدّسة لا يحدث الاّ في النادر. لانّهُ يحدث مرّات كثيرة حتّى انّ القدّيس اوغسطينس قال انّ الامر العظيم هو ان يوجد احد (ان كان يوجد) يلهمهُ الله بالتوبة في هذه الحال لسبب انَّ الامر لا يحدث الاّ في النادر جدًّا. ولاجل هذا اشكّ انا هل يوجد في هؤلآء الخطاة من ينال هذه النعمة - فلا يذكر الله في تلك الساعة انّهُ اخرج الخطاة من العدم بفعل قدرتهِ الضابطة الكلّ. ولا يذكر اوجاع آلامهِ التي كابدها لاجل خلاصهم. ولا الدم الزكيّ الذي سفكهُ لاجلهم. ولا بقيّة الحجج المائلة بهِ تعالى الى حبّهم. بل انّهُ يلاحظ سيّآتهم فقط - انّي لستُ اعني بذلك انَّ الله يمسك عنهم كلّ عون اعتياديّ. حاشاي. بل انمّا اقول انهُ يمسك عنهم العون الخصوصيّ الفاعل الوافر الذي لو أُعطوهُ لتابوا بسهولةٍ ووجدوا الخلاص - انّ برد الشتآء يحدث في الارض من غير ان تغيب الشمس عن الارض. بل يكفي ان تظهر قليلاً وتكون اشعتّها منحرفة - فيا ما اشدّ ما يكون شتآء قلب الخاطئ ان كان الله يعطيهِ نعمة تشبهُ هذه الاشعّة. اعني نعمة اقلّ قوّة وتاثيرًا. لانّهُ لكي يتوب الخاطئ توبةً الخلاص يحتاج الى نعمة قويّة منتصرة بها ينتصر على تجارب الشيطان واوجاع بدنهِ وعلى عوائدهِ الذميمة المتعتّقة فيهِ. فبما انّهُ لا يُعطى الاّ نعمة اعتياديّة ضعيفة - قال احد هؤلاء الخطاة في حين مرضهِ الاخير. انّ الخبز يابس. والسكّين مثلومة لا تقطع. فاختبر هذا الشقيّ حين مرضهِ حقيقة ما قالهُ الحكيم. القلب القاسي يكون لهُ السوء في الآخرة (سيراخ ٣ : ٢٧) - وقال احد العلمآء الماهرين في تفسير هذه الآية: من استمرّ قاسيًا مع الله في زمن حياتهِ. لا يستحقّ ان يجد الله ليّنًا انيسًا رحومًا في ساعة موتهِ *

انّي اعلم ما يقولهُ قوم منكم وهو انَّ الله ردّ مثل هؤلاء الخطاة الى التوبة في ساعة موتهم وخلّصهم. الاّ انّي اقول انَّ هذا اتّفق في النادر جدًّا. ولا يوجد ذكر احدٍ منهم في الكتب المقدَّسة سوى واحد كما قال القدّيس برنردس. وهو اللصّ التائب. فهذا خلص كما قال القدّيس اوغسطينس لئلاّ ييأس احد. وهو وحيد لئلاّ يطمع احد *

فهل تريدون يا مباركين ان تعلّقوا مرساة خلاصكم الابديّ على مثل هذا الحبل الضعيف: احذروا ان يصير هربكم في شتآء. احذروا من ان تؤخّروا هربكم من العدل الالهيّ الى زمن الشتآء زمن الشيخوخة وساعة حياتكم الاخيرة — ما اكثر الذين يعملون الشرّ ويرجون الخير. وهذا الضلال قد سمّاهُ الحكيم خطأ الاثمة اذ قال: لا تلبث في خطأ الاثمة. واعترف قبل ان تموت. فاعترف لله وانت حيّ... واشكر الله فتفتخر برحماتهِ (سيراخ ١٧: ٢٦) *

ناشدتكم الله يا مباركين ان كنتم الآن في هذا الضلال فانهضوا منهُ. لقد سمعتم عظم خطر من يؤخّر توبتهُ الى آخر حياتهِ. وذلك من قِبَل الشيطان ومن قبل الخاطئ ومن قبل الله. من قبل الشيطان الذين يفرغ حينئذٍ كلّ جهدهِ. ومن قبل الخاطئ الذي في تلك الساعة يستصعب التوبة غاية ما يكون. ومن قبل الله الذي قد انذر جليًّا. انهُ في ذلك الوقت لا يؤتي الخاطئ عونًا فاعلًا خصوصيًّا خلاصيًّا — فلا تستمرّوا في ضلال الاثمة. اسبقوا الموت واعترفوا قبل خطرهِ. الآن انووا التوبة النصوح المفيدة. الآن اعزموا على الرجوع الى الله وترك الخطيّة قبل ان تتركم هي — اعترفوا وتوبوا في حال العافية. وحينئذٍ تفتخرون براحم الله (سيراخ ١٧: ٢٧) وتسبّحونها في ملكوتهِ الى ابد الدهور آمين *

الموعظة التاسعة والاربعون

في ضرورة الصلوة ومنفعتها

انّهُ لو وُجد دوآء سهل طيّب يشفي الامراض ورأينا المرضى يأبون تناولهُ. أَما كنّا نقول عنهم أنّهم يبغضون انفسهم – فهذا الدوآء الذي ليس لهُ وجود لشفآء امراض الجسد قدّمهُ الله لنا لامراض نفوسنا وهو الصلوة. فلماذا اذًا نرى بين المؤمنين اناسًا لا يُحصَى عددهم يستخفّون بهذا الدوآء العجيب الذي وضعتهُ رحمة الله لهم لاجل خلاصهم – فعن هذا الدوآء ينبغي ان اتكلَّم اليوم. واريد ان ارغّبكم في تناولهِ. وابيّن لكم ضرورتهُ ومنفعتهُ غير انّي في خطابي عن ضرورة الصلوة ومنفعتها لستُ اقصد منكم أن تهجروا المدن وتستوطنوا الفيافي وتخلوا مع الله بتامّل نظريّ علويّ بالارتفاع مع بولس الرسول الى السمآء الثالثة. بل انّ الصلوة التي نتكلَّم عنها الآن هي التي اورد القدّيس يوحنّا السلّميّ تعريفها بقولهِ: انّ الصلوة هي طلبة اشيآء لائقة من الله *

فعن هذه الصلوة اقول اوّلاً انّها هي ضروريّة بضرورة الواسطة وبضرورة الوصيّة – انّهُ من جملة شرائع الروميّين القدمآء كانت واحدة ابطلها ثاودوسيوس الملك. وهي انّ الوارث ليس لهُ ان يدّعي بميراثهِ الاّ في احد ثلاثة ايّام من الاسبوع وهي الثلاثآء والخميس والسبت – امّا السيّد المسيح واضع ناموسنا الالهيّ. فلا ينهانا ابدًا عن طلب وراثتنا السماويّة في كلّ يومٍ. بل يريد ويامرنا ان نطلبها في كلّ دقيقة من الزمان بقولهِ. انّهُ ينبغي لكم ان تصلّوا ولا تملّوا (لوقا ١٨ : ١). فكأنّهُ يقول. انّكم جميعًا في كلّ دقيقة من الزمان حاصلون على حال الفقر والضرورة. فلا تزالوا قارعين باب رحمة ابي ملتمسين منهُ ما تحتاجون

اليهِ - وقال الحكيم انّ الله يبغض الفقير المتكبّر (سيراخ ٢٥ : ٤) اعني الذين مع انهم في حال الضرورة والاحتياج لا يرغبون الى من يقدر وحدهُ ان يعينهم ويغنيهم *

الاّ انَّ السيّد المسيح بوصيّتهِ هذه لم يقصد منفعتنا فقط بل قصد على الخصوص اكرام ابيهِ السماويّ - انّ من كان لهُ عبيد قديمًا كان يسم على وجه كلّ منهم وسمة لكي يُعرَف من هو سيّدهُ - والحال انّنا جميعًا نولَد عبيدًا لله . ونحن موسومون لا في الوجه خارجًا بل في القلب والنفس باطنًا . ونحن تحت رقّ الله خالقنا حتّى انَّ الله مع انهُ قادر على كلّ شيءٍ لا يقدر ان ينزع عنّا ضرورة هذا الالتزام . وبالنتيجة يلزمنا ان نظهر خضوعنا لبارينا على النوع الذي بهِ نحن متعلّقون بهِ تعالى . والحال انّنا متعلّقون بالله على نوعين . اي من حيث هو ربّنا ومولانا الاعظم . ومن حيث هو ربّ كريم لا حدَّ لكَرَمهِ . ومن ثمَّ يلزمنا ان نكرّمهُ لا بفعل السجود وتقدمة الذبائح فقط . بل بالصلوات والادعية ايضًا - قال القدّيس توما اللاهوتيّ : انّ الصلوة هي افضل افعال الديانة . وذلك اوّلاً لانّنا بالركوع واحناء الراس وتقدمة البخور وبمثل هذه الطقوس نخضع لله خارجًا . وامّا بالصلوة فانّنا نخضع لهُ باطنًا - ثانيًا لانّنا بفعل الصلوة نعترف ظاهرًا انَّ الله بحر جميع الخيرات . ولعلّ صاحب المزامير عني ذلك بقولهِ : يوم ادعوك . هذا ما قد علمتُ انّ الله لي (مزمور ٥٥ : ١٠) . كأنّهُ يقول انَّ افضل وسيلة بها نظهر انّ الله هو الاه هي التضرّع اليهِ - فعلى هذه تتأسّس ضرورة الوصيّة التي تلزمنا بالصلوة *

غير انّي حتى ارغّبكم في الصلوة لستُ اكتفي بهذه الضرورة اعني ضرورة الوصيّة . بل انّي اريد مع الآباء القدّيسين ان اريكم ضرورة اخرى جوهريّة اكثر من الاولى . وهي ضرورة الواسطة التي بها يتحقّق انّهُ مثلما نحن ملتزمون بان نخلّص انفسنا كذلك يلزمنا ان نستعين الله بالصلوة . على انّنا علمنا من الايمان

انّ كلّ قوّتنا البشريّة ليست كافية لنفعل شيئًا من الصلاح – وهذه الحقيقة قد اثبتها الرسول بقولهِ : ليس اننا نقدر من قِبَل أَنفسنا ان نفكر فكرًا كأنهُ من انفسنا بل كفايتنا من الله (٢ قورنثية ٣ : ٥) اي اننا نحتاج الى نعمة الله لكي نفكر فكرًا صالحًا – وكلّ راي يخالف هذا التعليم هو رأي مرذول من المجامع المقدّسة – جآء في الاخبار المسطورة انّ ارخيتا الذي كان لبيبًا وماهرًا في صناعة الهندسة كان يصنع طيورًا عجيبة تطير في الجوّ بواسطة دواليب باطنة كانت تحرّك اجنحتها . الاّ انّهُ حينما كانت تبطل هذه الحركة كانت الطيور تتساقط حالاً على الارض من تلقآء نفسها . لانّها لم يمكن ان ترتفع الى فوق الاّ بعون ياتيها من خارج . واماّ لكي تسقط فكان ثقلها الغريزيّ كافيًا – فهذه الحال حالنا : لانهُ لكي نرتقي الى الصلاح نحتاج الى عون النعمة الالهيّة احتياجًا بليغًا . واماّ لكي نتساقط في السوء فيكفي ثقل عزمنا وطبيعتنا المائلة دائمًا الى اسفل – وهذه النعمة الضروريّة لا يريد الله ان يعطيها الاّ بالصلوة حسب قولهِ تعالى . اطلبوا تُعطَوا . وبالنتيجة فكلّ منّا يحتاج الى الصلوة مثلما يحتاج الى النعمة الالهيّة – هذا هو ملخص ما قالهُ الآبآء القدّيسون . ومنهم مار اوغسطينس الذي قال . انّنا نؤمن انّهُ ما من احد يقبل الى الخلاص الاّ انّ الله يدعوهُ . وانّهُ ما من احدٍ من المدعوّين يصنع خلاصهُ الاّ بعون الله . وانّهُ ما من احدٍ يستحقّ العون الالهيّ الاّ بصلواتهِ – ولهذا لمّا انفتحت السمآء للسيّد المسيح لكي ينحدر روح القدس ويحلّ عليهِ تعالى شبه حمامة منظورة . لم تنفتح حينما كان يعتمد في مياه الاردنّ . بل انفتحت حينما كان يصلّي . كما سُطّر في بشارة ماري لوقا ٣ : ٢١ . وذلك كما اعتبر مار توما اللاهوتي . لكي يعلّم المومنين انّ الصلوة هي ضروريّة لهم لكي ينالوا هبة من السمآء والنعمة . لانهم ولو انهم يُطَهَّرون بسرّ المعموذيّة . الاّ انّهُ تبقى فيهم جرثومة الخطيّة . اعني الشهوة المائلة بهم الى الخطيّة . وهذه الشهوة لا يقدر المؤمن ان يظفر بها ويغلبها الاّ بالنعمة التي تعطَى بواسطة الصلوة *

غير انّي اعلم انّ كلامي هذا يبين لكثيرين انّهُ كذبٌ. او مبالغة. ويقولون عن انفسهم انّهم نالوا من الله نعماً عديدة لفعل الصلاح لم يطلبوها في الصلوة. ونالوها حينما كانوا متغاضين عن عبادة الله ومهملين الصلوة بالكلّيّة - فيجب ان ندحض هذا الاعتراض ونبيّن بطلانهُ: فاعتبروا يا مباركين انّ الله لكثرة ما يحبّ ان يفيض ذاتهُ يفيض نعمتهُ على من لا يطلبها. كما انّ السماَء تهطل الندى في الليل اذ تكون الناس نياماً - الاّ انّ هذا كما قال القدّيس اوغسطينس يصحّ في النعمة الاولى. وعنها قال الله على لسان الرسول: انني وُجدتُ ممّن لم يطلبوني (رومية ١٠: ٢٠) - ولا يصحّ ذلك في النعمة الثانية - وفي هذا قال القدّيس اوغسطينس: انّ الله يمنحنا مواهبهُ كمثل ابتداَء الايمان. ولو اننا لا نطلبها - واما بقيّة النعم كنعمة الثبات. فانّهُ تعالى لا يجود بها الاّ على الذين يصلّون ويطلبونها - انّ الارض لمّا انبتت اثمارها اوّل مرّة لم يكن احد قد فلحها او زرع فيها شيئاً. بل اثمرت بمجرّد الامر الالهيّ. واما الحصاد الثاني فلم يكن امرهُ هكذا. لانّ الانسان التزم حينئذٍ بفلاحة الارض - هكذا الخاطئ الذي يدعوهُ الله الى التوبة. اذا ما انبت بغتةً كأرض يابسة عملاً ما صالحاً. فانّ الله يوتيهِ هذه النعمة الاولى. وهذا الحصاد الاوّل لا يحتاج الى فلاحة الصلوة - واما النعمة الثانية فلا تُعطَى من غير عون الصلوة. اعني النعمة الضروريّة للثبات في الصلاح وهو الحصاد الثاني - اعتبروا ثانياً انّ الله حقاً يمنح احياناً نعمهُ بغير ان تُطلَب منهُ مع انّهُ كان يمكن ان تُطلَب بالصلوة. الاّ انّهُ حينئذٍ يتجاوز حدود عنايتهِ الاعتياديّة. ومن ثمَّ لا يحدث ذلك الاّ في النادر جدّاً - انّ السيّد المسيح لمّا حضر عرس قانا احال الماَء الى الخمر بغير واسطة. ولهذا كانت هذه الاستحالة اعجوبة منهُ - نعم انّهُ تعالى بعنايتهِ الاعتياديّة يحوّل الماَء الى خمر. غير انّهُ لا يحوّل هكذا بغير واسطة. بل انّهُ يحوّلهُ بواسطة الارض المثمرة والكرم. وبواسطتها يستحيل الماَء الذي نزل عليها الى خمر -

فاعلموا اذًا يا مباركين انّ الله عندما يُؤتيكم نعمةً قبل ان تطلبوها منهُ يصنع حينئذٍ اعجوبة من عجائبهِ . لانهُ لا يحفظ وقتئذٍ ما رسمهُ في نظامهِ السماويّ – وقال في هذا الصدد اقليميس الاسكندريّ . انهُ خير للمومن ان ينال مواهب قد طلبها من الله افضل من ان ينال منهُ تعالى مواهب لم يطلبها قبل ذلك كيلا يكون من جملة الذين يجرّبون الله – اعتبروا ايضًا انّ هذه النعم التي يعطيها الله بغير واسطة الصلوة هي غالبًا نِعَم اعتياديّة . واما النِعَم القويّة الفاعلة التي بها تبلغ النفس الى الخلاص . فانهُ كما انّ الله لم يعد بها الاّ الذين يطلبونها . كذلك لا تُعطَى غالبًا الاّ للّذين يطلبونها – وهذا هو الراي الاكثر توكيدًا بين علماء اللاهوت المعظّمين . بل نظنّ انّ السيّد المسيح عينهُ اثبتهُ بقولهِ : اسهروا في كلّ حين وتضرّعوا لكي تستاهلوا الفرار من كلّ هذه الامور المزمعة ان تكون وتقفوا قدّام ابن البشر (لوقا ٢١ : ٣٦) – تأمّلوا في قولهِ تعالى لكي تستاهلوا لانّهُ يتضمّن سرًّا عجيبًا ينبغي ان ابينهُ لكم – اعلموا يا مباركين انّ الجميع يحتاجون الى نعمة خصوصيّة لكي يموتوا ميتة صالحة . قدّيسين كانوا ام خطاة . وقد سمّى القدّيس اوغسطينس هذه النعمة اكليل بقيّة العطايا الالهيّة . لانّ هذه النعمة تشبه الريح السعيدة التي توصّل السفينة الى المينا بالسلامة – الاّ انّ هذه النعمة المنتصرة على كلّ موانع الخلاص لا يستطيع احد من الصدّيقين ان يستحقّها بطريق العدل . حتّى انّهُ لو وُجد احد افضل عفّة من يوسف واوفر صبرًا من ايّوب . واعظم قداسةً من داود . يقدر الله ان يترك ان تداهمهُ تجربة شديدة وتظفر بهِ فيسقط في خطيّة مميتة كما حدث لداود – وبعد سقوط البارّ لا يلتزم الله بان ينتظر الى ان يقوم من سقطتهِ . بل يستطيع ان ينقلهُ من الدنيا وهو في حال الخطيّة . لانّهُ بعد سقوطهِ يستحقّ ان يموت حسب قولهِ لآدم . في ايّ يوم تاكل من هذه الشجرة . تموت موتًا – ثم انّ كلّ الافعال الصالحة التي يفعلها البارّ قبل سقوطهِ في الخطيّة لا تلزم الله بان ينتظر توبتهُ . لانّ شرّ خطيّتهِ هو اعظم بما لا

يقاس لهُ من كلّ صلاحهِ السالف حسب قول ايّوب الصدّيق: ماذا ينتفع الله ان كنتَ صدّيقًا (ايوب ٢٢: ٢) - فلنتنج اذًا مع القدّيس توما اللاهوتيّ انّ الانسان لا يقدر ان يستحقّ نعمة الثبات الاخير من باب العدل. بل انما يقدر ان يستحقها من باب اللياقة. اي انّهُ اذا استعمل الانسان طاقتهُ حسَنًا تقتضي اللياقة انّ يستعمل الله قوّتهُ الفائقة على نوع اكثر كمالاً - هذا ما قالهُ معلّم المدارس - ولكنّ هذا الاستعداد الذي بهِ يستحقّ الانسان نعمة الثبات الاخير استحقاق اللياقة يقتضي المواظبة على الصلوة ويتضمّنهُ حسب قول السيّد المسيح المتقدّم ذكرهُ: اسهروا وصلّوا في كلّ حين. لكي تستاهلوا الخ - والقدّيس المذكور يفسّر ذلك قائلاً: بعد ان يتبرّر الانسان بالنعمة تلزمهُ الضرورة ان يطلب من الله موهبة الثبات لكي يُحفَظ من الشرّ الى آخر حياتهِ. لانّ النعمة تُعطَى لكثيرين لا ينالون نعمة الثبات في النعمة - افهمتم يا مباركين كم الصلوة هي ضروريّة للخلاص *

فلا يضلّ احد. لانّ الله الذي وضع الشريعة قائلاً: اطلبوا تُعطوا. لا يريد أن يبطل هذه الشريعة لخاطركم - أَتظنّون انّهُ تعالى الذي باع الخلاص للقدّيسين اصدقائهِ بثمن يهبهُ للمشرّيرين من دون هذا الشرط اعني الصلوة - نعم انّ الله يريد حقًّا ان يخلص كلّ الناس. كما قال بولس الرسول (طيمثاوس ٢: ٤). وكذلك يحبّ ان يفيض علينا نعمهُ. الاّ انّهُ وضع الشرط وهو ان لا نزال نطلب ذلك منهُ. كما قال الرسول: ان كان احدكم ناقصاً في حكمة فليطلب من الله الذي يعطي كلّ احدٍ بانبساط (يعقوب ١: ٥) - فمن الموكّد انّ الذي يريد أن يخلص ولا يريد ان يصلّي. يريد بهذا ان يغتصب الله. لانّهُ لا يريد ان يخضع مع الكلّ لشرائعهِ العامّة. بل يريد لنفسهِ اختصاصات دون استحقاق وضرورة *

وان قال قائل انّ الله خلّص قوماً كانوا يقدرون ان يصلّوا ولم يصلّوا أَجبتهُ من ذا يعرف هذا سوى الله - الاّ انّي اسلّم انهُ تعالى فعل ذلك احياناً

وكيف تنتج من ذلك انهُ يصنع بك هكذا - أما تعلم انّك بهذا تجرّب الله بطلبك منهُ ان يصنع اعجوبة لاجلك . وها اني اشدّد عليك اكثر فاكثر واقول: انَّ الصلوة ما عدا انّها واسطة ضروريّة للخلاص كما قلتُ آنفًا . هي الواسطة الوحيدة للخلاص احيانًا . وانّهُ بدونها لابدّ من السقوط في دركات جهنّم - قال ايوّب البارّ: لم يبقَ لي سوى شفتيَّ حول أَسناني (أيوب ١٩ : ٢٠) . وقال هذا عن نفسهِ حينما كانت صورة الخاطئ بجراحات جسدهِ ونتانتهِ . فكانّهُ يقول: انَّ الخاطئ ليس لهُ شيءٌ صحيح متعافٍ غير شفتيهِ اللتين بهما يستطيع ان يتضرّع الى الله . لانّهُ بسبب آثامهِ وقصاصًا عنها . كما قال المعلّم الجليل بلرمينس قد عدم النعمة الاعتياديّة - وهذه النعمة فانّهُ ينالها اذا حرَّك شفتيهِ وطلبها من الله . والاّ فبلا صلوة لا ينالها . فهل يمكن ان يقال قول أَقوى من ذلك في ضرورة الصلوة - ربّما علمتم انهُ في زماننا اخترع رجل خبيث نوعًا جديدًا من السمّ لقتل الخلق وانّهُ عند ذلك عُلّق في الشوارع بامر الحاكم رقاع اعلام بالدواء الوحيد الذي أُوجد ضدًّا لذاك السمّ - وامّا انا فأَتمنّى ان انادي في كلّ مكان واعلّق على كلّ القلوب اعلامًا آخر اكثر ضرورةً ونفعًا . واحبّ ان انادي على كلّ مومن بصوت اقوى من البوق الذي يُسمع في المسكونة كلّها عند فناء العالم: يا معشر الخطاة صلّوا صلّوا ولا تملّوا . لا تزالوا تطلبون من الله ان ينجّيكم من حال الخطيّة . لانّهُ بدون هذه الواسطة اي دون الصلوة لا يمكن ان تفعلوا شيئًا يفيد لاصلاح حالكم - وفي هذا ذكر مار اوغسطينس ما قالهُ القدّيس انوكنتيوس البابا في رسالتهِ الى المجمع القرثاجني وهو . اذا لم تحلَّ علينا النعمة الالهيّة ونلتمسها بصلوات كثيرة . فمن المستحيل ان ننتصر على ضلال الفساد الارضيّ *

خبّرنا مولّف سيرة الآباء النسّاك انّ احد الفتيان اسمهُ بكّون كان في بريّة سقيط . تسلّطت عليهِ الشهوة الدنسة تسلطًا قويًا حتى انهُ لشدّة ضيق روحهِ

عزم ان ينتحر اي يقتل نفسهُ وكان يقول في قلبهِ : خير لي ان تنقص ايّام حياتي من ان يزداد هلاكي شقاءً - فخرج من مغارتهِ وذهب الى مغارة اخرى حيث كان يعلم انهُ هناك تسكن وحوش ضارية. وجلس على فمها. فشعرت الوحوش برائحة بشرٍ وخرجت ووثبت عليهِ لتبتلعهُ. ولكنّها لمّا وضعت انيابها عليهِ كفّت وجلست عند رجليهِ ككلاب مؤنسة - فاندهش الناسك من الاعجوبة وعاد الى مغارتهِ بقلب مبتهج منفرج. غير انّهُ بعد زمن يسير صدمتهُ تجربتهُ الاولى. وعاد يعزم ثانيةً على قتل نفسهِ - فخرج وابصر في طريقهِ أفعى فقبض عليها وشرع يضربها. ثمَّ فتح صدرهُ وضمّها اليهِ فلم تلدغهُ. فتذمّر متنهّدًا. واذا بصوتٍ هاتفٍ من العلا يقول : ويحك يا شقيّ. وكيف تظنّ انّك تظفر بالتجربة بقوّتك الطبيعيّة. صلِّ صلِّ. وبعد ان تكون عرفت دناءتك ووضعت على الله تكلانك حينئذٍ تنتصر على التجربة - وبينما كان الناسك يسمع هذا الصوت اضاءَ لهُ باطنًا نور سماويّ بهِ عرف وتحقّق انّهُ لا توجد واسطة الزم من الصلوة لمقاومة تجارب الشيطان والانتصار عليها. فتسلّح بهذه الاسلحة وبها قوي على قوّات الجحيم - اعتبروا يا مباركين لماذا احبّ الله ان يفعل عجائب ليخلّص هذا الشابّ من الوحوش الضارية ولم يرضَ ان يخلّصهُ من تجربتهِ بلا صلوة. فهل يمكن ان يطلب احد دلائل اقوى من هذه لبيان ضرورة الصلوة. فانّي اقول عن مثل هذا انّهُ عادم الايمان او فاقد العقل *

وبعد ان بيّنّا لكم ضرورة الصلوة ينبغي ان نبيّن منفعتها. وهذه المنفعة هي حاصلة من ثلاثة أسباب نشرحها في هذا القسم الثاني من موعظتنا - فنقول: اوّلاً انّ الامر الاوّل الذي تتعلّق بهِ منفعة الصلوة هو الالتماس والابتهال نفسهُ المتوقّفة عليهِ الصلوة. فانّهُ من شانهِ ان يميل غيرنا الى منح ما نطلبهُ منهُ لاجل هذا السبب فقط وهو اننا نطلبهُ. وعلى هذا كان يعتمد صاحب المزامير حينما قال في صلاتهِ. يا ربّ لا اخزى لانّي دعوتُك (مزمور ٣٠ : ١٨)

فكانهُ يقول اني ولو كنتُ غير اهل ان تستجيب لصلاتي . الاّ اني متى ابتهلتُ اليك فذلك كافٍ لأرجو منك كلّ شيءٍ - وناهيكم ما الذي يحتاج اليهِ الانسان الغارق في البحر لكي يبادر الناس الى مساعدتهِ ونشلهِ غير صراخهِ وطلبهِ العون. وهل يوجد انسان ذو قلب قاسٍ لا يجد ذلك كافيًا ليلقي لهُ دفّة يتعلّق بها فيخلص من الغرق - انّ الحيوانات نفسها اذا استنجدتنا لا يمكننا ان لا نجدها - فقد حكوا انّ أَهل اثيناس عزلوا حاكمًا كان لهم لانّهُ طرد عصفورًا التجأ اليهِ وتعلّق بحجرهِ لخوفهِ من باشق كان يريد ان ينقضّ عليهِ . فكيف يمكن ان نتصوّر في قلب الله ما نستغربهُ ونستقبحهُ لو وجدناهُ في قلب بشر - قال الحكيم : لا ترذل مسألة المتضايق (سيراخ ٤ : ٤) . فهل يمكن لله ان يقسّي قلبهُ حينما يستغيثهُ لا عصفور حقير بل نفس غير قابلة الموت وافضل قيمةً من بقيّة الخلائق السفليّة كلّها . وهي تطلب من مولاها الكريم ان ينجّيها من انياب وحوش جهنّم . انّ هذا ضرب من المحال . وهذا قول لا يُصدَّق عمّن هو الجود والرحمة بالذات - ومن ثَمَّ قال تعالى نحو كلّ انسان مطلقًا : ادعُني يوم الضيقة فانقذك (مزمور ٤٩ : ١٥) . وقال ايضًا : قبلما يدعون استجيب لهم . وفيما هم يتكلّمون بعد اكون لهم سامعًا (اشعيا ٦٥ : ٢٤) *

وأَمّا الشيءُ الثاني الذي تتولّد منهُ فاعليّة الصلوة فهو وعد السيّد المسيح اذ قال : اسألوا تُعطَوا اطلبوا تجدوا اقرعوا يُفتَح لكم الخ (لوقا ١١ : ٩) - انظروا يا مباركين كم مرّة يكرّر الله وعدهُ ويوكّدهُ - انّهُ لمن المحال ان يكون بخيلاً . لانّهُ غير ممكن ان يكون فقيرًا - انّ الذي ينكر فاعليّة الصلوة قد انكر الايمان . لانّهُ امّا ينكر انّ الله وعدنا بان يستجيب لصلواتنا . وامّا ينكر انّ الله قادر على انجاز وعدهِ . والحال انّ الله كما قال صاحب المزامير كلّ ما شآء صنع (مزمور ١٢٤ : ٦) - فلو فرضنا ما هو من المستحيل اي انّ الله لا يحفظ وعدهُ لكان تعالى حينئذٍ يخسر اكثر ممّا نخسر نحن . وما الذي نخسرهُ نحن لو لم ينجز وعدهُ

ويستجب لصلواتنا . اننا نخسر خيرًا محدودًا متناهيًا فقط . لاننا غير قادرين ان نسع خيرًا اعظم من ذلك واما الله فيخسر حينئذٍ خيرًا غير محدود وغير متناهٍ . لانهُ يخسر كمالاً غير متناهٍ وهو الذي يجعلهُ صادقًا امينًا غير قابل الكذب والتغيير. فيزول ان يكون الاهًا - اننا نحن البشر يمكن ان نخالف في وعدنا من غير ان نبطّل ان نكون ما نحن عليهِ . واما الله فلا . لانهُ لا يمكن ان يخرم وعدهُ . الاَّ ويبطل ان يكون ما هو عليهِ اي الاهًا - ثمَّ انهُ تعالى لو اخلف في وعدهِ لكان يخسر مجدهُ الذي هو الغاية الوحيدة التي لاجلها يصنع كل ما يصنع من خارج . لانهُ اذ ذاك يسوغ للخاطئ ان يبرّئ نفسهُ في يوم الدينونة مع انهُ قد قال النبيّ : انّ كلّ ذي اثم يستدّ فوهُ في يوم الدينونة - على انهُ لو امكن الله ان يهمل ما وعدنا بهِ في انجيلهِ المقدَّس . لكان يمكن للهالكين ان يحتجّوا امام المحكمة الالهيّة قائلين لديّانهم : نعم اننا خالفنا ما امرتَنا بهِ في انجيلك . الاَّ انّك لم تحفظ ما وعدتنا بهِ فيهِ أيضًا - فقد اتّضح انهُ كما لا يمكن ان يخسر الله مجدهُ ويزول ان يكون ما هو عليهِ اي الاهًا كذلك لا يمكن ان تخسر الصلوة الجيّدة فاعليتّها - آهًا يا مباركين على غباوتنا : اننا نتّكل على وعد الانسان مع انهُ يكون تارةً عاجزًا عن انجازهِ وتارةً غير ثابت فيهِ ونعتمد على قصبة ضعيفة مرضوضة ونخاف من ان نبني اتّكالنا على الله - حاشانا بل لنقولنَّ مع النبيّ والملك داود : الربّ كان لي ملجأً والاهي عوني ورجائي (مزمور ٩٢ : ٢٢) *

والشيء الثالث الذي منهُ تنبع فاعليّة الصلوة هو استحقاقات سيدنا يسوع المسيح التي وهبها لنا - ما الذي يصنع من يريد ان يؤمّن غيرهُ باكمل نوع يمكن : انهُ لا يكتفي بالوعد اللفظيّ وتحريرهِ على وثيقة يدفعها اليهِ . بل يدفع لهُ ايضًا رهنًا وعربونًا . وهذا قد صنعهُ الله معنا . لانهُ جلّت عزّتهُ لمّا رأى ضعف الانسان المائل الى الشكّ . لم يكتفِ بوعدهِ لهُ على لسان ابنهِ الوحيد بانّهُ يستجيب لصلواتنا . ولا بتحريرهِ في الانجيل المقدَّس . بل احبّ ان يدفع لهُ

عربونًا لانظير لهُ في الثمن . لانّهُ دفع لنا كلّ استحقاقات اعمال ابنهِ الوحيد وكلّ اتعاب حياتهِ واوجاع آلامهِ وموتهِ – هذا هو الرهن الالهيّ الذي اعطانا الآب السماويّ لكي يزيل عنّا كلّ شكّ في وعدهِ لنا بانّهُ يستجيب لصلواتنا – فاخبروني الآن يا مباركين ما سبب شككم في حين الصلوة : اليس نظركم الى انفسكم وعلمكم بانّكم غير مستحقّين ان يستجيب الله لكم – ثقوا يا مباركين ثقوا . لانَّ كلّ استحقاقات السيد المسيح هي لكم . لانّهُ لاجل الاقتران السرّيّ الذي بين الاعضاء والراس في جسم الكنيسة نشترك في استحقاقات ابن الله . واستحقاقاتهُ تُعَدّ عند الآب الازليّ استحقاقاتنا نحن ايضًا – فلا يجعلنا عدم الاستحقاق ان نشكّ في حين الصلوة . لانّهُ يكفينا ان نستمرّ مقترنين براسنا الالهيّ ولا ننفصل منهُ بالخطيّة . وحينئذٍ يجوز لنا ان نطلب من الآب الازليّ الحسنات لا بحجّة الرحمة فقط . بل انهُ يجوز لنا ان نطلبها ايضًا على نوعٍ ما بحجّة العدل قائلين مع النبيّ : ببرّك او بعدلك خلّصني (مزمور ٣٠ : ٢) *

فعلى هذه الاساسات الثلاثة تعتمد فاعليّة الصلوة التي تشبهُ سلّم يعقوب اسرائيل . بهِ نصعد من الارض الى السماء ونمتلكها حتّى انّ القدّيس يوحنّا السلّميّ ساغ لهُ ان يقول بانّ الصلوة تغصب الله نفسهُ – ومن ثَمَّ لمّا صلّى موسى وطلب من الله ان يغفر لبني اسرائيل . اجابهُ الله قائلاً . دعني ليشتدّ غضبي عليهم وافنيهم (خروج ٣٢ : ١٠) – كأنّهُ يرى نفسهُ مغصوبًا فيطلب التخلية . ومع ذلك فاذ الحّ موسى في الصلوة هدأ غضب الله وكفّ عن الانتقام وهكذا قدرة الله دانت لصلاة عبدهِ كما قال القدّيس هيرونمس *

فالويل لمن يتغاضى عن الصلوة ويستخفّ بها ويهمل هذه الواسطة الضروريّة . الويل لمن يقضي الصلوة بتوانٍ – لو كان ابنك او اخوك او صديقك في خطر الموت وعلمت انَّ الملك قد عزم على قتلهِ وذهبتَ انت اليهِ لتشفع فيهم . هل كنت تتضرّع اليهِ بالبرودة التي بها تصلّي انت وتطلب من الله ان

ينجّيك من جهنّم والموت الابديّ – قد سمعتم يا مباركين قوّة الصلوة وانّكم بها تستطيعون ان تنالوا النعمة الالهيّة والثبوت الاخير والملكوت وكلّ خير. فهل يمكن بعد ذلك ان تستصعبوها وتقصّروا فيها وتقضوها بتوانٍ – انهُ ستاتي الايّام التي فيها ترغبون باطلاً ما لا يكون لكم ممكناً. اي تشتهون ان يكون لكم زمن لتصلّوا الصلوة فلا تجدونهُ – لانّ شهوة الخاطئ تبيد (مزمور ١١١ : ١٠) – اجاركم الله يا مباركين من ذلك. فان كنتم حتّى الآن في الصلوة غير راغبين وفي قضائها فاترين باردين. فكونوا فيها منذ الآن فصاعداً نشيطين مستيقظين – اصغوا لما يكلّمكم بهِ الآب السماوي على لسان ارميا النبيّ: الستم من الآن تدعونني يا ابي (ارميا ٣ : ٤) – يا ما احلى خطاب ابينا السماويّ – كان يجب عليك ان تحبّ الصلوة سابقاً. وها انّك قد صرفت اكثر ايّامك متغاضياً عنها محتسباً ايّاها امراً غير ضروريّ وقليل النفع – فالآن بعد ما عرفت جزيل الاحتياج اليها وفاعليّتها تعوَّدْ عليها واقضِها بنشاط العبادة فتستطيع ان تقول في ساعة الموت: تبارك الله الذي لم يبعد صلاتي ولا رحمتهُ عنّي (مزمور ٦٥ : ٢٠) *

الموعظة الخمسون

في الشروط الواجب اقترانها بالصلوة لكي تكون فاعلة نافعة

انَّ حجر المغناطيس الملبَّس ببولاد خالص يجتذب المسمار ولو كان مسمّراً في الحائط. الاّ انّهُ اذا كان ملبَّساً بحديد صادئ فبالصعوبة يقدر ان يقيم الحديد من على وجه الارض – هذه هي حال الصلوة: انّها تستطيع ان تفعل كلّ شيء اذا كانت مقترنة بالشروط المختصّة بها. وبخلاف ذلك دون هذه الشروط لا قوّة لها البتّة – فلماذا كثيرون يصلّون ولا ينالون مطلوبهم: انَّ السبب هو الذي ذكرهُ القدّيس يعقوب الرسول بقولهِ: تسالون ولا تنالون.

لانّكم بئسما تسألون (يعقوب ٤ : ٣) كانهُ يقول ان صدأ شرّ قلوبكم ينزع عن الصلوة كلّ قوّتها *

فتعلّموا اذًا اليوم كيف يجب عليكم انّ تصلّوا لكي تستفيدوا من صلواتكم - اعلموا يا مباركين انّ السبب الذي من اجلهِ تصلّون ولا تنالون هو امّا من قِبَلكم . وامّا من قِبَل طلبتكم نفسها . او من قِبَل كيفيّتها - فالسبب الاوّل الذي يصيّر الصلوة باطلة هو سوء حال الشخص الذي يصلّي . لانهُ من ذا يرجو احسانًا من ملك قد غضب عليهِ لاجل عصيانهِ اذا لم يصالحهُ قبل ان يسالهُ شيئًا . فكيف يجسر رجل خاطئ قد اسخط ربّهُ القادر على كلّ شيء ان يتقدَّم الى عزّتهِ المرهوبة ويطلب منهُ فضلاً وهو لا يتوب عن سيّئآتهِ . بل لا يزال يهينهُ تعالى ويغيظهُ - تاملّوا الآن معي في هؤلآء الخطاة الذين ياتون الى الكنيسة لكي يصلّوا . فمنهم من تسلّطت عليهِ الشهوة اللحميّة الدنسة تسلّطًا شديدًا حتّى انّهُ يتجاوز كلّ حدود الناموس الالهيّ والطبيعيّ ايضاً . وهو كذئب اشتدّ عليهِ جوع مذيب يبتلع بنظر عينيهِ وشوق قلبهِ ما لا يقدر ان يفترسهُ بانيابهِ واسنانهِ . ومنهم من تعبّد لصنم الفضّة . حتّى انهُ لشدّة حبّهِ المكسب الزمنيّ يتغاضى عن عبادة الله وعن خلاص نفسهِ . ومنهم من قد تعوّد منذ سنين عديدة ان يتلفّظ باقبح ما اخترع الشيطان من الالفاظ الغضبيّة التجديفيّة - فكيف يتجاسر هؤلآء ان يدخلوا الكنيسة ويمثلوا امام العزّة الالهيّة قبل ان تكون قلوبهم قد تطهّرت من رجاساتهم بل انّهم يلجون المقدس الالهيّ بعيون مملوّة فسقًا وقلوب ملتهبة بنار جهنّميّة . فلا عجب انّهم يصلّون . ولا يستجيب الله لصلواتهم وانّهم يقع عليهم ما قالهُ النبيّ . نحن أثمنا واذنبنا وانت لم تغفر (مراثي ٣ : ٤٢) - انهُ قبل ان تستجيروا برحمة الله يجب عليكم ان تصالحوا عدلهُ بفعل من افعال الندامة - جاء في التواريخ انّ انطونينس الملك قتل اخاهُ في حضن امّهِ نفسها لكي يمسي ملكًا وحدهُ - فلو كان هذا الانسان الذي صار قايينَ

جديدًا يتقدّم بعد ذلك الى امهِ ويداهُ ملطوختان بعد بدم اخيهِ ويطلب منها احسانًا. هل كانت والدتهُ تقبل طلبتهُ وتجيب الى مرغوبهِ. لا لعمري - فها انّ اولئك يفعلون اشرّ من ذلك لانّهم ها هوذا ايديهم ملطوخة بالدم الالهيّ الذي هريق لاجل خلاصهم. ومع هذا يتجاسرون ان يقفوا امام عرش الآب الازليّ ويطلبوا منهُ احسانًا. مع انّهُ تعالى قد قال على لسان اشعياء النبي: اذا بسطتم ايديكم اليَّ اصرف عينيّ عنكم وان اكثرتم الدعاء فلا استجيب لكم لانّ ايديكم مملوّة دمًا (اشعياء ١: ١٥) - ان من يصلّي على هذا النمط تعود عليهِ صلاتهُ خطيّة وهي تصرخ وتطلب لهُ الانتقام الالهيّ - اذا تقدَّم اليكم احد وكلّمكم بفم تفوح منهُ رائحة منتنة. ألستم تولّون عنهُ وجهكم وترغبون ان يبعد عنكم. فانتجوا من ذلك كم يبغض الله ان يسمع صوت اولئك الخطاة في الصلوة. الحلاّفين. الدنسي النفس. السكّيرين. السارقين. المجدّفين الذين نختهم نفخة جهنّميّة *

غير انّي بقولي هذا لستُ اريد ان اسدّ باب الرحمة على جميع الخطاة لانّهُ ينبغي ان تميّزوا نوعين من الخطاة. اوّلاً الذين امّا يخطئون حالاً. وامّا يحبّون الخطيّة. وثانيًا الذين نسوا الخطيّة التي ارتكبوها. او يريدون ان يتوبوا عنها - فالخطاة الاوّلون لا يستحقّون البتّة ان يستجيب الله لصلواتهم. وعليهم يقع كلامنا المتقدّم وما قالهُ داود عن نفسهِ وهو قولهُ: ان كنتُ أجد في قلبي ظلمًا فلا يستجيبنّ لي الربّ (مزمور ٦٥: ١٨). كانّهُ يقول حسب تفسير بلرمينس: ان رايتُ انا اثمًا في قلبي بعين الارتضاء واحببتُ خطيّتي وقصدتُ العود اليها فلا يستجيب الله لصلاتي ولو كانت نيّتي لا تظهر الى خارج. لانّي لا اكتفي بكوني عدوّ الله بل انّي افرح بكوني عدوّهُ ايضًا - وامّا الخطاة الآخرون فليسوا كذلك. لانّهم مع كونهم اشرارًا يتمنّون ان يكونوا صالحين. فمثل هؤلاء الخطاة لهم ان يرجوا الاستجابة عند صلواتهم كما حدث للمخلّع والعشّار ولمنسّى الملك المنافق. وهم الذين يامرهم السيّد المسيح بان يصلّوا ويطلبوا بلجاجة - والسبب في هذا كلهِ هو انّ

قوّة الصلوة ليست متأسّسة على فضل من يصلّي بل على جود الله ووعدهِ وكلامهِ التي لا يمكن ان يبطلها عدم استحقاق المصلّي ويمنع الله من استماع صلاة الخاطئ متى رأى في نفسهِ الخطية ولم يُسَرّ بها — ومن هنا ينتج انهُ ولو انّ ضمائرنا تكون هادئة لا تبكّتنا على شيء يجب ان نجتهد جدًّا جدًّا في ان ننزع من قلوبنا كبرياء ما خفيّة دقيقة تصوّر لنا أنّ الله مستعدّ للاجابة لاجل ما نحن حاصلون عليهِ من الصلاح والبرّ. بل الأَولى بنا ان نقرّ لهُ تعالى بألفاظ مؤثّرة أنّنا نبني عليهِ كلّ اتّكالنا قائلين مع دانيال النبيّ: أَمِل يا الاهي اذنك واسمع... لانّنا لسنا نتضرّع اليك بصلواتنا لاجل برّنا بل لاجل مراحمك الكثيرة (دانيال ٩ : ١٨) *

واما الشرط الثاني الذي لا بدّ منهُ لتكون الصلوة جيّدة مقبولة لله. هو ان لا يكون الشيء المطلوب بالصلوة سوءًا. ولهذا كان النبيّ يطلب ان تكون صلاتهُ مستقيمة اذ يقول: لتستقم صلاتي يا ربّ (مزمور ١٤٠ : ٢). وصلواتنا لا تكون مستقيمة اذا طلبنا من الله شيئًا سيّئًا او شيئًا يعود الى السوء — وفي ذلك ذُكر انّ الاسكندر الملك ذا القرنين افتقد يومًا ديوجانيس الفيلسوف وهو يتشمّس وسألهُ ان يتمنّى عليهِ ما يريد. فلم يطلب ديوجانيس من الملك عطيّة نفيسة لكن سألهُ شيئًا خسيسًا. وهو ان يتحوّل عنها ويدع الشمس ان تحميهُ — فهذا ما تنتهي اليهِ غالبًا صلوات الناس. لانّهُ من الجهة الواحدة وعدهم الله ان يمنحهم مهما طلبوا منهُ. اذ قال: اطلبوا تُعطَوا. ومن جهةٍ اخرى نراهم يطلبون ما جاء في سفر ايّوب قائلين: ابعد عنّا (ايّوب ٢١ : ١٤). كأنّهم يقولون: دعنا نَعِشْ على هوانا. احفظ عافيتنا التي نستخدمها لضرر النفس. اجعلنا ان نربح ونغتني ونصرف حياتنا بالتنعّم — فمثل هذه الصلوات ليست هي البخور الطيّب الصاعد الى السماء. بل هي القير الذي لا يمكن ان يشتعل الاّ ليعطبنا *

انّني لستُ أعني هنا انّهُ لا يجوز او لا يحسن ان نطلب من الله خيرات

كثيرة ارضيّة كالعافية وما تحتاج اليها حياتنا . بل انما اقول : اوّلاً انهُ يجب علينا ان نرغب الخيرات الروحيّة ونطلبها برغبة وحرقة قلب اكثر من كلّ ما سواها . اقول ثانيًا انهُ ينبغي ان نطلب الخيرات الزمنيّة بهذا الشرط المضمر . وهو ان يراها الله انها تفيد النفس – نعم انّ الله يستجيب احيانًا لمن يطلب هذه الخيرات دون هذا الشرط المقدّس . الاّ انهُ تعالى يستجيب لهُ بغضب وانتقام – وفي هذا قد ذُكر انّ احدى الفتيات كانت صالحة حسنة السيرة تحبّ الخلوة . فدعاها الله لتكون عروسًا لهُ بنذر العفّة الدائمة في الرهبانيّة . ولكنّها لم تُجِب الى صوت الله . لانهُ كما انَّ الكرمة اذا عدمت سياجها تفقد ايضًا اثمارها . كذلك هذه الفتاة ابتدأت ان تضجر من الخلوة فخسرت ايضًا اثمار نيّتها الحميدة . لانها شرعت تتطلّع من طاقات بيتها يسيرًا . ثمَّ اطلقت العنان لعينيها . وبعد ان احبّت ان تبصر الناس اشتهت ايضًا ان يبصرها الناس . واخيرًا بلغت الى محادثتهم . وحينئذٍ تعلّق قلبها بمحبّة غلام اعجبها واشتهت ان يكون ختنها . فاستعانت بالقدّيسة كاترينا السيانيّة لتدبّر لها امر هذا الزواج . ولم تزل تطلب ذلك منها في حين صلواتها – وفيما كانت تصلّي ذات يوم امام ايقونة هذه القدّيسة وتتضرّع اليها في هذا الشان . سقطت الايقونة من ذاتها وانكسر منها الراس والرقبة . مشيرة بهذه الآية للفتاة انهُ ليس يحسن لها ان تتزوّج – الاّ انَّ الشقيّة لم تزل متوسّلة الى القدّيسة الى ان نالت اربها . غير انهُ لمّا خرجت من بيتها بزفاف جمّ غفير من النساء الشريفات الى بيت الفتى المذكور وقربت من باب منزلهِ عثرت رجلها فسقطت على حجر . فانكسرت هامتها ورقبتها وماتت على عتبة ذلك البيت الذي كانت قد فضّلتهُ على الدير – انظروا كيف انَّ الله يمنح بغضب ما لم يكن يعطيهِ وهو راضٍ *

فلنطلبنَّ من الله قبل كلّ شيء وفوق كلّ شيء خلاص نفوسنا وغفران

خطايانا والانتصار على التجارب والاقلاع عن سيئاتنا - واذا طلبنا خيرات زمنيّة. فلنطلبها دائمًا بهذا الشرط وهو: ان كان الله يسرّ بذلك. ولنذكرنَّ قولهُ العزيز: اطلبوا اوّلًا ملكوت الله وبرّهُ. وهذا كلّهُ تزدادونهُ. لانّهُ من عادتهِ تعالى مع الذي يطلب خلاص نفسهِ فقط او يطلبهُ قبل كلّ شيء ان يمنحهُ ذلك اوّلًا ويزيد عليهِ الخيرات الزمنيّة. كما صنع مع سليمان الحكيم (١ ملوك ٣) لانّهُ لمّا ظهر لهُ وقال: تمنَّ عليّ ما تريد فاعطيك. ورأى انَّ سليمان لم يطلب طول العمر ولا الثروة ولا موت اعدائهِ. بل طلب شيئًا واحدًا وهو الحكمة فقط لكي يدبّر شعب الله حسنًا اعطاهُ اوّلًا ما طلبهُ وزاد عليهِ الخيرات الزمنيّة التي لم يكن طلبها - هكذا يصير بكم يا مباركين اذا طلبتم من الله محبّتهُ ومخافتهُ فقط. لانَّ الذين يبتغون الربّ لا يعوزهم شيء من الخير (مزمور ٣٣: ١١) *

الّا انّهُ لكي تكون صلواتنا فاعلة مفيدة. لا يكفي ما ذكرناهُ. بل ما عدا الشرط الذي يخصّ الطالب والطلبة لا بدّ ايضًا من امرين يتعلّقان بحالة الصلوة. وهما المواظبة عليها والايمان - فيلزمنا اوّلًا ان نصلّي بايمان. وهذا الشرط هو ضروريّ كلّ الضرورة في كلّ حال ولذلك ينبغي ان اوضحهُ لكم جليًّا - قال السيّد المسيح: كلّ ما تطلبونهُ في الصلوة بايمان تنالونهُ (متى ٢١: ٢٢) - ان هذه الصلوة القادرة على كلّ شيء المذكورة هنا لها وجهان العقل والارادة - امّا من جهة العقل فيجب ان نعتقد اعتقادًا وطيدًا انَّ الله قد وعدنا بان يستجيب لصلواتنا. وانّهُ ينجز ما وعدنا بهِ لا محالة ان كانت صلاتنا كما ينبغي ان تكون: لانّهُ كما قال الرسول. ان كنّا غير امناء فهو يبقى امينًا ولن يقدر ان ينكر نفسهُ (٢ طيم ٢: ١٣) - وهذا الايمان الضروريّ في الصلوة يُسمَّى نظرًا الى الارادة ثقةً وهو اتّكال شديد قويّ متين ينافي كلّ شكّ وكلّ ريب ويجعلنا ان نقول مطمئنّين مع صاحب المزامير: عليك يا ربّ توكّلتُ فلا اخزى الى

الدهر (مزمور ٢٠ : ١) - وهذا الاتكال المبنيّ على وعد الله وعلى محبّتهِ لنا يصيّر النفس ان تتحقق متيقّنة انّ الله يستجيب لها ايّ مرّة كانت صلاتها متّصفة بالشروط التي شرحناها - طوبى لمن يمتلك من هذا الايمان مقدار حبّة خردل . لانهُ بهِ يقدر ان يزعزع الجبال ويلقيها الى البحر (مرقس ٩ : ٢٢) . ومن يومن هكذا فليس شيء لديهِ غير مستطاع - هذا هو الايمان الذي يجب ان نحسنهُ في حين الصلوة متذكّرين ما قالهُ القدّيس اوغسطينس وهو : لو كان الله لا يريد ان يستجيب لنا لما عاهدنا بالاستجابة ولما حرّضنا على الطلبة . ولما امرنا ان نصلّي - وقال الذهبيّ فمهُ : ان كان الله يجزل خيراتهِ للّذين لا يدعونهُ . فما قولكم بالذين لا يزالون يدعونهُ *

وهنا عنى هذا الملفان الشرط الآخر الضروريّ للصلوة وهو المواظبة عليها - ما قولكم يا مباركين عن رجل مريض استدعى الطبيب ولاجل انهُ لم يشفَ من اوّل زيارة ترك استدعاء الطبيب - هذا ما نرى المسيحيّين يفعلونهُ كثيرًا . اذا لم ينالوا عاجلاً ما يطلبونهُ من الله في صلواتهم . اذ يضجرون وربّما يتذمّرون - تاملّوا ما اعظم صبر هذا الرجل السقيم المذكور في بشارة يوحنّا (٥) الذي كان منذ ثمانٍ وثلاثين سنة ينتظر الشفاء على شطّ بركة بيت حسدا ولم يملك اربهُ . ومع هذا كما قال الذهبيّ فمهُ لم يبارح البركة . بل صبر الى ان اتى السيّد المسيح وابراهُ *

انّهُ قد يمكن ان احدكم يا مباركين استنجد الله بالصلوة مرّاتٍ كثيرة لينال شفاء مرض روحيّ . اعني ملكة سيّئة . ولاجل انّهُ ما نال مطلوبهُ . عزم على ترك طلبتهِ - حاشاكم يا مباركين ان تكفّوا عن الصلوة . بل زيدوا عليها ومارسوها بنشاط اعظم قائلين مع صاحب المزامير : عليك اتّكل آباؤنا . اتّكلوا فنجّيتهم (مزمور ٢١ : ٥) - قال يوحنّا فم الذهب . انّ الله بعدما وعد اسحاق بنسل لم ينجز وعدهُ حالاً . بل اراد ان يواظب اسحاق على الصلوة عشرين

سنة . فكيف نريد ان يستجيب الله لنا ويعطينا مطلوبنا حالما نعرضهُ عليهِ *

قال الحكيم : قف في سهم التقدمة وصلاة الله تعالى (سيراخ ١٧ : ٢٤) - فاذًا يا مباركين احذروا من ان تمتثلوا امام عزّتهِ تعالى لتطلبوا منهُ شيئًا قبل ان تندموا على خطاياكم وتطلبوا منهُ المغفرة وتمتثلوا ما قالهُ الحكيم : قبل الصلوة اعدّ نفسك (سيراخ ١٨ : ٢٣) - والحال انّ افضل الاستعداد للصلوة هو تنقية القلب - ثمّ انهُ لاجل كونهِ هو المتعالي . اذ يقول عنهُ الحكيم تعالى لا يليق ان تطلبوا منهُ اشياءَ سفليّة دنيّة . اي أَشياء ارضيّة دنيويّة الّا ان تكون مفيدة للنفس - وعلى الخصوص لا تطلبوا ما يخالف عظمتهُ الالهيّة. اطلبوا ما فوق لا ما على الارض - ثم انّهُ لاجل كونهِ متعاليًا يجب ان نتضرّع اليهِ بايمان متّقد معتقدين انّهُ قادر على كلّ شيء . عالم بحاجاتنا وما يجدينا نفعًا - فمن حيث انّهُ متعالي يجب ان ندعوهُ باتّضاع وصبر غير متذمّرين اذا تبيّن لنا انّهُ يرفض طلباتنا . بل ينبغي ان نزداد تواضعًا ورغبةً . لانّ صلاة المتواضع تنفذ السحاب . ولا تنصرف حتّى ينظر اليها العليّ (سيراخ ٣٥ : ٢١) - فاستمرّوا على صلواتكم المالوفة ولا تهملوا منها شيئًا . لعلمكم بانّ الله هكذا يريد . وانّهُ لكي يعيننا لا يطلب منّا شيئًا سوى ان نستعينهُ كوعدهِ على لسان ارمياءَ النبيّ : ادعُني فاستجيب لك (ارميا ٢٢ : ٢) *

الموعظة الحادية والخمسون

في الاحتشام الواجب في الكنائس

لمّا عزم سليمان الحكيم على ابتناءَ هيكل الله قال انّ البيت الذي انا بانيهِ عظيم فانّ الاهنا عظيم (٢ ايام ٢ : ٥) . وقال ايضًا : ان كان سماءَ السموات لا تسعك فكيف يسعك هذا البيت الذي بنيتُ (٢ ايام ٦ : ١٨) - وذلك

اوّلاً لكي يقدَّم لهُ فيهِ بخور. وثانياً لكي ينظر الله الى صلاة عبيدهِ (٢ ايام ٢ : ٦ و ٦ : ١٩) فمن اجل هذا نحن نبني لله هياكل اي اوّلاً لكي يُقدَّم لهُ بخور. اي لنعبدهُ. هذه هي الغاية الاولى. ثانياً لكي ينظر الله الى صلوات عبيدهِ. هذه هي الغاية الثانية - انّنا عتيدون يا مباركين ان نتكلَّم اموراً سامية عن الاماكن المقدَّسة المختصّة لاكرام الله وعبادتهِ. فلنرتقِ اذاً عقولكم عند تاملكم شرف كنائسنا وعظمة العزّة الالهيّة الساكنة فيها. وفضّلوها على افخر ما يوجد على الارض من منازل الملوك والعظمآء. لانّهُ بمقدار ارتفاع الله فوق البشر يسمو شرف كنائسنا على اشرف بقيّة المنازل الارضيّة *

انّي قلتُ عن الكنائس انّها اماكن مختصّة لاكرام الله وعبادتهِ. لانّهُ اذ انّ العالم كلّهُ هو على نوع ما هيكل عظيم فيهِ يستطيع كلٌّ منّا ان يعبد خالقهُ. وجب ان نختار اماكن خصوصيّة لنؤدّي فيها بلياقة اكثر ما نحن ملتزمون بهِ من الاكرام والتوقير للحضرة الالهيّة - انّ الله موجود حقًّا في كلّ مكان. الاّ انّهُ في السمآء وفي كنائسنا حاضر على نوع خاصّ. ولهذا قال صاحب المزامير: الربّ في هيكل قدسهِ الربّ في السمآء كرسيّهُ (مزمور ١٠ : ٥) - انّهُ تعالى موجود في السمآء كوجود النفس في الراس. وهو في كنائسنا كوجود النفس في القلب. ومن ثمَّ قال تعالى: انّي اخترتُ هذا البيت ليكون فيهِ قلبي دائمًا (٢ ايام ٧ : ١٦) - فهنا اي في كنائسنا يسكن ربّ المجد كسكنى النفس في القلب. وفيها اقام لعزّتهِ عرشاً الهيًّا وسمآءً ارضيّة - فيا ما اكثر ما يجب علينا ان نكرّم حضورهُ الالهيّ. ولهذا قال في الكتاب المقدّس: اخشوا مقدسي انا الربّ (لاويين ٢٦ : ٢). لانّهُ تعالى لا يكتفي هناك باكرام العادة. بل يقتضي منّا احتراماً يملأنا رعباً اعني اكراماً لائقاً بعزّتهِ التي لا نهاية لها - هذا ما كان يقتضيهِ الله من عبيدهِ في هيكل العهد القديم (لاويين ١٩ : ٣٠) - فما قولكم بالواجب علينا نحن معشر العهد الجديد في الكنائس المسيحيّة التي فيها ابن

الله المتجسّد يسكن حقًّا بلاهوتهِ وناسوتهِ في السرّ الاقدس - لانّنا اذا تكلّمنا بحصر الكلام عن الهيكل الاورشليميّ. فلم يكن حقًّا بيت الله لانّهُ تعالى كما قال الرسول لا يسكن في هياكل صنعتها الايادي (قصص ١٧ : ٢٤). وامّا كنائس المسيحيّين فانّها تُدعَى بالحقّ بيوت الله. لانّهُ فيها يسكن ابن الله حقًّا. وهذا امر يقتضي منّا احترامًا بليغًا. لانّهُ لو كان السيّد المسيح يدخل كنائسنا مرّة واحدةً ويمكث فيها ساعةً واحدةً فقط. لكان يجب علينا ان نكرّمها غاية ما يكون. وان نركع مقبّلين الارض اذ يقدّسها بخطواتهِ وحضورهِ. قائلين مع صاحب المزامير: لندخل الى مساكنهِ ولنسجد عند موطئ قدميهِ. (مزمور ١٣١ : ٧) - والحال انّهُ تعالى لا يزال حاضرًا في كنائسنا ويسكن فيها الى انقضاء العالم. افلا يجب ان نكرّمهُ في الكنيسة كما تكرّمهُ الملائكة في السماء*

ثمّ اعتبروا يا مباركين انّ السيّد المسيح اختار الكنائس لاجل هذه الغاية على الخصوص وهي ان يصيبهُ فيها على الارض الاكرام جزاءً ومكافأةً عمّا اصابهُ من الهوان على الارض حبًّا لنا. فمن اجل هذا القصد العجيب احبّ ابن الله ان يستقرّ معنا في كنائسنا تحت اعراض الخبز في سرّ القربان المقدَّس - وان اردتم ان تفهموا هذا جيّدًا فاعتبروا انّ جسد سيّدنا يسوع المسيح المتّحد بالاقنوم الالهيّ فقد اوّلًا ما كان يستحقّهُ من الاكرام منذ الحبل بهِ. اعني الصفات الاربع التي تروق بها الاجسام الممجّدة بالمجد الالهيّ. ولم يحصل عليها الّا بعد ثلاث وثلاثين سنة اي بعد قيامتهِ من بين الاموات - تذكّروا ما اصابهُ من الاحتقار في زمن تردّدهِ على الارض وكلّ اهانات آلامهِ المقدَّسة. فلائق اذًا بل وجب ان يكون هذا الجسد الالهيّ موضوعًا للاكرام والسجود منّا جزاءً بما كابدهُ من العار والخزي لاجلنا. فانّ الكنائس تنوب عن الجلجلة. والمذبح عن الصليب. وهذا الجسم الالهيّ الذي كان شكًّا لليهود وموضوع قساوتهم. يكون لنا موضوعًا نتّجه اليهِ عباداتنا - ولتحقيق ذلك قد اعتبر مار توما اللاهوتيّ انّ السيّد المسيح بعد

قضاءَ امر خلاصنا اي بعد آلامهِ وموتهِ أَحبَّ ان يكون جسدهُ موقَّرًا ومشرَّفًا حالاً. لانهُّ بعد انفصال نفسهِ من جسدهِ تقدَّم احد اشراف اليهود وانزلهُ باكرام من الصليب. واحبَّ ان يحنّطوهُ بمائة رطل من طيب ثمين ويلفّوهُ بكفن نقيّ ويضعوهُ في قبر جديد وهكذا صحّت نبوَّة اشعياء النبيّ حيث قال: سيكون قبره ممجدًا (اشعيا ١١ : ١٠). وذلك لانّ السيّد المسيح على قول القدّيس مار توما اللاهوتيّ اراد ان يشرّف جسدهُ بكل الاكرام الذي كان غير مضرّ بخلاصنا. ويكافئ هذا الجسم النقيّ البريّ من كلّ عيب عن كلّ ما كان احتملهُ من الاوجاع والاهانات - هذا هو احد الاسباب الخصوصيّة التي لاجلها احبّ مخلّصنا ان يسكن في كنائسنا ناسوتًا ولاهوتًا. اي ليحمل المومنين ان يكفّروا باكرامهم وعبادتهم عمّا احتملهُ من الهوان على الارض *

انظروا الآن ما يفعلهُ اكثر المسيحيّين خلافًا لهذا القصد الالهيّ: انهّم يعلمون ويعتقدون انَّ الله اختار الكنائس لتكون مقصورة لهُ فيها يكرّمهُ شعبهُ جزاءً بما اصابهُ من العار في آلامهِ المقدَّسة. وها انهّم يهينونهُ تعالى في مقدسهِ ويحتقرونهُ في وجههِ *

فيا ايتّها الكنائس المقدَّسة حتّى متى يفسد كنَّ المومنون بضعف ايمانهم - انَّ الديانة تقتضي منّا على الخصوص كلّما دخلنا الى الاماكن المقدَّسة ان نظهر بخارجنا ونعترف بباطننا بعظمة الله خالقنا الموجود هناك وبسلطانهِ المطلق على ابداننا ونفوسنا. وها انّ اكثر المومنين يحتقرون في الكنيسة الحضرة الالهيّة بخارجهم وباطنهم - لاننا اذا تفرّسنا في المومنين في الكنيسة وميّزنا خارجهم رأَينا اكثرهم يحتقرون المقدس الالهيّ بأَلسنتهم واعينهم وحركات أَبدانهم - انَّ حبقوق النبيّ يصرخ قائلاً: الربّ في هيكل قدسهِ. فاسكتي بين يديهِ ايتها الارض كلّها (حبقوق ٢ : ٢٠). فكيف نرى المومنين في هذا الهيكل الالهيّ يتكلّمون بل يرفعون اصواتهم كأنهّم في منازل اللهو او في حوانيت التجارة - واذا احترزوا

من هذا الاثم ولازموا الصمت ساعة من الزمان في حين القداس الالهيّ يظنّون انهم بهذا اكملوا كلّ البرّ وكلّ واجبات العبادة المسيحيّة - اعلموا يا مباركين انّ الكنيسة قد بُنيت لنتكلّم مع الله وحدهُ كقول صاحب المزامير: في هيكلهِ كلّ احد يقول المجد (مزمور٢٨: ٩) - قال القدّيس باسيليوس: انكم لا تقولون المجد لله ولا تكتفون بذلك. بل تمنعون الآخرين عن تمجيدهِ. ولا تعدّون هذا خطيّة - اسمعوا ما يخاطبكم بهِ السيّد المسيح: انّ بيتي بيت الصلوة يُدعى. فكيف تصيّرون انتم بيت الربّ ومسكنهُ الاقدس بيت المذاكرة. وبيت الضحك واللهو - لو كنّا نعتقد اعتقادًا حسنًا بحضور الله في كنائسنا كم كنّا نحترمها. وكم كنّا نحسن الاحتشام والتهيّب فيها - يا ما ارهب ما يكون الحساب الذي سوف تعطونهُ عن كلّ كلمة تنطقون بها في الكنيسة من غير ضرورة *

ولكنّ الاعين تتّصل الى ما هو اشرّ من جسارة اللسان. لانّهُ ما اكثر الذين ياتون الى الكنيسة لكي يبصروا ويُبصَروا - لقد علمت ذلك النسآء والفتيات اللواتي ياتين الى الكنيسة بكلّ ما يمكنهنَّ من الزينة والبهرجة - ذُكر في الاساطير انّ رجلاً من الاقليرس دخل قصر كارلس الخامس ملك اسبانيا بثياب ثمينة فائقة فوق لياقة منزلتهِ ودرجتهِ. ولمّا سُئل عن سبب اتيانهِ الى هناك اجاب قائلاً: انّي اتيتُ لكي ابصر الملك. فقال الملك انك لم تاتِ لكي تبصر الملك او قصرهُ. بل انّما اتيتَ لكي يبصرك الملك واهل قصرهِ - هذا ما يسوغ لنا نقولهُ بحجّةٍ اولى عن المسيحيّين والمسيحيّات في عصرنا هذا. وممّا يقضي بالعجب انّهنّ اذا سمعن بانّهُ يصير في الكنيسة زيّاح او احتفال لاكرام سيّدتنا مريم العذرآء تراهنَّ يتراكضن من كلّ جهة الى الكنيسة. وان سألهنّ احد الى اين ذاهبات يجبنهُ قائلات بانّهنَّ ذاهبات ليبصرنَ ايقونة العذرآء ويكرمنها - الاّ انّهنَّ لا يصدقْنَ. وتكذّبهنَّ زينة اثوابهنّ وحلاهنّ. لانّ هيئتهنّ وظاهرهنَّ ليس هو ظاهر نسآء آتيات لكي ينظرنَ والدة الاله. بل ظاهرهنَّ ظاهر نسآء

وفتيات يشتهين ان تبصرهنَّ بنو البشر - انّني لستُ اعني بقولي هذا انهُ لا يجوز للمومنين ولا يحسن بهم ان يستعمل كلّ منهم في ايّام الاعياد زينة معتدلة بمقتضى منزلتهِ . بل انّي اتكلّم هنا عن كلّ زينة متجاوزة حدود الاحتشام المسيحيّ . وقولي هو عن الذين ياتون بها الى الكنيسة ويتعدّون بذلك ما قد قصدهُ الله في الكنيسة . لانَّ الله يدعونا الى الكنيسة لكي نفتكر فيهِ تعالى ونشكرهُ على ما احسن بهِ الينا . ونحمدهُ ونسبّحهُ بالجملة . ولكنّنا في زماننا هذا نرى قوماً من النسآء والجواري يلبسن الثياب المزخرفة وياتين الى الكنيسة بنيّة ان يراهنّ الناس ويفتكروا فيهنّ ويتكلّموا عنهنّ ويجلّوهنَّ - قال زكريآء النبيّ : من انت يا ايّها الجبل العظيم . قدّام زربّابيل تصير سهلاً (زكريا ٤ : ٧) - من انتِ يا امرأة يا فتاة مفتخرة متعظمة بجمالكِ وزينة اثوابكِ . من انتِ قدّام ملك الملوك وربّ الارباب . من انتِ حتى انّ عبيد الربّ الملتئمين في قصرهِ يحوّلون عنهُ تعالى افكارهم وتسبيحهم ويوجّهونها اليكِ ويفتكرون فيكِ وينظرون اليكِ ويمدحونكِ - ويا ليت الشرّ لا يتّصل الى ما هو اقبح من ذلك . يا ليت محبّة هذه الزينة الباطلة لا تتّصل الى فساد القلب والجسد - لانهُ يتّفق انّ اقواماً ياتون الى الكنيسة ويقفون فيها بحال يظهر منهُ انّ قصدهم هو ان ينصبوا فخّ الطهارة للمومنين - وقد ذُكر عن القدّيس انطونينس اسقف فلورنسا . انهُ لاجل هذا السبب اخرج نسآء كثيرات من الكنيسة - كم من الناس ذهبوا الى الكنيسة بروح العبادة وخسروها في الكنيسة عينها لاجل عدم احتشام المومنين - خبّرنا الكتاب المقدَّس انّ جبل الزيتون دُعي على زمن سليمان الحكيم جبل العثرة او الفساد . بعد انهُ اقام هناك صنماً (٢ ملوك ٢٣ : ١٣) - افليس يسوغ لنا ان ندعو هكذا كنائس زماننا اذ انهُ عوضًا عن انْ تكون جبال زيتون بالغفرانات والذبائح والاسرار والصلوات . صارت جبال عثرة وشكّ لاجل وجود صنم الوقاحة وعدم الاحتشام هناك *

اننا حتى الآن تكلمنا عمّا يصير من عكس الاكرام الخارج الواجب في الكنيسة. وما الذي يصير عكس ذلك في الباطن: لستُ ادري هل يكون اقل شرًّا من الذي بالخارج - انني اعني اوّلاً الذين يجعلون بيت الله بيت التجارة. اولئك الذين يصرفون في الكنيسة الزمن في التفكّر في بيوتهم ومخازنهم وتجاراتهم. ولكنّ الشيء الذي يحزنني اكثر من ذلك هو النظر الى الخطايا القبيحة التي تحدث في الكنيسة باطنًا في القلب باشواق دنسة امام العزّة الالهيّة حينما يكون السيّد المسيح يعظّم امامهم اباهُ تعظيمًا غير متناهٍ. لانّ السبب الخاصّ الذي لاجلهِ اراد سيّدنا يسوع المسيح ان يكون معنا في كنائسنا الى انقضاء العالم في سرّ القربان المقدّس ليس هو ليكون هناك بطّالاً غير عامل كأنهُ انسان نائم. كلّا. بل انهُ تعالى في هذا السرّ يكرم اباهُ الازلي اكرامًا غير متناهٍ. ويكرمهُ هكذا في كلّ الكنائس حيث يكون هذا السرّ موجودًا - نعم انّ الملائكة الذين لا يزالون يسبّحون الله في السماء قائلين على ممرّ الاوقات قدّوس قدّوس قدّوس (اشعيا ٦ : ٣) يمجّدون الله تمجيدًا عظيمًا. الّا انّ هذا المجد اذا قوبل بالعظمة الالهيّة يسوغ لنا ان ندعوهُ دخانًا مع اشعياء النبيّ حيث قال انهُ لمّا قالت الملائكة التسبحة المذكورة امتلأ البيت دخانًا (اشعيا ٦ : ٤). لانّ الفرق الذي بين الدخان وبين النور الالهيّ يوجد بين تسابيح الملائكة وبين العظمة الالهيّة - وامّا الذي يكرم الله بمقدار ما يستحقّ فهو سيّدنا يسوع المسيح في السرّ الاقدس حيث يتلاشى اقنومهُ الالهيّ اكرامًا لله وسجودًا لهُ - قال الذهبيّ فمهُ والذي قالهُ كرّرهُ القدّيس غريغوريوس: انّ الملائكة الذين يرون هذه العظمة في السماء عيانًا يستمرّون في الكنيسة راكعين ساجدين ملازمين غاية التوقير والتهيّب - فالويل ثمّ الويل للّذين لا يحترمون الذي يحترمهُ الملائكة ولا يقتدون بهم ملازمين معهم غاية التوقير في الكنيسة ولاسيّما في ساعة تقديس الاسرار الالهيّة *

انّي قلتُ آنفًا انّ الغاية الثانية التي بُنيت الكنائس لاجلها هي ان

نحصل هناك من الله على كلّ انواع من الخيرات. لانّنا قد قلنا آنفًا انّ الله يسكن في الكنيسة كما في فردوس. فكما انهُ تعالى يصيبهُ في الفردوس السماويّ اكرام وتوقير عظيم من قبل الارواح الطوباويّة ويوتيهم جزآءً بذلك سرورًا بليغًا. هكذا يطلب منّا في فردوسنا الارضيّ اي في الكنيسة غاية الاكرام والتوقير لكي يوتينا خيراتهِ الوافرة - لا ريب في انهُ تعالى لا يزال يفيض علينا مراحمهُ في كلّ مكان. الاّ انّنا نرى انّ كثرة رحمتهِ وآلائهِ الوافرة العظمى لا تفاض الاّ في الاماكن المقدَّسة. ولاجل هذا قال صاحب المزامير: وانا بكثرة رحمتك ادخل الى بيتك (مزمور٥: ٨) - نعم انَّ الشمس تضيء في كلّ مكان وتحمي. الاّ انها لا تنبت ذهبًا في كلّ مكان - ولايّ سبب تُدعى الكنيسة بيت الله بيت الصلوة. فيجيب الذهبيّ فمهُ قائلاً: انّ الكنيسة قد دُعيت هكذا اوّلاً لانّنا لا نستطيع غالبًا أن نحسن صلاتنا في بقيّة الاماكن كما نحسنها في الكنيسة. ثانيًا لانهُ في بقيّة الاماكن لا يستجاب لصلاتنا بسهولة كما في الكنيسة. وقد زعم مار توما اللاهوتيّ انّ الصلوات المقدَّمة في الكنيسة هي اكثر قبولاً لله لاجل انضمام المومنين الذين يقدّمونها بعضهم الى بعض حسب الوعد الالهيّ: حيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسمي فانا اكون هناك في وسطهم (متى ١٨ : ٢٠) - ومن ثمَّ كلّ ما كان يحصل من الخير لبني اسرائيل من قِبَل تابوت العهد. فهذا كلّهُ واكثر منهُ جدًا يحصل للشعب المسيحيّ من قِبَل الكنيسة - لانهُ كما انَّ اليهود بواسطة تابوت العهد كانوا ينالون من الله معرفة اسرار خفيّة عنهم ومغفرة خطاياهم وعونًا في حين الشدّة. هكذا المسيحيّون اوّلاً يحصلون في الكنيسة على معرفة ارادة الله. وذلك امّا بالهامات سرّيّة وامّا بتعاليم خصوصيّة. ثانيًا ينالون غفران خطاياهم وذلك امّا نظرًا الى الجريمة بواسطة سرّ الاعتراف وامّا نظرًا الى العقاب المتعلّق بالخطايا المغفورة. وذلك باكتساب الغفرانات. ثالثًا ينالون في الكنيسة عونًا في كلّ حاجاتهم. لانهُ تعالى قد قال انهُ لا يزال

قلبهُ موجودًا فيها مع عينيهِ (٢ ايام ٧ : ١٦) - لانهُ هنا يهتمّ بقضاءِ حاجاتنا ويقبل طلباتنا راحمًا - هذه هي الخيرات التي يفيضها الله علينا في الكنيسة لو اكرمناهُ فيها كما يجب. الاّ انّ عدم احترامنا لمقدسهِ يعدمنا هذه البركات - قال ربّ الجيوش: من اجل انّ بيتي هو خراب. لاجل ذلك امتنعت السموات من فوقكم ان تعطي الندى (حجّي ١ : ٩ و ١٠) - فان كان الله يمسك عنّا بركاتهِ لاجل قلّة الناس الذين ياتون الى الكنيسة فماذا ترى يصنع بنا اذا دنّسنا الكنيسة واهنّاها - فلا تتعجّبوا من الغلاءِ والكساد والشدّة والخسائر وبقيّة البلايا. لانهُ بذنبنا وقلّة احترامنا لكنيسة الله صارت السماءُ من نحاس وحديد. ولا يجسر احد القدّيسين ان يشفع فينا. كقولهِ تعالى لارمياءَ النبيّ: لا تصلِّ انت على هذا الشعب. ولا تقدّم عنهم دعاءً وصلوة (ارميا ٧ : ١٦) - وما سبب ذلك: لانّهم جعلوا معاشرهم في البيت الذي فيهِ دُعي باسمي لينجّسوهُ. ولذلك ها هي ايّام تاتي وازيل من مدن يهوذا ومن شوارع اورشليم صوت الطرب وصوت الفرح. والارض تكون خرابًا (ارمياءَ ٧ : ٣٠ و ٣٢ و ٣٤) - الاّ انّ الله لا يكتفي بذلك. اي انهُ جزاءً بعدم احترامنا الكنيسة لا يكتفي بان يمسك عنّا بركاتهِ. لكن بعد ذلك يكثّر لنا العقوبات ايضًا. لانهُ هكذا قال على لسان حزقيال النبي: لانكِ نجّستِ مقدسي بجميع معاشركِ وبكلّ رجاساتكِ فانا ايضًا احطم ولا ترحم عيني ولا اصفح (حزقيال ٥ : ١١) وبعد قولهِ هذا ارى الله النبيّ رجسات الشباب والنساءَ في هيكلهِ. وفي غضون ذلك قال برجز وغضب: إذن اصنع انا ايضًا بالرجز. لا تشفق عيني عليهم ولا ارحم. واذا صرخوا في اذنيَّ لا اسمع (حزقيال ٨ : ١٨) - انّ السيدّ المسيح في زمن تردّدهِ على الارض دُعي حَمَلًا لاجل كثرة رافتهِ على الخطاة وكثرة حلمهِ مع الجميع. ومن ثمَّ كان يوصي تلاميذهُ ان يتعلّموا منهُ لانهُ وديع - الاّ انهُ لما رأى في بيت الربّ اناسًا يدنّسونهُ ويحتقرونهُ بعدم احترامهم لحضرة الله هناك اكلتهُ حينئذٍ غيرة

بيت ابيهِ واخذ مخصرة وضربهم بها - فها انا اذا اكلّمكم يا مباركين بما قالهُ الله على لسان ارمياء النبي : ما لحبيبتي في بيتي قد عملت آثاماً كثيرة (ارميا ١١ : ١٥) - الستم تعرفون من الايمان انّهُ يلزمكم ان توقّروا حضرة الله توقيرًا بليغًا . انسيتم انّكم محتاجون الى عونهِ . وانّ الكنيسة هي الموضع الخاصّ الذي يوزّع الله فيهِ اعظم بركاتهِ بسخاءٍ وافر - فكيف تجاسرون ان تسخطوا عزّتهُ في بيتهِ . وكيف في مقدسهِ ترتكبون الخطيّة حيث يجب ان تطلبوا مغفرة خطاياكم السالفة - لماذا حبيبتي عملت آثاماً كثيرة في بيتي - اعتبروا انّكم انتم الشعب المختار العزيز على الله . تذكّروا انّ اجدادكم المسيحيّين الاقدمين كانوا يدخلون الى الكنيسة كدخولهم الى السماء اي باحتشام وتهيّب ملائكيّ. فكيف تدخلون بيت الله كدخولكم بيوتكم بل كدخولكم منزل فلّاح واسطبل بقر - لماذا حبيبتي عملت آثاماً كثيرة في بيتي - انظروا يا مباركين انّ الخطايا التي تصير في الكنيسة لا تُدعى خطايا فقط بل آثاماً ايضاً . وذلك لاجل انّها تحدث في مكان مقدّس في حضور الله ووجود السيّد المسيح في السرّ الاقدس - قال سلويانس اسقف مرسيليا الملقّب بالفصيح . انهُ بالنسبة الى الله لا يوجد شيء خفيف . وما يبين هفوةً صغيرة يصيّرها عظيمة كونها اهانةً لله - انّكم تقولون انّ التكلّم في الكنيسة والضحك وما يضاهي ذلك ليس هو بخطيّة . لعمري انّكم لو كنتم تفتكرون انّ المكان مقدّس وانّهُ هو بيت الله لما كنتم تقولون ذلك وكيف يجوز ان يسمّى خفيفاً ما بهِ يُهان الله القادر على كلّ شيء - انهُ في العهد القديم لم يكن العبرانيّون يتركون لمواشيهم ان ترعى حول جبل حوريب . وذلك احتراماً لله الذي كان ظهر هناك مرّةً واحدة فقط . فكيف يجوز للمسيحيّين ان يرعوا كلّ حواسّهم اعني اللسان والعينين والاذنين بأمور باطلة في الكنيسة حيث الله لا يزال حاضرًا

ولماذا الاكثرون يستخفّون بهذه الخطايا : الّا لانّهم في الكنيسة لا يوقظون ايمانهم - انّ يعقوب البارّ لمّا انتبه من نومهِ وعلم انّ الموضع الذي كان فيهِ

نائمًا هو مقدَّس قال حقًّا : انَّ الربَّ في هذا المكان . وانا لم اكن اعلم (تكوين ٢٨ : ١٦) - انكم انتم الآن في حال النوم لا تستفيقون على قداسة الكنيسة لضعف ايمانكم . غير انكم فيما بعد اي بعد الموت ستنتبهون على ضلالكم وتقولون حينئذٍ حقًّا انَّ الكنائس التي دنّسناها مرارًا كثيرة كانت مقدَّسة . حقًّا كان هناك ديّاننا حاضرًا - فاسبقوا هذا الزمن الاخير الذي لا تفيدكم فيهِ التوبة . وعند دخولكم الكنيسة ومدّة وجودكم فيها . تذكّروا انّ هذا المكان مرهوب وانّهُ هو بيت الله - لازموا فيها اعظم الاحترام . لانّ الكنيسة هي ايضًا باب السماء . بها تصعد صلواتنا الى اعالي السماء . ومنها تحدر علينا البركات التي نطلبها - احفظوا دائمًا ظاهركم وباطنكم في حال التهيّب ما دمتم في بيت الله موجودين وامام عزّتهِ ممتثلين *

الموعظة الثانية والخمسون

في سرّ المعموذيّة

انّهُ في علم الطبّ يوجد ثلاثة انواع من الادوية . نوع يحسم الداء بعد ورودهِ . ونوع يسبق الداء ويصدّهُ . ونوع يقوّي البدن ويزيدهُ عافية بتكثير الارواح الحيويّة ويبعد عنهُ المرض - واننّا نعلم انّهُ من جملة الالقاب الحلوة الطيّبة التي اتّخذها السيّد المسيح وخصّصها لذاتهِ لكي يجتذب بها قلوبنا الى حبّهِ انّهُ هو طبيب نفوسنا بقولهِ عن نفسهِ في سفر اشعياء النبيّ : ارسلني لاعالج المنكسري القلوب (اشعيا ٦١ : ١) - فانّهُ بعد ان اختار هذه الوظيفة ونزل من السماء ليباشرها . صنع لنا من دمهِ الاقدس ادوية روحيّة شتّى جزيلة المنفعة وهي السبعة الاسرار المقدَّسة . ومنها المعموذيّة . والتوبة . والمسحة الاخيرة هي ادوية تشفينا من الخطيّة الاصليّة والفعليّة - وهذه الاسرار والادوية يحتاج اليها الجميع قاطبةً - وامّا

الزيجة والميرون او سرّ التثبيت فهما دوآءان ينصراننا احدها على الشهوات الجسدية. والآخر على ضعف القوّة الغضبيّة - واما سرّ الكهنوت وسرّ القربان المقدَّس فهما دوآءان مقوّيان ينميان فينا العافية الروحيّة المكتسبة بالاسرار الاخرى. ويسوغ لنا ان نزيد على ذلك فائدة اخرى وهي انهُ كما انّ سرّ الاوخارستيا هو الغاية التي من اجلها رتّب السيّد المسيح بقيّة الاسرار. هكذا هذا السرّ يشترك في منافع بقيّة الاسرار. فانهُ يداوي الدآء ويعالجهُ. ويصون منهُ. ويقوّي النفوس المرتاحة الى تناولهِ بتكاثر - فانظروا يا مباركين ما اجمل هذه المادّة التي نحن عتيدون ان نتكلّم عنها - فلندخلنَّ الى مخزن هذا الطبّ السماويّ المفعم ادوية سماوية الهيّة - امّا اليوم فندخل من باب سرّ المعموديّة المقدَّس لانّهُ باب بقيّة الاسرار ويبيّن ما يكتسبهُ كلّ انسان مسيحيّ من البركات باخذهِ وما يلتزم بهِ بعد اخذهِ - فاعلموا يا مباركين انّ سرّ المعموديّة قد سبقت صورتهُ في معموديّة سيّدنا يسوع المسيح. لانّهُ لمّا اراد تعالى ان يعتمد من يوحنا نزل الى نهر الاردنّ لا لكي يطهر بالمآء كما قال مار اوغسطينس لكن لكي ينقّي مياههُ ويقدّسها فتكون جديرة بان تقدّسنا - وقد حدث هناك ثلاثة اشياء ترينا جليًّا ما يصير في معموديّتنا. الاوّل هو انّ الآب الازلي نادى قائلاً عن السيّد المسيح انّهُ هو ابنهُ الحبيب. والثاني هو حلول روح القدس عليهِ تعالى شبه حمامة. والثالث هو انّ السمآء المغلقة الى ذلك الحين انفتحت حالاً - وهذه الامور الثلاثة ترينا مفعولات سرّ المعموديّة. وها انّنا نشرحها في هذه الموعظة *

انّنا ان سألنا قائلين ايّ شيء هو سرّ المعموديّة. فيجيبنا القدّيس يوحنّا الانجيلي قائلاً: انَّ هذا السرّ يصيّرنا ابنآءً لله. لانّ هذا هو فحوى قولهِ. اعطاهم سلطانًا ان يصيروا بني الله (يوحنا ١ : ١٢) - وقد نرى في هذه الحيوة انَّ الوالدين الذين ليس لهم بنون يتّخذون اولاد الغربآء ابنآءً لهم بالذخيرة

ويخصّونهم بحقّ على وراثتهم كأنّهم مولودون منهم - فالذي يفعلهُ البشر لاجل الضرورة يفعلهُ الله بحركة محبّتهِ. لانّهُ حيث لهُ ابن وحيد سرمديٌّ يغني عن بنين لا يُحصَى عددهم. احبّ ان يتّخذ كلّ المومنين أبناءً لهُ بالذخيرة - انّ البشير لمّا تأمّل في هذا السرّ العجيب صرخ مندهلاً قائلاً: انظروا ايّة محبّة اعطانا الآب حتّى نُدعَى اولاد الله ونكون كذلك (١ يوحنا ٣ : ١) - على انّهُ تعالى من حيث انّهُ في سرّ المعموديّة (كما سنشرح ذلك) يمنحنا نعمتهُ الالهيّة وروح القدس. فانّهُ تعالى يصير بذلك نفس نفوسنا وقلب قلوبنا - بالحقيقة يجوز ان نقول انَّ المسيحيّ ليس هو ابن ابيهِ البشريّ الذي ولدهُ بالجسد بمقدار ما هو ابن الله الذي ولدهُ في سرّ المعموديّة - لانّهُ لا يتّخذ من ابيهِ الارضيّ غير مادّة اعضائهِ. وامّا من الاب السماويّ فانّهُ يصيب كونًا جديدًا الاهيًّا. ومن اجل هذا السبب نرى القدّيس يعقوب الرسول لمّا تكلّم عن هذهِ البنوّة بالذخيرة سمّاها ولادة. ليعني بذلك انّ المومن يمسي بالمعموديّة ابن الله حقًّا ويشترك في طبعهِ الالهيّ. لانّهُ قال: هو شاء فولدنا بكلمة الحقّ (يعقوب ١ : ١٨) اي بابنهِ الالهيّ لنكون ابتداءً من خليقتهِ (يعقوب ١ : ١٨) *

من منكم يا مباركين عند استماعهِ هذهِ الحقائق العجيبة لا يفكر افكارًا لائقة بهذا المولد الالهيّ وصيرورتهِ ابنًا لله بالذخيرة - قال اشعياء النبيّ: النبيل يفكّر بالمكارم وعلى المكارم يقوم (اشعياء ٣٢ : ٨) - من كان ابن امير او ابن احد الاكابر. لا يفتكر في فلاحة الارض لكن يفتكر فيها ابن فلّاح - فكيف الانسان المسيحيّ يربّي في عقلهِ افكارًا ارضيّة دنيّة كأنّهُ من القوم الوثنيّين الذين لا يرغبون الّا في المكاسب الدنيّة والعظائم الارضيّة ويجعل سعادتهُ العظمى في ما تستلذّ بهِ حواسهُ المائلة الى لذّات ارضيّة - تذكّروا انّكم بالمعموديّة صرتم اخوة السيّد المسيح ووارثين ملكهُ السماويّ. فلتكن سيرتكم مطابقة لشرف حالكم - تذكّروا انّهُ في يوم مولدكم البشريّ وُلد في الهند وفي بلدان الامم الجاهليّة

الوف الوف وربوات ربوات من الناس عتيدون ان يَصْلَوْا نار جهنّم . فأمّا انتم فانكم وُلدتم في حضن الكنيسة واعتمدتم . وبالمعموديّة اصبحتم بين بني الله ونلتم الحقّ على السعادة الابديّة - افلا يقتضي منكم هذا الاحسان ان تشكروا الله دائمًا *

ثمّ انهُ مثلما لمّا اعتمد السيّد المسيح حلّ عليهِ روح القدس وهتف الآب الازليّ هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سُررتُ . هكذا ينزل روح القدس على كلّ من يعتمد ويحلّ فيهِ . وحينئذٍ يقدر الآب الازليّ ان يقول عن المعمّذ : هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سُررتُ - اجل يا مباركين حينما صرتم ابناء الله بالمعموديّة كما قال الرسول : ارسل الله روح ابنهِ الى قلوبكم (غلاطية ٤ : ٦) صارت اجسادكم هياكل روح القدس (١ قورنثية ٦ : ١٩) *

وهذا الروح القدّوس عند حلولهِ في النفس يمنحها النعمة الالهيّة وعطاياهُ - وهنا ينبغي ان نشرح هذه العطايا العظيمة فنقول : انَّ روح القدس يمنح اوّلاً النعمة الالهيّة التي هي ثروة كلّ الثروات وزرع اللاهوت . لانّها تشترك بالطبع الالهيّ كما انَّ الزرع يشترك في طبيعة الثمرة - ولكي تفهموا عظمة هذه الموهبة . تأمّلوا في مفعولاتها في المعتمد . فاعلموا يا مباركين انَّ النعمة المعطاة للمعتمد تردّهُ الى حال برّهِ الاصليّ الذي سقطنا عنهُ بذنب ابينا الاول . لانهُ حينما اخطأ آدم لم يضرّ نفسهُ فقط بل ضرّ ايضًا كلّ الذين وُلدوا منهُ وسيُولَدون الى انتهاء العالم - انّ من انواع السموم نوعًا اذا شربهُ جذر شجرة يصير كلّ ثمرها مسمومًا - فمثل هذا صنع الشيطان لانهُ لمّا اسقط آدم في الخطيّة وضع حينئذٍ في اصلنا سمًّا مضرًّا لو دام الى الابد لكان الناس يُولَدون مسمومين الى الابد . وهذا السم هو الخطيّة الاصليّة التي فيها يُولَد كلٌّ منّا *

انهُ من المستحيل ان نفسّر كما يجب التغيير العجيب الحاصل من نعمة المعموديّة في النفس . فيكفي ان نقول عن هذه النعمة انَّ الذين كانوا اسارى

الشيطان يصيرون بها اخوة السيّد المسيح وشبيهين بالملائكة في البهآء - ذُكر انهُ في سواحل بلاد انكلترة تتساقط من الشجر اثمار مرّة في مياه جارية هناك . فتستحيل رويدًا رويدًا الى طيورٍ ذات ريش ابيض افضل من الثلج - وهذا الامر الطبيعيّ العجيب يرينا ما يصير في النفس بنعمة المعموديّة . لانّ النفس التي كانت بالخطيئة الاصليّة مفعمة من الخباثة فحالما تغطس في المياه المقدّسة تظهر لابسة ثوبًا ابيض ثوب برٍّ تتذهل الملائكة من حسن جمالهِ . وفي هذه المياه تغرق كلّ الخطايا وتُباد - فكما انّهُ لمّا غرق الجيش المصريّ في بحر القلزم اخذ القوم يغنّي تسبحة الشكر لله . هكذا بعد انَّ الخطيّة بادت في مياه سرّ المعموديّة يجب علينا ان نسبّح الله ونشكرهُ قائلين : لنسبّح الربّ فانهُ قد تعظّم . الفَرَس وراكبهُ طرح في البحر . (خروج ١٥ : ١) *

انهُ لو امكننا ان نشاهد عظم بهآء النفس بعد المعموديّة لكنّا نزدري بكلّ بهآء آخر عاليّ - ولاثبات ذلك اسمعوا هذا الخبر الذي حكاهُ القدّيس انطونينس - قال : انّهُ في سنة ستّ وتسعين ومايتين والف خرج كازان ملك التتر وكان من الوثنيّين الى ملك ارمينيا . وطلب ابنتهُ ليتزوّجها لانهُ كان سمع بجزيل حسنها وجمالها الفائق . وارتضى بان تبقى مسيحيّة وتعيش على دينها - فلم يكن بدّ للملك الارمن الّا ان يجيب الى طلبة ملك التتر . وبعد الزيجة بمدّة قاربت الملكة المسيحيّة ان تلد . وفيما كان الملك ينتظر منها غلامًا شبيهًا بها في الجمال ولدت المسكينة غلامًا اسود شنيعًا ومنتنًا حتّى انّ كلّ من كان يراهُ كان يولّي وجههُ عنهُ مشمئزًّا - تصوّروا في عقولكم يا مباركين كم خجلت الملكة والملك من اهل قصرهِ . امّا الملك فانّهُ احتمى على الملكة بغضب عظيم وحتم عليها بالموت وعلى ابنها لظنّهِ فيها انّها زانية - وفيما هم يسوقونها لتُقتَل . طلبت قائلة : دعوني اتناول الاسرار الالهيّة قبل الموت وأرى ابني قليلاً . فرضي الملك بطلبتها . ومن بعد ان اعترفت بخطاياها وتناولت القربان المقدّس . اخذت ابنها وعمّدتهُ .

ففي الحال استحال منظرهُ الى منظر بهيّ جميل فائق في الحسن كملك ارضيّ - فلمّا رآهُ الملك واهل قصرهِ اندهشوا من هذه الاعجوبة وتحقّقوا قوّة سرّ المعموذيّة. فاعتمد حينئذٍ الملك مع اهل دولتهِ: وبهذه الاعجوبة امتدّت الديانة المسيحيّة في بلاد التتر - الّا انّ الجمال الجسميّ العجيب الذي اكتسبهُ هذا الطفل في سرّ المعموذيّة ليس هو شيئًا بالنسبة الى الجمال الذي تحصل عليهِ النفس بهذا السرّ. لانّ هذا الجمال هو عظيم جدًّا حتّى انهُ من سببهِ يحبّ الله الطفل المعمّذ محبّةً ابويّة ويُسَرّ بهِ سرورًا لا يُدرَك *

تاملّوا هذا ايها الوالدون. واحترسوا على حفظ هذا البهآء الملاكيّ في اولادكم ولاسيّما في صبائهم. واقتدوا بتلك الملكة الممدوحة جدًّا في كنيسة الله لاجل حسن تربيتها اولادها من صغر سنّهم. اعني بالانكا ملكة فرنسا والدة القدّيس لويس الملك - فهذه كانت كلّ يوم تخاطب ابنها قائلةً: يا ابني العزيز اعلم انّني اختار من كلّ قلبي ان اراك ميتًا بين يديّ افضل من ان اراك ساقطًا في خطيّة واحدة مميتة *

ثمَّ انّ سرّ المعموذيّة يرسم في نفس المعمّذ وسمةً كالوسم الذي ترسمهُ الاسرار التي لا يجوز تناولها الّا مرّة واحدة. اعني سرّ التثبيت وسرّ الكهنوت - غير انّ الوسم الذي يرسَم بهذهِ الاسرار يُرسم لاجل غاية مختلفة لاننا بوسم سرّ الكهنوت نقترن بالسيّد المسيح كخدّام بحبرهم الاعظم. وبوسم سرّ التثبيت نقترن بهِ تعالى كجنود بملكهم الاعظم. وبوسم سرّ المعموذيّة نقترن بهِ تعالى كابنآء بابيهم الاعظم - واقول مختصرًا انَّ هذا الوسم يُرسم فينا لا على اللحم. بل على قوى النفس ولا يمّحي الى الابد حتّى انَّ المسيحيّين الاشقيآء الهالكين يحفظون هذا الوسم دائمًا. غير انَّ هذا الوسم يزيد خجل المسيحيّين المرذولين كما انهُ يزيد مجد المختارين *

اننا قلنا اخيرًا انهُ كما انَّ السمآء انفتحت بعد ان اعتمد السيّد المسيح. هكذا تنفتح للمومن بواسطة سرّ المعموذيّة. لانهُ من صار ابنًا فلهُ الحقّ على الوراثة

كقول الرسول: ان كنّا اولادًا فنحن وَرَثة ايضًا (رومية ٨ : ١٧) - ومن يعيش بالروح يستحقّ حيوة سماويّة حسب شهادة الرسول المذكور: ان انتم امتّم بالروح اعمال الجسد تحيون (رومية ٨ : ١٣) - فاذًا افتتاح السماء عند اعتماذهِ تعالى يعني الاجر الابديّ الذي يمتلكهُ المسيحيّون بعد الموت اذا عاشوا بحسب موجب دعوتهم - تأمّلوا يا مباركين كيف يبرهن الرسول بقولهِ: ان كنّا اولادًا فنحن ورثة ايضًا. لانهُ كما لا يجوز للأَب ان يحرم من وراثتهِ ابنهُ الطبيعيّ ولا الذي صيّرهُ ابنهُ بالذخيرة اذا عاش عيشة صالحة. هكذا من الممتنع ان يسلب الله الوراثة السماويّة من الذين اتّخذهم ابناءً لهُ بالذخيرة في سرّ المعموديّة واشركهم في طبعهِ الالهيّ ان عاشوا كالأَولاد خاضعين لهُ *

انهُ ينبغي ان اعلّمكم ما الذي يجب فعلهُ على من يعمّذ غيرهُ لكي تستطيعوا في حين الضرورة ان تفتحوا ملكوت السماوات لنفس واحدة - فاعلموا يا مباركين انهُ لمّا كان اخذ هذا السرّ هو اكثر ضرورة للخلاص من اخذ بقيّة الاسرار احبّ السيّد المسيح ان يكون تناولهُ اكثر سهولة . ومن ثمَّ يستطيع كلٌّ ان يتناولهُ - امّا مادّة هذا السرّ الالهيّ فهي الماء العنصريّ المعهود . وامّا صورتهُ فهي ان يقول المعمِّذ. انا اعمّذك او يعتمذ عبد الله فلان بسم الآب والابن وروح القدس - فاذًا اذا دعت الضرورة ينبغي ان تعمّذوا هكذا: تناولوا ماءً في اناء واسكبوا على راس المعتمذ اذا امكن ذلك . والّا فاسكبوهُ على احد اجزاء بدنهِ الكبيرة . وعند سكبكم الماء قولوا هكذا: انا اعمّذك بسم الآب والابن وروح القدس - وان شككتم في الطفل أَحيّ هو ام ميت فحينئذٍ ينبغي ان تعمّذوه تحت الشرط قائلين هكذا: ان كنتَ حيًّا انا اعمّذك بسم الآب والابن وروح القدس *

فماذا نقول عن الامّهات الجاهلات اللواتي في حال حبلهنّ يلقين انفسهنّ في السقوط غير مباليات بأَثمار بطونهنّ كأنّهن حاملات شيئًا دنيًّا غير نافع - أَتعرفن جسامة الخسارة التي تجلبنها حينما بذنبكنّ يموت احد بغير

معمودية: انّ هذه الخسارة هي عظيمة جدًّا حتى انها تستحق ان يُرثى لها مدّة الابديّة كلّها. لانّها لو لم تمُتْ هذه النفس بلا معموديّة لكانت حظيت بالله وبمجدته الى الابد في ملكوت السمآء — وماذا اقول عن خطيّة النسآء اللواتي خوفًا من العار والهتيكة يقتلن عمدًا خليقة الله التي حبلنَ بها بالاثم. وهكذا يزدنَ على خطية الزنا خطيّة القتل الطبيعيّ والروحيّ — اهكذا تختلسين نفسًا من الوراثة السماويّة. بماذا تعوّضين الضرر الذي تجلبينهُ — انّهُ اذا قُتل ظلمًا طفل معمّد لنا نحن المسيحيّين. فلنا ان نتعزّى لاجل رجانا اليقين باننا سنراهُ في السمآء. الّا انهُ اذا مات قبل العماذ فليس لنا ما نتعزى بهِ — فيا لسوء حظّ الأمّ التي خسّرت ابنها السعادة الابديّة. لانّها بفعلها هذا أَبطلت كلّ مقاصد السيّد المسيح مخلّصنا وصيّرت كلّ اتعابهِ واوجاعهِ وآلامهِ باطلة. لانّهُ تعالى احتمل هذه كلّها في شان هذا الولد ليرث حياة الابد بواسطة سرّ المعموديّة — انّهُ قال انّي انيتُ لتجب لهم الحياة (يوحنا ١٠ : ١٠) — فكيف لا يغضب الله على هذه الامّ الشقيّة القتّالة التي اختطفت من يدَي ابنهِ الوحيد نفسًا عزيزة عليهِ جدًّا ولاجل خلاصها بذل حياتهُ *

وكفى بهذا الآن. فلنرجع الى ما كنّا في صددهِ — ما ظنّكم يا مباركين في سعادة من تناول سرّ المعموذيّة اعني سعادة من يقدر ان يقول عن نفسهِ انّي ابن الله واخو السيّد المسيح وهيكل روح القدس. انا وارث الملكوت. وهذا المُلك ملكي الى الابد ان لم اجحدهُ وارتدّ عن حقّي عليهِ عمدًا بالخطيّة المميتة — لعمري انَّ هذه الحقائق من شانها ان تملأ القلب سرورًا وابتهاجًا — غير انَّ كلّ رتبة ومنزلة ولو كانت شريفة وسعيدة لها واجبات تتعلّق بها. فما الذي يلتزم بهِ كلّ مومن بعد اخذهِ سرّ المعموذيّة. انّ الكنيسة تفسّرها في صلواتها حيث تتضرّع في صلواتها قائلة: اجعل يا ربّ كلّ المسيحيّين ان يرذلوا ما يشين اسمهم ويفعلوا ما تقتضيهِ دعوتهم — اسالكم يا مباركين ما هي لوازم الشجرة بعد

ان نقلها البستانيّ الى بستانهِ وطعّمها طعمًا جيّدًا. انهُ ينبغي اوّلًا ان لا تثمر فيما بعد اثمارًا رديّة. ثانيًا ان تاتي بثمار جيّدة - فنحن الاشجار المغروسة في البرّيّة في رمل الطبيعة الضعيفة الرثّة لا نقدر ان ناتي بثمار الحيوة. الّا بانتقالنا من هذه البرّيّة الى بستان الكنيسة وتطعيمنا في السيّد المسيح بواسطة المعموديّة. وهذا قد سمّى الرسول المسيحيّين اناسًا مغروسين لكي يعلموا انهم بعد ان تغرسهم الكنيسة لا يجوز ان يثمروا حسب طبع قرميتهم القديمة. اعني بها آدم. بل حسب طبع السيّد المسيح الذي طُعّموا فيهِ. فنسعى بحيوة جديدة - اننا صرنا مسيحيّين لكي نجحد اعمال الجسد ونثمر لا اثمار الطبيعة الفاسدة. لكن اثمار حياة المسيح - قال ترتليانس انّ المسيحيّ هو لا انسان هذا الدهر بل انسان الدهر الآتي. لانّهُ عند اخذهِ سرّ المعموديّة يكفر جهارًا بالجسد والعالم والشيطان - فوا اسفاه ما اكثر المسيحيّين الذين سيرتهم تضادّ دعوتهم. بل قد تكون سيرتهم اشرّ من سيرة الامم. ومع هذا يرجون الخلاص والوصول الى الملكوت السماويّ مع انّهم سالكون في طريق جهنّم. ويقولون نشكر الله انّنا مسيحيّون - فان كانت السماء ليست للمسيحيّين فلمن تكون. بلى انّ السماء للمسيحيّين الذين يعيشون عيشة مسيحيّة. وأمّا المسيحيّون السيّئون فلا. بل انّ الرسول قد اعتبر في خطيّتهم ثلاثة اوجُه تزيدها جرمًا وثقلًا. الاوّل هو انّ المسيحيّ بالخطيّة يخون العهد الذي بهِ عاهد الاب الازليّ ان يقبلهُ ابًا لهُ ويخصّص نفسهُ ابنًا لهُ. وعاهدهُ بذلك عهدًا مثبتًا لا بدم الذبائح المالوفة دم الحيوانات بل بدم الحمَل الالهيّ المذبوح لاجلهِ. لانّ هذا هو فحوى قول الرسول انّ المسيحيّ حينما يخطئ يحسب نجسًا دم الوصيّة الذي بهِ قُدّس (عبر ١٠: ٢٩) - والوجه الثاني هو انّهُ يهين السيّد المسيح ويصلبهُ (عبر ٦: ٦) بعد انّهُ تعالى صيّرهُ في المعموديّة اخًا لهُ - والوجه الثالث هو انّ المسيحيّ يتهاون بروح القدس لانّهُ بالمعموديّة صار هيكلًا لهُ تعالى. فايّ مرّةٍ يخطئ يدنّس هيكلًا الاهيًّا ويرتكب خطيّة تدنيس الشيء المقدّس - فما بالكم

تقولون انَّ الملكوت هو لمثل هؤلاء المسيحيّين - قال مار توما اللاهوتيّ انّ الخطية في المسيحيّ هي اعظم جدًّا ممّا هي في الانسان الاميّ وانّهُ يستحقّ عقابًا اشدّ لانهُ حسب دنسًا دم العهد الذي تقدَّس بهِ *

الّا انهُ لا يكفي للمسيحيّ ان يعوذ ممّا يضادّ قداسة اسمهِ . بل يجب عليهِ ايضًا ان يفعل ما تقتضيهِ دعوتهُ . لانهُ هو شجرة منقولة ومغروسة في الكنيسة ومسقيّة بدم المسيح - فلا يكفي ان لا تثمر ثمر الموت بل ينبغي ان تثمر ثمر الحيوة . والّا يامر ربّ الكرم بقطعها قائلاً : اقطعها لماذا تبطّل الارض (لوقا ١٣ : ٧) - ما النفع الحاصل من اولئك المسيحيّين الذين ليسوا بحارّين ولا باردين بل هم فاترون . وبفتورهم يصيّرون الله ان يشمأزّ منهم - قال اشعياء النبيّ : ما لك هاهنا ومن لك هاهنا (اشعيا ٢٢ : ١٦) . يا لهُ من سؤال مخوف عجيب . فكأنّ النبيّ يقول : من انت هاهنا . من انت الذي ارى اسمك محرَّرًا في دفتر عبيد الله . من انت الذي ارى عليك وسم المعموديّة مرسومًا هل انت مسيحيّ - أفانت من جملة الاشجار التي راى ابن الله منذ الازل ان يغرسها في كرمهِ ويسقيها بعرَقهِ ويغذوها بدمهِ . فاين الاثمار التي يرغبها منك - لماذا لا يوجد عليك الّا ورق . نعم انّك لا تزني ولا تقتل ولا تسرق ولا تحسد . الّا انك متغاضٍ عن فعل الصالحات - انّ سيرتك هذه ليست سيرة من هو مومن . بل سيرة من هو كمومن . اي من لهُ ظاهر ما يخصّ المومن *

فانتبهوا يا مباركين ولا تظنّوا انّهُ يكفي للمسيحيّ ان لا يصنع شرًّا - دعوا عنكم هومكم الدنيويّة الكثيرة واموركم الارضيّة التي ولو انّها جائزة نظرًا الى جوهرها . الّا انّها تعرقلكم وتصدّكم عمّا تقتضيهِ منكم دعوتكم المسيحيّة - حتّى متى تهتمّون بما يمرّ كالبرق ويضمحلّ كالدخان - الى مَ لا تكنزون لكم كنوزًا في السماء - اجتهدوا في ان تثمروا اثمارًا تليق بالتوبة . اثمار الحيوة . اثمار الافعال الصالحة التي ترثون بها حياة الابد . آمين *

الموعظة الثالثة والخمسون

في سرّ التثبيت

لقد جرت العادة في تكريس الملوك المعظّمين انّهم يلبسون الثوب الملوكيّ. ثم يقلَّدون بالاسلحة - والمسيحيّون هم ملوك حسب قول القدّيس يعقوب الرسول وورثة المُلك الذي وعد بهِ محبّيهِ (يعقوب ٢: ٥). ولهذا فالكنيسة بعد ان البستهم ثوب البرّ المبيّض بدم الحمل الالهيّ بسرّ المعموذيّة. تمنطقهم باسلحة روحيّة غير مقهورة في سرّ التثبيت. فالمسيحيّ هو ملك متسلّح للحرب - فيجب ان نتأمّل اليوم في حقيقتين جزيلتي الاعتبار. الاولى هي الحروب الشديدة التي اصابت المومنين في العالم. والثانية هي جلال انتصاراتهم على اعدائهم - انّ العالم والشيطان يحاربان المومنين على انواع كثيرة. غير انّنا يمكننا ان نجمعها في نوعين. اي المحاربة جهارًا برجز وغضب والمحاربة خفيةً بمكر وخبث - فالعالم يحارب المومنين تارةً باضطهادات مشتهرة يتبعها سفك الدماء. وتارةً باضطهادات ملتبسة بالهوان والاحتقار. وقد تعلّم العالم هذا من معلّمهِ الجهنّميّ اعني بهِ الشيطان. لانّ الشيطان كما علّم القدّيس اوغسطينس يُدعى تارةً اسدًا وتارةً حيّة. فيسمّى اسدًا لاجل غضبهِ المشتهر. ويُدعى حيّة لاجل دسائسهِ الخفيّة - غير انّ المسيحيّين جنود السيّد المسيح انتصروا على رجزهِ وغضبهِ وخبث حيلهِ بالقوّة والشجاعة المعطاة لهم في سرّ التثبيت *

وها نحن نفسر ذلك. فاعتبروا يا مباركين انّ ثلاثة اشياء تصيّر الجيش مخوفًا مرهبًا. وهي حال الاعداء المحاربين. والاسلحة التي يحاربون بها. ومدّة المحاربة - امّا الاعداء فانّهم كانوا كثيري العدد وجزيلي القوّة والاقتدار.

اعني كلّ ملوك الروم الوثنيّين الى عصر قسطنطين الملك. وبعد ذلك كثير من الملوك الشرقيين المسيحيّين اعدآء الحقّ - الّا انّنا لا نعتبر اليوم الّا اضطهادات الملوك الوثنيّين. فاعلموا يا مباركين انّ الشيطان كان قد اضرم في قلوب هولآء الملوك غضباً عظيماً اذ اوغر في صدورهم انّ اضطهادهم المسيحيّين هو عمل ماثور. من حيث انَّ ديانة المسيحيّين اذا تأصّلت تبطل مملكة الروم وديانة آبائهم اعني عبادة الاوثان وتبطل معها سلطتهم وتنتقل الى المسيحيّين - فهذا ما جعل الكلّ ان يبغضوا المسيحيّين بغضةً شديدة ويضطهدوهم بقساوة لا نظير لها *

واما أسلحة هؤلآء الاعدآء فهي العذابات الهائلة الكثيرة الانواع: كانوا يحرقون المومنين وهم احيآء. ويدفنونهم في الرمل وهم أحيآء ايضاً. ويلقونهم طعاماً للوحوش الضارية. ويربطونهم بارجلهم في أذناب الخيل ويجرّونهم هكذا على الارض. وينشرونهم بالمناشير من الوسط ويغلونهم في القير. ويصلبونهم على الخشب. ويمزّقون اعضاءهم ويفسخونها. ويمشّطون اجسادهم بالمخاليب. ويربطونهم مع أجساد ميتة منتنة - وهذا الحرب المرهوب الذي قام في كلّ مملكة الروم شرقاً وغرباً. دام نحو ثلاث مئة سنة - وبعد موت قسطنطين الملك الحسن العبادة قام في الشرق الملوك الهراطقة واطالوا هذا الاضطهاد ستّماية سنة - لعمري انّهُ في كلّ التواريخ لا يوجد مثل هذا الحرب. وهذا هو الحرب الذي فيهِ ظهرت شجاعة المسيحيّين - وهم انتصروا على اعدائهم بقوّة سرّ التثبيت الذي جعل صبرهم اقوى من اسلحة مضطهديهم. على انهم بصبرهم وشجاعتهم في العذاب انتصروا على معذّبيهم - ولا يظنّ احد بهذا الكلام الذي نطق بهِ القدّيس قبريانس انّهُ مبالغة. فانّ تواريخ الكنيسة مشحونة بامثال ذلك - روى اوسابيوس المؤرّخ انّهُ لمّا اتى انطونينس الملك الى بلد اسيا لكي يضطهد المسيحيّين وحكم بالموت على جمّ غفير منهم. فلمّا رآهم ذاهبين جميعاً الى الموت

بهيئة جنود مسرورين . غيّر حالاً حكمهُ وكفَّ عن اضطهادهم - ومثل هذا فعل الملك ادريانوس . ومثلهُ فعل طرايانس الملك ايضاً لمّا اخبرهُ بلينيوس الفيلسوف والحاكم في مملكة بيثونيا بانّ المسيحيّين كانوا يمضون الى الموت متطايرين كما تتطاير النحل الى كوائرها - وقد ذكر اوسابيوس اعظم من ذلك وهو انّ مسيمينوس الذي لم يكن اقلّ قساوة على المسيحيّين من باقي الملوك . لمّا رآهم يزدادون نشاطاً ورغبةً في العذاب والموت . اصدر امراً في المملكة يقول فيهِ انهُ اذ قد عادت كلّ أَوامري للمسيحيّين باطلةً وبعد عذابات هائلة يستمرّون في مذهبهم ثابتين . فانا اعفو عنهم واريد ان اعاملهم فيما بعد بشفقة ولطف *

هذه هي العجائب التي صنعها سرّ التثبيت في قلوب المسيحيّين - وان قلتم من اين نعلم انّ المسيحيّين اتّخذوا هذه القوّة والشجاعة من سرّ التثبيت لا من سرّ آخر . فيجيب القدّيس توما اللاهوتيّ . انّ الله يمنحنا في هذا السرّ ملء روح القدس لكي نتمنطق بقوّة روحيّة - وتدلّ على ذلك مادّة هذا السرّ وصورتهُ . لانّ المادّة هي الزيت الممزوج بالبلسم . ولهذا يقول القدّيس اوغسطينس . انهُ بهذا الدهن اراد السيّد المسيح ان يعدّنا للحرب مع الشيطان - فالزيت هو رمز الى نعمة روح القدس الذي بقوّتهِ نفوز بالظفر . والبلسم يعني العرف الطيّب الناتج من المثال الصالح *

وأمّا صورة هذا السرّ فهي عند الشرقيّين هذه : ختم موهبة روح القدس . وعند الغربيّين هذه : انّي ارسم عليك رسم الصليب واثبّتك بمسحة الخلاص باسم الآب والابن وروح القدس - فكأنّ الاسقف يقول : ارسم عليك اشارة الصليب لكي تعلم وتظهر انك جنديّ السيّد المسيح . واثبّتك بمسحة الخلاص . اي امنحك القوّة الروحيّة اللازمة لكي تحارب بشجاعةٍ لاجل خلاص النفس . وامنحك ذلك باسم الآب والابن وروح القدس لتعلم انك في هذا السرّ لا تنال قوّة اعتياديّة بل ملء القوّة الروحيّة كما قال توما اللاهوتيّ *

اعتبروا الآن غاية هذا السرّ - انّ السيّد المسيح يريد ان يمنحنا ملكوتهُ. الاّ انهُ يريد ان نكتسبهُ كجنود ذوي شجاعة لانّ ملكوت السمآء غصبًا يُؤخَذ والغاصبون يختطفونهُ (متى ١١ : ١٢) وقال الكتاب ايضًا: ان جاهد احد جهادًا فلن ينال الاكليل ان لم يجاهد على السنّة (٢طيم ٢ : ٥) - فبهذا السرّ نتدرّع القوّة من العلا - لاحظوا يا مباركين الفرق الموجود بين سرّ المعموذيّة وسرّ التثبيت: اننّا بالمعموذيّة نجو من الخطيّة الاصليّة. وبالميرون نتقوّى ونجو من الضعف المتبقّي في الطبيعة من جرّآء هذه الخطيّة - انّنا بسرّ المعموذيّة نتجنّد للسيّد المسيح. وبسرّ التثبيت نتقلّد بأَسلحة الحرب ونستلّ كما قال الرسول سيف الروح (افسس ٦ : ١٧) - ولهذا سيبذل المسيح الدجّال كلّ جهدهِ كما قال القدّيس فراريوس في منع المسيحيّين ان يتدرّعوا بهذا السرّ لعلمهِ أَخزاهُ الله انّ المسيحيّين الذين لا يكونون قد اخذوا هذا السرّ يجحدون الايمان - وفي هذا ذكر القدّيس برودنتيوس ما حدث في عصرهِ وهو انهُ لما كان يليانس الملك الملحد يقدّم ذبائح للاوثان لكي يعرف منهم الغيب. ولم تجبهُ الاوثان بشيء. انذهل الكاهن الوثنيّ. ثمّ جثا على الارض وصرخ قائلاً: لا شكّ ايها الملك انّ هاهنا رجلاً مسيحيًّا مدهونًا بالبلسم الذي يسدّ افواه آلهتنا. ولا يمكن ان يجيبونا الاّ ان يخرج من المحفل - حينئذٍ خلع الملك تاجهُ ووقف في الوسط وقال بصوتٍ غضوب: اين الشقيّ الذي يتجاسر ان يحارب آلهتنا فليظهر نفسهُ - فتقدّم واحد من حاشية الملك وقال بشجاعة عجيبة: انا جنديّ السيّد المسيح الذي اسمهُ يرعب قوات جهنّم: فارتعد الملك وخرج وارتجع الى قصرهِ صامتًا - وذكر اوسابيوس المورخ انّ نوباطس الشهير الهرطوقيّ الذي كان ابى ان يتناول هذا السرّ كفر بالايمان في زمان الاضطهاد - فمن اجل هذا السبب كان المسيحيّون الاقدمون يرغبون جدًّا تناول سرّ التثبيت ارجائهم انهم بهِ ينالون قوّةً زائدة لحفظ الايمان المسيحيّ *

ارايتم يا مباركين كيف انَّ المسيحيّ بسرّ التثبيت يتدرّع بقوّة عظيمة من العلا . ومن ثَمَّ كان يقول القدّيس بطرس الرسول حسبما ذكر عنهُ القدّيس اقليميس انَّ المسيحيّ لا يصير مسيحيًّا كاملاً الى ان يتناول سرّ التثبيت – وقال القدّيس توما اللاهوتي : انَّ هذا السرّ ليس لهُ في العهد القديم رمز لانّهُ هو سرّ ملء النعمة . ومن ثَمَّ لم يمكن ان يوجد لهُ مثال في العهد العتيق الذي كما قال الرسول . لم يبلّغ شيئًا الى الكمال (عبرانية ٧ : ١٩) *

ولكن لعلّ احدكم يقول عن ذاتهِ . انهُ قد تناول هذا السرّ . الاّ انهُ لم يشعر قطّ بهذه النعمة والقوّة الفائقة – فاجيب واقول اوّلاً . انَّ السبب لذلك هو انَّ كثيرين يتناولون سرّ التثبيت بغير استعداد واجب اذ يتناولونهُ امّا في حال الخطيّة المميتة . وامّا يتناولونهُ بغير استعدادٍ كافٍ من العبادة – اقول ثانيًا ان ملء النعمة الالهيّة الذي ننالهُ في سرّ التثبيت يستمرّ فينا كالقوّة في اصلها . ولهذا لا تظهر اثمارها اي نتائجها في ذلك الوقت لكن في اوقات الحاجة – هل كانت قوّة شمشون تظهر كلّ وقت . كلاّ . لكن حينما كانت تقوم عليهِ الأُسد او الفلسطانيّون – وعلى هذا الشبه تظهر قوّة سرّ التثبيت في المسيحيّين الذين لا يصدّون قوّتهُ بالخطيّة المميتة . لانهُ كما انَّ الذين يتناولونهُ في حال الخطيّة المميتة لا ينالون نعمة هذا السرّ . هكذا من كان في حال الخطيّة المميتة بعد تناولهِ فانهُ يمنع السرّ عن اصدار مفعولاتهِ *

ولنتكلّمنَّ الآن عن الجيش الآخر من الاعدآء الذين حاربوا الكنيسة وعن انتصارها عليهم بواسطة سرّ التثبيت – انَّ الشيطان لمّا رأى الكنيسة تنمو وتنتشر بواسطة العذابات . وان دم المومنين المقتولين من اجل الايمان كان كزرع سعيد مثمر يزيدهم عددًا وقوّةً . اخذ يحاربها بكلّ نوعٍ من انواع الاذى لكي يخنق فيها ما كان ينبت ويكثر فيما بين العذابات . فكفّ يوليانوس الملحد عن اضطهاد المسيحيّين بالسيف كما ذكر سوزنيموس المؤرّخ اليوناني

وشرع يذلّلهم ويحقرهم. لانهُ اوّلاً نهاهم عن درس العلوم وابطل كلّ مدارسهم وعزلهم عن كلّ المراتب والوظائف الشريفة المفيدة. قصدهُ بذلك ان ينزع عنهم كلّ ما يصيّر الناس معتبرين في العالم. اعني شرف العلم واليسر والسلطة. فيصيروا عند الجميع محتقرين - هذه هي الاسلحة التي لا يزال ابليس يحارب بها المومنين الى يومنا هذا بواسطة الاشرار الذين يحتقرون الاخيار - هكذا كان اسماعيل يضطهد اسحق. لانهُ اعني اسماعيل الشرّير كان يهزأ باسحق الصدّيق ويحتقرهُ لاجل افعالهِ الصالحة كما زعم مفسّروا الكتاب المقدّس - قال السيّد المسيح: لا بدّ ان تكون الشكوك. اي لا بدَّ ان توجد فخاخ في طريق تقوى الله. والمقصود الاوّل في ذلك هو ان يُعرَف الصدّيقون ويتميّزوا من الشرّيرين. ومن ثمّ قال الرسول لا بدّ من ان يكون بينكم بِدَع ليكون المختبَرون ظاهرين فيكم (١ قور ١١: ١٩) - انَّ كلّ الجواهر الصادقة والكاذبة تتلألأ في ضوء الشمس. ولكن في ظلام الليل لا يتلألأ اصلاً غير الجواهر الصادقة. ولهذا فمن يشتري جوهرة ويريد ان يعرف هل هي جيّدة فيمتحنها هكذا في الظلمة. هكذا يمتحن الله عبيدهُ في ظلمة الشدائد - وفي ذلك يورد المعلّم اوريجنيس سببين آخرين. اوّلهما خباثة الشيطان. وثانيهما شقاء الانسان. لانّ الشيطان المسمّى في الانجيل المقدّس الانسان الشرّير (متى ١٣: ٢٨) يستخدم ألسنة الاشرار ليهزأوا بافعال الصالحين ويجعلوهم مهانين ويضحكوا منهم ومن عبادتهم وهم تبعة الذين كانوا يضحكون من السيّد المسيح - وقد قال سليمان الحكيم: السالك باستقامتهِ يتّقي الربّ. والمعوّج طرقهُ يحتقرهُ (امثال ١٤: ٢) - هذا هو الاضطهاد العامّ الدائم في الكنيسة - وما هو قصد الشيطان واحزابهِ بهذا الاضطهاد حينما يهزأون بالصدّيقين وبافعالهم الصالحة: انَّ قصدهم هو هذا. اي ان يحملوا الابرار على ان يستحيوا فيباينوا البرّ وتبطل عبادة الله - واذ ذاك فالمسيح كما قال مار توما اللاهوتي رسم سرّ التثبيت لكي يقوّي المومن على هذا الاستحياء الذميم فيعترف بجهر وبشجاعةٍ باسرار الصليب المقدّس ويقول

مع الرسول: حاشا لي ان افتخر الاّ بصليب سيّدنا يسوع المسيح (غلاطية ٦ : ١٤) - فمن اجل هذا يرسم الاسقف اشارة الصليب مع الميرون على جبهة من يتناول هذا السرّ. لانّ الجبهة هي جزء من بدننا يظهر اكثر الظهور. ومن اجل هذا ايضًا يلطم الاسقف الشخص المتناول هذا السرّ. اي لكي يعرف انهُ ينبغي لهُ ان يكون مستعدًّا لاحتمال اعظم الاهانات لاجل السيّد المسيح كما فعل الرسل اذ بعد ان حلّ عليهم روح القدس كانوا يفرحون لانّهم استحقّوا ان يُهانوا لاجل اسم يسوع المسيح (قصص ٥ : ٤١) - قال الله يومًا لحزقيال النبيّ: هاءنذا قد جعلتُ وجهك اصلب من وجوههم وجبهتك اصلب من جباههم. فلا تخفهم ولا تفرق من وجوههم (حزقيال ٣ : ٨) فهذا نفسهُ يحدث في من ياخذ نعمة سرّ التثبيت. لانّهُ يستمرّ مواظبًا على العبادة غير مبالٍ بهزوء الناس واحتقارهم *

انّي اختم هذا الخطاب بنصيحتين. احداهما تخصّ الذين يضطهدون اخوتهم المومنين بسبب فضائلهم. والأخرى تخصّ المومنين الذين يصيبهم الاضطهاد لاجل الفضيلة - فاقول اولًا نحو الاوّلين المستهزئين بأهل العبادة ما قالهُ الرسول: لا تحزنوا روح الله القدّوس الذي خُتمتم بهِ (افسس ٤ : ٣٠). لانّ روح القدس يمتلك انفسنا في يوم تناولنا سرّ التثبيت امتلاكًا كاملًا. فأيّ مرّة تستهزئون بالذين يسلكون في طريق الفضيلة فانّكم بهذا تجتهدون ان تخرجوا روح القدس من قلوبهم - قال مار توما اللاهوتيّ: انّ الاستهزاء بالله وبما يخصّهُ تعالى هو اثم عظيم - تذكّروا ما قالهُ الحكيم عن هؤلاء الخطاة المضطهدين الابرار والمستهزئين بهم وهو انّ الابرار يقومون عليهم في يوم الدينونة ويملأُون وجوههم من الخزي (امثال ١٩ : ٢٠). وحينئذٍ يصرخون معترفين بعظمة خطيّتهم قائلين: كيف نحن الجهال احتسبنا سيرتهم جنونًا (حكمة ٥ : ٤) - خبّرنا الكتاب المقدّس انّ الله انتقم من ميخال لانّها استهزأت بداود حيث عَمِل عمل فضيلة اجلالًا لله. وذلك انهُ تعالى حرمها ان تلد الى يوم وفاتها

(٢ صموئيل ٦ : ٢) - فاياكم ثم اياكم ان تهزأوا بما يخصّ الله وعبادتهُ . لئلاّ ينتقم الله منكم بالفقر الروحيّ اي لئلاّ يهملكم وينزع عنكم نعمتهُ ويخذلكم فتصبحوا اشجارًا غير مثمرة تُقطَع بغتة وتُلقَى في النار المؤبّدة *

وامّا انتم الذين يصيبكم من الاشرار الاضطهاد والاهانة لاجل عبادتكم فاحذروا ايضًا من ان تحزنوا روح القدس بخوفكم الباطل من اقوالهم وافعالهم - انّكم تجنّدتم تحت راية الصليب . فما يجب ان تشتركوا قليلاً في هوانهِ - انّي اعترف انّكم حاصلون على تجربة مرّة . وانّهُ يصعب جدًّا احتمال الاهانة من قِبَل الذين كان يجب ان يمدحوكم . اي من اخوتكم المسيحيّين - كان داود نفسهُ يتشكّى من ذلك قائلاً : جعلتنا عارًا لجيراننا وهُزْؤًا ومسخريّة للذين حولنا (مزمور ٤٣ : ١٤) - فهذا صليب يصعب احتمالهُ جدًّا . نعم نعم الاّ انّنا مسيحيّون والمسيحيّون لا يجوز لهم ان يستحوا من الانجيل . والاّ يستحي بنا ابن الله في يوم مجدهِ - اما يكفينا ان يُسَرّ بنا السيّد المسيح وتمدحنا ملائكتهُ - اغلبوا الخوف الباطل بواسطة الخوف الحقيقيّ - تاملّوا ما يكون حزنكم في جهنّم تحت ارجل ابليس لسبب انكّم ما اردتم ان تقبلوا اهانة خفيفة من قبل اناس نظيركم - قال ارمياء النبيّ : سيخزون خزيًا شديدًا لانّهم لم يفهموا . عارًا ابديًا لن يُنسى (ارميا ٢٠ : ١١) - يا ما ارهب ما يكون هذا العار للمسيحيّ الذي لا يباين معاشرة شخص سيّئ لئلاّ يهينهُ . او الذي يحفظ في قلبهِ بغضةً للقريب ولا يريد ان يصالح عدوّهُ لئلاّ يُحتقَر ويقال عنهُ انّهُ عادم الشجاعة ومتّصف بنفسٍ جزوعة خسيسة - حاشاكم يا مباركين *

الموعظة الرابعة والخمسون

في ما يظهر لنا السيّد المسيح من المحبة في سرّ الاوخرستيا

يا ما اعظم نار محبة سيّدنا يسوع المسيح الملتهبة في قلبهِ الاقدس. ويكفي لنفهمها ان نتأمّل في مفعولاتها في سرّ القربان المقدّس - فلنلاحظنَّ اليوم في هذا السرّ ثلاثة مفعولات ترينا قوّة هذا اللهيب الالهيّ . اعني المواهب التي وهبها لنا السيّد المسيح في هذا السرّ العجيب . وما يحتملهُ من الاهانات لكي نستطيع ان ننال هذه المواهب وجزيل اتّحادهِ بنا حينما نتناول هذا السرّ *

انّ الذي يحبّ كثيرًا يجب ان يعطي كثيرًا. وذلك امّا لانّ الذي اعطى قلبهُ الذي هو الشيء الاعظم لا يقدر ان يمسك ما هو اقلّ ثمنًا . ومن اعطى الشجرة يعطي اثمارها بسهولةٍ. وامّا لانّ الذي يحبّ كثيرًا يرغب جدًّا ان يظهر ذلك لكي يحبّ ايضًا . وذلك يتمّ بالعطايا التي كما انها تشهد لمحبّة المعطي. كذلك تقتضي من المعطى المقابلة بالمحبّة - ومن ثمَّ لمّا كان يوناثان يحبّ داود خلع ثوبهُ وسلاحهُ ودفعها لهُ - هذا رمز خفيف الى ما يظهرهُ لنا ابن الله من السماء في سرّ القربان المقدّس . وقد قال عنهُ المجمع التريدنتيّ المقدّس : انَّ الله في هذا السرّ افاض على نوع ما كلّ غنى محبتهِ الالهيّة للبشر. واحبّنا في الغاية كما قال الانجيليّ عن السيّد المسيح حينما رسم هذا السرّ . لانهُ اعطانا كلّ ما لهُ . ولم يستبقِ شيئًا ممّا كان يمكن ان يعطيناهُ *

هلمّ بنا الآن نشرح هذه الحقيقة - اعلموا يا مباركين انَّ كلّ غنى السيّد المسيح هو قائم في ثلاثة انواع من الخيرات وهي الخيرات التي يمتلكها من كونهِ انسانًا . والتي يمتلكها من كونهِ الاهًا . والتي يمتلكها من حيث انهُ الاه وانسان -

هذه الخيرات كلّها يمنحها مخلّصنا الكريم لكلّ من يتناول القربان المقدَّس باستحقاق. لانهُ اولاً يمنحهُ كلّ جسدهِ وكلّ دمهِ الاطهرَين. وفي هذا السرّ لا يريد ان يعطي النعمة بواسطة غريبة كما يفعل في بقيّة الاسرار. بل يريد ان يعطيها هو بذاتهِ بواسطة جسدهِ ودمهِ الاطهرين - ومع انهُ كان يستطيع ان ينعم علينا بجزء صغير من هذا الجسد النقيّ وباصغر نقطة من هذا الدم الزكيّ. لم يقتنع سخاوةُ بهذا القليل. لانهُ ولو ان هذا القليل من جسدهِ ودمهِ كان كافياً للمصلحة التي قصدها. الاّ انهُ لم يكن كافياً للمحبّة التي اذا كانت مضطرمة عظيمة لا تقتنع الاّ بمنح كلّ شيء - وعلى هذا المنوال يمنحنا السيّد المسيح لاهوتهُ كلّهُ بغير استثناء وذلك بعجائب غير مدركة لم يمكن ان يخترعها الاّ الحكمة الالهيّة. ولا ان تصنعها غير القدرة الربّانيّة - ثمّ انّ السيّد المسيح يمنحنا في هذا السرّ سرّ محبّتهِ كلّ الخيرات التي يمتلكها. من حيث انهُ انسان واله. اعني استحقاقاتهِ ووفاءهُ وفضائلهُ مفيضاً في انفسنا من القداسة بحسب استعدادنا - وهكذا المجمع التريدنتيّ المقدَّس يقول. انَّ الله يفيض فينا كنوز محبّتهِ. انّ الله كان قد تفضّل سابقاً على الانسان بحسناتٍ كثيرة. لانهُ كان خوّلهُ الوجود بالتكوين ومنحهُ النعمة بالمعموذيّة. وبعد فقدهِ اياها بالخطيّة كان ردّها لهُ مرّات كثيرة بسرّ التوبة. الاّ انّ هذه الخيرات كلّها كانت خيرات محدودة متناهية غير موازنة لشرف معطيها الالهيّ - بل انَّ في التجسّد الالهيّ نفسهِ كانت العطيّة غير متناهية الاّ انها لم تكن موازية للمحبّة الالهيّة - لانهُ لمّا تجسّد الكلمة الالهيّة. منح ذاتهُ لطبيعة واحدة خصوصيّة. اعني بها طبيعتهُ البشريّة المسجود لها. وامّا في سرّ الاوخرستيا فانهُ يمنح ذاتهُ لكلّ مسيحيّ. ويمنحهُ لا اثمار دمهِ الاقدس فقط كما يفعل في بقيّة الاسرار. بل يمنحهُ دمهُ نفسهُ ايضاً *

لاحظوا الآن في هذا السرّ اعجوبة اخرى. لانهُ لا يوجد شيء يكون لنا على نوع اتمّ ممّا يصير ماكلنا. لانهُ اذا اعتبرنا الامتلاك فان الماكل يصير

شيئًا واحدًا معنا. ومن ثمَّ نمتلكهُ كامتلاكنا ذواتنا ايّانا. واذا اعتبرنا الاستعمال فانّ الماكل بعد انهضامهِ فينا ونفوذهِ اعضاءنا. يصير لنا ومنّا بنوعٍ تامّ حتى لا حيلة لينفصل منّا – نعم انهُ لا يجوز ان نقول عن هذا الماكل الالهيّ انّنا نحيلهُ الى جوهرنا كما يحدث في بقيّة المواكيل. لانّ هذا الماكل الالهيّ هو يحيلنا الى روحهِ. كما قال الله يومًا للقدّيس اوغسطينس. الاّ انّهُ من المحقق انَّ السيّد المسيح اذ منح ذاتهُ لنا في سرّ الاوخرستيا بشكل ماكل. اراد ان يكون لنا وان نمتلكهُ على النوع الاكثر كمالاً – وقد قال في بشارة يوحنّا الانجيليّ. انّ جسدي ماكل حقّ ودمي مشرب حقّ *

ثمّ انَّ السيّد المسيح مع جسدهِ ودمهِ يعطينا نفسهُ ولاهوتهُ. فلم يكتفِ ان يعطينا المنزل الذي هو جسدهُ الاقدس. وكلّ اثاث المنزل. اعني استحقاقاتهِ تعالى. بل يمنحنا ايضًا صاحب المنزل نفسهُ. اعني لاهوتهُ وناسوتهُ – فبالصواب قال التلميذ الحبيب عن سيّدنا يسوع المسيح. انهُ لمّا رسم سرّ القربان احبّنا الى الغاية. ولم يكن يمكنهُ ان يرينا افراط حبّهِ بشيء اعظم واعجب من منحهِ ايّانا في هذا السرّ الالهيّ جسدهُ ودمهُ ونفسهُ ولاهوتهُ وكلّ كونهِ – هذه هي الساعة السعيدة ساعة رسم سرّ الاوخرستيا التي كان يشتهيها بغاية الشوق لكي يفيض فينا كلّ كنوزهِ الغير المتناهية ونعرف بها محبّتهُ لنا الغير المحدودة – فما الذي يبقى لهُ ليعطيهُ بعد ذلك. لانهُ هل يوجد عندهُ شيء افضل واجمل من الحنطة التي تنشئ الشباب والخمر الذي ينشئ العذارى (زكريا ٩: ١٧) – لانّهُ عندما اعطانا السيّد المسيح الاوخرستيا اعطانا كلّ ما يوجد في السماء من الخير والحسن. ولا يوجد في مخازن كرمهِ وقدرتهِ عطيّة اعظم من هذه *

وامّا العلامة الثانية التي ترينا انّ المحبّة هي عظيمة. فهي الصبر على احتمال الآلام والاهانات حبًّا للمحبوب. ولهذا لمّا شرح الرسول صفات المحبّة قال المحبّة هي ذات صبر ورفق. وتصبر على كلّ شيء وتحتمل كلّ شي (١ قورنثية ١٣: ٤و٧) –

ولعمري انَّ المحبة تظهر شدّة التهابها بواسطة الصبر والاحتمال اكثر مما تظهر ذلك بالعطايا. لانهُ ولو كانت المحبة تخرج من ذاتها باشراكها ايانا في خيراتها. الاّ انها بالصبر والاحتمال لا تخرج من ذاتها فقط. بل تبعد عن ذاتها بعدًا قاصيًا. حتى انها تتغاضى عمّا تحتملهُ ولا تبالي بهِ - انهُ حسنًا قد قال القديس ديونيسيوس الاريوفاغي عن المحبة العظيمة انها اختطاف بهِ يخرج المحبّ عن ذاتهِ - ويحدث ذلك على نوعٍ خاصّ حينما تكون المحبة لا سخية فقط. بل محتملة وصابرة ايضًا - بل انهُ فيما بين الناس بذلك تُعرَف المحبة هل هي حقيقية - فاذ كان ذلك كذلك فانظروا الآن هل المحبة التي يظهرها لنا السيد المسيح في سرّ الاوخرستيا هي حقيقية: انهُ منحنا ذاتهُ حينما كان البشر يغيظونهُ اشدّ الغيظ. لانهُ في تلك الليلة التي كان مزمعًا ان يُسلَّم فيها اخذ خبزًا الخ - انّ الرسول ذكر هنا الزمن الذي فيهِ رسم هذا السرّ لكي نتنج منهُ افراط المحبة الالهية. لانّ قوة النار تتضح على الخصوص حينما تزداد التهابًا تجاه ريح عاصف من شانها ان تطفئها بشدّة هبوبها - انظروا كيف الوالدة بعد الولادة تتغافل عن اوجاعها القادحة وعن قرب موتها. ولا تفتكر الاّ ان يجد طفلها لبنًا يعيش بهِ: هكذا السيد المسيح تغاضى عن موتهِ الذي كان قد اقترب ولم يهتمّ الاّ بان يعدّ لنا لبن سرّهِ المحيي *

الاّ انّ الذي اصاب مخلّصنا من الاهانات في آلامهِ. لم يدُمْ الاّ زمنًا يسيرًا اي الى يوم قيامتهِ المجيدة. واما الذي يصيبهُ الآن وسيصيبهُ الى انقضاء العالم فانهُ يظهر لنا شدّة محبتهِ باوضح ما يكون من البيان - وهذه الاهانات نوعان. البعض منها هو اختارها. وبعضها يصيبهُ تعالى بذنبنا - اما التي اختارها فقد اخترعتها محبتهُ. لانها رأت انّ سرّ القربان المقدَّس يكون تجديدًا او زيادة لما احتملهُ في آلامهِ لاجلنا. لانّ عظمة عزتهِ تتلاشى في هذا السرّ اكثر مما كان قبلًا - على انهُ حقًا قد تلاشى ابن الله في التجسد الالهيّ كما قال الرسول -

وهذا التلاشي يتوقّف على هذا وهو انّ ابن الله الذي بعد تجسّدهِ لم يزل مساوياً الاب بقوّة الطبيعة الالهيّة ارتضى عند اخذه الطبيعة الانسانيّة بان يقال عنهُ بانّهُ اصغر من الاب - فماذا يكون تلاشيهِ في سرّ القربان المقدّس حيث يجوز ان يقال عنهُ انهُ هو في الظاهر اصغر من الانسان بل اصغر من كلّ شيء. لانهُ تعالى يظهر للكلّ بشكل مأكل مائت مع انّهُ هو الحيوة ذاتاً - لعمري انّ هذا ليس هو تجديد اهانة التجسّد. بل انّهُ هو الزيادة عليها ايضاً. وهذا ما حدث في سرّ الاوخرستيا. لانّهُ في التجسّد يخفى اللاهوت فقط وامّا في سرّ القربان المقدّس فيخفى اللاهوت والناسوت معاً *

الّا انّهُ لم يكتفِ بهذا اي بان يصير مأكلنا. بل اراد ان يتّضع اكثر من ذلك في هذا السرّ الاقدس. وقد يجوز لنا ان نقول انّهُ اخضع نفسهُ فيهِ حتّى الموت - لانّ السيّد المسيح يموت هناك موتاً سرّياً وادبياً وحقيقياً. فيموت اوّلاً موتاً سرّياً. لانّهُ من حيث انّ هذا السرّ هو تذكرة آلام السيّد المسيح. فانّهُ تعالى يرينا كلّ يوم على مذابحنا الموت الذي اصابهُ مرّةً واحدة على جبل الجلجلة. وبهذا يرينا ايضاً كم يُسَرّ بموتهِ حبّاً لنا - ثانياً يموت في سرّ الاوخرستيّا موتاً ادبيّاً ايضاً. لانّهُ من حيث انّ جسدهُ الاقدس هو في الجوهرة بنوعٍ روحيّ كما قال مار توما اللاهوتيّ اي من حيث انّهُ هو بكلّيتهِ في كلّ الجوهرة وبكلّيتهِ في كلّ جزء من اجزاء اعراض السرّ. ينتج من ذلك انّ اعضاء هذا الجسد السعيد ليس لها مكان كافي لمباشرة اعمالهِ المكانيّة. وانّها حاصلة على حال لا تستطيع فيها ان تتحرّك حركةً ذاتيّة. بل انّما تتحرّك حركةً عرضيّة فقط بواسطة حركة الجوهرة. ومن ثَمّ يجوز ان نقول عنها انّها مائتة في ذاتها على نوعٍ ما - ثالثاً يموت جسد المسيح في سرّ القربان المقدّس موتاً حقيقياً. ولكي تفهموا جيّداً هذا السرّ العجيب سرّ المحبّة الالهيّة. اذكروا اوّلاً انّ الكلمات التي يقولها الكاهن في تقديس هذا السرّ العجيب قد اتّخذت من السيّد المسيح قوّة لاصدار

جسدهِ الالهيّ حتى انهُ لو لم يكن هذا الجسد في الوجود لكانت هذه الكلمات تصيّرهُ حالاً في الوجود – فهذه الحيوة السريّة التي يكتسبها السيّد المسيح بقوّة كلمات التقديس تباد وتتلاشى متى انهضمت في معدتنا الاعراض المقدَّسة التي هو كان مختفيًا فيها . وحينئذٍ يجوز القول عنهُ تعالى انّهُ يموت موتًا حقيقيًا سرّيًا بزوال كونهِ هذا السرّيّ . ولو لم تكن لهُ حيوة اخرى لكان يموت موتًا كلّيًّا – انَّ القدّيس ديونيسيوس الاسكندريّ لمّا تأمّل في هذا قال مندهشًا من افراط محبّة الله . أَهكذا يتلاشى الله ويموت لكي يقوت انفسنا ويمنح اجسادنا حيوة موَبّدة – حقًّا انَّ الله صنع بذلك عظائم فائقة ادراك البشر . الّا انها ترينا عظمة محبّتهِ لنا . لانّهُ لكي يصنع لنا دوآءً طيّبًا اتّخذ لنفسهِ ما فيهِ مرارة . لانّهُ اوّلاً مات مرّةً واحدة موتًا حقيقيًا . ثمَّ يعود يموت الوف الوف من المرّات موتًا سرّيًا لكي نحيا نحن عبيدهُ *

غير انَّ الذي يحتملهُ السيّد المسيح اختياريًا في هذا السرّ الجليل . لا يظهر غزارة محبّتهِ بقدر ما يظهرهُ ما يحتملهُ من قِبَلنا اضطراريًّا . وذلك من قِبَل المومنين الفاترين في عبادتهِ ومن غير المومنين ومن المسيحيّين الاشرار – فلا ريب انّهُ تعالى يتألّم كثيرًا من قِبَل المومنين الفاترين الذين يتقدّمون الى هذا السرّ المسجود لهُ بلا محبّة وبغير استعداد . وبعد ان يتناولوهُ يخرجون سريعًا مهملين الشكر الواجب كأنّهم تناولوا ماكلاً اعتياديًّا – نعم انَّ الوالدة تحتمل مثل ذلك من قِبَل اولادها الاطفال اذ لا تزال تهتمّ بملاطفتهم ليلاً ونهارًا وهم لا يشكرون . الّا انها لولا جزيل محبّتها لهم لما احتملت ذلك . فماذا نقول عن السيّد المسيح الذي كما قيل في الكتاب المقدَّس يطعم اناسًا كافرين بالاحسان . ولا يزال يسقيهم دمهُ الكريم الزكي وهم لا يكافئون محبّتهُ الّا ببرارة عبادتهم الفاترة – وما امرّ ما يحتملهُ من قِبَل غير المومنين . انهم يشبهون اولادًا يمزّقون صدر امّهم حينما تقدّم لهم ثديها ليرضعوا منهُ اللبن – وكم من مرّة

استهزأ الامم بهذا السرّ الرهيب وداسوهُ بأرجلهم والقوهُ طعاماً للكلاب . ومع هذا اي مع انَّ مخلّصنا كان قد سبق وعلم كلّ هذه الاهانات ما اراد ان يفارقنا . بل احبّ ان يكون معنا وفينا الى انقضاء العالم - الّا انَّ الذي يصعب عليهِ تعالى اكثر من كلّ ذلك هو الذي يحتملهُ من قِبَل المسيحيّين الاردياء . لانهُ اذا سخر بهِ تعالى اناس كفرة لا يعلمون بوجود عزّتهِ في القربان المقدَّس . بل يحتسبونهُ خبزاً بسيطاً . فليس ذلك بإثم يعادل خطية المسيحيّين المنافقين الذين يومنون بوجود ناسوتهِ ولاهوتهِ في هذا السرّ -- فاولئك يشبهون اناساً يحتقرون ملكاً معظّماً يعرفونهُ مع انّهم يرونهُ متردّياً محتجباً بثياب غريبة - كم مرّة تناولوا ربّ المجد بيدين مدنّستين بقبائح الزنا وبنفس كان الشيطان فيها ساكناً . وهكذا اسكنوا القداسة الذاتيّة في مغارة مفعمة افاعي جهنّميّة - فيا ما اعظم قوّة نار محبّة يسوع التي ما استطاعت ان تطفئها مياه طوفان هذه الآثام الشنيعة (نشيد ٨ : ٧) . حقّاً حقّاً انّ محبّتهُ قويّة كالموت . والّا فكيف كان يحتمل السكنى في قلب متدنّس بالخطيّة التي هو يبغضها كبغضنا الموت . بل اكثر من ذلك اي بغضاً غير متناهٍ . لو لم تكن محبّتهُ اقوى من الموت *

ثمّ انَّ السيّد المسيح يظهر لنا ايضاً افراط محبّتهِ في سرّ القربان المقدَّس على نوع اعظم ممّا يظهرها بما يمنحناهُ وبما يحتملهُ فينا . وهو اقترانهُ بنا وهو غاية هذا السرّ العظيم - انهُ قد يمكن انّ من لا يحبّ يحسن ويحتمل . الّا انّهُ من غير محبّة لا يقدر احد ان يشتهي الاقتران باحد وان يكون معهُ شيئاً واحداً - قال القدّيس ديونيسيوس : انّ المحبّة هي قوّة تضمّ الاشياء . والقديس اوغسطينس الذي اختبر مفعولات المحبّة الالهيّة والمحبة البشريّة قال : انّ المحبّة توحّد او تشتهي ان توحّد شيئين بعضهما ببعض - انظروا الآن كيف يقترن السيّد المسيح بالمومنين في هذا السرّ . انهُ تعالى في سرّ الاوخرستيا يقترن بالنفس بواسطة النعمة فقط . ويقترن بالجسد ايضاً . وعن هذا الاقتران قال الآباء القدّيسون عجائب .

ومنهم القدّيسون قورلّس وايريناوس وهيلاريوس والذهبيّ الفم. ودعوهُ اقترانًا طبيعيًا جوهريًا حقيقيًا مع جسد المسيح - ولا تظنّوا انّهم تكلّموا بالمبالغة. بل انّ كلامهم هذا يتضمّن حقيقة سامية جدًّا - فيجوز ان نقول انّ لحم السيّد المسيح يقترن على نوعين باجسام المومنين الذين يتناولون هذا السرّ. وذلك اوّلاً ما دام معهم بحضور اقنومهِ الالهيّ. لانّهُ هو حينئذٍ حقًّا بين أيديهم ويرغّبهم في حبّهِ. ثانيًا بعد انّهُ تعالى يزول موجودًا فيهم يبقى رباط ما يصيّر السيّد المسيح ان يهتمّ اهتمامًا خصوصيًّا بالنفس والجسد معًا. لكي يقدّسهما ويشركهما في المجد الابديّ - ومن ثمّ استنتج القدّيس ايريناوس من تناول القربان المقدَّس انّهُ لأَجسامنا حقّ على حياة الابد. واذلك فلو لم يكن الله قد عزم عزمًا عامًّا على بعث الاجسام في اليوم الاخير. لكان ينبغي ان تقوم اجسام الذين تناولوا القربان المقدّس باستحقاق وذلك اكرامًا لهذا اللحم الالهيّ الذي انضمّ اليها كقولهِ عزّ وجلّ: من ياكل من هذا الخبز يحيا الى الابد *

انتجوا من هذا يا مباركين عظم شرّ خطيّة الزنا في المسيحيّين بالنظر الى هذا الاقتران العجيب. اقتران اجسادنا بجسد السيّد المسيح - اسمعوا كيف القدّيس بولس الرسول يخاطب قومًا من اهل عصرهِ من المومنين في خطيّة الدنس: اما تعلمون انّ أَجسادكم اعضاء المسيح. اما تعلّمتم من الايمان انّكم بتناولكم جسد ابن الله في سرّ الاوخرستيّا تقترنون بهِ تعالى كاقتران الختن بعروسهِ. حتّى انّهُ بعد تناول هذا السرّ الالهيّ تصير أَعضاؤكم اعضاء هذا الجسد المسجود له -- فان عرفتم ذلك وآمنتم بهِ فكيف ترتضون بان تصير اعضاؤكم المقترنة بجسد ابن الله نفسهِ اعضاء جسد زانية *

لنرجعنَّ الآن الى ما كنّا في صددهِ - ما ظنّكم يا مباركين بهذه المحبّة العجيبة التي يرينا‌ها السيّد المسيح في سرّ الاوخرستيا - ذُكر أَنّ القدّيسة كاترينا السيانيّة كانت في حين تناولها هذا السرّ ترى في يد الكاهن اتونًا مشتعلاً

وذلك رمز الى افراط محبّة السيّد المسيح الذي يمنحنا خبز الحيوة خبزًا صنعتهُ المحبّة. لانهُ ولو انّ الحكمة الالهيّة سعت في هذا مع القدرة الضابطة الكلّ. الاّ انّ المحبّة هي التي حرّكتهُ على هذا الفعل العجيب واكملتهُ على كلفتها. كما انّ هيكل اورشليم دُعي هيكل سليمان الحكيم الذي امر بابتنائهِ ولم يُسمَّ باسم البنّائين الذين اقاموهُ – ومن ثمَّ دعا مار توما اللاهوتيّ سرّ الاوخرستيّا سرّ المحبّة. والقدّيسة مريم المجدليّة دي باتسي كانت تدعو يوم تناول القربان المقدَّس يوم المحبّة. وعند تأمّلها في ما يريناهُ الله من المحبّة في هذ السرّ الجليل كانت تصرخ متحيّرة من قلّة شكر الناس لهذا المعروف العظيم قائلة: الى متى ارى الناس لا يحبّون الله. بعد انهُ تفضّل عليهم بعطيّةٍ لا يوجد اعظم منها ولا نظير لها *

الموعظة الخامسة والخمسون

في الاستعداد الذي يجب على المسيحيّ قبل تناول القربان المقدَّس

قال السيّد متكلّماً عن سرّ القربان المقدَّس انّ الخبز الذي انا اعطيهِ هو جسدي الذي اعطيهِ من اجل حياة العالم (يوحنا ٦ : ٥٢) مشيرًا بذلك الى انّ جسدهُ تعالى يصدر في النفس المفعولات التي يصدرها الطعام الارضيّ في اجسادنا – وهذه المفعولات هي اربعة كما علّم مار توما اللاهوتي وهي انهُ يغذو وينمي ويقوّي ويلذّ – فهذا الخبز السماويّ يغذو النفس ويحفظ فيها النعمة. كما انّ الخبز الارضيّ يحفظ حياة الجسد – غير انهُ بين الامرين فرق عظيم. وهو انَّ الجسد مهما اغتذى بالطعام فلا بدّ من ان يفقد اخيرًا حياتهُ. امّا النفس فبخلاف ذلك. لانّها اذا تناولت طعامها هذا كما يجب لا تعدم الحيوة ابدًا. لانّهُ هو الخبز الذي نزل من السماء كما قال السيّد المسيح. والذي ياكل منهُ لا يموت – ولانّ هذا الكلام لا يمكن ان يقال عن موت الجسد كما اعتبر مار توما اللاهوتيّ. فمن

ثمّ ينبغي ان نفهمهُ عن الموت الروحيّ الذي هو فقد النعمة *

والمفعول الثاني هو انَّ الخبز ما عدا انهُ يحفظ حياة الجسد ينميهِ ايضاً ويبلّغهُ الى قامتهِ الواجبة . ولولاهُ لم يبلغها - وهذا نفسهُ يفعلهُ الخبز الجوهريّ السماويّ في النفس . ما عدا هذا وهو انَّ الجسد لهُ قامة معيّنة لا تزيد بعد الرجوليّة مهما تناول من الاطعمة . واماّ النفس فمهما تسامت في القداسة . تستطيع ان تنمو فيها دائماً حسب قولهِ تعالى : من كان قدّيساً فليتقدَّس ايضاً (رويا ٢٨ : ١١) - وبالنتيجة كل من يتناول هذا الخبز الالهيّ كما ينبغي تزداد فيهِ نعمة التقديس التي فيها قائم كمال النفس . ولهذا قال الله للقدّيس اوغسطينس انّي طعام الكبيرين انمُ فتاكلني . كأنّهُ تعالى يقول انّ الذين يستفيدون من هذا المأكل ليسوا هم المبتدئين فقط . بل هم المتسامون والمتكمّلون في الحيوة الروحيّة ايضاً . وهم الذين يجتنون منهُ نفعاً اكثر لانّهم يتناولونهُ باستعداد افضل *

واماّ المفعول الثالث الصادر من الخبز المألوف الارضيّ . فهو انّهُ يقوّي الجسد كقول صاحب المزامير : الخبز يسند قلب الانسان (مزمور ١٠٢ : ١٥) - انَّ خبز السماء يفعل هذا ايضاً في النفس . بل انَّ القدّيس توما اللاهوتيّ ذهب الى انَّ هذا الخبز الالهيّ وحدهُ يقوّي النفس تجاه كلّ النقائص الروحيّة . وهذا لا يقدر ان يفعلهُ الخبز المادّيّ مع الجسد . ومن اجل هذا كان المسيحيّون الاقدمون في زمن الاضطهاد يرغبون بشوق عظيم تناول القربان المقدّس . لعلمهم كما قال القدّيس قبريانس . انّ من لا يتسلّح في الكنيسة للمعركة . ليس هو بقابل ومستعدّ للاشتهار - واذ كان ممكناً ان يجدوا كلّ يوم صدفةً لهذه المعركة . فكانت حينئذٍ العادة ان يحفظ المومنون القربان المقدَّس في بيوتهم لكي يستطيعوا ان يتناولوهُ في حال الضرورة ويتقوّوا بهِ لاحتمال العذابات - وهذه القوّة الروحيّة اتّخذوها من هذا الخبز الالهيّ على انواع مختلفة . فانّ هذا السرّ يخمّد اوّلاً الشهوة اللحميّة . كما قال القدّيس قورلّس . ثانياً نتّخذ من هذا السرّ عوناً باطناً وعوناً خارجاً -

امّا العون الباطن فيتوقّف على النعمة الفعليّة التي بها العقل ينال انوارًا افضل ضياءً وبها يحصل على معرفة الحقّ - ثمّ انهُ بهذه النعمة الفعليّة تنال الارادة حركات اشدّ تاثيرًا توقظها وتحرّضها على اقتبال الحقّ - وامّا العون الخارج فيتوقّف على انّ الله لاجل تناولنا هذا السرّ يعتني بنا اعتناءً خصوصيًا. ويبعد عنّا الاسباب التي من شانها ان تزجنا بسهولةٍ في الخطيّة ويضعّف قوّة عدوّنا ويقوّينا عليهِ - ولهذا قال الذهبيّ فمهُ. انّ من يتناول القربان المقدَّس كما يجب. فانهُ يقوم من قدّام المائدة الالهيّة كالاسد ينفث النار من فيهِ ويلقي الرعبة على الشيطان نفسهِ *

المفعول الرابع هو انّ هذا الطعام الالهيّ يلذّ لمتناولهِ. لانّ التعزية الحاصلة منهُ للابرار هي عظيمة جدًّا. حتّى انَّ القلب يجد نفسهُ كأنّهُ في حال سكر روحيّ. والنفس في حال سبات واختطاف. ولهذا قيل في سفر الانشاد: كلوا واسكروا يا احبّائي (نشيد ٥ : ١) - وكأنَّ السيّد المسيح لا يريد ان يخفي نفسهُ بالكلّيّة عن هذه النفوس النقيّة القدسيّة وانهُ كما انّ يعقوب لمّا اخفى عن ابيهِ يديهِ وعنقهُ لم يقدر ان يخفي صوتهُ. هكذا السيّد المسيح الذي في هذا السرّ يخفي عظمة عزّتهِ. لا يخفي صوتهُ العذب الذي يذيب القلوب - ومن كان غير حاصل على هذه الدرجة من القداسة بل هو بارّ غير كامل. فانهُ عند تناولهِ السرّ الالهيّ لا يشعر بكلّ هذه اللذّة والتعزية المقدّم ذكرها. الّا انهُ يشعر بالسرور الصادر من ضمير نقيّ. الذي قال عنهُ الحكيم بانّهُ هو وليمة دائمة (امثال ١٥ : ١٥) *

الّا انهُ بعد تأمّل هذه المفعولات الصادرة من تناول القربان المقدَّس لنا ان نتعجّب من اننا لا نرى هذه المفعولات في اكثر المومنين. لأنَّ منهم من يشمأزّ من هذا الخبز الالهيّ حتى انهم لا يتناولونهُ الّا مرّة واحدة في السنة ويصير بهم بعد تناول هذا السرّ ما يصير بالذين اعتراهم مرض الدق وهو انهُ يشتدّ عماهم بعد تناول المآكل - لاننا نرى كثيرين من المسيحيّين يزدادون

شرًا بعد تناولهم القربان المقدّس. وفيهم الذي دخل فيهِ ربّ المجد. وكان ينبغي كما قال الذهبيّ فمهُ ان يكرموهُ كاكرامهم المَقْدس الالهيّ. يدنّسونهُ أكثر ممّا قبل بكلّ نوع من الالفاظ الغضبيّة والفظيعة - اين النموّ في الفضيلة الذي قد كان ينبغي ان يجتنوهُ من تناول السرّ الاقدس - قالت القدّيسة مريم دي باتسي: انهُ قد يمكن ان يصير المومن قديسًا بتناول القربان المقدَّس مرّةً واحدة فقط. فكيف نرى كثيرين بعد تناول هذا السرّ الالهيّ مرّات متعدّدة لا يتقدّمون في الفضيلة خطوة واحدة. ولا ينمون في الفضيلة بل لا يزدادون قوّةً بتناول خبز الحيوة. بل لا يقدرون ان يحفظوا حياة انفسهم زمانًا يسيرًا - فكيف الذي كان حيثما اجتاز يشفي الامراض ويحسن الى الجميع. ما اخرج شيطان الحقد او الغضب او الزنا من هولآء مع انهُ تعالى مرّات كثيرة افتقدهم (قصص ١٠: ٢٨) - انّ سبب ذلك هو واضح. فاعلموا يا مباركين انَّ الاسرار الالهيّة لا تصدر مفعولاتها كما تصدر العلل ذات الاختيار مفعولاتها. بل انّما تصدرها كعلل طبيعيّة وبمقتضى استعدادنا - لماذا قوّة النار تبين ضعيفة في التبن. هل الذنب هو من قِبَل النار. كلّا. لانّك اذا قدّمت لها مادّةً اخرى صالحة كخشب يابس خشن. حينئذٍ تظهر النار قوّتها - انّ الذنب كلّهُ من قِبَلنا نحن الذين نتقدّم الى مائدة الله دون الاستعداد الواجب. لانَّ الله هو نار آكلة كما قال الرسول (عبر ١٢: ٢٩). الّا انّ فتور عبادتنا لا تدع هذه النار ان تضطرم الّا اضطرامًا خفيفًا كأنّها نار تبنٍ - ولكي نتكلّم واضحًا نقول: انَّ الذنب ليس من المآكل. بل انهُ هو من قِبَل المعدة. لانّ اكثر المومنين اوّلًا لا يمضغون هذا الطعام الالهيّ بل يبتلعونهُ. لماذا الذئب لا يسمن اصلًا. ذلك لانهُ لا يمضغ ماكلهُ بل يبتلعهُ - فهذا ما يفعلهُ المسيحيّون اذ يتقدّمون الى القربان المقدَّس ولا يتأمّلون في ما يتناولونهُ. ويجوز لنا ان نقول لهم ما قالهُ السيّد المسيح للمرأة السامريّة: انكّم تسجدون لما لا تعلمون (يوحنا ٤: ٢٢) - نعم انكّم تسجدون راكعين. تدقّون على صدوركم.

الاّ انكم تفعلون هذا بنوع العادة غير معتبرين عظمة هذا العمل وعزة الربّ الذي تقتبلونهُ - ثمَّ انهُ لا يكفي ان نمضغ المأكل. بل ينبغي ان نهضمهُ ايضاً بعد تناولهِ. الاّ انّ المعدة اذا فسدت لا تستطيع ان تهضمهُ - فهذه هي حال كثير من المومنين المنهمكين في المكاسب الارضيّة - انهُ لو جلس ابن الملك مع ابيهِ على المائدة وبعد ان اكل اطعمة ملوكيّة جيدّة قام ماضياً وشرع ياكل تراباً وكلساً. هل يكون العجب من انهُ لا ينتفع من مائدة الملك - فمثل هذا يفعل كثيرون اذ بعد تناول القربان المقدَّس يرتدّون سريعاً الى مباشرة الامور العالميّة وكان ينبغي ان يصرفوا ذاك النهار في افعال العبادة *

اتريدون يا مباركين ان تستفيدوا من تناول هذا الخبز السماويّ. احسنوا استعدادكم لتناولهِ. لانهُ بمقدار هذا الاستعداد يمنّ الله عليكم بنعمتهِ - فقد تاكّد امر ضرورة الاستعداد لتناول القربان المقدَّس - فلنشرح الآن كيف يكون هذا الاستعداد - اخبر القدّيس غريغوريوس انهُ حينما كان المومنون قديماً يستعدّون لتناول هذا السرّ الالهيّ. كان الشمّاس يصرخ قائلاً نحوهم: بخوف الله وايمان ومحبّة تقدّموا - فيجب اذاً على المسيحيّ ان يحسن ايمانهُ قبل تناولهِ هذا السرّ الذي تسمّيهِ الكنيسة سرّ الايمان. لانَّ الله هو مختفٍ فيهِ كلّ الاختفاء. فانّ الله هو خفيّ في العالم عن حواسّنا. الاّ انهُ ليس خفياً عن عقلنا الذي بنظرهِ الروحيّ يبصر الله في ما خلقهُ. وامّا في سرّ الاوخرستيا فليس كذلك. لانّ الله هناك هو خفيٌّ عن حواسّنا وعقولنا. لانَّ العقل البشريّ لا يقدر من تلقاء نفسهِ ان ينفذ حجاب اعراض الخبز التي تحتها يختفي لاهوت السيّد المسيح وناسوتهُ - اعتبروا يا مباركين انّ اخصّ الغاية التي لاجلها رسم السيّد المسيح سرّ القربان المقدَّس هو الايمان - لقد علمتم انّ خطيّة آدم وحوّاء الاولى كانت عدم الايمان. لانّهما لم يعتقدا بما قالهُ الله لهما. وهو انهُ تحت قشر الثمرة المنهي عنها كان الموت خفيّاً. بل صدّقا كلام الحيّة التي اغرتهما الى الخطيّة بمشورة

كاذبة – فلمّا رأى الله هذا . قال انهُ قد صارت ثمرة الموت مادّة لعدم الايمان بكلامي . فانّي اريد ان يومن عبيدي ايمانًا شديدًا نحو ثمرة الحيوة كما قال الانبا رُوبرتس – ولعمري انَّ خطيّة أبوينا الاوّلين التي بها اختارا أن يؤمنا بكلام الشيطان افضل من ان يؤمنا بكلام الله لم يمكن ان تُصلَح على نوعٍ اكمل ممّا أُصلحت بانتصار الايمان في الكنيسة بواسطة هذا السرّ الالهيّ . لانّنا بايماننا بهذا السرّ الاقدس اي بايماننا بوجود السيّد المسيح في القربان المقدَّس تخضع عقولنا لا لِما يفوق حواسّنا فقط . بل لِما يضاددها – والامر العجيب هنا . هو انّهُ لفرط ما كانت هذه القاعدة دينيّة ثابتة في الكنيسة شرقًا وغربًا . ومع انّ الهراطقة انكروا اكثر ابواب الايمان . لم يجسر احد منهم في الالف سنة الاولى ان يجحد وجود حقيقة السيّد المسيح في القربان المقدَّس – ولمّا شرع برنجار في القرن الحادي عشر ان ينكر هذه الحقيقة اثبتتها الكنيسة في خمسة مجامع . واقلع برنجار اخيرًا عن هرطقتهِ وتوفيّ في حضن الكنيسة الكاثُليكيّة – فقد اصاب هيلاريوس اذ قال انهُ ليس للمسيحيّ وجه ليشكّ في حقيقة وجود جسد ابن الله ودمهِ الاطهرين في القربان المقدَّس – فاذًا يا مباركين حينما تستعدّون لتناول القربان المقدَّس احسنوا ايمانكم جيّدًا باطنًا وظاهرًا . واكرموا بافعال التقوى عزّة الربّ الذي تومنون بحضورهِ في هذا السرّ الالهيّ – انهُ حينما يقترب الملك الارضيّ ويُسمَع صوت الهاتف يقول : ها هوذا الملك . فحينئذٍ يلازم الجميع الصمت وينتظرون حضور الملك بكمال التهيّب – يا ما احسن ما كان احتشام المسيحيّين في الكنيسة لو حضروا فيها بايمانٍ حيّ . وما احسن ما كانوا يعدّون انفسهم لتناول ملك الملوك وربّ العالمين *

انَّ هذا الشرط لحسن الاستعداد هو ضروريّ كلّ الضرورة لا نظرًا الى ذاتهِ فقط . بل نظرًا الى بقيّة الاشيآء الضروريّة لتناول هذا السرّ . لانّ الايمان يجعل المومن ان يحترم العزّة الالهيّة احترامًا بليغًا – انظروا يا مباركين

ما يفعلهُ الفلاّحون اذا احتاجوا ان يتقدّموا الى ملك من الملوك. فمن حيث انّهم لا يعرفون ما يجب عليهم فعلهُ. يرصدون اهل القصر ويقتدون بهم - فنحن نشبهُ اولئك. لانّنا لسنا نعلم كيف نتردّد مع ملك السمآء. فلنتعلّمنَّ اذًا ذلك من اهل القصر السماويّ اي من الملائكة الذين ظهروا في الكنائس مرّات كثيرة بجال الاحترام الكلّي والتهيّب العظيم. لا واقفين. بل راكعين على الارض. ملاشين انفسهم امام آله المجد الملاشي مجدهُ في سرّ محبّتهِ - فان اتّصفتم بروح هذه العبادة. فلا شكّ انكم تبذلون كلّ جهدكم. اوّلاً في ان تتقدّموا الى هذه المائدة الالهيّة بكلّ ما يمكنكم من النقاوة. كيف لا. وها انّ موسى النبيّ لمّا اراد ان يتقدّم الى العلّيقة حيث كان الله موجودًا. امرهُ تعالى. اوّلاً ان يخلع حذاءهُ. ولم يكتفِ السيّد المسيح بان يخلع الرسل احذيتهم. بل اراد ايضًا ان يغسل هو ارجلهم. مشيرًا بذلك انّهُ لكي نتناول هذا السرّ المسجود لهُ. يجب ان تكون انفسنا حاصلة على كمال النقاوة. ومن ثمَّ نرى في الكتاب المقدَّس انّهُ قبل نزول المنّ من السمآء على الارض كان الله ينقّيها بندى غزير وافر استعدادًا لحلول المنّ فيها - وهكذا كان اوصى الله ان يكون خبز التقدمة من الدقيق الافضل بياضًا ويوضع على مائدة نقيّة غاية ما يكون - وبهذه الرموز كلّها كان يعلّمنا الله ما يقتضي منّا سرّ القربان المقدّس من الاستعداد وكم ينبغي ان تكون النفس نقيّة قبل تناولهِ - فما ظنّكم يا مباركين بالخطاة الذين بعد ما استمرّوا في حماة الخطيّة متمرّغين زمانًا طويلاً. فاذا ما اعترفوا بقبائحهم يذهبون حالاً بأفواه تفوح منها بعد رائحة مسمومة لكي يتناولوا من هو القدس بالذات - حقًّا انّهم لا يدرون ما يفعلون ولا يعقلون اي شيء هو تناول القربان المقدّس - انَّ القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم قال مخاطبًا احد هؤلآء الخطاة. ما بالك تحدّد لي توبتك اربعين يومًا فقط وترجو بذلك مغفرة خطاياك: انّ هذا قول من يتكلّم بالهزؤ. فبماذا يحقّ لهذا القدّيس ان يخاطب خطاة عصرنا الذين من منبر

سرّ الاعتراف يتراكضون الى مائدة الحمل النقيّ - قال القدّيس اوغسطينس : ايّاك ان تتناول سرّ الاوخرستيا قبل ان تنقّي ضميرك بالصلوة والصوم والصدقة - انّ الذي يطلب من الكاهن ان يناولهُ القربان المقدَّس حالاً بعد اعترافهِ . قد قال عنهُ القدّيس امبروسيوس . انهُ يطلب ما يعود للكاهن خطيّة - انّهُ يجوز تناول السرّ الالهيّ بعد الاعتراف للّذين من عادتهم ان يتباعدوا عن الخطيّة المميتة . الاّ انهُ لا يجوز ذالك للّذين يستمرّون زمانًا مديدًا في حال الغضب الالهيّ . بل يجب على الكاهن ان يوصيهم بعد اعترافهم واخذهم الحلّة ان يستعدّوا لتناول هذا السرّ بافعال كثيرة من العبادة مدّة من الايّام *

وماذا نقول عن الذين يتقدّمون الى القربان المقدَّس مع انعطافهم الاختياريّ الى الخطايا التي اعترفوا بها . وهكذا يقيمون صنم داغون مع التابوت الالهيّ على مذبح واحد . ومنهم الذين يتجاسرون على ان يتناولوا سرّ المحبّة قبل ان يطفئوا من قلوبهم لهيب البغضة - انَّ المسيحيّين قديمًا كانوا يحفظون الاوخرستيا في اناءٍ من ذهب او فضّة مصنوع بشكل حمامة لكي يعلم المومنون انّ من يحفظ في قلبهِ مرارة البغضة لا يستحقّ ان يتناول هذا السرّ المرسوم لحفظ المحبّة مع الجميع *

ثمَّ اعتبروا يا مباركين انهُ لكي تتقدّموا الى هذا السرّ بالتهيّب الواجب ينبغي ان يكون الخارج يوافق الباطن . وان يعلم الناس من احتشام الثياب والتصرّف الخارج إمّا انّكم تناولتم القربان المقدّس وامّا انّكم مستعدّون لتناولهِ - فمن يحتمل قحة النسآء والفتيات اللواتي في يوم تناولهنَّ السرّ الالهيّ يلبسنَ افخر اثوابهنَّ ويتزيّنَّ بافخر الحُلى العالميّة المضادّة احيانًا للحشمة المسيحيّة - انهُ بالصواب جدًّا امر القدّيس كارلوس اسقف مديولان الكهنة بان لا يناولوهنَّ القربان المقدَّس . لانهنَّ بخارجهنَّ هذا المضادّ للاحتشام المسيحي يظهرنَ انهنَّ يردنَ ان يضرمنَ في قلوب الرجال السعير الدنس الذي لاجل اطفائهِ هراق ابن الله دمهُ

الزكيّ كلهُ - تقدَّموا اذًا يا مباركين الى هذا السرّ الجليل بايمان حيّ وتهيب بليغ. وزيدوا على ذلك شيئًا آخر وهو المحبة. لانّ الذي قصدهُ ابن الله لمّا افرغ في هذا السرّ كل كنوز محبتهِ. انّما كان ان نحبهُ نحن ايضًا بكلّ قوّتنا. ومحبتنا له تعالى ينبغي ان تكون لا محبة التفضيل فقط. بل يجب ان تكون محبة الانعطاف ايضًا. اعني انهُ يلزمنا ان نستعظم العزّة الالهيّة استعظامًا ساميًا. ونرغب باطنًا بتعطّف قلب محبّ ان نكافئ بالمعروف احسانهُ العجيب الذي انعم بهِ علينا في هذا السرّ - والدليل على اننا حاصلون على هذا الاستعداد. هو على الخصوص الجوع الروحيّ والارتياح الى الاتكاء على هذه المائدة الالهيّة. كما قال القدّيس اوغسطينس. ولعمري انّ الله يسرّ جدًّا بهذا الاستعداد - حُكي انهُ كان في مدينة بولونيا فتاة نقيّة تقيّة. يقال لها املدا أُسلمت من صغر سنّها لراهبات. ماري عبد الاحد ليربّينها في طريق التقوى. ومن جملة فضائلها كانت رغبتها في تناول القربان المقدَّس عجيبة. غير انّ الراهبات كنَّ يمنعنها عن ذلك لاجل صغر عمرها - فاتّفق يومًا انهُ حينما كانت الراهبات يتقدّمن لتناول هذ السرّ الالهي اتّقدت املدا بشوق شديد الى تناول ربّها حتّى انّ يسوع الحبيب ارتضى ان يصنع لاجلها اعجوبة مذهلة. وذلك انّ الجوهرة الالهيّة طارت من بين يدي الكاهن الى الجوّ. ثمَّ استقرّت على راس الفتاة المباركة. فاحدق بها كلّ الراهبات متحيّرات من الاعجوبة. واستمرّت مع الكاهن منتظرات نهاية الامر المذهل - وفهم الكاهن من هذه الاعجوبة انّ السيّد المسيح يحبّ هذه الفتاة جدًّا. وانهُ يشتهي ان يقترن بها بواسطة سرّ محبتهِ. فاخذ الجوهرة المستقرّة فوق راس أَملدا. وناولها السرّ الالهيّ. وحينئذٍ زاد في قلبها اتّقاد محبّتها للسيّد المسيح حتّى انّها ماتت من شدّة هذه النار السماويّة وصعدت الى السماء لتجلس على مائدة ختنها السماويّ *

ليجعلكم الله يا مباركين ان تتقدموا هكذا شوقًا الى تناول القربان المقدَّس

لكي تجتنوا منهُ اثمارًا وافرة - تقدّموا اليهِ بايمانٍ حيّ وبتهيب بليغ ومحبّة مضطرمة . انّكم بهذا تحسنون استعدادكم لقبول السيّد المسيح . وتحسنون ايضًا اداآء الشكر بعد تناول هذا السرّ - انّ القدّيسة ترازيا التي قد مدحت الكنيسة تعليمها ودعتهُ سماويًّا . قالت في هذا الصدد كلامًا معتبرًا وهو انّ السبب الذي من اجلهِ كثير من المومنين يستفيدون قليلاً من تناولهم القربان المقدَّس هو انّهم بعد اقتبالهم هذا الضيف الكريم لا يستمرّون معهُ في المحادثة ما دام هو معهم - فيا لغباوة القوم المومنين الذين بعد تناولهم السرّ الالهيّ يخرجون من الكنيسة سريعًا - اعلموا يا مباركين انّ السيّد المسيح بمنحهِ لكم جسدهُ يعطيكم مفتاح كنوزهِ . فكيف لا تنتهزون هذه الفرصة السعيدة لتستغنوا - فعليكم حينئذٍ ان تحيوا في قلوبكم الايمان وتوقظوا الرجاآء وتضرموا المحبّة . وتطلبوا نعمهُ الالهيّة بنشاط بليغ . ولا تفلتوهُ تعالى قبل ان يباركم *

وامّا الذي يجب عليكم ان تتأمّلوهُ قبل تناولكم القربان المقدَّس فهو مضمون قول الحكيم : اذا جلست لتاكل مع امير فتامّل الموضوعات امامك تأمّلاً (امثال ٢٣ : ١) - فانتفع ايها المومن من هذه النصيحة . واذا ما جلست على المائدة الالهيّة فتأمّل جيّدًا الطعام الموضوع امامك - لا يكفي ان تتأمّل ذلك تأمّلاً خفيفًا . بل ينبغي ان تتأمّلهُ بتأنٍّ تأمّلاً عميقًا مستفحصًا عن عظمة هذا الماكل الالهيّ وهذا الجسد الاقدس الذي كان بلمسهِ يشفي كلّ الامراض حينما كان قابلاً الموت بعد - لاحظ جيّدًا هذه النفس الالهيّة الحاوية ملء النعمة والراحة والراغبة ان تشركنا فيها . اعتبر هذا اللاهوت الذي هو مثل اتون محبّة مضطرمة تحيل كلّ من يريد الى ذاتها - تأمّل حسنًا الموضوعات امامك . تقدّم الى المائدة الالهيّة بايمانٍ وتهيّب ومحبّة *

الموعظة السادسة والخمسون

في تناول القربان المقدّس بتكاثر

انظروا يا مباركين عظم شرّ طبع الانسان اذ يتّخذ مرّات كثيرة سبباً من الوصيّة ليتعدّاها - انَّ الله سبحانهُ وتعالى امر آدم ان لا ياكل من ثمر شجرة من شجر الفردوس عيّنها لهُ. وقال لهُ: في ايّ يوم تاكل منها تمتْ موتاً (تكوين ٢: ١٧) - فتجاسر آدم بقحةٍ غير محتملة ومدّ يدهُ الى هذه الشجرة واكل منها - والآن بخلاف ذلك يوصي الله المسيحيّين ان يتناولوا ثمرة شجرة الحيوة. اعني سرّ الاوخرستيا قائلاً: ان لم تاكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمهُ فليست لكم حيوة فيكم (يوحنا ٦: ٥٤). وها انَّ المسيحيّين يستعفون من الاتّكآء على هذه المائدة الالهيّة كأنَّ السيّد المسيح نهاهم عن ذلك - فيا للعجب: انّ الله يريد ان يعطي. والانسان يابى ان ياخذ - فالى متى نرى اكثر المومنين في هذا الحال الذي يهين المحبّة الالهيّة ويوتيهم ضرراً جسيماً - انّي اليوم قصدتُ ان ابيّن لكم كم يشتهي السيّد المسيح ان نقترن بهِ بتناول سرّ محبّتهِ لكي تشتهوا انتم ايضاً ان تتناولوهُ بتكاثر *

فاعتبروا انّ المحبّة التي بها يحبّ السيّد المسيح نفسهُ هي محبّة هادئة كلّ الهدوء. لانهُ يمتلك في ذاتهِ كلّ شيءٍ محبوب. واما محبّتهُ التي يحبّ بها البشر فانّها هي محرّكة دائماً باشواق. ومن ساعة الحبل بهِ وتجسّدهِ الالهيّ لم يبرح مشتاقاً الى الاقتران بنا وان يمنح ذاتهُ ماكلاً لنا - ومن ثمَّ لمّا رسم سرّ الاوخرستيّا قال انّي شهوة اشتهيتُ ان آكل معكم هذا الفصح قبل آلامي (لوقا ٢٢: ١٥) - فبعد ان ربّ المجد اعطانا اعظم ما كان يمكنهُ ان يعطيناهُ على الارض. لا يزال يشتهي شيئاً آخر. وهو ان ناتي اليهِ ونتناولهُ بتكاثر. ومن اجل ذلك لا يزال حاضراً

على مذابحنا وهو يدعونا ويحرّضنا على تناول هذا الطعام الالهيّ قائلاً: تعالوا كلوا من خبزي. واشربوا من الخمر التي مزجتها - اتركوا الجهالات فتحيوا (امثال ٩: ٥)*

انهُ لكي يتّضح لكم كم يشتهي سيّدنا يسوع المسيح ان نتناول القربان المقدَّس بتكاثر. لاحظوا معي شيئين اعني مادّة هذا السرّ الجليل وغايتهُ - لقد كان يستطيع تعالى ان يجعل مادّة هذا السرّ الذهب الابريز او اثمن الجواهر القليلة الوجود . وكأنّهُ كان من اللياقة ان يفعل كذا اكراماً لجسدهِ المسجود لهُ. لا شكّ في ذلك ولا جرم. الّا انهُ لو فعل كذا لكان اكثر المومنين اعني المساكين يعجزون عن تناول سرّهِ من فقرهم. ولكان اكثر الاغنياء يمتنعون عنهُ من بخلهم - واقول بالاجمال لو انّهُ فعل كذلك لكان الكلّ امتنعوا بل استصعبوا طلب هذه الاشياء الغريبة النادرة الوجود - فمن اجل ذلك احبّ السيّد المسيح ان يعطينا ذاتهُ تحت اعراض ماكل مألوف يوجد بسهولةٍ وتستعملهُ الناس وتقتات بهِ. لكي يقدر الجميع ان يجلسوا على هذه المائدة المحيية بلا نفقة ولا تعب - قال النبيّ: هلمَّ هلمَّ يا جميع الذين ليس لهم فضّة. اشتروا بلا فضّة وكلوا (اشعيا ٥٥: ١) - وامّا الغاية التي من اجلها رسم ابن الله سرّ الاوخرستيّا فهي تقديس انفسنا وخلاصها. وحسب قولهِ تعالى: من ياكلني يحيى من اجلي. من ياكل من هذا الخبز يحيَ الى الابد (يوحنا ٦: ٥٥ و٥٨) - فكيف اذاً لا يشتهي مخلّصنا ومقدّسنا كلّ الاشتهآء ان يلج فينا تحت اعراض الخبز لاجل هذا المقصود العظيم المتعلّق بهِ خيرنا ومجدهُ - انهُ لو لم يشتهِ ذلك غاية ما يكون. لما كان يدعونا الى مائدتهِ بافراط اللجاجة. ولما كان يرسل عبيدهُ ليدعوا الناس الى مائدتهِ ويوصيهم بان يغتصبوا الجميع ويضطرّوهم بالاتيان الى وليمتهِ (متى ٢٢: ٣). ولما كان يغضب على الذين يابون الاشتراك في وليمتهِ - نعم انَّ الكنيسة لا تلزمنا بوصيّة شديدة ان نتناول السرّ

الالهيّ اكثر من مرّة واحدة في كلّ سنة . الّا انها بهذا تفعل ما تفعلهُ الامّ التي لها ولد قد صيّرهُ مرض مستطيل يستصعب تناول المآكل النافعة . فتخاطبهُ وتقول لهُ : يا بنيَّ الحبيب كلْ حبًّا لي اقلّما يكون هذه اللقمة . غير انها تشتهي ان يكون في حال العافية لكي يستطيع ان ياكل كثيرًا من غير كراهية – كذلك الكنيسة المقدَّسة اذ ترى انّ حتّى الشهوات الفاسدة صيّرت اكثر اولادها مشمأزّين من هذا الخبز السماويّ تخاطب كلًّا منهم قائلةً . يا بنيَّ العزيز ارغب اليك بحقّ حبّك لابيك السماويّ وحبّك لي انا التي احبّك واريد خلاصك غاية ما يكون ان تتّكئ على هذه المائدة الالهيّة اقلّما يكون مرّة واحدة في كلّ سنة – فمن ذا لا يفهم انها تشتهي من المومنين ان يتقدّموا جميعًا الى هذه المائدة الالهيّة اكثر من ذلك . وان يكونوا بحسن سيرتهم قابلين ان يتناولوا القربان المقدَّس كلّ يوم . لانهُ هكذا قالت آبآء المجمع التريدنتيّ المقدَّس : انَّ الكنيسة تتمنّى ان يتجدّد بين اولادها نشاط المسيحيّين الاقدمين الذين كانوا يتناولون السرّ الالهيّ كلّ يوم . واذ انّ فتور عبادة اهل عصرنا وفساد سيرة الاكثرين يمنعانهم عن ذلك . فانها اي الكنيسة ترغب اليهم بجدّ وتسألهم باحشآء رحمة الله ان يتناولوا هذا السرّ اقلّما يكون مرّات كثيرة في السنة *

انّني عند تاملي في حال المومنين منذ ابتدآء الكنيسة الى زماننا هذا . اتذكّر صنم ملك بابل الذي كان راسهُ من ذهب . وصدرهُ من فضّة . وفخذاهُ من نحاس . وساقاهُ جزءٌ منهما من حديد والآخر من فخار – فانّهُ في ابتدآء الكنيسة كان المومنون ملتزمين بتناول القربان المقدَّس في كلّ يومٍ التزامًا صارمًا . وقد أنتج ذلك مار توما اللاهوتيّ من كلام القدّيس انكليتس البابا حيث قال في كتاب قوانين الكنيسة : هكذا بعد تقديس الاسرار فليتناول الاسرار الالهيّة كلّ المومنين الذين لا يريدون ان يُطرَدوا من الكنيسة . لانّهُ هكذا رسمت الرسل وهكذا تامر الكنيسة الرومانيّة المقدَّسة – وقد دامت هذه

العادة زمنًا مديدًا . ويشهد القدّيس هيرونمس الذي كان عائشًا في القرن الرابع انَّ هذه العادة المقدَّسة كانت على زمانهِ جارية بعد في بلاد اسبانيا - اليس يظهر لكم انَّ هذا راس من ذهب - انظروا الآن الصدر من الفضّة . فقد فترت رويدًا رويدًا عبادة المسيحيّين . واخبرنا القدّيس باسيليوس انهُ في زمانهِ لم يكن المومنون يتناولون القربان المقدَّس الاّ اربع مرّات في الاسبوع . اعني يوم الاحد والاربعاء والجمعة والسبت - ثمَّ بعد ذلك ابتدأَ المسيحيّون ان يتناولوا القربان المقدَّس في يوم الاحد فقط حسبما ذكر القدّيس اوغسطينس . وهذا يرينا الفخذين من النحاس - وامّا في عصرنا فبقي لنا الجزء الحقير الذي بعضهُ من حديد . وبعضهُ من خزف . لانّ الذين يتناولون القربان المقدَّس في كلّ شهر مرّةً واحدة يُحسَبون عابدين اتقياء . والذين يتناولون مرّة واحدة فقط في مدار السنة يظنّون انفسهم انّهم متّصفون بعبادة كافية *

قال النبيّ : انظروا واستفهموا عن السبل القديمة (ارميا ٦ : ١٦) لكي تعلموا ما هي الطريق الصالحة لتسلكوا فيها - تأمّلوا الآن في مقدار ضعف انفسكم وكم تحتاجون الى ما يقوّيكم في طريق الخلاص - انَّ النفس تحتاج الى ثلاثة اشياء على الخصوص . اعني ماكلاً يغذوها . ودواء يشفيها . وسلاحًا يصونها . وهذه الاشياء الثلاثة تجدها النفس وتكتسبها بتناول السرّ الالهيّ باستحقاق وتكاثر - امّا اوّلاً فتحتاج النفس الى ماكل . لانَّ الحيوة الروحيّة حياة النفس على الارض لها حالات . كما للحيوة الطبيعيّة حياة الجسد . لانَّ كلتيهما يمكن ان تزولا . ما عدا انهُ يوجد هنا هذا الفرق وهو انَّ حياة الجسد لا بُدَّ لها من الانقضاء . وامّا حياة النفس فيمكن ان تنجو من الزوال - فكما انَّ الماكل يصلح ويردّ ما قد فني بالحرارة الغريزيّة ويقوّي الجسد ويطيل حياتهُ . كذلك سرّ الاوخرستيّا يصلح ما اتلفتهُ الشهوة ويمنح انفسنا قوّة تطيل حياتها . بل تصيّرها ابديّة كقولهِ تعالى : من ياكل من هذا الخبز يحيَ الى الابد (يوحنا ٦ : ٥٢) - الاّ

انّهُ من جهة هذين الشيئين يجب ان يتناوَل الماكل بتكاثر. قال العلماءَ الطبيعيّون. انّ السبب الذي لاجلهِ يعيش النحل اكثر جدًّا من حيوانات اخر كثيرة. هو انّ النحل يقتات من العسل الذي يسدّ ما يعوزها من الرطوبة والحرارة - وهذا عينهُ لو انصفتم لكان يحدث بكم يا مباركين. كنتم تحفظون بالسهولة حياة النعمة مدّة سنين كثيرة. بل كنتم تحفظونها الى المنتهى - ولعمري لو فحصنا جيّدًا عن اسباب زلّاتنا لرأينا انّ سببها غالب الاوقات هو اننّا امّا لا نستعدّ كما يجب لتناول القربان المقدَّس. وامّا لا نتناولهُ بتكاثر - قال صاحب المزامير: ذبلتُ كالعشب ويبس قلبي لانّي سهوتُ عن اكل خبزي (مزمور ١٠١ : ٥). وقال مار توما اللاهوتيّ انّ آدم لو اكل نادرًا من ثمرة الشجرة التي رسمها الله لحفظ حياتهِ ولنجاتهِ من الموت لما امكنهُ في الفردوس الارضيّ ان يحفظ حياتهُ *

غير انّهُ لا يكفي للجيش ان يكون لهُ زاد يقتات بهِ بتكاثر. بل ينبغي مع ذلك ان يكون لهُ اطبّاء يداوون المرضى والمجروحين منهُ - فهذه الحال هي حال الكنيسة اذ منحها السيّد المسيح جسدهُ الاقدس ماكلاً ودواءً. لانّ القدّيس اغناطيوس الشهيد قد سمّى الاوخرستيا دواءً يشفي كلّ الامراض الروحيّة - الّا انّهُ لا يشفيها الّا رويدًا رويدًا. لانّهُ هو مشروط باستعدادنا الذي هو ناقص غالبًا - هذا ما يجب على الذين اعتادوا الزلّات ان يلاحظوهُ لانّهم محتاجون الى هذا الدواءِ لحفظهم من سقطات جديدة اكثر من المعتادين الصلاح ليقيهم من الرجوع الى زلّاتهم - لانهُ قد يتفّق للانسان البارّ ان يستمرّ ثابتًا في الفضيلة مع انّهُ يتناول القربان المقدَّس في النادر. الّا انّ ذلك لا يتفّق للخاطئ التائب *

ثمّ انّهُ لم يكتفِ السيّد المسيح ان يعطينا جسدهُ ماكلاً ودواءً. بل احبّ ايضًا ان يكون لنا سلاحًا منيعًا لمقاومة اعدائنا والظفر بهم. وبالصواب جدًّا قد شبّهوا هذا الخبز الالهيّ برغيف جدعون الذي استحال الى سيف بهِ انتصر على اهل مديان. اي على قوّات الجحيم (قضاة ٧ : ١٣). وعلى هذا المعنى قال

صاحب المزامير: هيّأت قدّامي مائدة مقابل الذين يخاصمونني (مزمور ٢٢ : ٥) - تذكّروا يا مباركين انّ هذا السرّ الالهيّ يحتوي على مصدر النعمة . اي سيّدنا يسوع المسيح الذي بمجرّد نظرهِ يبدّد اعداءنا - ذكر الانبا بلّاديوس انّ فتى من الفتيان اضرم الشيطان في قلبهِ نار الشهوة الدنسة . فشرع ينصب لامرأة حديثة السنّ فخّ الزنا . ولكنّهُ خاب أملهُ . ولم يقدر ان يظفر بها ويفسد قلبها - فاستحالت محبّتهُ لها الى بغضة شديدة . والتجأ الى ساحر وطلب منهُ ان ينتقم لهُ منها - فجعل الساحر بسحرهِ انّ المرأة ظهرت للجميع بهيئة بشعة كريهة . واستمرّت على هذه الحالة مدّة ثلاثة ايّام لا تاكل ولا تشرب . فسحبها زوجها بكدٍّ وعناءٍ الى قلاية القدّيس مكاريوس . فلمّا رآها هذا القدّيس عرف حالاً بوحي الاهيّ ما كان . فاخذ ماءً مقدّساً ورشّ عليها وصلّى قليلاً وردّها الى حالها الاوّل . وحينئذٍ قال لها : اعلمي انّ هذا صار لكِ لانّكِ من خمسة اسابيع لم تتناولي اسرار السيّد المسيح الطاهرة المقدّسة - فهل من العجب انّ الشيطان ينتصر على الذين يؤخّرون تناول القربان لا من شهر الى شهر . بل من السنة الى السنة *

واذ قد بيّنتُ لكم حتّى الان بايّ شوق يدعوكم السيّد المسيح الى وليمتهِ السماويّة وكم تتمنّى الكنيسة ان يكونوا كفردوس ثابت حول مائدة الربّ . وكم تحتاج النفس الى هذا الخبز الملاكيّ . فأيّ عذر بقي لكم - قد بيّن السيّد المسيح اعتذاراتكم الباطلة في مَثَل العشاء المعبر بهِ عن سرّ الاوخرستيّا (لوقا ١٤ : ٢٠) . فمنهم من ابوا عن الاتيان الى العشاء لكبريائهم . ومنهم لانهماكهم في المكاسب العالميّة . وغيرهم كانوا متعلّقين باللذّات اللحميّة - فالاوّلون الذين يتهاونون بتناول القربان المقدّس . هم المتكبّرون الذين يخشون من ان يهزأ بهم الناس اذا تناولوهُ بتكاثر ويقولوا عنهم : انظروا هؤلاء كيف يتظاهرون بانّهم قوم روحيّون ويريدون ان يُحسَبوا قدّيسين - فهذا هو الكلام الذي من اجلهِ يقولون : انّنا لا نقدر ان نذهب الى وليمة يسوع - يا ليتهم يعرفون عطيّة الله ومن هو

الذي يدعوهم الى وليمتهِ. فيزدروا بكلام الجهّال ويحتقروهُ *

فنرى منهم من يقول انّهُ يبتعد عن المائدة الالهيّة احتراماً للاسرار الالهيّة. ظانّاً بنفسهِ انّهُ يقول بروح التواضع مع بطرس الرسول. ابعد عنّي يا سيّدي لانّي رجل خاطئ - ولكن الذي يقول هذا القول اذا اتّفق انّ الكاهن منعهُ عن تناول القربان المقدَّس في يوم عيد شريف وحينما اكثر المومنين يتناولونهُ تراهُ يغتاظ ويتذمّر من انّ الكاهن منعهُ لاجل كونهِ خاطئاً *

فلا تعتذر يا اخي بهذه الاعتذارات الكاذبة. مجّد الله وانطق بالحقّ: قل انّ السبب الذي يعوقك عن تناول الاسرار الالهيّة بتكاثر هو انك لا تريد ان تقلع عن رذائلك وتكفر بشهواتك. لانّك قد علمت انّ هذا السرّ الالهيّ يقتضي ممّن يتناولهُ قلباً نقيّاً منزّهاً من كلّ ميل رديّ. فاذ لا تريد ان تقطع قيد عوائدك السيّئة تبتعد عن السرّ الاقدس - انّ بطرس المغبوط لمّا قال ابعد عنّي يا سيّدي لانّي رجل خاطئ اجابهُ ربّ المجد قائلاً: لا تخفْ. مشيراً بذلك كما قال مار توما اللاهوتيّ الى انّهُ نظراً لما نحن في صددهِ ينبغي ان تقوى المحبّة ورغبة الاقتران بالله على الخوف - ما هذا الاستعداد لتناول القربان المقدَّس في عيد الفصح صرفكم السنة كلّها في حال الاثم وحماة الدنس - انصتوا لما قال الذهبيّ فمهُ: انّ هذا هو الذي يبلبل كلّ الاشياء ويخرّبها ظنّ الناس بان حسن الاستعداد لتناول السرّ الالهيّ ليس قائماً في نقاوة الضمير بل في اطالة التاخير ثم يستتلي القدّيس قائلاً: اعلموا انّ كلّ يوم هو عيد الفصح اذا كان القلب في حال النقاوة - وقد عُلم بالتجربة انّ الاقلال من تناول القربان المقدَّس يصيّر الناس ان يتناولوهُ باستحقاق اقلّ. لانّهُ بهذا التاخير تتأصّل الخطيّة في قلوبهم وتتقوّى الملكات الرديّة ويزداد قلق الشهوات - وهنا يحذّركم القدّيس قورلّس الاسكندريّ من ان يعرقلكم الشيطان في فخّهِ ويخدعكم بعبادة كاذبة مضرّة - غير انّ عدد الذين يستعفون من الاتّكاء على المائدة الالهيّة

بحجة كثرة اشغالهم هو اعظم جدًّا من الذين تقدَّم عنهم الكلام اعني الانام المحبّي الارباح الدنيويّة - فهؤلاء على حسب قولهم يلتزمون بان يهتمّوا دائمًا بالاشغال لكي يقوموا باود بيوتهم ولا يجدون سعةً البتّة ليفكروا في غير ذلك - انّي اعترف يا اخي المومن انّك ملتزم بالاهتمام في حاجات بيتك الاّ انّك ملتزم ايضًا بالاهتمام في حاجة نفسك. فكيف تتغاضى عن الامر الواحد وتفتكر في الآخر فقط - هل يمكن بعد ان صرفت شهرًا واحدًا كاملاً في خدمة بيتك ان لا تجد ساعتين فقط تصرفهما في الاعتراف وتناول القربان المقدَّس. لكي تجعل خلاص نفسك في امانٍ - ايّما ابٍ لهُ ابنان وخبز واحد فقط لا يقسمهُ عليهما - وانت فلك النفس والجسد. امّا النفس فلاجل شرف اصلها السماويّ ينبغي ان تكون لديك في مقام الابن البكر. ومن ثمَّ يجب ان تخصّص لها الجزء الافضل. فلمَ لا تعطيها اقلّما يكون جزءًا يساوي ما تخصّصهُ للابن الاصغر اعني جسدك - ما بالك تدع نفسك حاصلة على حال الضعف والتلف - اين عقلك ايّها المومن. أَلعلّك اتيت الى العالم لتتاجر تجارة ارضيّة فقط. اما أُرسلت لكي تتاجر تجارة اخرى تربح بها الخلاص الابديّ. فلماذا تتغافل عن الغاية الاولى التي خُلقت لاجلها - انهُ لكي تتناول هذا الخبز الذي نزل من السماء لم يكن كثيرًا عليك ان تهمل كلّ المكاسب الارضيّة فكيف لا تخصّص لهذا أَقلّما يكون زمانًا يسيرًا في بعض الاحيان *

والذي هو اشرّ من ذلك هو انَّ قومًا من المسيحيّين مع انهّم لا يتناولون الاسرار الالهيّة كثيرًا يجتهدون ايضًا في ان يمنعوا الآخرين عن ذلك. ومن ثمَّ اذا اتّفق انّ المرأة او الاخت استمرّت في الكنيسة اكثر من العادة يسيرًا لاجل تناول القربان المقدّس يمتلئ البيت من الصراخ والغيظ كانّها قد قلبت البيت في ذاك الزمن اليسير *

الاّ انّ اوقح جميع الذين يابون الاتّكاء على مائدة سرّ الاوخرستيّا هم

الانام الشهوانيّون. لانّهم لا يتنازلون الى ان يعتذروا بحجّة من الحجج بل يجيبون مَن يدعونهم من قِبَل السيّد المسيح ومن قِبَل الكنيسة الى العشاء السماويّ قائلين: لا نقدر ان ناتي. ولماذا هذا. لانّهم لا يريدون ان يتركوا لذّاتهم الدنسة والزبل الذي احتضنوهُ كما قال ارميا النبي (مراثي ٤: ٥) - انَّ الذي يمنعهم عن تناول هذا السرّ بتكاثر ليس هو علمهم بشقاء حالهم. بل انّما هو حبّهم شقاهم - ويسوغ لنا ان نقسمهم الى قسمين. قوم منهم يتضيّقون من قِبَل قيود شهواتهم ويتمنّون بتأسّف ان يقطعوها. والآخرون هم ايضاً لا يضجرون منها وفوق ذلك يحبّونها ويفتخرون بها ويحتسبون جلوسهم بين الشكوك تنعّماً كما قال ايّوب البارّ (ايوب ٣٠: ٧) - فهؤلاء الاشقياء الذين يحبّون خطيتهم ولا يريدون ان يهربوا من سببها القريب. اصيح اليوم عليهم مع الرسول ان يبتعدوا من المائدة السماويّة لانّهم لا يقدرون ان يشتركوا في مائدة الربّ ومائدة الشياطين (١ قور ١٠: ٢١) - وامّا الاوّلون الذين يطلبون الدواء للداء مع الندامة وعزم الاقلاع فانّي ادعوهم الى العشاء السرّيّ. فليتقدّموا باتّضاع وثقة الى طبيبهم الحبيب الذي يقدّم لهم بيدهِ هذا الدواء السماويّ قائلاً: خذوا كلوا. ولا تضطربوا من قِبَل حركات الشهوات اللحميّة. لانّهُ لاجل هذا نفسهِ يجب عليكم ان تتناولوا القربان المقدَّس كثيراً. لانّهُ في هذا السرّ كما قال مار توما اللاهوتيّ توجد الخمرة التي تنشئ العذارى وتضعف قوّة جرثومة الشهوة (زكريا ٩: ١٧) - وان سألوني عن هذا التكاثر كيف ينبغي ان يكون. اقول ان يعودوا يتناولوا السرّ الالهيّ قبل ان يعودوا الى الخطيّة - قال ابن سينا انَّ الادوية التي نتناولها توقّياً من السمّ وقبل ان يعدينا تفيدنا اكثر جدًّا من الادوية التي نتناولها بعد ان يعترينا السمّ - فقد قال المجمع التريدنتي المقدَّس انَّ سيّدنا يسوع المسيح رسم سرّ الاوخرستيّا كدواء ينجّينا من الزلّات اليوميّة ويحفظنا من الخطايا المميتة - فالمخلّص من ذلك هو انهُ يجب على هؤلاء ان يتناولوا سرّ الاوخرستيّا بتكاثر

هذا شرطهُ وهو. ان يعودوا يتناولوهُ قبل ان يخسروا النعمة التي اكتسبوها بتناولهم السابق. لانهُ هكذا تضعف فيهم رويدًا رويدًا الملكات الرديّة وتتولّد في قلوبهم محبّة الطهارة. ويعود جسد السيّد المسيح القدّوس لهم بلسماً شافياً ذكيًا - ويتّضح هذا جليًّا في قوم كثيرين يتناولون هذا الدوآء السماويّ بتكاثر ويسيرون سيرة الملائكة. ويصحّ فيهم قول الربّ: من ياكل من هذا الخبز يحيا الى الابد *

فما نيّتكم الآن يا مباركين: لقد رأيتم انّ كلّ حججكم هي باطلة. بماذا تجيبون السيّد المسيح اذ يدعوكم الى وليمتهِ: حتّى متى تقسّون قلوبكم على صوت الكنيسة التي تشير عليكم ان تتناولوا هذا السرّ الخلاصيّ بتكاثر. بل حتّى مَ تقسّون قلوبكم على انفسكم المحتاجة الى هذا الماكل المحيي كلّ الاحتياج - يا ما اكثر ما حزن آدم بعد ما طُرد من الفردوس الارضيّ واستفاق على حماقتهِ التي بها تغاضى عن تناول ثمرة شجرة الحيوة التي كانت حياتنا الى الابد. واختار ان ياكل ثمرة شجرة قد نُهي عنها جلبت على راسهِ الموت - انهُ سياتي اليوم الذي فيهِ تندمون بلا منفعة على جهلكم هذا الذي يصدّكم عن تناول ثمرة الحيوة الابديّة. وذلك لكي تذوقوا ثمر شجرة مهلكة. اعني بها لذّات دنسة محرَّمة - انّي اخاف جدًّا من ان استصعابكم تناول هذا الخبز الملاكيّ يكون دليلاً على الهلاك الابديّ. لانهُ قال صاحب المزامير: انَّ الذين يباعدون انفسهم منك يهلكون (مزمور ٧٢ : ٢٧) - فيا للعجب ها هوذا عبيدك يبتعدون منك يا ربّ اذ انت تطلب ان يتقرّبوا اليك - كيف يتباعد الفقر من الغنى. والضعف من الخلاص - انّ سرّ الاوخرستيّا هو دوآء يجدينا حياة الابد. كما قال القدّيس اغناطيوس الشهيد. فمن لا يرغب تناولهُ ومن لا يتناولهُ مرّات كثيرة لا يرث حياة الابد لانَّ السيّد المسيح هو في القربان المقدَّس سلاحنا. وماذا يصير بالجنديّ الذي يستثقل ان يحمل سيفهُ - اجاركم الله من ذلك يا مباركين. بل ارغبوا تناول هذا السرّ الالهيّ الذي هو عربون حياة الابد *

الموعظة السابعة والخمسون

في جسامة اثم من يتناول القربان المقدّس في حال الخطيئة المميتة

انَّ الرسول لمّا تأمّل في جسامة خطيّة من يتناول القربان المقدَّس بغير استحقاق. اي في حال الخطيّة المميتة قال اوّلاً: انهُ مذنب الى جسد الربّ ودمهِ. ثانياً انهُ ياكل دينونة لنفسهِ (١ قورنثية ١١ : ٢٧ و٢٩) - فلنتأمّل مع الرسول في حقيقة هذه الخطيّة وفي جزائها - يُفهم من كلام الرسول انَّ الذي يخالف الناموس يهين واضع الناموس (رومية ٢ : ٢٣) ولا شكّ في ذلك - غير انَّ الذي يتناول القربان المقدَّس في حال الخطيّة المميتة يهين الله لا في ناموسهِ فقط بل في اقنومهِ ايضاً - ولكي يتّضح تفاقم اثم هذه الخطيّة اعتبروا يا مباركين انَّ الغاية الخصوصيّة التي رسم السيّد المسيح لاجلها سرّ الاوخرستيّا انمّا هي أن نعوّض جسدهُ النقيّ عن كلّ ما اصابهُ من الاتعاب والاوجاع والاهانات في زمن حياتهِ. اي في مدّة ثلاث وثلاثين سنة. وهذا ما عناهُ تعالى بقولهِ على لسان اشعياءَ النبيّ: بدلاً عن انّكِ مهجورة ومبغضة اجعلكِ فخرًا الى دهر الداهرين (اشعيا ٦٠ : ١٥). انَّ الكنيسة تكرم اوّلاً جسد المسيح اعظم الاكرام بل كأنَّ كلّ عباداتها تتّجه الى اكرام هذا السرّ الالهيّ. لانّها لاجلهِ ولاجل اكرامهِ تبني هياكلها وتقيم مذابحها وترسم كهنتها - والسيّد المسيح يكرم جسدهُ اكراماً عظيماً. لانّهُ بهذا السرّ يجعل جسدهُ ان يكون في زمن واحد موجودًا في الوف الوف من الاماكن في المسكونة. وهكذا يشترك من وجهٍ في صفة الله - نعم انَّ جسد المسيح ليس هو في كلّ مكان كما هو اللاهوت. الاّ انّهُ موجود في كنائس العالم. وهذه صفة مجيدة لا تشترك فيها خليقة اخرى لا جسديّة ولا روحيّة - ثمَّ انَّ جسد المسيح

يمتلك في الاماكن المتقدّم ذكرها كرامة اخرى ليس لها نظير. وهي انهُ هناك على نوع ما موجود في المقام الافضل شرفًا نظرًا الى النفس التي هي موجودة في السرّ لكن بوجه المرافقة. كما انّهُ لمّا مضى شاول الملك مع داود ورافقهُ في وادي البطمة حيث قتل جليات الجبّار (١ سموئيل ١٧ : ٢). فقد كان شاول ملكًا. الاّ انّ داود كان حينئذٍ في اوّل المنازل واشرفها في العسكر - وليس هذا بعجب. لانّ جسد السيّد المسيح ابتُلي لمحاربة جسد الخطيّة وابادتهِ وهو الذي في هذا السرّ يوتينا التقديس بغير واسطة لانهُ كلمة الله المحيي كما قال القدّيس قورلّس الاسكندري بانّهُ لمّا اتّحد باللحم صيّرهُ محييًا *

الاّ انّ الاكرام المؤدّى لهذا السرّ الاقدس لا يقف عند هذه الحدود. لانّ الآباء القدّيسين ومنهم مار توما اللاهوتيّ والقدّيس هيرونمس ذهبوا الى انّ السيّد المسيح لمّا رسم هذا السرّ الالهيّ تناولهُ هو جلّ اسمهُ. ومن ثمّ كان في العشاء السرّيّ هو الضيف وهو الطعام - ولماذا تناول هذا السرّ اذ كان من الممتنع ان ينمو السيّد المسيح في النعمة ويتقوّى في الفضيلة اذ كان قد حاز ملء النعمة والقداسة من قبل اتّحادهِ بالاقنوم الالهيّ: قال القدّيس توما اللاهوتيّ: انّ السيّد المسيح تناول هذا السرّ لاجل اللذّة الموجودة في تناول هذا المآكل السماويّ. الاّ انّ استلذاذهُ هذا كان قائمًا في انهُ بهذا التناول كان يكرم جسدهُ بمقدار ما كان يستحقّ من الاكرام. فمن اجل هذا احبّ ربّ المجد ان يتناول سرّ الاوخرستيّا اي لكي يسكن جسدهُ مرّة واحدة في مكان لائق بهِ اي في صدر الاهيّ ويوكَل بفم الاهٍ حقّ. وهكذا يكافئهُ عمّا يحصل لهُ من العار من قِبَل المومنين الذين يناولون هذا السرّ ويتناولونهُ فيما بعد *

فما ظنّكم يا مباركين بهذا المجد الوسيم الذي منحهُ السيّد المسيح لجسدهِ الطاهر في سرّ القربان المقدَّس - قابلوا الآن هنا الاكرام نفسهُ بما يصيبهُ من الاحتقار والهوان من قِبَل الذين يتناولون هذا السرّ بغير استحقاق - انّ كلّ

من يتناول السرّ الالهيّ كما قال توما اللاهوتيّ يعني بعين الفعل انهُ مقترن بالسيد المسيح جسدًا بجسد - انظروا الآن هل يمكن ان يتصوّر اقتران اغرب واقبح من أقتران جسد ابن الله بجسد انسانٍ خاطئ - انَّ الذي تناول هذا السرّ الالهيّ بغير استحقاق قبل كلّ احد هو يهوذا . ولهذا قال عنهُ السيّد المسيح انّهُ شيطان (يوحنّا ٦ : ٧١) . وبالنتيجة فمن يتناول القربان المقدَّس في حال الخطيّة يضطرّ السيّد المسيح الى ان يقترن بشيطان . او اقلّما يكون فانهُ تعالى يلج مسكن الشيطان حينما يلج قلب انسانٍ خاطئ . وفي هذا البيت الشيطان هو صاحب المنزل . وفي يدهِ مفتاح المكان . وهو الوالي وهو المدبّر . ويفتخر مبتهجًا بانَّ المسيح هو هناك كضيف غريب حقير - انَّ هذا المنظر لكثرة ما هو قبيح ومرهب لقد رفض قوم تصديقهُ كما ذكر توما اللاهوتي وزعموا انّهُ اذا وصلت الجوهرة الى شفتَي رجل خاطئ يبطل جسد المسيح حينئذٍ ان يكون موجودًا تحت اعراض الخبز وينفصل منها لئلّا يدخل صدر الخاطئ - فهذا الزعم ولو كان هرطوقيًّا فانّهُ يوضح جليًّا تفاقم من يتناول القربان المقدَّس في حال الخطيّة المميتة وقبح هذا المنظر اعني وجود السيّد المسيح والخطيّة في صدر واحد - وان اردتم ان تفهموا كم يكره هذا القلب الالهيّ هذا الوصال فتصوّروا كم يصعب عليكم انتم ان تناموا مع رجل ابرص - وقد شكا تعالى ذلك قائلاً على لسان حزقيال النبيّ . انّي كنتُ اتدنّس في وسطهم (حزقيال ٢٢ : ٢٦) - وفي نبوّة ملاخي النبيّ يدعو هذا الخبز السماويّ خبزًا نجسًا (ملاخي ١ : ٧) . قال القدّيس هيرونمس في تفسيرهِ هذه الآية : انّنا نجّس الخبز اي جسد السيّد المسيح عندما نتقدّم الى المذبح بغير استحقاق ونشرب الدم النقيّ في حال الدنس - انَّ بقيّة الخطاة يتعدّون الناموس بتدنيسهم انفسهم . وامّا هؤلاءَ الخطاة المنافقون لا يكتفون بذلك . بل يدنّسون ايضًا السيّد المسيح الواضع الناموس - انهُ تعالى يختار ان يُلقَى في بلّوعة منتنة على ان يلج صدور هؤلاءَ الائمة - وفي

ذلك روى احد المؤرّخين الثقات انّ غلاماً من الغلمان تجاسر ان يتناول السرّ الالهيّ بقلبٍ دنس اي في حال الخطيّة الباهظة . فشعر حالاً بوجع لا يُحتَمَل وخرج من الكنيسة سريعًا واستفرغ الجوهرة في حماة قذرة . وفي الحين زال الوجع بتةً – فقد اصاب اذاً احد المفسّرين بقولهِ انّ جهنّم نفسها لولم توجد فيها الخطيّة لكانت للعزّة الالهيّة مسكنًا اليق من منزل نفس خاطئة – ولذلك فلا اتعجّب مما قالهُ القدّيسون عن هذا النفاق . اي انّ الذين يتناولون سرّ الاوخرستيّا بغير استحقاق يجدّدون آلام سيدنا يسوع المسيح وانّ خطيّتهم تشبهُ خطيّة الذين صلبوا ابن الله – وقولهم هذا يثبتونهُ بشهادة الرسول حيث قال : فايّما انسان اكل من هذا الخبز او شرب كاس الربّ وهو غير مستاهل فهو مذنب الى جسد الربّ ودمهِ (١ قورنثية ١١ : ٢٧) . فكأنّ الرسول يقول كما فسّر المعلّم المشهور الذي يقال لهُ غلوسا يكون اثمهُ نظير اثم الذين صلبوا السيّد المسيح ومثلهم يُعاقَب – وهذا الراي قد اثبتهُ القدّيسون اوغسطينس وهيرونمس والذهبيّ الفم وقبريانوس . بل انّ هؤلاء الآباء لمّا تاملّوا في نفاق من يتناول القربان المقدّس بغير استحقاق وجدوا فيهِ وجوهاً تجعل هذه الخطيّة اثقل من خطيّة الذين صلبوا ربّ المجد . لانّ هؤلاء اعني اليهود اماتوا جسدهُ حينما كان متردّدًا على الارض وقابل الموت . وامّا اولئك الملعونون فيهينونهُ وهو جالس على عرش الربوبيّة الالهيّة . ومن ذا لا يرى انّ من يحتقر الملك جالسًا على عرش مجدهِ يجرم اكثر ممن يحتقرهُ وهو عابر طريق بزيّ انسان مجهول – قال الرسول عن اليهود انّهم لو عرفوا المسيح انّهُ هو ربّ المجد لما صلبوهُ (١ قورنثية ٢ : ٨) . فامّا هؤلاء المنافقون فانّهم يصلبونهُ تعالى مع علمهم بانّهُ جالس عن يمين الآب – انّهُ ليس بعجب انَّ السيّد المسيح اشتهى الصليب الذي اعدّهُ لهُ اليهود . لانّهُ في هذا الصلب كان يرى مشيّة ابيهِ السماويّ وخلاص العالم والانتصار على الموت والجحيم . وامّا في نفاق من يتناولهُ في حال الخطيّة المميتة فلا يرى سوى

ما يغيظهُ . اعني خباثة قلب كافر بالنعمة - انَّ الرسول لمَّا تأمَّل في عظمة هذا الاثم وفحص عن الجزاء المستعدّ لهُ قال : انّ من يتناول السرّ الالهيّ بغير استحقاق ياكل ويشرب الدينونة . اي ياكل هلاكهُ ويشربهُ - تذكّروا يا مباركين ما قيل في الانجيل المقدَّس عن يهوذا . كان هذا اوّلاً لصًّا خبيثًا . وحينئذٍ لم يتسلّط عليهِ الشيطان بعد كلّ التسلّط . لكن حينما تجاسر وتناول القربان المقدَّس في حال الخطيّة المميتة ففي الحين بعد تناولهِ اللقمة دخل فيهِ الشيطان وتملّكهُ نفسًا وجسمًا ليهلكهُ (يوحنا ١٣ : ٢٧) - وفي هذا قال القديس اوغسطينس انّ يهوذا بتناولهِ الخبز الالهيّ أَمسى تحت حوزة الشيطان - ومن ثمَّ نرى انّ هؤلاء الائمة المنافقين بعد تناولهم الاسرار الالهيّة بغير استحقاق يزدادون شرًّا . ومن لجّة هذا الشرّ يتساقطون في اعمق لجج الشرور . فيصرخ هناك القدّيس اوغسطينس قائلاً : من اراد ان يتناول الحيوة فليغيّر حياتهُ اي سيرتهُ . لانّهُ اذا لم يغيّر حياتهُ فانّهُ يتناول الحيوة لدينونتهِ . ولاجل تناولهِ الحيوة يزداد فسادًا . وفي معين الحيوة يشرب الموت *

الاّ انّهم ربّما يستخفّون بهذا العقاب الروحيّ . فنورد لهم العقاب الجسميّ الجسيم المعدّ لهم : قال السيّد المسيح يومًا للقدّيسة بريجيتا مفسّرًا لها العقاب المستعدّ للّذين يتناولون القربان المقدَّس في حال الخطيّة المميتة : الويل لهم لانّهم يُطرَحون في اعمق لجج جهنّم - وفي ذلك اسمعوا هذا الخبر - كان في مدينة من بلاد سكسونيا اسقف يقال لهُ اودون . وكان ذا سيرة نجسة اي ذئبًا لم يعبأ لشدّة خبثهِ ان يتزيّا بزيّ الراعي . ومع ذلك لم يزَل يتناول الاسرار المقدَّسة - وكان حينئذٍ كاهن يُدعى فريدريك فهذا دخل يومًا الى كنيسة الاسقف وكانت مبنيّة على اسم القدّيس موريق واستمرّ طول الليل مواظبًا على الصلوة طالبًا من الله بزفرات غير موصوفة ان يبيد الرجس من بيعتهِ بشفاعة القدّيس موريق . واذا بريح عاصف اطفأت قناديل الكنيسة كافّةً . وفي غضون ذلك

دخلت زمرة منيرة من ملائكة وقدّيسين. ثمّ ظهر سيّدنا يسوع المسيح مع امّهِ الطوباويّة وجلسا على كرسيَّين بهيَّين - وحينئذٍ تقدّم القدّيس موريق الشهيد وطلب من السيّد المسيح ان ينتقم من اودون المدنّس كنيستهُ. فحكم الديّان بان يحضر اودون - وفي الحال طار اثنان من الارواح السماويّة الى بيت الاسقف فوجداهُ متّكئًا على فراشهِ غائصًا في نوم ثقيل. فأتيا بهِ الى الكنيسة واقاماهُ تجاه الحاكم الازليّ - فاعترى اودون خوف لا يصفهُ لسان ولا يدركهُ عقل لمّا رأى نفسهُ ممثلاً امام هذا العرش المرهوب ولاسيّما لمّا سمع ما يُشتكَى بهِ عليهِ. فلم يتجاسر ان يفتح فمهُ بل لبث صامتًا مرتجفًا منتظرًا انتهآء الامر - فقال الديّان العادل ليحلّ فيهِ العقاب المسجَّل عليهِ من قديمٍ - فلمّا قال هذا تقدّم واحد من الملائكة وسلّ سيفهُ ليقطع هامتهُ. فاقبل ملكٌ آخر وامسك يدهُ وقال: قبل قتلهِ ينبغي ان تُوخَذ من صدرهِ الجوهرة الالهيّة التي تناولها امس عند تقديسهِ الاسرار الالهيّة. وكانت قد استمرّت صحيحة في معدتهِ - فذهب المَلَك واخذ من الكنيسة بيت القربان ثمّ دنا من اودون وضرب ظهرهُ ضربًا شديدًا واضطرّهُ الى استفراغ الجوهرة الالهيّة. وبعد ذلك ضرب عنقهُ بالسيف. وحينئذٍ زالت الرؤيا - وقد اتّضحت صحّتها. لانَّ الاسقف وُجد ميتًا. وكذلك وُجدت الجوهرة في بيت القربان *

فماذا تقولون الآن يا مباركين: انظروا عواقب المنافقين -- من ذا يريد ان يشترك في نفاقهم ويرجو النجاة من عقابهم -- انَّ النبيّ والملك داود لمّا تكلّم عنهم قال: لتصر مائدتهم قدّامهم فخًا وللسالمين شركًا (مزمور ٦٨ : ٢٣). وبهذه الكلمات كما قال القدّيس اوغسطينس لا يطلب النبيّ شرًّا لغيرهِ ويدعو عليهم. بل يسبق بروح النبوّة ويخبر بالانتقام الالهيّ - فما معنى قولهِ لتصر مائدتهم قدّامهم فخًا. كيف المائدة تصير فخًا لمن يجلس للاكل: انَّ النبيّ يوضح بهذا جسامة خطيّة من يتناول الاسرار الالهيّة بغير استحقاق. لانَّ هؤلآء المنافقين لا يسقطون كما

يسقط كلّ من يخطئ. بل بعد سقوطهم يستمرّون متعرقلين بفخّ. لانهُ يتفّق في النادر انّهم ينهضون من خطيتهم تائبين – ثمَّ انَّ النبيّ بقولهِ عنهم لتصر مائدتهم قدّامهم شركًا (او للمجازاة كما في النسخة اللاتينيّة) عنى عقابَين. احدهما يلحق المنافقين في هذه الحيوة. والآخر في الحيوة الآخرة – فلا بدّ انّهم يستمرّون طول عمرهم في حال قلق باطن تعذّبهم ضمائرهم. لانهُ ليس سلام للمنافقين كما قال الربّ على لسان اشعياء النبيّ (اشعيا ٤٨ : ٢٢) ولاسيّما الاشقياء الذين لا يزالون يرون ابواب الجحيم مفتوحة لهم – انّهُ من جملة الدلائل التي بها يُعرف الانسان انهُ منتخَب للسماء اجتنآ الخير من الشرّ ونفع النفس من الخطيّة كما تفعل النحلة اذ تحيل المرّ الى حلو. لانَّ الرسول يقول: انّ الذين يحبّون الله تعينهم كلّ الاشيآء الى الخير (روم ٨ : ٢٨). فبالنتيجة وبحجّة الضدّ من جملة الدلائل التي بها يُعرَف الانسان انّهُ مرذول ومن اهل الهلاك اجتناؤهُ الشرّ من الخير. كما انَّ العنكبوت تحيل الحلو الى مرّ. ولا يجتني امثال هذا شرًّا من الخير فقط بل من الخير الاعظم ايضًا. اي من عنصر كلّ خير وهو المخلّص الذي يقتلونهُ في منازلهم كلّما تناولوهُ في السرّ الالهيّ – قال القدّيس اوغسطينس كيف لا يهلك الى الابد من يجلس على مائدة الله وهو عدوّهُ *

وامّا العقاب الثاني المعدّ لهولآء المنافقين في الحيوة الآخرة فيكفي ان نذكر هنا ما قالهُ السيّد المسيح لنفسٍ مختارة جزيلة القداسة – فهذه اذ كانت يومًا تسمع قدَّاس كاهن شرّير رأت ربَّ المجد بشكل حَمَل نقي يجرّهُ الكاهن الى المسلخ بكلّ نوع من الحقارة. وكانت الشياطين محدقة بهِ تعالى مبتهجين مسرورين – فلمّا رأت ذلك العابدة هتفت بقلبٍ اسيف قائلةً. لماذا يا ربّ تحتمل هذا. لماذا لا تنتقم – فأجابها ختنها الالهيّ قائلاً: لا تعجبي من ذلك يا ابنتي. لانّ خطيّة من يتناولني بغير استحقاق هي عظيمة جدًا. حتّى انّي لا انتقم منها غالبًا في هذه الحيوة. لانّهُ في هذه الحيوة ليس عقاب كافٍ للمجازاة عنها.

بل انّي ابقي ذلك الى الحيوة الآخرة - فلتصِرْ اذًا مائدتهم فخًّا وللمجازاة والشكّ. وهذا الشكّ هو توجّع اهل السمآء وغيظهم - بل انّ هؤلآء الاثمة الوقحين المحتقرين شخص السيّد المسيح تحزن الملائكة عند نظرهم خبزهم ملقى للكلاب ومثلهم واكثر منهم تحزن مريم المجيدة. لانَّ هذا الجسد المتّخذ منها والمتّحد باقنوم الله والمقدَّم للبشر لاكتساب حياة الابد يصير لهم بذنبهم سمًّا مميتًا يحزن روح القدس الذي جبل هذا الجسد الالهيّ في مستودع بتوليّ يراهُ الآن منزلًا للدنس - ويحزن ايضًا الاب الازليّ الذي احبَّ ان يستمرّ ابنهُ في العالم . راجيًا انَّ المومنين بهِ يكرمونهُ وها انهم يهينونهُ . كما قال الرسول : يصلبونهُ ثانية (عبرانية ٦ : ٨) - الّا انّ الابن الحبيب يحزن اكثر من ذلك . لانَّ اقنومهُ يسند الناسوت الاقدس . ومن ثمَّ فتُحسَب واقعة عليهِ بوجه مخصوص كلّ اهانات ناسوتهِ - ولكن بعد زمن يسير سينصب عرشهُ وسيمتثل امامهُ هؤلآء المنافقون ويقول لكلّ منهم بوجهٍ غضوب : كيف دخلت هاهنا وليس عليك لباس العرس (متى ٢٢ : ١٢ و١٣) . كيف تجاسرت يا شقيّ ان تتناولني في السرّ الالهيّ وانت في حال الخطيّة المميتة . شدّوا يديهِ ورجليهِ والقوهُ الى الظلمة البرّانيّة هناك يكون البكآء وصرير الاسنان *

يقول القدّيس باكيانس : ايّها الخاطئ استيقظ وخَفْ من الدينونة الحاضرة في أحشائك *

الموعظة الثامنة والخمسون

في جلال نعمة سرّ الاعتراف

انّ السيّد المسيح قد انعم باحسانٍ عظيم على البرص العشرة المذكورين في الانجيل المقدّس لمّا أبرأهم بواسطة الكهنة . ولهذا لمّا رأى واحدًا منهم فقط مرتجعًا اليهِ وشاكرًا فضلهُ ذمّ التسعة الباقين لانّهم لم يفعلوا كذلك - فها انّهُ

جلَّ جلالهُ قد انعم على جميع المومنين بمثل هذا الاحسان وبأفضل منهُ . اذ من منهم ما شفي من برص الخطيّة برحمتهِ بواسطة الكهنة . وما أقلّ الذين يعتبرون قيمة هذا الاحسان الالهيّ ويؤدّون الشكر الواجب عليهِ - فمن اجل هذا نبتدئ الآن ان نتكلّم عن سرّ الاعتراف . وفي هذا نسهب الكلام في المواعظ الثمان التالية مبيّنين ما يخصّ هذا الحمّام الروحيّ الخلاصيّ الذي فيهِ نستحمّ بدم سيّدنا يسوع المسيح كلّ مرّة نعترف بخطايانا عند الكاهن وهو يحلّنا منها *

انّي لا اعتقد انّ الكمالات الالهيّة تتلألأ في احسانات الله الينا مثلما تتلألأ في نعمة سرّ الاعتراف . ولئلاّ يطول بنا الشرح نتكلّم اليوم عن كمالَين الهيَين يتلألأان هنا على الخصوص . وهما قدرة الله الضابطة الكلّ وجودهُ غير المدرك - قلتُ اوّلاً انّ القدرة الالهيّة تتلألأ في سرّ الاعتراف . لانّ هذه هي اكثر ضرورة لابادة الخطيّة من كلّ كمال آخر الاهيّ - اعتبروا يا مباركين انّ هدم كلّ بناء هو اسهل غالبًا من بنيانهِ . وكم من الزمان صرفت الناس في ابتناء هذه الكنيسة . والحال انّهُ يمكن ان تهدَم في دقيقة واحدة من الزمن بزلزلة - وامّا الخطيّة فليست كذلك . لانّ فعل الخطيّة يسم باعظم السهولة . اذ يكفي لذلك كلمة واحدة او لحظة واحدة او فكر خفيف - وامّا ابادة الخطيّة وهدمها فيا ما اصعب ذلك : انّهُ لامر عسر جدًّا حتى انّهُ بين الخلائق الموجودة والممكن وجودها لا توجد قدرة كافية لهذا الامر - فلو اتّفق جميع الملائكة مع كلّ القدّيسين الذين في السمآء والارض على ان يبيدوا خطيّة واحدة بقوّتهم . لكان اسهل من ذلك للنحلة ان تنقل على ظهرها اعلى الجبال - لا يقدر احد غير الله ان يبيد الخطيّة . ولهذا قال ناثان النبيّ لداود : الربّ نقل عنك خطيّتك (٢ سموئيل ١٢ : ١٣) لكي يعلم الملك اللبيب انّ نقل ثقل خطيّة عملٌ تعجز عنهُ كلّ قوّة مخلوقة . اذ يقتضي ضرورة قدرة الله الضابطة الكلّ - ولهذا قال على لسان اشعيآء النبيّ : انا هو الماحي جرائمك (٤٣ : ٢٥) - انّ العالم كلّهُ يتعجّب من

فتوحات الاسكندر ذي القرنين الذي بقوّة عساكرهِ تسلّط على ملوك كثيرين لانّهُ كسر عساكرهم وفتح مدنهم وامتلك ممالكهم . ومن اجل ذلك كُنّي بالملك العظيم . ولو فعل ذلك بمجرّد حركة شفتيهِ لاستحقّ هذا اللقب اكثر بكثير - ولكن الله يصنع اعظم من ذلك في سرّ الاعتراف . لانّهُ حينما ينطق الكاهن بكلمات يسيرة يصنع الله اعظم ممّا صنع اذ خلق السمآء والارض . وذلك لانّهُ جلّت اسماؤهُ . عند تبريرهِ الخاطئ يوتيهِ النعمة . ومعها كمالات تفوق كلّ كمالات الارض والسمآء - اعلموا انَّ هذا السلطان الذي يُعطى للبشر لا يزال الاهيًّا . لانّهُ ياتي من السيّد المسيح بقولهِ للكهنة : ما حللتموهُ على الارض يكون محلولاً في السمآء (متى ١٨ : ١٨) - نعم انَّ الكاهن هو الذي يحلّ الخطايا في سرّ الاعتراف . الاّ انّهُ لا يحلّها الاّ نيابةً عن الله . فمن ثمَّ ينبغي ان يُحسَب سلطانهُ هذا الاهيًّا *

فيا ما اعظم سرّ الاعتراف . انّهُ لو انار الله عقولكم واراكم ما يحدث من الامر العجيب حينما يرفع الكاهن يدهُ على راس الخاطئ وينطق بهذهِ الكلمات : انا احلّك من جميع خطاياك لسقطتم على الارض مغشيًّا عليكم متعجّبين من هذه القدرة الالهيّة - فاذًا يا مباركين عند تقدّمكم الى الكاهن لاجل سرّ الاعتراف وحينما تبتدئون بهذه الكلمات . انا اعترف لله القادر على كلّ شيء . تذكّروا انَّ الكنيسة تجعل في افواهكم هذه الكلمات لكي تعلموا انّهُ ما من احد غير الله يستطيع بقدرتهِ الضابطة الكلّ ان يرفع عنكم ثقل خطاياكم - ومن ثمَّ يجب عليكم اوّلاً ان تكافئوا احسانهُ هذا العظيم بكمال الشكر . ثانيًا ان تحترزوا بكلّ جدّكم من ارتكاب الخطيّة التي لا يمكن ان يزول شرّها الاّ بقدرة الله *

انظروا الآن يا مباركين كيف انَّ الجود الالهيّ يتلألأ في سرّ الاعتراف - انَّ صبر الله على الخاطئ واحتمالهُ ايّاهُ هو فعل رحمة عظيمة . فماذا تكون رحمتهُ تعالى للخاطئ حينما يغفر لهُ - انّهُ في عظمآء العالم يعسر ويندر احتمالهم من يسيء اليهم ولاسيّما من يهينهم - ليس بعجيب انَّ رجلاً حقيرًا يحتمل الاحتقار . الاّ انَّ

الامر العجيب الغريب ان يحتملهُ رجل شريف وجيه. بل انَّ الشرائع تامر بهتك حرمة من يشفع في رجل اساءَ الى ملكهِ. فكأنَّها تامر الملك بان لا يغفر لمن احتقرهُ - وقد اتّفق في ايّامنا هذه انَّ احد الملوك اذ سمع انَّ رجلاً شريف القدر فكر في منامهِ ان يقتل الملك. حكم عليهِ بالمكث في السجن مدّة عشرين سنة - فيا ما اعظم الرحمة التي تصيّر الاهاً متّصفاً بعزّة غير متناهية ان يحتمل المتمرّدين عليهِ. ويغفر لهم ويطرح جميع آثامهم في عمق البحر كما قال النبيّ - غير انَّ الله ربّما يقتضي من الخاطئ وفاءً عظيماً او ندامةً عظيمة. وهنا ايضاً يتّضح جود الله اذ يقتضي حقّاً الندامة والوفاءَ. لانَّ العدل يقتضي ذلك - الّا انّهُ من جهة الوفاءَ نرى الكهنة انهم بروح الشفقة على ضعف البشر يضعون قوانين خفيفة يسيرة. حتّى انّها لا تستحقّ ان تُدعَى قوانين وفائيّة - واما الندامة فكان يلتزم الخاطئ في العهد القديم ان يندم على خطاياهُ ندامةً كاملة. واما الآن اي في العهد الجديد فيكتفي السيّد المسيح بندامة غير كاملة ويغفر لاعدائهِ ويجعلهم احبّاءَهُ بعد تمرّدهم عليهِ مع انهم لا يرتجعون اليهِ بروح المحبّة. بل بروح الخوف او الرجاءَ *

انّي اتعجّب بل اغتاظ من المسيحيّين الذين يتشكّون من الاعتراف. كانّهُ نير ثقيل غير محتمل ويقولون انّهُ يصعب على الانسان جدّاً ان يكشف كلّ قلبهِ لانسان نظيرهِ ويبيّن لهُ خفايا افكارهِ - تاملّوا جيّداً ما تربحونهُ في الاعتراف. تذكّروا انكم بهِ تكسبون غفران خطاياكم. وحينئذٍ تلومون انفسكم على استثقالكم نير الاعتراف. انّهُ لو وُجدت امراة حبلى باثنين هل تشكو القابلة لاجل انّها اخرجتهما من بطنها بقليل من الوجع - تذكّروا كم تكلّف السيّد المسيح حتّى يرسم سرّ الاعتراف: انّهُ لاجل هاتين الكلمتين اللتين يقولهما الكاهن على راسك كابد من الهوان والذلّ والبصاق والشوك والضربات ما لا يحصى عددهُ. واخيرًا هراق كلّ دمهِ ومات. فهل يمكن انَّ الذين يؤمنون

بذلك يحسبون الاعتراف حملاً ثقيلاً - انهُ لو شرط الله علينا لنوال غفران خطايانا ان ننادي جهارًا بأخفى واقبح ما فعلناهُ من الجرائم والقبائح. لم يكن ذلك شيئًا زائدًا. فهل يكون امرًا عظيمًا انهُ يلزمكم ان تبينوا خطاياكم سرًّا لكاهن ربما لا يعرفكم وتلزمهُ الوصيَّة الالهيَّة ان يعاملكم برحمةٍ ويحفظ سرَّكم الى الابد *

ثمَّ اعتبروا هذا يا مباركين انَّ السيّد المسيح لحبّهِ لنا ورغبتهِ في نفعنا احبَّ ان يكون في الاعتراف قليل من الصعوبة. لانَّهُ لو كانت كلّ الادوية طيّبة شهيّة لم يبالِ الاكثرون من المرض. فالذي تفعلهُ الطبيعة لاجل نفعنا تفعلهُ ايضًا النعمة لخيرنا. اي انها تمزج قليلاً من الصعوبة في الاعتراف ليكون ذلك لنا كلجام يضبطنا ويصدّنا عن العود الى الخطيَّة - ولاثبات ذلك نعلم من التواريخ انّ الهراطقة تباع لوتر لمّا ابطلوا الاعتراف امتلأت امّتهم من الشرور وتفاقمت الآثام حتّى انّ اعيانهم ارسلوا وفدًا الى الملك كارلس الخامس وطلبوا منهُ ان يلزم الناس بالاعتراف - فمن اجل هذا رام مخلّصنا ان يكون الاعتراف ممتزجًا بقليل من المرارة *

فلا تفرطوا يا مباركين بتسميتكم الاعتراف نيرًا غير محتمل. بل لاحظوا فيهِ جود الله واشكروهُ عليهِ - من كان يخطر ببالهِ انهُ يمكن انَّ يعطي الله الانسان سلطانًا لحلّ الخطايا. اليس الظاهر انّ اللياقة كانت تقتضي ان يعيّن الله عدد الخطايا الممكن ان يحلّها الانسان وان لا تُحَلّ الاّ مرّةً واحدة فقط وفي مكان واحد وعلى يد قسّيس واحد - الاّ انهُ جلّت جودتهُ لم يحدّد شيئًا من هذه كلّها. بل اراد ان يكون في كلّ مكان كهنة يحلّون كلّ الناس من خطاياهم مهما كانت عظيمة متعدّدة *

اسمعوا ما حدث في عصرنا: كان في مدينة من مملكة اسبانيا يقال لها سلمنكا رجلٌ غنيٌّ ذو ثروة عظيمة الاّ انهُ كان يحبّ اللعب. وخسر بهِ كلّ ما

كان لهُ . وخسر مع ذلك مخافة الله . بل اتّصل الى انّهُ اخذ يبغض الله من كلّ قلبهِ . وعزم على ان يرتكب كلّ ما يمكنهُ من بدائع الآثام بغضاً لله تعالى عزّ وجلّ - وبعد ما افرغ في ذلك كلّ جهدهِ وجدّهِ لم يكتفِ رجز نفاقهِ بذلك بل اشترى كتاباً فيهِ شرح مدقّق عن أنواع جميع الخطايا التي يمكن ان يرتكبها الانسان . وشرع يقرأهُ ليتعلّم كلّ أنواع الخطايا العظيمة الباهظة ويرتكبها امّا فعلاً وامّا شهوةً . وهكذا كان يجتهد في ان ينمو كلّ يوم في الرذائل - واتّصل اخيرًا الى هذا الحال من النفاق الشيطانيّ وهو انهُ نوى ان يحوي شرور كلّ ائمة العالم - ودام زمانًا لا يعترف ولا يتناول الاسرار الالهيّة - الّا انهُ فكر فكرًا آخر شيطانيًا لكي يبلغ قمّة الشرّ وهو ان يعترف اعترافًا كاذبًا ويتناول الاسرار الالهيّة بغير استحقاق - فقام حالاً وجثا على رجلَي الكاهن وشرع يعدّ خطاياهُ بنيّة ان يغشّ الكاهن ويكذب على روح القدس - الّا انهُ اذ كان في حال يشبه البحر المتموّج لم يقدر ان يخفي بالكليّة شرّ نيّتهِ . لانّ الكاهن اذ كان فطنًا لبيبًا اطّلع على ما في قلبهِ من الاضطراب وظنّ انّ الخجل يصدّهُ عن الاعتراف بخطيّة ثقيلة فرطت منهُ . فطفق يبيّن لهُ جزيل غنى المراحم الالهيّة وفائدة سرّ الاعتراف . وذلك بكلام شديد مؤثّر حتّى انّ التلميذ تنهّد وقال : يا ليت سرّ الاعتراف يقدر ان يطهّر ادران ضميري - فقال لهُ القسّيس : كيف لا يقدر على ذلك . اعلم يا اخي انّك لو اتيتني بكلّ خطايا مدينة سلمنكا بل بكلّ خطايا العالم ان كنت نادمًا عليها . فاني استطيع ان احلّك منها جميعًا في دقيقة واحدة من الزمان ان ندمت عليها . فبهذه وغيرها اجتذب القسّيس قلب التلميذ حتّى حملهُ ان يكشف لهُ حالتهُ التعيسة . وبعد اعترافهِ بندامة حقيقيّة لبس اسكيم الرهبانيّة وجعل يمارس افعال التوبة الواجبة . ولم يزل يحمد الرحمة الالهيّة . وبعد ثلاث سنين مات موتًا سعيدًا *

فماذا تقولون يا مباركين عن هذه الحادثة : اليس يتّضح بها ما قلناهُ آنفًا .

وهو انّ الله يظهر افراط جودهِ في سرّ الاعتراف بتركهِ للخاطئ اعظم الخطايا - غير انهُ تعالى يظهر ذلك ايضًا من وجه نوعٍ آخر وهو انهُ عزَّ وجلّ يردّ على الخاطئ بسرّ الاعتراف كلّ الخيرات التي كان قد خسرها عمدًا بالخطيّة - انَّ شريعة اهل رومية القدماء كانت تحكم على العذراء التي تُوخذ في حال الزنا من العذارى المخصصات لهياكل الاوثان بان تُدفن وهي حيّة مع كلّ ملابسها وحليها - فكم بالحري يجب ان يُحكم كذلك على النفس المومنة الخاطئة الخائنة الباغية على ختنها الالهيّ. ومع هذا فانهُ برحمة وجودة لا توصف يردّ نفس الزانية الى مقامها الاوّل وكلّ ما كان لها سابقًا. اعني جواهر فضائلها وافعالها الصالحة المفقودة بالخطيّة *

اعتبروا هنا انَّ النفس تخسر بالخطيّة ثلاثة انواع من الخيرات وهي الحيوة والكرامة والغنى - فتخسر اوّلًا الحيوة. لانّها تخسر الله الذي كما قال القدّيس اوغسطينس هو حياة النفس. اكثر ممّا النفس هي حياة الجسد. وقد قيل في الكتاب المقدَّس انَّ الله هو حياتنا (تثنية ٣٠ : ٢٠) - ثانيًا تخسر النفس بالخطيّة الكرامة. لانَّ الخاطئ الذي كقول بطرس الرسول كان قبل فعل الخطيّة شريكًا للطبع الالهيّ يصبح بالخطيّة احقر من البهيمة. لانهُ هكذا قال صاحب المزامير: الانسان في كرامةٍ لا يبيت. بل تشبّه بالبهائم العجماء (مزمور ٤٨ : ١٢) - ثالثًا تخسر كلّ الغنى. اعني كلّ افعالها الصالحة - فاذا ثبت ذلك فاعلموا ان سرّ الاعتراف يرمّ بوفور جزيل كلّ هذه الخسائر. لانهُ يردّ الحيوة. وقد يسوغ ان نقول عمّن اعترف اعترافًا جيّدًا ما قيل عن الابن الشاطر. انهُ كان ميتًا فعاش (لوقا ١٥ : ٢٤) - ثمَّ انهُ يردّ الكرامة. لانهُ يجعلهُ ان يزهر مثل السوسن - لقد علمتم يا مباركين انّ السوسن هو رمز العفّة والبتوليّة. والحال انَّ النفس التائبة ولو انها لم تكن قبلًا سوسنةً حقًّا. الّا انها بالتوبة تزهو وتزهر مثل السوسن لانَّ ما بين بياض البرّ وبياض الندامة الفرق يسير - ثمّ انَّ سرّ الاعتراف يردّ

الغنى كما قال النبيّ : يجدّد ايّامنا كما في القديم (مراثي ٥ : ٢١) *

والآن اما يكفيكم كلّ ما شرحناهُ الى الآن ليتّضح كم من المعروف والاحسان صنع معنا السيّد المسيح في سرّ الاعتراف . ولكن عندنا اكثر من ذلك وهو انّنا بهِ اي بسرّ الاعتراف فوق اكتسابنا ما كنّا قد خسرناهُ نكتسب ايضاً من النعمة ما يجعلنا اكثر غنى ممّا كنّا قبلاً – فكما انَّ العبرانيّين خرجوا اغنياء من مصر اكثر ممّا كانوا عند دخولهم ايّاها . هكذا الخاطئ يحصل بالاعتراف الجيّد على نعمة اوفر ممّا كان قبل سقوطهِ في الخطيّة *

فان تاملّتم في هذا يا مباركين تاملاً حسناً فلا جرم انّكم تعترفون مع اشعياء النبي قائلين : انَّ الله هو كثير الغفران (اشعيا ٥٥ : ٧) – فيا لعمى قلب المومنين الذين من هذا السرّ السعيد يتّخذون سبباً لهلاكهم بقولهم : ليس عليّ ضرر اذا اخطأتُ . لانّي ساعترف بعد ذلك – وهؤلاء سنردّ عليهم في موعظة مختصّة بهم . وامّا اليوم فنجيب آخرين وهم الذين يخطئون بسهولة مستخفّين بخطاياهم ويعتذر الواحد منهم بقولهِ : انّي ضعيف وسريع العطب طبعاً – انّهُ لو قال هذا انسان امّيّ او يهوديّ لكان لهُ وجهٌ ان يُعذَر قليلاً . لكن مثل هذا الاعتذار في فم المسيحيّ يزيد خطيّتهُ جرماً وثقلاً . وكيف يا عزيزي يمكن وانت في سرّ الاعتراف وبقيّة الاسرار التي جاد الله بها عليك لتقوية نفسك ان تستمرّ على حال الضعف المهلك – حقّاً انّهُ ليس شيء يخيفني في جماعة المومنين اكثر من مشاهدتي كثرة ارتدادهم الى الخطيّة مع الاستمرار على الاعتراف . فلا بدّ من احد هذين الامرين . امّا انّهم لا يعترفون حسناً . فلا ينالون النعمة المقوّية المتعلّقة بهذا السرّ . وامّا انّهم ينالونها ولا يهمّهم فقدها وبهذا يصبحون اكثر ذنباً – اجاركم الله من ذلك يا مباركين . بل استعملوا كما يجب هذا الدواء المقدَّم لكم من السيّد المسيح بكثرة محبّتهِ . واجتنوا منهُ اثمار الخلاص الابديّ آمين *

الموعظة التاسعة والخمسون

في عظم شرّ من يخفي الخطية متعمّدًا في الاعتراف

انّهُ في صمت الخاطئ الذي في حين اعترافهِ يخفي خطيّة مميتة فرطت منهُ . توجد خلّتان خبيثتان . احداهما الضرر الواصل لمجد الله . والاخرى الضرر الحاصل للخاطئ نفسهِ — فلنبتدئنَّ بشرح القضيّة الاولى . فنقول : اعلموا يا مباركين انَّ الله يجتني من اعتراف الخاطئ المتّضع مجدًا عظيماً حتّى انّ هاتين اللفظتين وهما الاعتراف ومجد الله . يُستعملان في الكتب المقدَّسة على معنى واحد . ومن ثمَّ فلمّا طلب الفرّيسيّون من الاعمى المولود ان يعترف بالحقّ ويقول من هو الذي ابرأهُ قالوا لهُ : اعطِ مجدًا لله (يوحنّا ٩ : ٢٤) — وقال ارمياء النبيّ : اعطوا الربّ الهكم مجدًا قبلما ينتشر الظلام (ارميا ١٣ : ١٦) — وقال يشوع بن نون لعاخان : يا ولدي اعطِ الآن المجد للربّ الاه اسرائيل واعترف لهُ واخبرني بما صنعت . لا تكتمني (يشوع ٧ : ١٩) — وعلى ايّ شيء يتوقّف المجد الواصل لله من قِبَل اعتراف الانسان بخطاياهُ : انّهُ يتوقّف اوّلاً على ما بهِ الله يمجّد نفسهُ حينما يغفر الخطايا مهما كانت عظيمة . ثانيًا يتوقّف على ما يحصل من الاكرام لله من قبل الخاطئ حينما يعترف بخطيّتهِ — قال الانبا هوغون انّ اعتراف الانسان بخطيّتهِ يوتي فضلاً للخاطئ الذي برئ منها ومجدًا لله الذي يغفرها *

انّني اريد ان اوضح لمحبّتكم ما قلتهُ ايضاحًا جليًّا فاقول . اوّلاً انَّ اعتراف الانسان بخطيّتهِ يوتي فضلاً لمن هو بريّ منها . وذلك على الوجه الآتي شرحهُ — فلنفترضنَّ انَّ ابن ملك مقتدر تُهم عند ابيهِ كذبًا بانّهُ خان خيانةً

عظيمة وخرّب المملكة وسلّم البلاد للاعداء . وانهُ اي هذا الابن عُوقب بحكم ابيهِ لاجل هذه التهمة : انَّ الواسطة التي بها يمكن ان يُرَدّ الى الابن شرفهُ المختلس ظلمًا هي هذه وهي ان يتقدَّم الذي تهمهُ جورًا الى الملك ويجثو عند قدميهِ بقلبٍ ذليل قائلاً : انا هو الذي خنتُ عزّتك وبمكر وخبث سلّمتُ بلادك لاعدائك . وبقلبٍ مكسور اطلب من حنوّك المغفرة والصفح عن اثمي هذا الذي لا يستحقّ العفو - هذا الحال هو حالنا نحن البشر لانّ السيّد المسيح ابن الله اتى الى العالم وتُهم كذبًا كانّهُ اختلس مجد ابيهِ وعُوقب جهارًا امام جمٍّ غفير كانّهُ رجل اثيم . مع انهُ هو البرّ والقداسة بعينها - فاذا تقدّم من هو اثيم حقًّا اعني الرجل الخاطئ وجثا عند قدمي الكاهن نائب الله واعترف باثمهِ قائلاً مع النبيّ والملك داود : انا الذي اخطأتُ واسأتُ فلتكن يدك عليَّ (٢ صموئيل ٢٤ : ١٧) - فمثل هذا الاعتراف يمجّد سيّدنا يسوع المسيح ويمجّد اباهُ ايضًا باظهارهِ برّ ابنهِ الوحيد - وهذا هو السبب الذي من اجلهِ تفرح الملائكة فرحًا عظيمًا حينما يتوب الانسان الخاطئ . لانهُ ولو انهّم يفرحون كثيرًا بخلاص نفسهِ . الاّ انهّم يفرحون اكثر من ذلك بكثير لانهُ يظهر برّ السيّد المسيح بتوبة الانسان الخاطئ - انهُ كما في الميزان بمقدار ما تنزل الكفّة الواحدة ترتفع الكفّة الاخرى . كذلك بمقدار ما يتواضع الخاطئ في سرّ الاعتراف تسمو كرامة السيّد المسيح علوًّا - وهذا هو الذي سرَّ الله بهِ لمّا اعترف اللصّ التائب بخطاياهُ . وليس بخطاياهُ فقط . بل ببرّ يسوع ايضًا قائلاً : امّا نحن فبعدل لاننّا جوزينا باستحقاق ما صنعناهُ . وامّا هذا فلم يصنع شيئًا رديًا (لوقا ٢٣ : ٤١) - نعم يا مباركين انَّ الله يتمجّد بكم كلّما اعترفتم بخطاياكم - الاّ انّ هذا المجد ولو كان عظيمًا فانهُ كلا شيء بالنسبة الى المجد الواصل لله بغفرانهِ للخاطئ في حين الاعتراف . لانهُ تعالى في كلّ ما يفعلهُ خارجًا عن ذاتهِ لا يصنع شيئًا افضل مجدًا من غفرانهِ للخاطئ وردهِ الى حال نعمتهِ - والسبب هو انَّ المجد الواصل لهُ من منح هذه المغفرة

هو مجد انتصارهِ. وهذا ما لا يوجد في بقيّة اعمالهِ الخارجة مهما كانت عجيبة *

وان اردتم ان اوضح لمحبّتكم هذه الحقيقة بالضبط وابيّن كيف تتّضح عظمة الاحسان الالهيّ في سرّ الاعتراف. فاعلموا يا مباركين انّ كلّ افعال الله الخارجة تصدر امّا من قدرتهِ. وامّا من رحمتهِ او عدلهِ - لانّهُ اذا ما نظرنا الى افعال الله في ذاتها مطلقًا فانّها تصدر من القدرة. ولكن اذا أعتبرناها نظرًا الينا. فانّها تصدر تارةً من الرحمة. وتارةً من العدل. فتكون هذه الافعال صادرة من الرحمة اذا فعلها الله مجّانًا. وتكون صادرة من العدل اذا فعلها الله لاجل الاستحقاق - والآن فانّي اقول: انّهُ لا يمكن ان تُدعى يد الله غالبة بحجّة افضل وحقّ أجلى ممّا حينما يغفر للخاطئ - وها انّي اريكم ذلك في القدرة الضابطة الكلّ. فاقول: انّهُ لو خلق الله من العوالم عددًا مساويًا لعدد النجوم والكواكب المخلوقة. لما كان هذا العمل العظيم غلبةً. وذلك لانّ العدم الذي منهُ يخرج الله العوالم لا يقاوم الارادة الالهيّة. فلا يجوز ان يقال عن العدم انّهُ مغلوب - وعلى هذا الاسلوب لو حشرت رحمة الله في مركب من نار كلّ نفوس الابرار الذين على الارض والذين في المطهر ونقلتهم هكذا الى السمآء. لكان هذا عملاً عجيبًا. لكن لا يسمّى ذلك غلبةً لانّ النعمة الحاصلة عليها نفوس الابرار لا تقاوم المجد الابديّ بل انّها هي الاستعداد الاخير لاكتسابهِ - ولو زجّ العدل الالهيّ كلّ الخطاة معًا في النار المؤبّدة كما سيفعل في انقضآء العالم. لم يكن هذا العمل الذي بهِ يبيد الله اعداءهُ غلبة لانّ الخطاة لا يقدرون ان يقاوموا الله من جهة عقابهم. اذ انّهم هم كورقة منثورة او كالهشيم اليابس (ايوب ١٣: ٢٥) ما عدا انّهُ بهذا العقاب لا يُغلب العدوّ الخاصّ والاقوى وهو الخطيّة. بل يزداد قوّةً. والخطاة انفسهم الذين هم المقهورون يزدادون تمرّدًا. ومن ثمّ فليسوا بمغلوبين لانّ الذي هو الافضل فيهم اي ارادتهم المتمرّدة ليست هي بمغلوبة - انظروا الآن من الجهة الاخرى. كيف انّ الله يغلب في الاعتراف

غلبة جليلة. وذلك انّ القدرة الالهيّة تنتصر اوّلاً على مقاومة اختيار الخاطئ لا كأنّ الله يضطرّهُ. حاشا وكلّا. بل لانّهُ تعالى يصيّرهُ ان يريد ما كان لا يريدهُ قبلاً. وفي هذا قال القدّيس برُسْبِر لا يغتصب الله الانسان ولا يضطرّهُ بل من كونهِ غير راضٍ يصيّرهُ راضياً. وبانواع كثيرة يميل قلبهُ المدافع - فهذا حقًّا هو انتصار عظيم بهِ يظهر الله جلال ربوبيّتهِ. ولا يدخل من الباب اغتصاباً بكسر الباب بل بحكمة ولطافة - وهكذا تنتصر ايضاً الرحمة الالهيّة انتصاراً عظيماً بتوبة الخاطئ اذ بها يبيد الله اعظم الشرور وهو الخطيّة - وكذلك ينتصر العدل الالهيّ ايضاً انتصاراً كاملاً اذ يقهر الخاطئين. وهذا ما كان يطلبهُ صاحب المزامير بكلّ رغبة قلبهِ قائلاً: ليُبَد الخطاة من الارض والاثمة لا يوجدوا بعد (مزمور ١٠٣: ٣٥) - قال القدّيس باسيليوس في تفسيرهِ هذه الآية: انّ النبيّ لا يطلب ان يموت الخطاة او يهلكوا بل انّما يطلب ان يتوبوا - فصاحب المزامير لا يطلب للخطاة ان يبيدهم الغضب من الارض. بل يسأل الله ان يبيد خطيّتهم. حتّى يكفّوا ان يكونوا خطاة - ولعمري انّ ارادة الخاطئ في جهنّم مهما قُهرت فليست بخاضعة. وامّا في سرّ الاعتراف فانّها تخضع - فاذاً مجّد الله ايّها المومن واعترف انّهُ حينما يدخل الخاطئ الى الكنيسة لكي يعترف ويتقدّم الى القسّيس ويركع امامهُ ويطلق لسانهُ ويقول اخطأتُ. يسوغ لنا ان نقول انَّ الله يخرج حينئذٍ للانتصار كقول صاحب الجليان: خرج الغالب ليغلب (رويا ٦: ٢) - فاذاً ما اعظم شرّ الخاطئ الاصمّ في الاعتراف. لانّهُ يسلب من الله هذا المجد العظيم. ويخيّب رغبة القادر على كلّ شيء الراغب الظفر بهِ *

وبعد ان علمتم ذلك. تأمّلوا الآن في جسامة الضرر الحاصل للانسان من كتمهِ خطيّتهُ في سرّ الاعتراف - اعتبروا يا مباركين انَّ الانسان الاثيم من عادتهِ ان يشتهي على الخصوص هذه الاشياء الثلاثة. فيشتهي اوّلاً اذا حكم

عليهِ بمحكمة ان تنقَل دعواهُ الى محكمة اخرى. وثانيًا يشتهي ان يكون الحاكم معهُ حليمًا رؤوفًا. ويشتهي ثالثًا ان يحكم عليهِ حكمًا موافقًا – والحال انَّ الذي يخفي خطيئتهُ متعمّدًا في سرّ الاعتراف. فانهُ يخسر هذه كلّها. لانهُ اوّلًا ليس لهُ سبيل ان ينقل دعواهُ من محكمة عدل الله الى محكمة رحمتهِ تعالى. على انَّ من يعترف جيّدًا بخطاياهُ. فانهُ بلسان الحال ينقل دعواهُ من محكمة عدل الله التي فيها حُتم عليهِ بالعذاب الابديّ الى محكمة رحمتهِ تعالى. وهذه المحكمة يمكننا ان نستجير بها دائمًا في زمن حياتنا هذه كلّها – انّهُ لمّا اخطأ بنو اسرائيل بسجودهم للاوثان غضب عليهم العدل الالهيّ وسلّمهم الى أيدي اعدائهم. وقال انّي لا اعود اخلّصكم فيما بعد. اذهبوا وادعوا الآلهة التي اخترتموها – غير انَّ الاسرائيليّين انتبهوا على اثمهم فنقلوا دعواهم الى محكمة الرحمة الالهيّة قائلين: اخطأنا يا ربّ فافعل بنا ما ترى. لاننّا نطلب منك شيئًا واحدًا وهو ان تخلّصنا. ومع قولهم هذا طرحوا كلّ اوثانهم. وحينئذٍ قُبلت دعواهم في محكمة الرحمة الالهيّة. وبطلت حكومة العدل الالهيّ. وتحنّن الله على شقائهم وخلّصهم (قضاة ١٠: ١٢و١٤) – فهذا ما يصير كلّ يوم في سرّ الاعتراف. لانّ المسيحيّين مع انهم شعب الله المختار يتركونهُ تعالى عندما يخطئون. ويتعبّدون لاوثان الشهوات القبيحة. وفي الحال يحكم عليهم العدل الالهيّ بعقاب ابديّ قائلًا: لا يعود الله يرحمكم فيما بعد – ولكنّ الخطاة المساكين المنتبهون على هذا الصوت المخوف ينقلون دعواهم الى محكمة الرحمة الالهيّة باعترافهم باثمهم. ويقبلون ما يريد الله ان يعاقبهم بهِ بواسطة الكاهن قائلين مع الاسرائيليّين: اخطأنا فافعل بنا ما ترى. ويظهرون انَّ الشيء الذي يرغبونهُ فوق كلّ شيء هو الخلاص من خطيئتهم بقولهم مع الشعب الاسرائيليّ. اننّا نطلب منك يا ربّ شيئًا واحدًا وهو ان تخلّصنا. ويرذلون كلّ اوثانهم ويبعدونها برذلهم كلّ ما كان يربّي فيهم الخطيّة. وحينئذ تحكم الرحمة الالهيّة وتبطل حكم العدل الالهيّ. وتطلق الخاطئ سالمًا من العقاب الابديّ – فيا طوبى لمن يقدر

ان يهرب من يدي الاه غضبان مستعدّ لاخذ الانتقام ويفرّ الى آلهٍ حنون رؤوف مستعد لنجاته من الهلاك الابديّ - فهذه هي السعادة التي يخسرها الخاطئ اختيارًا كلّ مرّة يكتم خطيئتهُ في سرّ الاعتراف *

واما الشيء الثاني الذي يتمنّاهُ الانسان المجرم فهو ان تكون دعواهُ في يد حاكم حليم رأوف - والحال انّ الله العتيد ان يحكم على خطايانا في حينهِ . ولو كان ذا حنوٍّ ورحمة . كما قال الرسول الالهيّ انهُ مخوف الوقوع بين يدي الله الحيّ (عبرانيّة ١٠ : ٣١) - الّا انّهُ بواسطة الاعتراف يتبدّل هذا الحاكم اذ انّهُ بدلاً منهُ يجلس على منبر الحاكم انسان لا يريد ان يضرّ ولو اراد فانهُ لا يقدر على ذلك - امّا انهُ لا يريد ان يضرّنا فلانّهُ هو انسان ايضًا وانسان خاطئٌ ملتزم هو ايضًا ان يحضر كرجل مذنب في محكمة التوبة . وضعفهُ الذي ربّما ورّطهُ احيانًا في زلّات اكبر من زلّاتنا يصيّرهُ رؤوفًا شفوقًا علينا - واما انّهُ لا يقدر ولو اراد ان يسيء الينا . فلانّهُ ضعيف واهن . فلماذا نخاف ممّا يصنع بنا الانسان (مزمور ٥٥ : ١١) - قد تسلّم من الله سلطانًا علينا . الّا انّ كلّ سلطانهِ الذي تسلّمهُ من الله علينا انّما تسلّمهُ كما قال الرسول للبنيان لا للهدم (٢ قورنثية ١٣ : ١٠) *

انظروا الآن كم يضرّ الخاطئ الاصمّ نفسهُ في الاعتراف اذ يخفي خطيّتهُ : انّهُ يحتقر الحاكم الذي يلتزم بملاطفة المذنب وان يعاملهُ بالرحمة والشفقة . وبدلاً منهُ يختار حاكمًا قاسيًا ذاك الذي لمّا كان ايّوب البارّ مرّةً يتأمّل في صرامة عدلهِ كان يرتجف فرقًا ويهتف قائلاً : البوار من الله رعب عليّ . وجلالهُ لم استطع ان احمل (ايوب ٣١ : ٢٣) *

ثالثًا انّ الشيء الذي يتمنّاهُ الانسان المذنب في دعواهُ هو ان يصدر الحاكم عليهِ بالخلاص من كلّ عقاب . او اقلّما يكون بتخفيفهِ . وهذا يجري في سرّ الاعتراف . لانّهُ بهِ اوّلاً يتبرّر الخاطئ من خطيّتهِ . ثمّ ينجو من العقاب

الابديّ . وينقص اكثر العقاب الزمنيّ الذي يستوجبهُ - فما هذا الطغيان الشيطانيّ الذي يسدّ فم الخاطئ في سرّ الاعتراف ويستمرّ متعمّدًا في هذا الحال الذي يوشك عليهِ ان يتّصل الى ما يسوقهُ الى موت حزين . لانهُ كما قال احد الفضلاَء من كتم الخطيّة يتولّد عناد قلب مهلك . لانَّ الاستمرار على هذه الحالة زمانًا مستطيلاً يبرقع العقل ويصيّرهُ ان لا يشعر بدآئهِ - قالت الاطبّآء : انَّ الصوم المفرط يضعف النظر . وهذا ما يتّفق لمن يعتاد كتم خطيّتهِ في الاعتراف . لانّ طول رقادهِ في خطيّتهِ يضعّف نظرهُ العقليّ ويجعلهُ كانسان اعمى نظرًا الى الامور الخلاصيّة - وهذا العمى الروحيّ يقترن بصلابة القلب *

ذكر القدّيس انطونينس انَّ امرأة ارملة ذات حسب ونسب متّصفة بأخلاق حميدة سقطت يومًا في خطيّة قبيحة . ثمّ بعد ذلك استحوذ عليها خجل عظيم حتّى انّها ما جسرت ان تعترف بها اصلاً . واذ كان ضميرها يبكّتها دائمًا على خطيّتها . ظنّت انهُ يمكنها ان تمحو اثمها بممارسة اصعب افعال التقشّف - فشرعت تصوم وتسهر وتؤلّم جسدها بانواع مختلفة . بل انّها هجرت العالم وترهّبت . وعاشت عيشة قشفة جدًّا . حافظة كلّ القوانين بالتدقيق . حتّى انها بعد مدّة من السنين أُقيمت رئيسة على الراهبات . ومع هذه الافعال كلّها لم تنتصر على حيائها الذميم . بل انّها استمرّت كاتمة خطيّتها الى ان مرضت مرضها الاخير وماتت . وظنّت الراهبات انها ماتت موتًا مقدّسًا . وانَّ الله سيظهر قداستها بعجائب - نعم حقًّا حدث بعد موتها العجوبة . الاّ انها مختلفة جدًّا عن التي كنَّ ينتظرنها . وذلك انّ هذه الراهبة الشقيّة ظهرت لاحدى الراهبات التي كانت صاحبتها على الخصوص وهي متمنطقة بزنّار من نار وقالت لها : انا هي رئيستكنَّ المحكوم عليّ بالخلود في جهنّم . لانّي كنتُ قد سقطتُ في خطيّة نجسة قبل دخولي الرهبانيّة . وما اردتُ ان اعترف بها ابدًا . فالقينَ جثّتي في بلوعة . قالت هذا وفي الحين اضمحلّت - انظروا الآن يا مباركين حال من يستمرّ على كتم خطيّتهِ

في سرّ الاعتراف. كيف يظلم عقلهُ ويتصلّب قلبهُ *

واذ قد بينّا الى الآن جسامة الدآء وعظمة خطرهِ. فيجب علينا ان نقدّم الدوآء لشفائهِ - فاعتبروا اوّلاً يا مباركين بالاسباب القريبة المتولّد منها هذا الصمت الممقوت من الله والمضرّ بالانسان ضررًا مهلكًا - فالسبب الاوّل هو الحيآء المتسلّط على الخاطئ في حين الاعتراف. والسبب الثاني هو صعوبة انتصار الانسان على نفسهِ - امّا الحيآء والخجل فهو متعلّق طبعًا بالخطية - ذكر الكتاب المقدَّس انّ الخطيّة الاولى اعني خطيّة آدم. كان مفعولها الاوّل الحيآء. لانّهُ اعني آدم بعد فعل المعصية اختفى حالاً. الّا انّهُ ينبغي ان نميّز نوعين من الحيآء. احدهما يداخل الاعتراف ويزيدهُ فضلاً. وثانيهما يشوب الاعتراف ويفسدهُ - قال الحكيم: من الخزي ما يعمل الخطيّة. ومن الخزي ما يحصل منهُ المجد والنعمة (سيراخ ٤ : ٢٥) - وهذا عينهُ يحدث في الجوّ. لانّهُ تارةً يحمرّ مساءً. الّا انّ هذا الاحمرار تعقبهُ ضبابات مقتمة. وتارةً يحمرّ باكرًا. الّا انهُ بعد ذلك يزداد النهار نورًا وبهجةً - وانّ الله قد علّق الخجل بالخطيّة. الّا انّ هذا الخجل جيّد ومفيد جدًّا. لانهُ هو كزمام من شانهِ ان يضبطنا ويصدّنا عن الخطيّة ويقيمنا منها بعد فعلها - غير انّ الخاطئ قد قلب هذا الترتيب الالهيّ. لانهُ قبل فعل الخطيّة يلقي عنهُ لجام الحيآء لكي يخطئ من دون رادع ولا مانع. وبعد فعلهِ الاثم يجعل الحيآء فخًا لنفسهِ لئلّا يعود الى طريق الخلاص - ما هذه الغباوة (يقول القدّيس اوغسطينس) عدم استحياء الانسان من جرحهِ القبيح. وحياؤهُ من ختم الجرح ومداواتهِ *

فاعلموا يا مباركين انّ فعل الخطيّة هو الشيء الذي يجب ان نخجل منهُ لا الاعتراف بها - وفي هذا قد ذكر احد المؤرّخين انّ شابًا من الشبّان كان تلميذًا لسقراط الفيلسوف. فدخل يومًا بيت امرأة زانية. واذ عند دخولهِ هذا المنزل الفظيع رأى معلّمهُ مطلّعًا عليهِ. اختفى في اقصى مخدع من هذا البيت

الدنس. فوقف سقراط على الباب وصرخ قائلاً لتلميذهِ: اخرج من هاهنا يا ابني. لانَّ الخروج من هذا البيت ليس امرًا فظيعاً. بل انما الدخول فيهِ كان يجب عليك ان تخجل منهُ — فمثل هذا اقول انا ايضاً لهؤلآء الخطاة الجبانين: انَّ الخروج من حال الخطيّة ليس هو بشيءٍ يُستحيا منهُ. بل انَّ ارتكابها هو ما يلزمكم ان تخجلوا منهُ — قال القدّيس قبريانس انَّ اعتراف الخاطئ بخطيّتهِ يصيّر الخجل مكرَّمًا — وسبب ذلك هو انهُ مهما كانت الخطيّة امرًا بشعاً. الاَّ انَّ بشاعتها تُمحى بالتوبة كلَّ المحو حتّى انّها تضمحلّ وتزول ولا يبقى منها ادنى اثر. بل يبقى ما يجدي مجدًا — ولهذا قال صاحب المزامير: طوبى للذين سُترت خطاياهم (مزمور ٣١: ١) — وما هو هذا الغطآء الذي يستر الخطيّة: انهُ هو اوّلاً دم السيّد المسيح الزكيّ. ثانياً افعال توبة الخاطئ — وهل يليق ان نخجل من جرح تداوى بدم يسوع المسيح — ذكر المؤرّخون انَّ الاسكندر الملك لمّا ابصر احد جنده اسمهُ لُسِيمَخُس مجروحاً في راسهِ. نزع عن تاجهِ منديلاً ملوكيًّا وبهِ عصب جرحهُ. فبعد انَّ الملك فعل ذلك هل عاد يمكن ان يشمأزّ طبيب من مداواة هذا الجرح الذي تشرّف هكذا بيد الملك — فماذا نقول عن الكهنة الذين يتكرّهون من مداواة جروح الخطاة المساكين: انَّ الذين هم على هذا الحال نحكم عنهم باليقين انهم لا يذكرون ما فعلهُ سيّد العالمين لاجل مداواة جروحهم اذ قدَّم لهم دمهُ دوآءً شافياً *

وما عدا هذا فانَّ الافعال التي يفعلها الخاطئ عند توبتهِ من شانها ان تجعل المعترف مكرّمًا عند معلّم اعترافهِ. وايّ شيءٍ هو من ذاتهِ سبب الخجل: انّنا جميعًا خطاة يقول القدّيس امبروسيوس. فالذي هو اكثر تواضعاً هو افضل مجدًا. ومن يكون عند ذاتهِ اوفر احتقارًا. فانّهُ هو اوفر برًّا *

الاّ انَّ هذه الاعتبارات الحقيقيّة لا تؤثّر في الاكثرين لانّهم لا يفهمونها جيّدًا. فنقول الآن: انهُ ان كان يوجد حيآء وخجل في اعتراف الانسان بخطيّتهِ

فأعظم الخزي هو في كتمهِ اياها – قال القدّيس اوغسطينس . انهُ خيرٌ لك ان تخجل يسيرًا امام رجل واحد من ان تخزى في يوم الدينونة امام الوف وربوات من الناس – تأمّل ايها المومن . ماذا يكون حال من يظهر الله جروح آثامهِ القبيحة امام الجميع . لا لكي يداويها . بل لكي يهلكهُ من اجلها . فحينئذٍ يبصر الصدّيقون ويخافون ويضحكون عليهِ ويقولون : هذا هو الرجل الذي لم يجعل الله معاذهُ (مزمور ٥١ : ٨) . قد خاف من ان يشملهُ خجل وقتي . وها انهُ لاجل ذلك ادركهُ الخزي الابديّ – قال ترتليانس : تبًّا لقوم يهمّهم الحياء اكثر من الخلاص – هل حالك حال انسان لا تعرفهُ الناس . بل هل يمكن ان يوجد حال احسن من حال انسان بعد انهُ قد حُكم عليهِ بالهلاك يحَلّ من ذنوبهِ جهارًا *

تذكّروا يا ايّها المومنون كلام ايّوب البارّ حيث قال عن الخاطئ : تشكو السمآء خطاياهُ . والارض تثب عليهِ (ايوب ٢٠ : ٢٧) – فلا يصدّكم الحياء كما قال الحكيم عن الاقرار بخطاياكم كلّها . لانّهُ قد قال المجمع التريدنتي المقدّس : انَّ الذين في الاعتراف السرّيّ يكتمون شيئًا من خطاياهم تعمّدًا . لا ينالون مغفرة بقيّة الخطايا التي يعترفون بها *

وامّا الصعوبة الاخرى التي تصيّر الخاطئ اصمّ في سرّ الاعتراف . فهي خوفهُ من القانون الذي يفرضهُ عليهِ الكاهن او من توبيخ الكاهن لهُ – وعن ذلك اقول : انَّ هذا الخوف هو خوف باطل كخوف جواسيس ارض الميعاد الذين قالوا عن هذه الارض السعيدة التي تفيض لبنًا وعسلاً . انها ارض تاكل سكّانها (عدد ١٣ : ٣٣) . لانَّ الخوف المفرط كان يصوّر في عقولهم صعوبات كاذبة – فهذه هي حال الذين يستصعبون الاعتراف بخطاياهم . لانّهُ من جهة توبيخات الكاهن لا بدّ من ان يعلموا ما قالهُ المعلّمون : وهو انّهُ يجب عليهِ ان لا يوبخ تلميذهُ الّا بعد فروغهِ من الاعتراف ولاسيّما التلميذ الذي استحوذ عليهِ الخجل *

لكن هب انَّ توبيخ الكاهن اياك يكون شديدًا . والقانون الذي يفرضهُ عليك صعبًا . فقابل هذه الصعوبة مع الصعوبة التي تشعر بها الآن عند كتمك خطيئتك في الاعتراف ومع الصعوبة التي ستشعر بها فيما بعد – امَّا الصعوبة الاولى فانَّ عقاب من يكتم جريمتهُ في الاعتراف هو نصف العقاب الجهنّميّ . قال الربّ ليس سلام المنافقين (اشعيا ٤٨ : ٢٢) . بل انَّ قلبهُ اي قلب الخاطئ المنافق الذي يكتم خطيئتهُ هو كبحر متموّج لا يقدر ان يهدأ – ليتكم تنظرون حال هذه الفتاة التي عرقلها الشيطان في شبكتهِ واسقطها في حفرة الدنس . وبعد ذلك تستحي ان تعترف بزلّتها . فانّها لا تجد راحةً البتّة . لانّ خطيّتها لا تبرح منتصبة امام عينيها ليلاً ونهارًا حتى في حين اللهو والتنزّه *

ولكن اريد ان اوضح جليًّا عظم جهل الخطاة الذين يصيرون صمًّا في الاعتراف . فأسألهم قائلاً : امّا انّكم حينما اخطأتم قد نويتم ان تعترفوا بخطيّتكم وامّا انكم عزمتم على كتمها في الاعتراف – فان كان الاوّل فلماذا لا تفعلون الآن ذلك اي لماذا لا تعترفون بخطيّتكم وانتم ملتزمون بذلك وقادرون عليهِ . انكم باستمراركم هذا على كتم خطيّتكم تزيدون على خطاياكم خطيّة النفاق . ومن ثمّ سيزداد عليكم الخجل حينما تعترفون . – ما الذي استفادهُ يونان النبيّ اذ تأخّر في العمل بما أمرهُ الله وهو ان يذهب حالاً وينذر اهل نينوى . فانّهُ بعدما كابد مشقّات جزيلة بسفرهِ في البحر حيث كاد يموت . اضطرّ اخيرًا ان ينجز ما كان يأبى ان يفعلهُ – فهذا ما يحدث لكم ان اخّرتم الاقرار بخطاياكم . فانّكم لا تزالون قلقين معذّبين مشرفين على خطر الهلاك الابدي . وان كان الله يحفظ حياتكم تضطرّون اخيرًا ان تفعلوا ما هربتم منهُ – وامّا ان كنتم قد عزمتم على كتم خطاياكم دائمًا . فاعلموا (يقول القدّيس اوغسطينس) انكم ستدانون لاجل سكوتكم . انتم الذين كان يمكنكم ان تنالوا الخلاص بنطقكم – نعم انّكم ستهلكون هلاكًا ابديًّا لا محالة . وفي شدّة عذاب النيران الجهنميّة يلزمكم الله

بالاعتراف بخطاياكم - هذه هي عاقبة امركم. وصمتكم هذا يزجكم في لجّة العقوبات الابديّة. لانهُ لا بدّ من احد هاذين الامرين. امّا ان تعترفوا. وامّا ان تهلكوا - يقول معلّم الاطبّاء: من لهُ دملة باطنة ولا يتقيّا مستفرغًا القيح. اعدّوا لهُ الكفن والقبر - فها انّكم معترون بدمامل خفيّة في بواطنكم. وهي خطاياكم. فان لم تستفرغوها بالاعتراف يكون حظّكم الموت الابديّ *

فيا لهُ من صوتٍ مرهب مرعب. امّا الاعتراف وامّا الهلاك الابديّ - فمن لا ينتبه بهذا الصوت ماذا يكون نصيبهُ - راجعوا يا مباركين في عقولكم كلّ الحجج التي اوردتُها لكم. وها انا اجمعها كلّها بما نصحنا بهِ روح القدس قائلاً: لا تخزَ ان تقرّ بالحقّ لسبب نفسك (سيراخ ٤: ٢٤) - فان كان لا يؤثّر فيكم الضرر الحاصل لمجد الله من قِبَل كتمكم هذا الملعون. فليؤثّر فيكم على الاقلّ الضرر الحاصل لانفسكم التي تخسّرونها الآن المغفرة وتجلبون عليها فيما بعد هلاكًا لا نهاية لهُ - لا انكر انّ الانتصار على ذواتكم هو صعب واعترافكم عند الكاهن مرّ. لكن افتكروا انّكم تفعلون هذا لاجل خلاص النفس - تذكّروا انّ الله رسم مرارة هذا الخجل لمنفعتكم كدواءٍ شافٍ خلاصيّ - قال الحكيم: انّ الربّ خلق الادوية من الارض. والرجل العاقل لا يستهين بها (سيراخ ٣٨: ٤) - وما هو الذي يامركم الله بهِ: انّهُ تعالى يطلب منكم ان تقرّوا بالحقّ. هل يليق بالذي ما استحى من فعل الاثم ان يخجل من الاعتراف بهِ - قال القدّيس امبروسيوس: يا هذا انّك حينما صرت خاطئًا لم تكن تخجل. والآن اذ تبتدئ ان تصير بارًّا تخجل. فلا تخزَ ان تقرّ بالحقّ لسبب نفسك *

اننا نرى قومًا من هؤلاءِ الخطاة الاغبياءِ يقرّون بالحقّ اي بخطيّتهم. الّا انّهم لا يقرّون بذلك لمنفعة انفسهم. لانّهم يكشفونها لصاحب من اصحابهم ويخفونها عن الكاهن. واذا اتّفق ان يكشفوها للكاهن. فانّهم يطلبون كاهنًا قد اشترك معهم في الخطيّة لكي يكفوا انفسهم ما كان يلمّ بهم من الخزي لو اعترفوا عند

كاهن آخر - غير ان هذا الاعتراف يشبه اعتراف يهوذا . ذاك الذي عوضاً عن ان يعترف عند معلّمهِ الالهيّ . او عند رسلهِ الذين كان سيّدنا يسوع المسيح قد رسمهم كهنة . ذهب واعترف بخطيتهِ عند كهنة اثمة منافقين كانوا قد اغروهُ بفعلها . وقال لهم : قد اخطأت بتسليمي دماً زكيّاً (متى ٢٧ : ٦) . ولهذا لم ينتفع من هذا الاعتراف - فتّشوا واطلبوا يا مباركين قسيساً ترونهُ اكثر استعداداً وقوّة لمساعدة نفوسكم اذ انّكم تعترفون لاجل ذلك - لا تستحوا من الاقرار بالحقّ. وان استولى عليكم الحياءَ . فقاوموا هذا الخوف بخوف آخر. وانتصروا عليهِ بواسطة الرجاءَ . فانكّم تظفرون بهِ اوّلاً بواسطة الخوف . اي بان تفتكروا انكّم بكتمكم خطاياكم تكبّرونها جدّاً وتزيدون عليها خطيّة النفاق - تذكّروا انّ الله في يوم دينونتكم الخصوصيّة. كما قال ناحوم النبيّ : يكشف عورة كلّ منكم في وجههِ وانّهُ في يوم الدينونة العموميّة يحلّ بكم ما تهدّد بهِ اذ قال : اظهر عورتك للشعوب وفضيحتك للممالك (ناحوم ٣ : ٥) . فاذاً الذي اريدهُ منكم قبل كلّ شيءٍ ان تفرغوا كلّ مجهودكم في ان تبغضوا الخطيّة . لانّي يسوغ لي ان اقول : انكّم اذا ندمتم ندامة حقيقيّة على خطاياكم . يزول عنكم هذا الخجل المهلك - وانا اسأل الله باحشاءَ رحمتهِ الغير المتناهية ان يجعلكم بنعمتهِ ان لا تخجلوا من الاقرار بالحقّ لاجل خلاص انفسكم . وهكذا تنالون من سرّ الاعتراف اثمار التوبة التي هي ملكوت السماءَ والخلاص الابديّ . آمين *

الموعظة الستّون

في الندامة الضروريّة في سرّ الاعتراف

انّ العلم الاكثر ضرورة في وادي الدموع هذا هو العلم بالبكاءَ . ولاثبات ذلك يكفي ان نقول : انّ الله امر الذين يعلّمون شعبهُ ان يعلّموهُ هذا العلم

بقولهِ على لسان ارمياء النبيّ: علّمن بناتكنّ الرثاية. ولتعلّم كلّ واحدة منكنّ قريبتها الندب (ارمياء ٩ : ٢٠) - قال القدّيس اوغسطينس انّ الله علّمنا ذلك بمثالهِ. لانهُ قد بكى لكي نتعلّم ان نبكي نحن ايضًا - نعم انّ العالم كلّهُ هو ممتلئ دموعًا . غير انّ اغلب الباكين يبكون على ما لا يستحقّ البكاء. فابكوا بعلم . واذرفوا دموعًا تفيد الخلاص بالحزن والندامة على خطاياكم *

فعن هذا العلم نتكلّم اليوم. فلا يشمإزّ احد من هذه المادّة. لانّها بالحقيقة طيّبة سارّة - وقد اختبر هذا مار اوغسطينس فقال: انّ بكاء التائبين احلى من ضحك محبّي اللهو العالميّ - وبحثنا اليوم سيكون عن ثلاثة اشياء الاوّل عن الحجج والاسباب التي يجب ان يصدر منها هذا الحزن والتوجّع لكي يكون مفيدًا لنيل الغفران. والثاني عن ضرورة هذا التوجّع لكي يكون الاعتراف جيّدًا. والثالث عن شروط هذا التوجّع *

انَّ النبيّ والملك داود يرينا عينَي الانسان التائب كينبوعين تسيل منهما الدموع اذ قال: جداول المياه سالت من عينيّ لانهم لم يحفظوا شريعتك (مزمور ١١٨ : ١٣٦) - فلنقتدينّ بهذه القدوة الجليلة. ونفتّشنّ على معين هذا الدموع - تعلّموا يا مباركين ما قالهُ مار توما اللاهوتي وهو. انّ كلّ توجّع قلب هو متأسّس على المحبّة. فيسوغ لنا ان نتفلسف عن التوجّع كما نتفلسف عن المحبّة. فنقول: انَّ محبّة الانسان لغرض من الاغراض نوعان. وهما محبّة الرافة التي بها نحبّ الشيء بتعطّف محسوس. ومحبّة التفضيل التي بها نحبّ الشيء باستعظام افضل ممّا في المحبّة الاولى - وكذلك توجّع القلب. منهُ ما يكون توجّع الرافة. وهذا ينبعث على الخصوص من القوّة الحاسة. ومنهُ توجّع التفضيل. وهذا يصدر على الخصوص من الارادة - امّا الاوّل فمن المحقّق انّ الله لم يامرنا بمحبّة الرافة امرًا صارمًا بقولهِ: تحبّ الربّ الاهك من كلّ قلبك (تثنية ٦ : ٥) بل انّما امرنا بمحبّة التفضيل اعني المحبّة التي تجعلنا ان نعظّم الله ونتّخذهُ خيرنا

الاعظم غاية ما يكون حتّى انّنا نفضّلهُ على كلّ خير سواهُ - وهكذا ينبغي ان يكون توجّعنا على ما اسأنا بهِ الى هذا الالَه العظيم - فتوجّع الرافة والندامة المحسوسة هي حسنة في سرّ الاعتراف مفيدة . الاّ انهّا ليست ضروريّة مطلقًا لصحّة السرّ ولنيل الغفران - فالندامة التي لا بدّ منها والتي هي ضروريّة كلّ الضرورة في سرّ التوبة هي ندامة القلب التي بها نبغض الخطيّة من حيث هي الشرّ الاعظم ونبغضها فوق بغضنا كلّ شرّ آخر غيرها - فهذه هي البغضة التي بها يتميّز الابرار من الاشرار حسبما قال صاحب المزامير: يا محبّي الربّ ابغضوا الشرّ (مزمور٩٦ : ١٠) . لا يقول احزنوا على الشرّ . ولتتوجّع احشاؤكم عليهِ . لانّ الابرار الذين في ملكوت السماء لا يقدرون ان يتوجّعوا . بل يقول: ابغضوا الشرّ وهذا ما يقدر جميع الابرار ان يفعلوهُ - فاذًا يا مباركين لا نتكلّم اليوم عن الندامة الليّنة او عن التوجّع المحسوس المستقرّ في الجزء الادنى من النفس . بل نتكلّم عن ندامة القلب اي عن التوجّع الذي يستقرّ في جزء النفس الاعلى - واذا ذكرنا الدموع والنوح والحزن فلا نعني ما يظهر على وجه الانسان . مع انّ هذه الدموع والحزن والتنهّد هي شيء يستحقّ ان نعتبرهُ ونرغبهُ جدًّا . بل انّنا نتكلّم عن التوجّع الذي هو في اقصى مخدع القلب - فاذا فهمتم ذلك فلنوردنَّ الآن الحجج الثلاث التي يمكن ان يحرّك بها المومن قلبهُ الى التوجّع والندامة على الخطيّة *

الحجّة الاولى هي طبيعيّة محضًا كتوجّع انسان حزين على انّهُ خسر اموالهُ باللعب . او كتوجّع صبيّة او امرأة لفقدها حسن صيتها وصيرورتها عارًا وسخريّة لاجل ما ظهر منها من نجاساتها - فهذه الندامة هي طبيعيّة فقط . ومن ثمَّ من يندم هكذا فانّهُ يندم مثل شاول الذي اعترف بانّهُ أَخطأَ بمخالفتهِ وصيّة سموئيل النبيّ (سموئيل ١٥ : ٢٠) وكان سبب ندامتهِ خوفهُ من ان يُخلَع من المملكة . ولهذا بعد قولهِ اخطأتُ قال: الاّ انّي ارغب اليك ان توقّرني امام

اسرائيل . أو انّهُ يندم كمثل قايين وهامان وانطيوخس ويهوذا الذين لم يندموا الاّ لاجل حجج طبيعيّة - فمثل هذه الدموع هي دموع ضعف الطبيعة التي لا تفيد شيئًا للخلاص ولا تستميح لنا من الله الغفران - غير انّي اقول شيئًا واحدًا وهو . انَّ من يندم بحجّة طبيعيّة فقط . فذلك استعداد لهُ ليندم بحجّة فائقة الطبيعة . وهو خير ممّن لا يندم البتّة بل يفتخر بالسيّئات . وهؤلآء يشبهون المرضى الذين يموتون وهم ضاحكون *

الحجّة الثانية التي لاجلها يمكن ان يندم المومن على خطيئتهِ هي حجّة فائقة الطبيعة . الاّ انها حجّة غير كاملة . ويتفّق ذلك حينما يبغض الواحد الخطيّة امّا خوفًا من العذاب المستعدّ لهُ من العدل الالهيّ ورجآء بالخيرات التي وعد الله تعالى بها الابرار . او استعظامًا لقبح الخطيّة منظورًا بأعين الايمان - وهذه الندامة تُدعَى ندامة غير كاملة . الاّ انها اذا اقترنت بالحلّة من الكاهن تكفي لمحو الخطيّة ولاكتساب نعمة التقديس وهذه الندامة هي موهبة من روح القدس . الاّ انهُ ينبغي ان تحسنوا الحذر من صخرة خفيّة في المآء بها يعثر بعض من الخطاة . فاعلموا يا ايّها المومنون انّ الفرق بين الخوف من جهنّم وبين بغض الخطيّة خوفًا من جهنّم هو عظيم . وفي هذا قال القدّيس اوغسطينس لاحد اولئك الخطاة : انك لتخاف حقًّا من ان تحترق في جهنّم الاّ انك لست تخاف من ان تخطئ : انّي أفرح بايمانك الاّ انّي اخشى من خباثتك - انظروا هذا الابن الذي وبّخهُ ابوهُ وعاقبهُ عقوبةً شديدة لاجل معاشرتهِ اهل اللعب واللهو . فهذا اذا عاد اليهم وجلس معهم ليلعب ورأى اباهُ حينئذٍ جائيًا اليهِ . فانّهُ يخاف . ولشدّة خوفهِ ينهض ويباين اللعب واصحابهُ - فهل تقولون عن هذا انّهُ يبغض اللعب واللهو . كلاّ . بل انّكم تقولون انهُ يخاف من توبيخ ابيهِ وتعزيرهِ - وهذه الحال هي حال الخطاة الكثيرين الذين يخافون حقًّا من عذاب جهنّم . الاّ انهم كما قال النبيّ لا يبغضون الاثم (مزمور ٣٥ : ٥) *

واماّ المحبّة الثالثة التي يمكن ان نندم لاجلها على الخطيّة فهي محبّة الله من حيث هو الخير الاعظم. وبهذه المحبّة نبغض الخطيّة لانّها الشرّ الاعظم – وهذه الندامة تُدعى انكسار القلب ويقال لها الندامة الكاملة. والنفس التي تندم هكذا فانّها تندم ندامةً محضةً تامّة. وقولي ندامة محضة. لانّ النفس فيها لا تلاحظ ما يخصّها ولا الضرر الحاصل لها من قِبَل الخطيّة. لكن تعتبر ما يخصّ الله فقط وما حصل من الافترآء لجودهِ الغير المتناهي من قِبَل خطيّتها – فالنفس بهذه الندامة تفعل ما تفعلهُ الابنة ذات الاخلاق الحميدة التي ان اتّفق انها ضربت امّها بيدها ضربًا شديدًا باحتداد الخلق. فانّها عند انتباهها على ما فعلت لا تبالي بانّها جُرحت بيدها التي بها ضربت امّها. بل تتوجّع على ضربة امّها فقط *

خبّرنا الكتاب المقدّس انّ عالي الكاهن لمّا قيل لهُ انّ جميع بنيهِ قُتلوا في الحرب تجلّد. الاّ انّهُ لمّا سمع انّ تابوت الله أخذهُ العدوّ. سقط حالاً من كرسيهِ ومات (١ صموئيل ٤: ١٧ و١٨) – فهكذا من يندم ندامة كاملة امّا انّهُ لا يبالي بما يحصل لهُ من الاضرار لاجل خطاياهُ. واماّ يحسب ذلك محتملاً. ولكن اهانتهُ لله هي التي تهيّج قلبهُ وتمزّقهُ وتصيّرهُ ان يعجّ مع النبيّ من شدّة تنهّدهِ وعجزهِ عن ابادة خطيّتهِ. وتامّلهُ بانّهُ لا يمكنهُ ان يجعل الخطيّة التي ارتكبها لا تكون مفعولة. يزيد توجّعهُ اشتدادًا – وجاء في الاخبار انّ رجلاً اذ كان يحزن على موت صديقهِ اخذ الناس يعزّونهُ بقولهم لهُ: لماذا تحزن على موتهِ الذي ليس لهُ علاج. أجابهم قائلاً: انّي انّما احزن لاجل هذا عينهِ. لانّهُ لو امكنني ان اقيم صديقي من الموت لما كنتُ احزن *

انّي قلت ثانيًا بانّ من يندم بهذه الندامة يندم ندامة بليغة تامّة. غير انّ قولي هذا لا يراد بهِ اشتداد الفعل لانّهُ لا يحتاج ان يكون اجتهادنا في هذه الندامة بليغًا. بل انّما اعني هذا وهو الكمال المختصّ ذاتًا بهذا الفعل. وبهِ

اي بفعل هذه الندامة نحسب كلّ شرّ من الشرور مهما كان عظيماً أصغر من شرّ الخطيّة بما لا حدّ لهُ من حيث انّ الخطيّة هي عصيان على الله واهانة لهُ - ومن يندم هكذا . فانهُ يتوب من كلّ قلبهِ ومن كلّ نفسهِ - انّ الذي يخطئ يحكم بلسان الحال انَّ هذه اللذّة وهذا المال وهذه الاغراض التي لاجلها اخطأَ هي خير اعظم ممّا هو الله . ومن ثمَّ لكي يندم ندامة كاملة ينبغي ان يعترف باطنًا بانَّ الله هو خير افضل بما لا قياس لهُ ولاحدّ من كلّ خير سواهُ . وان يكون مستعدًّا ليخسر كلّ خير آخر ويقبل كلّ شرّ آخر افضل من ان يعود يخطئ - طوبى لمن يكون قلبهُ نادمًا بهذه الندامة . لانّها كافية لمحو اعظم الخطايا واكثرها عددًا . وفوق أنّها تبيد شرورنا كلّها . فانّها تملأنا من الخيرات أيضًا - لانهُ كما انّ العبرانيّين خرجوا من بابل بغنى اوفر ممّا كان غناهم حين ذهابهم اليها . كذلك القلب النادم حقًّا يخرج من الخطيّة بمقدار من النعمة اعظم ممّا كان يمتلك منها عند سقوطهِ فيها . لانّهُ يكتسب ثانيةً كلّ الاستحقاقات التي كان قد خسرها بالخطيّة ويزيدها كمالاً بندامتهِ الكاملة - واقول بالاجمال مع الانبا هوغون انَّ الندامة الحقيقيّة تنجّينا من كلّ ما يتوعّدنا بهِ الهلاك الابديّ ويمنحنا كلّ ما يعدنا بهِ الخلاص السرمديّ - انظروا الى النيران الجهنّميّة فانّ دمعة واحدة من هذه الندامة تطفئها كلّها . لاحظوا خيرات الملكوت فانكم بهذه الندامة ترجونها كلّها بعد ان خسرتموها . ويسوغ لكم ان تقولوا انّهُ معها جاءتكم كلّ الخيرات *

فان كنت أيّها المومن تبغض الخطيّة خوفًا من العقاب او رجآء للاجر فالخطيّة حينئذٍ تدوم في قلبك ولا تُغفَر قبل ان يحلّك الكاهن - ولكن اذا أبغضتها بحركة محبّة الله محبّة حقيقيّة تامّة . فالخطيّة تبيد حالاً كما يذوب الثلج تجاه النار - قد جآء في اخبار المؤرّخين انّ احد الناس الغارقين في اقبح الخطايا دخل يومًا بنيّة التفرّج الى كنيسة وكان هناك قسّيس يكرز . فظهر

الجميع كانسانٍ موثق بسلسلة جهنّميّة وحولهُ شياطين كثيرة يبتهجون - الاّ انهُ فيما كان يسمع الوعظ انتبه على شناعة سيرتهِ وتخشّع قلبهُ بأشدّ الندامة. وكاد يتفجر من افراطها - فيا للعجوبة المذهلة العقول: انَّ الدمعة الاولى التي هطلت من عينيهِ وسقطت على السلسلة قطّعتها حالاً. وخرج من الكنيسة سالمًا معتقًا. ولم يزل الابالسة يلعنون تعليم الواعظ ودموع الخاطئ التائب - هذه هي العجائب التي تصير في قلب كلّ مومن يندم على خطاياهُ الندامة الكاملة التي في دقيقة واحدة وقبل ان يقرأ عليهِ الكاهن صلاة الحلّ تُمحى خطايا سنين كثيرة - نعم انَّ المومن مع هذا يبقى ملتزماً بالاعتراف بهذه الخطايا المغفورة لهُ لاجل ندامتهِ الكاملة. الاّ انهُ اذا اتّفق انك لا تجد من يسمع اعترافك ويحلّك او كان الكاهن غير قادر ليعطي حلّة التوبة فانّ ندامتك الكاملة تكفي وحدها لتشفي كلّ جراحات نفسك *

ثمَّ انّي اقول. انَّ الندامة على الخطيّة هي ضروريّة كلّ الضرورة للخلاص. فقد يمكن انَّ الخطيّة تُغفَر بدون اعتراف وتناول القربان المقدَّس وبقيّة الاسرار الالهيّة. الاّ انهُ من المستحيل ان تُغفَر بدون الندامة. لانهُ قد قال السيّد المسيح: ان لم تتوبوا فجميعكم تهلكون (لوقا ١٣: ٥) بل انَّ الذين يعتمذون بعد ادراك سنّ المعرفة وقد سقطوا قبلاً في الخطيّة ان لم يندموا عليها قبل العماذ فلا يجتنون من العماذ نفعاً البتّة كما قال المجمع التريدنتي". لانهُ لا يريد الله ان يمنحنا نعمتهُ الاّ بهذا الثمن وبهذا السبيل - وكما انَّ الندامة هي ضروريّة للخلاص. هكذا بدونها لا يمكن ان يكون الاعتراف صالحًا نافعًا. لانَّ المادّة القريبة لهذا السرّ انّما هي قائمة في ندامة المعترف. فكما انهُ في سرّ المعموذيّة لا يمكن ان تُمحى الخطيّة بدون الماء لكونهِ مادّة هذا السرّ. كذلك من الممتنع ان تُمحى الخطيّة في الاعتراف من غير ندامة حقيقيّة لكونها مادّة هذا السرّ - ولعمري انهُ لاق بالسيّد المسيح ان يرتّب الامور هكذا. اي لاق ان لا يترك الخطيّة الاّ لمن يندم عليها

حقًا. لانهُ من دون هذه الندامة والوفآء عن افترآء الخاطئ على الله تنثلم الكرامة الواجبة لعزّتهِ تعالى. ما عدا انّ هذا نفسهُ اعني عدم ندامة الخاطئ على تضييعهِ النعمة الالهيّة. هو احتقار جديد لها من شانهِ ان يغيظ الله جديدًا حسب تعليم القدّيس قبريانس - وقد علمنا انّ من اسآء الى الملك إن لم يظهر حزنهُ على غيظ الملك. فانهُ يزيدهُ غضبًا - فقد اتّضح اذًا ولاح انّ الله لا يريد ان يغفر الخطيّة خلوًّا من الاعتراف ولا بالاعتراف خلوًّا من الندامة الحقيقيّة. وانهُ لا يليق ان يتركها خلوًّا من هذه الندامة القلبيّة - فاذًا ان اردتم ان تعلموا الى ايّة درجة من الصحّة بلغت اعترافاتكم. فانظروا: ان كانت ندامتكم على خطاياكم عظيمة فانتجوا من ذلك انّ الاثمار تكون وافرة. ولو كانت الندامة معتدلة ايضًا - وان كانت اعترافاتكم خالية من هذه الندامة تكون خالية من الاثمار اصلًا ايضًا *

وتعليمنا هذا عن ضرورة الندامة يحتاج قوم من الخاطئين الى ان يضعوهُ قدّام عيونهم. لاسيّما الذين يربحون من خطيّتهم ربحًا وافرًا او يصيبهم منها ضرر جسيم - لانَّ الذين حصل لهم ضرر معتبر من خطيّتهم يُخشَى عليهم ان يندموا ندامة طبيعيّة فقط. اي لسبب ما حصل لهم من الهوان والخسارة بخطيّتهم. وهذه الندامة ليست هي كافية لنيل الغفران في سرّ الاعتراف - الّا انّ الذين يحتاجون الى هذا التعليم احتياجًا اكثر. هم الذين اجتنوا من خطيّتهم نفعًا دنيويًّا وافرًا. مثلًا الفتاة الخاملة الاصل التي حصلت على زيجة شريفة بعد استمرارها المستطيل في حال التسرّي مع من تزوّجها - فمثل هؤلآء يجب عليهم جدًّا ان يحسنوا الحذر من ان تكون ندامتهم طبيعيّة باطلة - الّا انّهُ ولو كانت الندامة الصحيحة عسرة على هؤلآء الخطاة. يجب عليهم ان يتذكّروا ما قلناهُ في ابتدآء هذه الموعظة وهو. انّ الندامة الضروريّة في سرّ الاعتراف ليست هي ندامة قائمة في القوّة الحسّاسة التي تشعر بها الحواسّ. بل انّما هي

ندامة قائمة في الارادة. ومن ثمَّ عدم الشعور الجسميّ بالندامة ليس هو علامة كافية لعدم وجودها – لانهُ ان كنت تتكلّم بصوتٍ عالٍ في منزلك. فلا بدّ ان يسمعك الذين في المنزل القريب. ولكن اذا تكلّمت بصوتٍ منخفض لا يشعر بصوتك احد من خارج – هكذا ان كانت ندامتك قويّة في جزء نفسك الأَعلى. تتّصل قوّتها بسهولةٍ الى جزء النفس الأَدنى القريب من الجزء الاوّل. ولكن اذا كانت الندامة غير عظيمة فلا يشعر البدن بقوّتها – فعدم البكاء الذي يرغبهُ قوم ليس هو دليلاً كافياً على عدم وجود الندامة الحقيقيّة. بل هو دليل على انّ الندامة لم تبلغ الى درجة عالية من الكمال حتى تنفجر من القلب وتتّصل بالعينين. ولاسيّما في الذين لا يبكون طبعًا بسهولةٍ *

قد بقي من هذا الباب شيء واحد وهو الافضل اعتبارًا. اعني الوسائط المعينة والموصلة الى اصدار الندامة الحقيقيّة في القلب – هذا هو الشيء الثالث الذي قصدنا ان نوضحهُ لكم. وقد ذكر لنا روح القدس هذه الوسائط قائلاً: ارجع الى الربّ... تضرّع على وجهك (سيراخ ١٧ : ٢١ و٢٢) – لمّا كانت الندامة الضروريّة في الاعتراف هي موهبة الاهيّة عظيمة. بل هي اسّ بقيّة مواهبهِ كلّها. فمن المحقّق الواضح انّهُ غير ممكن ان نحصل على الندامة الصحيحة بغير عون النعمة. وانّ الاستعداد الافضل لاكتسابها هو طلبها منهُ تعالى – يا للجهل العظيم الذي نراهُ في اكثر المومنين. وهو انّهُ اذا المّ بهم مرض عضال مخطر يعتقدون انّهُ لا يمكنهم ان يبرأُوا منهُ الاّ بالتضرّعات الكثيرة الى العذراء والقدّيسين وهم مع ذلك يظنّون انّهُ يمكنهم ان يصيروا ابرارًا من كونهم خطاة من غير طلب العون من الله – قال مار توما اللاهوتي: انّ تبرير الخاطئ هو اعظم اعمال الله – فما بالكم انتم الذين تعتقدون انّهُ بلا صلوات كثيرة حارّة لا يمكنكم ان تنالوا من الله ان يقيم لكم ابنًا عزيزًا من الموت. ترجون انّهُ تعالى يقيم النفس من الموت بغير تضرّع نشيط –

اعلموا انّ قيام النفس من الموت الروحيّ هو اصعب جدًّا من قيام الف جثّة قد اكلتها الحشرات - فوجّهوا اذًا قبل الاعتراف افضل اهتمامكم الى هذه الواسطة. طالبين من الله برغبة ان يعطيكم هذه الندامة الجزيلة الضرورة قائلين: انّي بدونك يا ربّ استطيع ان اسقط واخطئ. ولكن بدون نعمتك لستُ اقدر ان اندم على خطاياي: لي ان اتدنّس واتوسّخ. ولكنّي من تلقآء نفسي لا اقدر ان اغتسل واطهر: في طاقتي ان اربط ذاتي: ولكن بذاتي لا يمكنني ان احلّ قيودي - فامدد لي اذًا يدك الرحيمة. توّبني فأتوب. لانّي من بعد رجوعي ندمتُ (ارميا ٣١ : ١٨) . فامنحني هذه الندامة القلبيّة التي هي موهبة نازلة منك *

والواسطة الثانية المعيّنة من روح القدس هي الارتداد الى الله. ولكي يتمّ هذا الارتداد ينبغي ان نستعمل القوى التي استعملناها عندما تباعدنا منهُ عزّ وجلّ - فاعتبر اذًا قليلاً كثرة خطاياك قائلاً مع النبيّ: اتمشّى متمهّلاً في عمري كلّهِ بمرارة نفسي (اشعيا ٣٨ : ١٥) - انكم يا مباركين لا تلاحظون غالبًا الاّ الخطايا التي ارتكبتموها من اعترافكم الاخير. ومع انها كثيرة فلا تضطربون من قِبَلها متوجّعين. لأنّها مع انها كثيرة ليست هي كلّ خطاياكم. فقد كان يجب ان تلاحظوا جميع ما فرط منكم في مدار حياتكم كلّها مردّدين كلّ السنين الماضية. لانّ من يرتكب في كلّ اسبوعٍ اربع خطايا فقط يجهل في آخِر السنة من الخطايا مائتين وما ينيف. وفي آخر عشر سنين يكون العدد اكثر من الفين - وقد يمكن ان يكون عدد خطاياكم في كلّ اسبوع اكثر من اربع وان تكون مدّة استمراركم على هذه العادة اكثر من عشر سنين. فكم يرعبكم كثرة هذه الخطايا المجموعة والملاحظة معًا *

وبعد تاملّكم كثرتها اعتبروا عظمتها. واعلموا واعتقدوا يقينًا انّ خطيّة واحدة باهظة تغيظ الله وتهينهُ اكثر جدًا ممّا تسرّهُ وتكرمهُ جميع الملائكة

والقدّيسين . فماذا يكون اذًا الغيظ والاهانة الواصلة لعزّتهِ تعالى من قِبَل هذه الخطايا الباهظة — وبعد تأمّلكم هذا الموضوع . لاحظوا متأمّلين دناءَة الخاطئ وجلال سموّ عزّة الله الذي هو اساءَ اليهِ واهانهُ — فما انت ايّها الانسان نظرًا الى جسدك ونفسك بالنسبة الى الله . امّا من جهة جسدك فلستَ سوى قليل من رماد مجبول . وامّا من جهة نفسك فانّها روح اكثر اثمًا من ارواح الابالسة الذين ارتكبوا خطيّة واحدة فقط — لمّا تكلّم النبيّ عن جميع الخلائق الموجودة والممكن وجودها سمّاها نقطة (اشعيا ٤٠ : ١٥) — فانت اذًا الذي هو جزء من هذه النقطة من انت . يقول الذهبيّ فمهُ — انك دنيّ الاصل وحقير الى الغاية . فكيف تجاسرت ان تقاوم الله وتغيظهُ . وذلك بعد انّهُ انعم عليك بنعم جزيلة عظيمة ليميلك بها الى حبّهِ *

فاذا تامّلتم في هذه الاشياء الثلاثة بتأنٍّ . اعني جلال عزّة الله وجزيل دناءَة الانسان الذي يهينهُ تعالى وكثرة سيّئاتكم وعظمتها . فلا شكّ انّ قلوبكم تحصل على الندامة . لانّهُ قد قال الله على لسان ارمياءَ النبيّ . ان رجعت ارجّعك (ارميا ١٥ : ١٩) . فكأنّهُ تعالى يقول : ان عملت ما في طاقتك مستعملاً اختيارك وانوار الايمان وعون النعمة المقدّمة لك دائمًا بكفاية لكي تميل نفسك الى التوبة وافرغت في ذلك مجهودك . فانّي اسعفك راحمًا واسدّ عوزك واوتيك نعمة خصوصيّة وافرة تصيّرك ان تتوب توبة كاملة — فلا يقولنّ احد : لستُ اقدر ان احصل على هذه الندامة مع انّي اشتهيها جدًّا . حاشاكم ان تقولوا هذا . لانّنا لا نتكلّم هنا عن ندامة محسوسة كما قلنا . بل انّما نتكلّم عن ندامة باطنة لا يكفي ان نشتهيها اشتهاءَ الماءَ . بل ينبغي من باب الواجب ان تكون — فان كنت غير حاصل على هذه الندامة فاجتهد في تحصيلها الى ان تمتلكها . اجعل لنفسك نوح الامّ على موت ابنها الوحيد . اجعل لنفسك نوحًا مرًّا . وان كان ضعف معرفتك بكمالات الله وشرّ الخطيّة لا يدعك ان تندم ندامة كاملة

فاجتهد على الاقل في ان تكون ندامتك غير الكاملة شديدة - اجعل لنفسك نوحًا مرًّا - واعتبروا يا مباركين انهُ لكي تحصلوا على هذه الندامة . لا يكفي ان تتاملوا مرّة واحدة فقط في هذه الحجج البالغة بنا الى الندامة تأملًا خفيفًا غير متعمق . بل الخليق بكم ان تردّدوها في عقولكم مرّات كثيرة . وحينئذٍ يجري بكم ما جرى لموسى النبي اذ رأى انَّ الماءَ لم يجرِ من الصخرة الصلدة بعد ان ضربها مرّة واحدة فعاد وضربها مرّات اخرى . وحينئذٍ جرى الماءُ بوفور غزير - ومن هذا انتجوا عظمة جهل الكثيرين الذين يبقون الفحص عن ضمائرهم الى حينما يتقدّمون الى الكاهن لكي يعترفوا . كيف يمكنكم ان تحسنوا الاستعداد الواجب في هُنيهة من الزمن - من لم تكن نفسهُ متدنّسة بخطيّة ثقيلة مميتة لقد يمكن انهُ ينتهي امرهُ بخير . الاّ انك انت الذي تدنّست نفسك بخطايا مميتة كثيرة كيف يمكن ان تغيّر قلبك في دقيقة واحدة من الزمن - انَّ الذي يحترس على نظافة يديهِ يمكن ان يزيل بسهولةٍ ما التصق بها من الغبرة . واما الحدّاد او الفحّام الذي ما مسّ الماءَ منذ سنة كاملة . فهل يستطيع ان ينظّف يديهِ بقليل من الزمن - فلولا مقاومة الميل السيّئ والعادة القديمة لامكن حينئذٍ ان تتغيّر ارادتهُ بسهولة . الاّ اني لستُ افهم كيف يصحّ ذلك في القلوب المتأصّلة في الشرّ *

وهذا التواني المهلك يتولّد من سببين اوّلها جهل المسيحيين . وثانيهما حسد الشيطان - فالمومنون غير العارفين ضرورة هذه الندامة كما يجب يجتهدون في هذا فقط وهو ان يستفيقوا على الخطايا التي ينبغي ان يعترفوا بها . وهم متغاضون عن الندامة عليها . ومن ثمَّ يشبهون من يري جراحاتهِ للطبيب ولا يفتكر في مداواتها - قال القدّيس غريغوريوس : من يعترف بلا ندامةٍ ففعلهُ فعل من يكشف جرحهُ للطبيب ولا يريد شفاءهُ - الاّ انَّ الشرّ لا يقف عند هذه الحدود . لانّ الشيطان يزيدهُ بجسدهِ . لانهُ اخزاهُ الله يبغض الندامة الحقيقيّة اكثر من بغضهِ بقيّة احسانات الله علينا . ولهذا يفرغ كلّ جهدهِ في ان يصدّنا

عن الندامة على خطايانا - قال الحكيم انّ البكآء لهُ زمان . والضحك لهُ زمان ايضاً (جامعة ٣ : ٤) . قال القدّيس المتقدّم ذكرهُ انّ زمان البكآء هو زمان حياتنا هذه . وزمان الضحك هو زمان حياتنا العتيدة - غير انّ العدوّ يريد ان يقلب هذا الترتيب الالهيّ . وان تُصرَف هذه الايّام القليلة في الضحك لكي يدركنا البكآء الدائم . الويل لكم ايها الضاحكون الآن . لانّكم ستنوحون وتبكون (لوقا ٦ : ٢٥) - فيا لهُ من بدل محزن . اترتضون بضحك يسير يعقبهُ البكآء الابديّ . اجاركم الله من ذلك *

الموعظة الحادية والستون

في عزم الاقلاع الضروريّ في سرّ الاعتراف

انّنا نتكلّم اليوم عن نقيصة باهظة تصيّر اعترافات الاكثرين باطلة . وهو عدم عزم الاقلاع الحقيقي بتغيير السيرة واصلاحها . لانّهُ لا يكفي ان يندم الخاطئ على خطاياهُ السالفة . بل يجب ان يبغض الخطايا العتيدة كبغضتهِ السالفة على حدٍّ سوى . ولهذا قال روح القدس : تب الى الربّ واترك الخطايا ... واقطع العثرات (سيراخ ١٧ : ٢١) - وبهذه الكلمات اوضح الله لنا جليًا الشروط الثلاثة الضروريّة للتوبة - لانّهُ اوّلًا بقولهِ تب يعني واضحًا الشرط الاوّل . وهو العزم الحقيقي على ترك الخطيّة والاقلاع عنها - فما ظنّكم يا مباركين في معنى سرّ الاعتراف . انّ معناهُ هو ارتداد الانسان عن طريق الاثم - انّ ممّا يوجب الاسف جواب قوم من الخطاة للكاهن اذ يجتهد في سرّ الاعتراف في رسم مخافة الله في قلوبهم . فيقول الواحد منهم بوجه الاعتذار : نعم يا ابانا انّي من هذا المقدار من السنين اسير هذه السيرة الرديّة . الّا انّي اعترف بها دائمًا -

امّا انا فاجيبهم قائلاً: نعم انكم اعترفتم برذائلكم. الاّ انّي أسأل هل اقلعتم عنها ثابتين. لانهُ في هذا قائم الامر الضروريّ - لانّ الاعتراف ليس هو ما يتصوّرهُ كثيرون اعني امر حركة الشفتين ونطق اللسان. بل انّهُ قائم على الخصوص في صميم القلوب وعمق الارادة - فليفهم اذاً كلّ منكم انّ الاعتراف هو رجوع الانسان الى الله تائباً. ومن ثمَّ يجب عليكم ان تبغضوا الخطيّة الماضية والمستقبلة. امّا هذه فباستقباحكم ايّاها. وامّا هذه فبعزم شديد على التعوّذ منها دائماً. وبدون ذلك فباطلاً ترجون ان يغفر الله لكم - وبين هاذين الامرين ليس وسط. فلا بدّ من هذا العزم الحقيقيّ الوطيد بان لا نرتجع الى الخطيّة فيما بعد لاجل سبب من الاسباب. ومن غير هذا العزم والجزم القويم لابدّ من الهلاك الابديّ - قال القدّيس اوغسطينس مخاطباً المومنين المتقدّمين الى سرّ الاعتراف: ايّها المعترفون ان كنتم تائبين حقّاً لا مستهزئين بسرّ التوبة. فغيّروا سيرتكم واصلحوها. لانّ من يكتفي بفتح شفتيهِ وبالاقرار بخطاياهُ فقط ولا يهتمّ بان يرتدّ قلبهُ عن الخطيّة. فانّ اعترافهُ مرذول. لانهُ يشبه الشعب الذي قال عنهُ اشعياء النبيّ: هذا الشعب يكرمني بشفتيهِ وقلبهُ بعيد منّي (متى ١٥ : ٨ واشعيا ٢٩ : ١٢) - فاذاً يا مباركين اعتقدوا يقيناً انَّ انفع نصيحة ننصح بها للخاطئ. هي بيان احتياجهِ الى هذا العزم. لانّهُ ليست واسطة يقود الشيطان بها اكثر نفوس المومنين الى جهنّم كما قالت القدّيسة ترازيا اعظم من هذه وهي ان يحملهم على ان يعترفوا بلا عزم الاقلاع فيجعل اعترافاتهم باطلة فاسدة *

غير انّ هذه النصيحة تخصّ ثلاثة اصناف من الانام خاصّةً وهم الذين يخطئون بضرورة ما. او يفتخرون بارتكابهم الخطيّة. او اعتادوا من زمن عليها - لانّ هؤلاء يجدون صعوبة كبيرة في اصدار هذا العزم من قلوبهم. ومن ثمَّ يغلب على الاكثرين منهم انّهم لا يصدرونهُ - فمنهم من يقول في الاعتراف: ماذا اصنع يا ابانا. انّي حرتُ في امري. ليس لي ما أعيش منهُ. وانا لستُ اخطئ من طيب

خاطري . بل الضرورة تلزمني بذلك - فقد ظننتم اذًا انَّ العناية الالهيَّة قد بطلت واضمحلّت . اذ انكم تعتقدون انّها عاجزة عن مساعدة عبيدها - اما تدرون انكم بهذا الظنّ الملتوي تزيدون في سرّ الاعتراف خطيّتكم كبرًا . واين العزم على تغيير سيرتكم - ان كنتم تخطئون بالضرورة فلستم اذًا قد ارتجعتم عن الخطيّة . ولا انتم تائبون عنها . لانَّ الضرورة موجودة بعد . وبالنتيجة فحتّى الآن موجود فيكم الشيء الذي من سببهِ تخطئون - افتحوا عيونكم يقول القدّيس اوغسطينس . انّ الذي عالكم وانتم متمرّدون عليهِ . كيف لا يعولكم وانتم خاضعون لناموسهِ - وان اتّفق انهُ تعالى يريد ان يمتحن امانتكم . فيؤخّر العون الذي ترغبونهُ فينبغي حينئذٍ ان تجيبوا الشيطان مثلما اجاب الفتية الثلاثة في بابل لبختنصر الملك حينما اراهم الاتون مشتعلاً فقالوا لهُ : انهُ من المحقق ان الاهنا الذي نعبدهُ يقدر ان ينجّينا من يديك . وان كان تعالى لا يشاء هذا فاعلم ايّها الملك اننا لا نعبد آلهتك ولا نسجد للصنم الذي نصبتهُ (دانيال ٣ : ١٧و١٨) - هذا ما يجب على كلّ نفس امينة ان تقولهُ في حين الضيقة والمحنة : انهُ من المحقّق الذي لا يشوبهُ ريب . انّ الله يستطيع ان ينجّيني من حال هذا الفقر . الّا انهُ ان كان هو عزَّ وجلّ لا يريد ان ينقذني منها . فلتعلم الارض كلّها ولتعلم كلّ قوّات الجحيم ايضًا . انّي لاجل هذا لا اباين عبادة الاهي الجوّاد لكي انحني الى صنم المال الملعون - انَّ الذي يخطئ بحجّة الضرورة المتقدّم ذكرها . لا بدّ لهُ من هذه الارادة القويّة والعزم الوطيد لكي ينال الغفران *

ثانيًا يصعب اصدار هذا العزم في القلب على القوم الخطأة الوقحين الذين يفتخرون بذنوبهم ويذكرونها كأنها امور توليهم مجدًا . وكيف يبغض هؤلاء فوق كلّ شيء شرّ آثامهم وهم الذين يحتسبونهُ كلا شيء ويفعلونهُ بالضحك . كما قال الحكيم (امثال ١٠ : ٢٣) - فمن كان هذا الحال حالهُ فما اصعب ما يكون لهُ العزم الحقيقيّ الشديد على ترك الخطايا *

ثالثًا يجد هذه الصعوبة الخطاة المعتادون على الخطيّة من زمن مديد. وقد يقرّ الواحد منهم بذلك مرارًا كثيرة في سرّ الاعتراف قائلًا: لستُ اقدر ان امتنع من ذلك. ماذا اعمل يا ابانا. وما الذي اعدك بهِ. غير انني سأكفّ عنهُ على قدر ما يمكنني - فكيف ترى يكون عزمهم على ترك الخطيّة وهم الذين بالتعوّد على الخطيّة قد تصلّبت قلوبهم حتّى انّهم يعدّون اصلاح سيرتهم امرًا من المحال - الويل لمن اتّصل الى هذا الحدّ من الشقاوة - فان كان يوجد هنا من هذا حالهُ. فليفتكر جيّدًا ويعتقد متيقّنًا انّهُ بدون العزم الحقيقيّ على ترك الخطيّة. لا يمكن ان ينال الغفران - لقد قلنا سابقًا انّهُ لا بدّ من احد هاذين الشيئين. امّا تغيير السيرة وامّا الهلاك الابديّ - فليطلب من كان هذا حالهُ الى الله باجتهاد ان يغيّر قلبهُ متذكّرًا وعدهُ تعالى على لسان حزقيال النبيّ: انّي انزع قلوب الحجَر من اجسادهم. واعطيهم قلوبًا من لحم (حزقيال ١١: ١٩) *

وهذا نفسهُ اقولهُ على وجه العموم لكلّ الذين يعترفون: تحرّزوا من عدم الثبوت في عزمكم بعد الاعتراف - انكم تنسبونهُ لضعفكم البشريّ. فربّما كان هذا الضعف سببهُ من وجه فقط. لكن ليس هو سببهُ الخاصّ. واخاف عليكم من انّ سبب هذا الارتداد السريع الى الخطيّة. يكون من عدم تغيير القلب في حين الاعتراف - وفي هذا الاسلوب يضرب القدّيس اوغسطينس مثلًا فيقول: انظروا هذا الذئب الذي اتى بنيّة ان يتلف القطيع كلّهُ. ان خرجت وقتئذٍ الكلاب والحرّاس والرعاة واصطفّوا تجاه الذئب ليقاوموهُ ويقتلوهُ. يرتدّ الذئب الى غابتهِ مرتجفًا. ولكن هل تقولون عنهُ انّهُ صار خروفًا وندم على ما فعل. كلّا. لانّهُ كما اتى ذئبًا عاويًا يرجع ذئبًا خائفًا. وهكذا يستمرّ كما هو. ولا يزال ذئبًا - فهذا غالبًا هو ارتداد اناس كثيرين الى الخطيّة. نعم انّهُ ظهر فيهم شيء من التغيير. الّا انّهُ كان تغييرًا عرضيًا. وذلك امّا لانّهم وجدوا كاهنًا ماهرًا في استماع الاعترافات. او لانّهُ كان اليوم عيدًا شريفًا. او لانّهُ طمعًا في اخذ الحلّة

الجأتهم الضرورة ان يمتنعوا عن السوء مدّة من الزمان قبل ان يطلبوها – وعلى هذا الاسلوب يعترف كثيرون ولاسيما الذين يحفظون عندهم مال الغير ظلماً. والذين تعرقلوا في امور نجسة لا يقطعون اسبابها. فانّهم يمتنعون عن السوء بحجّة صيانة صيتهم. او لانّهم يخافون من تشكيك الناس. فهؤلاء اذا سمعوا وعظاً في شان جهنّم وعقاب الخطيّة الابديّ. يظهرون مرتعدين مرتجفين. الّا انّهم لا يخافون من الخطيّة. بل انّما يخافون من عقابها – يكفّون عن فعل الخطيّة. ولا يزالون مرتاحين اليها. ومن ثمَّ قلوبهم لا تتوب *

واما الشرط الثاني الذي لا بدّ منهُ في العزم الضروري للمعترف. فهو ان يكون العزم عمومياً اي ان يبغض المومن جميع الخطايا لاجل كونها خطايا. ويعزم على الفرار منها كلّها من غير استثناء: قائلاً مع صاحب المزامير اذ تاب: ابغضتُ كلّ طرق الاثم (مزمور١١٨ : ١٢٨) – فكم من المسيحيّين لاجل عدم هذا الشرط تعود اعترافاتهم باطلة فاسدة. لانّ منهم من يقول: ليس لي غير هذه الخطيّة. لانيّ لستُ اسرق ولا اكذب ولا اثلب ولا اضرّ احداً. الّا انيّ لستُ اعرف كيف امتنع عمّا تميل اليهِ طبيعتي الضعيفة – فهذا العزم على ترك الخطيّة. ليس عمومياً اصلاً – اعلم يا اخي انهُ لا تكون توبتك حقيقيّة. الّا بشرط ان يكون لك عزم حقيقيّ على ترك جميع الخطايا حسب قول النبيّ: ارتدّ الى الرب تائباً واترك خطاياك – ولا يكفي ان تترك بعضاً منها. بل يلزمك كلّ اللزوم ان تتركها كلّها *

ذكر سوريوس المؤرّخ في ترجمة القدّيس سبسطيانس الشهيد انّ رجلاً وثنياً يُدعى كروماتيوس مرض مرضاً ثقيلاً فاستنجد القدّيس سبسطيانس لينال الشفاء فارتضى بذلك القدّيس. ولكن بشرط ان يسحق كلّ اصنامهِ – فسحق المريض كلّ اصنامهِ. ما عدا واحداً كان متعبّداً لهُ تعبّداً خصوصياً. فلم يُشفَ من مرضهِ – فعاد القدّيس المريض ثانيةً ولمّا راهُ على حالتهِ الاولى سالهُ: هل فضل

في بيتك صنم. فاعترف كروماتيوس انهُ ابقى عندهُ واحدًا فقط - فأمرهُ القدّيس بكسر هذا الصنم ايضًا. ولمّا كسرهُ شُفي من ساعتهِ - فهكذا انت ايّها المومن تتقدّم الى الكاهن لاسقيمًا بالجسد. بل ميتًا بالنفس وتلتمس منهُ الحيوة عند طلبك منهُ الحلّة. فيجيبك الكاهن انّي سافعل ما تطلبهُ ان عملت انت ما انت ملتزم بهِ. وهو ان تكسر كلّ الاصنام التي تعبدها وتبيدها. اي ان تعزم على ان لا تعود الى الخطيّة لاجل ايّ سبب كان من الاسباب كافّة - فان حفظت صنمًا واحدًا يميلك الى لذّة دنسة او الى الربآء. او اخذ الانتقام او الى حرام آخر من انواع الحرام. فانّك ولو سحقت بقيّة اصنامك وابغضت بقيّة خطاياك. لا تفيدك حلّة الكاهن. لانّهُ قد قال الرسول: من حفظ الناموس كلّهُ وانّما عثر في واحدة فقد صار مجرمًا في الكلّ (يعقوب ٢: ١٠) - نعم انّ سفينتك صحيحة من كلّ جانب. ما عدا جانبًا واحدًا فيها نقب تدخل منهُ مياه البحر. اليس هذا كافيًا لتغريقها وهلاكها - نعم انّك لا تكذب ولا تسرق ولا تحلف ولا تثلب. الاّ انّك متعرقل في شبكة النجاسة. وفي هذا كفاية لتغرق في بحر من كبريت مشتعل ان لم تعزم على ترك جميع خطاياك عزمًا حقيقيًّا - وهنا يجب ان نعتبر امرًا. وهو انّ هذا الشيء الواحد الذي تستصعب تركهُ هو غالبًا اعظم خطاك - انظروا ما صنع شاول الملك. انّهُ اخذ اغاغ ملك العمالقة وحفظهُ حيًّا. امّا عامّة الشعب فقتلهم بحدّ السيف (سموئيل ١٥: ٨) - كذلك يفعل هؤلآء الخطاة بخطيّتهم النجسة التي ينسبونها الى ضعفهم الطبيعيّ. وتحتوي في ذاتها على الف خطيّة. وايّاها يريدون ان يحفظوا. ولا يفطنون انّها وحدها في مقام ملك نظرًا الى الرعيّة. الذي يغني عن عشرة آلاف. كما قيل لداود الملك (٢ سموئيل ١٨: ٣) - نعم انّ خطيّتك واحدة. الاّ انّها تساوي عشرة آلاف - اعلموا انّ الناموس الالهيّ لا يقبل هذا الاستثنآء. لانّ الله هو مولى كلّ قلب الانسان. ومن ثمّ يريدهُ كلّهُ. فان وهبتم لهُ جزأً منهُ وخصصتم الجزء الآخر لانفسكم فلا

ترجوا الخلاص. لانَّ النبيّ قال: انقسمت قلوبهم فالآن يهلكون *

امعنوا النظر يا مباركين وتأمّلوا انَّهُ لا يكفي ان تتّصل عموميّة هذا العزم الى بغض كلّ الخطايا. بل ينبغي ايضًا ان تمتدّ الى بغضها في كلّ حال وكلّ شرط وكلّ زمان - فترى احيانًا من يقول لمعلّم اعترافهِ: لو يطلب هذا منّي غير الذي لهُ عليَّ سلطان. لما كنتُ افعلهُ ابدًا. انَّ الاجيرة والاجير هما ملزومان بالاذعان لرؤسائهما - فاذًا على قولك هذا ليس الله بمولاك. ابعد ابعد. لستَ انت للاعتراف - وان وجدت من يحلّك. فاعلم انَّهُ كما قال القدّيس قبريانس. ليس هو بطبيب يداوي ويشفي. بل هو حقًا عدوّ يطعن ويميت - وهذا نفسهُ نقولهُ عمّن يعزم في الاعتراف ان يقاوم التجربة الى زمنٍ لا الى الابد - انَّهُ في الاعتراف يلزمنا ان نسكب قلوبنا كما بين يدي الربّ. لانَّ الذي يسكب الماءَ على الارض لا يقصد ولا يرجو ان ياخذهُ ثانيةً. واما الذي يرمي على الارض حنطة. فلهُ رجاءٌ ان يعود ياخذها - فيا ما اكثر الذين يسكبون هكذا قلوبهم في الاعتراف. اي بقصد مضمر ان يرجعوا ثانيةً الى ما القوهُ عنهم الى زمن. وعنهم قد قيل في سفر الامثال: هو جيل يعتقد نفسهُ طاهرًا ولم ينظف من نجاستهِ (امثال ٣: ١٢) *

الشرط الثالث الذي لا بدّ منهُ هو ان يكون العزم على ترك الخطية فعّالاً - انّي حينما اتأمّل في اعترافات قوم من الناس اراها تشبه اشجارًا توجد في بلاد الهند اوراقها طويلة عريضة يستعملونها للكتابة. الّا انها لا تاتي قطّ بثمرة ما - ترى بعضًا يريدون دائمًا ان يتوبوا ولا يتوبون اصلاً - انهم لو يرجعون الى الاعتراف بحال اصلح يسيرًا من حالهم الاوّل. لكانت هذه الثمرة ولو انّها قليلة تستحقّ ان تسمَّى ثمرة حقًا - الّا انَّ هولاءِ لا يوجد فيهم غير الورق اعني الوعد بالتوبة فيما بعد. وهو وعد حتّى الآن لم يأتِ بثمرة - لقد علمتم يا مباركين ما ذُكر في الانجيل المقدَّس عن الذين دُعوا الى العرس (لوقا ١٤: ١٨)

وهو انَّ كلًّا منهم استعفى على نوعٍ مختلف. فقال الاول: انّي اشتريتُ حقلاً والضرورة تدعوني الى الخروج اليهِ لأنظرهُ. والآخر قال: انّي اشتريتُ خمسة ازواج بقر. وانا ماضٍ لاجرّبها. والآخر قال: انّي تزوّجتُ امرأة ولذلك لا اقدر ان اجيء - هذا ما ذكرهُ لوقا البشير عن الحجج التي يوردها الخطاة المخالفون الالهامات الالهيّة - الاّ انَّ القدّيس متى عند ايراد هذا المثل يبيّن بطلان هذه الحجج بقولهِ: انّهم لم يريدوا ان ياتوا (متى ٢٢ : ٣). وقد اشار بذلك الى بطلان ما يعتذر بهِ الخطاة عند بيانهم اسباب خطاياهم اذ ينسبونها الى تجربة الشيطان او الى ضعف الطبيعة او الى الضرورة او الى العادة المتاصّلة - غير انَّ الله العارف بخفايا قلوبهم يجمع كلّ اسبابهم في سبب واحد وهو هذا. اعني انّهم لا يريدون ان ياتوا. فالسبب الذي لاجلهِ لا يصلحون سيرتهم هو انّهم لا يريدون ان يتوبوا عن التجديف والحلف وسائر العوائد السيّئة ارادة حقيقيّة - وعنهم يسوغ ان نقول ما قالهُ الحكيم عن الكسلان: وهو انّهُ يريد ولا يريد (امثال ١٣ : ٤) - انَّ الذي عزم ان يتوب عزماً حقيقيًّا متيناً يجد دائمًا طرائق لانجاز ذلك - ولبيان ذلك هاكم مثالاً: خبّرونا انّ رجلاً جنديًّا معتادًا على التجديف كان يقول عن نفسهِ. بانّهُ غير ممكن لهُ ان يتوب من عادتهِ - فاتّفق يومًا انّهُ حصل على ضيقة من جهة القوت والكسوة اذ كانت الجيوش تحاصر مدينة من المدن في بلاد الفلمنك. فطلب صدقةً من الكاهن. وهذا الكاهن الصالح قال لهُ: ان قدرت ان ترافقني في الطريق مدّة ساعة واحدة بغير ان تجدّف. اعطيك ثلاثة دراهم. واراهُ الفضّة واخذ يسير - فلمّا ابصر الجنديّ الفضّة طار عقلهُ. واخذ يتبع الكاهن ككلب وراء سيّدهِ. وطاف كلّ صفوف العساكر هكذا. والجنود ضاحكون منهُ ومستهزئون بهِ. وكان الجنديّ متضيّقًا جدًّا من تعب الطريق وسخريّة رفقائهِ. وكان في كلّ دقيقة من الزمان يشتهي ان يجدّف فيمسك نفسهُ بضبط لسانهِ وبعضّهِ عليهِ ايضًا. حذرًا من

ان يزلّ كعادتهِ - وبعد ان طاف هكذا العسكر سلّم لهُ الكاهن الدراهم الثلاثة قائلاً لهُ : ان اردت ففي طاقتك ان تتوب عن التجديف ايضًا - قال القدّيس يوحنّا الذهبيّ فمهُ : انّنا لكي نتوب لا نحتاج الاّ الى ارادة . لا ارادة كيفما اتّفقت . بل ارادة خالصة راهنة *

وان قلتم مستفهمين . بايّ شيءٍ يمكننا ان نعرف انّنا حاصلون على هذه الارادة الفاعلة - انكم حسنًا تسالون عن ذلك . لانَّ من عرف ذلك فقد عرف اعظم الوسائط لخلاص النفس . لان عدم هذه الارادة تملأ جهنّم من الهالكين - فاقول اوّلاً : انّ هذه الارادة الفاعلة هي الارادة المطلقة غير المتعلّقة بشرط - فهذه المرأة اذا تقدَّمت الى الكاهن واعترفت بخطاياها السمجة . وسُئلت هل عزمتِ على اصلاح سيرتكِ . فانّها تجيب قائلةً : ان شآء الله فانّي ساتوب اذا امكن لي ذلك : لستُ اريد ان ارجع الى رذائلي . وان رجع عنّي هذا الشخص ارجو انّي اكفّ عن خطيتي - لاحظوا هذا الشرط الخبيث الفاسد وهو قولها : ان شآء الله واذا امكن لي واذا رجع عنّي - اعلمي يا شقيّة انَّ لفظة ان كان هي حائط يفصلكِ عن نعمة الله . ومن المستحيل ان يقترب قلبكِ الى الله تعالى ما دام هذا الحائط متوسّطًا . فلا بدّ من هدمهِ . اعني ينبغي بكلّ ضرورة ان تنوي ترك الخطيّة بعزم مطلق . ولو ازمع الشخص شريككِ في الخطيّة ان يطلبكِ او ان يهلكِ . وفي كلّ حال وتقدير يجب ان يستمرّ عزمكِ ثابتًا من دون سند هذه الشروط المائلة بكِ الى السقوط ثانية *

واماّ الدليل الثاني الذي بهِ يُعرَف هل الارادة فاعلة فهو اختبارها بالعمل . لانّ العزم كما قال مار توما اللاهوتيّ يُعرَف جيّدًا بالعمل - فيجب اذًا ان تفحصوا عن عزمكم على حسب هذا الدليل . متذكّرين انّ هذا الامر هو باهظ جدًّا جدًّا - لانّهُ ان لم يكن عزمكم فاعلاً . فمن المستحيل ان تنالوا الغفران والخلاص - فليسأَل اذًا كلّ انسان نفسهُ قائلاً : انّني مواظب منذ زمانٍ مديد

على هذه العادة السيئة . فايّ شيءٍ فعلتُ لكي استأصلها - انهُ في هذا الفحص ربّما تجدون انكم ما فعلتم لاجل ذلك شيئًا غير انكم في كلّ سنةٍ حرّكتم اللسان مرّة واحدة او مرّتين بالاعتراف بخطاياكم عند الكاهن . وهل يجوز ان تُدعى هذه الارادة فاعلة - ان رايتم بناءً مشتعلاً بالنار وصاحبهُ جالسًا على الباب يصطلي على النار . فهل تظنّون انّ ذلك الانسان هو متأسّف كثيرًا على حريق بيتهِ . لا لعمري . لكن اذا وجدتموهُ يعدو مهمومًا مجتهدًا في اطفاءِ النار وملقيًا نفسهُ في خطر الحريق لكي يخلّص بيتهُ . فحينئذٍ يتأكّد عندكم انهُ حقًّا حزين على حريق منزلهِ - فماذا نقول عن مقاصدكم الخالية من الفعل انها صادقة . قال مار توما اللاهوتيّ : انّ الارادة ليست كاملة اذ لم تجعل صاحبها ان يعمل في حين وجوب العمل *

فان قصدتم التوبة . فارجعوا الى الربّ . واتركوا خطاياكم . وارفعوا حجارة العثرة . كما قال النبيّ المتقدّم ذكرهُ في ابتداءِ هذا الخطاب - ارجعوا الى الربّ بعزم حقيقيّ قويّ . اتركوا كلّ الخطايا بعزم عموميّ . وارفعوا حجارة العثرة بعزم فعّال - والحال انهُ يمكنكم ان ترفعوا حجارة العثرة وسبب السقوط على وجهين وذلك اوّلاً باستعمال السلاح النافع للظفر والاكثار منهُ . ثانيًا بتعرّي العدوّ من سلاحهِ - فان اردتم ان تعرفوا يقينًا هل عزمكم على ترك الخطيّة هو صحيح فلا بدّ لكم من استعمال هاتين الواسطتين - فيجب اوّلاً ان تستعملوا الاسلحة المفيدة للظفر وتكثّروها . فمن كان معتادًا مثلاً على التورّط في حمأة الخطايا الدنسة . فما الذي ينبغي ان يفعلهُ ان كان يقصد حقًّا الامتناع عنها : يلزمهُ ان يعترف بتكاثر . والاجدر بهِ ان يعترف قبل الارتداد الى عادتهِ . ويلزمهُ ان يتناول القربان المقدَّس مرارًا كثيرة . وأَن يستغيث بالله باكرًا وعشيّةً طالبًا عونهُ باجتهاد . وان يستنجد امهُ المجيدة وأَحد القدّيسين والقدّيسات كما تقتضي تقواهُ . وأَن يقرأ كتبًا روحيّة مفيدة لمداواة نفسهِ . وان يسمع برغبةٍ تعليم الواعظين

ويحضر القدّاس بعبادة. ويكثر الصدقة على المساكين - من يفعل ذلك فهو يريد حقًّا ان يطفئ النار لانّهُ يسكب عليها ماء وافرًا - وأمّا الذي لا يستعمل شيئًا من هذه الوسائط فانّهُ لا يريد حقًّا ان ينجّي بيتهُ من الحريق. بل حالهُ حال من يريد ان يحترق بيتهُ كلّهُ ويعود الى رماد - وقد قيل في سفر الامثال: المسترخي في فعلهِ هو اخو المسرف (امثال ١٨ : ٩) - فليكن متحقّقًا عندكم يا مباركين انّ الخاطئ المتراخي في استعمال الوسائط النافعة لاصلاح سيرتهِ. والخاطئ الذي لا يريد ان يتوب. هما اخوان لا فرق بينهما البتّة. سوى انّ احدهما هو البكر - ثم اعتبروا انّ الضعف الذي تختبرونهُ للعمل هو حجّة لكم لتستعملوا وسائط التوبة اكثر ممّا في السابق - فلا تكتفوا بالصدقة. او بالصلوة. او باستماع الوعظ وقراءة الكتب الروحيّة. او تناول الاسرار المقدّسة. بل استعملوا هذه كلّها معًا *

وامّا الوجه الثاني الذي بهِ تستطيعون ان ترفعوا حجارة العثرة واسباب الخطية. فهو نزعكم عن العدوّ اسلحتهُ - انّهُ لو كان الواحد منكم مربوطًا مع اسد بسلسلة واحدة. اما كان يجتهد في ان يكسر انيابهُ ومخاليبهُ او على الاقلّ ان يضعّفهُ بالجوع - الّا انّكم انتم تفعلون بخلاف ذلك. فمن ذا يعتقد انّكم تريدون ان تظفروا بعدوّكم بتجريدكم ايّاهُ من اسلحتهِ. وها انّكم مرتبطون مع جسدكم الذي هو اشدّ شراسةً من وحشٍ ضارٍ. فهل تضعّفونهُ بالجوع اي بالصوم. كلّا - انّكم لا تنزعون عن الاسد انيابهُ ومخاليبهُ. بل تسنّونها وتصيّرونها اكثر حدًّا. لانّهُ عوضًا عن ان تجنّبوا المسامرات والتنزّهات واللعب واللهو والتنعّم. نراكم الى هذا مرتاحين وفيهِ منهمكين. فهل هذا العمل هو عمل من يريد ان يزيل خطر الخطية - انّي لستُ اتكلّم الآن عن الخطر القريب الذي سنفتح الكلام عنهُ في موعظة خصوصيّة. لكن كلامي هو عن الاخطار البعيدة التي انتم لستم معتادين ان تسقطوا فيها الّا في النادر. الّا انّهُ من حيث انّها تقوّي

الشهوة. يجب أن تحفّظوا من اكثرها على الاقلّ ان اردتم حقًّا ان تغيّروا سيرتكم وتصلحوها - يلزمكم ان تحبّوا الخلوة. ولا تقولوا انَّ هذا امر مستغرب. وانّ مثل هذه الحيوة هي عين الموت بالضجر والملل. كلاّ بل انّ من يموت هكذا يبتدئ ان يحيا حيوة حقيقيّة - فهؤلاء الذين لاجل عادتهم للرذائل قد صار ايمانهم ميّتًا بنصفهِ لو كانوا يفرّون من كثرة التنزّهات وينفردون احيانًا ليفتكروا في ما للخلاص. مردّدين في عقولهم افكارًا حميدة. لكانوا يعودون الى قوّتهم القديمة*

فاذًا لكي نجمع بالاختصار ما اسهبنا فيهِ الكلام نقول ينبغي كما قال الذهبيّ الفمّ ان تمتدّ الارادة الى الفعل. ولا يكفي ان نقتنع بارتياح مجرّد لاصلاح السيرة - انظروا الى هذا التاجر الذي بعد فقدهِ امواله يلتمس بالحقيقة ان يعود غنيًّا: انهُ لا يكتفي بمجرّد الارادة. بل يطلب مركبًا ويتكلّم مع النوتي ويعطيهِ الاجرة ويسير ما بين العواصف ليصل الى معدن الذهب - ثم يستتلي القدّيس المقدّم ذكرهُ قائلاً: هكذا ان كان لنا ارادة حقًّا ففي طاقتنا ان نتغيّر ونصير ذهبيّين من كوننا فخّاريّين. من اجل انَّ النعمة لا تمتنع عنّا اصلاً - والامر كلّهُ متوقّف على هذا وهو ان نريد على النوع المتقدّم ذكرهُ ارادةً فاعلة - وها انّي اورد لكم خبرًا منهُ تفهمون كيف يكون العزم الحقيقيّ الفعّال - خبّرونا انّ هوغون امير تسكانا بعد ان صرف صباهُ وشبوبيّتهُ في البرّ. سلّم نفسهُ للملذّات الجسديّة واستمرّ زمنًا مديدًا متمرّغًا في حمأة الدنس. غير انّهُ مع هذا كلّهِ لم يزل قلبهُ متعبّدًا لمريم امّ الله. الاّ انّهُ كان من جملة العابدين الذين يريدون ان يفصلوا يسوع من مريم - فاتّفق يومًا انّهُ ذهب للصيد ولكثرة تعبهِ اشتدّ عليهِ عطش مذيب وكان متحيّرًا. واذا برسل سماويّ ظهر لهُ بشكل شابّ بهيّ وقدّم لهُ صحنًا مملوًّا فواكه الاّ انّها كانت موسّخة حتّى انَّ النظر اليها كان يدعو الى الكراهة فضلاً عن الاكل منها - فاشمأزّت نفس هوغون من المأكل. ولم يتناول هذه الهديّة. فقال لهُ الشابّ: هذا مثال عبادتك للعذراء: نعم انَّ

هذه العبادة هي جيّدة جدًّا في ذاتها . الّا انها متوسّخة كلّها بسيرتك الدنسة - فمن ذا لم يكن يظنّ في هذا الامير انهُ يقلع من ساعتهِ من سيّئاتهِ - فلم يتب عنها بعد ذلك . بل تورّط فيها بأشدّ عزم . لانهُ ولو كان قاصدًا ذلك لم يفرّ من اسباب الخطيّة - واذا بأعجوبة اخرى اعظم من الاولى . وذلك انهُ حينما كان مرّةً اخرى ملتهيًا بالصيد اظلمت السمآء وتكاثر المطر جدًّا حتى انهُ اضطرّ الاميرَ ان يدخل الى مغارة وحدها في الغابة وعند دخولهِ رأى منظرًا هائلًا . وذلك انهُ ابصر هناك اتّونًا مشتعلًا وحولهُ حدّادون سود كانوا يُخرجون من الاتّون لا حديدًا بل اجساد بشرٍ متقطّعة ويطرقونها بالمطارق . فظنّ الامير انّهم حدّادون حقًّا وانّهم قوم سوء وسحرة - وكان يبغض طبعًا جنس هؤلآء الاشقيآء فاحتدّ عليهم بغيظ عظيم وتوعّدهم مقسمًا ان ينتقم منهم لا محالة - واذا بواحد منهم التفت اليهِ بوجه عبوس شرس وزجرهُ قائلًا لهُ : دع عنك هذا التوعّد الباطل . اننا لسنا كما يختلج في فكرك سحرة . بل نحن خدّام العدل الالهيّ . نعذّب هكذا الخطاة الشهوانيّين الذين قد سُلّموا لنا . ونحن في انتظار رجل امير يقال لهُ هوغون . وان سُلّم لنا . فانهُ سيُلقَى على هذا السندان جزآء فجورهِ وقبائحهِ - فلمّا سمع الامير هذا الكلام ارتجع الى بلاطهِ مسرعًا وهو متغيّر ومتخشّع . واخذ يبتدئ بأعمال التوبة . فاعترف بخطاياهُ في وسط الشوارع . وبعد ان اخذ الحلّ من الاسقف كان يقول للناس الذين يتجمّعون اليهِ : انّ هوغون بطل ان يكون هوغون . وفعل كما قال *

تاملّوا يا مباركين هذه الكلمات التي في شانها اوردتُ لكم هذا الخبر وهي قولهُ : انّ هوغون بطل ان يكون هوغون : على هذا تتوقّف صعوبة الاعتراف . اعني العزم الحقيقيّ الفاعل على ان نبطل ان نكون كما كنّا سابقًا - فليقُل كلّ منّا باطنًا : حقًّا انّي اريد ان اصلح سيرتي . ولانّي اريد ذلك حقًّا فقد عزمتُ ان اهرب من الاماكن والمعاشرات الفلانيّة واعترف واتناول الاسرار الالهيّة

بتكاثر. واستعين بالصلوة وادعو ملاكي الحارس مرّاتٍ كثيرة. واصلّي الى ملكة السمآء والملائكة. وافعل جميع ما يامرني بهِ معلّم اعترافي - فهذا عزم ارادة من يريد حقًّا تغيير السيرة - وان كان بعد هذا كلّهِ تسقطون جديدًا فيجوز لكم حينئذٍ ان تنسبوا ذلك الى ضعف الارادة السريعة التغيير. لا الى نقص كان في عزمكم. لانّكم تكونون قد عملتم بمشورة روح القدس وهي اقلاع القلب عن الخطيّة بعزم متين عموميّ فاعل - فاذكروا يا مباركين ما قلناهُ في ابتدآء هذا التعليم وهو. انّ الاعتراف هو اقلاع المومن عن الخطيّة وتغيير الارادة بالكلية. فمن تاب هكذا عن اثمهِ فانّهُ كما قال النبيّ سيحيا (حزقيال ٢٢ : ١٥) - والآن اسأل الله الذي هو روح حقّ ويريد ان تعبدوهُ بروحٍ وحقّ. الّا يسمح ان تنخدعوا في امر قد تعلّق بهِ الاجر الابديّ والعقاب السرمديّ *

الموعظة الثانية والستّون

في العزم الضروري للمعترف على ان يهرب من اسباب الخطيّة

انّ من افاضل الناس الغابرين توما مور وزير ملك الانكليز المشهور بالحزم في تدبير المملكة وبفضائلهِ الدينيّة وبانّهُ اختار ان يموت افضل من ان يشترك مع المشاقّين اعدآء الكنيسة الرومانيّة - ذُكر انّ هذا الوزير اتاهُ يومًا حارس سجن المجرمين واخبرهُ بانّ المسجونين نقبوا الحائط وهربوا في الليل جميعًا. فاجابهُ الوزير اللبيب متبسّمًا: انّي لو كنتُ مسجونًا معهم لفعلتُ مثلهم. والآن لا تهتمّ الّا بشيءٍ واحد وهو ان تحضر بنّائين لكي يبنوا سريعًا ما قد هُدم لئلّا يرتدّ احد الهاربين الى السجن - فمن هذا الخبر نتّخذ اليوم عبرة مفيدة للخلاص - انّكم يا مباركين قد خرجتم بنعمة الله من السجن حيث كان الشيطان يحفظكم

مسجونين وتباعدتم هاربين من هذا المنزل المخطر وابطلتم هذه المعاشرة المهلكة. انكسر الفخّ فنجوتم. فما الذي يجب الآن عليكم فعلهُ: انهُ ينبغي اولاً ان تجنّبوا هذه المنازل والعشرات التي استعملها العدوّ كفخاخ نصبها عليكم ليلقيكم في حفرة الخطيّة - ولا بدّ من ان تعقلوا جيدًا ضرورة هذه الغيرة. وفي ذلك يجب ان تعلموا انهُ من غير هذا العزم على ترك اسباب الخطيّة لا يفيدكم الاعتراف *

الاّ انهُ ينبغي قبل كلّ شيء ان اوضح لكم ما هي الاسباب التي نحن اليوم في صددها. فاعلموا انّ سبب الخطيّة هو كلّ ما فيهِ خطر السقوط في الخطيّة - فان كان هذا السبب يزجنا مرّات كثيرة في الخطيّة فهو يُدعى سببًا قريبًا. وان كان يورّطنا فيها في النادر سُمّي سببًا بعيدًا - ولبيان ذلك فلنضربنّ مثل انسان يحبّ اللعب. ومتى ما خسر فيهِ. من عادتهِ ان ينطق بالتجديف. فاللعب نظرًا لهذا الشخص هو سبب قريب - وآخر يحبّ اللعب ايضًا. الاّ انهُ حينما يخسر يضبط لسانهُ. ولا يجدّف الاّ في النادر جدًّا. فاللعب نظرًا اليهِ هو سبب بعيد فقط - هذا ما قالهُ المعلّمون كافةً. والآن اقول ان كلّ من كان في مكنتهِ ان يترك السبب القريب اعني ان يتجنّب هذا البيت او هذه المعاشرة التي بسببها قد سقط مرّاتٍ كثيرة في الخطيّة فهو ملزوم بتركهِ. ومن لا يهرب من هذا السبب فانّ اعترافهُ هو باطل. لانهُ من الاكيد انهُ سيعود سريعًا. والافضل ان نقول انهُ قد عاد اليها *

انهُ من الامر الغريب العجيب تعوّد هؤلاء الخطاة الذين يسقطون احيانًا قبل ان تضايقهم التجربة. ومع هذا يترجّون ان يقاوموا كلّ تجربة - كذلك بنو افرام كانوا يفتخرون بصناعة رمي القسيّ. الاّ انّهم انهزموا في يوم الحرب كما قال صاحب المزامير (مزمور ٧٧ : ٩) - وحماقتهم هذه تتولّد تارةً من الشهوة التي من حيث انها تستصعب ترك ما ترغبهُ وتحبّهُ. تعتقد بسهولةٍ ما يسهّل حفظهُ والتمتّع بهِ. وتارةً من الشيطان الذي جعل رجاءهُ بهلاك النفوس في شبكة

هذا السبب القريب . ومن ثمّ يخفيها عن معرفة الناس على قدر ما يمكنهُ . ويصوّر لنا اننا على حال الطمأنينة حاصلون . لكي يهلكنا بأمان اوفر *

وقد نسمع هؤلآء الخطاة يتكلّمون عن انفسهم كأنّهم قدّيسون غير قابلي الفساد . فمنهم من يقول : لا خطر عليَّ ولو ارتجعتُ الى هذا البيت . لانّي بالتاكيد لا اسقط – ومن اين تعلم يا هذا انهُ ليس عليك خطر وانّك لا تسقط . فلا بدّ من انّك تعتمد على العون الالهيّ . او على قوّة اختيارك . والحال انّ اعتمادك على هاذين المسندين هو ضرب من الحماقة المهلكة – اقول اوّلًا انّك بئسما تعتمد على المسند الاوّل . اي على العون الالهيّ . لانّ الله كما قال القدّيس قبريانس . لا يريد ان يؤتينا نعمتهُ على حسب غرضنا بل على حسب الترتيب المرسوم من حكمتهِ . ولهذا فمن الغباوة رجاؤك بالعون الالهيّ في هذه المخاطر التي تلقي نفسك فيها عمدًا . لانّ المعلّم الماهر والخبير لا يقدّم لتلميذهِ درسًا جديدًا قبل ان يحفظ الدرس الذي بين يديهِ . وهكذا الله من عادتهِ ان لا يعطي النعمة بعد النعمة . الّا ان نكون قد سعينا مع النعمة المتقدّمة – فاذًا حينما نرذل نصيحتهُ الابويّة التي بها يرينا الخطر ويحثّنا على الفرار منهُ . نستحقّ ان يمسك عنّا العون الآخر الذي بدونهِ لا نستطيع ان نتحفّظ من الخطيّة في محلّ الخطر – فان قلتم كيف اذًا وعدنا الله بان يسعفنا بنعمتهِ في حين التجربة . ولماذا اوصانا ان نطلب هذا العون في الصلوة الربيّة ان كان لا يريد تعالى ان يمنحناهُ : اجيبكم بما يريكم ضلال هذا التفلسف وبطلانهُ – فاعلموا انّ الله قد وعدنا بعونهِ في التجارب التي تدركنا وتوافينا . لا في التجارب التي نختارها ونطلبها – اليس انّهُ قد اوصى ملائكتهُ ان يحفظونا في جميع طرقنا (مزمور ٩٠ : ١١) . ولو اراد احد ان يزجّ نفسهُ من برج عالٍ لكان الملاك يدعهُ ان يسقط ويموت . فانظروا القوم الذين ينسبون سقوطهم امّا الى ضعفهم . وامّا الى عدم عون النعمة : ما هذا الضعف . انظروا الى الزجاج . اليس هو ضعيفًا سريع العطب

والانكسار ايضاً. ومع هذا فمن عرف ضعفهُ يحفظهُ من الخطر باشدّ الاحتراس. وهكذا يدوم صحيحًا مدّة من الدهر: هذا ما قالهُ القدّيس اوغسطينس – واما قولكم عن النعمة انها تعوزكم. فاجسر واقول انها لا تعوزكم النعمة. بل انكم لا تسعون معها. انّنا نرى انّ الحيوانات الكثيرة فزعًا مثل الارانب اعطتها الطبيعة سرعة عظيمة للهرب. فلو احبّت الارنب ان تصطفّ تجاه كلاب الصيد بدلاً من ان تهرب منها وتختفي. بل لو اكتفت بالامتثال امام الكلاب ونبّهتها وايقظتها والقت نفسها بين اسرابها. هل يليق بها ان تشكو الطبيعة كأنّها لم تمنحها ما يعوزها – فهذا عينهُ تفعلونهُ انتم: انكم مستعدّون دائمًا كما قال ايوب البارّ ان تنبّهوا لوياثان (ايّوب ٣ : ٨) اي الشيطان لكي يثب عليكم ويفترسكم. وبعد هذا تطلبون ان تُغفَر لكم جراحكم. انتم الذين لا تستحقّون ان ينظر اليكم احد بعين الرحمة – قال الحكيم: من الذي يرحم راقيًا لدغتهُ حيّة وجميع الذين يصارعون السباع (سيراخ ١٢ : ١٣). كذلك من يرحم الذين يدنون من التجربة حينما تكون مبتعدة منهم – انَّ الله لا يرحمهم. لانهُ في تدبيرهِ النفوس قد رسم هذا القانون وهو. انهُ لاجل حفظ نعمتهِ نهرب من سبب الخطيّة. ولهذا قال على لسان اشعياء النبيّ: انصرفوا انصرفوا اخرجوا من هناك. لا تمسّوا النجس. اخرجوا من وسطها (اشعيا ٥٢ : ١١) – اسمعوا قوّة هذه الالفاظ التي بها يامرنا الله بان نهرب من سبب الخطيّة: انصرفوا انصرفوا عنهُ ان كنتم قريبين منهُ. وان كنتم قد ولجتم فيهِ فاخرجوا منهُ سريعًا. وعند خروجكم احذروا من ان تمسّوا ما يدنّسكم – ابعدوا. اخرجوا منهُ. لا تدعوا اشخاصكم ولا قلوبكم ان تمكث هناك – هذا ما أَمر الله بهِ ابناء البشر في العهد القديم الذي هو اقلّ كمالاً من العهد الجديد. فكم وكم يريد منّا ان نتجنّب سبب الخطيّة في العهد الجديد *

انَّ السيّد المسيح لا يكتفي بان نبتعد من سبب الخطيّة. بل يريد ان نقطعهُ. مشيرًا بذلك الى انهُ يلزمنا ان نتباعد عن هذا السبب سريعًا تباعدًا

كاملاً. لانّهُ هكذا يقول: ان شككتك يدك او رجلك فاقطعها والقِها عنك. وان شككتك عينك فاقلعها والقِها عنك (متى ١٨: ٨ و ٩) - اعتبروا يا مباركين انّهُ تعالى لم يقُل اغضوا العين. بل قال اقلعوها. ولم يقُل اوثقوا اليد او الرجل. بل قال اقطعوها. لانّهُ لا يجوز للمسيحيّ ان يقول: لاجعلنّ نفسي في الخطر واثبت فيهِ شجيعاً مقاوماً - انّي سادخل هذا البيت. واحضر هذه الندوة. واعاشر فلاناً او فلانة. ولكنّي لن ارتضي بالخطيّة - فهذا قول يضادّ وصيّة ربّ المجد حيث قال: اقطع. اقلع. واراد بذلك انّهُ ولو كان هذا الشخص لديك اعزّ من عينيك وضروريّاً لك مثل رجلك ان كان لك سبب خطيّة يجب عليك ان تفارقهُ - واعتبروا ايضاً انَّ السيّد المسيح ما عدا قولهُ: اقطع يدك او رجلك. واقلع عينك يقول ايضاً القِها عنك. فلا يكفي ان تترك هذا الشخص وتخرج من بيتهِ او تخرجهُ من بيتك. بل ينبغي ايضاً الّا تزورهُ في بيت غريب أو تكاتبهُ او ترسل من يكلّمهُ من قِبلك. لانّهُ قد قال سيّد الكلّ: اقطع والقِ عنك وابعدهُ بعداً. حتّى انّك لا تسمع خبرهُ - اجعل العودة الى الخطيّة لا عسراً فقط. بل غير مستطاع ايضاً. اقطع والقِ عنك - حكى احد الاطبّاء الماهرين انّ رجلاً من الفلّاحين بينما كان يقطع العشب بالمنجل قطع افعواناً الى نصفين. وبعد ذلك مسك بفرح النصف المتعلّق بهِ الراس. فلدغهُ الافعوان ومات الفلّاح من ساعتهِ قبل موت الافعوان - فهذا الفلّاح قطع. نعم. الّا انّهُ لم يلقِ عنهُ. تلك حال كثيرين وهم الذين بعد قطعهم المعاشرة الرديّة. لا يكفّون عن ارسال الكلام والسلام. ولسبب ذلك يهلكون انفسهم - فاقطعوا اذاً والقوا عنكم كلّ حجر عثرة. لانّهُ باطلاً تطلبون من الله عوناً يحفظكم في التجاريب ان كنتم تلقون فيها انفسكم عمداً *

بقي الشيء الآخر الذي تعتمدون عليهِ. وهو اختياركم وانّكم ترجون الثبوت بقوّة عزمكم. الّا انّ هذا تفلسف انسان احمق. بل انسان غير مومن.

لانهُ قد قال سيدنا يسوع المسيح انهُ بدوني لا تقدرون ان تفعلوا شيئاً (يوحنا ١٥ : ٥) - اننا نشبه نوعاً من الطيور لا ارجل لها. فاذا وُجدت على الارض لا تستطيع ان ترتفع الى الجو الاّ بريح موافق يهب عليها ويسعفها الارتقاء. لاننا مع كل قوة اختيارنا لا يمكن ان نفعل ادنى فعل فائق الطبيعة اذا لم يعنّا روح القدس بنسيم نعمتهِ الالهيّة التي بدونها كما قال القديس اوغسطينس لا يقدر الانسان ان يصنع خيرًا بفكرهِ وارادتهِ - فاذاً ما عدا الحماقة يرتكب الاثم من يعتمد على قوتهِ الذاتية ويعرقل رجليهِ في الشبكة راجياً النجاة منها - قال ايوب البار: من اجل ان رجليهِ دفعتاهُ الى المصلاة. وعلى الشبكة سلك. فامسك الفخ بعقبهِ (ايوب ١٨ : ٨ و٩) *

وازيد على ذلك انهُ ولو امكن للانسان ان يصنع خيرًا من تلقاء نفسهِ وبقوتهِ الذاتية. لم يكن يصنعهُ حينما يلقي نفسهُ في خطر الخطية. والسبب في ذلك هو انهُ حينئذٍ يقاومهُ نوعان من التجارب. بعضها باطنة صادرة من الشهوة. وبعضها خارجة صادرة مما يرى. والحال ان هاذين النوعين من التجارب يتفقان في محاربة من يلقي نفسهُ في خطر الخطيّة متعمدًا - ومن ثم فلو امكن للخاطئ ان يقاوم محاربة شهوتهِ لما امكن ان يقاومها وهي مقترنة ومعضودة بمشاهدة ما تلتذ بهِ. لان اللذة تسحر الوهم وتنجّس القوة الذاكرة وتسبي العقل وتنتصر على الارادة. ولو كانت سالمة من كل خباثة حسب كلام الحكيم: سحر الهوى يسوّد الحسنات. وطموح الشهوة يقلب عقلاً سليماً (حكمة ٤ : ١٢) *

وفي هذا ذكر احد المؤرخين الثقة عن لص حُكم عليهِ بالموت انهُ فيما كان ذاهباً الى المقتل اجتاز لسوء حظهِ تحت شباك فتاة كان عاشقاً لها. فابصرها وشخص فيها نظرهُ. فاتقدت في قلبهِ نار الشهوة وارتضى باطناً بالخطية - انظروا قوة سحر الشهوة. هذا رجل مسيحي ماضٍ الى الموت بعد الاعتراف صحبة كاهن فاضل يعظهُ مع ايقونة الصليب المقدس بيدهِ. ومع جماعة من المومنين

يصلّون لاجلهِ. ولحظة واحدة اضرمت في قلبهِ نارًا لا يقدر الموت المنتصب بين عينيهِ ان يخمدها. ولا الخوف من عدل الله العتيد ان يهلكهُ بعد دقيقة من الزمن يستطيع ان يطفئها - افهمتم الآن تفاقم غباوة الخطاة الذين يلقون انفسهم في خطر الخطيّة مطمإنين راجين الثبوت - لا ترجونّ. لا ترجونّ ما هو من المحال. اهربوا بعيدًا بعيدًا. لا تقفوا في كلّ هذه الناحية المحيطة بكم. هذا ما قالتهُ الملائكة للوط لمّا اخرجوهُ من المدينة الملعونة (تكوين ١٩ : ١٧) مشيرين بذلك كما اعتبر مار توما اللاهوتيّ. انّهُ لا يكفي ان نخرج من منزل الاثم. بل ينبغي ان نهرب منهُ بعيدًا *

فمن هذا التعليم قد لاح لكم كم يضرّ نفوسكم الكاهن الذي يركن الى وعدكم فيحلّكم مع انّكم غير عازمين على ترك سبب الخطيّة او غير تاركيهِ حالاً وانتم قادرون على ذلك - اعلموا انّ مثل هذه الحلّة لا تفكّ قيودكم. بل تربطكم مع الكاهن بسلسلة واحدة. لانّهُ لا يجوز للكاهن ان ياذن لكم بالمكث في سبب الخطيّة وانتم قادرون على تجنّبهِ - ولا يجد من يعذرهُ عند الله. لانّهُ اذا ما وجد الحاكم رجلاً سكّ دراهم زائفة وغفر لهُ راحمًا واطلقهُ سالمًا. لا يجوز للحاكم ان يرتضي بان يحفظ ذلك المجرم آلات صناعتهِ المذمومة. وان رضي الحاكم بذلك يشترك في خطيّة المجرم لاجل انّهُ خالف الشريعة - وباطلاً يعتذر الكاهن بقولهِ. انّهُ لم يكن يعرف هذه الشريعة. لانّهُ لم يكن جائزًا لهُ ان يباشر وظيفة حاكم دون معرفة الشريعة - ثم انّ الكاهن في سرّ الاعتراف ليس هو حاكمًا فقط. بل هو طبيب ايضًا مع المعترف. فكيف يجسر ان يداويهُ بدون معرفة الأَمراض الثقيلة - يا للجهل ويا للغباوة التي يسقط فيها القسّيس اذ يصدّق بوعد تلميذهِ بترك الخطيّة حينما يكون من المحقّق انّهُ يرتجع اليها حالاً - انّ مثل هذا الوعد يضادّ الصواب والاختيار: انّهُ يشبه طبيبًا يحكم على مريض انّهُ متعافٍ قبل ان ينزع عنهُ سبب مرضهِ - فيا ما ارهب ما يكون الحساب العتيد ان يعطيهُ عن

النفوس التي اهلكها بتلمذتهِ . فيموت التلميذ في اثمهِ كما قال الربّ على لسان حزقيال . ولكنّ دمهُ اطالبك بهِ (حزقيال ٣ : ١٨) *

وفي هذا قد ذُكر انّ رجلاً من ذوي الحسب عاش مع الزانيات كمثل الغراب بين الجثث . ومع هذا فكان القسّيس يحلّهُ . ولكن ماذا حدث بكليهما : مات التلميذ . وظهر بعد ذلك لامراتهِ راكبًا على منكبَي رجل آخر . وكلاهما متمنطقان بزنانير من نار . فارتعبت الارملة وقالت : من انتما ومن ادخلكما الى هاهنا . فقال لها : انا زوجكِ . والذي يحملني على منكبيهِ هو معلّم اعترافي . وقد هلكنا كلانا . انا في الاعتراف لانّي لم اعزم على ترك سبب الخطيّة . ومعلّم اعترافي لانّهُ كان يحلّني ولم يلزمني بترك هذه الاسباب . قال هذا وغاب عن النظر . وقد صحّ فيهما قولهُ تعالى : أعمى يقود أعمى . وكلاهما يقعان في حفرة (متى ١٥ : ١٤) – فهذا اعني عدم سبب ترك الخطيّة هو السبب المالوف الذي من اجلهِ لا يثبت المومنون في حال البرّ . لاننّا نراهم بعد اعترافاتهم كأنّهم نادمون على ما ندموا عليهِ اذ يرتدّون عاجلاً الى ما كانوا عليهِ من السوء سابقًا . وينسبون ذلك الى الضعف البشريّ والى عدم ثبوت الارادة في عزمها – الاّ انهم ضالّون في هذا غالبًا . لانّ السبب الحقيقيّ المالوف هو الذي ذكرناهُ . وهو انّ المعترف لا يعتني بترك سبب الخطيّة . ولا الكاهن يهتمّ بان يلزم تلميذهُ بازالة حجر الشكّ والعثرة *

غير انهُ لا يكفي ان نقول عن هؤلاء الواعدين بالامتناع عن الخطيّة الملقين انفسهم في خطر الخطية القريب انهم يسقطون فيها . بل انّي ازيد على ذلك واقول : انهم قد سقطوا فيها . لانّ قوّتهم كما قال اشعياء النبيّ تكون كالمشاقة (اشعيا ١ : ٣١) . كأنّ النبيّ يقول انّ قوّة الخطاة تشبه قوّة مشاقة مستعدّة ذاتًا للالتهاب – فاذًا باطلاً يقولون في محلّ الاعتراف انهم اذا عادوا ودخلوا هذه المنازل وعاشروا هؤلاء الاشخاص لا يخطئون . والسبب لذلك هو انّهم قد أخطأوا بعزمهم على هذا الرجوع الى الخطر القريب . وقوّتهم ليست هي

قوّة المشاقة التي قد يمكن ان تتوقّد وتلتهب سريعاً . بل انّما هي قوّة المشاقة التي قد انّقدت والتهبت - اتريدون ان اوضح لكم هذا . فاحسنوا النصت والاصغاء . انهُ حينما تمدحون انفسكم هكذا بقولكم بانّكم اذا ألقيتم انفسكم في الخطر لا تسقطون . لا بدّ ان تذكروا قليلاً سقطاتكم الماضية .ومن ثمَّ لا بدّ انّكم تشكّون في خروجكم من سبب الخطيّة ازكياء - ومن شكّ هكذا شكّاً صوابيّاً . ومع هذا يلقي نفسهُ في خطر الخطيّة والهلاك من غير ضرورة وسبب موجب . فانهُ بعين فعلهِ هذا يخطئ - وقولي هذا يعتمد على سببين . السبب الاوّل هو انّ ذاك لا يعظّم الله ولا يحبّهُ بمقدار ما يجب ان يعظّمهُ ويحبّهُ . لانهُ يركز محبّة الله على مسند مشكوك فيهِ . ويلقي نفسهُ في خطر مخالفة الناموس الالهيّ . الذي يجب عليهِ ان يحبّهُ افضل من حبهِ لحياتهِ . فاذاً لا بدّ من انهُ يغيظ الله بذلك وانَّ الله يبغضهُ - وقد ذكر الرسول هذه الحقيقة واثبتها بقولهِ لاهل رومية : اخذت الخطيّة علّةً . وهيّجت بي كلّ شهوة (رومية ٧ : ٨) - فاذ قال الرسول اخذت الخطيّة علّةً اي سبباً عنى انهُ بذلك قائم شرّ الخطيّة لا في مصادفة الخطر على غفلةٍ . بل في طلبهِ متعمّداً واقتبالهِ اختياريّاً بوجهٍ باشّ متهلّل - فمن كان هذه الحال حالهُ . لا يقول عنهُ الرسول حسب تفسير مار توما اللاهوتيّ انَّ الخطيّة تصدر فيهِ فعلها . بل يقول انها قد هيّجت فيهِ الشهوة اي اكملت فيهِ فعل الشهوة . لانّ اقتبال سبب الخطيّة هو عين فعل الخطيّة . لسبب انَّ الوصيّة التي تلزمنا بالفرار من الخطيّة . تلزمنا ايضاً بالفرار من سببها القريب - فمن الواضح انَّ من يحبّ هذا الخطر فلا بُدّ من ان يتعدّى الوصيّة التي تنهى عنهُ ويحبّ الخطر ايضاً *

فمن هنا انجلوا جسامة ضلال الذين يعتذرون في الاعتراف قائلين : انّي ارتجعتُ الى هذا البيت ووجدتُ هناك الشخص الفلانيّ وخضت معهُ بالحديث . ومع هذا لم اسقط في الخطيّة - الاّ انّ من يقول هذا . لا يدري

بانّ الدخول لزيارة الشخص الذي كان معتادًا على السقوط في الخطيّة معهُ هو عين الخطيّة . لانهُ ولو انهُ لا يخطئ من الجهة الواحدة . الاّ انهُ يخطئ من الجهة الاخرى بمخالفتهِ الوصيّة التي تنهى عن الارتضاء بالدنس . بل الوصيّة التي تنهى الانسان عن ان يلقي نفسهُ في خطر الارتضاء بها - انّ هذا التعليم واضح كثيرًا . الاّ انّ الهوى يمنع كثيرين ان يفهموهُ . وهم على الخصوص الذين يحتاجون الى استفهامهِ اكثر الاحتياج - فها انا اوردهُ بمثال يوضح جليًا ما نحن في صددهِ . انّ الوالدة التي ترضع طفلها تلزمها الوصيّة الاّ ينام طفلها معها على فراشها . فلنفترضنّ انها تركتهُ ينام معها خلوًا من ضرورة . ولم تخنقهُ . ولكن من ذا لا يقرّ انها اخطأت بذلك . وما سبب ذلك الاّ انها بغير سبب واجب خاطرت بان تخنق طفلها - راجعوا هذا الى انفسكم : انكم نعم ما تورّطتم في خطيّة الزنا لمّا ارتجعتم للمنزل الفلانيّ بغير سبب صوابيّ . ذلك مسلّم . ولكن قد اخطأتم بالقاء انفسكم اختياريًا في خطر فعل الخطيّة . هذه هي الحجّة الاولى *

والدليل الثاني على انهُ يخطئ من يقدر ان يهرب من سبب خطية القريب . ولا يهرب منهُ . هو انهُ يرتضي باطنًا بخطيّتهِ . ولفهم ذلك تصوّروا في عقولكم رجلاً قد قُتل ابنهُ الوحيد . هذا اذا رأى بعد ذلك انّ قاتل ابنهِ يكسر اربًا اربًا السيف الذي بهِ قتل ابنهُ ويلقي بعيدًا القِطَع قائلاً : الويل لي لانّي رايتُ هذا السيف ومسكتهُ . فانّ الاب يعتقد حينئذٍ بسهولةٍ انهُ نادم على اثمهِ . الاّ انهُ اذا رآهُ يزيّن غمدهُ ويردّ فيهِ سيفهُ ملطوخاً بدم الابن الذي قتلهُ ويضعهُ مع نفائس بيتهِ . فلعمري انّ الاب لا يعتقد فيهِ ابدًا انهُ نادم على فعلهِ . بل يعتقد انهُ مسرور بجريمتهِ وانّهُ مستعدّ لفعل مثلهِ - فالابن الوحيد المقتول يا مباركين هو ابن الله الازليّ المصلوب ثانيةً من الخطاة كما قال الرسول . والآلة التي بها جرى هذا القتل هي تلك المرأة او الفتاة التي تحبّونها اكثر من

الله - الّا انهُ اذا كان الله بعد هذا الفعل يراكم تخرجون من عندكم هذه المراة الشقيّة او ان لم تكن هي في بيتكم . اذا لم تعودوا تدخلون بيتها وتكلّمونها . فحينئذٍ يتحقّق عندهُ تعالى انكم تائبون ويقبلكم كقبول الاب كما ذكر الانجيل ابنهُ الشاطر - ولكن اذا رأى انكم تفعلون بخلاف ذلك لا يمكن ان يعدّكم تعالى بين النادمين بل انهُ يجرّركم تعالى بين المرذولين . لانّ من يحبّ خطر الخطيّة متعمّدًا قد قال عنهُ روح القدس . انهُ يموت موتًا سيّئًا : الذي يحبّ الخطر يسقط فيهِ . والقلب القاسي يكون لهُ سوءٌ في الآخرة (سيراخ ٣ : ٢٧) - فكيف يمكن انّ احلّ في الاعتراف مثل هولاء الذين لا يزالون يحبّون خطر الخطيّة . اين الاستعداد اللازم لأخذ الحلّة . اين الندامة والعزم الحقيقيّ على ترك الخطيّة - انهُ لو كانت ندامتهم حقيقيّة لخافوا من المرور على تلك البيوت التي فيها اخطأوا ومن الدنوّ منها - ولو كان قصدهم حقيقيًا . لما كانوا يطلبون من الكاهن ان يداوي بالمرهم الطيّب جرحهم الذي يقتضي القطع والتمزيق *

اعلموا يا مباركين انّ الوعد بترك سبب الخطيّة ليس هو غالبًا استعدادًا اهلاً للحلّة . فكيف يستحقّها من لا يريد ان يعد وعدًا بذلك - انّ الطبيب اذا اراد ان يداوي جرحًا . فانّهُ ينظّفهُ قبل ان يضع عليهِ المرهم . فلماذا تطلب منّي مرهم الحلّة لجرح نفسك . وها انّ السهم المميت معلّق بك بعد - اقلع اقلع اوّلاً السهم . اخرج من عندك تلك الاجيرة الشقيّة . اقطع سبب الخطيّة واهرب من سببها - ما النفع لو حلّك الكاهن . انّ هذا المرهم باطل اذا لم ينقلع السهم وتوبتك هي باطلة وكاذبة ومهلكة *

فاذًا انتصحوا يا مباركين . ومن الآن فصاعدًا لا تفعلوا كما في الماضي . اعقلوا جيّدًا واذكروا دائمًا انّ الذي لا يريد ان يهرب من خطر الخطيّة وسببها القريب . امّا انهُ يسقط فيها لا محالة من حيث انهُ لا يكون لهُ عون كافٍ للنهوض . لا من قِبَل قوّتهِ ولا من قِبَل النعمة الالهيّة . وامّا انهُ قد سقط لاجل

انهُ قد خالف وصيّة الله التي تلزمنا بالهرب من خطر الخطيّة. وايضًا لاجل انهُ يسرّ بهذا الخطر *

فعندما تزمعون ان تعترفوا اهتمّوا قبل كلّ شيء ان تجدوا سبب خطيتكم لكي تجنّبوهُ محاسبين انفسكم وقائلين: ما الذي يصيّرني ان ارتدّ الى خطيتي بعد ما وعدتُ الله مرّاتٍ كثيرة بان لا اعود اليها: انّ سبب ذلك هو دخولي ذلك البيت او معاشرتي ذلك الشخص - فايّاك يا اخي ثمَّ ايّاك ان تعترف قبل ان تكون عزمت على قطع سبب الخطيّة. انّي اعلم انّ الشيطان يبذل كلّ جهدهِ وجدّهِ في ان يمنعك عن الانفصال. لانّ رجاءهُ بهلاكك انما يعتمد كلّهُ على ذلك. والى ذلك اشار ارمياء النبيّ. اذ قال: سيّج حولي فلا استطيع ان اخرج. اثقل أغلالي (مراثي ٣ : ٧) - فيصوّر في عقلك حججًا كثيرة خداعة بها يريد ان يحفظك في حال الخطر. فايّاك ان تثق بعدوّك كما قال الحكيم (سيراخ ١٢ : ١٠) - هكذا كان الشيطان يخادع بني إسرائيل كي يرغّبهم عن الخروج من بابل. وذلك بقولهِ لهم: ان خرجتم من بابل تخسرون مساعدة الذين اكتسبتم محبّتهم والارزاق التي ربحتموها هنا. ثمّ انهُ اذا خرجتم لا تجدون في الطريق حوائج العيش. واذا وصلتم لا تجدون ما تحتاجون اليهِ. فالاجدر بكم الآن ان تمكثوا في بابل وتحفّظوا فيها من الخطيّة من غير ضرر. الّا انّ الله كما ذكرنا آنفًا كان يشير ويامر بما يضادّ مشورة اللعين قائلًا: اخرجوا من بابل سريعًا. اخرجوا. اغربوا اغربوا عنها بعيدًا - فكرّر عليهم امرهُ الالهيّ اربع مرّات لكي يعلموا كم كان يجب عليهم ان يقطعوا قيود الشيطان - فهذا نفسهُ يقولهُ الله لكم يا مباركين. لا تلتفتوا الى محبّة الخليقة. ولا الى الفائدة الواصلة لكم من ذلك المنزل. اخرجوا اخرجوا ولا تبالوا بما يصيبكم ويصيب غيركم من الضرر - اغربوا تباعدوا. انّ الآب السماويّ القادر على كلّ شيء سيساعدكم في حاجاتكم ويعزّيكم. وكيفما كان الامر فخير لكم ان تموتوا في حال الفقر مع القوم

المختارين من ان تعيشوا في التنعّم في بابل مع اعدآء الله *

وان كان غير ممكن لك ان تترك سبب الخطيّة القريب . فما الذي يجب عليك فعلهُ . فاصغوا لتعليم روح القدس : لاتسلك في طريق الاشرار . اجنح عنهُ ولاتمرّ بهِ (امثال ٤ : ١٤ و ١٥) - فاقول لذلك الابن الساكن مع ابيهِ : انّهُ اذا كان امرًا يفوق طاقتك ان تخرج من البيت الاجيرة التي قد سقطتَ معها مرّاتٍ كثيرة . فابكِ على حالك وتأسّف على شقائك . واحزن على انّك لا تقدر ان تخرج من الخطر - فان كنتَ لا تستطيع ان تهرب من الخطر بالكليّة . فتجنّبهُ على مقدار ما يمكنك - اجنح عن طريق الاشرار : لا تكلّم ذلك الشخص . لا تختلي معهُ . اهرب منهُ بعينيك . اذ انّهُ لا يمكنك ان تهرب منهُ برجليك - ومع هذا اطلب العون الالهيّ باشدّ الاجتهاد . احسن عبادتك للعذرآء باوفر النشاط . تصدّق قليلاً على المساكين . مارس شيئًا من التقشّفات - قال سموئيل النبي لبني اسرائيل : ان كنتم ترجعون الى الربّ من كلّ قلوبكم . فابعدوا الآلهة الغريبة من بينكم (١ سموئيل ٧ : ٣) - اتركوا الاصنام التي احببتموها . واذا كان من المستحيل ان تخرجوها من منازلكم . فلا تدعوا ان تكون في قلوبكم . وكونوا دائمًا في الحذر كالذين يسيرون في رصد لصوص فتّاكين *

الموعظة الثالثة والستّون

في انهُ يجب ان لا نؤخّر الاعتراف بعد سقوطنا في الخطيّة

انّ الشيء الذي يرغبهُ أشدّ الرغبة من سقط في البحر هو أن تُقدّم لهُ دفّة يخلص بها من الغريق - فهذا هو الاحسان العظيم الذي تفضّل الله بهِ على الانسان من البدء حينما قدّم لهُ التوبة التي بها يقدر ان يقوم بعد سقوطهِ في الخطيّة . وقد زاد الله على هذا الاحسان في العهد الجديد لمّا جعل التوبة سرًّا من

كونها فضيلة من الفضائل فقط – قال ترتليانس : احتضن التوبة بعد سقوطك في الخطيّة نظير ما تحتضن الدفّة بعد سقوطك في البحر – فلماذا نرى اكثر الخطاة متباطئين في مسك هذه الدفّة الخلاصيّة. مؤخّرين استعمال سرّ التوبة شهورًا وسنين ايضًا. منتظرين عيد الفصح لكي يعترفوا – فمن اين هذا التغاضي: انّهُ لا بدّ انّ سببهُ هو هذا وهو تصوّر الخطاة واعتقادهم انّهُ لا باس من هذا التأخير – فنحن قد ازمعنا ان نزيل عنهم هذا الضلال فنبيّن اليوم شيئين. اوّلًا انّهُ كلّما زاد زمان تاخير الاعتراف بعد فعل الخطيّة. تزيد عليهم صعوبة الاعتراف بها – ثانيًا انّهُ كلّما طال هذا التاخير يعود اقلاعهم عن السوء وتوبتهم عنهُ اقلّ دوامًا –

انّهُ قد يمكن ان تعسر ثلاثة اشيآء على من قصد ان يعترف جيّدًا. وهي فحص الضمير. والندامة على الخطيّة. والعزم على تركها. وهذه الاشيآء الثلاثة تزداد صعوبةً بمقدار طول تاخير الاعتراف بعد ارتكاب الخطيّة – ويتّضح ذلك اوّلًا في فحص الضمير الذي ينبغي ان يصير باجتهاد وتدقيق. لانّهُ هو صورة الفحص الذي سوف يجري في محكمة العدل الالهيّ – اذا ما فحصنا ضمائرنا حسنًا ودِنّا انفسنا جيّدًا. لا ندان بعد الموت – ومن ثمّ يا مباركين يجب عليكم عند فحص الضمير ان تحاسبوا انفسكم شيئًا فشيئًا بالتدقيق والاجتهاد والصرامة كأنّكم في محكمة عدل الله. وتسألوا المذنب اعني الضمير عن كلّ الافكار والاقوال والافعال التي صدرت من بعد الاعتراف الاخير وتتذكّروا عدد كلّ منها وملحقاتهِ اي ظروفهُ – فاذا ثبت ذلك افلا ترون انّ من يبقى متأخّرًا عن الاعتراف سنة كاملة او نحو سنة. لا يقدر ان يفعل هذه كلّها – لا يُنكَر انّ الاعمال السيّئة الفظيعة لا يعسر غالبًا ذكرها. ولكن من ذا يقدر ان يتذكّر كلّ ما فعلهُ من الخطأ مدّة سنة. ولاسيّما الذين لا يزالون يشربون من كاس اللذّات الدنسة ويسكرون منهُ في كلّ ساعة – ثمّ انّ هذه الصعوبة تزداد في

خطايا الاهمال وخطايا اللسان . لانَّ الذي يقال في حقّك تذكرهُ بسهولةٍ حتى بعد سنة لانّك تحرّرهُ على الرخام والنحاس . واما الذي قلتهُ انت في حقّ غيرك فيُمحى سريعًا من بالك . لانّك تسطّر ذلك على وجه الرمل والمآء - فيا ما اصعب عليك ذكر هذه كلّها حينما تفحص ضميرك . وفوق هذا كلّهِ يعسر عليك ذكر الافكار الرديّة التي تطير كالهوآء . ومع هذا قد قال الكتاب المقدَّس عن الافكار الرديّة انها تفصل النفس من الله (حكمة ١ : ٢) وانّما اعني هنا الافكار الذميمة المقترنة بالاستلذاذ او الارتضآء بها . لانّ الانسان بها يفعل ما يفعلهُ الصديق مع صديقهِ عندما يسافر . وذلك انّهُ ان كان لا يرافقهُ بالذهاب معهُ فانّهُ يرافقهُ بالنظر والتعطّف والشوق - فانت المؤخّر الاعتراف الى مدّة مديدة . كيف يمكنك ان تذكر كلّ هذه الخطايا حسنًا - قال القدّيس برنردس انّ الحساب المتأخّر يصيّرنا ان ننسى اشيآء كثيرة *

ولعلّكم تقولون لي : نعم انَّ الامر هو كما قلتَ : الاّ انَّ الله لا يلزمنا ان نذكر في الاعتراف كلّ خطايانا . بل انمّا يلزمنا بهذا فقط وهو ان نعترف بالخطايا التي تخطر ببالنا بعد ان نفحص ضمائرنا باجتهاد فاجيب : صحيح انّ الله لا يلزمكم باكثر من ذلك . الاّ انّ الصعوبة قائمة في هذا اي في ان تفحصوا ضمائركم باجتهاد لانّهُ يجب ان يكون هذا الاجتهاد مناسبًا لمدّة الزمن الذي مضى من الاعتراف الماضي الى الاعتراف الجديد . بل انّهُ ينبغي ان يكون مناسبًا لقدر الخطايا التي فرطت منكم وكثرتها . واقول بالاجمال انّهُ ينبغي ان يكون الاجتهاد في فحص الضمير كاجتهاد انسان فطن في امر باهظ - انظروا الى اجتهاد من يريد ان يزوّج ابنتهُ او يشتري حقلاً وافر الربح . او يشترك مع احد في تجارة معتبرة . كيف يفحص عن كلّ احوال مصلحتهِ - والآن اسألكم . ما الدليل على انكّم عتيدون ان تبذلوا جهدكم هكذا في امر فحص الضمير الذي تفرّون من الاصغاء لنصائحهِ وتوبيخاتهِ - كم يتضيّق رجل مسرف اي مبذرق مالهُ من نصائح امرأتهِ

الحكيمة وتبكيتها - فهذا ما يتّفق في ما نحن في صددهِ . ومن ثمَّ كما انَّ ذاك الرجل اذا رجع الى بيتهِ يستطيل المكث فيهِ ويخرج منهُ سريعًا هربًا من التوبيخ. هكذا يضجر الخاطئ في فحص ضميرهِ ويقضيهِ عاجلًا لفرط ما يستصعب تبكيت الضمير - وزيدوا على ذلك كثافة الظلام المستحوذ على عقل من قد التصق قلبهُ بالخطايا فتولّد فيهِ هكذا الجهل الخبيث المسمّى الجهل غير المعذور. لانّهُ لا يُعذَر عن الخطيّة بل يزيدها كبرًا - وما عدا ذلك يجتهد العالم والجسد والشيطان ويبذلون كلّ حيلهم لكي يحجبوا كلّ خطايانا عن نظرنا . بل يرونا ايّاها لنا كأفعال الفطنة والعبادة لكيلا نطّلع على شرّها فلا نتوب عنها ابدًا - فان كان القدّيسون انفسهم يلتزمون بطلب العون الالهيّ لكي يظفروا بكلّ هذه الصعوبات . فكيف ينتصر عليها هؤلآء الخطاة الذين لا يلتجئون الى الله طالبين عونهُ ليظفروا بهذه الصعوبات لا بل يزيدونها كلّ يوم بتأخيرهم اعترافهم - انّي اظنّ انَّ عدد خطاياهم التي ينسونها في الاعتراف يفوق جدًّا عدد الخطايا التي يستفيقون عليها ويذكرونها - فاذا حصلتم على هذه الحال من تأخيركم الاعتراف . فافعلوا ما انا قائلهُ لكم : احسنوا الصلوة واطلبوا من الله بنشاط بليغ ان يمنحكم نورًا وافرًا . واصرفوا زمنًا معتبرًا في فحص الضمير. اطلبوا كاهنًا فطنًا غيورًا خبيرًا يسعفكم في احتياجكم وعجزكم *

فقد لاح الى الآن نظرًا الى فحص الضمير كم يعسر على من يؤخّر اعترافهُ ان يعترف اعترافًا جيدًا . الّا انّ الصعوبة ليست هي بأقلّ من ذلك نظرًا الى الندامة . لانّها هي الجلّاد الذي يجب ان تموت الخطيّة بيدهِ - لقد علمتم يا مباركين انهُ ليس دوآء افضل لشفآء جراحات العقل من طول الزمن : انظروا الى رجل مسكين اضاع دراهمهُ في الطريق . انهُ لشدّة حزنهِ على ما اصابهُ يهمل الاكل . واذا ما دخل بيتهُ لا يتكلّم ولا ينام ولا يطيق من يحاول ان يعزّيهُ . ويضرب امرأتهُ ويشتم اولادهُ ويلعنهم . ولا يذوق راحة . ولا

يدع احدًا ان يستريح. فيا لهُ من جرح غير قابل الشفاء او لم يعالجهُ طول الزمن ويخففهُ. لانهُ مع الزمن يخفّ رويدًا رويدًا الحزن على هذه الخسارة. ويتّصل الامر اخيرًا الى نسيانها بتّةً - فهذا نفسهُ يحدث للخاطئ الذي كان بعد تضييعهِ نعمة ربّهِ لا يجزع ولا يحزن بمقدار جزعهِ وحزنهِ حينما اضاع دراهمهُ - الّا انهُ في الابتداء اذا ما ارتدّ الى الخطيّة يتألّم ويتوجّع منها باطنًا. فلو كان يستعدّ عند ذلك للاعتراف لسهل عليهِ ان يندم على الخطيّة. وبالعكس اذا أخّر اعترافهُ الى زمن مديد. فحينئذٍ يخفّ لدغ الضمير. ثم يبطل فيغفل هو عن خطيّتهِ ويستعدّ لارتكاب خطايا آخر - ولمثل هؤلاء الخاطئين يرثي النبيّ بقولهِ: رقدوا في رؤوس جميع الشوارع مثل الثَّيتَل المشتبك مملوئين من غضب الربّ من زجرة الاهكِ (اشعيا ٥١ : ٢٠) - ما هذه الاعجوبة. والاحرى ان نقول ما هذه الغباوة. قد تعرقلوا في شبكة الشيطان والبواشق تتطاير لافتراسهم. وخوفهم يخفّ بمقدار ازدياد خطرهم - فان شرعت تفرغ مجهودك في ان تخيفهم بذكرك لهم صرامة احكام عدل الله وشدّة النيران الجهنميّة وابديّة السجن السفليّ المعدّ لهم. لا يؤثّر الخوف في قلوبهم الصلدة. بل يزدادون طمانينة قائلين: أنهم على رحمة الله يتوكّلون. وانهُ تعالى ما خلقهم لكي يهلكهم الى الابد. فانهُ سياتي الزمن الذي فيهِ سيتوبون. وما يشبه ذلك من اقوال الجهل والحماقة - فيا ما ابعدهم من الندامة الضروريّة للاعتراف - وكذلك يصعب عليهم العزم الحقيقيّ على ترك الخطيّة - اعتبروا يا مباركين انَّ التوبة لها وجهان. بأحدهما ننظر الى الخطية الماضية فنبغضها. وبالوجه الآخر نلاحظ الخطيّة المستقبلة فنرذلها. كما قال مار توما اللاهوتي - والحال انّ من لا يبغض الخطايا الماضية بغضًا فاعلًا. كيف يعزم على عدم الرجوع اليها - افهموا جيّدًا صعوبة هذا الزعم في الذين يؤخّرون اعترافهم الى زمن مديد وليخبروا هم عن سبب هذا التاخير. فاذا ارادوا ان يقولوا الحقّ فانهم يقرّون انّ سببهُ هو احد هاذين الامرين. وربما

الاثنان معاً . اي انهم يتأخرون هكذا لكي يطول زمن التمتع بلذاتهم السيئة . او لأنهم يشمأزون من الاعتراف . وكلٌّ من هاذين الامرين ينفي العزم الضروري لنيل الغفران - فانهُ من هذا التاخير ينتج واضحاً انهم يستصعبون ترك سيرتهم السيئة . ولهذا يؤخرون الامر اعني اصلاح سيرتهم على قدر ما يمكنهم - قل لي يا هذا أَصحيح انك تستثقل نير الخطية . انك لو كنت تستثقلهُ لكنت تفعل ما يفعلهُ انسان حامل حملاً ثقيلاً . فانهُ يلقيهِ على الارض حالما يمكنهُ - الاّ انك تحبّ الخطية بعد . ولهذا تفعل خلاف ذلك . اي تفعل ما يفعلهُ التاجر في وقت هيجان البحر اذ لا يريد ان يلقي في البحر شيئاً من بضائعهِ . الاّ حينما تلزمهُ بذلك الضرورة البليغة - فهذا الحال حالك . لانهُ ولو انك بعد سقطتك الاولى تشعر بهيجان ضميرك واضطرابهِ . وتسمع صوت توبيخاتهِ المرهبة . فانك لكثرة ما انغرزت فيك هذه المحبة الذميمة وتمكنت . تستمرّ مع هذا متمسكاً بهذه المحبة النجسة الى ان ياتي عيد الفصح . وحينئذٍ تلتزم امّا ان تعترف . وامّا انك ان تظهر في الكنيسة كانسان وثنيّ محروم - فما ظنكم بمن يتقدم الى الاعتراف بهذا الاستعداد *

وامّا الشيء الثاني الذي لاجلهِ يتاخر الاعتراف هو اكثر شرّاً وخطراً من الاول - قُل لي يا هذا لماذا رجفت باطناً عند استماعك فريضة الاعتراف : انّ سببهُ هو هذا وهو انّ الاعتراف ينافي ويبيد هذه اللذة التي فيها قد جعلت سلامتك - فكما انهُ في العالم تمتنع الناس عن الكلام عن الموت حينما يجلسون على المائدة لياكلوا حذراً من ان هذا الذكر يسلب منهم التذاذهم بالاكل . واذا اتفق ان يذكرهُ احد ينهض رفقاؤهُ عليهِ ويوبخونهُ على عدم رصانتهِ وتمييزهِ - وكذلك اذا حثتك امرأتك التقية او احد القسوس رغبةً في خلاصك على الاعتراف تغتاظ وتتبرم - فيا ايها الموت ما اشدّ مرارة ذكرك على الرجل المستريح في امواله (سيراخ ٤١ : ١) ومثلهُ اقول انا يا ايها الاعتراف ما اشدّ

ذكرك على من يستريح في لذّاتهِ النجسة - فمن كان هذا الحال حالهُ فهل يتبيّن لكم انهُ حاصل على الاستعداد الواجب لاصلاح السيرة - قال القدّيس هيرونمس : انّ المومن التائب هو الذي يرغب في ما كان يهملهُ قبلاً متهاوناً . فيبغض ما كان يحبّهُ قبلاً - فعلى حسب هذا القياس ما اصعب الندامة على من يستمرّ في الخطيّة زمناً مستطيلاً - انّ الذي قالهُ صاحب المزامير من قبل الخاطئ يقع على هؤلاء الخطاة : انّي سكتُّ فبليت عظامي (مزمور ٣١ : ٣) - انّك قد اخّرت الاعتراف بخطيّتك زمناً مديداً فلا بدّ من انّ الخطيّة تنفث سمّها في لبّ عظامك - اعلموا يا مباركين ما هو موكّد ومختبر وهو انّ الخطاة هم كفيفوا النظر وعميان في ما يخصّ الضمير . ومن ثمَّ فليس بعجب انهم يجهلون ما هو اكثر ثباتاً وقواماً . ويخالون بعمى بصيرتهم انَّ الاعتراف في مدار السنة مراراً كثيرة والاعتراف مرّةً واحدة فقط هما امر واحد . والحال انَّ بين هذين الشيئين فرقاً عظيماً حتى انهُ بهما يتعلّق خلاص الكثيرين او هلاكهم *

انَّ الانسان بعد سقوطهِ في خطيّة مميتة لا يقدر ان يمتنع زمناً كثيراً عن السقوط في خطيّة اخرى . وذلك لانّ الخطيّة كما قال مار توما اللاهوتي التي لا تُمحى بالتوبة تجتذب بثقلها الى خطيّة اخرى . وهذا ما اشار اليهِ روح القدس بقولهِ : الخاطئ يزيد خطايا على خطايا (سيراخ ٣ : ٢٩) . لانهُ من كونهِ خاطئاً خفياً يمسي خاطئاً مشتهراً . ومن كونهِ خوّافاً في فعل الخطيّة . يمسي وقحاً - فهذه هي حال الذين يؤخّرون اعترافهم الى زمن مستطيل : يزيدون خطيّة على خطيّة كلّ يوم وكلّ ساعة *

فلو تفهمون يا مباركين هذه الحقائق لما كان لكم حاجة ان نورد لكم حججاً اخر . الاّ انهُ يمكن أن يوجد بينكم اناس لا يفهمونها كما يجب . فلا يخافون من المحذورات التي شرحناها . فلنسلّم لهم ما يترجّونهُ رجاءً فاسداً . اي انهم ينتصرون على كلّ هذه الصعوبات ويعترفون اعترافاً جيّداً . فها اناساً اتّضح لهم

الحال الآن انّ توبتهم لا تكون ثابتة بل انهم يرتدّون الى الخطيّة سريعًا *

يا ما اشقى حال الخطاة الذين بعد اعترافهم يعودون الى الخطيّة عاجلاً : انظروا الى الباشق كيف انّهُ بعدما اطلقهُ الصيّاد صاحبهُ يطير مرتفعًا الى الجوّ . وهل تظنّون انّهُ بعد هربهِ من اسرهِ وفكّ وثاقهِ وازالة البرقع من على عينيهِ وحصولهِ على الحريّة لا يعود يرتدّ الى حالهِ الاولى : قد ضللتم . لانّهُ حينما يسمع صوت صفير الصيّاد يرجع الى اسرهِ حالاً ويسلّم لهُ نفسهُ مع الفريسة التي افترسها ويدع سيّدهُ ان يوثقهُ ويبرقعهُ ويستأسرهُ - فلولا اختبارنا كلّ يوم بما يحدث بين المومنين . من كان يصدّق انّ النفس التي قطعت قيود خطاياها في الاعتراف وفتحت اعينها واطّلعت على ضلالها وجهلها الماضي ترتضي بالرجوع الى يدَي الصيّاد الجهنّميّ بعد ان اغتنمت نعمة السرّ الالهيّ . وتدع باختيارها ان يوضع على رجليها الوثاق وعلى عينيها الحجاب وتعود ثانيةً الى اسر فظيع اسر الخطيّة *

ومع ذلك اي مع انّ هذا الامر هو امر مستغرب ذاتًا فانّهُ هو امر اعتيادي مالوف . ومن اين عدم ثبوت المسيحيّين هذا - فها انا أبينهُ لكم لكي تفهموهُ جيّدًا : تصوّروا انسانًا سقيمًا قد امرهُ الطبيب امرًا صارمًا بالاّ ينام في ساعة اتيان الحمّى . فاذا ما انغلب للنوم وانهضهُ آخر يشكر فضل هذا الذي سعى في اسعافهِ ويفتح عينيهِ وينظر اليهِ ببشاشةٍ وهشاشة . الاّ انهُ بعد ذلك بيسير يذعن للنوم ثانيةً . فينام نومًا اثقل من الاوّل - فمن اين عدم الثبوت هذا : انّهُ يصدر من سببين . اوّلهما انّ علّة النوم موجودة بعد . وهي الابخرة الكثيفة المرسلة من الحمّى الى الراس . والسبب الثاني هو انّ المريض يستمرّ جالسًا على فراشٍ ليّن - فبهذا المثل اوضّح لكم السببين الصادر منهما كثرة السقوط المتقدّم ذكرهُ المختصّ بهؤلاء الخطاة الذين يعترفون في النادر . لانّهُ اذا ما انهضهم الكاهن من رقادهم يعودون سريعًا الى النوم لاجل العلّتين المذكورتين . امّا العلّة الاولى فاننا نرى

انَّ عادتهم المتأصّلة لفعل الخطأ تشبهُ مجموع اخلاط كثيرة ترسل عاجلا ابخرة تسبّب نوماً جديدًا . وهذا الدآء لا شفآء لهُ الاّ بالاعتراف المتكاثر الذي يزيل هذه الابخرة . وبدونهِ لا تستقيم التوبة - ذلك الرجل الطمّاع الذي بعد اعترافهِ يرتدّ حالاً الى ما كان عليهِ باختلاسهِ مال الغير بحيلهِ وخبثهِ . لو انهُ يفعل ما يريد الاطبّآء ان يُفعَل بالمستسقى . اعني بهِ التشريح لكي تخرج المادّة المميتة . أو يردّ مال الغير لصاحبهِ بعد الاعتراف ويصلح الاضرار التي احدثها . لكان يستأصل الطمع من قلبهِ ويعتبر نفسهُ وخلاصها أكثر من المال واكتسابهِ - وذلك الرجل المحبّ اللذّات الجسديّة الذي بعد ان اغتسل في سرّ الاعتراف يعود كخنزيرة الى الحمأة سريعاً (٢ بطرس ٢ : ٢٢) لو يرجع الى الاعتراف عاجلاً . لحصل منهُ على أدوية تشفي شهوتهُ . او على اقلّ تخمد افراط التهابها وتقلّل سقطاتهِ - الاّ انهُ لا يزال يحبّ التنعّم . ولا يبرح ملتمساً الملاهي والملذّات طول السنة . ومن ثمَّ بعد الاعتراف يرتجع حالاً الى طريقهِ الدنسة - ومثل ذلك نقول عن محبّ الانتقام الذي اذا ما وعد بالعفو والمسامحة . ففي ذلك اليوم نفسهِ يقصد اخذ الثار : كان يجب ان يُطلَب دوآء عاجل لهذا السقم الخطر لئلاّ يستحيل الغيظ الى بغضة . اذ قد قال الرسول : لا تغرب الشمس على غضبكم . الاّ انهُ بدلاً من ان يطفئ هذه النار يربّيها في قلبهِ مدّة السنة كلّها . بل انّهُ يستمرّ احياناً اكثر من ذلك . ولا يعترف في عيد الفصح بحجّة انّهُ لا يقدر ان يغفر *

فكلّ هؤلآء المرضى وآخرون نظيرهم يقطعون في النادر نومهم المميت : نعم انهم يعترفون عند القسّيس احياناً . الاّ انهم يعودون بعد ذلك الى رقادهم عاجلاً . لانّهم لا يزيلون من قلوبهم اسباب شهواتهم والابخرة الفاسدة الصاعدة منها الى رؤوسهم *

انظروا كيف الكتاب المقدَّس يوضح جليًّا انَّ هذا هو سبب سقطات

الخاطئين . قال يعقوب الرسول : كلّ أحد انّما يُبتلَى بشهوتهِ منجذبًا مملقًّا (يعقوب ١ : ١٤) - والحكيم يقول عن الاسرائيليّين الخطاة انّهم اجتذبتهم الشهوة فالتمسوا اطعمة النعيم (حكمة ١٩ : ١١) وانّ طموح الشهوة يقلب العقل (حكمة ٤ : ١٢) - وقال النبيّ دانيال : انّ الشهوة تغوي القلب (دانيال ١٣ : ٥٦) - وهذه الشهوة التي هي اصل كلّ الشرور تزداد قوّةً بمقدار استمرارها في النفس بدوام الخطيّة - فلو كان الخطاة يبادرون الى الاعتراف سريعًا بعد سقوطهم . لما كانت تخور قوّتهم هكذا . الاّ انّهُ لسبب انَّ حياتهم هي خطيّة مداومة غير منقطعة . فمن اجل هذا يحصلون على شيء عظيم من الضعف . حتّى انّهم لا يحتاجون ان يغريهم شيءٌ لكي يخطئوا . بل يخضعون للتجربة قبل ان تضايقهم - قال ارمياء النبي : خطيّةً اخطأت اورشليم فلذلك صارت تائهة (مراثي ١ : ٨) . كانّهُ يقول انّهُ من اجل انَّ النفس اخطأت كثيرًا ولم تزل تزيد خطيّة على خطيّة اصبحت عديمة الهدى - ولعمري كيف يمكن بغير اعجوبة للذين يعترفون في النادر ان يستمرّوا قائمين - لو بقيتَ يا هذا في حال الحمّى مدّة ثلاثمائة وستّين يومًا . وفارقتك بعد ذلك مدّة اربعة ايّام فقط . كيف كان يمكنك ان تقوم على رجليك - فهذه هي حال انفسكم : لا ترجوا الثبوت في الخير ما دمتم على فعل الخطيّة ثابتين : خطيّةً اخطأت اورشليم ولذلك صارت تائهة - وهذا الاستمرار المستطيل في الاثم ليس من عادتهِ ان يضعّف قوّة الارادة وينصرها على الخطأ فقط . بل من خواصهِ ايضًا ان يضعّف قوّة العقل في معرفة الخطيّة - لقد اتّفق لاشخاص كانوا قد مكثوا زمانًا مديدًا في سجن مظلم . انهم عند خروجهم منهُ عموا اصلاً . فهذا نفسهُ يحدث لهؤلآء الاشقياء الذين مكثوا في ظلام الخطيّة زمانًا مستطيلاً . لانّهُ يسوغ لنا ان نقول عنهم انّهم بعد الاعتراف عندما يفتحون اعينهم لا يبصرون . لانّ ايمانهم صار ضعيفًا . حتّى انّهُ يُرى كالمائت لقلّة ما يريهم خطر الهلاك الابديّ الذي هم حاصلون عليهِ - فكما انّ السبات الطبيعيّ

يربط الحواسّ والعقل. هكذا هذا السبات الروحيّ يربط العقل والايمان - وان احدقتم فيهم جيّداً تجدون انهُ لا يؤثّر فيهم اصلاً نصيحة ولا توبيخ. وكأنهم كما قال النبيّ تعاهدوا مع الموت (اشعيا ٢٨: ١٥) ومن ثمَّ فلا يخافون منهُ - ولو يعترفون بتكاثر لوجدوا دواءً لهذا الدآء لأنّهم كانوا حينئذٍ ينجون من بخار عادتهم السيّئة التي تبرقع النفس فيستيقظون ويسهرون. ولم يغمّضوا اعينهم سريعاً بعد ان فتحوها *

امّا السبب الثاني الذي يسعى كثيراً في عدم ثبات الخطاة على توبتهم. هو عدم فرارهم من خطر السقوط. فيشبهون المرضى الراقدين على فرش ناعمة فاذا انتبهوا يعودون الى النوم سريعاً - وها انّ الرسول يصرخ: استيقظ يا نائم فيضيء لك المسيح (افسس ٥: ١٤) مشيراً بذلك الى انهُ ما دمنا مستعدّين لهذا النوم المميت فمن المستحيل ان نظفر بهِ. وانّهُ ينبغي ان ننهض من فراشنا الناعم بتركنا اللذّات التي تسبّب ارتجاعنا الى الخطيّة - ولستُ اعني هنا الاسباب القريبة فقط التي قد شرحنا لكم كم يلزمكم ان تفرّوا منها. بل أنّني اعني ايضاً الاسباب البعيدة. لانهُ ولو انّ الضرورة القاطعة لا تلزمكم بذلك. الّا انّ التدبّر يبتغي هذا. لانّهُ بغير هذا الاحتراس تعودون سريعاً الى ما كنتم عليهِ - وفي هذا قال القدّيس اقليميس الاسكندريّ: الذين يفعلون كلّ ما يجوز فعلهُ ينحدرون بسهولة الى فعل ما لا يجوز - ويتأكّد ذلك بالتجربة: انهُ في زمن الشتآء بعدما يهطل مطر غزير تبين الشمس نيّرة. حتى كأنّ المطر لا ينزل فيما بعد. ولكن الامر لا يجري هكذا. لانهُ بعد قليل من الزمن تصعد الى الجوّ سحب جديدة تظلم السمآء فتنحدر الامطار وتتفاقم: وما سبب ذلك. انّ السبب هو انّ الأرض اذ هي مبلولة تخرج من جوفها عند ظهور الشمس ابخرة وافرة. اذا ما وصلت صاعدة الى علوٍّ ما. تتلبّد بالبرد الموجود هناك وتتساقط ثانيةً على الاراضي التي منها خرجت - فلو انّهُ لم تقف هذه الابخرة في الجوّ المتوسّط بل وصلت

صاعدةً الى فوق. لكان الصحو يدوم. الاّ انّ الابخرة وقفت غير صاعدة ولهذا زال الصحو – فلان قد اعترف وحصل على الصحو بعد عاصفة شديدة. فلو كانت هذه الابخرة التي خرجت من قلبهِ بقوّة النعمة الالهيّة تبقى متباعدة عنهُ ولم تقف غير صاعدة في الجوّ المتوسط. اي في اشياء ليست حميدة ولا رديّة لم يكن هذا الصحو اضمحلّ عاجلاً. الاّ انهُ بعد الاعتراف وفي ذلك اليوم نفسهِ يرتجع الى تنزّهاتهِ والى عشرة اصحاب اللهو. وقد كان يجب عليهِ ان يهرب من هذه الاشياء *

استيقظ ايّها النائم وان اردت ان لا يعود النوم يستولي عليك فانهض من الفراش وفرّ من الملاهي. اهرب من البطالة. تباعد عن الخطر واو خال لك انّك في امان. لانّهُ تحت هذا الامان قد يوجد فخّ الموت – خبّرنا احد الفضلاء انّ رجلاً شريف الاصل متمرّغاً في حماة فواحش الزنا مع اجيرة لهُ. مرض يوماً فاستدعى كاهناً ليعترف – فلمّا اتاهُ الكاهن فرض عليهِ ان يُخرج الاجيرة من بيتهِ قبل ان يبتدئ بالاعتراف. الاّ انّ المريض شرع يورد لهُ صعوبة الامر من اجل انّهُ لم يكن لهُ غيرها تخدمهُ في ضرورتهِ. وانّهُ من جهة اخرى كان خطر الخطيّة قد اضحى خفيفاً جدًّا لشدّة مرضهِ واقتراب الموت. وبهذه الحجج اقنع الكاهن واعترف ونال الحلّة وشرط عليهِ اذا شُفي او طال مرضهُ ان يخرج هذه الاجيرة الشقيّة وياخذ غيرها – الاّ انّ مرضهُ اشتدّ جدًّا. وبعد ايامٍ قليلة توفّي المريض. فذهب الكاهن ليقدّس عن نفس الميّت. وفي حين تقديس الاسرار الالهيّة. ظهر لهُ الميّت متمنطقاً بمنطقة من نار. وقال لهُ: لا تقدّس لاجلي. لانّي قد هلكتُ – فاجابهُ الكاهن متعجّباً قائلاً: كيف جرى هذا. العلّك ما اعترفت اعترافاً جيدًّا. قال الميّت: انّ سبب هلاكي ليس هو هذا. لانّي اعترفتُ حسناً حقًّا. لكن بعد ذلك لمّا رايتُ الاجيرة حول فراشي ارتضيتُ بوسوسة شيطانيّة. وفي حين ارتضائي هذا فاجأني الموت وطُرحتُ الى جهنّم – فلو كان

هذا الرجل يرفع حجر الشكّ لم يعثر. ولو كان يبعد الخطر لم يبِدْ ويهلك - والحال انَّ الذين يلقون انفسهم في الخطر بجسارة اكثر هم الذين يستمرّون في سبب الخطية زمانًا اكثر - فلا تستمرّوا اذًا يا مباركين في هذه الحال. وان استمرّ احد منكم فيها. فلينتبه وينتصح - استيقظ ايّها النائم قم من عادتك الذميمة. انهض من فراش التنعم. كثّر الافعال الصالحة. وهكذا ينتزع منك نومك المميت وسيضيء لك السيّد المسيح *

لقد عرفتم يا مباركين الآن عظم ضلال الخطاة الذين يخالون انّهم بعد غريقهم يجدون بسهولةٍ دفّة سرّ الاعتراف يبلغون بها الى مينا الخلاص. قال الحكيم: لا تتأخّر عن التوبة الى الربّ. ولا تتباطأ يومًا بعد يوم. لانّ غضب الربّ ينزل بغتةً. وفي وقت الانتقام يستاصلك (سيراخ ٥ : ٨و٩) - أنّك قد تمرّدتَ على الربّ. فلا تستمرّ على تمرّدك متعنّدًا مؤخّرًا توبتك من شهرٍ الى شهر - اعتبر يا اخي انك تضيع كلّ ثمرة اعمالك الصالحة واجرها. فلا تتباطأ من يوم الى يوم. ومن اين تعلم أنّك ستجد وقتًا للاعتراف بعد اشهر - حدث من قرب لشابٍّ من الشباب كان يؤخّر اعترافهُ انهُ مرض. وفي هذه الحال كان يؤخّر اعترافهُ ايضًا من يوم الى يوم الى ان قرب الموت. فارسل يستدعي كاهنًا. وفيما المرسَل يفتّش عليهِ ظهر الشيطان للمريض. وفي يدهِ صحيفة طويلة عليها كان اللعين قد حرّر خطايا المريض التي لم يكن قد اعترف بها. فصرخ الشقيّ آيسًا قائلًا: يا لهُ من حساب مخوف. ما اطولهُ. ما اقبح ما حُرّر فيهِ. قال هذا. وفي الحين سلّم نفسهُ للمشتكي الجهنميّ قبل أن يحضر الكاهن. فكم تظنّون يلعن الآن عادتهُ في تاخير الاعتراف التي هلك بسببها - فلا تؤخّر توبتك ايّها المومن. لانّ غضب الله سينزل بغتةً. وفي يوم الانتقام يبيدك - اعتبر انّك بغيض لله. وانّ عصا الانتقام الالهيّ قد اقتربت منك. وفي وقت الموت يسلّمك الله الى محَن مستصعبة - وان اردتَ ان تحرّك نفسك الى التوبة بحجج

افضل كمالاً. فتأمّل في غلاظة اخلاق من يدعوهُ الله فيترك الله ان ينتظر زماناً مديداً - لو يقرع بابك ملك معظّم هل تقول لهُ : امضِ الآن وعُد فيما بعد - فهذا هو ما تقولهُ انت لله بلسان الحال: اذهب وعُد اليَّ راجعاً. انّي ساعترف. ولكنّي لستُ اعترف الآن - اعلم انّك بهذا تحتقر الدواء المعدّ لك من الله. وانّهُ ربّما لا يفيدك فيما بعد. فلا تؤخّر اذاً توبتك ورجوعك الى الله. لئلاّ ينزل عليك غضبهُ وينتقم منك ويهلكك *

الموعظة الرابعة والستّون

في علامات الندامة الحقيقيّة

من عادة الصيّادين ان يضعوا شباكهم بقرب المياه حيث تجتمع الطيور والحيوانات لتمرح - هكذا وبهذه الحيلة يصطاد الشيطان النفوس. لانّهُ أخزاهُ الله ولو انّهُ يبسط شباكهُ في العالم كلّهِ. الاّ انّهُ ينصب فخاخهُ بابلغ الاهتمام واوفر الربح بقرب ينابيع خلاصنا التي يدعونا اليها اشعياءَ النبيّ بقولهِ: تستقون الماءَ بفرح من ينابيع المخلّص (اشعياءَ ١٢ : ٣) مشيراً بذلك الى اسرارنا المقدّسة - انكم قد علمتم انهُ بعد سرّ المعموذيّة نحن محتاجون الى سرّ التوبة اكثر ما يكون للخلاص. فلا عجب انّ العدوّ يفرغ هناك كلّ حيلهِ. وذلك لانّ هذا السرّ يقتضي منّا سعياً اكثر ممّا تقتضيهِ منّا بقيّة الاسرار - فيجب عليكم يا مباركين ان تحسنوا الحذر والاجتهاد. فلا تستثقلوا اطالة خطابي عن سرّ الاعتراف - انّهُ امرٌ جزيل القدر ولستُ ادري هل يوجد امر آخر فيهِ يكون الضلال اكثر سهولةً وضرراً *

انّي ساوضح لكم ثلاث علامات اذا وجدتموها في اعترافكم يجوز لكم ان

تظنّوا انّ اعترافكم حسَن. وان كنتم لا تجدونها فيهِ فاطلبوا من يكفلها . لانّي في هذا الخطر البليغ لستُ اريد ان اكون كفيلاً - فاعلموا انّ توبة الخاطئ تتضمّن سيرة جديدة وحيوة جديدة حسب نصيحة الرسول: البسوا الانسان الجديد (افسس ٤ : ٢٤) . والحال انّ علامة الحيوة هي العمل . ومن ثمَّ فعلامة الحيوة الجديدة هي الاعمال الجديدة - ولذلك فلننظر الآن الى قلب الخاطئ التائب ولسانهِ ويديهِ . واذا وجدنا اعمالاً جديدة في هذه الاعضآء الثلاثة ننتج من ذلك انّ الحيوة هي جديدة ايضًا *

يسوغ لنا ان نقول عن القلب انّهُ هو الجزء الافضل الذي فيهِ قائم كيان الشيء الحيّ . لانّهُ هو الجزء الذي يحيا قبل بقيّة الاجزآء . وهو الذي يموت بعد موتها كلّها - فليس بعجبٍ انّ صناعة التصوير تبتدئ شغلها بتصوير الراس . لانّها لا تطلب منهُ غير الخارج وما يظهر . وامّا الطبيعة التي تقصد الحقّ فانّها تبتدئ من القلب - ويُشاهَد ذلك اكثر ما يكون في النعمة الالهيّة فانّها تحبّ النظام اكثر ممّا تحبهُ الطبيعة . وتعتني اكثر منها في حفظ هذا النظام وتعتبر القلب اعتبارًا عظيماً . حتى انّها اذا اكتسبت القلب تحتسب انّها اكتسبت كلّ شيء . حسب قولهِ تعالى يا بنيَّ اعطِني قلبك (امثال ٢٣ : ٢٦) - ففي القلب قائم اوّلاً على وجهٍ خاصّ الانسان الجديد الروحيّ الذي سمّاهُ زعيم الرسل انسان القلب الخفيّ (١ بطرس ٣ : ٤) . وهناك ايضًا اي في القلب ينبغي ان نفحص اوّلاً وخاصّةً . هل توجد الاعمال المختصّة بهِ - انّي اسألكم يا مباركين ان تحسنوا الاصغآء لهذا التعليم الجزيل الاعتبار *

اعلموا انَّ الله حينما يصلح في الاعتراف قلب الخاطئ بحيوة روحيّة باطنة . يجعل فيهِ تغييرَين . الاوّل هو تغيير وجوديّ . وهو يتوقّف على بغض الانسان الخطيّة التي ارتكبها والندامة عليها وعلى العزم بتركها - والتغيير الثاني يسوغ ان نسمّيهُ تغييرًا ملكيًّا . ويحصل بنعمة التبرير التي يسكبها الله وبملكات الفضائل

الفائقة الطبيعة التابعة هذه النعمة – وهاذان التغييران قائمة فيها التوبة الحقيقيّة – ولما كان هذا الشيء خفيًا جدًا لانهُ امر يخصّ الانسان الباطن. فلهذا لا يمكن ان يظهر لنا الاّ بمعلولاتهِ. كما انّ جذور الشجرة لا تظهر لنا لكونها خفيّةً تحت الارض ولا يمكن ان نعرف هل هي حيّة الاّ بأثمارها – وان سألتم ما هي هذه الاعمال الجديدة التي تحقّق لنا وجود قلب جديد وحيوة جديدة. فاجيب انّ هذه الاعمال على ضربين. اوّلها يتعلّق بالزمن الماضي. والآخر بالزمن الحاضر – امّا الزمن الماضي فالعلامة القاطعة على انّ الانسان قد نال في سرّ الاعتراف غفران خطاياهُ هي تذكّرهُ ايّاها على الدوام. لا لكي يشكّ في اعترافهِ بها وهو قَلِق بضمير موسوس كما يفعل قوم قد استولى عليهم خوف مفرط. بل لكي يندم عليها ندامة غير منقطعة – ولهذا نرى انّ الذين في العهد الجديد والعهد القديم تحقّقوا انّهم نالوا مغفرة خطاياهم كمثل مريم المجدليّة التي قال لها ربّ المجد: مغفورة لكِ خطاياكِ (لوقا ٧ : ٤٨). وداود الملك الذي قال لهُ النبيّ ناثان: انَّ الربّ قد نقل عنك خطاياك (١ سموئيل ١٢ : ١٣) هم الذين كانوا يتذكّرون خطاياهم دومًا. وذلك لكي يخجلوا انفسهم ويتواضعوا قدّام العزّة الالهيّة ممجّدين رحمتهُ لهم وشاكرين لجودهِ الغير المتناهي – ولهذا قال الله للخاطئ على فم حزقيال النبيّ: تذكرين مذاهبكِ وتستخزين (حزقيال ١٦ : ٦١) *

فان اردتم ان تعلموا هل حصلت قلوبكم على هذه الحيوة الجديدة حياة التبرير. فانظروا هل تذكرون خطاياكم الماضية – انّي اخشى من انَّ الاكثرين منكم يتغافلون عنها عند فروغهم من الاعتراف ويلقونها وراءهم كأنّها ليست خطاياهم – هذا ما يصيّركم ان لا تفرّوا من الذي سبّب لكم السقوط. قال النبيّ: ارفعي عينيكِ الى النجاد وانظري اين لم تنضجعي (ارميا ٣ : ٢) *

والمنفعة الثانية الحاصلة من هذا الذكر من جهة الزمن الحاضر هي انّ هذا الذكر يجعل الانسان اوفر احتراسًا واجتهادًا في الفرار من الخطيّة – قال احد العلماء

انّهُ ليس خَيل اشدّ سرعة في الركض من الذي عضّهُ الذئب مرّة واحدة وهرب منهُ بعد ذلك. لانّهُ كلّ مرّة يركض يخال انّ الذئب وراءهُ - فهذا ما يصير بالخاطئ التائب المتذكّر زلّاتهِ دوامًا. لانّهُ يبين لهُ انّ الخطيّة التي نجا منها هي وراءهُ دائمًا. وانّ كلّ ما يفعلهُ لكي يفرّ منها ليس بكافٍ للخلاص منها - فهذا هو السبب الذي من اجلهِ نرى القلب النادم حقًّا اكثر بعدًا من الخطيّة بعد ارتكابهِ ايّاها ممّا كان بعيدًا منها قبل ان يرتكبها. لانّ ذكرهُ المتواتر بانّهُ اغاظ العزّة الالهيّة. هو لديهِ كمهماز يحثّهُ على التباعد منها. وهكذا القدّيس بطرس اضحى بعد جحودهِ اشدّ ثبوتًا ونشاطًا في الايمان ممّا كان قبلاً. ومريم المجدليّة امست بعد توبتها عفيفة اكثر ممّا كانت قبل سقوطها في حمأة الدنس. وثاودوسيوس الملك صار انيسًا حليمًا بعد توبتهِ عن فتكهِ بأهل تسلونيقي أفضل جدًّا ممّا كان قبلاً - ولماذا. الّا لاجل انّهم كانوا متذكّرين دائمًا ما فرط منهم. كما هو معلوم عن القدّيس بطرس والمجدليّة. وامّا ثاودوسيوس فقد قال عنهُ القدّيس امبروسيوس انّهُ بعد توبتهِ على خطيّتهِ. كان كلّ يوم يندم عليها - ومثلهم فعل آخرون كثيرون الذين كانوا لا يزالون يندمون على ذنوبهم. ويحتسبون انّ ما أُعطوا من الحيوة بعد سقطتهم انّما أُعطوهُ لكي يندموا - وفي ذلك حُكي عن امرأة شريفة الاصل. انّهُ لمّا مات زوجها اشتدّ عليها حزن عظيم جدًّا. حتّى انّها بقيت ايّامًا كثيرة لا تريد ان تاكل ولا ان تشرب. الّا انّهُ خالجها فكر حملها على الاكل فقالت: اعطوني شيئًا لآكل. لانّي اريد ان يطول زمن انتحابي على موت ختني - فمثل هذا وافضل منهُ يفعل التائبون حقًّا. لانّهم يحبّون ان يندموا على خطاياهم. ومن اجل هذا فقط يحبّون ان يعيشوا بل كأنّهم لا يحيون الّا من حزن ندامتهم - قال الملك والنبيّ داود عن نفسهِ: صارت لي دموعي خبزًا في النهار والليل - فان كنتم يا مباركين تجدون هذه الندامة فائقة على قوّتكم. يجب عليكم على الاقلّ الّا تنسوا ابدًا خطاياكم اصلاً

ولا تزالوا تبغضونها - فاذا جزتم بالمكان الذي فيهِ سقطتم في الخطية فقولوا بحركة قلب نادم متأسّف. يا ايتها الخطيّة الملعونة ليت الارض تشققت تحتي وقبلتني قبل ان اخطئ - واذا صادفتم في الطريق الشخص الذي صار لكم حجر عثرة فقولوا بتوجّع القلب ليتني وُلدتُ اعمى ولم أرَ ما اجتذبني الى الخطيّة - قال المجمع التريدنتيّ المقدّس. يجب ان تكون حياة المسيحيّ على الارض توبة مداومة. فكان ينبغي ان تكون اكثر حركات قلوبنا حركات الندامة *

واما العلامة الثانية لهذه الحيوة الجديدة فتؤخَذ من اللسان. لانّ اللسان هو ترجمان القلب يرى اخفى افعال القلب التائب. فهذه هي خاصّية لسان الخاطئ النادم حقًّا. وهي إظهار سوء خطيتهِ واستعظامهُ اياهُ. وبعكس ذلك خاصّة لسان الخاطئ غير التائب هي تستير سوء خطيّتهِ على قدر ما يمكن وتصغيرهُ وتنقيصهُ - اسمعوا ما نطق بهِ لسان ملكٍ كان قلبهُ تائبًا حقًّا: من اجل اسمك يا ربّ اغفر ذنبي فانّهُ عظيم (مزمور ٢٤: ١١) - لا شكّ انكم تتعجّبون من هذه الطلبة وتشبّهونها بطلبة رجل مديون من صاحب الدَّين ان يترك لهُ دَينهُ لكونهِ كثيرًا جدًّا - ولكنّ الملك تكلّم بالصواب حقًّا. لانّهُ تكلم على حساب قياس ندامة نفسهِ على خطيّتهِ وكانسان جريح يتألّم كثيرًا من جرحهِ. وعند كشفهِ للطبيب يقول لهُ: انظر كم عظيم جرحي. اتظنّ انهُ لهُ شفاء - قد كان يمكن للملك ان يعتذر محتجًّا بعظم التجربة التي صادمتهُ بغتةً. وانّهُ لم يكن سابقًا تورّط في هذه الخطيّة. الاّ انّهُ لم يذكر شيئًا من ذلك. ولم يصغّر شرّ خطيّتهِ. بل انّهُ تكلّم عنها بالمبالغة. اذ قال عنها انها كثيرة - فهذه هي علامة حقيقيّة واضحة على انّ داود كان متألّمًا من جرحهِ. لانّ الندامة الحقيقيّة لا تلتمس حججًا باطلة. بل انها لا تقبل ايضًا الحجج المتأسّسة على الحقّ - حُكي انّ رجلاً جنديًّا ذا اصل شريف قتل اباهُ في المعركة لظنّهِ فيهِ انهُ احد اعداء الملك. الاّ انّهُ فيما بعد استفاق على غلطتهِ وعلم انّ الذي قتلهُ

هو ابوهُ. ولافراط الحزن الذي استحوذ عليهِ عند نظرهِ اباهُ ملقى على الارض ميتاً. انقطع نفَسهُ ومات - فهذا الحزن يا مباركين هو حزن حقيقيّ. فلم يقُل هذا الجنديّ: انَّ هذا القتل صار بطريق الصدفة. انّي قتلتُ ابي لكن بالغلط وبغير تعمّد. لا يسوغ ان يلومني احد على ذلك. بل انّي استحقّ مدحةً لاجل هذا الفعل عينهِ. لانّي احتسبتهُ احد اعدآء المملكة: كان يحقّ لذلك الجنديّ ان يقول هذه كلّها. ومع هذا لم يعتذر بكلمة. لانّ حزن قلبهِ واسفهُ لم يدعهُ يعتبر شيئًا غير قتلهِ اباهُ *

فماذا نقول عن الخطاة التائبين الذين بعد ان صلبوا عنصر حياتهم وقتلوهُ تعالى حسب تعليم الرسول لا بالصدفة والغلط. بل بتعمّد وخباثة يعتذرون بنسبهم ذلك الى ضعف الطبيعة او شدّة التجربة او الى الشيطان او الى الضرورة - فمن مثل هذا اللسان واقوالهِ هل يظهر انَّ الخاطئ حاز حيوة جديدة حياة النعمة. او انهُ حصل على الاستعداد الضروريّ لينال هذه الحيوة *

اريد ان تفهموا ايها الاخوة كم المسيحيّون هم بعيدون من روح التوبة الحقيقيّة. ويكفي لذلك ان نفحص لغتهم حينما يعترفون - فمنهم من يتعلّل. وهو النوع الاكثر وقوعًا. هؤلاَء لا يمسكون انفسهم من ان يعترفوا بخطيّتهم. الاّ انهم مع اعترافهم بها لا يريدون ان يعترفوا بما فيها من الظلم والشرّ المثقّل الخطيّة او المغيّر نوعها - والحال انهُ لا بُدّ من الاعتراف بهذين الشيئين لكي يكون اللسان ترجمان قلب جديد. قال صاحب المزامير: قد اعترفتُ لك بخطيّتي ولم اكتم ذنبي. (مزمور ٣٢: ٥) واماّ اولئك الخطاة فلا يقولون كذا في وقت الاعتراف - نعم انهم يذكرون الخطيّة الاّ انّهم يريدون ان يجعلوها على نوعٍ ما سالمةً من السوء - فيقول ذلك الشاب انّي قد زللتُ حقًّا. وبهذا يظهر الاثم. الاّ انّهُ يخفي شرّ اثمهِ بقولهِ: الاّ انّي شاب بعد وسريع العطب - وآخر يعترف انّهُ جدّف. الاّ انّهُ يستثني بان يقول معتذرًا. بانّهُ هو ربّ بيت. وانّهُ من غير

اللعنة والتجديف لا يمكنهُ ان يضبط اهل بيتهِ - وغيرهُ يعترف باخذ ثارهِ وانتقامهِ من عدوّهِ . الاّ انهُ لتبرير نفسهِ يقول بعد ذلك . انّ التزامهُ بحفظ صيتهِ اضطرّهُ الى ذلك - وهكذا اولئك يكشفون الاثم ويخفونهُ معاً . وهكذا يعترفون ولا يعترفون . يعترفون ولا يُحَلّون *

غير انّهم لا يقفون عند هذه الحدود . اي لا يكتفون بان يعذروا انفسهم ويبرّروها بل يشكون غيرهم . واليهم ينسبون اثمهم - تاملّوا في شاول الملك مثال التوبة الكاذبة . كما انّ داود هو مثال التوبة الحقيقيّة . فالاوّل اعني شاول كان خالف وصيّة الله باستبقاء اغاغ ملك العمالقة حيًّا وما كان حسناً في غنم تلك الامّة وبقرها واموالها . فلمّا وبّخهُ سموئيل النبيّ عن مخالفتهِ . طفق شاول يشكو الجماعة قائلاً : انّ الجماعة حفظت احسن ما كان في غنم العمالقة وبقرهم ليقدّموا منها لله ذبائح . كأنّ شاول لم يكن لهُ يد في هذه الخطيّة اصلاً (١ سموئيل ١٥ : ١٥) - فهذه هي صورة اعتراف كثيرات من النسآء والبنات اي اللواتي بعد سقوطهنَّ في حفرة الدنس يعتذرن بالقآء خطيّتهنّ على غيرهنّ بقولهنّ : فلان اخطأ معي واسقطني في الخطية . كأنهنّ كنَّ حينئذٍ نائمات ولم يسعينَ قطّ في الاثم - اما كان يجب عليكنَّ ان تفعلن ما تامر بهِ وصيّة الله اي ان تقاومنَ وتصرخنَ وتدعون الناس الى معونتكنَّ . كما فعلت سوسنّة العفيفة . وكما تفعل كلّ من يكون قلبها عفيفًا - بئسما تقلنَ انّهم يضطرّونكنَّ . لانّي اسألكنَّ : لو انّهم ياتونكنَّ بعود متّقد او بسيف مخيّ في ايديهم بنيّة ان يحرقوا وجوهكنَّ لعلّكنَّ كنتنَّ تسكتنَ . ولم تتحرَّكنَ لكي تهربنَ من ايديهم - فعلى هذا المنوال تعترف الاخريات اللاتي فضلاً عن انهنّ يرتضينَ اختياريًا يراودن الى الخطيّة بالنظر والغمز والاشارة وبحركات مضادّة الاحتشام *

وثمّ قوم آخرون من الخطاة يرغبون ان يظهروا ابريآء من كلّ ذنبٍ في حين الاعتراف نفسهِ . فلا يكتفون بان يعذروا انفسهم وينسبوا خطاياهم

للناس . بل يتّصلون الى انهم ينسبون آثامهم الى الله تعالى نفسهِ بقولهم في الاعتراف : انّ الله خلقني مع هذا الميل الرديّ ومع هذه الخطيّة والخصلة الرديّة. واذا نطقوا بهذه الهرطقات يظنّون انّهم ابرياء من خطاياهم - هكذا الحبش ينسبون الى الشمس لونهم الاسود . الاّ انّهم بئسما يقولون : لانّ غيرهم من الامم تحرقهم الشمس اكثر مما تحرق الحبش. ولونهم ليس هو اسود بل ابيض - هكذا يصنع هؤلاء القوم الخطاة السفهاء . اي انّهم ينسبون للشمس الازليّة هذا اللون الاسود الصادر كلّهُ من احشائهم . فترى منهم من يقول: انّ الشمس غيّرت لوني (نشيد ١ : ٥) - نعم انّ نفسي سوداء مثل الشيطان. الاّ انّ سبب ذلك هو حريق الشمس : هكذا حكم الله ان اكون انا . وفي هذا العالم لا بُدّ من وجود اخيار واشرار - ما هذا القول يا ايتها الخليقة الشقيّة: انّ الشمس هي معين النور فلا يمكن ان تكون سبب ظلامك . بل انّ سببهُ الوحيد هو سوء ارادتك الملتوية - انّ الله يريدنا ان نكون جميعاً صالحين ويحتمل الاشرار صابرًا لكي يصيروا صالحين . وهم يتعذّبون في جهنّم بافضل صواب وعدل ان ارادوا ان يموتوا شرّيرين - فهذا الاعتذار اذًا لا يبرّئهم . بل يزيد على خطاياهم خطيّة التجديف وهو مرهم اكثر نتانة وسمًّا من الجرح الموضوع عليهِ هذا المرهم - وهذا الاعتذار شرّ من الخطيّة عينها . لانّ هذا اللسان يرينا جليًّا انّ القلب لم يتّخذ بعد حيوة جديدة بالندامة الحقيقيّة *

ثمّ انّ اللسان يقدّم لنا علامات القلب نادمًا لا في حين الاعتراف السرّيّ فقط . بل ايضًا بعد الفراغ منهُ . فانّنا نسمع قومًا يشكون من معلّم اعترافهم لانّهُ وبّخهم . ويجعلونهُ قليل الرصانة والتمييز لانّهُ الزمهم بترك سبب الخطيّة القريب او لانّهُ سالهم عن اشياء كثيرة تتعلّق بخطاياهم . الاّ انّ هذا كلام من قد اظلم عقلهُ واختلّ رايهُ من شدّة علّتهِ ودائهِ كعادة المحمومين الذين من شدّة الحمى يغتاظون من الطبيب وهم حقيقون ان يغتاظوا من

الحمى - انكم لو تعقلون الامور جيدًا. لما كنتم تتشكّون من الكاهن. لانّ الشيء الذي صيّر معلّم اعترافكم متشددًا معكم ليس هو عدم التمييز. بل هو عظم دائكم - فمثل هذا الكلام لا يخرج من فم خاطئ نادم حقًا. لانهُ لو كنتم تائبين بالحقيقة لطلبتم باجتهاد كهنةً يونّبونكم وينبّهونكم ويقدّمون لكم علاجات مختلفة تصدّكم عن العود الى الخطيّة - هؤلآء القسوس هم الذين يعملون بما هو مفروض عليهم - ما قولكم في طبيب يضع على جرح مرهمًا ولا يلفّهُ ولا يعصّبهُ بعصابة - ذلك مثال هؤلآء الكهنة معلّمي الاعتراف الذين لا يتكلّمون ولا يوبّخون ولا ينصحون ولا يفرضون قوانين مفيدة ولا يقدّمون وسائط مناسبة معينة لصدّ النفس عن الرجوع الى الخطيّة. فيحدث انهُ عند الفراغ من الاعتراف حينما يقوم التلميذ بعد اخذهِ الحلّة تقع اللصقة من الجرح ويعود الدم يجري منهُ كأنّ الطبيب لم يداوهِ. وبعد الاعتراف يسير سيرهُ القديم كأنّهُ لم يعترف *

ولاننا ذكرنا هذا الامر الجزيل الاعتبار. فلنوردنّ ما ينتصح بهِ من كانت حالهُ هذا الحال: فاعلموا انّهُ كان في مدينةٍ من بلاد ايطاليا رجل ذو ثروة وسطوة محبّ المال ومكاسب الظلم والحرام - فهذا اتّفق انّ معلّم اعترافهِ اطلقهُ بغير حلّة. لانّهُ لم يرد ان يردّ مال الظلم - فذهب الاحمق الى كهنة اخرى ففعلوا بهِ كما فعل بهِ الاوّل واطلقوهُ بغير حلّة - الّا انّهُ لسوء حظّهِ وجد اخيرًا احد الكهنة الذين قال عنهم النبيّ انّهم يقدّمون للخطاة وسادة في نومهم المميت. فهذا الكاهن حكم اوّلًا على اولئك الكهنة المقدّم ذكرهم بانّهم لا رفق لهم ولا رقّة. ثمّ حلّ التلميذ وبهذا ربح محبّتهُ. لانّ التلميذ تمسّك بارشادهِ وكان اوقاتًا كثيرة يدعوهُ الى ولائمهِ وكثيرًا ما يصلهُ بهدايا - فاتّفق يومًا انّهُ بعد انّ الكاهن تعشّى عند ذلك الغنيّ ورجع الى منزلهِ والغنيّ اضطجع على فراشهِ لينام. اصابهُ من ساعتهِ مرض مات منهُ موت الفجاة. وحينئذٍ خرج من البيت شيطانان شبه خدّام الغنيّ. وذهبا راكضين الى بيت الكاهن وقالا لهُ: السيد

تلميذك هو في خطر الموت فأسرع لمعونتهِ - فخرج الكاهن صحبة الشيطانين . ولمّا وصل الى بيت تلميذهِ وجدهُ قائمًا لابسًا ثياب الليل التي يرقد بها . فقال الغنيّ للقسيس : اعلم انني قضيتُ اجلي وحُتم عليَّ بالهلاك الابديّ لفساد اعترافاتي الّا انّهُ يجب على الذي اشترك في ذنبي ان يشترك في عقوبتي . فانت الذي كنت تحلّني خلاف الواجب وخلاف الناموس . قد حكم عليك العدل الالهيّ ان تتعذّب معي في جهنّم الى الابد - وللوقت هجم عليهِ شيطانان وهبطا بهما الى وسط جهنّم *

اذهبوا الآن واطلبوا معلّمي اعتراف متراخين مطلّقين . وانسبوا غيرة الكهنة المجتهدين في خلاصكم الى تشديد مفرط - وما النفع الحاصل لكم من حلّة غير صحيحة مخالفة لوصيّة الله . انّهُ لا ينتفع منها سوى الشيطان اذ انّهُ عوضًا عن ان يخسر نفسًا بالاعتراف يربح نفسين . نفس التلميذ المحلول باطلًا . ونفس معلّم اعترافهِ الذي حلّهُ ظلمًا *

فلنعُدْ الآن الى ما كنّا في صددهِ فنقول : انّ لنا علامةً حقيقيّة على صحّة ندامة القلب في لسان الخطاة الذين عند حلول المصيبة يتواضعون تحت يد الله القادر على كلّ شيء . ويقبلون عصا عقابهِ معترفين بأنّهم يستحقّون أكثر من ذلك - انّهُ لمّا جرّد الله عصا عقابهِ على بني اسرائيل ومات منهم بالطاعون سبعون الف رجل في ساعات قليلة . قال حينئذٍ داود الملك : انا الذي اخطأتُ وانا الذي اسأتُ (٢ صموئيل ٢٤ : ١٥) - بمثل هذا تنطق كلّ السنة الخطاة التائبين اذ ينسبون الى ذنوبهم كلّ البلايا التي تصيبهم وفضلًا عن أنّهم لا يستعظمون عقاب عدل الله يجدونهُ اقلّ بما لا قياس لهُ ممّا يستحقّون . فيقولون مع أيّوب الصدّيق : اخطأتُ وعوّجتُ المستقيم . ولم يصبني ما استاهلهُ (ايوب ٣٣ : ٢٧) . فما الذي يجب ان يكون ظنّنا بالقوم الذين عند ورود ادنى مصيبة يحتدّون غضبًا قائلين : ماذا صنعتُ لتلمّ بي هذه الضيقات . ما الذي فعلتُ -

انّكم لاتفهمون هذا الامر جيّدًا . لانكم تزِنون خطاياكم بميزان محبّتكم الذاتيّة الملعونة . لكن زنوها بميزان العدل الالهيّ *

اننا حتّى الآن قد بيّنا لكم علامات القلب الجديد واللسان الجديد بواسطة التوبة . علامات يريها اللسان في حين الاعتراف وبعد الفراغ منهُ . فلنبيّن الآن العلامات الظاهرة من الايدي *

انّ الايدي هي آلات اللسان والقلب . ومن ثمَّ فهي تقدّم لنا العلامات الامينة التي بها نعرف السيرة الجديدة التي يسير بها الخطاة التائبون - ان كنتم بعد الاعتراف اكثر اهتمامًا في ممارسة الافعال الصالحة . فليكن هذا لكم علامة جديدة على انّ في قلوبكم مصدر حيوة الهيّة مقترنة بالنعمة دائمًا - وبخلاف ذلك ان كنتم بعد الاعتراف اوفر كسلاً في فعل الخير . فانّ هذهِ هي علامة رديّة - اسمعوا كيف انَّ القدّيس بولس الرسول يتفلسف عن قلب قد ندم حقًّا على الخطيّة قائلاً : ما اكثر ما احدث فيكم حزنكم الذي حزنتموهُ بحسب ارادة الله اجتهادًا واعتذارًا وحرقةً ورهبةً وشوقًا وغيرةً وانتقامًا (٢ قور ٧ : ١١) - انظروا يا مباركين كيف انّ الرسول يتّخذ من علامات الايدي اي من الاعمال الصالحة صحّة توبة اهل قورنتس . فكأنّهُ يقول لهم : انّكم حقًّا ندمتم ندامة الخلاص وحزنكم هو حزن بالله . ولهذا ظهرت توبتكم حالاً بالاعمال . وما الذي فعلهُ فيكم هذا الحزن . انّهُ اصدر فيكم اجتهادًا بليغًا في اصلاح سيرتكم . واحتراسًا عظيمًا من اصحاب العالم المضلّين . وغيظًا شديدًا على الجسد المتمرّد . وخوفًا واجبًا من حيَل الشيطان . وشوقًا مضطرمًا الى العمل بمرضاة الله . وغيرةً نشيطة للاقتداء بآثار الابرار . وانتقامًا حميدًا من اجسادكم . قصاصًا عمّا سبّب لكم من الخطايا - فهذا هو القياس الرسوليّ الذي ينبغي ان يقيس المومن عليهِ صحّة ندامتهِ - وان طلبتم قياسًا اكثر اختصارًا . لنقدّم لكم القياس الذي عينهُ مار توما اللاهوتيّ حيث يقول : انَّ فضيلة التوبة غايتها هي هدم الخطيّة نظرًا الى كونها سيئة الى

الله ومعاقبة الخاطئ نفسهُ عنها على قدر الواجب - فان وجدتم في قلوبكم هذا الغيظ المقدَّس على انفسكم لاجل خطاياكم . وهذا الشوق لأَخذ الانتقام من ذواتكم بسببها . يسوغ لكم ان تعتقدوا انكم بنعمة الله حاصلون على توبة حقيقيّة - لكن اذا كنتم تستثقلون القليل من القانون الذي يفرضهُ عليكم الكاهن . ولا تجدون زمنًا ولا قوَّة لقضائهِ . مع انّكم تجدون ذلك لقضآء مرغوبات شهواتكم - كيف اعتقد انَّ شجرة هذه التوبة هي جيّدة وهي لا تثمر اثمارًا جيّدة *

وامّا الغاية الاخرى التي تُقصَد بالتوبة اعني ممارسة الافعال التي تهدم الخطيّة نظرًا الى كونها اساءة الى الله . فان رايتكم تندبون العذرآء وتلتمسون عونها لكيلا ترجعوا الى الخطيّة . وان وجدتكم راغبين في استماع كلام الله . ومعاشرين اهل التقوى والمذاكرات المفيدة للخلاص . وان كان الخوف من الرجوع الى الخطيّة يصيّركم ان تهربوا من اخطار السقوط . لا القريبة فقط . بل البعيدة ايضًا . فحينئذٍ سأحكم عليكم بانّكم اعترفتم اعترافًا جيّدًا - ولكن اذا رأيتكم في كلّ شيء متراخين متغاضين معجبين بانفسكم . فماذا اقول عنكم . لعمري انّي لا اتجاسر أن اؤمّنكم - لا سمح الله ان يكون خلاصي على مثل هذه التوبة معتمدًا . لانّهُ قد قال مار توما اللاهوتيّ: انَّ التوبة ليست مجرّد الامتناع عن الخطيّة . بل هي ايضًا اصلاح السيّئة المفعولة بعملٍ ما نكرم بهِ من اسأنا اليهِ - وما الذي تفعلونهُ انتم اكرامًا لله بعد الاعتراف افضل ممّا كنتم تفعلونهُ قبلاً . بل ايّة خطيّة كنتم معتادين عليها قبلاً لا ترتكبونها الآن *

فلكم اذًا ان تشكّوا في اعترافاتكم - امعنوا النظر يا مباركين وانظروا كم انتم ضالّون : انّكم تنسبون رجوعكم للخطيّة الى ضعف الطبيعة وقوّة التجربة . غير انَّ الآبآء القدّيسين لا يتفلسفون هكذا . بل ينسبون ذلك الى عدم صحّة التوبة وضعفها - انصبوا قصبة في وسط حقل . فاذا هبّت ريح عاصف تلقيها على الارض حالاً : لعلّكم تقولون انّ سبب سقوط القصبة شدّة الريح . كلّا سآء ما

تزعمون. لانَّ السبب الصحيح هو انَّ القصبة كانت فارغة خاوية. والدليل على ذلك هو انَّ في هذا الحقل منصوبات قصبات اخرى كثيرة ولم يسقط منها شيءٌ غير هذه القصبة - وكذلك السبب الذي اسقطكم انتم ليس هو ريح التجربة وشدّتها. بل انَّما هو كون قلوبكم فارغة خاوية من توبة حقيقيّة. لانَّ غيركم كثيرين خطاة مثلكم او اكثر منكم ايضًا لم ينحنوا تلقآء ريح التجربة الذي اسقطكم انتم. وذلك لانَّ ندامتهم كانت تامّة راهنة راسخة حقيقيّة - قال المعلّم ترتليانس ومثلهُ قال القدّيسون اوغسطينس وامبروسيوس وغريغوريوس وغيرهم. بل جمهور الآبآء يقولون: انَّ من لا تصطلح سيرتهُ فقد كانت توبتهُ فاسدة *

انّي حقًّا اخاف جدًّا جدًّا من انَّ اعترافات خطاة كثيرين هي فاسدة. لانَّ المجمع اللاتراني المقدَّس الذي آباؤهُ كانوا في العددِ الفًا قال في القانون الثاني والعشرين: انهُ من جملة الاشيآء التي تحزن الكنيسة حزنًا عظيمًا توبة الناس الكاذبة. ومن ثمَّ ننصح اخوتنا الكهنة ان يحذروا من ان يدعوا انفس العامّة تلاميذهم تنخدع بالتوبة الكاذبة فتُطرَح في جهنّم - ولعمري لو كانت هذه التوبة الكاذبة نادرة الوجود. لم يكن الله يشكو من ذلك في الكتب المقدَّسة مرّات متعدّدة - قال تعالى على فم ارميآء نبيّهِ: اصغيتُ وسمعتُ ... ليس احد يتوب عن شرّهِ (ارميا ٨ : ٦) - انَّ سرّ الاعتراف هو معموذيّة ثانية حسب تعليم الآبآء القدّيسين. وهذه المعموذيّة الثانية هي ضروريّة للخلاص بعد الخطية نظير المعموذيّة الاولى على حدّ سوى - فما الذي كان يصير بكم لو لم تعتمذوا فهذا نفسهُ يصير بكم ان لم تعترفوا جيّدًا - قالت القدّيسة تريزيا: يا ما اكثر الذين يهلكون لسبب انّهم لا يعترفون اعترافًا جيّدًا - فيجب اذًا على كلّ من يرغب خلاص نفسهِ. ان يقيها من هذا الخطر ويجعل خلاصها في امان حسب التعليم الذي شرحناهُ عن القلب واللسان والاعمال. لكي نستحقّ بحزنٍ ونوح وجيز مع التائبين الحقيقيّين ان نفرح ونستبشر مع القدّيسين الى ابد الدهور آمين *

الموعظة الخامسة والستّون

في ضلال الذين يرتكبون الخطية بحجة انهم سيعترفون بها

انّ الادوية الطبيّة لها خاصّتان تصيّرانها مكروهة. الاولى انّ هذه الادوية هي مرّة. الثانية هي انّ هذه الادوية لا تحسم دائمًا كلّ الضرر الذي حصل لنا من الدآء - ولعمري انّ الله صنع هكذا لخيرنا. لانّهُ لو كانت الادوية كلّها طيّبة وتحسم كلّ آفات المرض. لكان البشر يستخفّون بالمرض ولا يحترسون منهُ - والحال انّ الله الذي رسم هذا النظام الطبيعيّ المتقدّم ذكرهُ. اراد ان يكون في سرّ الاعتراف شيء من المرارة. وانّهُ لا يحسم غالبًا كلّ الضرر المتولّد من الخطيّة. لئلاّ يستخفّ المومنون بحال النعمة التي فيها قائمة عافية انفسهم. ويعتادوا الخطيّة القائم فيها موتهم الروحيّ - غير اننّا لا ننتفع من هذه العناية التي هي ذات حنوٍّ وشفقة. لانّ العالم قد امتلأ من الخطاة الذين لا يبالون بالخطايا ويثقون بحجّة انهّم سيعترفون بها: فهم لا يخافون من المرض والموت لرجائهم الذميم بانّهم يجدون دوآء شافيًا - فيا ايّها الذين لا يفهمون ويا ثقيلي القلب للايمان (لوقا ٢٤ : ٢٥). انكم حقًّا لا تفهمون اسرار الايمان ولا ما قصدهُ السيّد المسيح لمّا رسمها وسلّمها لنا. اعلموا انّ من يخطئ بأمل الاعتراف بها يوشك اوّلاً ان يعترف اعترافًا فاسدًا. بل انّهُ ولو اعترف حسنًا يُخشَى عليهِ ايضًا ان يهلك - انّ الشيطان يقدّم لنا شيئين في كلّ تجربة. احدهما يخصّ الزمن الحاضر وهو حلاوة الخطيّة. والثاني يخصّ الزمن المستقبل وهو رجآء الغفران. ولذلك فلمّا جرّب حوّآء قدّم لها اوّلاً ثمرة شهيّة المنظر. ثمّ قال لها: لن تموتا

(تكوين ٣ : ٤) – فليس بعجب انّ العالم نراهُ مشحونًا من هؤلآء المومنين الاشقيآء الذين يخطئون مطمئنّين بحجّة انّهم سوف يعترفون . قائلين باطنًا انّي ارتكب هذه الخطيّة واتمتّع بهذه اللذّة الحاضرة . ثمّ بعد ذلك اعترف وانال الغفران – وبهذه الحجّة يبتدئون ان يخطئوا ويكثّرون خطاياهم بعد سقطتهم الاولى . قائلين سرًّا بعد الخطيّة الاولى : انّي قد التزمتُ الآن بالاعتراف . والاعتراف بخطيّة واحدة وبخطايا كثيرة شيء سيّان . والكاهن سيحلّني على حدٍّ سوى ان اخطأتُ مرّةً واحدة او مرّات كثيرة – فهذا هو رجآء الخطاة الكاذب المهلك الذي قال عنهُ روح القدس بأنّهُ رجآء خبيث مهلك لكثيرين *

والآن هلمّ نبيّن بطلان هذه الطمانينة الجزيلة الضرر بخوف مفيد خلاصيّ . فنقول اوّلاً : انّ هؤلآء القوم حاصلون على خطر عظيم بان يكون اعترافهم فاسدًا . والسبب اراهُ واضحًا . وهو انهم بلسان الحال يظهرون انّهم لا يعرفون انَّ الندامة هي ضروريّة في الاعتراف . بل انّهُ يكفي للاعتراف الجيّد ان يذكروا خطاياهم للكاهن من غير ندامة – انّي قلتُ انّهم يظهرون غير عارفين بضرورة الندامة . لانّهم لو يعرفون ضرورتها حقًّا . لكان ضربًا من الحماقة قولهم : انّي افعل هذه الخطيّة ثم اعترف بها . فكأنّهم يقولون انّي افعل هذه الخطيّة ثم اندم عليها واحتسب فعلها اعظم البلايا وارذلها كرذلي اعظم الشرور . انّي افعل هذه الخطيّة وبعدهُ اتمنّى ان اكون قد سفكتُ دمي ولا اكون فعلتها – من ذا يقدر ان يتكلّم كذا الاّ ان يكون احمق – اخبروني بحياتكم لو اشرتم الى احد الغلمان الاّ يتزوج بفتاة ذات اخلاق سيّئة وسيرة رديّة . واجابكم هو قائلاً : انّي سأتزوّجها ثم اندم على ذلك . اما كنتم تقولون عن هذا الفتى انّهُ فاقد العقل اصلاً – لانَّ الحجّة العظمى المؤثّرة اكثر ما يكون لصدّ الناس عن فعل السؤ هو الخوف من انّهم يندمون على ذلك فيما بعد – فاذًا ان قلنا عن الذين يخطئون بحجّة الاعتراف انّهم فاقدوا العقل مطلقًا . وجب ان نقول انّهم لا يعرفون او يظهرون

بلسان الحال عند ارتكاب الخطيئة انهم لا يعتقدون بضرورة الندامة في الاعتراف.
فالذين هذه هي حالهم اي الذين لا يعدّون الندامة ضروريّة في سرّ الاعتراف.
كيف يعتنون بان يتحرّكوا للندامة في وقت الاعتراف - فهؤلاء بعد موتهم اذا سألهم الله قائلاً: اين ندامتكم على خطاياكم. هل يتبرّأون عندهُ تعالى بقولهم لهُ: اننا ما عرفنا انّ الندامة هي ضروريّة. بل ظنينا انهُ يكفي ان نكشف خطايانا للكاهن - غير انّ هذا الاعتذار يكون باطلاً. بل انهُ يُحسب خطيّة جديدة على من تهاون بتعليم ما يخصّ الخلاص *

غير انّي افترض الآن واسلّم انكم تعلمون ضرورة الندامة في الاعتراف.
وكيف تاتون الندامة بسعيكم الواجب مع النعمة الالهيّة ان كنتم لا تعلمون الحجج المحرّكة الى هذه الندامة - لانّ الندامة الجيّدة في الاعتراف ينبغي ان تكون دائمًا امّا كاملة. وامّا غير كاملة. والحال انّ من يخطئ مطمئنًا يجهل الحجج المحرّكة الى الندامة الكاملة وغير الكاملة. لانهُ اوّلاً يجهل حجج المحبّة الضروريّة للندامة الكاملة. اذ انهُ لو يعرفها كيف كان يمكن ان يهين الله وهو يعرف ما يجعلهُ تعالى مستحقًّا افضل الاعتبار والاكرام. وان يغيظهُ وهو يعترف بصبرهِ وحلمهِ وان يحتقرهُ مع كونهِ كريمًا جوادًا مستحقّ المحبّة على نوعٍ غير مدرك - ثمّ انّ الشيء الذي يجب ان يصعب اكثر ما يكون على الخاطئ النادم حقًّا ويتألّم من قِبَلهِ اشدّ التألّم هو انهُ اهان الله بالخطيّة. قال ايّوب البار: ان كنتُ قد اخطأتُ فماذا اصنع بك يا رقيب الناس (ايوب ٧ : ٢٠). لم يقلْ ماذا اصنع بي. لانّ كلّ مومن يعلم انهُ لكي يرمّ الاضرار التي اصابتهُ من قِبَل الخطيّة. يجب عليهِ ان يندم عليها ندامةً مرّةً ويعترف بها ويقلع عنها ويفي بالقانون المفروض عليهِ من الكاهن لاجلها - الاّ انهُ لكي يرمّ الضرر الحاصل لله من قبل الخطيّة. ينبغي ان يعدم خطيّتهُ ويجعل ان لا تكون قد ظهرت في الوجود. ولمّا كان ذلك ضربًا من المحال كان ايّوب يقول: اخطأتُ اليك يا ربّ فماذا اصنع

تعترفون حقًّا اعترافًا جيدًّا . ولكن اتظنّون انكّم بهذا تنالون الخلاص – انّي اجسر واقول انكّم مع هذا الاعتراف الجيّد تكونون في خطر عظيم بان تهلكوا . فيصحّ فيكم ما قالهُ النبيّ تهربون من وجه اسد وتقعون في انياب دبّ (عاموس ٥ : ١٩) – نعم يا مباركين من يستمرّ على الخطية بنيّة ان يعترف فيما بعد قد يمكن انهُ يعترف اعترافًا جيدًّا وهكذا ينجو من الاسد . الاّ انهُ يقع في انياب الدبّ . اعني انهُ حاصل بعد على خطر الهلاك الابديّ – والسبب في ذلك هو انكّم بعادتكم هذه السيئة تصيّرون لنفوسكم الرجوع الى الخطيّة اكثر سهولة والقيام منها اكثر صعوبة . وبهاتين الخطوتين يبلغ الخاطئ الى الموت الرديّ . الموت الخالي من التوبة الصادقة *

ما قولكم عمّن بنى سردابًا ويزيد عليهِ الثقل يومًا فيومًا . وهو لا يزال يقلع السرداب ومساندهُ . اليس هو من الاكيد انّ السرداب يزداد كلّ يوم استعدادًا للهدم – فهذه هي حال من يخطئ بحجّة انهُ سيعترف فيما بعد . لانهُ يزداد عليهِ كلّ يوم ثقل الخطيّة وتنقص لديهِ عضادات النعمة ومساندها – والآن فلنشرح هاتين الحقيقتين : فاعلموا انَّ الذي يميل بالانسان الى الهلاك بأشدّ عزم . يتوقّف على ثقلين يسحبانهِ باجتهاد عظيم الى جهنّم . احدهما هو ثقل باطنيّ ثقل الملكات الرديّة . وثانيهما هو خارجيّ وهو ثقل التجارب الشيطانيّة . وهذان الثقلان يزدادان مقدارًا بمقدار تكثير الخطيّة ولو اعترفتم بعد ذلك اعترافًا جيدًّا – فهذا هو الذي لا تفطنون بهِ حينما يقول الواحد منكم غالبًا بغباوة مهلكة : انّي افعل هذه الخطيّة ثمّ اعترف – انكّم تشبهون من قد وكف سقف بيتهِ . فاذا هطل عليهِ المطر يقبلهُ في اناء ويلقيهِ من الشبّاك ولا يصلح السقف – انهُ برمي الماء يصنع حسنًا حقًّا . الاّ انهُ لا يريد ان يدفع عن منزلهِ كلّ ضرر المطر المدرار . بل انّما يصلح جزءًا منهُ فقط . لانّ خشب السقف يزداد فسادًا وينخر ويهبط اخيرًا من تلقاء نفسهِ – فهذا ما يجري بكم اذا اكتفيتم بان تفحصوا عن

خطاياكم وتذكروها في الاعتراف لانهُ مع انكم بهذا تدفعون خطاياكم من القلب. الاّ انكم لاتصلحون كلّ الضرر. وانما تلقون الماء من البيت وتطرحونهُ من الشباك. ولا تهتمون بان لا يدخل المنزل ثانيةً - اما تعلمون انّ العضادات تفسد بتمادي الزمان. اي انّ قواكم الباطنة تزداد فسادًا بسبب الملكات الرديّة المتولّدة من هذه الخطايا وتتّصلون اخيرًا الى ضعف روحيّ يفضي بكم الى هوتة الهلاك الابدي - قد تخالون انكم اذا ما اعترفتم ونلتم الحلّة تحصلون على حال صحّة وقوّة باطنة كأنّكم لم تكونوا قد اخطأتم ابدًا - ومن كانت حالها حال زانية تظنّ انّها بالاعتراف تبلغ الى سعادة حال عذراء لا تعرف الشرّ - الاّ انكم في ذلك ضالّون ضلالاً غليظًا. لانهُ على قول مار توما اللاهوتي بعد الحلّة تبقى في النفس شيء من فضلات الخطايا الماضية. وهي على الخصوص الملكات الرديّة. ولو انّها ضعفت بسرّ الاعتراف. ولم يبقَ لها التسلّط الاوّل - فيحدث في الاعتراف ما يحدث في الحرب الشديدة اذا فاز القائد فيها بالظفر لا يقتل كلّ اعدائهِ. لانهُ ولو قتل كثيرين منهم. الاّ انهُ يبقي منهم كثيرين بعضهم مجرّحون وبعضهم معوّهون وبعضهم سالمون. بل يتّفق احيانًا انّ الذين انهزموا وسلموا سيعودون الى المعركة ثانيةً وينتصرون على القائد المظفَّر - فهذا ما يفعلهُ الاعتراف بجيش الخطايا. لانهُ اذا كان الاعتراف جيّدًا تباد بالحلّة كلّ الخطايا المميتة حقًّا. الاّ انهُ بعد هذه الكسرة ينصرف كثير من اعداء خلاصنا مجروحين قليلاً لقلّة ندامتنا. ومن جملة هؤلاء الاعداء واقواها الملكات الرديّة التي بسببها يتّفق انّ المومن بعد نيل الحلّة والغفران لا يحصل على حال القوّة الروحيّة التي كان حاصلاً عليها قبل سقوطهِ في الخطيّة - فيا ما اسفه هؤلاء القوم عند قولهم: لا باس ان ارتكب هذه الخطيّة. لانّي ساعترف بها ايضًا - لانهُ قد يمكن اوّلاً انّ الموت يفاجئك بغتةً. فلا تستطيع ان تهرب. ثانيًا اذا وجدت وقتًا للاعتراف فقد يمكن ايضًا ان تعترف بغير ندامة وبلا عزم ثابت. ومن ثمّ لا

تنال مغفرة خطاياك بسرّ الاعتراف . ثالثًا ولو انّك نلت نعمة الحلّة سيبقى في نفسك جرح عظيم وهو الميل الشديد الى الخطأ الذي استولى عليك بكثرة سقوطك في الخطيّة *

انّكم لا تفتكرون في هذا الميل الملعون وقوّة العادة الرديّة التي تجتذبكم الى الشرّ . ولاجل هذا لا تبالون بها - ها هوذا الطبيعة البشريّة لاجل مجرّد الخطيّة الاصليّة تركض نحو جهنّم كخيل قد أَرخَوا لها العنان كقولهِ تعالى : هوى قلب الانسان رديّ منذ صبائهِ (تكوين ٨ : ١٢) . فماذا تصير وكيف تكون حال هذه الطبيعة اذا زيد على هذه الطبيعة طبيعة اخرى اعني بها الملكة الرديّة - انّهُ من هاتين الطبيعتين ينشأ ثقل يميل بنا الى الخطيّة اضطرارًا . اعني انّهُ يعود فينا الخلاص امرًا غير ممكن على نوع ادبيّ - وفي هذا الحال فيمكن انّكم تعترفون جيّدًا . الاّ انّهُ لمّا كان سرّ التوبة لا ينافي الاستعداد للعودة الى الخطيّة وهو حال حاصل من الخطايا الفعليّة . كما انّ سرّ المعموذيّة لا ينافي الاستعداد للخطيّة الذي هو حال ناتج من الخطيّة الاصليّة فانتم تنتقلون من شرّ الى شرّ اعظم ومن خطيّة الى خطيّة اخرى الى آخِر حياتكم *

وامّا الثقل الآخر الذي يُزاد على هذا الثقل فيصدر من الشيطان بتجاربهِ . وهذه التجارب تزداد قوّة يومًا فيومًا بمقدار ازدياد عدد الخطايا - والسبب هو واضح . لانّي اسالكم يا مباركين من الذي اعطى الشيطان هذا السلطان الذي لهُ علينا : انَّ الخطيّة هي التي سلّطتهُ هكذا علينا - قال بطرس زعيم الرسل : ما غُلب منهُ الانسان فهو لهُ مستعبد (٢ بطرس ٢ : ١٩) . وبالنتيجة بتكثير الخطيّة تشدّدون سلطة الشيطان عليكم . وفي عبوديّتهِ تخضعون اخيرًا لارادتهِ وعليها تتدبّرون - وهذه هي حيلة اللعين التي لا يعرفها المسيحيّون وهي انّهُ اخزاهُ الله يطلب قليلاً في الابتداء لكي ينال كثيرًا فيما بعد ويحصل اخيرًا على اكتساب مرغوبهِ . فيقول في الابتداء ما ذُكر في سفر اشعياء النبي : إنحني حتى

نعبر (اشعيا ٥١ : ٢٣) - لا يطلب في الابتدآء ان يسكن في قلوبنا . بل يطلب هذا فقط وهو ان ندعهُ ان يدخل فيهِ مجتازًا عابرًا . فيقول افعلْ هذه الخطيّة هذه المرّة فقط . ثمّ تعترف بها . وتكفّ عن فعلها فيما بعد - ضع شفتيك على هذه الكاس المملوّة لذّة شهوانيّة . وبعد ان تكون تشرب السمّ تستفرغهُ حالاً وتبغضهُ فيما بعد دائمًا - انَّكِ انتِ فتاة او امرأَة محتاجة . فارتضي بالخطيّة مع فلان لكي يسعفكِ . ثمّ تخرجين من بين يديهِ - وانتَ يا من اهانك فلان . انتقم منهُ للدفع عن عرضك ولكي تكرمك الناس . ثمّ تعيش عيشة مسيحيّة - انظروا لطافة طلب اللعين : لا يطلب لجيشهِ الفقير سوى ان يفتح لهُ الطريق ليجتاز منها . كأنَّهُ يردّد قول النبيّ : انحني حتّى نعبر - فيا ما اكثر الذين خدعهم ابليس بهذه الحيلة . الا تعلمون انَّهُ أَخزاهُ الله يفعل مثل الحيّة اذا أُدخلت رأسها في غار تُدخل فيهِ بقيّة جسدها بسهولةٍ - انّ الأَمر الاصعب على ابليس هو ان يلقينا في الخطيّة الاولى . لاننّا حينئذٍ نكون متمنطقين بالنعمة المملكيّة ومتقوّين بالنعمة الحاليّة ومصونين من الله بعناية خصوصيّة صيانة الاب لاولادهِ الاعزّآء والعدوّ المحارب انفسنا هو خارج منها - ولكن حينما نرتضي بالخطيّة الاولى ينصب في وسط قلوبنا رايتهُ المنتصرة فينفصل الله منّا مبتعدًا . وكما انّهُ اذا انتقل الملك تنتقل معهُ حواشيهِ . هكذا حينما ينفصل الله منّا تنتزع منّا المحبّة وبقيّة الفضائل . بل ايضًا نفقد النعمة المبرّرة . ويضعف فينا وينقص عون النعمة الفعليّة . وتعود النفس كمدينة مسلَّمة ليد من انتصر عليها - فهذه النفس الشقيّة التي كانت قد ابتدأَت ان تخطئ بنوع من الاغتصاب ترتكب الخطيّة بعد ذلك بشهوة ورغبة . والتي كانت في الابتدآء لا تريد سوى ان يجتاز العدوّ في ارضها عابرًا ويمرّ عاجلاً . ترتضي الآن بان يستقرّ عندها متسلّطًا زمانًا مستطيلاً - تأمّلوا في بني يعقوب ابي الاسباط . إنّهم دخلوا ارض مصر بنيّة ان لا يقيموا هناك الاّ زمانًا يسيرًا . اي ما دام الغلآء . ولكنَّ الامر جرى بعكس ذلك .

فانهم استقرّوا هناك مع ذرّيتهم اربعمائة سنة . ولو لم ينقذهم الله بيدهِ القادرة وبعجائب مذهلة من مخاليب فرعون الملك القاسي لزاد بلاؤهم وشقاؤهم — هكذا هي تلك الفتاة او تلك المرأة التي تحسب قولها ترتضي بالخطية لاجل ضرورتها . اعني لكي تجد من يتزوّجها او يطعمها او يكسوها في زمن الغلآء وفي زمان البرد . ولكي يسعفها في وفآء دينها او ربح دعواها — فهذه لها نيّة ان لا تستمرّ في هذه الحال اكثر من مدّة ضرورتها . بل قصدها ان ترتجع عن الخطيّة تائبة اذا زالت ضرورتها — نعم انّ هذا هو قصدها . الاّ انّ الامر ينتهي بخلاف املها . لانّ الشيطان الذي هو فرعون الجهنّمي اركون مصر الشقيّة . اعني بها الخطيّة يشغلها ويظلمها ظلمًا شديدًا حتّى انهُ لا يدعها ان تفتكر في شقائها . واذا ما انتبهت بصوت الضمير وعزمت على الخروج من هذا الاسر الملعون . فانّهُ اخزاهُ الله يصيّر لها الخروج عسرًا جدًّا . حتّى انهُ يحتاج ان يصنع الله لاجلها عملاً من اعمال يديهِ القادرة على كل شيءٍ *

انّي اعترف انكم تستطيعون ان تخرجوا الشيطان . الاّ انكم ربّما لا تخرجونهُ . واطالة استمرارهِ عندكم ترغّبهُ في الارتجاع اليكم . كما انّ الكلب المربّى في بيتٍ مهما ضربتموهُ . فانهُ يعود الى البيت سريعًا — وما هو شرّ من ذلك . هو انهُ لا يعود وحدهُ . بل انهُ يعود صحبتهُ كلاب اخر كثيرة . كقولهِ تعالى : ياخذ معهُ سبعة ارواح اخر شرًّا من الاوّل فتصير اواخر النفس شرًّا من اوائلها — فقد اتّضح اذًا انّ من يرتضي بالخطية مرّةً واحدة قائلاً في باطنهِ : انّي ارتكب هذه الخطيّة ثم اعترف واتوب . يُخشَى عليهِ جدًّا جدًّا ان يستمرّ في الخطيّة زمانًا مديدًا . انهُ لكي يكون خلاصهُ في حال الامان . كان يجب ان يعطيهُ الله عونًا متزايدًا او مساويًا لزيادة ثقل الملكات الرديّة والتجارب الشيطانيّة المتسلّطة عليهِ . الاّ انّ الخطر يزداد من هذه الجهة الباهظة التي يجهلها كثيرون *

يجب عليّ ان اهديكم خطوة فخطوة هذا الطريق الذي يعرفهُ الاكثرون

قليلاً : فاعلموا يا مباركين انهُ من المستحيل ان يتوب احد بقوَّة اختيارهِ . والمذهب المضادد لهذه الحقيقة هو مذهب هرطوقيّ . لانهُ لن يقدر الانسان ان ياخذ شيئًا الاَّ ان يُعطَى من السمآء (يوحنا ٣ : ٢٧) - ولعمري انَّ هذا المذهب يضادّ ايضاً العقل النطقيّ اذ يعلّمنا كما قال القدّيس اوغسطينس : انَّ الانسان يمرض متى شآء . الاّ انهُ لا يتعافى حينما يريد - فاذًا كما ان كلّ مياه البحر لا تكفي لاصدار اللؤلؤ في الصدفة . بل يقتضي ان تسعى السمآء بنداها في هذا العمل الثمين . هكذا كلّ قوّة الطبيعة ليست كافية للارادة لكي تعمل عملاً ما صالحًا . بل ينبغي ان يسعى الله فيهِ بنعمتهِ . وليس ذلك فقط . بل يجب ايضًا ان ينبّه الارادة المتناعسة - على انهُ ان لم يسبق الله ويرتدّ الى الخاطئ راحمًا . فلا يمكن ان يرتدّ الخاطئ اليهِ تائبًا . ولهذا قال ايّوب الصدّيق . تدعوني فانا اجيبك (ايّوب ١٤ : ١٥) مشيرًا بذلك الى ضرورة النعمة السابقة مصوّرًا الخاطئ كالمغارة التي لا تجيب بالصدى الاَّ ان يتّصل اليها الصوت قبلاً - وعلى هذا المعنى قال صاحب المزامير : رحمتك تسبق وتدركني - لاحظوا جيّدًا هذه الحقيقة يا مباركين وهي انَّ الخطاة الذين يخطئون مطإنّين بحجّة انهّم سيعترفون يتصرّفون كأنهّم متمسّكون بهذا الراي الهرطوقيّ اي انهّم يعتقدون بأنهّم بمجرّد قوّتهم يقدرون ان يتوبوا *

تأمّلوا الآن الحقيقة الثانية . فاعلموا انهُ كلّما زاد عدد الخطايا . زاد احتياج الخاطئ الى النعمة الالهيّة لكي يتوب . لانّهُ يصلّب قلبهُ بكثرة خطاياهُ . وحينئذٍ لا تكفي اشعّة النعمة الاعتياديّة . بل يحتاج الى نعمة تكون كما قال ارميآء النبيّ كمطرقة حاطمة الحجارة (ارميا ٢٣ : ٢٩) . يحتاج الى تلك النعمة التي يدعوها مار اوغسطينس نعمة منتصرة *

وبعد بيان هاتين الحقيقتين اللّتين لا ريب فيهما . ينبغي ان تعلموا الآن انّ الشريعة الاعتياديّة التي من عادة العناية الالهيّة ان تسلك بها غالبًا في

اعمالها. تقتضي ان لا يمنح الله هذه النعمة الوافرة لمن يُكثر خطاياهُ. لرجاهُ ان يقوم منها بسهولة بواسطة هذه النعمة – والحجّة الاولى التي عليها يعتمد هذا الراي تُتخذ من الغاية الاولى التي يقصدها الله في توزيعهِ مراحمهُ علينا. وهذه الحجّة هي المجد الالهيّ. فالآن اسالكم يا مباركين ايّما مجد يجتني الله لو يغفر دائمًا للّذين يخطئون بالجسارة والوقاحة لرجائهم ان ينالوا الغفران دائمًا – لعمري لو كان الله يفعل ذلك لكان عوضًا عن ان يتمجّد بهم يصيبهُ من قِبَلهم اعظم اهانة – قال الرسول: انّ الله لا يُستهزأ بهِ. وانّما يحصد الانسان ما قد زرع (غلاطية٦ :٧و٨). فكأنّ الرسول يقول: انّ الله لا يريد ان يهزأ بهِ احد – فاعلموا اذًا انّكم تحصدون ما قد زرعتموهُ. فان فعلتم خيرًا فخيرًا تنالون. وان فعلتم شرًّا يكون لكم شرّ – فلو حدث انّ الخطاة الذين يخطئون بحسب هواهم ينالون غالبًا بحسب مرامهم نعمة التوبة المنتصرة. لكان ينتج من ذلك انهم بعدما زرعوا في حقولهم الشرّ يحصدون الخير. وهكذا يستهزئون بالله. ولكنّ الرسول يقول انّ الله لا يُستهزأ بهِ – وما عدا ذلك يرغب الله ان نستعظم هذا النعمة المنتصرة. حتّى انهُ يتأخّر احيانًا في منحها للابرار الذين يطلبونها باجتهادٍ بليغ. وذلك كما قال القدّيس اوغسطينس لئلاّ يقلّ اعتبارهم لهذه النعمة اذا ما نالوها حالاً – فمن ذا يصدّق انّ الله يعطيها لخطاة هاربين منهُ. وها انّهُ تعالى لا يعطيها للصدّيقين الاّ بكلّ الاحتراز مع انهم يطلبونها بكلّ الرغبة – فلا شكّ انّهُ لو كان الامر هكذا لكان ذلك استهزآءً بنِعَم الله *

ثمّ انّ الكفر بالاحسان وعدم الشكر عليهِ هو حجّة كافية لله ليمسك عنّا حسنات جديدة. ولهذا قال القدّيس برنردس. انّ الكفران بالنعمة هو عدوّ النفس الذي يُذهب الاجر ويبيد الحسنات. لانّ شرط المعاملة بين الخالق والخليقة هو هذا. وهو أن يهب الخالق الحسنات وتثني عليهِ الخليقة بالشكر – فان كان مجرّد عدم الشكر على الاحسان يكفي لابطال هذه المعاملة

الجزيلة النفع للخليقة . فكيف لا يكفي ايضاً سوء التصرّف بالاحسان واستخدام الانسان ايّاه كسلاح في وجه المحسن نفسهِ -- انّ هذا هو افتراء على رحمتهِ . وبالنتيجة هو مانع لنيل عونها وحسناتها *

واما الحجّة الاخرى التي بسببها لا يحسن الله الى خلائقهِ فهي خير المختارين . فلو كانت هذه النعمة الخصوصيّة النادرة الوجود الضروريّة لردّ القلب القاسي الى التوبة يعطيها الله غالبًا للخطاة الذين يتّخذون حجّة من جودتهِ ليستهزئوا بهِ . ماذا يكون الخير الذي يحصل للابرار من هذا التدبير . انهُ يصير لهم ذلك سبب عثرة -- قال الله : لا يستقرّ قضيب الاثمة على حظّ الصدّيقين لئلّا يمدّ الصدّيقون ايديهم الى الاثم (مزمور ١٢٤ : ٣) - وقد اعتبر المعلّم الجليل بلّرمينس في تفسير هذه الآية . انّ الله اراد ان يبيّن لنا بهذه الكلمات الداودية حسن عنايتهِ الحبيّة التي لا تسمح ان يقوى المنافقون على الصدّيقين . حتّى انّ التجربة تصيّر الصالحين ان يهملوا العبادة كأنّها اقلّ سعادة من طريق الاثم - فلو كان الاشرار ينالون بلا تعب ولا عناء وبلا صلوة بل مع استهزائهم بالصبر الالهيّ ينالون العون الخصوصيّ الذي هو حظّ الابرار لبلوغ الخلاص الابديّ يا ما اكثر ما كان يقوى حظّ الاشرار على حظ الابرار - لو كان الامر كذلك لكانت تلك محنة للابرار ثقيلة مخطرة - انّ مجرّد نجاح الخطاة في الدنيا الذي ليس هو الاّ ظلّ السعادة الحقيقيّة كان يحيّر داود الملك حتّى انهُ هتف قائلاً : كادت تزلّ قدماي وعمّا قليل كادت تزلق خطواتي لانّي غرتُ من المتكبّرين اذ رايتُ سلامة الخطاة (مزمور ٧٢ : ٢ و٣) - فما قولكم لو تشترك الاشرار مع الابرار على حدٍّ سوى في اعظم سعادة هذه الحيوة اعني بها العون الخاصّ الذي يبلغنا الى الخلاص الابديّ - ومن ثمَّ استتلى صاحب المزامير قائلاً : احسن يا ربّ الى الصالحين والى المستقيمي القلوب (مزمور ١٢٤ : ٥) . كأنّهُ يقول ان اردت يا ربّ ان تبين سخاء جودتك وخيريّتك بفيض نعمك فبيّن ذلك

بفيضك اياها على الاخيار الذين تصيّرهم استقامة قلوبهم ان يعرفوا الجميل ويقابلوهُ بالشكر والحمد. لانّهم كأشجار مغروسة على مجاري نعمتك ياتون باثمار وافرة - واما هؤلاءِ الخطاة الذين يشبهون اشجارًا مسمومة ويلتمسون نداك السماويّ ليزيدوا بهِ سمّهم الباطن. فاقلعهم والقِهم عنك واتلفهم - انهُ لا يوجد في الكتب المقدّسة حقيقة مثبتة موكّدة اكثر من هذه التي نحن في صددها *

ونزيد على ذلك ونقول انَّ جسارة هؤلاءِ الخطاة التي بها يلقون انفسهم باختيارهم في خطر فقد نعمة الخلاص فانّها وحدها هي حجّة كافية لله ليمسك عنهم هذه النعمة بعدلٍ. لانهُ ان كان الله يدع احيانًا الصدّيقين ان يسقطوا لاجل اعتمادهم على انفسهم. فمن تراهُ يصدّق انّ الله يهب بسهولةٍ لخاطئ متجاسر النعمة الضروريّة للميتة الصالحة النعمة التي قد يتّفق ان يمسكها الله عن البارّ المتجاسر *

فلنختم هذا الخطاب بالنصيحة الجليلة التي نطق بها روح القدس: يا ابني ان كنت قد اخطأت فلا تعُد ايضًا. بل استغفر لنفسك عن السيّئات - امعن النظر ايّها الخاطئ وتامّل في الشرّ الذي صنعت. انّك قد اخطأت وصنعت السوءَ بتمرّدك على ابيك وخالقك وحافظك وفاديك والاهك. وقد اخطأت مع نور الايمان الذي لك من الله. واستعملت هذا الاحسان الالهيّ لتسيءَ اليهِ تعالى باعظم الجسارة والوقاحة - انّك عرفت بنور الايمان كم تكلّف السيّد المسيح في سرّ التوبة الذي قدّمهُ لك تعالى لعلاج سقطاتك - وما الذي صنعت انت: ها انّك استخدمت هذا الدواءَ الالهيّ لاطالة تمرّدك وتكثير خطاياك وانت ترجو انّك تستطيع ان تقوم متى شئت - اخطات يا بنيَّ بهذا خطأً عظيمًا. لكن كفَّ الآن عن السوءِ. ولا تعُد تخطئ لانّي اسبق واخبرك انَّ رجاءَك سيخيب - لانهُ كلّما زاد عدد خطاياك تقوى فيك الملكات الرديّة التي تفضي بك الى الهلاك. ثمّ انَّ قوّتك تنقص وتضعف. ويشتدّ سلطان الشيطان

المتسلّط عليك - تذكّر ايضًا انّ الله يبغض الخطيّة بغضًا غير متناهٍ . وبسببها ايضًا يبغض الخاطئ بغضًا لا يُدرَك . كقول الحكيم : بالسوآء بغيضان الى الله المنافق ونفاقهُ (حكمة ١٤ : ٩) - الويل لك لو يريد الله ان يختبر بغضهُ بمسكهِ عنك وفور النعمة الضروريّة لخلاصك . فايّاك اذًا والرجوع الى الخطيّة . ولا تكتفِ بذلك . بل استغفر الله عن خطاياك السالفة *

الموعظة السادسة والستّون

في وجوب افعال التوبة الوفائيّة بعد ارتكاب الخطيّة

لقد علمتم يا مباركين انّ التوبة نوعان . احدهما باطنة وهذه تتوقّف على بغض الخطيّة . والاخرى ظاهرة قائمة في التكفير عن الخطيّة باعمال متعبة وفائيّة - وقد تكلّمنا عن التوبة الباطنة بالكفاية : فلنتكلّمنّ الآن عن التوبة الظاهرة فنقول : انّها ضروريّة من قِبَل الله المهان ومن قِبَل الانسان المهين - وقولي هذا هو اوّلاً عن وفاء القانون الذي يفرضهُ علينا الكاهن من الاعمال المتعبة . وايضًا ما عدا ذلك ما ينبغي ان نفعلهُ باختيارنا من افعال التكفير *

فنحن ملتزمون بذلك اوّلاً من قِبَل الله الذي اسأنا اليهِ . نعم . لانّهُ كان يمكن ان يترك الله لنا مع السيئة كلّ العقاب الذي تستوجبهُ . لانّهُ لهُ في ذلك سلطان مطلق . وهو عزّ وجلّ الذي اصابتهُ سيئة الخطيّة . ولهذا قال الملك والنبيّ داود: لك وحدك اخطاتُ (مزمور ٥٠ : ٤) - لانهُ ولو كان النبيّ قد اسآء الى اوريّا ايضًا بخطيّتهِ الاّ انّ كونها اساءة الى القريب لم يكن يزيدها جرمًا اكثر ممّا لو كانت اساءة الى الله فقط . لانّهُ من المؤكّد الواضح انّ الله بذاتهِ ليس هو بشيء اقلّ ممّا هو مع جميع خلائقهِ - فان كان ذلك كذلك . ينتج

انّ الله كما تقدّم القول يستطيع ان يترك الاساءة ويغفرها بغير طلب وفاءٍ من الخاطئ. وبذلك يظهر قدرتهُ ورحمتهُ. غير انّهُ تعالى لو فعل ذلك لم يكن يظهر كذلك حكمتهُ وعدلهُ - وكان يظهر قدرتهُ بقطع سلاسل الخطيّة التي لا يمكن لأَحد غيرهِ ان يقطعها - ثمَّ انّهُ يظهر رحمتهُ بتخليصهِ انسانًا من اعظم الشقاء. اعني من كونهِ خاطئًا - الّا انّهُ تعالى لم يكن يظهر كذلك حكمتهُ وعدلهُ كما قلنا. وكيف يظهر حكمتهُ بذلك اذ لا يظهر مناسبة بين الاساءة وعقابها. مع انّهُ بهذه المناسبة يُصلح النظام الذي يهدمهُ كلّ من يخطئ. والحال انّ هذا اعني ترك السيّئة بلا عقاب هو منظر غريب ومضادّ لحسن النظام جدًّا. حتّى انهُ لا يوجد مثلهُ في جهنّم نفسها - انّ الشريعة البشريّة تقتضي ان يُعاقب المذنب بما اذنب - والحال انّنا نخطئ بالقول والفكر والفعل. ومن ثمَّ رسمت الحكمة الالهيّة ان نُعاقَب في سرّ التوبة وننال الغفران بواسطة اعتراف اللسان وانكسار القلب وممارسة الافعال الوفائيّة - ولو يترك الله كلّ عمل وفائيّ شاقّ ويكتفي بمجرّد ندامة القلب لاختلّ النظام *

وما خلا ذلك لاق بالحكمة الالهيّة ان تقتضي من الخاطئ ان يفعل هذه الاعمال الشاقّة الوفائيّة. ليكون ذلك لجامًا للانسان يردعهُ عن تكثير الخطيّة من حيث انّ سهولة نيل المغفرة تسوق الى ارتكاب المعصية - انّهُ لو يكون امرًا سهلاً على التاجر تخليص بضاعتهِ من البحر بعد الغرق. لكان عند ورود ادنى عاصفة يلقي حالاً كلّ ما لهُ في عمق البحر. الّا انّهُ لسبب انّ تخليص البضاعة هو امر مخطر وصعب جدًّا. فمن اجل ذلك نرى التجّار يحترسون على حفظها كاحتراسهم على حفظ حياتهم. وربّما يختارون ان يموتوا معها افضل من ان يحيوا بدونها - فالذي يفعلهُ حبّ المال في هؤلآء اراد السيّد المسيح ان تفعلهُ تلاميذهُ. اي انّهُ اراد ان نحترس على حفظ كنزنا الثمين كنز النعمة الالهيّة في حين هيجان التجارب احتراسًا شديدًا حتّى انّنا لا نرتضي بفقدها ابدًا -

فما الذي صنع تعالى: رسم ان يكون تخليص هذه البضاعة السماويّة مخطرًا وصعبًا بواسطة افعال التوبة الشاقّة الوفائيّة - ولهذا قال ناثان النبيّ لداود الملك حينما رآهُ نادمًا على خطيّتهِ: انّ الله قد نقل عنك خطيّتك. غير انّ الابن الذي وُلد لك موتًا يموت (٢ صموئيل ١٢: ١٣ و١٤). فكأنّ النبي يقول انّ الله قد غفر لك خطيّتك. لكن يريد جزآءً بها ان يموت الابن الذي وُلد لك من الخطيّة. وقصدهُ تعالى بما يلمّ بك من الالم من قِبَل موتهِ ان يصيّرك ان تبغض السوء الذي ارتكبتهُ *

الاّ انّ العدل الالهيّ هو الذي على الخصوص يقتضي هذا الوفآء. اي ادآء الافعال الشاقّة المؤلمة. هذا العدل الالهيّ الذي هو معروف لدى البشر اقلّ من سائر كمالات الله. ومن ثمّ فلو تُغفَر الاساءة دون وفآء ما شاقّ. يصيب العدل الالهيّ هوان - اعتبروا يا مباركين ان كلّ خطيّة هي اهانة عظيمة لله. لانهُ لمّا نهانا عنها انمّا نهانا بكلّ سلطانهِ المطلق. وبالنتيجة فكلّ تعدٍّ على الناموس الالهيّ هو اساءة الى العزّة الالهيّة - فالخاطئ اذًا بارتكابهِ الخطيّة يهين الكمالات الالهيّة بتفضيلهِ رضى شهوتهِ البهيميّة على رضى مولاهُ المطلق. ولهذا يحتقر قدرة الله بمخالفتهِ اياهُ بالاختيار وبالسهولة كأنّهُ تعالى لا قدرة لهُ على معاقبتهِ. ويحتقر حكمة الله بهدمهِ حسن النظام الذي رسمهُ جلّ ثناؤهُ اذ لم يخضع الارادة البشريّة لارادة الله. ويحتقر جود الله بتفضيلهِ خيرًا دنيًّا ولذّة نجسة على من هو معين كلّ الخيرات الحقيقيّة الابديّة - يحتقر كونهُ تعالى لا حدّ لوجودهِ بارتكابهِ الخطيّة امام الله كأنّ عينيهِ لا تبصرانهِ. ويحتقر جود الله باحتقارهِ الاجر الابديّ المعدّ لهُ منهُ تعالى. ويحتقر عدل الله باستخفافهِ بما يتوعّدهُ الله من العقوبات الهائلة. ويحتقر قداستهُ بفعلهِ ما يبغضهُ الله بغضًا غير متناهٍ - واقول على الاجمال انّ الخاطئ يحتقر كلّ الكمالات الالهيّة. ومن ثمّ يفعل فعلاً سيّئًا في الغاية بارتكابهِ ما يضادّ الارادة الالهيّة غاية ما يكون - فما ظنكم الآن يا مباركين في اهانة

الانسان لله بالخطيّة. هل تخال خفيفة غير اهل لوفآءٍ ما - قال الله بلسان حزقيال النبيّ: افقليل زناؤك (حزقيال ١٦ : ٢٠) - فان كان في ميزان تمييزكم يبين خفيفًا فلعمري انهُ لا يبين كذلك في ميزان العدل الالهيّ. هذا العدل الذي ولو انهُ لاقترانهِ بالرحمة يقرن العقاب الابديّ المحقّ لكلّ خطيّة مميتة بعقاب زمنيّ. الّا انهُ يقتضي وفآء ما بهِ يُردّ لله حقّهُ المسلوب بالخطيّة - والسبب الذي من اجلهِ لا يترك الله للخاطئ كلّ العقاب بل يريد منهُ ان يفي ما عليهِ بشيء من العقاب فهو هذا. وهو انهُ تعالى يفعل كلَّ شيء كما يليق بعزّتهِ. ولهذا لا يظهر في اعمالهِ كمالاً واحدًا فقط من كمالاتهِ. بل في كلّ عمل يظهر كمالات كثيرة - وحينما يغفر على النوع المتقدّم ذكرهُ. فعدا انّهُ يظهر قدرتهُ الضابطة الكلّ ورحمتهُ يظهر حكمتهُ وعدلهُ ايضًا. ولهذا لا يكفي ان تكون توبتنا باطنة فقط. بل يجب ان تكون ظاهرة ايضًا. ولا يكفي ان تتألّم النفس بالندامة. بل ينبغي ان يتألّم الجسد ايضًا. لانّهُ اشترك مع النفس في تعدّي الناموس الالهيّ. فيلزمهُ ان يشترك معها في الوفآء - فالواضح انّ الله انّما يغفر للنفس على هذا الشرط. وهو ان تعذّب جسدها وتؤلمهُ - قد حدث احيانًا انّهُ حُكم على شخصين بالقتل. واذ لم يوجد جلّاد يقتلهما عفا الحاكم عن احدهما بشرط ان يقتل الآخر - مثل ذلك صنع الله. لانّ النفس والجسد هما المذنبان المستحقّان العذاب. ولكن الله برحمتهِ التي لا تُدرَك يغفر للنفس. بشرط ان تعاقب جسدها رفيقها وشريكها في افعال الاثم. وهكذا النفس بمعاقبتها الجسد تنجز امر العدل الالهيّ وتنوب عن الله في انزال غضبهِ على الخاطئ وتغار على كرامتهِ تعالى بتعذيب جسدها انتقامًا من تمرّدها على الله *

فقد تأكّد انّ التوبة الظاهرة هي ضروريّة نظرًا الى الله الذي يُهان بالخطيّة - انظروا الآن كيف هي ضروريّة كذلك من جهة الخاطئ المهين الله فنقول: انّها هي ضروريّة من هذه الجهة ايضًا نظرًا الى ما قد مضى وهي الخطيّة المفعولة. ونظرًا الى ما هو حاضر اعني الملكات الرديّة المتولّدة من الخطيّة

والمتبقية بعد نيل الغفران . وهي ضرورية ايضاً نظرًا الى الزمن المستقبل لئلاّ يرتدّ الخاطئ الى الخطية — فاولاً انّ التوبة المؤلمة الجسد هي ضرورية نظرًا الى الخاطئ لاجل هذا السبب وهو انّهُ قد اخطأ . اسمعوا ما قالهُ الذهبيّ الفم في هذا الشان قال : لماذا كان يوحنّا المعمذان في عظاتهِ يخاطب الفرّيسيّين بغيرة شديدة حتّى سمّاهم جهارًا اولاد الافاعي : ذلك لأنّهم كانوا يعتقدون انّهم باغتسالهم على يد هذا القدّيس وباعتماذهم هذا الخارج يفون عن كلّ ما كانوا ملتزمين بهِ للعدل الالهيّ بسبب خطاياهم . فردعهم القدّيس والواعظ الغيور قائلاً لهم : انّ هذا الوفاء يقتضي منكم شيئًا آخر غير ماء الاردنّ الذي اعتمذتم بهِ . لا يكفي ذلك لغسل ادران خطاياكم . من دلّكم على الهرب من الغضب الآتي (متى ٣ : ٧) — فبمثل ذلك يسوغ لنا ان نخاطب اولئك المسيحيّين الذين لهم معموذيّة اكثر كمالاً في سرّ التوبة . ويظنّون انّهم اذا ما اعترفوا قد اكملوا كلّ البرّ وانّ اعترافهم يمحو كلّ ما هم ملتزمون بهِ ويلقون خطاياهم خلفهم كأنّهم لم يرتكبوها — لاحظوا ما فعل القدّيسون العارفون الامور افضل منّا : انّهم مع علمهم بانّ خطاياهم قد غُفرت لهم لم يزالوا يندمون عليها ويواظبون على فعل اعمال التوبة الشاقّة من سببها *

فلنعتبرنّ بثلاثة براهين . اوّلها في الشريعة الطبيعيّة . والثاني في الشريعة الموسويّة . والثالث في الشريعة الانجيليّة . لكي تعلموا انّهُ قد عُرف باليقين في كلّ زمان ما قد ذكرناهُ . وهو انّ من اذنب واخطأ يلزمهُ ان يفعل افعال التوبة الشاقّة . ولو انّهُ قد اضحى بارًا — فانظروا اوّلاً آدم . انّهُ بعد ان اخبرهُ الله بدواء خطيّتهِ ومغفرتها . فمع هذا لم يبرح مدّة تسع مئة سنة مجتهدًا في تسكين غضب العدل الالهيّ بعرق جبهتهِ وكدّ يديهِ ومشقّات اخر عذّب بها جسدهُ . ولم يدعهُ قطّ ان يذوق هناء — تأمّلوا داود الملك بعد سقطتهِ في خطيّة الزنا وقتلهِ اوريّا : انّهُ علم من ناثان النبيّ انّ الله قد غفر لهُ . ومع ذلك استمرّ بقيّة

ايّام حياتهِ ممارساً اصعب افعال التوبة القشفيّة يدوف بالرماد طعامهُ وبالدموع شرابهُ - لاحظوا ايضاً مريم المجدليّة كيف انها بعدما كان السيّد المسيح اخبرها بغفران خطاياها . لم تزل بقيّة ايّام حياتها اي مدّة اربعين سنة تعذّب نفسها باعظم التقشّفات - فاسألوا هؤلآء القدّيسين المعظّمين : لماذا هذا التعب والبكآء بعد نيل الغفران . فانّهم يجيبونكم قائلين : انَّ ذلك هو لانّنا اخطأنا . نعم اننّا الآن لسنا بمذنبين الاّ اننا كنّا مذنبين سابقاً . وهذا يكفي لكي نضيّق دائماً على اجسادنا - لعمري انَّ من يدلّل جسدهُ بعد الاعتراف ويملّقهُ بالتنعّم والملذّات يهين الله جديداً بعد نيل المغفرة . بل انّ القدّيس قبريانس يقول عن هؤلآء الخطاة . انّهم اذ لا يفعلون افعال التوبة الشاقّة الوفائيّة بعد فعل الخطيّة يخطئون خطأً اكثر عظماً من الخطايا التي اعترفوا بها - تصوّروا في عقولكم امرأة وجدها زوجها في فعل الزنا وغفر لها . فان كان بعد ذلك يظهر انّها لا تريد ان تنظر الى الشخص الزاني ولا ان تسمع صوتهُ . فلا شكّ انَّ زوجها يتسلّى . ولكن اذا رآها تصل الرجل بالهدايا وتلاطفهُ بالمحادثات الحلوة وبشاشة الوجه . افليس رجلها يتّخذ تلك اهانة لهُ بعد المغفرة اعظم من الاولى - والحال انّ النفس هي عروس الله . فاذا اتّفقت مع الجسد اتّفاقاً زنائيّاً بخيانتها ونكثها الامانة الواجبة لله وغفر لها الله ذلك بجزيل حنوّهِ قائلاً لها : قد زنيتِ ولكن ارجعي اليّ (ارميا ٣ : ١) - فان كانت النفس بعد ذلك تبغض جسدها ولا تريد معهُ صلحاً البتّة . فما اكثر ما يُسرّ الله بها . وبعكس ذلك ان رامت النفس ان تعامل جسدها كما في السابق . اي ان احبّت ان تريحهُ وتفرّحهُ وتنعّمهُ . افليس بهذا تزيد خطاياها عظمةً وغيظ الله عليها اشتداداً - وفي هذا قال الذهبيّ فمهُ . انَّ الانسان بعدم التوبة عن خطاياهُ يغيظ الله غيظاً اشدّ ممّا يغيظهُ بفعل الخطيّة *

فان كان بعد علمنا بنيل المغفرة يجب علينا ان نجتهد في ممارسة افعال التوبة الوفائيّة على قدر مكنتنا . فكيف ونحن لا نعلم انّنا نلنا الغفران - انهُ

قد كان ينبغي ان تحتدّ النفس بغيظ مقدَّس كلّ مرّة تذكر انّها قد اخطأَت. كما انّ العنبر يحمرّ دائمًا تجاه السمّ - فما اكثر ما يجب ان تغتاظ النفس وهي مفتكرة في انّها قد اخطأَت حقًا ولا تدري هل ندمت ندامة تستحقّ المغفرة. هل كان عزمها على ترك الخطيّة حقيقيًا *

ثمّ انّ هذه التوبة ليست ضروريّة للخاطئ نظرًا الى ما مضى فقط بل ايضًا نظرًا الى حالتهِ الحاضرة - وهَبُوا انَّ الله قد غفر لكم. فيلزمكم ان تفعلوا افعال التوبة الشاقّة. وذلك اوّلاً لكي تفوا عمّا بقي عليكم من العقاب المرسوم عليكم من الله عن خطاياكم: وثانيًا لكي تستاصلوا الملكات السيّئة المتولّدة من خطاياكم. لانّهُ لا يُنكر انّ النعمة التي ينالها الانسان في سرّ الاعتراف تميت الخطيّة. الاّ انها لا تميتها كلّ الميتوتة ولا تبيد ما يتولّد منها - قال الحكيم: مات ابوهُ وكأنّهُ لم يمت. لانّهُ خلّف مثلهُ (سيراخ ٣٠: ٤) - نعم انَّ الخطيّة قد ماتت وبادت. الاّ انّها قد خلّفت ابنًا يشبهها وهي الملكة والعادة الرديّة المتولّدة من الخطيّة - فالتوبة الشاقّة هي التي تستأصل هذه الملكة الملعونة. ولهذا قال المجمع التريدنتيّ المقدَّس. انّ الاعمال الوفائيّة تداوي فضلات الخطايا وتلاشي الملكات الرديّة *

وبعد ابادة الخطيّة واستيصال الملكات نحتاج ايضًا الى افعال التوبة الشاقّة لكيلا نرتدّ الى الخطيّة التي قد يمكن ان نسقط فيها ثانيةً بعد زوال الملكة الرديّة - انّ من ينخس الخيل بالمهاز حينما تعثر. يجعلها بذلك ان تحسن الاحتراز في سيرها - فلو كنّا نفعل كذلك ونفعل فعلاً من افعال التوبة الشاقّة كلّما زللنا وخطئنا. لكان ذلك يفيدنا جدًّا لاتقان الاحتراز من الخطيّة. كما قال مار توما اللاهوتيّ: انّ من العوائد الذميمة عادة اكثر المسيحيّين المرتدّين الى الخطيّة بعد الاعتراف مرّات متعدّدة وبعد الوعد أمام الله بانّهم لا يرتجعون اليها - انّي انا اظنّ انّ سبب ذلك هو هذا وهو. انّ الكهنة يُضطرّون ان

يضعوا قوانين خفيفة عن خطايا جسيمة حذرًا من ان يتثقّل التائبون من القانون فلا يقضوهُ – ومن جهة اخرى يكتفي التلاميذ بوفآء هذا الشيء القليل ولا يزيدون عليهِ شيئًا – فهذا الخاطئ الذي بعد اعترافهِ بخطايا باهظة لا يكفّر عنها بشيء غير تلاوة المسبحة. لا يخاف من العودة اليها – وبخلاف ذلك لو كانت تُفرَض عليهِ قوانين كالقوانين التي كانت تفرضها الكنيسة قديمًا على السرقة والزنا والانتقام وغير ذلك. لما كانت تفاقمت الخطايا واصبحت لكثرتها كطوفان استغرق فيهِ العالم كلّهُ. بل لكانت تستمرّ مضبوطة في حدودها. لانهُ كما قال القدّيس غريغوريوس. كلّما زاد تعبنا وعناؤنا في اكتساب العافية نزداد اجتهادًا واحتراسًا على حفظها *

فاذا فهمتم كلّ هذه الحجج فانظروا الآن تفاقم جهل الخطاة الذين يطلبون كهنة يفرضون في الاعتراف قوانين خفيفة: انّهُ ما عدا انّ من لا يغتسل جيّدًا في حمّام التوبة فلا بدّ ان يُطهَّر تطهيرًا مرًّا في اتون المطهر. وانّ التطهير بالماء كما قال الانبا غُورِيكس خير من التطهير بالنار لندع هذه كلّها جانبًا: اتظنّون انّكم بقضاء هذه القوانين الخفيفة تستطيعون ان توفوا بكلّ دين خطاياكم الباقي عليكم بعد الحلّة – اتظنّون انّكم بهذه القوانين تقدرون ان تستاصلوا كلّ الملكات الرديّة المتولّدة من خطاياكم وتصونوا انفسكم من سقطات جديدة – اسمعوا تعليم المجمع التريدنتيّ المقدّس قال: انّهُ بدون دموع ومشقّات عظيمة لا نقدر ان نكتسب غفران خطايانا غفرانًا تامًّا كليًا – وهذا المذهب لم تزل الكنيسة متمسّكة بهِ وفيهِ ثابتة. فان كانت قد غيّرت تدبيرها لفتور عبادتنا. فانّها لم تغيّر رايها. لكون روح القدس الذي يرشدها غير قابل التغيير – ومن ثمَّ لقد سُطِر في كتاب شرع الكنيسة. انّ المرتكب خطيّة ثقيلة كان يلزمهُ قديمًا ان يفعل افعال التوبة الشاقّة مدّة سبع سنين على الاقلّ. وبهذا القانون كان ملتزمًا ان يصوم صيامات صارمة ويلبس ثيابًا من كتّان دنيّ. واحيانًا

ان يلبس المسح وان يواظب على الصلوة مدّة مستطيلة كلّ يوم وان يمتنع من الخروج الى التنزّه ومن ركوب الخيل او العجلات والخروج للصيد وما اشبه ذلك. لانّ القوانين كانت تزيد على قدر جرم الخطيّة المرتكبة - وكان من لا يريد ان يعترف خوفًا من هذا القانون يُخرَج من الكنيسة. ويُحرَم الى ان يتوب - فان كان المومنون في عصرنا لا يحبّون هذه الصرامة. فلا ينتج من ذلك انّ طريق الخلاص صار اوسع وارحب ممّا كان. ولا انهُ زال الالتزام بعمل الافعال الوفائيّة او خفّ. بل انّ السبب الحقيقيّ هو الذي ذكرهُ ارمياء النبي بقولهِ: ليس احد يتوب عن شرّهِ قائلًا آه ما فعلتُ (ارميا ٨: ٦). فكأنّ النبيّ يقول انّ سبب عدم توبة الناس هو عدم معرفتهم عظمة الخطيّة. لانهُ لو يعقل الخاطئ ما صنع حينما اخطأ. اي انهُ فضّل ارادتهُ على ارادة الله. والقى عن نفسهِ نير الربّ. وقال بلسان الحال لا اخضع. وانهُ احتقر كنوز النعمة الالهيّة المكتسبة لهُ باتعاب ابن الله وسفك كلّ دمهِ. ولو يتامّل متأنيًا ويقول: ماذا فعلتُ. كيف تجاسرتُ ان اغيظ الله واهلك نفسي لسبب شيء لا اعتبار لهُ. لكان يستخفّ بالقانون مهما كان صعبًا - غير انهُ لا يفتكر في هذا. ومن ثمّ يستثقل القانون المفروض عليهِ ويجدهُ غير محتمل *

ولعلّكم تقولون لي اننا نكتسب غفرانات من الغفرانات التي توزّعها البيعة وهي تغني عن هذه الافعال المتعبة الوفائيّة. فاجيب انكم ضالّون في هذا ضلالًا مضرًا لنفوسكم. لانّ الغفرانات البيعيّة كما قال مار توما اللاهوتيّ. تغني عن افعال التوبة نظرًا الى كونها وفائيّة. لا نظرًا الى كونها شافية. فلا تكفي هذه الغفرانات لاستيصال الملكات الرديّة كتعوّد الحلف والسبّ واللعن والتجديف والخلاعة. بل يستلزم ذلك افعالًا مضادّة لهذه الخطايا. اعني تقشّفات وصلوات وصيامات وافعالًا اخر نظير هذه من التوبة الشاقّة - وازيد على ذلك واقول: من اين تعلمون انكم تكتسبون هذه الغفرانات البيعيّة التي تعتمدون

عليها وبسببها تهملون اعمال التوبة: انّي سابيّن لكم فيما بعد بموعظة خصوصيّة انّ من لا يكون على خطاياهُ نادمًا ندامة حقيقيّةً. لا يربح هذه الغفرانات البتّة. ومن اين عرفتم انّكم ندمتم هكذا. واذا ندمتم حقًّا على الخطايا المميتة. فيمكن انّكم لا تندمون على العرضيّة. وهكذا لا تنالون هذه الغفرانات حسب كلّ اتّساعها - لكن هبوا انّكم تربحونها بالكمال يبقى هذا الشرّ دائمًا. وهو انّكم لا تريدون لمداواة امراض نفوسكم غير الادوية السهلة التي ليست كافية لصدّكم عن الارتداد الى الخطيّة - ولهذا ارغب اليكم ان تقبلوا مشورتي وهي ان لا تهملوا ابدًا الافعال الصعبة بحجّة ان تلتمسوا اكتساب الغفرانات البيعيّة. بل اقرنوا تلك بهذه كما يفعل الانام ذوو الفطنة المسيحيّة. وهكذا تداوون جروحكم بزيت الرحمة وبخمر العدل وتشفونها شفآءً كاملاً *

الاّ انّهُ لمّا كان اهل العالم يرتعبون من مجرّد اسم التوبة ويعدّونها ارضًا تبتلع سكّانها. فلنبيّن الآن انّ ممارسة افعالها ما عدا انّها ضروريّة ليست هي صعبة بمقدار ما يظنّ الاكثرون - انّ التوبة اوّلاً هي دوآء مركّب من انواع من الخيرات. اعني الخيرات التي تخصّ النفس والتي تخصّ الجسد والتي تُدعى خيرات المال. فبالصدقة نقدّم خيرات المال. وبالصوم نقدّم خيرات الجسد. وبالصوة نقدّم الخيرات التي تخصّ النفس - فان كنتم لا تقدرون ان تصوموا فيمكنكم ان تسعفوا المساكين بالصدقة. وان عجزتم عن الصدقة فصلّوا في كلّ يوم صلوات كثيرة: اسمعوا قداديس كثيرة. اعترفوا وتناولوا القربان المقدّس في كلّ شهر مرّة واحدة - وان استصعبتم التقشّفات التي تؤلّم الجسد. فعلى الاقلّ كفّوا عن التنزّهات الجائزة والملاهي المبهجة وما يضاهي ذلك. واعدّوا انفسكم للاحتمال بالصبر كلّ ما يدركُكم من التعب من قِبَل صناعتكم ووظيفتكم ومنزلكم واهل بيوتكم ومن قِبَل الحرّ والبرد وكلّ النوائب الواردة بتدبير العناية الالهيّة. وقدّموا هذه كلّها للعدل الالهيّ وفآءً عن خطاياكم. وقد قال المجمع التريدنتيّ انّنا

نستطيع ان نفي هكذا ما للعدل الالهيّ علينا لاجل خطايانا. اي بان نقبل الشدائد بصبر وخضوع لله الذي يرسلها ونحتملها من غير ان نتشكّى او نتذمّر على تدبيرهِ. بل نقبلها بالشكر وحسن الرضى قائلين مع اللصّ المختار: اننا جوزينا حسب استحقاقنا - وان لم نقبل هذه المصائب بالرضى. فانّها لا تكون وفائيّة. بل تدوم مصائب مؤلمة محزنة فقط - وان قبلناها بالرضى فحينئذٍ من كونها عقابيّة تعود لدينا وفائيّة مفيدة. لاننّا بتسليمنا لمشيّة الله نجعلها ان تكون على نوعٍ ما عقابات مختارة منّا. وهكذا نصيرّها وفائيّة - تعلّموا يا مباكين ان تجعلوا الضرورة فضيلة. استفيدوا من الكوارث. اقبلوا الشدّة من حيث هي شيء مرسَل من الله. قولوا مع النبيّ: اليس لله تخضع نفسي (مزمور ٦١ : ١) - انهُ لا بدّ لكم من ان تفعلوا افعال التوبة الشاقّة على نوع من الانواع المذكورة - قال الرسول: اتظنّ ايها الانسان انّك تهرب من دينونة الله (رومية ٢ : ٣) - اتظنّ ايّها الخاطئ انّك لا تفي بما انت مديون بهِ للعدل الالهيّ لاجل خطاياك. اعلم انّك لا تهرب من دينونتهِ. فان كنت لا تفي الآن فستلتزم بالوفآء الى آخر فلسٍ - ها انّ الله قد جعل امامك المآء والنار. فامدد يدك الى ما اردت منهما (سيراخ ١٥ : ١٧) *

الموعظة السابعة والستّون

في الصوم

انّنا اليوم سنتكلّم عن الصوم ونبتدئ بما قالهُ القدّيس باسيليوس المعظّم قال: انّنا نُفينا من الفردوس لانّنا ما صمنا. فلنصم اذاً لكي نرتجع الى الفردوس - نعم يا مباركين انّ آدم اكل ما قد كان اوصاهُ الله بان لا ياكل منهُ فنُفي ونحن اولادهُ نُفينا معهُ وبسببهِ من فردوس البرّ. فلنصم اذاً وهكذا نعود الى

وطننا. لانَّ الصوم اذا كان كما يجب يردّنا الى الحال الذي سقطنا منهُ في الفردوس الارضيّ حينما فقدنا البرّ الاصليّ في دقيقة واحدة من الزمن *

اننّا بشراهة ابينا آدم خسرنا ثلاثة اشيآء. اولاً خسرنا النعمة بتمرّد النفس على الله. ثانياً خسرنا ما كنّا نملكهُ من التسلّط على ذواتنا بتمرّد الجسد على النفس. ثالثًا خسرنا عدم الموت بواسطة الحرب الباطن الدائم ما بين الاربع الطبائع المركّبة منها اجسادنا. ولم يبقَ للنفس طاقة ان تصلحها - فالصوم يردّ علينا هذه الاشيآء الثلاثة التي خسرناها - هذا نحن مزمعون ان نشرحهُ الآن. ثم نتكلّم عن شروط الصوم الذي يكسّبنا كلّ هذه الخيرات *

قال الحكيم: من وجد صديقًا امينًا وجد كنزًا (سيراخ ٦ : ١٤) فما اعظم كنز من قد صيّرهُ الله صديقًا لعزّتهِ. وهذا حظّ من كانت نفسهُ بريّة من كلّ خطيّة مميتة. لانهُ ليس لصّ يقدر ان يختلس منّا هذا الكنز غير الخطيّة التي سلبت منّا منذ البدء خيرات جزيلة وتخسّرنا اياها كلّ مرّة نرتكبها ونقتبلها في قلوبنا - والحال انّ الصوم هو الوسيط الذي بهِ نجدّد هذا الصلح الالهيّ. ونستردّ النعمة المفقودة - ويتّضح ذلك جليًّا في اهل نينوى. فانّهم نالوا الغفران بسهولة بواسطة الصوم. مع انّ الله كان قد قال انّهُ يبيدهم بعد اربعين يومًا. لانّهُ هكذا قيل في سفر يونان النبيّ: فرضوا صومًا... فعفا الله عن الشرّ الذي قال ان يصنعهُ بهم (يونان ٣ : ٥ و١٠) - والامر الذي يجب ان نعتبرهُ هنا افضل الاعتبار. هو انّ المحبّة بين الله وبين الانسان تجدّدت بواسطة الصوم. قال القدّيس يوحنّا الذهبي الفم: صم ايّها المسيحيّ لانّك اخطأت. صم لئلاّ تخطئ. صم لكي تنال من الله حسنات. صم لكي تحفظها بعد نيلها - انظروا كم هي وافرة الخيرات الناتجة من الصوم - انّ الموانع لتجديد هذا الصلح الالهيّ اثنان وهما السيّئة والعقاب الذي تستوجبهُ. فالصوم يزيل هذه الموانع. لانّهُ يعدّنا لقبول نعمة التبرير ويفي بما نحن مديونون بهِ من جرآء الخطيّة - ولهذا

قال فم الذهب: صم لانّك اخطأت. وهكذا يصير هذا الصلح لمجد الله: لانهُ بالصوم يتمّ الوفاء الواجب للعدل الالهيّ - وهذا نفسهُ هو الحجّة التي تحمل الخطاة التائبين توبةً نصوحة على تعذيب ذواتهم بسلبهم عن الجسد لا الملذّات فقط. بل الاطعمة ايضًا. لانّهم يرغبون ان يؤدّوا لله وفاءً عن معاصيهم السالفة - قد اعتبر العلماء. انّ المرجان يصلب مقابل السماء. وهكذا هؤلاء التائبون عندما ينظرون الى جزيل الاصطبار الالهيّ عليهم وطول اناتهِ في انتظاره لهم وجزيل حنوّهِ عند اقتبالهِ اياهم. وعظمة الدين الذي لحقهم بالخطية. فعند نظرهم هذه الحقائق يصلّبون قلوبهم على انفسهم ويقسّونها ويعاملون اجسادهم بقساوة مقدّسة - فصُم لانّك اخطأت *

الاّ انّ الصوم لا يكتفي بانّهُ هو وسيط لمصالحة الله مع الخاطئ. بل يريد ان يمكّن هذا الصلح. لانّهُ بالصوم تنال النفس من الله نعمًا وافرة قويّة فاعلة تحفظ فينا نعمة التقديس - وقد وكّد هذا القدّيس برنردس بقولهِ: انّ الصوم يمحو الخطايا السالفة وفوق ذلك ينافي الخطايا التي قد كان يمكن ان نرتكبها فيما بعد - لانّهُ كما قال احد المعلّمين انّ النسر لا يصير ابيض الاّ بصوم مستطيل. هكذا النفس تحصل على بياض النعمة المبرّرة بواسطة الصوم - فصُم اذًا لا لانّك اخطأت فقط بل لكي لا تخطئ فيما بعد ايضًا *

ثمّ انّهُ من شان الصوم ان يزيد النفس غنًى. لانّهُ يزيدها كمالاً واستحقاقًا. فصُم اذًا لكي تنال الحسنات الالهيّة - ثمّ صُم لكي تحفظ هذه الخيرات التي نلتها من الله - لقد عرفتم ايّها الاخوان انّ النباتات ذات الروائح الذكيّة اذا انغرست في ارض سمينة لا تحفظ طيب عرفها. هكذا هو من المحال ان يثبت في ارض الجسد المتنعّم زمانًا مديدًا ما اكتسبهُ الانسان من الخيرات الروحيّة *

ثمّ انّ الصوم ما عدا انّهُ يصالح الانسان مع الله فيصيّرهُ ايضًا خليل الله وحبيبهُ العزيز - ولايضاح ذلك وتوكيدهِ. اعتبروا كيف بعد ما اكل آدم

ابونا ما لم يجُزْ لهُ اكلهُ. استخفى عن وجه الله (تكوين ٣ : ٨) - واما موسى النبيّ فبعدما صام طلب من الله ان يريهُ وجههُ قائلاً : ان كنتُ قد وجدتُ رحمةً في عينيك فعلّمني طريقك لاعرفك ... أرني مجدك (٣٣ : ١٣ و١٨) . وحينئذٍ اي لمّا ابصر الله اضحى كسحابة ملتحفة بنور الشمس الازليّة - انّ المصريّين هم اوّل الاقوام الذين بحثوا عن السمآء والكواكب وحصلوا على معرفة حركاتها وتاثيراتها. وذلك لانّهم كانوا في بلد خالٍ من السحب والغيوم وهو في حال الصحو دائمًا. ومن ثمَّ كانوا يقدرون ان يروا دائمًا السمآء والكواكب - انتم ربّما تقولون بانّكم لا تستطيعون ان تتأمّلوا في الامور السماويّة ولا في تاثيرات النعمة الهاطلة على انفسكم دائمًا . وليس ذلك بعجب. وكيف يمكن ان يلاحظ السمآء ويفحص عنها من قد احاطت بهِ سحب وابخرة كثيفة من كلّ ناحية وهي التي تفوح من العيش اللذيذ - يقول القدّيس اوغسطينس انّ الصوم يرقّي العقل الى فوق . ولعمري انّ من يعتني بان يرضي بطنهُ وينعّم جسده ليس بأمر يسير ان لا ينطفئ في نفسهِ سراج الايمان. لانهُ شيئًا فشيئًا ورويدًا رويدًا يتّصل الى انهُ يجعل بطنهُ الاههُ كانَّ نفسهُ كلّها هي في جوفهِ - لمّا ضجر الاسرائيليّون من اكل المنّ قالوا : كرهت انفسنا هذا القوت السخيف (عدد ٢١ : ٨) . نسبوا كرههم لا لحسّ ذوقهم . بل لانفسهم التي كانت فيهم مهتمّة كلّها بالتماس اللذّة - واما القدّيسون الراغبون معرفة الاشيآء السماويّة فكانت صياماتهم متّصلة . بل انّهم كانوا يعدّون الالتزام بالاكل عذابًا غير محتمل *

ولنرجع الآن الى ما كنّا في صددهِ. فنقول : قد سمعتم يا مباركين منفعة الصوم اذ نستردّ بهِ خسارتنا الاولى بمصالحتنا مع الله. لاحظوا الآن كيف يردّ لنا خسارتنا الثانية. اعني التسلّط على انفسنا الذي خسرناهُ بتمرّد الجسد على الروح - انّ الصوم كما قال القدّيس اوغسطينس يخضع الجسد للروح - واذا اردتم ان تفهموا ذلك فاعتبروا يا مباركين اننا لا نقدر ان نعود الى هذه

الحال السعيدة حال التسلّط على انفسنا . الاّ بشرط ان يحتمل الجسد التعب الذي لا بدّ منهُ للسير في طريق الفضيلة وان يمتنع عمّا يضاددها . والحال انّ هاذين الامرين يهونان علينا اذا مارسنا الصيام – ولاثبات القضيّة الاولى نقول : انَّ الذين يملأُون بطونهم من الاطعمة يشبهون السفن الموسوقة التي لثقلها ليست نافعة للحرب . واماّ القنوعون فيشبهون السفن الحربيّة التي لا يوجد فيها سوى اسلحة واناس متسلّحين . ومن ثمَّ تتحرّك وتُدار بسهولة . والى اينما توجّهت تراها كابراج حصينة تركض الى حيثما اقتضى حضورها – قال السيّد المسيح انَّ جنس الشياطين هذا لا يُخرَج الاّ بالصلوة والصوم (متى ١٧ : ٢٠) – لماذا لا نستطيع ان ننتصر عليهم بواسطة الصلوة فقط . بل نحتاج الى الصوم ايضًا . ولِمَ لم يعيّن السيّد المسيح افعال فيضلة اخرى : فاسمعوا ما قال مار توما اللاهوتيّ في تفسيرهِ هذه الآية : كلّما زاد ارتقآء النفس نحو الله زاد ارتعاب الشياطين . والحال انَّ ثقل الجسد المتنعّم بالاطعمة الكثيرة واللذيذة يصدّ النفس عن هذا الارتقآء الذي هو ضروري كلّ الضرورة . ولهذا قال ربّ المجد : احترزوا لانفسكم لئلاّ تثقل قلوبكم في الخمار والسكر (لوقا ٢١ : ٣٤) . فاذًا من الممتنع ان تحصل النفس على هذا الارتقآء الاّ بواسطة الصوم الذي بهِ يخفّ ثقل الجسد . وحينئذٍ يمكنها ان تحارب النفس اعدآءها بقوّة وشجاعة تجزع منها الارواح الجهنّميّة وتهرب مدبرة *

وليس هذا فقط . لانهُ وان كانت الصلوة ضروريّة ايضًا للظفر بالشياطين . فانّها تستمدّ من الصوم قوّة عجيبة . ولهذا قال المَلَك روفائيل لطوبيّا البارّ : جيّدة هي الصلوة مع الصوم (طوبيا ١٢ : ٨) – انظروا ما فعل دانيال النبيّ لكي يقتل التنّين الذي كان اهل بابل يسجدون لهُ . انّهُ اخذ اوّلًا يلقي على الارض الصنم الذي كان يختفي التنّين تحتهُ . ومثلهُ قد فعل القدّيسون . وهكذا انتصروا على العدوّ بسهولة . لأنّهم كانوا يبتدئون ان يلقوا صنم الجسد

الذي تحتهُ يختفي العدوّ ويتّخذ منهُ ازدياد قوّتهِ - امّا نحن الذين لا نريد ان نضرب الصنم ونضيّق على الجسد فليس بعجب اننا لا نظفر بالعدوّ الذي من عادتهِ ان يستعمل معنا الحيلة التي يستعملها التنّين مع الفيل وهي . انهُ اعني التنّين يرصد الوقت الذي فيهِ يكون الفيل قد شبع من الاكل . فاذا رآهُ قد ثقل بكثرة الاكل . فحينئذٍ يثب عليهِ ويطرحهُ - قال القدّيس لاون : انّ التجربة التي تضايق المومن المتمنطق بالصوم هي تجربة ضعيفة غير موثّرة *

فممّا قلناهُ قد اتّضح كم مقدار ما يعيننا الصوم لاحتمال التعب الذي لابدّ منهُ في ممارسة الفضيلة - غير انهُ يعيننا اكثر من ذلك في الامتناع عمّا لا يجوز . لانّ النفس بممارسة الصوم تضبط بسهولة العنان الذي كانت الشهوة المتمرّدة قد ارختهُ او القتهُ بالكليّة - ايّ شيءٍ هو جسدنا دون الصوم : انهُ يشبه السمك وهو في الماءِ . وامّا مع الصوم فانهُ يشبه السمك وهو على الشاطئ - تذكّروا ذاك الحوت العظيم الذي كاد يبتلع طوبيّا البارّ انهُ لمّا خرج من نهر دجلة شرع يخبط عند رجلي الفتى (طوبيّا ٦ : ٤) - فلماذا تحتجّون بشدّة التجاريب الباطنة وتتكلّمون عنها بالمبالغة . اخرجوا الجسد من وسط نهر التنعّم وضعوهُ بالصوم على يبس التقشّف . وحينئذٍ تسقط عن الشيطان جسارتهُ . وترونهُ يخبط ويلقي السلاح ويطلب الصلح - قال صاحب المزامير عن الخطاة : جحظت مقلهم من الشحم (مزمور ٧٢ : ٧) اي من انهم لا يريدون ان يمسكوا عنهم شيئًا ممّا يشتهونهُ . والحكيم يقول : من ربّى عبدهُ بالدلال منذ صبائهِ يكون في الآخرة ماردًا عليهِ (امثال ٢٩ : ٢١) - فاذًا انت بمقدار ما تنعّم جسدك بالمآكل والمشارب . فبمقدار ذلك يزداد تعنّدًا وتمرّدًا . وان كنت لا تختبر ذلك حينما تدلّلهُ وتملّقهُ فستختبرهُ في وقتهِ . اي حينما يتّفق انّ الناموس الالهيّ ينهاك عمّا يستلذّ بهِ الجسد . فوقتئذٍ يريد الجسد ان تخالف الشريعة وتزدريها . فيصرخ الضمير ويبكّتك . ولكن العبد المدلّل والمارد لا يسمع ولا يذعن - انهُ لمّا سمن الشعب الاسرائيليّ

ونحن واتّسع ترك الله بارئهُ *

اعتبروا يا مباركين مع مار توما اللاهوتي. انَّ الصوم نوعان. وهما صوم من يمتنع عن الاكل. وصوم من يمارس الصوم - فالصوم الاول يخصّ كلّ من يمتنع عن الاكل بغير ان يوجّه صومهُ الى غاية من الغايات. وهذا الصوم ليس هو فضيلة ولا رذيلة - واما الصوم الآخر فهو صوم من يصوم لاجل غاية حميدة. فانّهُ هو فعل فضيلة ضروريّة جدًّا. حتّى انَّ الانسان يلتزم بهِ التزامًا طبيعيًّا. وهذا يتّفق على الخصوص حينما يكون الصوم هو الواسطة الخاصّة لحفظ النفس من الخطيّة وللانتصار على شهوات غير منتظمة ولصدّ القلب عن محبّة الاشياء الارضيّة وارتقائها الى محبّة الاشياء السماويّة. واكثر الناس او كلّهم يحتاجون الى هذه الواسطة. لاننّا كلّنا نذنب ذنوبًا كثيرة. فيقول القدّيس المذكور: انَّ الضرورة الجأت الكنيسة بان تعيّن الزمان لممارسة الصوم. فمن اجل هذه الحجج جاز لنا ولاق ان نحارب الجسد ولا حجّة لهُ للشكوى. لانَّ النفس بهذا تقاوم من يحاربها - انّي اذا رايتُ بيت جاري ملتهبًا تاذن لي الشريعة ان اهدمهُ لئلاّ تتّصل النار الى بيتي. فلِمَ لا يكون جائزًا للنفس ان تهدم افراط قوّة الجسد وتضعفهُ بواسطة الصوم وبقيّة التقشّفات. وها انها تراهُ ملتهبًا بنار مهلكة. ويوشك ان يتّصل الى النفس - نعم انَّ جسدنا هو منزلنا. لكن اليس ضربًا من الغباوة ان ندع سقف بيتنا يحترق ولا نهدمهُ لاجل انّهُ منزلنا ونرتضي بان نحترق معًا - يقول ذلك المسيحيّ انّي لا اقدر ان اصوم. لانَّ الصوم يضعف جسدي ويتلف معدتي. اسمع ما يجيبك بهِ القدّيس هيرونمس قائلاً: خيرٌ لك ان توجعك معدتك من ان تمرض نفسك. خيرٌ لك ان ترتجف ركبتاك من ان تنتزع عفّتك - وقال ترتليانس انّهُ من الامر الغريب النادر الوجود جدًّا جدًّا اقتران العفّة بتنعّم الحنجرة - وقال توما اللاهوتيّ انّهُ بالصوم تضعف شهوة الزنا وتخمد - فبالصوم تتقوّى النفس وتلزم الجسد باحتمال ما يوجد من الصعوبة

في الفضيلة وبالامتناع عمّا هو مستعذب في الرذيلة - وهكذا الصوم يردّ علينا ما خسرناهُ بخطيّة آدم اي التسلّط على الجسد *

واماّ كيف يردّ ايضاً الخسارة الاخرى التي اصابتنا في الفردوس الارضيّ اي خسارة عدم الموت فعن هذا نقول: انهُ نظراً الى هذه الخسارة لا يصيّرنا الصوم غير قابلي الموت في هذه الحيوة. لانّ ذلك من شانهِ ان يطيل شقآءنا لا ان ينقذنا منهُ. الاّ انهُ اي الصوم يصيّرنا غير قابلي الموت في الحيوة الآخرة. وفي هذه الدنيا يطيل حياتنا على قدر الحاجة ليزيد اجرنا - ولعمري انَّ هذا هو الخير الوحيد الذي من سببهِ يجب ان نشتهي اطالة حياتنا - وهنا قال الحكيم كثيرون بادوا من اجل الشره. فاماّ القنوع فيزداد حيوةً (سيراخ ٣٧ : ٣٤) - وقد اختبرنا حقيقة هذا المقال الالهيّ. لاننّا نرى انهُ في الاديرة التي فيها يلازمون القناعة والصوم تكون الحيوة اطول واهنأ *

وان قلتم: لماذا الصوم لا يعمل اليوم العجائب المتقدّم ذكرها. لاننّا نرى المومنين ملازمين الاصوام البيعيّة. ومع هذا لا يربحون شيئاً مماّ ذكرتُ من فوائد الصوم. اجيبكم قائلاً: انَّ الصوم الذي يصنع هذه العجائب ليس هو الصوم كيفما اتّفق. بل هو الصوم الخصوصيّ المميَّز من الصوم الذميم الذي قال عنهُ الربّ الالهَ على لسان اشعياء النبيّ: أمثل هذا يكون صومٌ أختارهُ (اشعيا ٥٨ : ٥). انهُ تعالى لماّ اوصانا بالصوم. قال: قدّسوا الصوم (يوال ١ : ١٤). وعلى ايّ شيء يتوقّف تقديس الصوم: قال القدّيس توما اللاهوتي انهُ قائم في ثلاثة اشياء. وهي ان يكون الصوم او المومن الذي يصوم سالماً من السوء. وان يكون ثابتاً في الصلاح. وان يوجّه صومهُ الى اكرام الله *

فينبغي للذي يصوم ان يكون سالماً من السوء اي انهُ ينبغي لهُ ان يصوم في حال النعمة. وذلك لانَّ البخور الممتزج بالطين يزول طيب رائحتهِ بل تفوح منهُ رائحة كريهة منتنة. فكيف يمكن ان يُسرَّ الله بصوم مقترن بالخطيّة.

كيف يمكن ان يستحلي هذه التقدمة ويتقبّل صوماً تتقدّمهُ الخطيّة وترافقهُ وتتبعهُ - انظروا كيف يستعدّ اكثر الناس لاصوام الكنيسة. لاحظوا ما يفعلونهُ في ايّام المرفع. وكيف يصرفون هذه الايّام السابقة الصوم: انّ مرفعهم لقبيحٌ بفجور الشراهة والملاهي السمجة حتى انّ بقيّة حياتهم لا تكفي للوفآء عنها بكلّ افعال التوبة الصارمة الشاقّة - اسمعوا ايّها المومنون ما يقول القدّيس باسيليوس: انّ السكر والنهم ليسا استعداداً للصوم. بل هما استعداد للفواحش والمآثم - انّكم بهذا تشبهون الختن الذي قبل ان ياتي بعروسهِ الى منزلهِ يملأ بيتهُ من النسآء البغيّات ويستعدّ لقبولها بفعل قبيح اقبح ما يكون - فهذا هو السبب الذي يعدم فوائد الصوم. لانّهُ كما انّ الذي قصد ان يتناول دوآء لا ينتفع منهُ. اذا صرف الايّام السابقة تناولهُ بما يثلم حسن النظام ويتلف لطف المزاج في البدن. هكذا من يصرف بالخطيّة الزمن المتقدّم الصوم يبيد نفع الصوم المرسوم من الله لخلاصنا - يقول الحكيم: الواحد يبني والآخر يخرب. وماذا ينتفعان بذلك غير التعب بالباطل (سيراخ ٣٤: ٢٨) *

والشرّ اكثر من حيث انّ الخطيّة لا تسبق صومكم فقط كما قلنا. بل ترافقهُ ايضاً - لانّ الذين ابتدأوا زمن الصيام في حال الخطيّة يصرفونهُ في هذا الحال. وينتظرون ايّام الفصح لكي يتوبوا الى الله بسر الاعتراف الذي قد كان ينبغي ان يسبق الصوم. فهم يشبهون من يجمع جواهر في كيس مثقوب. فاذا فتحهُ فيما بعد. لا يجد فيهِ شيئاً - ومع هذا تراهم احياناً مسرورين بصومهم مفتخرين بهِ اذ يظنّون انّهم بصومهم هذا قد اشتروا الفردوس كلّهُ. فترى منهم من يقول: انّي انا احفظ كلّ صيامات الكنيسة بالتدقيق. بل انّي ازيد على ذلك وامتنع في كلّ سبتٍ عن اكل الزفر اكراماً لسيّدتنا مريم البتول - انّك بهذا حسناً تفعل. غير انّك لست تمتنع عمّا لا يجوز اصلاً. وانّك حقّاً تمتنع عن اكل اللحم. الّا انّك لا تمتنع عن اللذّات الشهوانيّة. والحال انّهُ كما يقول القدّيس غريغوريوس

الكبير لا ينفعنا ان نضيّق على الجسد بالامساك. اذا تبعنا اهواءنا السيئة وخضعنا للرذيلة - انَّ الاسرائيليّين كانوا يصومون مثل هذا الصوم. الاّ انّ الله لم يقبلهُ. ولمّا سألوا الربَّ عن ذلك قائلين: لماذا صمنا ولم تنظر. اجابهم الله قائلاً: انكم في يوم صومكم تطلبون مرادكم. وبجميع اشغالكم تهزأون (اشعيا ٥٨ : ٣) *

ثمّ انَّ الذي يصيّر الصوم باطلاً غير نافع ليس هو الشرّ الذي يتقدّمهُ والشرّ الذي يرافقهُ فقط. بل انَّ الشرّ الذي يتبعهُ ايضًا يفسدهُ - كم من المومنين بعد انقضاء الصوم يرتدّون الى حال شرورهم الاولى. ولهذا يصرخ النبيّ ويقول: قدِّسوا الصوم (يوال ١ : ١٤) - وهذا التقديس يقتضي اوّلاً ان يكون المومن الذي يصوم سالمًا من كلّ سوء وثابتًا في الصلاح والدليل على انَّ الانسان هو راسخ في الفضيلة هو عمل الصلاح بخفّة وبهجة - وعلى حسب هذا القياس من ذا يمدح صوم الذين يخافون دائمًا من ان يتعبهم الصوم فيتفلسفون هكذا قائلين: انّهُ ينبغي ان نصوم غدًا فيجب اليوم ان تمتلئ بطوننا لتزيد قوّتنا. وامس كان يوم صوم فينبغي ان نتقوّى اليوم - وكم يشكون من طول الصوم: انّ الصوم على هذه الصفة لا يليق بالمسيحيّ. لان سيّدنا يسوع المسيح لمّا تكلّم عن الصوم قال هكذا: وانت اذا صمت فادهن راسك واغسل وجهك لئلاّ تظهر للناس صائمًا بل لأبيك الذي في السرّ (متى ٦ : ١٦ و١٧) اي اظهر السرور عندما تصوم. وهذا السرور المقدّس يصيّرك ان لا تخالف شروط الصوم وقوانينهُ - فيا للعجب اننّا نرى الطبيب اذا حكم على المريض وامرهُ بصوم شديد يطيعهُ بالتدقيق. وها انَّ الكنيسة تامر اولادها بصوم قليل الصعوبة واولادها لا يريدون ان يطيعوها - روى بارونيوس المؤرّخ انّهُ سنة خمس واربعين وخمس مئة حكم غلاء عموميّ في بلاد الشرق. فأمر يسطنيانس الملك ان يباع اللحم في الصوم الكبير في مدينة القسطنطينيّة لكي يجد الناس ما ياكلون. فلم يرتضِ احد ان ياكل اللحم بل اختاروا كما قال ينكيفورس ان يموتوا اذا دعت الضرورة بذلك على

ان يتعدّوا هذه السنّة المقدّسة – قد يمكن ان يوجد اناس يكونون حقًّا عاجزين عن الصوم . فالذين هم هكذا فليقتدوا بالقدّيس غريغوريوس الذي كان في امراضهِ المستطيلة الشديدة يحزن ويتاسّف على انّهُ لم يقدر ان يصوم مثل بقيّة الناس *

قدّسوا الصوم بنوع آخر . وذلك بان توجّهوهُ لمجد الله وهي الغاية التي من اجلها وُضع الصوم – فقال مار توما اللاهوتيّ انّ الصوم وُضع اوّلاً لقهر الشهوة اللحميّة . وثانيًا للتكفير عن الخطايا . وثالثًا لارتقاء النفس الى التامّل في الامور السماويّة . كما يتّضح ذلك في دانيال النبيّ اذ بعدما صام مدّة ثلاثة اسابيع حصل على رويا عجيبة – فالذي في صومهِ يردّد في عقلهِ فكرًا من هذه الافكار الحميدة . فانّهُ بهِ يقدّس صومهُ ويصيّر جسدهُ ذبيحة حيّة مقدّسة مقبولة لله كعرف الطيب (رومية ١٢ : ١) امّا حيّة بكونهِ اعني الصائم خاليًا من الخطيّة وممتلكًا النعمة . وامّا مقدّسة فلثباتهِ في الصلاح واكتسابهِ الفضايل المتعلّقة بالتعب اليسير الموجود في الصوم : وامّا مقبولة لله فلنيّتهِ المستقيمة وهي نيّة الوفاء عمّا هو مديون بهِ للعدل الالهيّ – فان صمتم على هذا المنوال فستختبرون فضائلهُ لا محالة – وفّقنا الله ان نصوم هكذا جميعًا لكي نفوز بالوليمة السماويّة السعيدة الدائمة آمين *

الموعظة الثامنة والستّون

في الغفرانات البهيّة

انّنا بالصواب نعتبر الذهب الذي يجري من مياه الانهر افضل من الذهب الذي يُتّخذ من المعادن . لانّهُ يكون انقى واكثر ثمنًا . وما عدا ذلك فانّ اكتسابهُ هو اقلّ تعبًا . لانّهُ لا يوصَل الى الذهب الموجود في المعادن الّا

بان ننزل الى اسفل ونغوص في حشا الارض بعناءٍ عظيم وخطر جسيم - ولكن لكي نكتسب الذهب الآخر يكفي ان نجلس على مياه النهر فيجري لنا الذهب مع المياه - فهذه المياه الكريمة تشبهها الغفرانات البيعيّة المقدّسة التي لا تقتضي الشدّة الموجودة في افعال التوبة الكفّاريّة. بل توتينا الخير الذي يربحهُ المومنون بتعب جزيل لوفاءِ ديونهم - فعن الغفرانات اذًا لنتكلّم اليوم. ونقسم الخطاب الى قسمين. في القسم الاوّل نشرح المعدن الذي منهُ يصدر هذا الذهب الابريز الذي نحصل عليهِ بسهولة بواسطة الغفرانات. وفي القسم الثاني نبيّن كيف يمكننا ان نكتسب من هذا المعدن ثروةً وافرةً - انَّ الذي يمنعنا عن التمتّع بالمجد الابديّ هي الجريمة والعقاب الواجب اداؤهُ عنها. ومن ثمَّ اعطى السيّد المسيح بطرس الرسول مفتاحين. ليزيل بهما هاذين المانعين - امّا العقاب المتعلّق بالخطيّة فهو على نوعين. اي العقاب الابدي. وهذا يتركهُ الكاهن بحلّة الاعتراف. والعقاب الزمني وهذا لا بدّ من ادائهِ او اداءِ اكثرهِ بعد ان غُفرت لنا الخطيّة. ولذلك وُضعت الغفرانات البيعيّة لوفائهِ *

فاذًا الغفران البيعيّ هو ترك العقاب الزمنيّ الذي نلتزم بهِ وبادائهِ امّا في هذه الحيوة وامّا في الاخرى - وتسعفنا الكنيسة بهذا العون اذ تفتح مخزنها العظيم وتأذن لنا ان نتّخذ منهُ ما يعوزنا لوفاءِ ما نحن مديونون بهِ للعدل الالهيّ - انظروا الآن ما هو المخزن الذي منهُ ينبعث هذا الكنز العظيم الذي يكفي لاناس لا يُحصى عددهم. فاعلموا يا مباركين ان كلّ الاعمال الصالحة لها ثمنان متعلّقان بها ضرورةً. وهما الاستحقاق والوفاءَ. فالاستحقاق هو الاستعداد لنيل الثواب والمجازاة. ونكتسبهُ بكلّ عمل من اعمال الفضيلة. وهذا يخصّ العامل. لا يمكن ان يهب منهُ شيئًا لآخر حسب كلام الرسول: كلّ احد سياخذ اجرتهُ على قدر تعبهِ (١ قورنثية ٣ : ٨) - والشيءُ الآخر المتعلّق بكلّ فعل صالح هو الوفاءَ. وهو الذي بهِ يُترَك ما صرنا بهِ مديونين لله بالخطيّة. وهذا يمكن ان نهبهُ

لآخر. كما انهُ في قدرة الغني وسلطانهِ ان يفي بديون المساكين *

فمن هذا يُفهم بسهولةٍ من اي شيء مركب كنز الكنيسة ذاك الكنز العظيم الذي لا تزال تخرج منهُ الغفرانات: انهُ هو مركب من كل الافعال التكفيرية التي اورثها لنا القديسون والعذرآء الجليلة ولاسيما السيد المسيح - وكم من القديسين قد وفوا للعدل الالهي وفاءً وافرًا. وذلك اما بما فعلوهُ من افعال التقشف وصبرهم على الامراض ومكابدتهم عذاب الاستشهاد اعظم جدًّا من الدين الذي لحقهم بالخطية - ان القديس يوحنا المعمذان تقدس في مستودع امهِ. ومع هذا كلهِ هجر العالم من صغر سنهِ واستوطن الفيافي. وفيها عاش عيشة قشفية في الغاية. وقضى اجلهُ في سجن بقطع راسهِ - لاحظوا العدد الذي لا يحصى من النساك والعذارى والمعترفين ولاسيما الشهدآء. لعمري انهم وفوا للعدل الالهي باكثر جدًّا مما كانوا مديونين - قال ايوب البار. ليت لي من يزن كربي. ونائبتي تُحمَل بالميزان معًا (ايوب ٦: ٢) فيظهر حينئذٍ كم عقابي اعظم مما استوجبتُ - وكم من القديسين قد جاز لهم ان يقولوا ذلك وكانوا اوفر قداسةً من ايوب وكابدوا عذابات اعظم من عذاباتهِ - واذ ذاك فاعلموا ان هذا المقدار العظيم الحاصل من اعمال القديسين التكفيرية اي الوفائية. لا يدخل الى الملكوت اذ يكون هناك باطلاً غير نافع. لانهُ لا يدخل هناك احد عليهِ دين يقتضي الوفآء. بل انهُ يبقى كلهُ للكنيسة بمنزلة وراثة لاسعاف اولادها المساكين العاجزين عن وفآء ديونهم - وماذا نقول عن العذرآء المثلثة الغبطة التي تألمت اكثر من جميع القديسين جملةً مع انها لم تكن مديونة للعدل الالهي بخطية من الخطايا: انها تألمت كثيرًا جدًّا حتى انهُ بالصواب سماها القديسون شمس الشهدآء. لانها بآلامها تسامت فوق القديسين بمقدار ما الشمس تعلو على النجوم بنورها - لانها اعني العذرآء الجليلة لما حضرت موت ابنها وهي واقفة تحت صليبهِ شعرت بوجع كان يساوي محبتها لهُ. ولان محبتها هذه لم يكن لها

مثيل. كذلك لم يكن لوجعها شبيه - فلمّا تامّل ارميا النبيّ اخذهُ الذهول. وشبه آلام العذراء بالبحر الذي ليس لهُ قرار. فقال: بماذا اشبّهكِ يا بنت اورشليم. بماذا اقايسكِ... انّ انكساركِ عظيم كالبحر (مراثي ٢: ١٣) - وماذا نقول عن اوجاع السيّد المسيح: انهُ لبحرٌ حاوٍ مياه كلّ الينابيع والانهر والابحار. بحرٌ عميق جدًّا جدًّا حتّى انهُ من المستحيل ان تقيسهُ يد غير اليد التي تقيس السماء اعني يد الله - فقد ادّى السيّد المسيح هذا الوفاء للعدل الالهيّ عن خطايا العالم حسب قولهِ تعالى على لسان النبيّ: كنت اردّ ما لم اخطف (مزمور ٦٨: ٥). ولا يستطيع عقل مخلوق ان يدرك كم هذا الوفاء يفوق على مقدار ديننا. من حيث انّ نقطة واحدة من هذا الدم الالهيّ هي كافية لوفاء كلّ ديوننا بوفور لا نهاية لهُ *

هذا هو المنبع الذي منهُ يصدر كنز الكنيسة المقدّسة كنز غير محدود. كنز لا يمكن ان يفرغ ولا ينقص. مهما أُخذ منهُ - فمن هذا المعدن العظيم تؤخذ الغفرانات البيعيّة التي نحن الآن في صددها. وبها نشترك في الوراثة التي خلّفها لنا السيّد المسيح ووالدتهُ المجيدة والقدّيسون. فهم تعبوا ونحن ندخل على اتعابهم ونستفيد منها. هم زرعوا بالبكاء ونحن نحصد بالفرح ما لم نزرعهُ (يوحنّا ٤: ٣٨) - هذا ما اخترعتهُ رحمة سيّدنا يسوع المسيح ومحبّتهُ للبشر. لانهُ لمّا رأى من احدى الجهات عجزنا عن وفاء ديوننا. ونظر من الجهة الاخرى انّ الشريعة الالهيّة تقتضي وفاء تامًّا. اخترع واسطة عجيبة بها نفي بديننا بالتمام ممّا يؤدّيهُ لنا كفلاء موسرون - على انّ الذي يكتسب غفرانًا بيعيًّا كما قال القدّيس توما اللاهوتي لا يزول التزامهُ بالوفاء. بل انّما يُعطَى ما يفي بهِ دينهُ - انّ الله حقًّا قد عاملنا بمحبّة والديّة. لانّ الوالدة اذا مرض طفلها لا تسقيهِ دواء مرًّا. بل تشربهُ هي. وهكذا حينما ترضع ابنها يسري مع لبنها في عروقهِ الدواء الشافي *

امّا المسيحيّون الاوّلون فلانّهم كانوا اولادًا اقوياء. لم تعاملهم الكنيسة

بهذه الملاطفة . لانهم كانوا يفون ممّا لهم بتعب جسيم عمّا كانوا مديونين بهِ بسبب خطاياهم . واحيانًا كانوا يقضون مدّة سنين كثيرة افعال توبة شديدة وفاءً عن خطيّة واحدة مميتة واقلّ منها ايضًا - تاملّوا في صرامة القانون الذي فرضهُ الحبر الاعظم اسطفانس الخامس في القرن التاسع على امير ذي جاه يقال لهُ أستلف كان قد قتل امراتهُ لظنّهِ فيها وهمًا انّها بغت عليهِ وذلك انّ البابا امرهُ بان يختار احد هاذين القانونين . اعني امّا ان يترهّب ويقضي حياتهُ في دير تحت الطاعة . وامّا اذا مكث في العالم ان يقضي كلّ الفرائض الصارمة الآتي ذكرها . وهي ان يستمرّ ارملاً بقيّة ايّام حياتهِ . ويمتنع عن اكل اللحم دائمًا . ما عدا يوم عيد الفصح . ويوم عيد الميلاد . ولا يشرب خمرًا ابدًا . ويباين المحادثات الانسيّة والحمّام والولائم . وان يقف في البيعة عند عتبة الباب ويطلب ادعية المومنين عند دخولهم وان يحسب نفسهُ غير اهل لتناول القربان المقدّس ما خلا ساعة موتهِ - ثمّ انّ الحبر الرومانيّ ختم كلامهُ هكذا : لقد كان يجوز لنا ان نفرض عليك قوانين اخر اشدّ صرامة . الاّ انّهُ اذا قضيتَ ما فرضناهُ عليك بروح التنازل والوداعة . نرجو من الله ان يغفر لك . وبعكس ذلك ان كنت لا تقضيهِ بالتمام . فليكن معلومًا عندك انّك تكون في حوزة ابليس . وتجلب على راسك الهلاك الابديّ - فان كان هذا القانون الشديد كان يُفرَض عن خطيّة خفيّة . فأنتجوا كم كان شديدًا القانون المفروض عن خطيّة مشتهرة - انّ الذي كان يرتكب خطيّة مشتهرة . كانت الكنيسة تلزمهُ ان يقف في اوّل يوم من الصوم الكبير على باب البيعة حافيًا لابسًا ثوبًا دنيًّا من كتّان . وبهِ اي بالمجرم كان يدخل الاسقف مع الاكليروسيّين مرتّلين مزامير التوبة . وبعد الفروغ منها كان الاسقف يلتفت الى التائب وهو منحني الراس ويرشّ عليهِ ماءً مباركًا . ثمّ يضع على راسهِ رمادًا . وفي غضون ذلك كان يقول لهُ : انّهُ كما انّ آدم أُخرج من الجنّة بخطيّتهِ . هكذا تُخرَج انت من الكنيسة .

وحينئذٍ يامر الاقليروسيين بان يخرجوهُ خارجاً - وفي اليوم الخامس من الجمعة العظيمة. كان القسّيس ياتي بهذا الانسان الى الاسقف في الكنيسة. لانهُ لم ياذن لهُ بتناول السرّ الالهيّ. الاّ بعد قضاء قانونهِ كلّهِ - ولعمري انّ المسيحيين الاوّلين كانوا اقوياء. ومن ثمّ كانت الكنيسة تعاملهم بصرامة. واماّ نحن فلمّا اطّلعت الكنيسة على ضعفنا وعجزنا عاملتنا بتدلّل وملاطفة. وبدل ان تستعمل لمداواتنا الخمر المولم. استعملت زيت الرحمة الالهيّة. وبحكمة فائقة اخترعت واسطة بها نفي ديوننا لله. ونودّي لها ما نوفي بهِ لها - ولا تنتظر ان نطلب ذلك منها. بل غالباً تقدّمهُ لنا بمجرّد حركة حنوّها علينا. كلّ ذلك لا كأنَّ الكنيسة تغيّرت. حاشا وكلاّ. بل لاننا تغيّرنا نحن - فكما انهُ في زمن الغلاء تُفتح اهراء المدينة لئلاّ يموت الناس من الجوع. وتدوم مغلقة في زمن الرخاء لئلاّ يتلف الناس بالبطالة. كذلك الكنيسة قديماً كانت بجزيل حكمتها تغلق على المومنين كنوزها. والآن تفتحها. لانها لو فتحتها في الابتداء لكانت ربّت روح الكسل والتراخي في اولادها بسخائها. وبعكس ذلك لو امسكت الآن كنوزها علينا. لألقتنا في الاياس *

فكم يجب علينا يا مباركين ان نعتبر كنوز الكنيسة المقدّسة. اذ اننا بها نستطيع ان نفي بسهولةٍ ديوننا كلها مهما كانت متزايدة - انّي قلتُ بسهولةٍ لانهُ ولو يلزمنا كما سنقول ان نقضي الاعمال اليسيرة التي رسمتها الكنيسة لاكتساب غفراناتها. الاّ انّ هذه الاعمال هي سهلة جدّاً يسيرة حتّى انها اذا قوبلت مع ديوننا تستبين كلا شيء - لانهُ اذا فرضت علينا الكنيسة ان نصوم او ان نصلّي او ان نتصدّق على المساكين. فما ذلك بالنسبة الى الدين العظيم الذي علينا *

فها انّنا حتّى الآن قد اوضحنا لكم من اين لنا كنز هذه الغفرانات. فلنبيّن الآن كيف نكسبها - فاعتبروا يا مباركين انّ كلّ غفران يستلزم ثلاثة اشياء حسب تعليم مار توما اللاهوتيّ. اوّلها السلطان في من يمنحها. وثانيها حسن النيّة التي بها تُمنَح. وثالثها الاهليّة في من يريد ان يكتسبها - فالسلطان لمنح

كلّ غفران بيعيّ يوجد بالتمام وبالكمال في الحبر الروماني وحدهُ . والسبب لذلك كما قال القدّيس المذكور. هو انّ كلّ غفران يوخذ من الخيرات الفاضلة في جماعة كلّ المومنين . ومن ثمَّ من كان راس هذه الجماعة يخصّهُ ان يوزّعها بسلطانهِ المطلق - امّا النيّة الواجبة لمنح كلّ غفران . فينبغي ان تكون حسب الصواب . لان الكنز الذي نتكلّم عنهُ هو تحت سلطان السيّد المسيح . ولهذا فلا يجوز لنائبهِ ان يتصرّف فيهِ الاّ بنوع يجد بهِ تعالى مجدًا . لانهُ عزَّ وجلَّ اقامهُ على اهل بيتهِ ليعطيهم الرزق في حينهِ وبالمكيال . الاّ انّ هاذين الشرطين لا يهمّانكم انتم . فيكفي ما اتينا بهِ فيهما . فلنشرح اذًا الشرط الثالث وهو الاستعداد الواجب لاكتساب الغفران - فنقول : انّهُ ينبغي اوّلاً ان يكون المومن في حال النعمة . اي ناجيًا من الخطيّة . لانّنا قد قلنا سابقًا انّ الغفران البيعيّ هو اشتراك في الكنز الذي خزنهُ وخلّفهُ القدّيسون والعذرآء . وفوقهم جميعًا سيّدنا يسوع المسيح . وسلّمهُ تعالى للكنيسة لاسعاف المومنين المديونين للعدل الالهيّ لاجل خطاياهم التي غُفرت ولم يكفَّر عنها . فقال مار توما اللاهوتي : كيف يمكن ان يشترك العضو الميّت في حركات العضو الحيّ . انّ هذا ضرب من المحال - فانّ المومن الحاصل على حال الخطيّة المميتة هو عضو مائت من جسد الكنيسة السريّ . فهذا المومن لا يمكن ان ينال الغفران البيعيّ من القدّيسين الذين هم اعضآء الكنيسة الحيّة . او من السيّد المسيح الذي هو راسها . لانّ هذا الغفران ليس من شانهِ ان يحيي من هو ميت . بل ان يفي عمّن هو مديون - فانتجوا من ذلك كم عظيم جهل الذين يركضون الى حيث توزَّع هذهِ الغفرانات وهم في حال الخطيّة المميتة - يجب قبل كلّ شي ان نبتدىء بالاعتراف . لا اعتراف كيفما اتّفق . بل اعتراف نقيّ تامّ مقترن بندامة على الخطيّة وبعزم حقيقيّ على قطع كلّ اسبابها - هذا ما يحسن فعلهُ قبل ان نفعل ما رسمهُ الحبر الاعظم لربح الغفران . وينبغي ان نفعل في حال النعمة الافعال الاخر المرسومة . وهذا لا بدّ منهُ لاكتساب

الغفران - نعم انّ بقيّة الاعمال المعيّنة اذا فعلناها في حال الخطيّة. لا تغيظ الله لكونها مقدَّسة ذاتًا . الاّ انّهُ تعالى لا يُسَرّ بها ولا يقبلها . وعنها يقول على لسان النبيّ : محرقاتكم ليست بمقبولة وذبائحكم لاتعجبني (ارميا ٦ : ٢٠) *

ثمّ انّهُ يحسن جدًّا ان نفرغ المجهود في ان نقضي هذه الاعمال المرسومة لاكتساب الغفران . لا في حال النعمة فقط . بل بكلّ ما يمكننا من الانتباه والتدقيق . لانّهُ قد اختلف العلماءَ . هل يكتسب الغفران من افسد الاعمال المرسومة افسادًا معتبرًا بخطيّة عرضيّة . كما يتّفق لمن يصوم بنيّة ان يربح الغفران الكامل اذا ما تجاوز حدود القناعة تجاوزًا معتبرًا . او يصلّي الصلوات المفروضة بنوع يخالف الاحترام الواجب مخالفة معتبرة - انّي لستُ اخطّئ مذهب من يجوّز الامر . الاّ انّي اقول من ذا يعرف افكار الله ورايهُ *

ولا يكفي ما قلنا عن الاستعداد الواجب لاكتساب الغفران لكن ينبغي ايضًا ان نعتبر الغفران اعتبارًا عظيماً . لانَّ هذا الاعتبار الجزيل يصيّرنا ان نقضي باجتهاد ونشاط الاعمال المفروضة من الحبر الاعظم وان نرغب اكتساب هذه الغفرانات رغبة بليغة - اه كم من المومنين يفون الآن في النار المطهريّة عمّا كان يمكنهم ان يفوا عنهُ في هذه الحيوة بتعب يسير - انهُ اذا نادى رجل غنيّ كريم بتوزيع الصدقات على المساكين . تتراكض الناس الى بيتهِ من كلّ ناحية . فها انّ الكنيسة تصرخ قائلة ما قالهُ يعقوب البارّ لاولادهِ حينما اشتدّ عليهم الغلاَء : لماذا تنظرون بعضكم الى بعض ... انحدروا الى مصر وابتاعوا لنا من هناك لكي نحيا ولا نموت (تكوين ٤٢ : ١ و٢) . بل تقول على لسان اشعيا النبيّ : هلمَّ اشتروا بلا فضّة وبلا ثمن (اشعيا ٥٥ : ١) - انَّ السيّد المسيح لا يريد منكم شيئًا . بل انّهُ يعطيكم مالهُ مجّانًا . فلماذا تتهاونون . اين ايمانكم . انّهُ سياتي اليوم الذي فيهِ تستفيقون على جهلكم . وهو حينما تكونون معتقلين في المطهر بسلاسل ملتهبة تفون وفاءً مرًّا ما تستطيعون ان تفوهُ الآن بتعب وجيز خفيف .

فتصرخون حينئذٍ قائلين مع العذارى الجاهلات: ادفعن لنا من زيتكنَّ (متى ٢٥ : ٨) فلا يُدفَع لكم - انكم ستشتهون وقتئذٍ من نسائكم واولادكم واصحابكم ان يعترفوا ويتناولوا الاسرار الالهيّة لاجلكم في ايام الغفرانات. الاّ انّ الله سينتقم من تهاونكم ويسمح ان لا يذكركم احد. واذا سمح ان تذكركم الناس. لا يسمح ان تنتفعوا من ذلك *

ثمّ لاحظوا هنا شيئاً آخر وهو انّ من يكسب الغفرانات فضلاً عن انّهُ يوفّر عليهِ عذاب المطهر ويقصّرهُ يزيد استحقاقاتهِ ايضاً. لانّهُ غير ممكن ان يربح غفرانًا من دون تزييد النعمة بواسطة افعال الايمان والعبادة التي يفعلها لاجل اكتساب الغفران. فانتجوا من ذلك جسامة الضرر الذي يصيبكم من تهاونكم في اكتساب الغفرانات - تأمّلوا ايضاً الضرر الحاصل للسيّد المسيح. لانّهُ يسخو لكم بثمن اتعابهِ لكي تفوا بهِ ما انتم مديونون بهِ للعدل الالهيّ عن خطاياكم. وانتم تستخفّون بذلك وتهملون هذه الغفرانات متغاضين *

وان اردتم ان تعلموا كيف يجب ان تكتسبوها. تعلّموا هذا من يهوديت الطاهرة السعيدة اذ قالت للشعب: لمّا كان الربّ كريمًا فلنندم ونستغفرهُ بالدموع (يهوديت ٨ . ١٤) - حقًّا حقًّا يا مباركين انَّ الغفران هو كنز عظيم. وبهِ يظهر الله جلال سخائهِ الغير المتناهي. لانّهُ تعالى لا يكتفي بان يترك الجريمة. بل يترك ايضاً العقاب المتعلّق بها. كما يتفق حينما نكتسب غفرانًا كاملاً - افليس يجب ان نطلب هذا الغفران باجتهادٍ بليغ. اليس يجب ان نقبّل بالدموع يد مخلّصنا الرؤوف الذي يكسر القيود التي تصدّنا عن الوصول الى ملكوت السماء - فلنطلبنَّ اذاً هذا الغفران معترفين مصدّقين اننّا غير اهل لهذا الاحسان العظيم. اعني ترك كلّ ما نحن مديونون للعدل الالهيّ عن ذنوبنا. ولنذهبنَّ الى الكنيسة بهذا الروح. فنربح بغير تعب ما ربحهُ لنا السيّد المسيح باتعاب واوجاع لا تُدرَك شدّتها آمين *

الموعظة التاسعة والستون

في جسامة خطر الذين يرتجعون الى الخطيّة بعد الاعتراف بها

انَّ الحال الاكثر خطرًا على المريض هو الانتكاس. وذلك لاربعة اسباب. وذلك انّ المريض تضعف قوّتهُ يومًا فيومًا. والدآء تزداد شدّتهُ. والادوية تنقص فاعليّتها. والطبيب يفتر اعتناؤهُ بالمريض ويستصعب عودهُ - والحال انهُ كما انَّهُ بين امراض الجسد وامراض النفس توجد مناسبة عظيمة. كذلك توجد هذه المناسبة بين المريض المنتكس. وبين الخاطئ المرتجع الى حال الخطيّة - ولعمري انَّ هؤلآء الخطاة الذين بعد الاعتراف يرتدّون سريعًا الى الخطيّة هم حاصلون على خطر عظيم من ان يهلكوا الى الابد. ولهذا يجب علينا ان نضع امام اعينكم عظمة هذا الخطر بشرح الاشيآء الاربعة المقدّم ذكرها. اعني المريض والمرض والادوية والطبيب *

فلنفحصنَّ اولاً عن المريض. قال المعلّم سَلْويانس اسقف مرسيليا. ما هذا المنظر الغريب. ها انّ اغلب المومنين لا يزالون يفعلون ما ندموا على فعلهِ. ها انّ الاكثرين بعد نهوضهم من فراش سيرتهم الرديّة يرتدّون اليهِ منتكسين - الاّ انّهُ حذرًا من ان يخاف من ليس عليهِ خوف. نريد ان نوضح اوّلاً من هم الذين نعنيهم في خطابنا هذا - فنقول انَّ الذين بعد التوبة يرتجعون الى الخطيّة هم نوعان. منهم من يخطئ بعد الاعتراف. لكن اقلّ من عادتهِ وبتبكيت ضمير اشدّ ممّا كان سابقًا. ومع انّ هؤلآء يسقطون لا يزالون يتمنّون القيام والرجوع الى الصلاح - فهؤلآء لا يخصّهم ما سياتي ذكرهُ. فليحسنوا رجاءهم. لانّ ظلام ضلالهم يشبه ظلام الغداة الذي يقلّ شيئًا فشيئًا. وهم لا

يبرحون سائرين نحو النور — واماّ القوم الآخرون فهم الذين بعد الاعتراف يرتدّون عاجلاً الى خطاياهم المعتادة من غير اصلاح سيرتهم البتّة . وبغير رغبة في اتقانها . فهؤلآء لا يلتمسون عونًا من الله . ولا يتناولون الاسرار بتكاثر . ولا يتجنّبون اسباب الخطيّة . بل يلقون انفسهم في اخطارها مثلما كانوا يفعلون سابقًا . وظلامهم ظلام المسآء الذي يزداد في كلّ دقيقة . الى ان يصل الى ليلة مدلهمّة — فاقول عن هذا الجمّ الغفير . انّهم حاصلون على خطر عظيم . والسبب في ذلك هو انّ اعترافاتهم التي عليها يعتمدون لظنّهم فيها انّها جيّدة . لم تكن حسنة . بل انّي اشكّ في صحّتها شكًّا عظيماً . ومن ثمّ اشبّههم بمرض المنتكسين — ولستُ ادري هل يستحقّون هذا التلقيب . لانّهُ لا يقال عن احد انّهُ انتكس الاّ اذا كان قد شُفي قبلاً ولو يسيرًا — واماّ الخطاة الذين نحن الآن في صددهم فهم مرضى لا تفارقهم الحمّى — فمن اجل مثل هذا السبب لم يُرد القدّيس غريغوريوس النازينزي ان يُدعَى يليانس الملك ملحدًا . لانّهُ لم يكن مومنًا قبلاً — فعلى حسب هذا القياس لا يسوغ ان نقول عن هؤلآء انّهم منتكسون مرتجعون الى الخطيّة بعد الاعتراف . لانّهم لم يصيروا ابرارًا بهِ — فهذه الحقيقة جزيلة الاعتبار . فيجب ان ابيّنها جليًّا واثبّتها بكلّ ما يمكن من الحجج — فنثبت هذه الحقيقة اوّلاً بحجّة المعقولات فنقول : انّنا عندما نتناول سرًّا من الاسرار الالهيّة لا ناخذ نعمة التبرير الملكيّة فقط . بل ناخذ ايضًا النعمة الفعليّة او النعمة المعينة ايضًا . التي من شانها ان تقوّي ارادتنا وتعينها على الخطيّة — فاذًا سرعة ارتداد هؤلآء الخطاة الى خطاياهم القديمة . هي لنا دليل عظيم على انّهم بالاعتراف لم ينالوا هذه النعمة المعينة . وانّ اعترافهم لم يكن جيّدًا . وانّهم لم ينالوا ثمرة السرّ *

ولا تقولوا انّ هذا الارتداد السريع يدلّ على امر واحد فقط . وهو انّ النعمة التي نالوها لم تكن وافرة . لانّي اجيبكم بما يريكم فساد هذا المقال . لانّهُ من المحقّق انّ المومن الذي نال ادنى درجة من نعمة التبرير . يقدر ان يحيد عن

كلَّ خطيَّة مميتة بواسطة العون المالوف المتعلّق بهذه النعمة . ولهذا قال التلميذ الحبيب : قد علمنا انَّ كلّ مولود من الله لا يخطئ (١ يوحنا ٥ : ١٨) لانّ ولادتهُ من الله هي تحفظهُ – وسبب ذلك هو انّ ادنى درجة من نعمة التبرير تصدر المحبةُ الفائقة الطبيعة التي تصيّر من يمتلكها ان يعتبر الله افضل من كلّ شيء سواهُ تعالى . ولا يريد ان يبدّل بهِ كلّ خيرات العالم . هذا مضمون تعليم القدّيس توما اللاهوتي – فاذًا النفس التي تمتلك هذه المحبّة . امّا انّها لا تخسر الله . وامّا انّها اذا خسرتهُ تشعر باطنًا بحزنٍ ما على فقدها هذا الخير الذي كانت تفضّلهُ على كلّ خير آخر . لانهُ كما قال القدّيس اوغسطينس . لا يمكن ان نخسر بلا تألّم ما كنّا نمتلكهُ قبلاً بمحبّة – وهذا ينتج منهُ انَّ هؤلآء الخطاة الذين يشربون الخطيّة كالماء ويرتجعون بعد الاعتراف الى خطاياهم العاديّة سريعًا من غير ان يشعروا بحزن او تألّم باطن . يُشَكّ فيهم بالصواب انّهم لم ينالوا بالاعتراف نعمة التبرير او النعمة المعينة . ومن ثمَّ ولا المحبّة الفائقة الطبيعة – انَّ الصوف المجزوز من حيوان ميّت يهتري ويبيد عاجلاً . ولماذا ذلك . لانّ هذا الصوف هو خالٍ من الارواح المحيية الموجودة في الحيوان الحيّ – فلماذا لا يستقيم هؤلآء الخطاة في حال الصلاح . لماذا تُرذَل توبتهم وتضمحلّ عاجلاً : انَّ السبب هو انهم صوف خالٍ من هذه الحرارة المحيية المقويّة التي ينالها الخطاة الذين يعودون بالاعتراف الى حيوة جديدة – فمن أَجل ذلك ينصحنا الرسول ان نحسن الحذر ونحترس على ان تكون محبّتنا حقيقيّةً من كلّ غشّ (٢ قورنثية ٦ : ٦) – ونرى جمهور الآباء القدّيسين يهزأون بمثل هذه التوبة السريعة التقلّب . منهم القدّيسون امبروسيوس واسيدورس وهيرونمس وبرنردس وغريغوريوس . وعلى الخصوص اوغسطينس في مواضع شتّى حيث يقول : من يضرب صدرهُ ولا يصلح سيرتهُ يمكّن فيهِ الخطيّة ويسمّرها ولا ينزعها *

فمن الصواب الشكّ في اعتراف هؤلآء الخطاة المنتكسين المرتدّين الى

الخطيّة بعد الاعتراف سريعًا . من حيث أنّها اي اعترافاتهم لا تبلغ ابدًا الى الغاية التي رُسم الاعتراف من اجلها . والحال انّ نعمة السرّ كما قال مارتوما اللاهوتي تمنح عونًا الاهيًا لبلوغ غاية السرّ – وتتّضح هذه الحقيقة ايضًا من النظر الى سبب هذا التقلّب وعدم الثبوت – اسألكم يا مباركين ما الذي يسبّب غالبًا انتكاس المرضى – قال علماء الطبّ انّ سببهُ هو فضلات الدآء المتبقّية . فهذا نفسهُ يحدث لهؤلآء الخطاة . لانّهم يرتدّون الى الخطيّة سريعًا من سبب انّ ارادتهم ليست مجرّدة كلّ التجرّد من تعطفها نحو الخطيّة . فهذا مثلاً يعاشر شخصًا معاشرة دنسة . ومع هذا يعترف كلّ سنة في عيد الفصح على الاقلّ . اتظنّون انهُ في كلّ اعتراف يعترفهُ ينقّي قلبهُ من سمّ انعطاف ارادتهِ نحو الخطيّة . وانّهُ يبغض ما يلهب في قلبهِ هذه الشهوة . كلّا . بل انّهُ يحبّ هذا الشخص كما في السابق – اعتقدوا يا مباركين انّ الخطاة الذين نحن في صددهم يعترفون على هذا الاسلوب . وقد قال فيهم صاحب المزامير : مبغضوا الربّ كذبوا (مزمور ٨٠ : ١٦) – وفي حين اظهار ندامتهم عند الاعتراف لا تزال قلوبهم ملتصقة بمحبّة نجسة ان كانوا شهوانيّين . او بنيّة اخذ الانتقام ان كانوا حقودين . او ان يعودوا الى السكر ان كانوا سكّيرين . او لهم رغبة في مكاسب الظلم ان كانوا محبّي المال – وقد اجاد القدّيس غريغوريوس بقولهِ : كما انّ القدّيسين حينما يحاربهم الشيطان بتجربة قويّة يتبيّن لهم انّهم يرتضون بالخطيّة مع انّهم لا يرتضون بها اصلاً . هكذا هؤلآء الخطاة يبين لهم غالبًا انّهم في الاعتراف يندمون . مع انّهم لا يندمون ابدًا – لان ارادتهم هي منتصفة لا كليّة . وهذا يتّضح ويتحقّق اذا نظرنا الى اعمالهم . لانّهُ كما انّ الذي تقلقهُ الافكار الدنسة ان كان لا ياتي بها الى الفعل ابدًا . لهُ ان يعتقد بالصواب انّهُ لم يرتضِ بالوسوسة الشيطانيّة كذلك من تحثّهُ النعمة الالهيّة على ترك الخطيّة ولا يتركها ابدًا . لهُ ان يعتقد بالصواب انّ ارادتهُ لم ترتضِ بالنعمة . وبالتالي انّهُ لم ينل الغفران في الاعتراف لانّ الله يريد ممّن يتناول

سرّ الاعتراف ان يتوب بكلّ قلبهِ لا بنصفهِ *

غير انّي اسلّم انّ هؤلآء الخطاة يعترفون اعترافًا جيّدًا . الاّ انّهم مع هذا فحالهم شقيّ . لانّ الاقلاع عن الخطيّة يعسر عليهم جدًّا جدًّا . ولذلك يعسر عليهم الخلاص ايضًا جدًّا جدًّا – ولعمري انّهم يحتاجون الى ان يصنع الله لاجلهم اعجوبة لكي يتوبوا ويصلحوا سيرتهم . اذ كيف يمكن ان يصلحوا سيرتهم وهم لا يزالون منتقلين من الاعتراف الى الخطيّة ومن الخطيّة الى الاعتراف – انّهم لكي يصلحوا سيرتهم ينبغي ان يقتدوا بنصيحة النبيّ حيث قال : كفّوا عن فعل السوء . لئن كانت خطاياكم كالقرمز لتبيضنَّ كالثلج (اشعيا ١ : ١٦ و ١٨) – اقطعوا عاداتكم المستطيلة للخطيّة . استمرّوا ثابتين مدّةً في حال النعمة وارجعوا الى الاعتراف قبل الارتداد الى الخطيّة . وحينئذٍ مهما كانت انفسكم متدنّسة بالخطايا تبيضّ كالثلج – الاّ ان هذا امر لا يبالي بهِ هؤلآء وعنهم قال روح القدس : اذا انتهى الشرّير الى قعر الخطايا لا يبالي (امثال ١٨ : ٣) . وهم في حال شقائهم هادئون مطمئنّون كأنّهم صدّيقون كقول الحكيم : يوجد منافقون مطمئنّون كأنّهم صنعوا صنع الصدّيقين (جامعة ٨ : ١٤) – انّ الذي يسافر في البحر اوّل مرّة يرتجف فرقًا من خطر الغرق . بل حيث لا خطر البتّة . وامّا من اعتاد البحر فلا يشعر باضطراب في حين الخطر نفسهِ – تاملّوا في انسان لم يعتدْ الخطيّة . فانهُ اذا اتّفق ان يسقط سقطة باهظة لا يزال مضطربًا قلقًا لا يجد تعزية ولا راحة – الاّ انهُ اذا اعتاد الخطيّة . تراهُ بعد ارتكاب اقبح الخطايا مستريحًا لا يشعر باضطراب الاّ يسيرًا جدًّا – انّ هذه الراحة تشبه نوم من قد اشرف على الموت – فكيف يصلح هؤلآء سيرتهم ان كانوا لا يشعرون بدائهم المميت ولا يخجلون من قبلهِ . بل يستبشرون بهِ ويفتخرون – انهم لا يمكن ان ينتصروا على الشيطان المتسلّط عليهم تسلّطًا قويًّا ويستاصلوا عوائدهم الاّ بافراغ جهدهم وكلّ جدّهم . وكيف يفعلون ذلك وهم لا يبرحون ملتمسين الملاهي والملذّات الحسيّة *

فان كان يعسر عليهم اصلاح السيرة بهذا المقدار . فلا شكَّ انَّ خلاصهم يعسر كذلك . لانَّ الله قد علق خلاصنا بالاعمال الصالحة . قال الرسول : انَّ الانسان انَّما يحصد ما قد زرع (غلاطية ٦ : ٨) - نعم انَّهُ تعالى وعدنا بملكوت السمآء . الاَّ انَّهُ وضع شرطًا واحدًا وهو ان نحفظ شريعتهُ *

اعتبروا الآن شائبة اخرى مهلكة تشتمل هؤلآء الخطاة . وهي انهم يزدادون سوءًا يومًا فيومًا . وعنهم قال صاحب المزامير : ضجيج مبغضيك قد ارتفع في كلّ حين (مزمور ٧٣ : ٢٣) - وسوءهم هذا يصدر من نوعين من الاعدآء بعضهم من داخل وهم الجسد والشهوة . وبعضهم من خارج وهم العالم والشيطان - انظروا الآن كيف انّ مرض هؤلآء المنتكسين بالروح يزداد اشتدادًا وخطرًا من قبل ازدياد قوّة ما يعكس صحّتهم . فالجسد والشهوات اولاً تزداد ولعًا في اللذّات الحسّيّة باستمرارها على التمتّع بها . ولا يزالان الآن يخترعان وسائل جديدة كي لا يزالا يشربان من كاس الدنس - انظروا شخصًا مبتعدًا عن الدنس : انَّهُ يصرف الايام والليالي بغير ان يخالجهُ فكرٌ نجس . وبعكس ذلك ترى من كان متعوّدًا هذه الرذيلة . لا يزال عقلهُ مشغولاً بهذه الافكار السمجة حتّى في حين نومهِ . وهو يشبه وحشيّة خبيثة تزداد شراسة اذا قُطعت قيودها . لانّها حينئذٍ لا تريد ان تخضع فتذهب راكضة ورآء شهواتها *

وامّا الاعدآء الخارجون فانّهم يتقوّون يومًا فيومًا على هؤلآء الخطاة . لانَّ الشيطان اذا خرج ياخذ معهُ سبعة ارواح شرًّا منهُ (لوقا ١١ : ٢٦) ويرجع الى حيث كان يسكن مطإنًّا - الاّ انَّهُ اذا اردتم ان تفهموا كم يزداد مرض هؤلآء المنتكسين بالروح سوءًا وخطرًا . يكفي ان تنظروا الى حقيقة خطيّتهم - تأمّلوا اذًا يا مباركين انَّ كلَّ خطيّة من حيث انّها عمل خليقة حقيرة تحتوي على خطيّة اخرى عظيمة جدًا . وهي عدم الشكر والكفران بالاحسانات الالهيّة . ومن ثمَّ يشكو الله من ذلك بقولهِ : ربّيتُ بنين ورفعتهم وهم عقّوني (اشعيا ١ : ٢) .

وهاتان الصفتان تزيدان خطيّة الذين يرتجعون الى الخطيّة عظمةً - فاوّلاً تزداد سوءًا خطيّة الكفران بالنعمة. لانَّ القدّيس توما اللاهوتي سأل عن خطيّة البارّ الذي يخسر النعمة الاولى المكتسبة بالمعموذيّة هل هي اعظم من خطيّة الذي يخسر النعمة الثانية المكتسَبة بسرّ التوبة. فاجاب عن هذه المسألة قائلاً: انّ خطيّة المومن المبرّر بالتوبة. هي اعظم من حيث انّها متضمّنة كفرًا بالجميل اعظم - ثانيًا انّ خطيّة هؤلاء الخطاة تزداد عظمةً لكونها احتقارًا للعزّة الالهيّة. لانّهم بارتجاعهم الى الخطيّة لا يزدرون مشيئة الله فقط كما يحدث في الخطيّة الاولى. بل يزدرون ايضًا الغفران الممنوح لهم مرّات متعدّدة - قال ترتليانس: من يباين الله لكي يرتجع الى الشيطان. يحكم بلسان الحال انَّ التعبّد للشيطان خير من التعبّد لله - مثل هذا فعل اهل نينوى. لانّهم بعد اكتسابهم الغفران بالتوبة. ارتدّوا الى المعصية. ولذلك اقلب الله مدينتهم وعاقب اهلها عقابًا مخيفًا *

وقد اتّضح الى الآن انهُ بالانتكاس تضعف قوّة المريض. بل انّ المرض يزداد اشتدادًا - لكن اما يوجد لهُ دوآء شافٍ. لا. لانَّ الادوية هنا ضعيفة جدًّا - انكم علمتم انّ الادوية الطبيعيّة توثّر قليلاً في من يتناولها كثيرًا. واعتياد استعمالها يبطل قوّتها. ولكن في ما يخصّ النعمة الالهيّة فالامر يجري بخلاف ذلك. لانّ قوّة ادوية النفس وفاعليّتها تزداد بالاكثار من تناولها وتقلّ وتنقص بقلّة تناولها. ومن ثمّ من يتناول سرّ الاعتراف وسرّ الاوخارستيا في النادر يجتني منهما نفعًا يسيرًا جدًّا. حتى يمسي السرّ كانّهُ ليس بدوآء - وهذه هي حال هؤلاء الخطاة الذين من عادتهم ان يتناولوا الاسرار الالهيّة في النادر. لانّهم يحتسبون الاستمرار في حماة لذّاتهم الدنسة سعادة. والساعات القليلة التي يصرفونها في التقوى يعدّونها عيشًا شقيًا. وهكذا تعود لهم بقيّة الادوية الخارجة باطلة. اعني النصائح والعظات والتوعّدات. لانَّ طمأنينتهم الكاذبة تنزع عنهم كلّ خوف - ان رايتم خاطئًا في حين هيجان شهوتهِ خائفًا من انَّ الله يهلكهُ ويعاقبهُ. فهذا الخوف نفسهُ هو دليل

على انهُ ليس ببعيد عن التوبة - وبخلاف ذلك . اذا رايتم خاطئًا آخر لا يخاف البتّة ولا تؤثّر فيهِ النصائح فقد قال عنهُ روح القدس : من ليس لهُ خشية لا يقدر ان يتبرّر (سيراخ ١ : ٢٨) *

وما عدا انَّ الادوية تعود لهم غير نافعة انها تؤتيهم ضررًا ايضًا - تأمّلوا في ما قال زعيم الرسل : لقد كان خيرًا لهم الاّ يعرفوا طريق البرّ من ان يعرفوا ثمّ ينصرفوا الى خلافهِ (٢ بطرس ٢ : ٢١) - وسبب ذلك يبينهُ رسول الامم بقولهِ : انَّ الارض التي شربت المطر الذي نزل عليها مرارًا كثيرة وانبتت... شوكًا وحسكًا . فانّها تصير مرذولة قريبة من اللعنة (عبرانيين ٦ : ٧ و ٨) كأنّهُ يقول : انَّ النفس التي نالت من الله عون النعمة ولم تستعملها لفعل الصلاح . تُحصى بين المرذولين . اي بين الخطاة العديمي كلّ نعمة فاعلة منتصرة وهي قريبة ان تحلّ عليها اللعنة التي سينادي الله بها قائلاً : اذهبوا عنّي يا ملاعين الى النار المؤبّدة (متى ٢٥ : ٤١) - وهذا نوضحهُ الآن بالخبر الآتي : خبّرنا رجل من اهل التقى انهُ كان في بلادهِ رجل شريف الاصل حاصلاً في حال العمى الروحيّ الذي شرحتهُ الى الآن . فمرض اخيرًا مرضهُ الاخير ولم يعزم على الاعتراف . واذا بهِ رأى على ستر فراشهِ مكتوبًا هكذا باحرف كبار : اطلبوا الربّ ما دام يوجد (اشعيا ٥٥ : ٦) فلم يفق المريض من هذه النصيحة الالهيّة . بل ظنّ في القسّيس انّهُ هو حرّر ذلك ليجلبهُ الى الاعتراف . ومن ثمّ شرع يهزأ بالكتابة . واوصى ان يرفعوا عن فراشهِ هذا الستر والاّ احرقهُ - الاّ انّ القسّيس والحاضرين لم يروا شيئًا مكتوبًا على الستر . ومع ذلك رفعوا الستر عن الفراش طاعةً للمريض . وجعلوا سترًا آخر غيرهُ . فرأى مكتوبًا عليهِ هكذا : تطلبونني ولا تجدونني (يوحنّا ٧ : ٣٤) فلم ينتبه الشقي بهذه النصيحة الالهيّة الثانية . بل ازداد قلبهُ صلابة . وامر برفع هذا الستر ايضًا . الاّ انّهُ في الستر الثالث رأى مكتوبًا عليهِ امرّ من الاوّل : وهو تموتون بخطاياكم (يوحنّا ٨ : ٢١) - فلمّا ابصر هذا

زهقت نفسهُ الشقيّة ومات. وفي حال موتهِ تزعزع بيتهُ حتّى الاساس وكاد يخرب في طرفة عين. وخُطِفت جثتهُ ولم تظهر فيما بعد اصلاً – واما امرأتهُ وبنتهُ وابنهُ فلفرط ما ارتعبوا من هذا المنظر هجروا العالم وترهّبوا – ارايتم يا مباركين كيف هؤلاءِ الخطاة لا ينتفعون من النصائح ولو انها تكون الاهيّة. وكيف انَّ الله بسبب ذلك ينتقم منهم اشدّ الانتقام – حقًّا انهُ كان خيرًا لهذا الشقيّ ان لا يعرف طريق البرّ – فيا لعظم شقآء حال مَن خيرٌ لهُ ان لا يعرف الخلاص ولا يصيب عونًا من الله *

انظروا الآن خيبوبة رجاء هؤلاءِ الخطاة المنتكسين المرتجعين الى الخطيّة. وهو اعتمادهم على الطبيب – انَّ الطبيب هو الله. واذا اراد ان يستعمل قدرتهُ الضابطة الكلّ. فلا شكّ انهُ يستطيع ان يشفيهم بلحظة عين. الاَّ انهُ في هذا قائمة صعوبة الامر. اي في انهُ تعالى يريد ان يفعل لاجلهم لا فعلاً عجيبًا من افعال قدرتهِ المطلقة. بل فعلاً من افعال عنايتهِ الاعتياديّة – انَّ المرض المستطيل يضجّر الطبيب. فان كان ذلك يحدث في الامراض الموافية كرهًا منّا فكيف في الامراض التي نختارها ونحبّ الاستمرار عليها – فنقول: انّ الله بحسب عنايتهِ الاعتياديّة يهمل هؤلاءِ المرضى المنتكسين اختياريًا. كقولهِ على لسان ارميا النبيّ: عالجنا بابل فلم تشفَ فلنتركها (ارميا ٥١ : ٩) – وقال تعالى على لسان زكريّا نبيهِ: كان غضب عظيم من عند ربّ الجنود. وكما نادى هو فلم يسمعوا كذلك يحدث انهم ينادون ولا اسمع (زكريا ٧ : ١٢ و١٣) – فاين اذًا رجاؤهم الباطل على الطبيب. بعد انهُ تعالى قد سبق وقال انهُ لا يعالجهم – ولعمري انهُ بالصواب يعاملهم الله هكذا. لانهُ باهمالهِ اياهم يعاقب الاشرار ويخلّص الصالحين معًا. اما معاقبتهُ الاشرار فانهُ بذلك يعاملهم بحسب استحقاقهم – انظروا ما فعل موسى الكليم لمّا انحدر من طور سينا حاملاً اللوحين المحرّرة عليهما الشريعة بيد الله نفسهِ: انهُ لمّا رأى الجماعة قد ارتدّت الى عبادة الاوثان كسر

الموحين . لانهُ لم يكن لائقاً بمخالفي هذه الشريعة ان يروها منحدرة من السمآء مكتوبة بيد الله – وعلى ذلك فكيف يليق بالخطاة الذين استعملوا الصبر الالهيّ دائمًا استعمالاً رديًا ان يجتنوا منهُ اثمار الخلاص – انهم يصرخون ولا يستجيب الله لهم – ثمّ انهُ تعالى عند معاقبتهِ الخطاة هكذا يحسن الى الابرار ويسعى في خلاصهم . لانّهم عندما يرون غضب الله نازلاً هكذا على هؤلآء الاشقيآء في ساعة موتهم . تصيرهم خشية الله وخوفهم من عقابهِ ان يحسنوا الحذر من الخطية ويزدادوا نشاطًا في عبادة الله . وهكذا يظهر الله تعالى عدلهُ مع الخطاة ورحمتهُ للصدّيقين . لانهُ جلّ جلالهُ كما قال لكتنتيوس بمعاقبتهِ للطالحين يحفظ الصالحين – فان كان الطبيب قد نادى انهُ يهمل هؤلآء المرضى المنتكسين . وان كان الصواب يقتضي ذلك لئلاّ يكون بشفائهِ مريضًا واحدًا يعطي سببًا للاصحآء ان يمرضوا انفسهم فلقد صحّ واتّضح انّ رجاءهم هذا الاخير ايضًا هو باطل خائب . وانهُ اذ قد تضعف قوّتهم يومًا فيومًا ويزداد الدآء اشتدادًا وتقلّ فاعليّة الادوية ويضجر الطبيب من مداواتهم . فهم حاصلون على خطر الموت والهلاك الابدي خطرًا لا اعظم منهُ ＊

غير انكم لعلكم تقولون لي ما قصدك بهذا الخطاب . وما النفع الحاصل من هذه العظة التي من شانها ان تقطع رجاءنا وتلقينا في الاياس – اجيبكم يا مباركين : انّي ما كلّمتكم عن كلّ نوع من الخطاة المرتجعين الى الخطية . بل انما تكلّمتُ عن هؤلآء الذين لا يصلحون سيرتهم قطّ ولا يريدون ان يستعملوا الوسائل الموصلة الى ذلك – ولكنّي ارجو من الله ان لا يوجد بينكم احد من هؤلآء الاشقيآء . افلا يجب عليكم ان تتّخذوا من ذلك عبرة لاتقان سيرتكم لئلاّ تسقطوا في هذه الحال التعيسة المقدّم ذكرها التي من سقط فيها لا دوآء لهُ البتّة ان لم يعزم على الخروج منها عزمًا فاعلاً – قلتُ عزمًا فاعلاً . لانّهُ كلّما زاد اصل الدآء تعمّقًا . ينبغي ان يكون العزم على الشفآء افضل تمكّنًا – وما هو هذا الدوآء : انّهُ

قد بيَّنهُ تعالى على لسان اعظم الواعظين واقدس مواليد النسآء وهو يوحنا المعمذان. لانهُ بعد ان بيَّن صعوبة توبة الخطاة الصلدة قلوبهم بكلام شديد قائلاً. يا اولاد الافاعي من دلّكم على الهرب من الغضب الآتي. ذكر لهم الدوآء الوحيد الشافي الباقي لهم قائلاً: اعملوا ثمارًا تليق بالتوبة ولا تبتدئوا ان تقولوا في انفسكم انّ لنا ابًا ابراهيم (لوقا ٣: ٧ و ٨) - فهذا نفسهُ اقولهُ الآن لجميع الخطاة وعلى الخصوص للذين نحن في صددهم. اعملوا اثمارًا تليق بالتوبة - لا تكفي الاوراق ولا الزهور. ولا يكفي الكلام والوعد. انهُ لا بدّ من الثمار. ولا بدّ عن العمل. ولا تبتدئوا ان تقولوا انّ ابانا ابراهيم - لا تعتذروا قائلين: انّنا مسيحيّون. ما خلقنا الله لكي يهلكنا. ونرجو ان يخلّصنا. لانّ هذا قول اغبيآء قد اظلمتهم الخطيّة. لاني اسألكم هل يكفي لحفظ قيام الكرمة ان تكون مغروسة لا في البريّة بل في حقل الكرّام - ان كانت لا تاتي باثمار. فلا شكّ في انّ الكرمة التي في حقل الكرّام والكرمة التي في البرّية. يُلقيان في النار على حدٍ سوى - نعم انّ ربّ الكرم لا يغرس هذه الكرمة في حقلهِ بنيّة ان يلقيها في النار. الاّ انهُ اذا استمرّت بطّالة غير مثمرة في الحقل فلا شكّ في انهُ يلقيها ويرذلها - وقد اعدّ كلّ شيء لذلك. وجعل الفاس على اصول الشجر *

فاعملوا اذًا اثمارًا تليق بالتوبة. وما هي هذه الاثمار. انها هي ثلاث. الصدقة. والصوم. والصلوة. حسبما قلنا لمّا تكلّمنا عن التوبة - امّا الصدقة فقد قال دانيال النبيّ لبختنصر الملك انها مفيدة جدًّا لافتدآء الخطايا (دانيال ٤: ٢٤) - فكونوا اذًا اسخيآء مع الله. وهو سبحانهُ يعاملكم بسخآء ايضًا. ارحموا المساكين والربّ يرحمكم. ولتكن مناسبة بين خطاياكم والصدقة التي بها تفتدون خطاياكم - اعملوا اثمارًا تليق بالتوبة. وان صدّكم الفقر عن ذلك فاعملوا اعمال الرحمة الروحيّة. صونوا صيت القريب. واسعفوهُ بمشورات حسنة. انصحوهُ وعلّموهُ. ولاسيّما من يكون تحت سلطانكم وتدبيركم. واكفوهُ شرّ الخطايا التي

تورّطتم فيها . تعوّدوا ايضًا الصوم . وبالصوم اعني كلّ انواع التقشّفات - قال الرسول : لو كنّا ندين انفسنا لما كنّا ندان (١ قورنثية ١١ : ٣١) . لو كنّا نعذّب انفسنا لما كنّا نتعذّب من الله - فان كان ضعف مزاجكم او تعب حرفتكم يمنعكم عن ذلك فعوّضوا ذلك بالامتناع عن الملاهي والتنزّهات غير الضروريّة. كثّروا رياضات العبادة واحسنوا عملها - استعينوا كثيرًا بالصلوة متذكّرين انّ من تعتّق في عادة سيّئة يمسي احيانًا في حال لا يجد فيها واسطة اخرى للخلاص غير استنجاد الله بالصلوة - فان كنتم على ممارسة هذه كلّها ثابتين . فلكم ان ترجوا من الله دوآء شافيًا وانّهُ يليّن قلوبكم ولو كانت اصلب من الحجارة . اذ انّهُ تعالى قادر ان يقيم من الحجارة اولادًا لابرٰهيم . فيصيّركم ابنآء لعزّتهِ ووارثين لملكوتهِ *

الموعظة السبعون

في سرّ مسحة المرضى

لقد اصاب من قال : انّ المحبّة لا تُعرَف الاّ في زمان الشدّة . لانّهُ حينئذٍ يبين من كانت محبّتهُ حقيقيّة في زمن الرخآء والرفاهيّة . ومثل هذا المحبّ الامين قد قال عنهُ الحكيم : انّهُ لا يعادلهُ شيءٌ (سيراخ ٦ : ١٥) - ومن هو هذا الصديق الصدوق الحبيب غير الذي ليس لعزّتهِ نظير ولا لمحبّتهِ شبيه . اعني سيّدنا يسوع المسيح الذي لا يزال يرافقنا في اتعابنا وشدائدنا ويعيننا ويعزّينا في حين احزاننا (مزمور ٩ : ١٠) - ومن المعلوم انّ زمن اشدّ احزاننا وبلايانا هو زمن المرض الاخير . ولهذا كان الملك والنبيّ داود يطلب من الله الاّ يهملهُ عند فنآء قوّتهِ (مزمور ٧٠ : ٩) - حاشا لالاهنا ومخلّصنا ومحبّنا ان يتركنا في زمن الموت لانّهُ قد رسم لنا في كنيستهِ سرًّا لتقوية نفوسنا ببلسم الاهيّ مركّب من دمهِ الكريم *

والآن حقّنا ان نوضح هذه الحقيقة فنتكلّم اوّلاً عن الشدائد التي تصدمنا في ساعة الموت ثمّ نورد العون الذي اعدّهُ لنا السيّد المسيح في سرّ المسحة الاخيرة لمقاومة اعدآء خلاصنا واحتمال احزان المرض الاخير واوجاعهِ - انّهُ في ساعة الموت يتّفق ثلاثة انواع من الاعدآء لمحاربة الانسان عند انقضآء حياتهِ. وهم الموت مع اوجاعهِ. والضمير مع توبيخاتهِ. والشيطان مع وساوسهِ - فان كان كلّ واحد منهم كافيًا ليرهبنا. فكيف تكون حالنا حينما يتّفقون جميعًا على محاربتنا - فالموت هو اوّل الذين يضايقوننا في هذا القتال المرعب المخطر. وهذا العدوّ يرسل امامهُ جنودهُ علينا. اعني كلّ نوع من انواع الامراض والاوجاع. ويلقي الجسد على الفراش ولا يبرح يعذّبهُ الى ان يتّصل بهِ الى المفارقة - فيا ما اصعب حينئذٍ فعل الصلاح. يا ما اكثر ما نحتاج الى العون الالهيّ لكي نقضي افعال الديانة المسيحيّة اذ يصعب علينا ان نقضي الاعمال الطبيعيّة اشدّ الصعوبة - انّ المريض المشرف على الموت يعجز غالبًا عن اكثر الافعال الحيوانيّة. كالاكل والنوم والحركة. فكيف يقدر وقتئذٍ ان يقدّم للنفس الارواح الضروريّة لتفعل اعظم افعالها - انّهُ غالب الاوقات لا يقدر المريض ان يفتكر الاّ في مرضهِ. وانّي لاذكر ابن الشونميّة اذ كان في حين شدّة مرضهِ لا يقدر ان يتكلّم الاّ بالتشكّي من وجعهِ (٢ ملوك ٤ : ١٩) - هذا ما يحلّ بمرضى كثيرين. اي انّ كلّ فكرهم يكون في مرضهم. وكلّ كلامهم يكون عن اوجاعهم - فيا ما ارهب هذا الوقت. ويا ما اكثر ما يحتاج الانسان الى العون الالهيّ حينما تكتنفهُ اوجاع الموت وتلمّ بهِ مخاطر الجحيم (مزمور ١١٤ : ٢). اي حينما تلقيهِ اوجاع الموت في خطر الهلاك. لانّهُ عند فناء قوّتهِ يعسر على المريض جدًّا ان يسمع ويعترف ويندم ويقاوم المجرّب - انّ البحر هو مرٌّ جدًّا في وجههِ الشائف الظاهر. الاّ انّهُ في باطنهِ اي في عمقهِ هو مرٌّ كثيرًا - هكذا الموت مهما كان مرهبًا مخوفًا بالتصوّر العقليّ ما دام غائبًا بعيدًا. الاّ انّهُ ارهب وارعب جدًّا جدًّا حينما يحضر لكي يبتلع *

انظروا الآن كيف الله يقوّي المؤمنين وينصرهم على هذه الاوجاع والمخاطر بواسطة سرّ المشحة الاخيرة: انهُ اولاً ينطقنا بنعمة تسهّل لنا احتمال بلايا المرض واتعابهِ وتحلّي مرارة الموت. ولهذا جعل تعالى مادّة هذا السرّ من الزيت المقدَّس. والزيت من شانهِ ان يقوّي الاعضاء الضعيفة ويخفّف الاوجاع. كما يبين في مداواة الجروح — وهذا تقصدهُ الكنيسة بعينهِ في مناولة هذا السرّ. بل انّ هذا السرّ من شانهِ ايضاً ان يشفي المرض اذا كان الشفاء مفيداً لخلاص النفس. اذا لم يبطل المريض هذا النفع بقلّة ايمانهِ واتّكالهِ او بمانع آخر من الموانع — هذا ملخّص تعليم مار توما اللاهوتيّ والمجمع التريدنتيّ *

تأمّلوا الآن في جهل المرضى الذين يستصعبون تناول هذا السرّ كأنهم يموتون بعد تناولهِ من ساعتهِ. لعمري انّ هذه غباوة غير محتملة في الشعب المسيحي — فوا اسفاه كيف انّ اقرباء المريض يشتركون في جهلهِ هذا ويسعون في غرضهِ الملتوي. وكانّهم صاروا اعداءهُ لا يريدون ان يذكروا امامهُ سرّ مشحة المرضى. الاّ حينما يكون قد مات نصفهُ. مع انّ الكنيسة علّمتهم انّ هذا السرّ لا يعجّل الموت بل يبعدهُ — امعنوا النظر يا مباركين واعتبروا كم يضرّون المريض نظرًا الى عافيتهِ بتاخيرهم عليهِ هذا السرّ الالهيّ الذي يكفي لتناولهِ ان يكون المريض حاصلاً على خطر الموت لا مشرفًا عليهِ بحيث يحصل المريض على حال تقتضي من الله اعجوبة لنيل الشفاء. مع انّ هذا السرّ لم يُرسَم على ذلك — نعم انّ هذا السرّ قد رُسم لهذهِ الغاية الثانية وهي ان يشفي المرضى. الاّ انهُ لم يُرسَم لكي يشفيهم في احوال الشفاء باعجوبة. بل في الاحوال المالوفة. اي حينما تكون النجاة من الموت احسانًا خصوصيًّا *

انّنا حتّى الآن اوضحنا كيف ان السيّد المسيح يسعفنا عند الموت بواسطة سرّ المشحة الاخيرة. وبهِ يقوّينا على الصنف الاوّل من اعدآئنا — انظروا الآن كيف يعيننا ايضًا بهذا السرّ في ساعة الموت وينصرنا على النوع الثاني من

الاعداَء . اعني الضمير مع توبيخاتهِ – فتصوَّروا انسانًا تاجرًا قد تعب كثيرًا في سفر مستطيل . وعند انقضاء ذلك يرى مركبهُ مستغرقًا في البحر وهو على الشطّ جالس مستغرق في بحر الاحزان . اسالوهُ الآن اين بضاعتهُ – فهذا ما يفعلهُ الضمير مع مريض حاصل على خطر الموت . لانهُ يسألهُ مبكّتًا وقائلاً : ماذا نفعك ما تستحي منهُ الآن . انك صرفت حياتك على حسب هواك واشبعت شهواتك الجسديّة . وقد قضيت حياتك في الاهتمام بالامور العالميّة وباكتساب خيرات ارضيّة . فما الفائدة الحاصلة لك الآن من هذه كلّها – اما كنت تتمنّى ان تبيع الآن هذه الخيرات كلّها بعمل واحد من الاعمال الصالحة او بساعة واحدة من الايّام التي قضيتها في الباطل – اه يا ما امرّ ما تكون هذا التوبيخات للمريض المشرف على الموت . قال روح القدس : انَّ الانسان في يوم الاستعلام اي في يوم الموت يلازم الصمت (حكمة ٣ : ١٨) – لماذا يوم الموت يُدعَى يوم الاستعلام . لانَّ زمان حياتنا الآن هو يوم الجهل وعدم المعرفة . لا نعلم حسنًا ما هي الخطيّة والدينونة الاخيرة وايّ شيء هو خطر الهلاك الابديّ . كلّ شيء لدينا هو ظلام وشدّة – ولكن في حين الموت يتبدَّد الظلام ويضمحلّ . والحقائق التي كنّا نجهلها تعتلن لنا واضحًا كأنّنا نبصرها عيانًا – وهكذا يحدث بنا ما يقال عن الخلد وهو انهُ يستمرّ طول حياتهِ مسدود العينين تحت الارض . الاّ اذا دنا موتهُ حيث لا نفع لهُ من النظر – امّا نحن فلنا عينان . الواحدة طبيعيّة وهي عين العقل النطقيّ . والاخرى فائقة الطبيعة وهي عين الايمان . وهاتان العينان ما اكثر الذين يحفظونهما مغلقتين حتّى الموت في غور الامور الزمنيّة الارضيّة . غير انّ الضمير يفتحهما اضطرارًا في ساعة الموت بتبكيتهما المريض على ملذّاتهِ السالفة وعلى الخطايا التي ارتكبها *

لا تظنّوا يا مباركين انَّ الخطاة الذين لا يخافون الآن من خطاياهم لا يفزعون منها في ساعة الموت . لانَّ الضمير يقدّمها الى ذهنهم كعسكر مرعب

يرجفهم ويريهم الديّان العظيم غضبان عليهم مستعدًّا للانتقام - انهُ بالصواب دعا النبيّ خطاياهُ اودية لا انهرًا بقولهِ : اودية الآثام عربستني . لانَّ الانهر تجري دائمًا لا في زمن الشتآء فقط . بل في زمن الصيف ايضًا . واماَّ الاودية فليس كذلك . لانّ مياهها لا تجري في الصيف . بل تكون ناشفة خالية من المآء . واماَّ في زمن الشتآء فبعكس ذلك . لانَّ مياهها تتفاقم احيانًا حتى انّها تحمل السفن - فهذه هي الاودية اودية الآثام التي تعربس الخطاة . لانّهم في زمن الصيف اي في زمن الصحّة والعافية لا يضطربون من قِبَل آثامهم . بل يقولون لا باس ان نخطئ . لاننّا سنعترف بذلك في عيد الفصح . وبعد الاعتراف بخطايانا لا يصيبنا ضرر منها مهما كانت متعدّدة - انظروا كيف اودية الآثام لا تقلق الخاطئ في الصيف والصحّة . الاّ انهُ سيمضي الصيف وياتي زمن الشتآء زمن المرض الاخير كما يقول القدّيس امبروسيوس . وحينئذٍ تتكاثر المياه وتعلو جدًّا حتى انّ اعظم الجبابرة لا يتجاسر على قطعها والاجتياز منها - وحينئذٍ يبتدئ الخاطئ ان يقول بقلبٍ مضطرب وبدن مرتجف : العلّ الله يغفر لي . هل اعترفتُ بكلّ هذه القبائح كما يجب . ماذا يصير منّي بعد زمانٍ يسير - لقد اخبرنا القدّيس فرنسيس خاوير رسولِ الهند . انَّ الخطاة الذين كان حضر موتهم لم يجد فيهم اكثر اياسًا من رحمة الله واكثر قلقًا من الذين كانوا طمعوا فيها باكثر الجسارة والحماقة . وقال : انَّ الاكثرين الآن لا يعتبرون الخطايا ولا يعلمون عظمتها ولا يبالون بها . واماَّ في المرض الاخير فتتغيّر الامور *

الاّ انَّ السيّد المسيح قد سبق وافتكر في خطرنا هذا - يقول العلمآء الطبيعيّون انَّ الزيت اذا سُكب في بحر هائج لهُ خاصّة ان يسكّن امواجهُ - ويسوغ لنا ان نقول ذلك عن زيت المشحة الاخيرة . فانهُ حقًّا يهدّئ عواصف النفس ويجعلها على حال السكون والسلام . لانّ كلّ اضطراب الانسان في ساعة الموت انّما يصدر من الخطيّة . وسرّ المشحة الاخيرة لهُ قوّة عجيبة لمحو الخطيّة . اذ

يبيدها على ثلاثة اوجه كما قال مار توما اللاهوتيّ. اي يزيل اوّلاً عيب السيئة. وثانيًا ينقّص العقاب المستوجب. وثالثًا يستاصل فضلات هذا النبات المسموم — قلتُ اوّلاً انَّ هذا السرّ يمحو عيب الخطيّة وذلك بشهادة يعقوب الرسول حيث قال ان كان المريض قد عمل خطيّة تُغفَر لهُ (يعقوب ٥ : ١٥). لانَّ هذا السرّ يفيض في النفس نعمة التقديس التي تميت الخطيّة ويمنح النفس بهآءً جديدًا ويصيّرها عروسًا لله — فلو اتّفق للمريض ان يكون في حال خطيّة مرّت في فكرهِ. لكانت تُمحى بسرّ المسحة الاخيرة اذا كان المريض نادمًا على وجه العموم ندامة غير كاملة. والحال انَّهُ قد يمكن ان تبقى في المريض مثل هذه الخطايا التي لا يعرفها لضعف القوّة الذاكرة المغشّاة بشدّة اوجاع بدنهِ واضطراب نفسهِ *

تذكّروا يا مباركين انَّهُ غير ممكن بتّةً ان يدخل في الملكوت شيء دنس. وقد يتّفق مرّات كثيرة انَّ المريض لشدّة مرضهِ لا يبصر ولا يسمع ولا يتكلّم. فلا يستطيع ان ياخذ سرًّا آخر من اسرار البيعة غير سرّ المسحة الاخيرة الذي يمحو الخطايا المميتة المتبقّية في النفس بل يمحو الخطايا العرضيّة ايضًا اذا كان المريض نادمًا عليها حالاً او قبلاً ندامة غير كاملة *

قلتُ ثانيًا انَّ هذا السرّ ينقّص العقاب المستوجب بالخطيّة. بل انَّهُ يترك العقاب كلّهُ اذا تناول المريض هذا السرّ بقلب مطابق الارادة الالهيّة *

قلتُ ثالثًا انَّهُ يستاصل كلّ فضلات الخطايا. لانَّهُ يقوّي ضعف النفس ولو انَّهُ لا يبيد بالكليّة الملكات الرديّة — فعلى هذا المقدار يهدّئ هذا السرّ هيجان النفس المضطربة *

تأمّلوا الآن ما يحدث للمريض من الاضطراب من قِبل تجارب الشيطان. وكم يفيدنا سرّ المسحة الاخيرة لمقاومتها في ساعة الموت — انَّهُ يجب حقًّا ان نفزع كثيرًا من هذا العدوّ الجهنّمي. وذلك اوّلاً لشدّة رجز غضبهِ. قال زعيم الفلاسفة. انَّ الغضب يزيد القوّة. ومن كان جزوعًا ضعيفًا يصيّرهُ الغضب

شجيعًا قويًا – والشيطان أخزاهُ الله لا يبرح ملتهبًا بالغضب علينا لكوننا مخلوقين على صورة الله الذي هو يبغضهُ كلّ البغض – الاّ انّ غضبهُ علينا يشتدّ اشتعالاً حينما يرانا قريبين من الموت . وقد اشار الى هذا صاحب الجليان بقولهِ : انَّ ابليس نزل اليكم ولهُ غضب عظيم لانّهُ يعلم انّ لهُ زمانًا قليلاً (رويا ١٢ : ١٢) . كأنّهُ يقول : تحرّسوا دائمًا من الاسد الجهنّميّ . الاّ انّهُ ينبغي ان تحسنوا الحذر منهُ حينما تقترب ساعة الموت . لانّهُ وقتئذٍ يشتدّ غضبهُ غاية ما يكون لعلمهِ بانّ الزمن الباقي لهُ لمحاربتكم هو قصير جدًّا – لاحظوا ما يفعلهُ الجابون مع تجّار المدينة . انّهُ ما دام التاجر في المدينة يمضي من هنا الى هنا طائفًا الشوارع كلّها فلا يتعرّضهُ احد منهم بشيء . ولكن اذا ما راوهُ مستعدًّا للخروج من المدينة حاملاً معهُ بضاعتهُ . فحينئذٍ يتقدّمون اليهِ يفتّشونهُ ويقلبون كلّ البضاعات التي معهُ راجين الربح – فانتم الآن يا مباركين نعم انّكم لا تختبرون شدّة حروب الشيطان المرهبة . لانّكم مجتازون بعد بحرّيّة مبهجة في شوارع هذا العالم . ولم تاتِ بعد ساعة خروجكم من ابوابهِ – لكن انتظروا الى ان ياتي هذا الزمان . وحينئذٍ يمثل امامكم الجابون الجهنّميّون مقلّبين كلّ بواطنكم مفتّشين باجتهاد خبيث على ما يكسبهم . وسيقولون بوقاحة مفزعة : لاحظ الخطيّة الفلانيّة التي ما اعترفت بها ابدًا . والفلانية التي ما ذكرت في الاعتراف كلّ احوالها الواجب بيانها . والفلانيّة التي اعترفت بها جيّدًا . ولكن لم تترك اسبابها القريبة – هاهوذا الشياطين يقلقون الذين يخرجون من هذه الدنيا مجرّدين من كلّ شيء عالميّ وهم القدّيسون . فماذا ترى يفعلون بالذين احبوا العالم حبًّا مفرطًا – قد سُئل الشيطان يومًا : هل تيأس من الانتصار على من كان متصفًا بأعظم القداسة . فاجاب ابليس وقال : كلاّ . بل اننا نحاربهُ الى آخر نفسهِ راجين هلاكهُ بواسطة الكبرياء – فانتجوا من ذلك قدرة الخبيث على الخطاة *

ثمّ انّ لوكيفر رئيس الشياطين لا ياتي وحدهُ لمحاربة المريض . بل تاتي

معهُ جنودهُ - لقد قيل انَّ اهل البلاد الشرقيّة هم افضل عددًا من بقيّة الشعوب. واهل البلاد الشماليّة افضل قوّةً. والامم المتوسّطة هي افضل دهآءً - فلو كان جيش متّصف بهذهِ الصفات الثلاث اي الكثرة والقوّة والدهاء اليس يكون جيشًا هائلاً - فهذه هي صورة الجيش الذي يحيط بفراش المريض في ساعة الموت *

لانّ الشيطان اوّلاً يجمع من جنودهِ جمًّا غفيرًا - حكى احد الافاضل في رسالتهِ الى القدّيس اوغسطينس انّ انسانًا من الناس قام من بين الاموات بشفاعة القدّيس هيرونمس وانّهُ لما اقتربت ساعة موتهِ حضر امامهُ من الشياطين ما لا يُحصَى عددًا. وكلّ منهم كان قد اتّخذ صورة مخيفة. وجميعهم كانوا يفرغون كلّ جهدهم وجدّهم في ان يزجّوهُ في الاياس وفي جهنّم - فما ظنّكم يا مباركين بهذا الجيش العظيم: انهُ لو كان جيش ذباب فقط لارتعب منهُ كلٌّ منّا. والحال انّهُ جيش من الشياطين الشرسين ينفثون الغضب *

وزيدوا على ذلك قوّتهم الجبّاريّة ودهاءهم الخبيث في الحرب - انَّ الرسول لمّا تأمّل في هذا الخطر هتف قائلاً لاهل افسس: تدرّعوا بسلاح الله الكامل لتستطيعوا مقاومة مكايد الشيطان (افسس ٦ : ١١) - وقال المجمع التريدنتيّ المقدّس. انهُ ليس زمان يجتهد فيهِ العدوّ في هلاكنا وقطع رجائنا من الرحمة الالهيّة مثلما حينما يرانا مشرفين على الموت - فان كان ذلك كذلك فماذا يكون حظّ الخطاة الذين يؤخّرون اعترافهم الى مرضهم الاخير ولا يردّون الحرام الذي في ذمّتهم ولا يصالحون اعداءهم ولا يتركون ما يورّطهم في الرذائل ولا يصلحون سيرتهم بل يبقون ذلك الى الساعة الاخيرة من حياتهم *

ولكن لنرجع الى ما كنّا في صددهِ - فاعلموا يا مباركين انَّ سيّدنا يسوع المسيح حضّر لنا نصرًا على هذا الجيش الجهنّميّ. وكما انّهُ في ابتدآء حياتنا يمنحنا نعمة في سرّ المعموديّة بها نبتدئ ان نعيش عيشة مسيحيّة. كذلك عند انتهاء

حياتنا يوتينا نعمة اخرى في سرّ المشحة الاخيرة لكي نموت ميتةً مسيحيّة - ولهذا يُدعى هذا السرّ سرّ الرجآء كما اعتبر مار توما اللاهوتيّ - فالقوّة الممنوحة لنا بهذا السرّ تتوقّف على هذا . وهو انّهُ تعالى يمنحنا بواسطة هذا السرّ نعماً والهامات تعيننا لبلوغ الغاية التي رُسم هذا السرّ لاجلها اي تجعلنا هذه النعمة ان نغلب اعدآءنا الذين لا يُنظَرون ونسلم من حيَلهم لعلمنا اليقين انّ القوّة المعطاة لنا بهذا السرّ هي اعظم من الجيش الجهنّمي - فلا تخافوا لا تخافوا لانّ الذين معنا اكثر من الذين علينا (٢ ملوك ٦ : ١٦) - ومن هم الذين سيكونون معنا : هم الارواح السماويّة مع سيّدهم . وقد شهدت الطوباويّة مريم اغنس انها رأت السيّد المسيح مع جمّ غفير من القدّيسين والقدّيسات حول فراش مريض حينما كان يتناول سرّ المشحة الاخيرة . وكانوا بحضورهم يبعدون الشياطين وبكلامهم الطيّب يحثّون المريض على الندامة - فكيف لا نرجو الانتصار . بل كيف لا نثني على السيّد المسيح ونشكرهُ شكرًا وافرًا على العون الذي بهِ ننتصر على قوّة الجحيم - فلنقُل اذًا مع الرسول : الشكر لله الذي يعطينا النصر بربنا يسوع المسيح (١ قورنثية ١٥ : ٥٧) - فيا لهُ من انتصار سعيد مجيد نرجو انّهُ من بعدهِ لا يزعجنا حرب . بل نفوز بسلامة لا نهاية لها *

فتصوّروا يا مباركين انكم على الفراش مضطجعين منتظرين الموت . وانّ القسيس يتقدّم ليناولكم سرّ المشحة الاخيرة - يجب عليكم ان تقبلوا الكاهن كما قبل السيّد المسيح الملاك المرسل اليهِ من ابيهِ ليعزّيهُ في نزع نفسهِ ويقوّيهُ - ولعمري انّ كاهن الله يتقدّم كالملاك ويبشّركم بالسلام قائلاً : السلام لهذا البيت . ليكون خروجكم من هذه الدنيا في حال السلام - وحينما يمسح اعينكم اطلبوا من الله ان يغفر لكم جميع الخطايا التي صدرت منكم بهذه الحاسّة . وفي حين مسح الآذان تذكّروا كم مرّة فتحتموها لمذاكرات عالميّة وسددتموها للالهامات الالهيّة واسألوا الغفران . وفي حين مسح الفم اذكروا ما فرط منكم من الذنوب بالاكل

والكلام . وعند مسح الايدي والارجل اذكروا كم مرّة سرتم في طريق الرذيلة ومددتم ايديكم لارتكاب السوء . وهكذا افعلوا في حين مسح الانف والحقوين *

روى القدّيس برنردس انّ القدّيس ملاخيا اسقف ايبرنيا اخّر تناول هذا السرّ على امرأة شريفة الاصل فماتت قبل ان تتناولهُ . فحزن القدّيس حزنًا بليغًا ولم يزل متألّمًا ذارفًا الدموع متضرّعًا لاجل المرأة المائتة الى ان اقامها الله من الموت لكي تتناول المشحة الاخيرة - فانظروا يا مباركين كم يجب علينا ان نرغب تناول هذا السرّ المقدّس *

الموعظة الحادية والسبعون

في سرّ الكهنوت المقدّس

انهُ لمن المحقّق انّ مُلك السيّد المسيح على الارض هو الكنيسة . اذ انهُ تعالى قد دعاها مملكتهُ في الانجيل المقدّس مرّات كثيرة - والحال انهُ ينبغي ان يوجد في المملكة ما عدا العامّة الذين تحت الطاعة اشراف وعظماء يسودون ويامرون . وذلك بدرجات مختلفة بعضها فوق بعض . لانهُ من هذا الاختلاف يصدر حسن النظام - فقد لاق ان يوجد هذا في مملكة البيعة التي اقامتها الحكمة الازليّة . الاله المتجسّد الذي يفعل كلّ شيء بكمال النظام . وذلك يكون بسرّ الكهنوت الذي بهِ يختار الله خدّامًا يوليّهم على العامّة بدرجات مختلفة بعضها اكثر سموًّا وبعضها اقلّ - فهؤلاء هم القناة التي بها يجري الله نعمهُ . وهم الامّهات المرضعات . والمعلّمون يعلمون الجهّال وهم الذين يبلّغون الى العامّة اسرار الملك السماويّ واوامرهُ *

انّي اخشى من التكلّم عن هذه الدرجة السامية . ولا اوجّه كلامي الى الذين قد ارتفعوا اليها . لانّي منهم يجب عليَّ ان التمس التعليم . بل الى الذين يقصدون

الارتقاء اليها – ولهم سنبين اليوم شيئين نافعين جدًا وهما سموّ الدرجة الكهنوتيّة وشرط الارتقاء اليها – انّهُ اذ كانت خدّام البيعة افضل من الملائكة بشرف وظيفتهم كما سنبيّن فيما بعد. ويجب عليهم ان يشبهوا الملائكة بطهارة سيرتهم جاز لنا ان نميّز فيهم ثلاث طغمات. الطغمة الاولى التي هي اخصّهنّ واقربهنّ الى الله. هي طغمة الكهنة الذين يقدّمون للآب الازليّ الذبيحة الالهيّة. والطغمة الثانية القريبة ايضًا من الله وغير المبتعدة من عامّة المومنين الشمامسة الكبار والشمامسة الصغار الذين يرافقون الكهنة في تقديس الاوخرستيّا ثمّ يشركون الشعب فيهِ. والطغمة الثالثة وهي اكثر قربًا الى عامّة المومنين من الطغمة الثانية وهي متضمّنة الاربع الدرجات الاكليريكيّة الصغرى. اعني اوّلًا الاكولتيّين اي الشمعدانيّين الذين تقتضي وظيفتهم ان يقدّموا مادّة التقديس الى خدّام الكاهن الاوّلين. ثانيًا البوّابين الذين تلزمهم وظيفتهم أن يبعدوا من الكنيسة غير المومنين. ثالثًا القارئين الذين يعلّمون اسرار ايماننا للّذين يجوز لهم ان يحضروها وهم الموعوظون. رابعًا المقسّمين على المجانين – فعن هذهِ الدرجات البيعيّة كلّها كان يمكن ان نورد لكم اشياء كثيرة مذهلة العقول. الاّ اننا نكتفي بما يخصّ الكهنوت حذرًا من الاطالة. فنوضح كيف انّ الجميع اعتبروا دائمًا الكهنوت في كلّ مكان وكم حقًا هو اهل لاكرامٍ جزيل *

فاعلموا يا مباركين انّ جميع الشعوب حتى الامم الراحلة اكرموا الكهنة دائمًا اكرامًا بليغًا. فكما انّهُ لا توجد بلدة مسكونة لا تضيء الشمس فيها. هكذا لا توجد ملّة لا يوجد فيها عبادة ما دينيّة خارجة لها خدّام معتبرون وذو وقار وجاه – فلنبتدئنّ من الامم الوثنيّة – ذكر بارونيوس المؤرّخ هذه الحقيقة واثبتها بدلائل كثيرة متّخذة من القرون القديمة. فانّهُ اوّلًا لم يكن جائزًا في القديم ان يكون الواحد ملكًا ان لم يكن كاهنًا ايضًا. بل انّهُ في بلاد الحبشة من كان كاهنًا ولو لم يكن ملكًا كان لهُ سلطان ان يعزل الملك. وحينما كان الكاهن

يقول لاحد من العامة انّ آلهتنا لا يريدون ان تعيش ايضًا على الارض كان ذاك ينحر اي يقتل نفسهُ بيدهِ. مفضلاً الطاعة للكاهن على اطالة حياتهِ - وكذلك في امة الجرمانيين لم يكن جائزًا للقاضي ان يحكم بالموت على احد قبل ان يرتضي بذلك الكاهن ويسجّل القضاء نيابةً عن الله - بل انّ الطف الامم كالرومانيين بجّلوا الكهنة وكرّموهم تكريمًا جزيلاً حتى انهُ كان لهم اي للكهنة سلطان مطلق على القناصل وهم القائمون بالحكم الاوّل بين الناس وكانوا يقدرون ان يغيّروا الشرائع - هذا هو الاكرام الذي كان الامم القديمة تؤدّيهِ لكهنتها مع انّهم لم يكونوا كهنة حقيقيّين. وانّما كانوا يكرّمونهم هكذا بميل غريزيّ يجعل الانسان ان يستعظم اللاهوت. وبالتالي ان يكرّم خدّامهُ - فانتجوا من ذلك بايّما اكرام ينبغي ان نكرم كهنة العليّ الحقيقيّين - قد كان مسنونًا في العهد القديم انّ الذي يخالف الكاهن بالكلام ويعصي امرهُ تحكم عليهِ الشريعة بالموت. لانّهُ هكذا سُطّر في تثنية الاشتراع: ايّما رجل تعظّم ولم يطع امر الحبر فليُقتَل ذاك الرجل وليسمع الشعب كلّهم ويخافوا (تثنية ١٧ : ١٢) - هذا ما كان الشعب الاسرائيليّ ملتزمًا بهِ مع انّ كهنوت ذلك العهد القديم لم يكن شيئًا سوى رمز الى كهنوت عهدنا وظلاًّ لهُ كما انّ ذبائحهُ لم تكن سوى اشارة الى ذبيحتنا *

فانظروا كم يجب ان يكرّم الكهنة المسيحيّون - انّ القدّيسين اذ عرفوا عظم شرف هذه الدرجة علّمونا بسيرتهم بأيّ اكرام يجب ان نكرم الكهنة. منهم انطونيوس المعظّم فانّ هذا القدّيس مع انّ الملوك كانوا يكرّمونهُ حتى انّهم كانوا يعدّون شرفًا عظيمًا لهم وصول رسالة منهُ اليهم. ومع انّهُ كانت تخضع لهُ كلّ وحوش الفيافي وتخافهُ كلّ ارواح الجحيم. وكان جميع رهبان مصر يحتسبونهُ اباهم وبقيّة الناس معلّمهم. فمع هذا كلّهِ كان كلّما صادف كاهنًا في الطريق يركع لهُ حالاً كما ذكر القدّيس اثناسيوس. ولم يقمْ من على الارض الى ان يقبّل يدهُ

ويأخذ منهُ البركة – والقدّيسة كاترينا السيانيّة. نعم انها لم تكن تقبّل يدَي الكاهن لظنّها انها غير مستاهلة لهذا الشرف. الّا انها كانت تقبّل الارض التي كان الكاهن يطأها بقدميهِ – والقدّيس فرنسيس الكبير ما عدا انهُ ابى الارتقاء الى درجة الكهنوت كان يقول: انهُ لو يصادف في الطريق ملكًا مع كاهن لسلّم على الكاهن قبل ان يسلّم على الملك – واخبر القدّيس فرنسيس سالس انّ رجلًا فاضلًا من شمامسة ابرشيّتهِ كان يظهر لهُ ملاكهُ الحارس مرّات كثيرة ويتقدّمهُ في الطريق. ولكن لمّا صار كاهنًا كان الملاك يسير من ورائهِ – فقد اصاب القدّيس غريغوريوس النازينزي حيث قال: انّ الملائكة انفسهم يحترمون الكهنوت – وليس بعجب انّ الملائكة يكرمون الكاهن بعد انّ ربّهم ربّ المجد كرّم هذه الدرجة: كذا قال مار توما اللاهوتيّ – تذكّروا ما فعل السيّد المسيح في العشآء السرّي ليعلّمنا جلال عظمة هذه الدرجة التي كان عتيدًا ان يرقّي رسلهُ اليها. ويدعونا بمثالهِ الى احترامها: انّهُ قام من المائدة وشدّ وسطهُ بمنديل وصبّ مآءً في مطهرة وغسل ارجلهم بيديهِ – فمن منّا لا يحترم هذه الدرجة التي اكرامًا لها اتّضع ابن الله نفسهُ بهذا المقدار*

اعتبروا الآن يا مباركين مع القدّيس توما اللاهوتي انّ الدرجة الكهنوتيّة في العهد الجديد ليست الّا شيئًا مستعارًا ممنوحًا الى زمن ما. وانّ الكاهن لا يصير كاهنًا بارادتهِ المجرّدة كما ان الملك لا يصير ملكًا بالانتخاب والتبرّع. بل انّهُ يصير كاهنًا بالتقديس الذي يصيّر الانسان مختصًّا لله. ويرسم فيهِ وسمًا روحيًّا بهِ تصير الدرجة الكهنوتيّة ابديّة – انّ من أُقيم ملكًا يقال عنهُ غالبًا انّهُ يستمرّ على هذه الرتبة السامية كلّ ايّام حياتهِ مع انّ كثيرين من الملوك سقطوا عن كراسيّهم وحصلوا في الذلّ ودانوا لمن كان سابقًا تحت امرهم. وامّا الدرجة الكهنوتيّة فانها ليست هي كذلك. لانهُ لا يوجد على الارض ولا في السمآء قوّة مخلوقة تستطيع ان تعزل كاهنًا عن كهنوتهِ وتصيّرهُ غير كاهن –

فلو قام من بين الاموات انسان متزوّج قبل موتهِ لما كان حينئذٍ متزوّجًا بل كان معتقًا من قيد الزيجة. وان انبعث صاحب البيت لم يكن لهُ على بيتهِ حقّ ولا سلطان البتّة. وان قام من الموت امير كان مسلّطًا قبلاً على مدينة لم يكن لهُ وقتئذٍ سلطان عليها. لانّ هذه القيود والحقوق تنحلّ كلّها بالموت — وامّا الكاهن فلو يقوم من الموت لكان هو كاهنًا كما كان سابقًا حاملاً سمة درجتهِ المرسومة في نفسهِ رسمًا غير قابل المحي — هكذا كلّ سلطة الملوك على الناس في زمن حياتهم فانّها هي خارجة. ومن ثمّ قد يمكن ان يعدموها. وامّا سلطان الكاهن فمن المحال ان يُسلب منهُ اصلاً لكونهِ شيء باطن متعلّق بجوهر النفس *

لكن هلمّ نتعمّق في تامّل عظمة هذه الدرجة. فاعتبروا معي يا مباركين. انّ الكهنة لهم سلطانان الاهيّان. فلهم سلطان اوّلًا على جسد السيّد المسيح السرّيّ. اعني بهِ الكنيسة المقدّسة. ولهم سلطان ايضًا على جسدهِ الطبيعيّ اعني بهِ سرّ القربان المقدّس — امّا السلطان الاوّل فقد قال عنهُ ابن الله لمّا ذكر لرسلهِ سلطان الكهنة: الحقّ اقول لكم ما ربطتموهُ على الارض يكون مربوطًا في السماء. وما حللتموهُ على الارض يكون محلولاً في السماء (متى ١٨ : ١٨). وبهذه الكلمات بيّن السيّد المسيح السلطان السامي الذي بهِ يقدر كلّ كاهن ان يغفر الخطايا ويمسكها. وان يفرض عنها قانونًا او عقابًا وان يرفعهُ — لاحظوا باعين النفس والايمان هذا السلطان العجيب. انّهُ لو يوجد هنا انسان متّصف باقتدار عظيم. حتّى انّهُ اذا صادف اسرى جرحى مغلولين بالقيود يقدر بقولهِ لهم انّي اطلقكم احرارًا اصحّاء ان يقطع اغلالهم ويشفيهم. هل كان يمكنكم ان تجدوا على الارض مثل هذا السلطان — اما كنتم تقولون عن هذا الشخص انّهُ هو افضل من انسان — والحال انّ الكاهن عند قولهِ: انا احلّك يصنع في النفس عجائب اعظم جدًّا جدًّا من العجائب المتقدّم ذكرها. بل اعظم من كلّ ما فعلهُ جميع القدّيسين من المعجزات. لانّهُ شتّان ما بين جروح الجسد وجروح النفس. وما

بين قيود الاسير وقيود الخاطئ - حقًّا انهُ لا يوجد على الارض سلطان يشبه سلطان الكهنة *

تصوّروا ايضًا انسانًا حدثًا صادفتهُ اعداؤهُ في الغاب فجرحوهُ فسقط على الارض واخذ يتفرّس من كلّ ناحية ملتمسًا من يعينهُ فلا يجد احدًا . ويصرخ ولا يسمعهُ احد ويجتهد في النهوض فيعجز عن ذلك . وها انَّ دمهُ يجري لا نقطة نقطةً : بل كالساقية . وحينئذٍ يذكر سيرتهُ السالفة الرديّة . ويرى العدل الالهيّ مغضبًا عليهِ ومستعدًّا للانتقام منهُ ويشعر باطنًا بتوبيخ ضميرهِ . وقد فتح الجحيم فاهُ ليبتعلهُ . فيحار في امرهِ - فلو رأى هذا الانسان كلّ ملوك الارض مسرعين الى معونتهِ . بل لو تحدر من السماء كلّ الملائكة وجميع القدّيسين بل ملكة السماء نفسها . نعم انهم كانوا يقدرون ان يشفعوا عنهُ لدى الله لكي يكون محلولًا من خطاياهُ الّا انهم لم يكونوا يستطيعون ان يحلّوها . واذا بكاهن مجتاز من هناك يسمع صراخهُ فيحيد عن طريقهِ ويذهب الى مساعدتهِ . وعند نظرهِ الشابّ مشرفًا على الموت يحرّكهُ الى الندامة والاتكال على الله ثم يرفع يدهُ عليهِ قائلًا : انا احلّك من جميع خطاياك . وفي الحين تتساقط كلّ اغلالهِ وقيودهِ . والعدل الالهيّ يردّ سيفهُ الى غمدهِ . ويهرب الشياطين خجلين وتُغلَق ابواب جهنّم - هذا هو السلطان المعطى للكاهن المسيحيّ على جسدهِ السرّي اي على جماعة المومنين *

غير انَّ السيّد المسيح قد اعطاهُ سلطانًا آخر اعظم من ذلك وهو السلطان على جسدهِ الحقيقيّ الطبيعيّ . وبهِ يقدر الكاهن ان يقدّسهُ ويتناولهُ ويوزّعهُ ويقدّمهُ للآب الازلي لاجل خلاصنا - فهذا اللسان يقف صامتًا . والعقل مبهوتًا متحيّرًا عاجزًا عن فهم هذه العجائب وبيانها - انهُ قد اندهلت الطبيعة حينما اطاعت الشمس امر يشوع بن نون ووقفت في مسيرها غير متحرّكة مدّة ثلاث ساعات متّصلة . الّا انَّ الطبيعة كانت تزداد عجبًا لو رات الشمس منحدرة من السماء بأمر قائد جيش اسرائيل - غير انَّ هذه المعجزات

كلّها هي كلا شيء بالنسبة الى ما يفعلهُ الكاهن على المذبح . حيث يحدر الله نفسهُ من سماء السموات . مجدّدًا لا آية يشوع بن نون بل اعجوبة ذلك المستودع البتوليّ الذي استقرّ فيهِ ابن الله – قال القدّيس غريغوريوس الكبير : يا لعظمة شرف رتبة الكهنة الذين بين ايديهم كما في مستودع العذراء يتجسّد ابن الله – لقد جعل الرسول ملكيصاداق مثالاً لابن الله لانهُ قدّم للعليّ خبزًا وخمرًا اللذين لم يكونا سوى رمز الى ذبيحتنا الالهيّة . فماذا نقول اذًا عن الكاهن الذي يقدّم لا الرمز والصورة فقط . بل الحقيقة عينها اعني جسد ابن الله نفسهُ . أليس هو شبيهًا بابن الله اكثر من ملكيصاداق – انّ الكاهن لا يتكلّم نيابةً عن السيّد المسيح بقولهِ في القدّاس الالهيّ انّهُ هو جسدهُ ودمهُ . مع انّهُ هو حقًّا جسد مخلّصنا ودمهُ . بل كانّهُ يتصرّف مع السيّد المسيح لا كمن هو شبيه لهُ تعالى . بل كمن لهُ سلطان عليهِ – قال الرسول من يبارك آخر فلا شك ولا ريب انّهُ هو افضل ممن ياخذ البركة (عبرانيين ٧ : ٧) . فمن يقرأ هذه الآية الرسوليّة كيف لا يرتجف فرقًا مقدَّسًا عند نظرهِ الكاهن بعد تقديس السرّ يبارك جسد مخلّصنا الذي على المذبح . راسمًا عليهِ كانّهُ تعالى تحت سلطانهِ ورياستهِ – فيسوغ لنا ان نصرخ مع القدّيس اوغسطينس هاتفين : لتتحيّر السماء من اعجوبة هذا السلطان المعطى للكاهن . ولترتجف منها قوّات الجحيم ولتسجد لهُ الارواح السماويّة بغاية التعجّب *

ارايتم يا مباركين عظمة شرف الدرجة الكهنوتيّة . وكم يجب علينا ان نكرمها : قال القدّيس ديونوسيوس قاضي العلماء : من قال عن احد انّهُ كاهن فانّهُ يقول انهُ انسان جزيل السموّ . بل انسان الهيّ – فاذا اتّفق انّ الكاهن لا يسلك بحسب قداسة درجتهِ . فلا يجوز مع هذا ان نشهر عيوبهُ ونلومهُ جهارًا . لانّهُ اذا هُدمت احدى البيَع فلا تزال ارضًا مقدَّسة اهلاً للاكرام والتوقير – وكفى بذلك لبيان الجزء الاوّل من موعظتنا – فلناتينّ الى الجزء الثاني . وننظر

ما هو الطريق الذي ينبغي ان يسلك فيهِ من يقصد الارتقاء الى هذه الدرجة الآلهيّة - فنقول بالاختصار انهُ يلزمهُ ان يفعل شيئين. أوّلهما ان لا يتقدّم الى اخذها الاّ ان يدعوهُ الله جليًّا اكيدًا. وثانيهما ان يختبر قوّتهُ قبل ان يحمل هذا الحمل الثقيل - قال القدّيس بولس الرسول: ليس احد ياخذ من نفسهِ الكرامة. الاّ من يدعوهُ الله كما دعا هارون (عبرانيّين ٥ : ٤). فلا تظنّوا يا مباركين انَّ كلّ الذين يقصدون الدرجة الكهنوتيّة هم مدعوّون من الله الى ذلك. بل انهُ تعالى يدعو بعضًا ويطرد بعضًا - يقول القدّيس اوغسطينس: انظروا ما فعل السيّد المسيح بالشابّ الذي طلب تلمذتهُ قائلاً: انّي اتبعك الى حيث تمضي: انهُ تعالى لم يقبلهُ. بل اجابهُ قائلاً: انَّ للثعالب اوجرة ولطير السماء اوكارًا. وامّا ابن الانسان فليس لهُ موضع يسند اليهِ راسهُ (لوقا ٩ : ٥٧) - وبعد ذلك بزمن يسير قال لآخر اتبعني. الاّ انَّ هذا الشابّ طلب مهلة بقولهِ: ايذن لي ان اذهب اوّلاً وادفن ابي. فلم يرتضِ السيّد بهذا التاخير ولو انهُ كان يبين لائقًا وواجبًا بل قال لهُ دع الموتى يدفنوا موتاهم وامضِ انت وبشّر بملكوت الله - ثمّ يستتلي القدّيس اوغسطينس ويقول: لماذا هذا الاختلاف. الاّ لانَّ الشابّ الثاني كان مدعوًّا من الله بدعوة حقيقيّة. والشابّ الاوّل لم يكن يدعوهُ الله. بل كان الكبرياء وحبّ المال يحرّكانهِ عند نظره مجد تلاميذ المسيح الذي كان يصنع الآيات والعجائب والصدقات التي كانت تاتيهِ من الاتقياء - فمثل هذا يصنع الآن ابن الله. فانهُ حقًّا يدعو بعضًا من الذين يتقدّمون لاخذ رسامة الكهنوت ويرفض بعضًا *

وان قلتم مستفهمين ماذا نصنع وكيف يمكننا ان نعرف هل نحن مدعوّون من الله الى الكهنوت وكيف نميّز الدعوة الآلهيّة من الوسوسة الشيطانيّة. فنجيب انَّ القانون الاوّل هو ان ننظر ما هو الذي يحرّكنا الى هذه الدرجة السامية وان نتأمّل في مقتضياتها ونعتبر انَّ من يكون كاهنًا. فانهُ هو انسان مفرز من

العالم مبتعد من كلّ سوء خالٍ من كلّ هوى وكأنّهُ عائش بلا جسد . وانّ الكاهن هو وسيط بين الله والناس . اي انسان متوسّط على نوعٍ ما بين الله والناس . اقلّ عظمةً من الله . لكن افضل قدرًا من الناس – فالآن انا اسألكم هل يتقدّم الواحد منكم الى الكهنوت بهذه النيّة . اما يتحرّك الى ذلك بغرض العظمة والعجرفة ورغبة الجاه واكرام الناس وطيب العيش والرفاهية او بروح الطمع والتماس ارباح عالميّة وقيام البيت المائل الى الهدم والخراب – الويل لمن يستخدم هكذا الاشياءَ السماويّة لتحصيل خيرات ارضيّة – فان كانت هذه الغاية غايتكم يا ايّها الذين يقصدون منزلة القسوسيّة الشريفة فاعلموا انّ الله لا يدعوكم الى درجة الكهنوت بل يطردكم – فاذًا القانون الاوّل الذي تُعرَف بهِ دعوة الانسان أبشريّة ام الهيّة هو تمييز صوت من يدعوهُ – والقانون الثاني المثبّت القانون الاوّل . هو الصلوة – الويل للسفينة التي مدبّرها لا يهتدي بنجوم السماءِ في سفرهِ – قال الله على لسان اشعياءَ النبيّ : الويل للّذين لم يسالوا فيَّ (اشعيا ٣٠ : ٢) – انّهُ في تدبير الامور العالميّة يقتضي الحزم منّا ان نستعين بالله . ولهذا قال الحكيم : لا تعتمد على فطنتك في جميع طرائقك تفكّر فيهِ وهو يقوّم خطواتك (امثال ٣ : ٥) . فكم بالاكثر ينبغي لنا ان نستعين الله في ما يخصّ الاشياءَ الالهيّة وخلاص النفس . لانّهُ من جهة هذه الامور ليست الفطنة البشريّة كافية – فاذًا من كان الناس يدعونهُ الى درجات الاقليرس فليرفع عينيهِ الى السماءِ ويطلب نورًا ويسأل الله ان لا يتركهُ يزلّ في هذا الامر الخطير المتعلّق بهِ خلاص نفسهِ او هلاكها . وليقُل في مناجاتهِ الله مع يوشافاط : لا نعلم ماذا نفعل . ولكنّ لنا خصلة واحدة وهي ان نرفع طَرْفنا اليك (٢ ايام ٢٠ : ١٢) – هذه هي الوسائط التي بها يمكن ان ينتهي امركم بخير . وهذه هي الطرائق التي بها ينبغي ان تصلوا الى الرتبة الكهنوتيّة – ومن يدخل من باب دعوة بشريّة عالميّة باب الطمع والسيمونيّة والمكر فليسمع هذا الخبر الذي نحن موردوهُ : لقد ذُكر انّ احد الملوك

المسيحيين كان في زمان صباهُ قد اهدى لهُ احد فتيانهِ آلة لعب من فضة على شكل قصبة. فوعدهُ بانهُ اذا صار ملكًا يصيرهُ اسقفًا. فاتفق بعد ذلك انهُ جلس على عرش المملكة وانجز وعدهُ ورفع ذلك الرجل الى الدرجة الاسقفية - غير انهُ بعد ذلك بزمن يسير مرض الملك مرضًا ثقيلاً وبقي ثلاثة ايام في حال نزع النفس ثم افاق وقام متعافيًا واعترف انهُ في مدة تلك الثلاثة الايام لم يزل الشياطين ينفخون على جسدهِ بالقصبة المذكورة نارًا آكلة. وانهُ ظهر بعد ذلك شابٌ ذو هيبة وصبَّ على النار كاسًا مملوءة ماءً فأطفأ النار بالكلية. وكان هذا الشابُّ الذي ظهر لهُ القديس لورنسيوس الذي كان الملك وقف لكنيستهِ كاسًا من ذهب - ثم انَّ الملك استدعى الاساقفة واخبرهم بما كان. فعزلوا ذاك من الاسقفية - قال القديس ديونوسيوس: انَّ الكنائس بُنيت لاجل المذابح. والمذابح لاجل الكهنة. والكهنة أُقيمت لاجل الذبائح. والذبائح لاجل الله. فالويل ثمَّ الويل للذين يستخدمون الكنائس والمذابح والذبائح والله نفسهُ لقيام اهل بيوتهم وللارباح العالمية *

واما الدرجة الثالثة التي يجب على المومن ان يصعد بها الى رتبة الكهنوت. فهي اختبارهُ ذاتهُ وتمرين نفسهِ على الرياضات الروحية اللائقة بهذه الدرجة المقدسة قبل ان يلزم ذاتهُ بها - ذكر القديس غريغوريوس النازينزي انَّ القديس باسيليوس الكبير كان كاهنًا قبل ان يرتسم كاهنًا. فيا ليتنا نقدر ان نقول مثل هذا عن كهنة عصرنا. انَّ الامر بخلاف ذلك. ولنا ان نرثي مع القديس هيرونمس قائلين: آهًا كيف الذي كان مسيحيًا رديًا صار حبرًا في البيعة. ومن كان في مجالس اللهو والطرب متقدمًا اضحى في الكنيسة زعيمًا *

فلنختم الخطاب بما قالهُ القديس غريغوريوس الكبير: من كان بالفضائل متصفًا فليتقدم الى منزلة الكهنوت منتصبًا. ومن كان من الفضائل خاويًا. فلا يقبل هذه الرتبة ولو اضطرتهُ الناس - خبرونا عن الفاضل مرقس السائح

انهُ قطع ابهامهُ لئلاَّ يُرسَم كاهنًا . وذُكر ايضًا في كتاب الباتريكون عن قدّيس آخر من روساء النسّاك انّهُ بعد ما رُسم كاهنًا اضطرارًا لم يجسر على مباشرة هذه الدرجة المرهوبة بتقديس الاسرار . وقد سُطّر في كتاب قوانين الكنيسة انّ من لا يكون قد رُسم اضطرارًا فلا يستحقّ الكهنوت - فالذي قد اختبر ضعفهُ بسقطاتهِ العديدة فليحذر من اخذ هذه الدرجة ولو اضطرّتهُ الناس الى ذلك - قال القدّيس توما اللاهوتيّ : انّ خطيّة الرجل الاقليرسيّ هي اعظم من خطيّة الراهب الذي ليس لهُ درجة من درجات الكهنة - فمن هو عتيد ان يرتسم كاهنًا فليمعن النظر جيّدًا وليعلم ويتيقّن انّهُ يلزم نفسهُ بسيرة افضل قداسةً من السيرة التي يلتزم بها الراهب - فمن قصد ان يبني هذا البرج السامي فليجلس ويحسب نفقتهُ الواجبة هل لهُ ما يحتاج اليهِ هذا البناء (لوقا ١٤ : ٢٨) . اي من قد قصد ان ياخذ درجة الكهنوت فليستعدّ لاخذها استعدادًا حسنًا . ليجلس منفردًا مبتعدًا عن الامور العالميّة . وليتعوّد رياضات روحيّة ويطهّر ضميرهُ باعتراف عامّ - وهكذا يرجو انّهُ يفرّح السماء ويعزّي الكنيسة ويخلّص نفسهُ ونفوس آخرين كثيرين آمين *

الموعظة الثانية والسبعون

في سرّ الزيجة

لمّا اراد الله ان يكون الانسان شرع اوّلاً يجبل تمثالاً من الارض . ثمّ نفخ في وجههِ نفخة الهيّة وبها جعل لهُ نفسًا (تكوين ٢ : ٧) - فمثل هذا عمل تعالى في امرِ الزيجة . لانهُ رسمها اوّلاً منذ البدء حسب شهادة الانجيل المقدّس : الذي ازوجهُ الله لا يفرقهُ الانسان (متى ١٩ : ٦) - الاّ انّهُ تعالى لم يصنع حينئذٍ غير تمثال من طين اذ ترك الزيجة في حالها الطبيعيّة - فلمّا انحدر ابن الله

متجسّدًا احيا هذا التمثال بنفختهِ الالهيّة. اذ رفع الزيجة الى درجة سرّ من أسرار البيعة – وبالنتيجة فبين زواج الاقدمين وزواج المسيحيّين يوجد الفرق الموجود بين آدم حينما كان تمثالاً محضًا مجبولاً من طين. وبين آدم حينما اصبح انسانًا حيًّا – فبالصواب امر الرسول المومنين ان يكرموا الزيجة بقولهِ: ليكن التزوّج كريمًا في الجميع (عبرانيين ١٣ : ٤) – فيجب عليَّ اذًا ان ابيّن لكم كيف يمكنكم ان تصيّروا الزواج كريمًا لكي تسموا في مقصود السيّد المسيح الذي شرّفهُ شرفًا عظيمًا حينما رفعهُ الى درجة سرّ الهيّ. فاحسنوا النصت. وتعلّموا اليوم ما لا يعلمهُ الاّ القليلون من المسيحيّين انفسهم *

انَّ الزواج المسيحيّ يستحقّ الاكرام في كلّ ما ينتسب اليهِ. اعني في كلّ ما يتقدّمهُ ويرافقهُ ويتبعهُ – فيستحقّ الاكرام في ما يجب ان يتقدّمهُ. اعني بذلك نيّة مقدّسة ووسائط حميدة – فاذا سالنا ذلك الشابّ عن قصدهِ ونيّتهِ في زواجهِ. فانّهُ يجيب اذا نطق بالحقّ انَّ قصدهُ قيام شانهِ والنجاة من الخضوع لوالديهِ وان يسود بيتًا. فهل تليق هذه النيّة بقداسة سرّ الزيجة. كلاّ: وحاشاكم يا مباركين ان تكون نيّتكم هذه النيّة الذميمة. بل ليكن قصدكم هذا وهو ان تختاروا دعوة بها تستطيعون ان تجدوا الخلاص بالسهولة. لانّ دعوة الزيجة تسهّل الخلاص لكثيرين – بل انَّ القدّيس اوغسطينس يريد من المسيحيّين ان لا يكتفوا بهذه النيّة. بل يريد منهم ان يلاحظوا في زواجهم لا خيرهم الخاصّ فقط. بل الخير العموميّ ايضًا – لانَّ الزواج هو خير عموميّ للجنس البشريّ. وهو خير للكنيسة على الخصوص. لانّها بالزواج تجد واسطة لترسل في كلّ وقت الى ملكوت السماء اناسًا يمجّدون الله ويجلسون على كراسيّ المجد الابدي – ومن ثمّ يجب على كلّ مسيحيّ ان ينوي هذا في زيجتهِ. وهو ان يربح للسيّد المسيح وللكنيسة عبيدًا وبنين يخدمون الله ويعبدونهُ على الارض ويمجّدونهُ ويحبّونهُ ويحظون بهِ في ملكوت السماء الى ابد الدهور *

فهل هذه النيّة هي نيّة الاكثرين في زيجتهم . يا ما اكثر الذين لا يقصدون في زواجهم الاّ اللذّة الحسّيّة . وهكذا يتنازلون الى حال البهائم - اين نجد من يقدر ان يقول مع طوبيا البارّ : انت تعلم يا ربّ انّي ما أخذتُ اختي هذه زوجة لسبب لذّة شهوانية . بل رغبةً في الاولاد الذين بهم يُبارَك اسمك الى دهر الداهرين (طوبيا ٨ : ٩) *

انّ الذين يسيئون في غاية الزيجة يسيئون بالاكثر في اختيار الوسائط - انّنا اذا سالنا تلك الفتاة : ما هي الوسائط التي تستعملينها للوصول الى الزواج . فربّما تستحي من الجواب لسبب انّ الوسائط التي تستعملها هي مخالفة قداسة سرّ الزيجة - كم من المسيحيّين اذ يرغبون الزواج لا يستعملون واسطة لبلوغ اربهم سوى ما يضادد الاحتشام والادب . فذلك الشابّ مثلاً وتلك الشابّة يريدان ان يبصرا ويُبصَرا . فيخرجان من البيت بزيّ من شانهِ ان يجتذب نظر الناس . وبهيئة من الحركات قصدهما بها ان يلهبا في القلوب لهيب الدنس - اهكذا المومن يستعدّ لسرّ الزيجة المقدّسة . هل يمكن ان يحصل بهذه الوسائط على زواج سعيد مبارك - الويل ثمّ الويل للذي في امر تأهّلهِ لا يستشير سوى الشهوة الجسديّة اذ انّها تفعل بالانسان ما يفعلهُ السكر - انّ السكران يرى الشيء الواحد كانّهُ اشياءَ كثيرة . ولا يقدر ان يميّز الاشياءَ البعيدة . الاّ انّهُ اذا هدأ ثوران سكرهِ واضمحلّت الخرتهُ المظلمة . يستفيق حينئذٍ على ضلالهِ - فهذا عينهُ يحدث بمن اعتراهُ سكر الشهوة والمحبّة اللحميّة . فانّهُ اذا رأى الشخص الذي هو يعشقهُ يظنّ فيهِ انّهُ متّصف بصفات كثيرة شهيّة . الاّ انّهُ بعد الاقتران تزول الخرة سكرهِ فيطّلع على ضلالهِ اذ لا يبقى لهُ دواءَ او علاج . ويرى في محبوبهِ شوائب مختلفة لم يستفق عليها قبلاً - فطوبى للّذين لا يتّصلون الى الزواج بهذه الطريقة الطينيّة . بل يستعدّون لهُ بالاحتشام والاختلاءَ والفضيلة - كم من الفتيات حِدنَ عن هذا الطريق . وخسرنَ في هذه الحيوة راحتهنَّ وصيتهنَّ . وانفسهنَّ ايضاً

في الحيوة الاخرى - انّي أسأل القوم الذين يطلبون التزوّج بأعين مملوّة زنا. اخبروني ما قصدكم ومرغوبكم. ألستم تبتغون امرأة صالحة. لا ريب انّ هذا هو قصدكم. فلماذا تفعلون ما يصيّرها شرّيرة. كيف بعدما افسدتم قلبها وربما جسدها ترجون انّها تحفظ لكم الامانة - وبعدما ولجتم الكرمة بهدم السياج. كيف لا تخافون ان يدخل عليها آخر بعدكم *

وما عدا هذه كلّها اعتبروا ايضًا انّ من يستعدّ هكذا للتزوّج يخسر النعم المتعلّقة بسرّ الزيجة. لانّ السيّد المسيح قد رسم هذا السرّ ليعطي المتزوّجين نعمةً بها يعيشون مع نسائهم بمحبّة مسيحيّة ويولّدون ذرّيّة مباركة يربّونها تربية مقدّسة - فهذه النعمة يخسرها كل من لا يستعدّ للسرّ كما يجب - فان اردتم يا مباركين ان تكون زيجتكم مكرّمة سعيدة فاستعملوا هذه الوسائط الموصّلة الى ذلك. وهي الصلوة والفضيلة - قال روح القدس: البيت والثروة ميراث من الآباء. وامّا المرأة العاقلة فمن قِبَل الربّ (امثال ١٩: ١٤). وفي النسخة اليونانيّة يقرأ هكذا. وامّا الربّ فانّهُ يعطي الانسان امرأة مناسبة لهُ. لانّهُ لا يكفي ان تكون المرأة عاقلة. بل يجب ان تكون مناسبة للرجل ايضًا - والحال انّ الله وحدهُ يقدر ان يعطيك امرأة فاضلة مناسبة لك. كما انّهُ تعالى وحدهُ يعلم المرأة التي تناسبك - وعن مثل هذه المرأة قيل ايضًا في الكتاب المقدّس. انّها نصيب صالح (سيراخ ٢٦: ٣) - لانّهُ ان كان يفيد جدًّا من لهُ رفيق ان يكون هذا الرفيق رجلًا صالحًا. فكيف من لهُ امراة رفيقة. لانّها عتيدة ان تكون لهُ رفيقة الى حين موتهِ - كم من النسآء الصالحات صيّرن رجالهنّ صالحين. وبعكس ذلك كم من النسآء السيّئات صيّرن رجالهنّ اشرارًا - امّا وجود الرجل امراة صالحة مناسبة لهُ فذلك امر عسير جدًّا. ومن ثمَّ يجب على الرجل ان يلتجئ الى الله والى القدّيسين. ويفعل افعالًا صالحة كالصدقة. لانَّ الحكيم بعد قولهِ انَّ المرأة الصالحة نصيب صالح يستتلي بقولهِ: تُعطى في حصّة

خائفي الله للرجل مكافأةً لاعمالهِ الصالحة - فاعملوا اذًا الاعمال الصالحة بتكاثر. وهكذا تدعون يسوع ومريم الى عرسكم. وبحضورها يصير عرسكم مباركًا (يوحنا ٢ : ١)*

واعلموا يا مباركين انّهُ حينما يتكلّم الكتاب المقدَّس عن زواج الاولاد. فانّهُ يسلّم هذا الامر والاهتمام بهِ للوالدين لا للاولاد. لانّهُ قيل في سفر ابن سيراخ: زوّج ابنتك. وزوّجها من رجل عاقل (سيراخ ٧ : ١٧). وقال الرسول: الذي يدفع عذراءَهُ الى التزويج حَسَنًا يصنع (١ قور ٧ : ٣٧). ومن ذلك ينتج انّهُ ولو كانت الاولاد أحرارًا في هذا الامر. وفي اختيارهم ان ياخذوا النير الذي يريدونهُ. ولا يجوز لاحد ان يضطرّهم في ذلك. الّا انّ الطريقة الواجب سلوكها غالبًا للوصول الى زيجة مباركة هي اتّفاق الاولاد مع والديهم في هذا الامر وعدم المخالفة لرايهم الّا اذا كان الاتّفاق معهم خلاف ما يجب على المسيحيّ*

لقد رايتم كم يجب على المسيحي ان يجعل زواجهُ مكرَّمًا في ما يتقدّمهُ. فانظروا الآن كم يجب ان يكون مكرّمًا في ما يرافقهُ - انّهُ يكفي ان تعتبروا هنا انّكم حينما تتقدّمون الى الكاهن لاجل الزيجة. انّما تتقدّمون لتناول سرّ مرسوم من السيّد المسيح. فينبغي ان تكونوا في حال النعمة. سالمين من كلّ خطيّة مميتة - فاذا وجدتم انفسكم حاصلة على خطيّة واحدة مميتة. فاغتسلوا اوّلًا وتطهّروا بالاعتراف قبل اخذ اكليل العرس لئلّا ترتكبوا خطيّة النفاق. لانّهُ حين عقد الزيجة ليس هو الكاهن الذي يعقد هذا العقد ولا الكنيسة عينها. بل انّما هو الله نفسهُ حسب قول آدم لله: المرأة التي اعطيتنيها (تكوين ٣ : ١٢) - فلو كانت الكنيسة هي التي اعطتك الزوجة. لكان في سلطانها ان تاخذها منك. الّا انّ الله وحدهُ هو الذي لهُ هذا السلطان. وهذا دليل على انّهُ تعالى وحدهُ هو الذي يعطي الرجل الزوجة. فمن اجل ذلك قال السيّد المسيح الذي ازوجهُ الله لا يفرقهُ الانسان - فالله اذًا هو وسيط زيجتكم وهو الذي يشدّ قيود زيجتكم. وكما انّهُ حضر عرس قانا الجليل حضورًا ظاهرًا محسوسًا هكذا

يحضر عرسكم حضورًا سرّيًا غير منظور - وهذا الاعتبار من شانهِ ان يوقظ فيكم روح الورع *

فتقدّموا الى اكليل الزيجة باحتشام وتهيّب . واذا صيّرتم سرّ الزيجة مكرّمًا في ما يتقدّمهُ وفي ما يرافقهُ اجعلوهُ ايضًا مكرّمًا في ما يتبعهُ . وفي هذا الصدد ناتيكم بنصيحتين . احداهما للقدّيس بطرس هامة الرسل والاخرى للقدّيس بولس - فقال هامة الرسل : ايها الرجال اسكنوا انتم مع نسائكم بالعقل من حيث انهنّ الاناء الضعيف . واكرموهنّ من حيث انهنّ يرثن معكم نعمة الحيوة (١ بطرس ٣ : ٧) لا شكّ في انّ الرجل هو رأس المرأة . ولهذا يخصّهُ ان يدبّرها . الاّ انهُ لا شكّ ايضًا في انّ المرأة ليست هي امة للرجل او اسيرتهُ . فلا يجوز للرجل ان يترأس عليها بالكبرياء . بل يجب عليهِ ان يدبّرها بروح الانس والرحمة . حسبما قال القدّيس اوغسطينس . وقد اعتبر المعلّم توما اللاهوتيّ . انّ الله انّما جبل المرأة الاولى من ضلع آدم مشيرًا بذلك الى انها رفيقتهُ . ولو انها اقل شرفًا . فلو كان مرادهُ تعالى ان يجعلها أَمَةً للرجل لجبلها من عظم متّخذ من منكبَي آدم - الاّ انّي لستُ اعني بذلك انهُ يحسن ان تترأس المرأة في البيت . حاشاي . بل انّي اتأسّف على سوء حظّ البيت الذي فيهِ المرأة تتسلّط على رجلها والذي فيهِ يرتفع المغزل فوق السيف : انّ هذا هو هدم النظام الطبيعيّ المرسوم من الله الذي اخضع المرأة لطاعة الرجل . لكونهِ اكثر كمالاً منها من جهة الحسّ والعقل . بل انّ القدّيس اغناطيوس الشهيد يريد من النساء ان يكرمنَ رجالهنّ اكرامًا جزيلاً حتى انهنّ لا يجسرن ان يسمّينهم باسمائهم كما ذكر القدّيس بطرس عن سارة انها كانت تدعو زوجها ابرهيم سيّدها - وهذا الاكرام الواجب ما اكثر ما هم بعيدون عنهُ هؤلاء المتزوّجون الذين يسمّون بعضهم بعضًا بألفاظ الاهانة كالشتم والسبّ واللعن - اهكذا تكرمون السرّ الالهيّ الموجود فيكم . ما الذي يتعلّم اولادكم منكم . انهم سيقتدون بكم . ومثلكم يفترون على من هم نظيرهم باوقح كلمات الافتراء . او في

تمادي الزمان اذا ما كبروا يفترون عليكم انتم ايضاً *

فاذاً ايها الرجال اكرموا نسآءكم . وانتنَّ ايتها النسآء اكرمن رجالكنَّ - وهذا الاكرام الذي من الجانبين الصادر من المحبّة الواجبة في دعوتكنّ . يفيد لدوام هذه المحبّة . وهكذا تمتثلون النصيحة الرسوليّة الاخرى تلك التي نادى بها بولس الرسول قائلاً : ايها الرجال أحبّوا نسآءكم كما احبّ المسيح الكنيسة (افسس ٥ : ٢٥) - انظروا ما اعظم وما اقدس القدوة التي يريد الرسول ان تقتدوا بها : انهُ يريد ان تكون محبّتكم لنسائكم تشبه محبّة السيّد المسيح لكنيستهِ . اي يريد ان تكون هذه المحبّة نقيّة راهنة ثابتة حتّى الموت - انَّ قوماً من المتزوّجين يحبّون نسآءهم في حداثتهنَّ فقط - فهذه المحبّة يمكن ان توجد في قلب انسان وثنيّ . الاَّ انها ليست هي المحبّة اللائقة بالمسيحيّ . لانّ المسيحيّ يلزمهُ شيء آخر قد امرهُ الله بهِ على فم ملاخي النبيّ بقولهِ : لا تحتقر زوجة شبوبيّتك وهي حليلتك وزوجة عهدك (ملاخي ٢ : ١٥) - فلا تشمازّ في زمن شيخوختك من المراة التي اتّخذتها في حين حداثتها . ولا تضجرنَّ منها لمرضها وعجزها . اولسبب آخر . بل أحبّها كما انّ السيّد المسيح احبّ الكنيسة لانهُ لا يزال يحبّها في حين شدائدها *

هلمّ ايها الرجال القساة القلوب على نسائكم . انصتوا للوصيّة الالهيّة التي نادى بها آدم منذ ابتدآء العالم . انهُ يجب على الرجل ان يفارق اباهُ وامهُ ويلاصق امرأتهُ (تكوين ٢ : ٢٤) - قال القدّيس اوغسطينس : انّ السيّد المسيح حفظ هذه الوصيّة . لانهُ باين على نوع ما اباهُ الازليّ بتجسّدهِ واتّخاذهِ صورة عبد وترك امّهُ ايضاً في آلامهِ حينما ذهب ليموت من اجل الخطاة . وذلك لكي يتّخذ الكنيسة عروساً لهُ - امّا من جهة الزيجة البشريّة . فانَّ المرأة تحفظ هذه الوصيّة اكثر من الرجل . لانَّ الرجل عند تزوّجهِ لا يفارق اباهُ ولا امّهُ ولا البيت الذي ولد فيهِ . وامّا المرأة فانها تترك هذه كلّها - ثمّ يقول الذهبيّ فمهُ مخاطباً الرجال : انَّ المرأة عملت ما قد كان يجب عليك ان تعملهُ انت ايها الرجل . لانها فارقت

والديها لتسلّم نفسها بين يديك . راجية ان تعيش بسلام بقية ايّام حياتها وتكسب الملكوت معك. ومن ثمَّ قد كان يجب عليك ان تكون لها بمنزلة الاب والامّ اللذين تركتهما من اجلك - وامّا انتم ايها الرجال فانكّم تقسّون قلوبكم على نسائكم كانهنّ عبيد رقّ لكم - فاعلموا انّ السيّد المسيح ينظر اليكم بعين الغضب وانّهُ تعالى سيعامل بلا رحمة من لم يصنع رحمة. لانّ الذي ينتقم ممّن لا يرحم اعداءهُ كيف يكون صنيعهُ مع من لا يعامل بالرحمة والوداعة امرأة مسكينة قد تسلّمها من الله واوصتهُ الكنيسة فيها ووعد امام الكاهن ان يقبلها كرفيقة لا كأجيرة او أمَة - ولا تقولوا لي انكّم لا تقدرون ان تحتملوا نقائصها وشوائبها . لانّهُ ان كان طبعكم الشرس لا يدعكم ان تحتملوا نقائص الغير فلقد كان يجب عليكم ان تبقوا عزّابًا ولا تتزوّجوا - من كانت هامتهُ من شمع لا يقف تجاه الشمس - قال احد الفلاسفة : انّ المرأة شرٌّ . الاّ انهُ شرٌّ ضروريٌّ لا تستغني عنهُ البيوت - غير انّي لستُ اريد منكم ان لا توبّخوا المرأة وتؤدّبوها اذا ما زلّت في شيءٍ . الاّ انّهُ يجب ان لا يصير التوبيخ بصراخ وضوضاء وبسبٍّ وشتيمة وافتراء . بل انّهُ يحسن احيانًا ان تتغاضوا عن اشياء كثيرة حذرًا من شرٍّ آخر اعظم من زلاّتها . لانّ من يريد ان ينال اربهُ بطريق الاغتصاب . يشبه انسانًا يسحب كلبهُ للصيد عن رغمهِ - ولا تظنّوا انّ الصواب معكم دائمًا . لانّهُ ولو كانت المرأة طبعًا اقلّ حزمًا في الراي لكن قد عُلم بالتجربة مرّات كثيرة انّ الرجل خرب بيتهُ لانّهُ لم يصغَ لمشورة امراتهِ - فحرّروا اذًا تعليم الرسول في قلوبكم . وعليهِ تدرّبوا . قال في رسالتهِ الى اهل افسس : ليحبّ كلّ واحد منكم فردًا فردًا امرأتهُ هكذا كنفسهِ. ولتهابنّ المرأة بعلها (افسس ٥ : ٣٣) . وذلك لانّ محبّة المرأة لزوجها يجب ان تكون مقترنة بالاحترام - انّهُ اذا كانت المرأة عاقلة صبورة وتلازم الصمت والصلوة وتكفّ عن السبّ والشتم . فهي تليّن قلب رجلها وتربح محبّتهُ - فينبغي لها ان تترصّد طبعهُ وتطابقهُ حبًا في السلام . لانّ الذي يربّي الفيل . لا يلبس اللون الابيض اذ

يفزع الفيل . والذي يربّي الجاموس لا يلبس اللون الاحمر اذ انّ اللون الاحمر يهيج الجاموس . فكيف يمكن ان يهدأ خلق الرجل ما دامت المرأة تجادلهُ وتقاتلهُ - انّ قبض الهوآء بشبكة أسهل عليها من تسكين غضب زوجها بالمجادلة . بل انها تزيدهُ اشتدادًا *

فبماذا نختم هذا الخطاب : انّي ارى في هذا المحفل اناسًا متزوّجين واناسًا غير متزوّجين قاصدين الزيجة - امّا الفريق الاوّل منهم اي المتزوّجون فلا يقدرون الآن ان يعملوا الفضائل التي يجب ان تتقدّم الزواج وترافقهُ . فبقي عليهم اذًا ان يعملوا الفضائل التي تتبعهُ - وهؤلآء اذا كانوا قد تزوّجوا بحجج بشريّة فقط . او بوسائط غير حميدة او سيّئة . فيلزمهم ان يعودوا الى الله تائبين متندّمين على الخطايا التي فرطت منهم قبل زواجهم - انّ هذه هي الواسطة النافعة لاصلاح بيوتهم . لان سبب الشرور المبلبلة سلامتهم هو الشيطان المتسلّط عليهم من ابتدآء زواجهم . فقد قال احد عظمآء الملائكة لطوبيّا البارّ : الذين انما يتزوّجون لكي ينبذوا الله من قلوبهم ... على مثل هؤلآء يقدر الشيطان (طوبيا ٦ : ١٧) . ومن ثمّ يلزمهم ان يندموا على تزوّجهم في حال الخطيّة ويعملوا الاعمال الصالحة ليقطعوا بها اصل الشرّ فيبعدون عنهم الشيطان *

وامّا الآخرون اعني غير المتزوّجين والقاصدين الزيجة . فليمعنوا النظر ويتاملوا جيّدًا في عظم خطر الذين لا يتناولون هذا السرّ كما يجب . فليكن زواجهم كتزوّج سارة التقيّة اذ قالت في مناجاتها لله : انمّا انا رضيتُ ان آخذ رجلًا من خوفك لا من هواي (طوبيّا ٣ : ١٨) فكانها تقول انّي ما طلبتُ الزيجة بل انّي تركتُ الامر في يدَي والديَّ وارتضيتُ برايهم ولم ارتضِ بذلك الاّ من مخافتك . ومخافتك هي التي صيّرتني ان اتجنّب كلّ ما كان يمكن ان يدنّس نفسي قبل زواجي - فمن يتزوّج على هذا النحو لهُ ان يعتقد ان السيّد المسيح حضر عرسهُ وانّهُ نال منهُ البركة *

الموعظة الثالثة والسبعون

في عظمة خطيّة الزنا

قد اصاب ناثان النبيّ اذ شبّه خطيّة الزنا بالسرقة بضربهِ مثل الغنيّ الذي اختلس نعجة كانت لجارهِ المسكين وذبحها لذاتهِ وضيفهُ. لانَّ الزاني هو سارق حقًّا يختلس اعزّ ما هو للانسان. اعني عرضهُ ويخرب البيوت لا بكسر الصناديق وسلب ما في المنازل. بل بادخالهِ في البيوت نسل حرام - وبسرقتهِ هذه يتعدّى اوّلاً شريعة الطبيعة. كما يفعل كلّ سارق. ويتعدّى ثانيًا على شرائع النعمة بتدنيسهِ سرًّا قد سمّاهُ الرسول سرًّا عظيمًا (افسس ٥: ٣٢) وهو سرّ الزيجة - قد جرت العادة انّ الناس اذا احسّوا بدخول اللصوص الى بيوتهم يصرخون. وبصراخهم يهربونهم - فلنبيّن الآن كيف انّ العقل والشريعة والله نفسهُ يصرخون على الزاني لعلّهُ يخاف من هذه الخطيّة ويهرب منها *

امّا العقل فيصرخ عليهِ باطنًا قائلاً: لا تفعل بغيرك ما لا تشآء انت ان يفعلهُ غيرك بك - فأسال انا احد هؤلآء الفاسقين: هل يرتضي بان يفعل غيرهُ في بيتهِ ما فعلهُ هو في بيت قريبهِ. وان يدنّس فراشهُ كما دنّس هو فراش غيرهِ - فان قال نعم. فلنصرفنَّ عنهُ النظر مشمازّين ولنعوذنّ بالله من وقاحة فسقهِ - ولكن ان اجاب بعكس ذلك وقال: انّهُ ليختار ان يموت افضل من ان يصيبهُ هذا العار. فكيف اذًا يفعل بغيرهِ جورًا ما لا يمكنهُ ان يحتملهُ بنفسهِ - فلمّا تأمّل القدّيس زينون في هذه الحجّة هتف قائلاً: انّي لستُ ادري ما يمكن ان يعتذر بهِ هؤلآء الزناة المتزوّجون الذين يفعلون عمدًا ما لا يريدون ان يحتملوهُ *

لقد اعتبر المعلّمون الطبيعيّون انّ كلّ حيوان مسمّ اذا اكل من لحم حيوان آخر مسمّ ايضًا يزداد سمّهُ في الغاية. وهذا نفسهُ يحدث فيما نحن في صددهِ. لانّ خطيّة الفساد هي حيّة مسمّة ذاتًا. الّا انهُ حينما يقترب الفساد بالجود يزداد سمّهُ قدرًا لا يوصف - انظروا وتأمّلوا في الاضرار الكثيرة الناتجة من هذه الخطيّة: انّ الزاني يختلس حقّ الزيجة وحقّ الاولاد والعائلات والطبيعة والكنيسة - امّا حقّ الزيجة فيختلسهُ بفكّ الرباط الذي لا يجوز فكّهُ الّا بالموت - وامّا حقّ الاولاد فيختلسهُ بامتزاج الاولاد الاجنبيّين مع الاولاد الحقيقيّين - وامّا حقّ العائلات فيختلسهُ ببلبلة الدم والمواريث - ويختلس حقّ الطبيعة بابطال الغاية التي من اجلها دبّرت بحكمة فائقة ان تكون المرأة الواحدة لرجلٍ واحد - ويختلس حقّ الكنيسة المقدّسة بتدنيس زيجة قد تقدّست ببركتها - ويختلس ما يخصّ الله نفسهُ بحلّهِ ما ربطهُ بيدهِ القدّوسة - يقول الذهبيّ فمّ: نعم انّ الزنا هو السرقة. بل انهُ هو خطيّة اعظم من كلّ سرقة. لانّ سرقة الزنا هي كالسرقة التي يرتكبها الانسان الغنيّ - انّ الصعلوك المعترى بجوع مذيب اذا شرع يختلس مال غيرهِ. يوجد من يحنو اليهِ ويعذرهُ على نوعٍ ما. لانهُ يسرق لكي يشبع نفسهُ الجائعة. وامّا الذي يسرق ومنطقتهُ مملوّة خبزًا فلا يشفق عليهِ احد ولا يستحقّ الشفقة - انّي بهذا القول لستُ اعني انّ الانسان العزب المنقاد لشهوتهِ يكون بريًّا عند الله. الّا انّهُ يمكن من وجه انهُ يستحقّ اعتذارًا ما. اذا ساقهُ جوعهُ للملذّات المحرومة الى اختلاس اطعمة غير جائزة لهُ - وامّا الرجل المتزوّج الذي لهُ في بيتهِ ما يكفي لحاجتهِ. ومع هذا يختلس ماكل غيرهِ. فانّهُ لا حجّة لهُ البتّة للاعتذار. بل قال فيلون الفقيه انهُ يستحقّ الموت. وهذا القصاص تحكم بهِ الشرائع القديمة على الزاني الفاسق - ولعمري ان كان بعدلٍ يُحكَم على اللصّ بالموت لانهُ يسرق ما لغيرهِ. فكم وكم يستحقّ ذلك من يختلس من غيرهِ ما هو عندهُ افضل من المال - فليس بعجب انّ الكنيسة تحكم على الزناة بالحرم. ومن

ثمَّ كان المومنون يستقبحون هذه الخطيّة ويحترسون منها جدًّا. حتى انهُ قد تجاسر ترتليانس ان يقول تجاه جمهور الامم: انَّ المسيحيَّ لا يُولَد ذَكَرًا الَّا لامرأتهِ - هذا هو اللبن الذي بهِ ارضعت الكنيسة اولادها منذ الابتدآء. مصيّرة اياهم ان يبغضوا كلَّ فسادٍ ولاسيّما فساد الزنا الى اقصى حدود البغضة. حتّى انَّ القدّيس اقليميس تلميذ بطرس الرسول قال: ايّما خطيّة هي اعظم من خطيّة الزنا - وحينما ابتدأ الضعف البشريّ ان يورّط احد المسيحيّين في خطيّة الزنا اراد الرسل من المؤمنين ان يظهروا حزنهم على ذلك بنوع من التوبة الجمهوريّة. ولهذا لمّا علم القدّيس بولس الرسول انّهُ في مدينة قورنثس سقط احد المسيحيّين في خطيّة الزنا. تعجّب من احتمال بقيّة المومنين هذا الشقيّ من غير اظهار الحزن. كأنَّ عدم الحزن على خطيّتهِ كان عين الارتضآء بها. فقال: كيف لم تنوحوا حتّى يُرفَع من وسطكم من فعل هذا الفعل. (١ قور ٥: ٢) - فهذه الكلمات الرسوليّة لمّا تاملّها الذهبيّ فمهُ قال: ان كان الرسول قد حزن كلّ هذا الحزن وناح هكذا على واحد فقط ارتكب خطيّة الزنا كأنّ المدينة كلّها قد فسدت. فلا تتعجّبوا اذًا يا مباركين ممّا سياتي ذكرهُ. اي من صرامة القوانين المفروضة قديمًا على هذه الخطيّة. وقد ذكرها القدّيس باسيليوس في رسالتهِ القانونيّة الى امفيلوخيوس - فالقانون المفروض من الكنيسة على هذه الخطيّة كان يلزم الزاني ان يعمل اعمال التوبة مدّة خمس عشرة سنة. وفيها لم يجُز لهُ ان يتناول الاسرار الالهيّة في السنين الاربع الاولى. وكان على باب الكنيسة واقفًا يطلب من المومنين بالتواضع ان يصلّوا لاجلهِ. وفي الخمس السنين التالية كان يجوز لهُ الدخول الى الكنيسة في حين التعليم فقط. وفي الاربع السنين التابعة كان جائزًا لهُ ان يدخل الى الكنيسة الَّا انّهُ كان يقف في الموضع المخصّص للتائبين. وفي السنتين الباقيتين كان يجوز لهُ الاشتراك مع المومنين في الكنيسة. الَّا تناول القربان المقدّس - وهذا القانون المستطيل كان يلزم المذنب

بان يعمل اعمالاً كثيرة قشفيّة صعبة جدًّا. كصيامات متكاثرة في كلّ اسبوع ولبس المسح والرقاد على الرماد وصلوات كثيرة وما يضاهي ذلك – فما ظنّكم الآن بخطيّة الزنا. العلّكم خفّ شرّها عندكم. او لا يبغضها الله كما كان يبغضها قبلاً – قال الرسول: انّ الله سيدين الزناة (عبر ١٣: ٤). فكانّهُ يقول: لا تتعجّبوا من انّ الحكمة البشريّة تستخفّ بهذه الخطيّة. انّ الله العارف بجسامة شرّها سيدينها ويظهر عظمتها بشدّة عقابها *

وهذا ما يجب عليكم ان تعتبروهُ على الخصوص في هذا الصدد. وهو انهُ فضلاً عن انّ العقل والشرائع البشريّة تصرخ على الزاني في قلبهِ. فانّ الله يصرخ عليهِ ايضًا موضحًا لنا عظمة هذه الخطيّة على نوعين. اي بالقول والعقاب – فاسمعوا بأيّما الفاظ يتكلّم الله عنها في الاسفار المقدّسة. انّهُ في سفر التكوين يدعو خطيّة الزنا جرمًا عظيمًا (تكوين ٢٠: ٩). وفي سفر ايّوب يسمّيها اثمًا عظيمًا جدًّا (ايوب ٣١: ١١). وفي سفر هوشع النبيّ دعاها خطيّة عميقة (هوشع ٩: ٩) – فشرّ هذه الخطيّة عظيم جدًّا جدًّا حتى انهُ يصل الى السمآء. وهو عميق عمقًا عظيمًا حتّى انهُ يصل الى عمق اللجج – قابلوا الآن رأي الله هذا في خطيّة الزنا مع رأي الاكثرين من الناس فيها. انّهُ تعالى يدعوها خطيّة عظيمة جدًّا وخطيّة عميقة. وهؤلاَء الوقحون يدعونها خطيّة خفيفة ونقيصة طبيعيّة وزلّة طفيفة وكلا شيء. من هو الضالّ في رايهِ. آالله المتّصف بحكمة غير متناهية ام هؤلاَء الاشقيآء العميان الذين عليهم غشاوة الجهل والشهوة – اسمعوا اذًا ما قالهُ تعالى عن هذا الاثم: انّ من يسرق لا يرتكب خطيّة عظيمة. واما الزاني فانّهُ يهلك نفسهُ. لا كأنّ السرقة ليست هي ذاتًا خطيّة مميتة. بل لانّهُ اذا نظرنا الى شرّ السرقة مع شرّ الزنا. تظهر السرقة مثل بحيرة ضعيفة تجاه بحر عظيم – هذا ما قالهُ الله حينما حكم على جريمة الزنا *

تاملّوا الآن في القضآء الذي قضى بهِ الله على مرتكبي هذه الخطيّة

الشنيعة – قال تعالى : اشبعتهم فزنوا . كلّ واحد منهم صهل على امرأة قريبهِ . ألستُ اعاقب على هذه . أولا تنتقم نفسي من هولآء القوم (ارميا ٥ : ٧و٨و٩) . كأنّهُ جلّ جلالهُ يقول : انّي ملأتُ بيوتهم من الخيرات وهم استعملوها لفعل الدنس . اذ اشتروا نفوس نسآء عاهرات . وليس هذا فقط . بل الذين صدّهم فقرهم عن فعل ما كانت تبتغيهِ شهواتهم كانوا يفرغونها بأشواق قلوبهم . كلّ منهم كان يصهل على امرأة قريبهِ – هل تظنّون انّي لا انتقم من سيئاتهم . كأنّي لستُ اراها او استخفّ بها : انكم ضالّون وايّ ضلال *

وعلى ايّ شيء قائم الانتقام الالهيّ . انهُ قائم في عقاب النفس والجسد – فيتعذّب الزاني في جسدهِ بالعار الذي يجعلهُ مفضوحًا حسب شهادة الحكيم : الفاسق يجمع لنفسهِ ضربًا وخزيًا وعارهُ لا يُمحى (امثال ٦ : ٣٣) . لانّهُ سيسمح الله ان تنفضح اخيرًا قبائحهُ الخفيّة . او يسمح ان ياتي آخر ويُدخل الى بيتهِ العار الذي ادخلهُ هو في بيت قريبهِ . كما حدث لداود الملك . اذ عوضًا عن امرأة واحدة افسدها سُبيت منهُ في ساعة واحدة كلّ نسائهِ وافسدهنّ ابنهُ ابيشالوم جهرًا . حسب كلام النبيّ لهُ . انكَ فعلت هذا سرًّا وانا اجعل هذا الامر امام جميع اسرائيل وامام الشمس (٢ صموئيل ١٢ : ١٢) – ثمّ انّ الله يعاقب الزناة في ذرّيتهم بالموت . لانّهُ قد قيل في سفر الحكمة : اولاد الفسّاق لن يكونوا كاملين . والنسل الناشيء من المضجع المتعدّي الشريعة سيبيد (حكمة ٣ : ١٦) – بل انّ الله يعاقبهم أحيانًا في ذرّيتهم من جيل الى جيل كقولهِ تعالى لداود الملك : لا تبرح الحرب من بيتك الى الدهر (٢ صموئيل ١٢ : ١٠) *

الّا انّ هذا العقاب الذي يصيب الجسد ليس لهُ اعتبار بالنسبة الى العقاب المعدّ لنفوس الزناة – من ذا لا يرتجف فرقًا عند استماعهِ هذا التوعّد الالهيّ : انّي اتباعد عنهم واهملهم لانّهم زناة . فكأنّهُ تعالى يقول ذلك على لسان ارمياء النبيّ اذ قال : اترك شعبي وانصرف من عندهم لانّهم جميعًا فاسقون (ارميا ٩ : ٢).

انصرف عن شعبي واتركهُ فهل يوجد عقاب ارهب من هذا العقاب. اعني انصراف الله عن الانسان ورذلهُ تعالى اياهُ - انهُ لو احتدّت النفس بالغيظ على الجسد وقالت لهُ: هانذا انصرف عنك وافارقك. وحين مفارقتي اياك تنتزع منك كلّ حركة وقوّة الحياة نفسها وتمسي طعامًا للحشرات وتستحيل الى قليل من الرماد. اما كان الجسد يرتعب ويرتجف - والحال انّ توعّد الله النفس بان ينصرف عنها ويهملها هو اعظم من ذلك جدًّا. لانهُ اذا فارقها الله فماذا يكون حظّها - اننا قد اوردنا سابقًا شهادة الحكيم اذ قال: الفاسق يهلك نفسهُ (امثال ٦: ٣٢): خوضوا معي يا مباركين في تأمّل هذه الآية الالهية: الفاسق يهلك نفسهُ. فيخسر اذًا لا مالهُ. ولا عرضهُ. ولا شيئًا آخر دنيويًا. بل انهُ يخسر نفسهُ. واذا ما خسر نفسهُ. فماذا ينفعهُ كلّ مالهِ في الدنيا *

اعتبروا هنا شيئًا جزيل الاعتبار وهو انّ الله توعّد الزناة بهذا الانتقام العظيم في الناموس القديم حينما كانت الزيجة عقدًا مدنيًّا فقط. فماذا يصنع الله مع الشعب المسيحيّ الذي لاجلهِ ارتفعت الزيجة الى درجة سامية درجة سرّ الاهيّ من اسرار البيعة - انهُ مثلما الافتراء على الكاهن يفوق على الافتراء على الانسان العلمانيّ كذلك الافتراء على الزيجة اليوم يفوق كلّ افتراء كان يمكن ان يصيبها قديمًا. لانّ سرّ الزيجة كما قال الرسول هو سرّ عظيم في المسيح وكنيستهِ - لعمري انّ هذه الكلمات الرسوليّة اذا فهمناها جيدًا تظهر لنا جليًا جسامة خطيّة الفسق. فاعتبروا انهُ يقال عن العمل انهُ عظيم لثلاثة وجوه على الخصوص. اي لوجه صانعهِ. ولوجه مادّتهِ ونوع استعمالها. ولوجه غاية العمل - ومن اجل هذه الصفات الثلاث قد سُمّي هيكل سليمان الحكيم عظيمًا. والرسول قد دعا بحجّة اولى سرّ الزيجة سرًّا عظيمًا. وذلك اوّلًا لانّ راسمهُ هو الله نفسهُ - امعنوا النظر يا مباركين. وافهموا قوّة برهان الرسول. فيقول انّ سرّ الزيجة هو عظيم في المسيح. وذلك لانهُ تعالى الذي اقترن لاهوتهُ بناسوتهِ

اراد انَّ توجد صورة هذا الرباط الالهيّ في غالب البيوت المسيحيَّة بواسطة سرّ الزيجة الذي بهِ يقترن الرجل والمرأة اقترانًا كاملاً حتى انهما يصيران شيئًا واحدًا. من وجه حسب قولهِ تعالى. يكون الاثنان جسدًا واحدًا (تكوين ٢ : ٢٤) — فبسرّ الزيجة قد صنع السيّد المسيح ما يصنع ملك معظّم يحبّ ان يخدم بستانهُ بيدهِ. فهذا اذا وجد في الغابة شجرة بريّة. فيقلعها ويغرسها في بستانهِ ويطعّمها. فتاتي باثمار جيّدة جديرة ان تُقدَّم على مائدة الملك — فعلى هذا المنوال لمّا اتى السيد المسيح الى غاب هذا العالم. وجد الزيجة على حالة شجرة بريّة حال عقد بشريّ مجرَّد. فنقلها ونصبها في بستان كنيستهِ وطعّمها بيدهِ بغصن نعمتهِ لكي تصدر اثمارًا تستحقّ ان تُقدَّم لله في ملكوت السماء — فكم كان يغتاظ ذلك الملك لو يرى احد عبيدهِ يكسر ما قد طعّمهُ بيدهِ وجعل فيهِ انسهُ. فمثل هذا الغيظ واشدّ منهُ بغير قياس يكون غيظ السيّد المسيح على من يفسد سرّ الزيجة الذي هو رسمهُ — ما من احد يتجاسر على إتلاف ما صنعهُ ملك مقتدر بيدهِ. واما الزاني فانهُ يجسر بوقاحة غير محتملة ان يفسد ما قد صنعهُ الله بيدهِ القادرة على كلّ شيء — اعتبروا الآن شرف مادّة هذا السرّ. وانظروا كم بالصواب سمّاهُ الرسول سرًّا عظيماً — انَّ مادّة بقيَّة الاسرار هي شيءٌ مائت. قليل من الماء في سرّ المعموديّة. وقليل من الزيت في سرّ المشحة الاخيرة. وقليل من الزيت مع البلسم في سرّ التثبيت. وقيسوا على ذلك بقيّة الاسرار. واما سرّ الزيجة فانّ مادّتهُ هي أجسام المتزوّجين المجبولة منذ البدء بيد الله. والمقدَّسة بعد ذلك من الكاهن في سرّ المعموديّة. والمطهّرة بسرّ التثبيت الذي صيّرها هياكل روح القدس واعضاء السيّد المسيح وصورة العليّ — فأيّ شيء هو الرجل المتزوّج والمرأة المتزوّجة. انهما ما قد اختصّتهُ الكنيسة وقدّستهُ وصيّرتهُ رمزًا عن اقتران ابن الله بالناسوت — ارأيتم يا مباركين عظمة خطيّة الفسق التي تفسد هذه المادّة المحترمة. فمن اجل ذلك لقد سُمّيت هذه الخطيّة في شرائع ثاودوسيوس الملك خطيّة

اثمية وحدّ على مرتكبها إمّا ان يُحرَق وهو حيّ وامّا ان يوضع في كيس مسدود ويُلقى هكذا في البحر *

غير انَّ الشيء الذي يظهر لنا عظمة سرّ الزيجة افضل الظهور هو الغاية التي رُسم لاجلها . اعني السرّ المرموز عنهُ بالزيجة - وان اردتم ان تفهموا ذلك يا مباركين . فاقول انَّهُ تُسمّى بعض الاسرار من اسرار البيعة عظيمة كسرّ المعموذيّة لاجل مفعولاتهِ . لانَّهُ يمحو الخطية ويفتح الباب لأخذ بقيّة الاسرار . وسرّ الاوخارستيا يُدعي عظيمًا ايضًا لاجل ما يتضمّنهُ . لانَّهُ يحوي لا النعمة فقط . بل مصدرها ايضًا . اعني السيّد المسيح - وكذلك زيجة المسيحيّين هي سرّ عظيم لاجل ما يرمز عنهُ ويعنيهِ . وهو اعظم سرٍّ اخترعتهُ حكمة الله واختارتهُ جودتهُ واكملتهُ قدرتهُ. لانَّ هذا السرّ قد رُسم ليكون صورة اتّحاد الكلمة الازليّ بناسوتهِ الاقدس . فهذا السرّ لا يعني قداسةً عرضيّة كما نرى في بقيّة الاسرار . بل انَّهُ يعني قداسةً جوهريّة اشتركت فيها الطبيعة البشريّة بواسطة الازدواج الالهيّ الذي صار بينها وبين ابن الله في مستودع المغبوطة مريم البكر. فما قولكم في عظمة هذا السرّ الالهيّ العجيب الذي زيجة المسيحيّين تشير اليهِ بوجه خصوصيّ *

والآن اسألكم يا مباركين . هل فهمتم تفاقم شرّ الخطيّة التي نحن في صددها. تذكّروا ما قلناهُ آنفًا وهو انَّ الكتاب المقدَّس يدعوها خطيّة عظيمة عميقة جدًّا. وانَّ الله قد قال في العهد القديم انَّهُ من سببها سيعاقب الفاسق في جسدهِ ونفسهِ - هذا ما قالهُ حينما كانت الزيجة عقدًا بشريًّا فقط . فكم يبغض الله اليوم هذه الخطيّة الاثميّة بعد انَّ الزيجة ارتفعت الى درجة سرّ عظيم تندهش من عظمتهِ كلّ الارواح السماويّة - انَّهُ لو هدم احد منكم حيطان هذه الكنيسة حينما كانت تُبنى لاجترم اثمًا عظيمًا لا محالة . فما تكون خطيّة من يهدمها الآن بعد انَّ المكان قد قُدّس تقديسًا احتفاليًّا وصار هيكلًا يسكن فيهِ الله نفسهُ - والامر يجري هنا هكذا . لانَّ الزيجة قديمًا كانت كبناءٍ بسيط مختصّ لاكرام الله .

وامّا الآن في العهد الجديد فانّ الزيجة تشبه هيكلاً مكرّساً بقداسة سرّ الاهيّ مشرّفاً بكلّ المزايا الجليلة المقدَّم شرحها *

حقّاً انهُ غير ممكن ان توصف عظمة خطيّة الفسق وجسامة العقاب الذي تستوجبهُ . الاّ انّ هذه الخطيّة من عادتها ان تعمي صاحبها ولا تدعهُ ان ان يطّلع على قبحها وجزيل خطرها . فيكون همّهُ في امر واحد فقط وهو ان يشبع شهوتهُ ويختفي عن نظر الناس . ولهذا قال عنهُ الحكيم : الرجل الذي يتعدّى على فراشهِ وهو يقول في نفسهِ من يراني ... وهو يخاف من عيون الناس ولم يعلم انّ عيني الربّ اضوأ من الشمس بمائة الف وتبصران جميع طرق الناس وتطّلعان على الخفايا والمكنونات (سيراخ ٢٣ : ٢٥) - فليسمع الخبر الآتي ايرادهُ *

لقد ذُكر في كتاب سيرة القدّيس دومينيكوس انهُ في زمن هذا القدّيس كانت امرأة لها زوج متعرقل بخطيّة الزنا . وقد صبرت على فجورهِ مدّة من الزمان . الاّ انهُ بمضي الزمن اتّصلت الى ما لا يتصوَّر من الحماقة حتى انها مع كونها محبّة العفة عزمت على فعل الزنا انتقاماً من زوجها الفاسق . الاّ انها لم تجد في ذلك اليوم فرصةً لفعل مرغوبها النجس . فرقدت على فراشها مردّدة في عقلها هذا الفكر ونامت . وفيما هي نائمة انفتحت لها جهنّم بالرؤيا ورأت على الخصوص العذابات الهائلة التي يتكبّدها الزناة والفاسقون . فرأتهم مطروحين ممدّدين في اتّون مشتعل وفوقهم تنانين مرعبة تجري من افواهها انهر كبريت ملتهب على اجساد هؤلاءِ الاشقياء . وكانت شدّة هذا العذاب تصيّرهم ان يجدّفوا فكانت حينئذٍ التنانين تسكب عليهم تارةً قيراً وتارةً رصاصاً مذاباً يخرق اجسادهم حتى لبّ العظام . ولفرط ما كانوا يصرخون كانت ترتجف جهنّم - وفيما كانت المرأة تبصر هذا المنظر الهائل سمعت صوتاً يقول : انّ هذا هو العقاب المعدّ لزوجها الزاني . فشرعت المسكينة تحزن على سوءِ حالهِ وطفقت تبكي وتنوح على هلاكهِ - فاستيقظت وصرفت بقيّة الليل في التندّم على ما كانت قد قصدتهُ . ولم تفتكر

بعد في اخذ ثارها من زوجها الشقيّ. بل اهتمّت بخلاصهِ - ولمّا اصبح الصباح ذهبت الى القدّيس دومينيكوس وقصّت عليهِ القصّة. وبعد ان وبّخها القدّيس. حلّها حلّة الاعتراف ثم سلّم لها مسبحة وقال لها: ضعي هذه المسبحة تحت وسادة زوجكِ في حين نومهِ - ففعلت المرأة كما قيل لها. فرأى زوجها في نومهِ ما رأتهُ هي في نومها قبلاً - فلمّا أبصر العذاب المعدّ لهُ في جهنّم استحوذ عليهِ خوف عظيم. واتى ايضاً الى القدّيس المذكور وعلى يدهِ ارعوى واصلح سيرتهُ وقضى بقيّة عمرهِ مع امرأتهِ بحسن السلامة *

فيا ليت كلّ الزناة يبصرون مثل هذه الرؤيا. لا شكّ انّ الخوف من العذاب المعَدّ لهم يخمد شهوتهم. والنظر الى نار جهنّم يطفئ فيهم نار النجاسة الملتهبة في قلوبهم - ولكن ما الحاجة الى الرؤيا لمن يعلم علم اليقين بالايمان ما يغني عن الرؤيا - قال الرسول: لا تضلّوا انّ الزناة لا يرثون ملكوت الله (١ قور٦: ٩) - لا تضلّوا. ولا يختلج في فكركم انّ هذه الخطيّة تكون طفيفة. لانّ العقل نفسهُ يريكم انّ خطيّة الزاني الفاسق هي اكثر جرماً من خطيّة لصّ يختطف اموال الناس - لا تضلّوا كما قال القدّيس هيرونموس. لانّ الواحد منكم يعاقب زوجتهُ اذا خانت في الامانة ولا يقبل منها عذرًا البتّة. فكيف لا يعاقبكم الله اذا خنتم انتم في الامانة. لانهُ تعالى قد اعلم انهُ لا يقبل الزناة في ملكوتهِ - لا تضلّوا. لا تضلّوا *

الموعظة الرابعة والسبعون

في الاتّكال على شفاعة المغبوطة مريم العذراء

يجب علينا اليوم ان نعلمكم ما هي العبادة الحقيقيّة لوالدة الالَه وكثرة النعم التي نصيبها من هذه العبادة - قال القدّيس توما اللاهوتيّ في تعريفهِ العبادة: انّها هي انعطاف في الارادة يجعلها مستعدّة ان تجلّل ما تنعطف اليهِ - فبالعبادة

تقتضي لا ان يكون الانسان خليلاً كيفما اتفق. بل ان يكون محباً بمحبة شديدة - فعلى حسب هذا التعريف تكون العبادة للعذراء ارادة مستعدة لقضاء كل ما يؤول الى تمجيد هذه السيدة المعظمة ملكة السماء والارض - اتريدون ان تعلموا كم يرغب الله ان نتعبد لهذه البتول المجيدة. انصتوا لما تقولهُ هي ليتمجد اسمها في سفر ابن سيراخ قالت: انَّ الذي خلقني واستراح في مسكني قال لي: اجعلي اصولكِ في مختاريّ (سيراخ ٢٤ : ١٢) - فيا ما أَحلى هذه الالفاظ السيدية. فكأنها تقول: انَّ الذي خلقني وارتضى بان يستقر في مستودعي تسعة اشهر. امرني بان اجعل اصولاً عميقة في قلوب المختارين - وقد انجزت امرهُ. لانها تستتلي قائلةً في اثناء ما ذكرناهُ: وتاصَّلتُ في شعب كريم (٢٤ : ٦) *

فالكتاب المقدس يشبه عبادة العذراء بالاصول والجذور. لانهُ ينبغي ان تكون هذه العبادة عميقة مثمرة. والاَّ فليست هي عبادة حقيقية - فيجب اولاً ان تكون هذه العبادة عميقة لا قائمة في تحريك الشفتين فقط كعبادة القوم الذين يكتفون بتلاوة المسبحة بعقل مشتت وبما يشبه ذلك. ولا يقدمون قلوبهم التي ترغبها سيدتنا مريم فوق كل شيء. لانها هناك تشتهي ان تجعل اصولها لكي تكون عبادتنا لها مقبولة لله ومفيدة لنا حسب قول اشعياء النبي: يتأصل الى اسفل ويصنع ثمراً الى فوق (اشعيا ٣٧ : ٣١) - فيجب اذاً ان تكون عبادتنا للعذراء مثمرة. وما هي هذه الاثمار. لا ريب في انها هي الاثمار التي قصد السيد المسيح ان يجتنيها من ارضنا المسقية بعرقهِ ودمهِ الاقدسين. اعني ابادة الخطية منها كقول النبي: هذه هي الثمرة كلها. ان تُنتزَع خطيتهُ (اشعيا ٢٧ : ٩) - هذا ما قصدهُ الله في كل اعمال الطبيعة والنعمة وفي كل احساناتهِ الدنيوية والاخروية التي يبرزها اما بذاتهِ في الاسرار. واما بواسطة والدتهِ. وهو ان يبيد الخطية ويجعلنا مقبولين لله ووارثين الملك المستعد لاحبائهِ - فهذا ما تقصدهُ العذراء ايضاً وترغبهُ رغبةً شديدة مساويةً لمحبتها لله ولنا. اي ان نحسن الى الخطاة لكي يصيروا

صالحين : فطوبى ثمَّ طوبى لمن يتعبّد للعذراء بهذه العبادة . اذ عنهُ قالت السيدة : من يجدني يجد الحيوة ويستقي الخلاص (امثال ٨ : ٢٤) – ولتعزية اهل التقوى المتعبّدين لها عبادةً حقيقيّة يجب ان نوضح لهم باختصارٍ قوّة شفاعتها عند الله فنقول : اننا نجد في البحر نوعين من الملء . امّا الملء الواحد فهو ملء الاتّساع اذ يقبل البحر في باطنهِ كلّ مياه الانهر الجارية ولا يقول قطّ كفى . وامّا الملء الآخر فهو اذ يمنح المياه لكلّ الينابيع من غير ان ينقص – وها انّ العذراء الجليلة تمتلك هاذين النوعين من الملء . اعني ملء الاتّساع من حيث انها والدة الله . وملء الزخور من حيث كونها امّ المختارين – فلنلاحظنَّ قليلاً هاذين الامرين لمنفعتنا نحن *

انَّ رتبة والدة الاله هي بحر عظيم جدًّا حتّى انهُ لا توجد لهُ حدود . لانهُ من جهة ما تنتهي اليهِ هذهِ الدرجة اعني الله . فانها هي غير متناهية من وجه كما اعتبر القدّيس مار توما اللاهوتيّ . لانَّ الله الذي يقدر ان يصنع عالماً آخر اعظم بما لا يقدَّر واكثر كمالاً من هذا العالم لا يستطيع ان يصنع امًّا اعظم من هذه – فيا لعظم اتّساع ملء العذراء والدة الاله . لانهُ على حسب رسم العناية الالهيّة وجب ان تكون النعمة المعطاة لها مناسبة لدرجتها – وهذا لا شكٌّ فيهِ ولا ريب . فلا شكّ في انّ العذراء هي مرتفعة فوق كلّ الملائكة والقدّيسين بما لا يُدرَك – وعلى هذا المعنى قال القدّيس يوحنّا الدمشقيّ : انهُ بين والدة الاله وبين عبيدهِ تعالى الفرق هو غير متناهٍ – نعم انَّ مريم هي جزء من الكنيسة . الاّ انها ليست هي جزءٌ على ايّ نوعٍ كان بل انها هي جزء من الكنيسة كمثلما الاطلس الفلكيّ هو جزء من العالم كلّهِ . لانهُ كما انَّ الاطلس بمفردهِ يفوق على بقيّة اجزاء العالم . كذلك العذراء الجليلة مريم بمفردها تفوق بكمالاتها بقيّة خلائق السماء والارض – وقد وجب ان يكون هذا البنيان عظيماً بهيًّا غاية ما يكون . لانهُ كان يبنى لا لآدميّ بل لربّ العالمين (١ ايّام ٢٩ : ١) – انَّ الشهد العتيد ان يولَد فيهِ ملِك

النحل هو مركّب من ازكى الشمع المجبول من اخلص زوم الازهار. فكيف لا تفعل العناية الالهيّة مثل هذا وافضل منهُ لتزيّن مستودع كان ملك الملوك عتيدًا ان يولد فيهِ - قال القدّيس برنردس: ان الله احبّ العذرآء منذ حين الحبل بها محبّةً فائقة على محبّتهِ لبقيّة القدّيسين. لانّهُ من تلك الساعة كان يحبّها نظرًا الى كونها والدة الاله. وقد زاد القدّيس المذكور على ذلك بقولهِ: انَّ الله لاجل امهِ أَحبَّ ان يصير انسانًا اكثر ممّا لاجل بقيّة الخلائق ومن ثمّ من الثلاث والثلاثين سنةً التي عاشها في هذا العالم صرف الثلاثين سنةً الاولى في تقديس والدتهِ ساكنًا معها ومعاشرًا ايّاها فقط. واما السنون الثلاث الاخيرة من حياتهِ فصرفها في تقديس الكنيسة - فكأنَّ تقديس العذرآء كان الغاية الاولى والوحيدة للتجسّد الالهيّ كما قال القدّيس إلدفنسوس ✱

انّي اورد لكم هذهِ الامور السامية يا مباركين في شان نفسي اوّلاً لكي تبتهج نفسي بها ثمّ في شانكم ولاجل منفعتكم. لكي تنذهلوا من عظائم العذرآء الفائقة الادراك. فتحسنوا الظنّ في قداستها وتستعظموها كثيرًا جدًّا ✱

اعتبروا الآن ملؤها الآخر الزاخر الذي يصيّرها بحر النِعَم والخيرات. لانّها لا تزال موزّعة النعم على المومنين. ولا يفرغ نبع احسانها - انَّ الشرائع البشريّة لا تدع لأصحاب القاضي ان يشفعوا للمذنبين في المحكمة. واما في المحكمة الالهيّة فالأَمر بخلاف ذلك. لانّهُ هنا اي في الفردوس لا ينهى الله احبّاءهُ القدّيسين عن الشفاعة فينا نحن الخطاة. بل انَّ جودتهُ الغير المتناهية اقام لنا والدتهُ لتكون شفيعتنا. اعني تلك التي لاجل سلطانها تجلس من عن يمينهِ ويحبّها محبّةً لانظير لها - وهنا يصرخ الذهبيّ فمهُ قائلاً: ويلي ما اكثر المناهج المهدة لنا لبلوغ الخلاص. انهُ لقد كان يكفي ان يكون مخلّصنا شفيعنا. الاّ انهُ لمّا كان هذا الشفيع الالهيّ هو ديّاننا ايضًا احبّ ان يزيد اتكالنا تمكينًا وثقتنا توكيدًا. فأَقام لنا شفيعةً الامّ التي لا يعوقها شيء عن هذهِ المنزلة. بل تميل طبعًا بكلّ رغبة قلبها

الى فعل الرحمة - وفي هذا قال القدّيس مثوديوس الشهيد: انَّ العذراَء امّ الرحمة كثيرًا ما تنجّي من كان العدل الالهيّ قد حكم عليهم بالهلاك. لانّها لا تلاحظ في من يستغيث بها ما يستحقّهُ. بل تفعل ما يميل اليهِ حنوّ قلبها العطوف - وانَّ روحها هي روح الرأفة وهي روح احلى من العسل كما جاَء في الكتاب المقدّس (سيراخ ٢٤ : ٢٧) - وقال العسليّ فمهُ اعني القدّيس برنردس: اعلموا وتحقّقوا انّ كلّ الخير الذي نرجوهُ او نمتلكهُ. انّما ياتينا بواسطة هذه الشفيعة. لانّ الله هكذا رسم ان ننال كلّ شيء بواسطتها *

اخبروني يا مباركين بأيما ثقة كنتم ترجون الاجابة ونيل ما تطلبونهُ من الله لو يجتمع جميع الملائكة والقدّيسين ويشفعون فيكم عند الله بصوت واحد. هل كان يمكن ان لا يستجيب الله لهم. والحال انَّ شفاعة العذراَء وحدها هي افضل قوّةً من شفاعات كلّ الكنيسة المحاربة والمنتصرة معًا - فانظروا ما يجوز للمومنين المتعبّدين للعذراَء بعبادة حقيقيّة ان يرجوهُ بشفاعتها - قال القدّيس انسلمس: انّنا بالالتجاَء الى مريم نبلغ الخلاص بسهولة اكثر ممّا اذا استغثنا باسم يسوع. لا كأنّ العذراَء تفعل ذلك بقوّتها. كلّا. بل لانّها تفعل بقوّة ابنها الذي يرغب اكرامها وجعل في شفاعتها هذه الفاعليّة والقوّة لكي نلتجيء اليها ونكرّمها - فلنلتجئنَّ الى هذه الشفيعة الراوفة المقتدرة. ولندْعُها لاغاثتنا في كلّ ضيق وشدّة وخطر لنفوز بالخلاص - هذا ما يجوز ان يترجّاهُ كلّ من يتعبّد لهذهِ السيّدة عبادةً حقيقيّة. نعم عبادةً حقيقيّة. لانّ التي ولدت الحقّ فانّها تريد مثل ابنها ان يتعبّدوا لها بالحقّ. فكيف يمكن ان تُسَرّ بعبادة الذين يشبهون الثعلب. ليس لهم شيء جيّد غير الجلد وظاهر العبادة *

فهولاَء الخطاة المتعبّدون للعذراَء هم صنفان. صنف منهم خاضعون للخطيّة بنوع من الاغتصاب كخضوع العبيد لمن يغتصبهم. ولا يزالون يشتهون ويطلبون فرصة لالقاَء نير هذه العبوديّة الثقيلة - والصنف الثاني هم الخطاة

الذين يخضعون للخطية كخضوع الأجراء لمولاهم. يحبون رئاستهُ عليهم ويسرّون بتقيّدهم لهُ وبهِ يفتخرون احيانًا - فالاوّلون يستعملون عبادتهم للعذراء للخروج من حال شقائهم. ويبسط لها الواحد منهم احدى يديهِ ملتمسًا عونها لتنتشلهُ من الحمأة التي هو غريق فيها وهو باليد الاخرى لا يزال يزيد نفسهُ دنسًا - فهؤلاء هم الذين يصرخون مع الكنيسة نحو والدة الاله قائلين: اسرعي الى معونة الشعب المجتهد في القيام من الخطيّة. لانهُ ولو انهم لا يكونون حاصلين بعد على العبادة الحقيقيّة للعذراء. الّا انهم يسيرون في الطريق المؤدّية اليها - ولاثبات ذلك اسمعوا خبرًا من شانهِ ان يزيد رجاكم واتّكالكم على البتول تمكينًا *

ذُكر عن شابّ متعرقل في الخطايا التي يسمّيها الاحداث خطايا الضعف البشريّ ويسمّيها الله مآثم. انهُ اتى يومًا الى كاهن قد شاع خبر قداستهِ يقال لهُ نيقلاوس سكّي واعلمهُ في اعترافهِ بحال شقاء نفسهِ - فشرع القسّيس يحزن عليهِ كحسب عادتهِ في مثل هذه الاحوال. وحثّهُ على العبادة للعذراء موضحًا لهُ نفع هذه العبادة. وفي اثناء ذلك فرض عليهِ قانونًا واوصاهُ بان يتلو كلّ يوم في صلاتهِ باكرًا مرّة واحدة سلام الملاك جبرائيل اكرامًا للعذراء. مقدّمًا لها عينيهِ واذنيهِ ويديهِ وجسدهُ كلّهُ. وملتمسًا منها ان تحفظهُ في ذلك اليوم كحفظها مالها. وان يفعل كذلك كلّ يوم مساء عند ذهابهِ الى الرقاد مقبّلًا الارض ثلاث مرّات - ففعل الشابّ هذه العبادة. ولم يجتنِ منها في الابتداء الّا نفعًا يسيرًا. الّا انّ مرشدهُ لم يبرح موصيًا ايّاهُ بمداومتها الى ان عزم الشابّ على السفر والتغرّب مع شباب آخرين من اهل الشرف والدولة مثلهُ - فلمّا اتي الى مرشدهِ ليودّعهُ اشار عليهِ بالمواظبة على الصلوة المقدّم ذكرها. ثمّ اطاعهُ الشابّ وسافر وبقي متغرّبًا سنين كثيرة - وعند رجوعهِ عاد الى مرشدهِ ليعترف. فتعجّب من تغيير تلميذهِ الى انسانٍ جديد مبغض كلّ دنس بغضًا بليغًا - فسألهُ عن سبب هذا التغيير فاجابهُ انّ العذراء المجيدة التي

اكراماً لها صلّى دائماً الصلوة الوجيزة المتقدّم ذكرها . كانت استماحت لهُ من الله نعمة الطهارة – وقصّ المرشد الخبر المعزّي في عظتهِ فسمعهُ قائد من قوّاد الجيش كان قد اعتراهُ ايضاً شيطان الدنس . فعزم على ممارسة الصلوة المذكورة . وفي زمن يسير تغيّر قلبهُ واصلح سيرتهُ – وبعد ذلك بستّة اشهر اراد ان يعرف حال سيرة المرأة التي كان يحبّها سابقاً . فلمّا دنا من باب منزلها حيث كان عتيداً ان يلقي نفسهُ في خطر الخطيّة شعر بيد غير منظورة طردتهُ بعيداً وردّتهُ الى باب بيتهِ . فعلم حينئذٍ انّ العذرآء نجّتهُ من السقوط في الخطيّة *

فاعتبروا هنا يا مباركين كيف انّ العذرآء تحبّ ان تسعف من يريد اوّلاً الفرار من اسباب الخطيّة . اكثر مما تحبّ ان تعين من يزجّ نفسهُ فيها اختيارياً – اعتبروا ثانياً ما يخصّ مقصودنا وما نحن في صددهِ . اي كم ترغب العذرآء ان تسعف الخطاة الراغبين اصلاح سيرتهم والمستعينين بها بهذه النيّة . وقد قالت هي للقدّيسة بريجيتا انها امّ جميع الخطاة القاصدين التوبة – فهؤلاء هم الذين تحبّهم حقّاً . كما انّ الطبيب يحبّ الاعضاء السقيمة لكي يشفيها . وهؤلاء هم الذين يسوغ لهم ان يلتجئوا اليها بحسن الايمان كالتجاء البنين الى والدتهم *

امّا بقيّة الخطاة الذين يحبّون المكث في حال الخطيّة فكيف يمكن ان تعتبر العذرآء عبادتهم لها . وها انهم يستخدمون هذه العبادة لفعل الخطيّة باوفر طمانينة وجسارة . فهؤلاء لا يجدون عندها العون الذي يرجونهُ *

خبّرونا انّ ثلاثة شباب جهّال خرجوا يوماً بالليل وذهبوا في الظلام الى مكان يمكنكم ان تفهموهُ بغير ان اقولهُ لكم . وكان معهم فانوس يضيء لهم في الطريق – غير انّ ذاك الفانوس انطفأ بغتةً . فرأى احدهم من بعيد سراجاً صغيراً متّقداً . وكان ذاك امام ايقونة مريم العذرآء التي كانت هناك . فقال لرفقائهِ انتظروني انتم هاهنا الى ان امضي فاشعل الفانوس . فمضى . ولمّا وصل الى حيث كان السراج متّقداً . واخذ شمعة بيدهِ ليشعلها . طفئ السراج حالاً –

فارتجع الى رفقتهِ خائبًا . الاّ انهُ نظر ايضًا فرأَى وقتئذٍ السراج مضيًا كما كان من قبل . فعاد راكضًا اليهِ واخرج الشمعة ليشعلها . فطفيَ السراج ايضًا - فانتبه حينئذٍ على ضلالهِ . وارتدّ عن مقصدهِ تائبًا . واخبر اصحابهُ بما كان . فرجعوا كلّهم الى منازلهم نادمين *

انّي قد قلتُ لكم : انَّ العذرآء لا تعتبر عبادة هؤلآء الخطاة لها . الاّ انهُ كان ينبغي ان اقول انها ربّما تبغض عبادتهم . لانّهم يضطرّونها بمسك حسناتها عنهم . وان قلتم : انَّ العذرآء قد تعامل بالرحمة هؤلآء الخطاة الخبثآء الذين يستعملون العبادة لها . لا لاصلاح سيرتهم . بل لكي تدفع عنهم العقاب والانتقام الالهيّ فقط . اجبتكم : انهُ لو صحّ هذا البرهان لاحاجة لكم ان تغرسوا كرومًا وتهتمّوا بخدمتها . بل انّهُ يكفي ان تملأُوا كلّ آنية بيوتكم مآء وتنتظروا مطمانين ان تشفع العذرآء الراوفة فيكم عند ابنها الالهيّ . فيحوّل لكم المآء الى خمر . لانّهُ قد ذُكر في الانجيل المقدَّس انّهُ تعالى بشفاعتها عمل مثل هذه الاعجوبة في عرس قانا الجليل (يوحنّا ٢) - اسمعوا خبرًا آخر : من زمن قليل اتّفق لرجل فقير انّهُ حجّ الى مكان مقدَّس مختصّ لعبادة العذرآء . فوجد في طريقهِ مبلغًا من الدراهم كفاهُ لنفقة حَجّتهِ . وفضل منهُ كثير - فلعلّ احدًا منكم يسافر راجيًا ما وجدهُ هذا الانسان باعجوبة - الاّ انّي لستُ اريد بهذا من الخطاة القساة ان يتركوا ما تعوّدوهُ من رياضات عبادتهم الخارجة للعذرآء . مع انّهم لا يفعلونها لاجل الغاية الواجبة . اي لاجل اصلاح سيرتهم - لانّهُ قد يمكن انَّ العذرآء بتدبير الالهيّ معروف لديها وخفيّ عنّا تستميح نعمةً لهم . نعمةً تصيّرهم ان يقضوا رياضات عبادتها لاجل الغاية الحميدة المتقدّم ذكرها *

قال داود النبيّ يا محبّي الربّ ابغضوا الشرّ (مزمور ٩٦ : ١٠) . وانا اقول للمومنين المتعبّدين للعذرآء . يا محبّي البتول ابغضوا الشرّ . لانّهُ بلا هذا البغض لا يمكن ان تحبّوا العذرآء وترضوها - فابغضوا اذًا الشيء الذي لا تبغض هي

غيرهُ. وابغضوهُ بغضاً قطعياً ثابتاً. ابغضوا الخطيَّة لانَّها اعظم الشرور وحاوية كلّ الشرور. كفُّوا منذ الآن فصاعداً عن فعل الشرّ. وحينئذٍ تختبرون كم تكون العبادة للعذراء مفيدة لاكتساب البركات الالهيَّة في هذه الدنيا وفي الآخرة *

الموعظة الخامسة والسبعون

في العبادة التي يجب ان نكرم بها القدّيسين ولاسيّما الملاك الحارس

انَّهُ قد اجاد القدّيس باسيليوس بقولهِ عن القدّيسين انَّهم أعلام للمؤمنين السائرين في بحر هذا العالم ترشدهم بضوءِ فوانيسها في ظلام ليل هذه الحيوة. وتصونهم من لصوص البحر الذين يجدّون في ضررهم. لانَّها تشبه برج داود المعلّق عليهِ الف ترس وكلّها اسلحة الأبطال (نشيد ٤ : ٤) - لانَّ القدّيسين يرشدوننا في طريق الخلاص بأمثلة فضائلهم. ويحفظوننا بقوّة شفاعتهم. ولهذا قال القدّيس برنردس: أنَّهم ظهروا في العالم لكي نستفيد من مثالهم. وصعدوا الى السماءِ ليسعفونا بشفاعتهم - وهذه هي الغاية التي اليها يجب ان نوجه عبادتنا للقدّيسين. اي ان نقتدي باثمار فضائلهم فنستحقّ اثمار شفاعتهم *

فلنتكلّمنَّ اذاً اليوم عن هاذين الامرين اكراماً للقدّيسين. ملاحظين ايضاً ملائكتنا الحارسين الذين من حيث انَّهم يحسنون الينا اكثر من بقيَّة القدّيسين فلهم حقّ علينا ان نكرّمهم اكراماً خصوصياً - فنقول اوّلاً: انَّ القدّيسين هم المثال الذي يجب ان نتدرّب عليهِ في اعمالنا لكي نكون عبادتنا لهم حسنة مقبولة لهم - فاعتبروا يا مباركين انَّ من اخصّ الحجج التي لاجلها تردّى ابن الله بناسوتنا هذه الحجّة وهي ان يقدّم لنا مثالاً منظوراً لنقتفيهُ ونبلغ بهِ الى القداسة - وكان ذلك ممّا يقتضيهِ كون المسيح مخلّص العالم. على انهُ لو

لم يعلّمنا كيف نستعمل الثمن العظيم الذي دفعهُ تعالى لاجلنا على الصليب . اي نفع كان يصيبنا منهُ – انهُ وجب ان يعلّمنا بمثال سيرتهِ كيف يمكننا ان نستحق وفور الخيرات التي اكتسبها لنا بموتهِ المقدّس – فاذا اتّضح ذلك فاقول انهُ ولو كان مثال السيد المسيح كافيًا لنا لاكتساب الفضائل . الاّ انّ مجدهُ وضعفنا كانا يقتضيان ان تُقدَّم لنا امثلة اقل كمالًا في القدّيسين ليستطيع كلّ واحد منهم ان يقول لنا مع الرسول : تشبّهوا بي كما تشبّهتُ انا بالمسيح (١قور٤ : ١٦)*

قلتُ اولًا انّ مجد السيّد المسيح كان يقتضي ذلك . لانّي اسالكم : متى تظنّون انّ الشمس تظهر وفور انوارها اكثر . هل حينما تبلغ وقت الظهر . كلاّ . لكن يحدث ذلك بعد غروبها حينما تشرك النجوم في نورها لكي ترى الطريق في غيابها ويضمحلّ الظلام الذي يشمل الارض حين تغرّبها عنها – فعلى هذا النحو اظهر السيّد المسيح على نوع خاصّ انهُ المثال الاوّل والاعظم لكلّ قداسةٍ حينما تغرّب من الارض ليظهر في السمآء وترك لنا بدلًا عنهُ نجومًا عديدة ملتحفة بنورهِ . اعني بهم القدّيسين لكي ينيروا لنا في غيابهِ ويرشدوا خطواتنا حين ظلام هذه الحيوة في الطريق الموصّلة الى ملكوت السمآء – قلتُ ثانيًا انّ ضعفنا كان يقتضي ان يقدّم الله لنا في القدّيسين قدوةً اقلّ قداسةً من قدوة قداستهِ السامية . لانهُ اوّلًا من الفضائل ما يتعلّق بهِ ضرورة شيءٌ من النقص كالايمان والتوبة الى غير ذلك ممّا لم يمكن ان يوجد في السيّد المسيح . ومن ثمَّ لم يمكن ان يكون لنا باقنومهِ الالهيّ قدوةً في هذه الفضائل – فلم يكن ممكنًا لهُ ان يقول لنا : تعلّموا منّي ان تومنوا ايمانًا ثابتًا بالاسرار التي اوحيتُ بها من قبل الاب السماويّ . تعلّموا منّي واقتدآء بي ان تهربوا من انتقامهِ وترجوا نعمتهُ وتندموا على سوء وفائكم لاحساناتهِ بالمعصية والخيانة – فلاق بهِ جلّ ذكرهُ ان يقدّم لنا امثلة نقتدي بها لبلوغ هذه الفضائل . وذلك فعلهُ بواسطة القدّيسين . لانهُ قدّم لنا قدوةً في مريم المجدلية قائلةً لنا بمثالها : تشبّهوا بي وتعلّموا منّي ان تندموا على

خطاياكم بدموع سخينة الى حين وفاتكم – والذي نقولهُ عن التوبة . قولوهُ عن كلّ فضيلة اخرى تشبهها اذ اراد السيّد المسيح ان نملكها بالسهولة لسبب ضعفنا الطبيعيّ فاقام لنا بدلاً عنهُ اناساً يضيئون لنا بمثال قداستهم . وهم يقول ما سُطّر في رسائل بولس الرسول : كونوا بلا عيب في وسط حقب معوجّ وملتوٍ. تضيئون بينهم كالانوار في العالم (فيلبي ٢ : ١٥) – ثمَّ انّهُ وجب ذلك ايضاً نظراً الى ضعفنا لاجل سبب آخر. وهو ان نملك الفضائل المتلألئة في السيّد المسيح . لانَّ الاقتداء باناس نظيرنا هو افضل سهولةً لنا . ومن اجل ذلك قرّر الرسول مرّات كثيرة على المومنين قولهُ المتقدّم ذكرهُ : تشبّهوا بي . لانَّ الرسول كما اعتبر الذهبيّ فمهُ لم يقل هذا بروح العجرفة . بل انّهُ بقولهِ هذا عنى انّ امتلاك الفضيلة هو امر سهل *

وقد اختبر القدّيس اوغسطينس قوّة مثال القدّيسين. وخبّرنا هو بذلك. لانّهُ لمّا افاق على سوء سيرتهِ وابتدأت النعمة الالهيّة ان تجتذبهُ الى التوبة شعر بصعوبة عظيمة ولم يرتضِ بترك اللذّات الحسيّة الى ان لحظ مثال القدّيسين ورأى منهم من زهد في هذه اللذّات . فشرع يقول باطناً : الستَ تقدر ان تفعل ما فعل هؤلاء الكثيرون . انّهم كانوا بشراً مثلك ضعفاء طبعاً نظيرك . ومع ذلك سلكوا بعون النعمة في طريق البرّ. فلماذا لا تمتثل بهم – ولمّا ظهر في مدينة رومية العظمى خبر سيرة القدّيس انطونيوس التي سطّرها القدّيس اثناسيوس فلا يقدر احد ان يصف لكم كم اثّر في قلوب الناس مثال فضائلهِ . انّهم كانوا يلتحفون بشعار الخزي عند نظرهم من احدى الجهات بعدهم الشاسع من الكمال المسيحي . ومن الجهة الاخرى قداسة انسان نظيرهم زهد في كلّ غنى العالم ولذّاتهِ وجاههِ حبّاً للسيّد المسيح . واجتذب لاقتناء فضائلهِ اناساً لا يحصى عددهم ازهروا بمثلهِ وبمثالهِ بالقداسة *

فهذه هي الاسباب التي من اجلها كنّا نحتاج الى قدوة القدّيسين كلّ

الاحتياج. ولاجل جزيل احتياجنا اليها دبّر لنا السيّد المسيح هذا التدبير وهو ان يكون الناس في كلّ رتبة ووظيفة ودعوة مهما كانت خطرة يجدون في القدّيسين أمثلة كلّ الفضائل التي يستطيعون ان يتمثّلوا بها - ولهذا كان من الواجب ان نقرأ كثيرًا كتب اخبار القدّيسين ونتأمّلها. لانّ مثالهم يرينا الفضيلة ويعطينا قوّة لاكتسابها. لانّ الله اكرامًا لهم يؤتينا نعمة بها نتقوّى ونكتسب الفضيلة - فكما انّ شجرة الدردار المرتفعة بعلوّها تجذب الكرمة الى الارتفاع وتقدّم لها ايديها ايضًا. اعني اغصانها. وبها ترفعها وتحملها. هكذا القدّيسون بأمثلتهم يروننا الفضيلة ويجذبوننا اليها بل يسعفوننا ايضًا للارتقاء اليها - قال سموئيل لشاول: اذا ما دخلت (رابية الله) ... يلقاك صفٌّ من الانبياء وهم منحدرون من ... وهم يتنبأون. فيحلّ عليك روح الربّ فتتنبأُ معهم وتتغيّر رجلًا آخر (١ سموئيل ١٠: ٥) - وهذا ما يحدث كلّ يوم للكثيرين الذين عند دخولهم منهج الفضيلة يجدون زمرة القدّيسين والقدّيسات من كلّ حال من احوال الناس من آمرين ومامورين وكهنة وعلمانيّين وعلماء وجهّال وشيوخ وشباب. وهم بمثالهم الصالح يشجّعونهم ويحثّونهم على الارتقاء الى العلا. ثمّ يحلّ عليهم روح الله وينفذ قلوبهم ويغيّرهم. ويحيلهم الى اناس جدد. ومن كونهم خطاة محبّي اللذّات والغنى ومبغضي التقوى يصيّرهم تائبين راغبين في الديانة راحمين للفقراء والمحتاجين. نشيطين في اكتساب الفضيلة. ومرغّبين غيرهم في اكتسابها - فعلى هذا الخصوص تتوقّف العبادة للقدّيسين اي على الاقتداء بفضائلهم *

انّنا نرى كثيرين يستحسنون ما بهِ يكرمون القدّيسين لانّهم يقدّمون هدايا لمذابحهم او يصلّون اكرامًا لهم شيئًا من الصلوات. ولكنّ هذا ليس بكافٍ. لانّهُ ينبغي لهذه العبادة الخارجة ان تقترن بالعبادة الباطنة التي بها نجتهد في اقتفاء آثار فضائلهم - ومن قولي هذا لا تنتجوا انّي اريد ان تتركوا عباداتكم الخارجة للقدّيسين لاجل انّكم لا تتشبّهون بهم. معاذ الله من ذلك - ولئلاّ

تهملوا هذا الاكرام الخارج سنورد لكم في ذلك خبرًا مفزعًا جدًا . ثمّ نرتدّ الى مادّة تعليمنا *

فاعلموا انهُ حُكي انّ راهبًا من الرهبان كان متعبدًا للقدّيسة بربارة. وكان يصلّي كلّ يوم اكرامًا لها صلوة معلومة . الاّ انهُ بتمادي الزمان فترت عبادتهُ واهمل اكرامها. فظهرت لهُ القدّيسة بربارة وقالت لهُ: أهكذا تهمل خدمتي. فاعلم انّي انا ايضًا اهملك ولا اسعفك بشفاعتي - فاضطرب الراهب عند سمعهِ هذا التوبيخ والتوعّد . الاّ انهُ لم ينتصح ولم يستفدْ منهُ . بل استمرّ على حال توانيهِ . ففقد عون القدّيسة شفيعتهِ . ومن كونهِ فاترًا حصل باردًا جافيًا - وبعد زمنٍ يسير خلع الاسكيم الرهبانيّ المقدّس . وارتدّ الى العالم ككلب يرتجع الى قيئهِ . وتمرّغ في حمأة الدنس - واقام مدّة طويلة في هذه الحال الى ان اعتراهُ مرض شديد . وحينئذٍ افتقدهُ احد اخوتهِ الرهبان . وقدّم لهُ ثوب الرهبانيّة. وحثّهُ على التوبة . غير انّ قلبهُ كان قد قسا . والقلب القاسي كما قيل في الكتاب المقدّس يكون لهُ سوءٌ في الآخرة (سيراخ ٣ : ٢٧) - فلمّا رأى الشقيّ الثوب المقدّس . فكأنّهُ رأى فيهِ قضاءَ الهلاك مجزومًا عليهِ فصرخ قائلاً : ابعدوا عنّي هذا المنظر المخيف . ولمّا قال هذا شرع من ساعتهِ في نزع النفس ومات ميتةً شنيعة - فانظروا يا مباركين عظم الخطر الذي يصيب النفس التي تهمل القدّيسين - فلستُ الوم هذه الرياضات الروحيّة الخارجة . بل انّي الوم ما يوجد في ذلك من النقص . واتمنّى ان تفعلوهُ بروح عبادة تشبه عبادة القدّيسين الذين لاجلهم واكرامًا لهم تفعلون هذه الرياضات . اعني ان تتحفّظوا من الخطية التي هم يبغضونها اشدّ البغض - قال جماعة من العلماء الطبيعيّين انّ الاوتار المصنوعة من مصارين الذئب لا تتفق في العود مع الاوتار المتّخذة من مصارين الشاة . بل يستمرّ بينهما التضادد الغريزيّ . ومن المحال ان تتّفق في ردّ صوت مناسب - كذلك لا يمكن ان توجد موافقة بين احشاء انسان خبيث دنس

شرس مفترس كالذئب . وبين احشاء انسان قدّيس انيس حليم نقيّ نظير الخروف . انهُ من الممتنع ان يتفقا الاَّ ان يستحيل الذئب الى خروف وديع *

فمن الذي يحتمل اعتذار هؤلاء المسيحيّين الذين اذا قدّمنا لهم مثال احد القدّيسين وقصصنا عليهم اخبار فضائلهم ليتمثّلوا بهم . يجيبون قائلين : انّ هؤلاء كانوا قدّيسين – ما هذا القول . افلعلكم اذًا لا تريدون ان تتشبّهوا بالقدّيسين الذين جعلهم الله لكم اسوةً وقدوة . بل تريدون ان تتشبّهوا بالاشرار الذين يعرضهم الشيطان عليكم لتقتدوا بآثارهم – نعم انّ ذلك كان قديسًا . الاّ انهُ كان شبيهًا لكم في الطبيعة . ومثلكم كان مركّبًا من جبلة آدم القديم – قال القدّيس امبروسيوس مخاطبًا فتاةً بتولاً كانت قد سقطت في خطيّة الدنس : انّكِ بئسما تعتذرين بقولكِ انّني ما قدرتُ على مقاومة وسوسة الشيطان لضعف طبيعتي . لانهُ سيحاسبكِ الله ويدينكِ امام القدّيسة تقلا ورفيقاتها البتولات اللواتي لا يُحصَى عددهنَّ وهنَّ سيقلن اننا كنّا كلّنا متردّيات مثلكِ بجسد ضعيف – وان قلتم لي انّ من القدّيسين من زلّ مثلكم فسيصطفّ امامكم جيش عظيم من الذين تابوا بعد سقطتهم و سيخجلونكم باظهارهم لكم مثال سيرتهم بعد توبتهم . لانّهم بعد سقطتهم اصبحوا اشدّ شجاعة في مقاومة العدوّ – فلا تعودوا اذًا تقولون انهم كانوا قدّيسين . لانّ هذا المقال لا يعذركم . بل يدينكم من حيث انّهم كانوا كما يلزمكم ان تكونوا انتم اي قدّيسين – وما معنى كون الانسان مسيحيًا . اليس معناهُ انّ الله اختارهُ ليكون قدّيسًا حسب شهادة الرسول اذ كان غالبًا يدعو المومنين قدّيسين . امّا لانّهم كانوا قدّيسين حقًّا . وامّا لكي يعلموا انّ قداسة دعوتهم تلزمهم بذلك – فمن لا يريد ان يقتدي بمثال القدّيسين . ينبغي ان يجحد اسم المسيحي لكون امّة المسيحيّين كما قال بطرس الرسول هي امّة مقدّسة (١ بطرس ٢ : ٩) – وعنهم اي عن المسيحيّين قيل ايضًا في الكتاب المقدّس انّهم اولاد القدّيسين – فان كان الاصل مقدّسًا . ينبغي ان تكون الاغصان النابتة

منهُ مقدَّسة ايضًا . كقول الرسول : ان كان الاصل مقدّسًا فكذلك الاغصان *

فان كان القدّيسون الذين نكرمهم ونستعين بصلواتهم يرغبون بهذا المقدار ان نتشبَّه بهم . فكم وكم يرغب ذلك ملاكنا الحارس ورفيقنا الامين الذي يفضّل كونهُ قدّيسًا على كلّ ما يمتلكهُ من الكمالات السنيّة والكرامات السامية . ولا يزال يحبّ ويمدح في الله كونهُ تعالى قدّيسًا والقداسة بالذات . قائلًا مع بقيّة الملائكة : قدّوس قدّوس قدّوس ربّ الجنود (اشعيا ٦ : ٣) — قال مار توما اللاهوتيّ : انَّ النحل لا يحتمل المكث حيث توجد جثّة منتنة . بل انّهُ لا يطيق الاستمرار على ازهار قاربت الزوال والفناء . فكيف يمكن الملائكة الطاهرين ان يطيقوا السكنى مع نفس خاطئة . وكيف لا يفارقونها ويبتعدون عنها نافرين — فبعد ان اوضحنا النفع الجزيل الحاصل لنا من قدوة القدّيسين فهلمّ بنا نبيّن العون العظيم الذي ياتينا من قِبَل شفاعتهم — انَّ الشرائع البشريّة لا تأذن لعظماء دولة الملك ان يشفعوا في المحكمة للمتخاصمين . ولكن في السماء يحدث الامر بخلاف ذلك . لانّ الله لا يمنع أعزّ اهل دولتهِ واكثرهم عظمةً عن الشفاعة فينا عند عزّتهِ . بل انّهُ يامرهم بذلك — اما كان يكفينا ان يكون السيّد المسيح وحدهُ شفيعنا عند ابيهِ . الاّ انّهُ جلّ ذكرهُ احبّ ان يشترك القدّيسون معهُ في الشفاعة كما انّهُ اراد ان يشتركوا معهُ في خلاص العالم . ولهذا قال في مناجاتهِ اباهُ السماويّ : انا اعطيتهم المجد الذي اعطيتني (يوحنا ١٧ : ٢٢) — ومن ثمَّ لا جرم في انَّ القدّيسين يسعفوننا في كلّ ساعة بشفاعتهم ويستميحون لنا انعامات كثيرة بتضرّعاتهم . وذلك حينما نقدّم لله طلباتنا على يدهم . وحينما يقدّمون لهُ دعاءهم — فيعينوننا اولًا كثيرًا جدًّا حينما نقدّم لله طلباتنا على ايديهم . لانّهُ من المعلوم انّهُ ليس شيءٌ يجعل صلواتنا اكثر قبولًا لدى الله ممّا تفعلهُ فضيلة الاتّضاع حسب شهادة الحكيم : صلوة المتواضع تنفذ السحاب (سيراخ ٣٥ : ٢١) — ومن اعظم الاتّضاع ظنّ الانسان في نفسهِ انّهُ غير اهل ليقدّم لله طلباتهِ

بذاتهِ بغير وسيط. ومن اعظم الاتّضاع ايضًا استعانتنا بشفيع مقتدر مقبول اكثر منّا ليقدّم هو طلباتنا - فلا شكّ انّ صلواتنا تصير بهذهِ الواسطة مقبولةً اكثر عند الله. لانهُ قد ذُكر في الانجيل المقدّس عن قائد المائة انّهُ ارسل شيوخ اليهود الى السيّد المسيح. ولم يجسر ان يمضي هو بنفسهِ. لانهُ احتسب نفسهُ غير اهل ليقدّم لهُ تعالى تضرّعهُ دون وسيط وشفيع (لوقا ٧ : ٧). وهذه الصلوة المقترنة بالتواضع نفذت قلب يسوع ومدحها جهارًا *

ثمّ اننا ثانيًا نستفيد من شفاعة القدّيسين على وجه آخر. اذ يرفعون اليهِ حاجاتنا لكي يقضيها - وهم كما قال توما اللاهوتيّ يشفعون فينا على نوعين اي ظاهرًا ومضمرًا. فيشفعون فينا مضمرًا لانّ استحقاقاتهم لا تزال منتصبة امام الله وبها يمجّدونهُ تعالى تمجيدًا متّصلاً كبخور موضوع على المذبح. بل انهم بها يلتمسون من الله علاجًا لبلايانا - ولعمري انّ هذا النوع من الشفاعة لجزيل المنفعة. لانّ الجنديّ الذي يُري الملك جراحهُ التي اصابتهُ في الحروب لاجل قيام مجد الملك. لا يحتاج ان يشفع بلسانهِ في اصحابهِ. لانّ جراحهُ هي كأفواه منفتحة تشفع فيهم بفصاحة مؤثّرة - غير انّ الملفان مار توما المذكور يلاحظ هنا انّ شفاعة القدّيسين هذه المضمرة لا تبلغ الاستجابة دائمًا لاجل ما يوجد فينا من الموانع - وامّا شفاعتهم الاخرى فانّ الله يستجيبها دائمًا كما قال المعلّم المذكور. ولهذا لا يكتفون بشفاعتهم لنا المضمرة التي يقدّمونها باستحقاقاتهم بل يزيدون عليها الشفاعة الفعليّة. اذ يرفعون الى الله شدائدنا ويلتمسون لنا في شانها العون والعلاج - وقد سُطّر في الكتاب المقدّس انّ ارمياء النبيّ كان بعد مماتهِ يصلّي كثيرًا لاجل الشعب والمدينة المقدّسة كلّها (٢ مقابيين ١٥ : ١٤) - والحال انّهُ لا شكّ في انّ جميع القدّيسين يفعلون مثلهُ. كما قال القدّيس هيرونيمُس. لانّهُ ان كان في زمان حياتهم هنا حيث كان ينبغي ان يعتنوا بأنفسهم. كانوا يصلّون لاجلنا ويستمنحون لنا من الله انعامات كثيرة. فكيف لا يشفعون

الآن فينا بعدما دخلوا ملكوت السماء. ولا يتمنّون شيئًا غير ان نشترك في مجدهم وسعادتهم – ها هوذا بولس الرسول يشهد: انهُ نال بدعائهِ من الله ان ينجّي من الموت مائتَيْ نفس من النوتيّة الذين كان مسافرًا معهم في البحر وحاصلاً مثلهم على خطر الغرق (قصص ٢٧: ٢٤ و٣٧) والآن اذ قد بلغ الميناء سالمًا. هل يتغاضى عن الصلوة لاجل الذين يخاطرون بانفسهم في بحر هذه الحيوة الهائج. انتهى كلام القدّيس هيرونمس *

انّهُ يجب على الشفيع ان يمتلك على الخصوص هاتين الصفتين وهما قوّة بليغة في الخطاب. ورغبة شديدة في نوال المطلوب. والحال انّ القدّيسين يمتلكون هاتين الصفتين على نوعٍ عجيب. فانهم اوّلاً يحبوننا محبّةً حقيقيّة. قال القدّيس اوغسطينس: انّي اعتقد متيقّنًا انّ كلّ من يحبّ الاه الملائكة يحبّني انا كلّ المحبّة – كأنّهُ يقول انا اعتقد انّ كلاًّ من القدّيسين من حيث انّهُ يحبّ الله يحبّني ايضًا ويحبّني كلّ المحبّة *

وامّا قوّة شفاعتهم فمن يقدر ان يشكّ فيها. وقد قال مار توما اللاهوتيّ: انّ الله يستجيب دائمًا الى شفاعة القدّيسين بحسب ما يطلبونهُ لاجلنا – ولا تظنّوا يا مباركين اننّا بقولنا هذا نشين الجود الالهيّ. كأنّهُ يحتاج الى من يحرّضهُ على فيض حسناتهِ. حاشا وكلاّ. يقول امام المعلّمين اللاهوتيّين. بل انّهُ يفعل كذا لكي يحفظ حسن النظام الذي رسمهُ وهو انّ العلل السفليّة تبلغ الى غايتها بواسطة العلل المتوسّطة – ومن ثمَّ بحيث انّنا مبتعدون عن الله جدًّا. وجب ان نقترب اليهِ بواسطة القدّيسين الذين هم وسطاء بينهُ تعالى وبيننا – فكما انّهُ ليس ينقص في قدرة الله ارتضاؤهُ في العلل الثانية بان تسعى معهُ في المفعولات الطبيعيّة في اعظم مفعولات النعمة. بل انّ الله بهذا يظهر كثرة جودهِ. اي بما انّهُ لا يكتفي بان يملّكهم الغبطة الابديّة برؤية وجههِ. بل يريد ان يستطيعوا ان يبلّغوا آخرين اليها. وما عدا ذلك يرغب الله جدًّا بان يكون الجميع يكرّمون

القدّيسين . ولهذا احبّ ان تجلب الينا ادعيتهم كلّ نوع من الخيرات . فنرغب احترامهم وتوقيرهم كما نرى الناس يكرّمون عظمآء الملك المقتدرين — فمن ذلك يتّضح عظم جهل الذين لا يرغبون شفاعة القدّيسين واكرامهم . وهكذا يخسرون العون الخاصّ المعطى لكلّ من يوقّرهم ويستعين بصلواتهم — انّهُ يُخاف عليهم ان يصيبهم ما اصاب اهل مدينة ليسا الذين فتك بهم اعداؤهم ولم ينصرهم احد لانّهُ لم يكن بينهم وبين احد الناس وداد وصداقة . هكذا الذين لا يبالون بصداقة القدّيسين ويهملون المعاملة معهم بتكريمهم والاستغاثة بشفاعتهم سياتي عليهم اعداؤهم . وحينئذٍ لا يجدون احدًا يعينهم *

فاجعلوا لكم يا مباركين شفيعين في السمآء تستطيعون ان تلتجئوا اليهم في حين الشدّة وتجدونهم مستعدّين لاعانتكم — ضعوا في اياديهم امر خلاصكم ما دمتم في هذه الدنيا . كما قال ايّوب البار . التجئوا الى احد القدّيسين (ايوب ٥ : ١) — اختاروا لكم واحدًا منهم وارتجوا معونتهُ بممارسة رياضات مسيحيّة اكرامًا لهُ *

الّا انّي احثّكم على الخصوص على العبادة للملاك الحارس بكلّ ما يمكنكم من الاشيآء المقبولة لهُ ولاسيّما بالاصغآء الى صوتهِ والاقتدآء بمشوراتهِ . لانّ هذا هو الامر الخاصّ الذي اوصاكم الله بهِ بقولهِ : اسمع لصوتهِ (خروج ٢٣ : ٢١) — فطوباكم ان تبعتم هذه المشورة الالهيّة . لانكم ستختبرون وفور الخيرات والنعم الناتجة من هذه العبادة — تذكّروا ما قالهُ طوبيّا : اننا بنو القدّيسين (طوبيا ٢ : ١٨) — فلنقتدينَّ بهم سائرين في آثار فضائلهم لئلّا نسقط عن شرفهم ووراثة سعادتهم — قال الحكيم : اكليل الشيوخ اولاد الاولاد وفخر الاولاد آباؤهم (امثال ١٧ : ٦) — انّ القدّيسين هم شرف الشعب المسيحيّ . فلنكن نحن اكليلهم بحسن عبادتنا لهم وتعييد اعيادهم بما يجب من التقوى . لا بصرفها بالملاهي والملذّات — انّنا بنو القدّيسين . فلنلتجئنَّ اليهم بثقة لانّهم يحبّوننا محبّةً ابويّة . ويرغبون في خيرنا ومساعدتنا ووصولنا الى وطنهم السعيد . لكي نتمتّع معهم بالمجد الابديّ *

الموعظة السادسة والسبعون

في وجوب استعداد المومن للموت

انّنا نتكلّم اليوم عن الحقيقة التي هي ضروريّة اكثر من جميع الحقائق العمليّة. وهو وجوب استعداد الانسان للموت وحالة هذا الاستعداد - أنّي ابتدئُ هذا الخطاب امام اناس اظنّ انّهم يريدون خلاص نفوسهم. لانّهُ اذا وُجد في هذا المحفل احد من الاشقياءَ الذين تعاهدوا مع جهنّم حسب قول النبيّ (اشعياء ٢٨ : ١٥) فليفرّ عنّي او يسدّ اذنيهِ. لانّي لستُ اوجّهِ اليهم هذا التعليم - غير انّي اظنّ انّكم جميعًا ترغبون الخلاص الابديّ. ومن ثمّ فكلامي موجّه اليكم كلّكم - فلنبتدينَّ ولبيان ضرورة الاستعداد للموت. فلنستعملنَّ نور العقل ونور الشهادة الماخوذة من الايمان *

انَّ ضرورة الاستعداد تتولّد في كلّ عمل من جهتين. اي من العمل عينهِ. او من العامل. وذلك حينما يكون العامل قليل الخبرة. او عندما يكون العمل جزيل الاعتبار - فمن المعلوم الواضح انَّ الفطنة تقتضي وقتئذٍ ان نحسن الاستعداد باهتمام شديد - والحال انهُ اذا بحثنا اوّلاً عن العمل نرى المومنين كأنّهم لا يفهمون ايّ شيءٍ هو انتقال الانسان الى حيوة اخرى - فهل يسوغ لهم ان ينتقلوا الى الوطن الابديّ على غفلة وقبل ان يفتكروا فيهِ باهتمام. فيا ليتهم يفهمون جيّدًا ضرورة الامر المتعلّق بهذا الوقت وقت الموت - فاحسنوا الاصغاءَ وتأمّلوا بتأنٍ في ما نحن قائلوهُ *

انّهُ بعد الموت يصيبكم احد هذين الامرين. اي امّا نوح ابديّ. وامّا سرور دائم. امّا سجن سرمدي. وامّا ملك باقٍ. امّا فقر او غنى لا يزولان. امّا

شقآء او سعادة لا انتهآء لها - افليس يستحقّ هذا الوقت ان نسبق ونتأمّلهُ كما يجب قبل ان يوافينا - انّ من استفاق على خطر قريب وتأكّدهُ لا يحتاج الى من يحثّهُ على الهرب - فلقد خبّرنا رجل فاضل تقيّ قال انهُ كان في مدينة من مدن فرنسا تدعى ارلي تعلّقت النار ببيت كان فيهِ رجل مخلّع قاعد من سنين عديدة عديم الحركة. فهذا لمّا رأى النار مسرعة اليهِ. افرغ حينئذٍ كلّ جهدهِ بعزم شديد. حتّى انّ العزائمِ عادت الى الاعضآء السقيمة. فنهض وخرج من البيت قبل ان تدركهُ النار - يا ما اكثر ما كان المومن يبذل مجهودهُ لو ينظر بعين الايمان ويعقل حسناً اللهيب الجهنّميّ العتيد ان يتعلّق في من يموت موتاً سيّئاً رديّاً - قال موسى النبيّ: لو تفقّهوا لفطنوا بهذا وتفكّروا في عاقبتهم (تثنية ٣٢ : ٢٩) - ليتهم يفهمون جيّداً هذه الحقيقة المثبتة في الكتب المقدّسة. انهُ قد حُتم على الناس ان يموتوا مرّةً واحدة (عبرانيّين ٩ : ٢٧) - قال الحكيم: اذا سقطت الخشبة نحو الجنوب او سقطت نحو الشمال. فحيث تسقط الخشبة هناك تكون (جامعة ١١ : ٣) - والحال انّ السيّد المسيح قد سبق واخبرنا بانّ الموت ياتينا كلصّ يهجم علينا في ساعةٍ لا نعرفها. وهذا ما اشار اليهِ صاحب المزامير قائلاً: ان لم ترجعوا يصقل سيفهُ. اوتر قوسهُ وهيّأها (مزمور ٧ : ١٢). كانهُ يقول للخطاة: انّ الله قد تسلّح باسلحتهِ واخذ سيفهُ وقوسهُ. فسيفهُ ليضرب بهِ من قرب وقوسهُ ليجرح بهِ من بعد - الّا انهُ تعالى لا يعلمنا ايّما من هاذين الشيئين يستعمل. السيف ام القوس. وذلك لكي يكون كلّ منّا مستعدّاً - فلو يرشق الله سهماً يصيب الآن احدكم في هذه الكنيسة اي لو يفاجئهُ الموت من بغتة في هذا المحلّ في هذه الساعة ماذا يكون منكم الى ابد الآبدين انتم الذين تعيشون كأنّكم لستم مائتين - انتصحوا يا احبّائي انتصحوا عند سماعكم صوت البوق الرسول المنبه للخطاة بقولهِ: انهم بينما يقولون هدوّ وسكون فهنالك يهجم البوار عليهم بغتةً (١ تسلونيقي ٥ : ٣) *

فكونوا اذًا مستعدّين للموت . لانهُ لا يوجد امر اكثر ضرورة من ذلك . نظرًا الى عظمة العمل كما راينا الى الآن نظرًا الى عدم خير العامل كما نحن الآن شارحون . اعني قلّة اهلية الخاطئ ليموت موتًا صالحًا بعدما عاش عيشة سيّئة - انيّ افترض واسلّم لكم ما ترجونهُ . وهو انّكم لا تموتون موت الفجأة مع ان هذا يصيب كثيرين . بل انّكم في مرضكم الاخير تجدون مهلة تعدّون فيها انفسكم للموت - وانا اقول انّهُ لكي تموتوا في هذا الفرض موتًا صالحًا . ينبغي ان تعيشوا مستعدّين للموت - فليكن الامر كما قلتم . اي انّكم تجدون وقتئذٍ زمانًا كافيًا لاتقان استعدادكم للموت . الاّ انّي اسألكم ما النفع الناتج من هذا الزمن الاخير ان كنتم لا تستعملونهُ جيّدًا . فانّ الكتاب المقدّس لا يزال يتوعّد بموت سيّئ من يعيش عيشًا سيّئًا . ويكفي ان نذكر شهادة الحكيم اذ قال : القلب القاسي يكون لهُ سوء في الآخرة (سيراخ ٣ : ٢٧) ايّ انهُ سيموت موتًا سيّئًا . لانّهُ بعد ما استمرّ طول عمرهِ مستغرقًا في الخطيئة يصير بهِ ما يصير بالحديد الذي يترك في الخلّ زمانًا مديدًا . فانّهُ حينئذٍ لا يلين تحت ضربات المطارق . هكذا ذاك يحصل على قساوة شديدة حتّى انهُ لا يلين تحت الضربات الالهيّة - انّي لا اقول عمّن لا يكون قد استعدَّ سابقًا للموت انَّ الله لا يقبلهُ ابدًا في تلك الساعة اذا طلب منهُ المغفرة . مع انّهُ قد قال الكتاب المقدّس عن انطيوخس الملك انّهُ في مرضهِ الاخير طلب الرحمة من الله فلم تُقبَل توبتهُ لانّهُ هكذا سُطّر في الكتاب المقدّس : كان هذا الفاجر يدعو الربّ ويستصرخهُ فلم يكن ليرحمهُ (٢ مقابيين ٩ : ١٣) - بل انّي اقول : انّهُ ولو مدّ الله يدهُ اليكم فانّكم لن تنالوها انتم - انظروا كم مرّة الشمس ترفع الى الجوّ ابخرة وتكون منها غيوم . ومع هذا لا ينزل مطر لانّ الارض ترسل بغتةً ريحًا تبدّد الغيوم . وبهبوبها يزيد عطش النباتات اليابسة حينما كانت السماء مستعدّة لاسقائها - فهذا نفسهُ يحدث بهؤلاء الخطاة الذين لا يستعدّون في زمن حياتهم . راجين ان يفعلوا ذلك عند الموت . لانّهُ ولو انّ

الله يعدّ لهم مطر نعمهِ الوافرة فانّهم يستمرّون على حال يبسهم الروحيّ . بل يزدادون قساوة لسبب انّ رياح اهوائهم تبدّد مطر النعمة المرسلة اليهم . كالبغضة والانتقام والشهوة النجسة وافراط الاهتمام بالامور العالمية وكلّ هذه الاهواء تصير الزمن المقدّم لهم من الله باطلاً . ولا تدعهم ان يصرفوهُ في خلاص انفسهم - وليس هذا فقط . اي جعلكم باطلَين الزمن والعون المعطيَين لكم من الله . بل انّكم في مرضكم الاخير لا تقدرون ان تستفيدوا منهما لسبب عظم الصعوبة الحاصلة من ضعف الجسد وقلق النفس - من ذا لا يرى الموانع الناتجة من زوال قوّة الجسد - انَّ من كان ماهراً في صناعة الضرب بالعود . لا يقدر ان يضربها جيّداً ان لم تكن الاوتار مركّبة جيّداً . فكيف يحسن ضربها من لم يتسلّم هذه الصناعة ابداً . ها انّ الانام العابدين انفسهم الذين هم معتادون على طلب الغفران من الله وعون نعمتهِ ورحمتهِ يتعبون كثيراً في اصلاح حالهم وقت المرض الاخير . فكيف الذين ليسوا بمعتادين على ذلك - اشرف رجل شقيّ على الموت . وكان الكاهن يحثّهُ على اخذ الاسرار . فأجابهُ قائلاً : كيف يمكن لي هذا وها انّ لي اربعين سنة لم افتكر في ذلك - وهذا ما يختبرهُ جميع الخطاة . ولو انهم لا يعترفون بهِ كلّهم - وسبب هذه الصعوبة الاولى هو من قِبَل الارادة اذ انّها لا تفعل افعالها الّا بواسطة النور الذي ياتيها من الفهم . والحال ان الفهم لا يستطيع ان يصوّر الاشياء ويريها الّا على نحو ما يعرفها - وانَّ عقل الانسان في ساعة الموت يكون ضعيفاً مظلماً فلا يصوّر الاشياء في ذلك الوقت الاخير ولا يريها الّا في ضوءٍ مقتم - وينتج من ذلك بالضرورة انّ الانسان لا يعمل حينئذٍ عملاً الّا بضعف الفهم والتراخي العظيم - ومن الواضح انَّ من لا يكون اكتسب ملكة راهنة في العبادة بالمداومة على افعالها الكثيرة . يلتزم حينئذٍ ان يصرف جهداً شديداً بليغاً ليستطيع ان يقاوم صعوبة حالهِ *

وما عدا ذلك ستكون النفس متضيّقة من قِبَل ثقل الجسد وايضاً من جهة لدغ الضمير اذ يصيّر الانسان ان يخاف من الامتثال امام منبر الله خوفاً

حميتاً – ولا تظنّوا ان هؤلآء الذين ترونهم اليوم لا يبالون بهذا الامر ينجون منهُ في تلك الساعة. لانّي اقول متيقّناً انهم سيخافون اكثر من الآخرين. فانّ طمانينة هؤلآء الخطاة لا تتولّد من استعظام جود الله ورحمتهِ. بل انّما سببها هو قلّة اعتبارهم للاهانة التي يلحقونها بهِ تعالى بالخطيّة – ولكنّهم في ساعة الموت سيستعظمون الخطيّة جدًّا جدًّا. لانَّ الضمير حينئذٍ يظهرها لهم كما هي. ولا شكّ انَّ الشيطان الذي سيفرغ كلّ جهدهِ في ان يخيف الخطاة الاشقياء في هذه الساعة المقيمة سيسعى في ذلك ايضاً *

الاّ انّهم يرجون الخلاص بواسطة الاعتراف في ساعة موتهم: قد سلّمتُ لهم انّهم يعترفون. وفي اعترافهم يذرفون دموعاً كثيرة – حاشاكم يا مباركين ان تتّكلوا على مثل هذا الاعتراف اعتراف اناس صرفوا كلّ حياتهم في الخطيّة لا يخطر ببالهم امر الاستعداد للموت. لانّهُ ما هذا الاعتراف الذي يصير حينما يكون الانسان ميتاً بنصفهِ وبالجدّ الجهيد يقدر الكاهن ان يستخرج من فمهِ نعم ولا لا يُفهَم معناها – امّا دموع أولئك الخطاة فقد يتّفق مرّات كثيرة انّها تكون مسبّبة من دخان جهنّم الموضوع امام اعينهم. وهي تشبه دموع قايين وشاول وشمعي وانطيوخس – انّهم سيبكون لا على خطيّتهم. بل على عقابها – وان اعترضتموني بأحد هؤلآء مات مفيقاً على حالهِ متمتّعاً بصحّة قوى نفسهِ. فعنهُ اقول اوّلاً: انّ هذا يتّفق في النادر. ثانياً انّ مثل هذا الانسان هو حاصل على خطر عظيم. لانَّ هؤلآء غالباً لا يستعدّون للموت الاّ حينما يكون الموت قد دخل منازلهم ودنا من فراشهم ليخطفهم. وذلك امّا لانَّ اقرباءهم يكتمون عنهم خطر الموت ولا يعلمونهم بهِ الاّ حينما يكون قد امتثل أَمامهم. وامّا لانّ المرضى انفسهم لا يزالون يتوهّمون انّ الموت بعيد بعد. ومن ثمّ يؤخّرون تناول الاسرار المقدّسة الى حين يُشَكّ فيهِ هل يكون تناولها مفيدًا لهم – فكيف يقدر الكاهن ان يصنع في دقيقة من الزمان ما لا يمكن فعلهُ الاّ في زمن معتبر. ومن ذا

يستطيع ان يغسل سريعًا قميصًا قد تركهُ فحّام على لحمهِ مدّة سنة كاملة. وهذه الصورة هي صورة باطن اناس كثيرين – فكيف نعتقد انَّ الكاهن يقدر ان يردّ انفسهم الى بياض نظير الثلج بثلاث كلمات ينطق بها عاجلاً – وان قلتم انهُ يكفي ان يقال افشين الحلّة على المريض وانّ هذا لا يستلزم الاّ زمانًا يسيرًا. اجبتكم انهُ حقًّا يكفي ذلك اذا كان المريض في حال الاستعداد الواجب لأخذ الحلّة. الاّ انّ صعوبة الامر قائمة في هذا – نعم انَّ الكاهن لا يحتاج الى زمن مديد لكي يقرأ على المريض افشين الحلّة. الاّ انّ استعداد المريض لنوالها يقتضي زمانًا معتبرًا – انهُ لكي يدخل الله النفس في جسد الجنين تكفي دقيقة واحدة. ولكن جبل الجنين واستعدادهُ الواجب لقبول النفس. فهذا يقتضي ايّامًا متعدّدة *

فمما تقدّم شرحهُ انجوا يا مباركين كم يجب ان نشكّ في موت المسيحيّين الذين يموتون بهدوّ وسكون على فرشهم. لان قد يمكن انّ هذا السلام يكون صادرًا من مكر الشيطان قصدهُ بذلك ان يطغي الخطاة حتّى انهم عند مشاهدتهم سلامة موت امثالهم يستمرّون في حال الخطيّة مطمئنّين – اعتقدوا يا مباركين انّ حال من لا يكون قد استعدّ للموت ولا يعتريهِ الخوف في الساعة الاخيرة. هي حال شقيّة جدًّا. لانَّ الذي عاش عيشًا سيئًا ومع هذا لا يرتجف فرقًا حينما يُضطرّ بالذهاب الى المحكمة الالهيّة. فانهُ يظهر جليًا انهُ لا يعرف الله ولا نفسهُ ولا الخطايا التي ارتكبها *

لعمري انّ كلاًّ من هذه الحجج كافية لتنبهنا وتصيّرنا ان نحسن الاستعداد للموت. غير انّي اعدل عنها وآذن لكم ان تستخفّوا بها كلّها. لانها ليست شيئًا بالنسبة الى ما سأقولهُ فيما بعد موردًا لكم شهادات الكتب المقدّسة. لانهُ حينما في خطابنا نثبت تعليمنا ببيّنات متّخذة من العقل وحدهُ يمكن ان تشكّوا في حقيقتها. الاّ انهُ غير ممكن ان تشكّوا في ما ترونهُ مثبتًا بشهادات الاهيّة من

حيث انهُ غير ممكن كما قال الرسول ان يكذب الله (عبر ٦ : ١٨) – فاذ ذاك فهذه الشهادات الراهنة التي لا تقبل الكذب والضلال هي التي تحقّق لكم ضرورة الاستعداد للموت . فانّ السيّد المسيح الراغب خلاص نفوسنا والعارف ما يستطيع ان يفعلهُ الانسان في ساعتهِ الاخيرة . هو يوصينا بالاستعداد للموت من غير تاخير – اسمعوا ما يقولهُ في بشارة متى : اسهروا لانكّم لا تعلمون في أيّة ساعة ياتي ربكّم (متى ٢٤ : ٤٢) . وقد كرّر وصيّتهُ هذه قائلاً : اسهروا فانكّم لا تعلمون اليوم ولا الساعة (متى ٢٥ : ١٣) – وفي بشارة مرقس يشدّد بالحثّ بقولهِ : فانظروا واسهروا وصلّوا لانكّم لا تعلمون متى يكون الزمن (مرقس ١٣ : ٣٣) – ولئلاّ يظنّ ظانّ بانّ كلامهُ الالهيّ موجّه الى الرسل فقط يردف ذلك بقولهِ : الذي اقولهُ لكم اقولهُ للجميع فاسهروا (مرقس ١٣ : ٣٧) . ثمّ يغبط الذين يجدهم الربّ مستيقظين ساهرين (لوقا : ١٢ : ٣٧) . وبخلاف ذلك حال من لا يكون مستعدًّا . اذ يقول ربّ المجد : سياتي سيّد ذلك العبد في يوم لا ينتظرهُ وفي ساعةٍ لا يعرفها . فيشقّهُ من وسطهِ . ويجعل نصيبهُ مع غير الامينين (لوقا ١٢ : ٤٥) – انهُ لو يكلّمنا طبيب بمثل هذا مخبرًا ايّانا بمرض عضّال يصيبنا حينما لا نظنّ لكان صوتهُ يكفينا لنفرغ جهدنا في الهرب من ذلك المرض . فكيف لا نستيقظ عند استماع صوت الله يخبرنا باعظم الاخطار خطر هلاك النفس الابديّ – ما هذه الغباوة . ما هذا السحر الشيطانيّ . هل تغيّرت طبيعة الانسان بهذا المقدار حتى انهُ لا يحبّ ذاتهُ الاّ في اشياء دنيّة ولا يخاف الاّ من المخاطر الخفيفة – انّي ارى كلّ يوم اذا صرخ انسان بنا قائلاً ظهرك يلتفت الجميع سائلين عن الخطر ليهربوا منهُ . وها انّ السيّد المسيح يصرخ كثيرًا ويقول : انظروا واسهروا لئلاّ يجدكم الموت غير مستعدّين . فلا يلتفت احد لكي ينظر الخطر ويتحفّظ منهُ – قد قيل في الشرائع البشريّة : من يكن قد سمع نصيحة ويذنب بعد ذلك فذنبهُ اكثر وعذابهُ اشدّ *

اننا حتى الآن اوضحنا بنور العقل والايمان ضرورة الاستعداد للموت . فبقي علينا ان نبيّن كيف يجب ان يكون هذا الاستعداد فنقول : انّ هذا الاستعداد نوعان . احدهما بعيد والآخر قريب — انّ بولس الرسول يشبّه المومنين باناس يصارعون في الميدان لاجل اكتساب اكليل زمني . فهؤلاء قديمًا كانوا يستعدّون للمصارعة ولربح الاكليل على نوعين . اولاً انهم كانوا يهتّمون بحفظ قوّتهم . ثانيًا كانوا يتروّضون كلّ يوم بالانفراد بشيء من رياضات المصارعة المشتهرة — والحال ان كلاًّ منّا عتيد ان ينزل مع الموت في الميدان للمصارعة . فطوبى لمن يفوز بالظفر . لانّهُ سيفوز بكلّ خير الى الابد حسب الوعد الالهيّ : من يغلب يرث هذه كلّها (رويا ٢١ : ٧) — فلا بدّ لنا اذًا من استعدادَين . اي انّهُ ينبغي ان نكون في حال القوّة ونزيدها بقوتٍ ذي غذاء . اي انّهُ ينبغي ان نجعل انفسنا في حال النعمة بواسطة اعتراف جيّد يكون عامًّا . ان كنّا ما عملنا ذلك سابقًا . وذلك لكي نحسن التوبة عن خطايانا . ونشدّد عزائمنا الصالحة . ونصلح ما جرى من النقائص في اعترافاتنا السالفة . وبعد اكتساب هذه القوّة الروحيّة يجب ان ننميها بزيادة الاعمال الحميدة . كالصدقة والصوم والصلوة وتناول الاسرار الالهيّة بتكاثر . وافعال اخر من رياضات العبادة — ثمّ يلزمنا ان نحترس ممّا يمكن ان يضعف هذه القوّة بتجنّب مخاطر الخطيّة والتنزّهات والملاهي الباطلة — انّ المصارعين قديمًا كانوا يمتنعون عن اكثر من ذلك . كما قال الرسول . وذلك لكي يدركوا اكليلاً فاسدًا . فكيف نستصعب نحن اقلّ من ذلك لاجل ربح اكليل ابديّ غير فانٍ — وهذان الأمران اعني ممارسة الاعمال الصالحة والتحرّس من الاعمال السيّئة قد اشار اليها السيّد المسيح بقولهِ : لتكن احقاؤكم مشدودة وسرجكم موقدة وانتم متشبّهون باناس ينتظرون سيّدهم متى يرجع ويقرع ليفتحوا لهُ (لوقا ١٢ : ٣٥) *

هذا هو الاستعداد البعيد للحصول على الموت الصالح . وهو العيشة

الصالحة . وبغير هذا من يرجو موتًا صالحًا يشبه انسانًا يرسم على الحائط خطًّا اسود بالفحم ويقصد ان ينتهي الخطّ بلون ابيض - انّ الحائط المائل للهدم يسقط من الناحية التي هو مائل اليها . وكذلك المومنون يسقطون بالموت تارةً نحو اليمين فيخلصون . وتارةً على الشمال فيهلكون . حسب ثقل الملكات الصالحة او الرديّة التي تميل بهم في زمن حياتهم الى احدى الناحيتين - أمّا استعداد المصارعين الاقدمين لاكتساب اكليل الانتصار فكان تروّضهم في الانفراد برياضات المصارعة قبل النزول الى الميدان . فهذا نفسهُ يجب علينا ان نفعلهُ نحن مرارًا كثيرة بتصوّرنا انفسنا حاصلين على مرضنا الاخير . حينما ييأس الطبيب من شفائنا وتفارقنا اقرباؤنا واصدقاؤنا . ويصوّت الكاهن على آذاننا قائلاً : اهتمّ بأمرك لانّك مائت في الغد ولا تعيش *

ويجب عليك عند عملك هذه الرياضة . ان تلتفت الى الله وتفعل الافعال الضروريّة في ساعة الموت . اعني افعال الايمان والرجآء والمحبّة والندامة ومطابقة الارادة الالهيّة . فاذًا قُل مرّات كثيرة في مناجاتك الله انّك تومن بكلّ ما اوحى بهِ الله تعالى بواسطة الكنيسة . وانّك مستعدٌّ لسفك دمك اذا اقتضت ذلك شهادة الايمان المسيحي . وانّك ترجو من رحمتهِ الغير المتناهية غفران خطاياك والخلاص بحقّ السيّد المسيح - ثمّ قل لهُ تعالى انّك تحبّهُ من كلّ قلبك . لانهُ الاهك وخالقك وحافظك ومخلّصك ومحبوبك . واشكرهُ على احسانهِ اليك الغير المحدود . ولاسيّما الاحسان العظيم الذي بهِ احبّ ان يموت لاجلك موت الصليب - قل ايضًا انّك نادم على ما اسأتَ بهِ اليهِ بمخالفتك مشيئتهُ المسجود لها . وانّهُ لو يمكن ان تعود الى ابتدآء حياتك لاخترت ان تموت الف مرّة افضل من ان تغيظهُ بخطيّة واحدة . وانّك تقبل بالرضى كلّ ما يصيبك من الاوجاع والامراض والموت نفسهُ . وانّك لو كانت لك أعمار كثيرة لكنت تقدّمها جميعها وفآءً عن خطاياك *

فاستعدّ هكذا للموت بفعلك هذه الافعال وما يشبهها كانّك مشرف

على الموت وعتيد ان تموت في تلك الساعة. استودع نفسك بين يدي الله. واسألهُ ان يقبلها برحمة. استغث بالعذراء المجيدة. ادعُ الى معونتك القدّيسين والقدّيسات وملاكك الحارس وسائر الارواح السماويّة. واقول بالاجمال افعل ما تريد ان تفعلهُ في ساعة موتك – هذا هو الاستعداد القريب للموت الذي يريدهُ منّا سيّدنا. وقد عيّنهُ قائلاً: كونوا متشبّهين باناس ينتظرون سيّدهم. فهو يريد ان لا ننتظر الموت في كلّ ساعةٍ. بل انهُ يريد ان نكون نظير من ينتظرهُ في كل دقيقة فاعلين على قدر امكاننا ما كان المسيحيّون الحقيقيّون يفعلونهُ حينما كان الموت يقرع بابهم *

ولعلّ منكم من يقول انّ ممارسة هذه الرياضة استعدادًا للموت هي مرّة مثل الموت. ومن ثمّ لا حاجة الى عملها. بل يكفي ان نبقي ذلك الى ساعة الموت – الّا انّ هذا التفلسف من شانهِ ان يلقيكم في خطر عظيم. لانّ الانسان المسجون الذي يصفرّ وجههُ وترتجف نفسهُ كلّ مرّة يُفتح باب السجن يظهر بذلك انهُ ينتظر قضآء الموت المسجّل عليهِ. وامّا الذي ينتظر النجاة من السجن. فلا يضطرب. بل يفرح ويستبشر – وهذا ما يحدث فيما نحن في صددهِ. لانّ هذا الخوف المفرط من تامّل الموت والتكلّم عنهُ. ليس هو بدليل جيّد لانّ ذلك هو علامة انّ الضمير يسبق ويخبر بعاقبة سيئة – فالويل لمن يعيشُ على هذه الصفة. وبعكس ذلك طوبى لمن يتعزّى. او على الاقلّ لا يرتعد مرتجفًا عن ذكر الموت وعند استماعهِ من يتكلّم عنهُ. لانّ ذلك دليل على انهُ هو من جملة الابرار المسجونين الذين يفرحون عند قرع باب السجن وفتحهِ اذ يرجون اطلاقهم وخلاصهم – فاعتنوا يا مباركين ان تحفظوا انفسكم في حال البرّ بتنا ولكم الاسرار المقدّسة مرّات كثيرة وحينئذٍ تختبرون كم يزيدكم ذلك شجاعة على الموت – طوباكم لانّكم ستموتون بالربّ. اي انّكم تموتون بين يدَي العناية الالهيّة لكي تبتدئوا حيوة جديدة. تذكّروا انهُ من مات مرّة واحدة موتًا سيئًا فقد هلك الى الابد *

الموعظة السابعة والسبعون

في الموت

انك تراب والى التراب تعود (تكوين ٣ : ١٩)

يا ما اعظم الفرق بين هذا الموضوع والموضوع الذي كانت بهِ ملتهية حواسّكم يا ايّها الاخوة المباركون في هذه الايّام التي مضت وهي الايام التي خصّصها العالم بعوائدهِ الرديّة للهو والطرب والشراهة الموبقة - فبعد انقضاء تلك الافراح الباطلة ها هوذا تُعرَض عليكم صورة الموت الخلاصيّة وينهض اليوم خدّام الله عن امر الكنيسة ويضعون الرماد على رؤوس المومنين وهم يعظونكم في اثناء ذلك ويذكّرونكم بلسان الحال انكم تراب والى التراب تعودون - فيا لها من موعظة تحزنكم وتفيدكم معًا ويا لها من نصيحة جديرة بان توهّبكم لاداء فريضة التوبة على شدّتها وهي الفريضة التي ينتدبكم اليها صوم الاربعين يومًا *

غير انّي ارى انّ كثيرين ينفرون من استماع هذا الخطاب. وانّ اصحاب هذا العالم يستثقلون الكلام عن الموت. وما ذلك الاّ لانّ الذين قد ملكتهم خيرات هذه الدنيا الفانية هم اكثر عددًا جدًّا من الذين قد ملكوا هذه الخيرات. ولأنّهم ليسوا مستعدّين للمثول بين يدي الله الديّان العظيم ليؤدّوا الحساب عن سيرتهم. بل انك تجدهم يفرغون المجهود في ان يمحوا من عقولهم ذكر الساعة الاخيرة التي فيها يُنْزَع منهم كلّ ما يحبّونهُ وفي ان ينبذوا وراءهم ذكر السفر الاخير الذي يؤدّيهم الى الدينونة التي حكمها لا يقبل التغيير اصلاً وينتهي بهم الى احدى الابديّتين امّا الى الابديّة السعيدة او الى التعيسة - ولكنّي اسألكم يا اخوتي قائلاً : ان كنتم انتم لا تفتكرون في الموت . افما يجب عليّ انا ان افكركم فيهِ لعلمي بالفوائد الجليلة الناجمة من هذه الذكرى - ثمّ ماذا يفيد التغاضي والاضراب

عن ذكر الموت. فلو كنّا بتناسي الموت نفوز بالنجاة من ضربتهِ ومن القضاء العامّ المحتوم على الجميع. لكان تغاضينا عنهُ اقلّ ذنبًا وشجبًا – ولكن يا للاسف كيفما دبرتُم الامر سوآء افتكرتم بالموت ام لم تفتكروا بهِ فانّ الموت يأتيكم لا محالة ويتتبّعكم على حدّ سوى. وهو يتقدّم الى ما قدّام في كلّ يوم ويسطو علينا وينقلنا من هذه الدنيا كرهًا واغتصابًا. وما من قوّة بشريّة تنقذنا من بين يديهِ *

من ذا الذي لا يرقّ لحالة الانسان المشرف على الموت وهو لم يبقَ لهُ من الحيوة على وجه الارض الاّ هنيهة من الزمان. ومع ذلك فهو يخال في نفسهِ انهُ حاصل على الصحّة التامّة الكاملة ويأبى اخذ الادوية الشافية – لعمري انّ هذه الحالة هي حالة الاكثرين. فان اكثركم يا مباركين قد قاربوا الموت. فها قد عبرت عليكم السنون وها انّ حياتكم تنفذ عمّا قريب. ومع هذا اي مع انّ الموت قد اقترب منكم فلستم تحبّون ان يكلّمكم احد عنهُ. واذا اخذنا نفتح لكم الحديث عن الموت تقولون ما قالهُ آخاب: انّي ابغضهُ لانهُ لا يتنبأُ عليَّ بخير بل بالشرّ فقط *

انّ هذا الواعظ يزعجنا اذ لا يورد لنا الاّ موضوعًا مشؤومًا مكربًا مؤلمًا. انّنا نبغضهُ – فما هذا الحمق يا اخوتي: انّ الذي يجعل الموت مخوفًا مكربًا ليس هو التفكّر بهِ. بل انمّا هو التغافل عنهُ وعدم المبالاة للتأهّب لورودهِ. ومن هذا التغافل يحصل الخطر المبين بان تموتوا موت الهالكين – فلننشط ولنقبل على مداواة المرضى ولندعنَّ جانبًا الاغبياء الذين قد شُغلوا بمداراة انفسهم فوق كلّ حدّ حتّى ادنوا بها الى الهلاك. ولنستعملنّ في مداواة هذ المرض الدوآء الشافي الفعّال اي ذكر الموت – وقبل كلّ شيء فلنستمدّ شفاعة والدة الله بعد ان نهدي اليها سلام الملاك جبرائيل قائلين: السلام عليك يا مريم الخ *

أجل يا مباركين انّ الموت لا بدّ منهُ اذ انهُ امرٌ محتوم علينا قاطبة. ولا بدّ لنا من ان نموت وان كنّا لا ندري متى يكون ذلك. ولا بدّ لنا ان نموت بغير امل الرجوع الى الحيوة – فلا مفرّ من الموت ولو انّ ساعتهُ تحت الشكّ

والارتياب. واذا حضر الموت فلا يبقى لنا رجاء العود الى الارض والسلوك على وجهها ثانية - هذه هي الامور الثلاثة التي نريد ان نتكلّم الآن عنها بقصد ان نوقظكم من السبات والتواني الذي انتم فيهِ ونحثّكم على ان تكونوا على حذر وتحسنوا الاستعداد لورود الموت*

اسألكم يا مباركين في رجل نوتيّ يدبّر سفينة تسير في البحر. ما قولكم فيهِ اذا علم انّ في البحر صخرة اذا دنت منها السفينة صدمتها وحطمتها وهو مع ذلك لا يدري في ايّ مكان من البحر توجد الصخرة - انّ هذا الفكر من شأنهِ ان يجعلهُ متيقّظًا حذرًا في كلّ دقيقة وان لا يزال يلاحظ سير السفينة وحركاتها باسرها. فتراهُ تارةً يتقدّم الى ما قدّام. وتارة يبتعد حائدًا. وطورًا يراقب السماء. ثمّ ينظر الى لجج البحر ويختبر غورها بالمرساة - وبالاجمال فانّي اقول في النوتيّ الذي هذه حالتهُ انّهُ يفعل كلّ شيء في مكنتهِ ولا يهمل شيئًا ابتغاء ان ينجو من الغريق اذ يعلم انّ بذلك تتعلّق حياتهُ وحظّهُ - فلنفتكرنّ نحن ايضًا في الموت ولنتأمّلهُ جيّدًا. وذلك ممّا يجعلنا الآن ان نعيش مثلما نرغب في ساعة الموت ان نكون قد عشنا. وذلك ايضًا ممّا يجعلنا ان نستدرك الامر على وقت ونحترس منذ هذا اليوم من ان يفاجئنا الموت بغتة. ومع الموت الفجائي تكون التوبة امّا عسرة مرتابًا فيها او غير مستطاعة وغير ممكنة - فلنكثر من التفكر بهذا وهو انّهُ لا هرب لاحد من الموت ولا نجاة منهُ. ومن ذلك نستنتج انّهُ يجب علينا والحالة هذه ان نستعدّ لهُ. وهذا هو الجزء الاوّل من خطابي - ثمّ لنتفكر كثيرًا انّ ساعة الموت هي تحت الشكّ والارتياب. ومن ذلك نستنتج انّهُ يجب علينا ان نعدّ انفسنا لهُ في كلّ الازمان وفي كلّ الاماكن. وهذا هو الجزء الثاني من خطابي - واخيرًا لنتفكّر مرارًا كثيرة ان تبعات الموت ونتائجهُ لا تقبل التغيير ابدًا. ومن ذلك نستنتج انّهُ يجب علينا ان نبذل كلّ مجهودنا في أن نحسن الاستعداد لورودهِ. وهذا هو الجزء الثالث والاخير من موعظتي*

الجزء الاوّل

لا تظنّوا يا اخوتي انّني مسهب الكلام معكم في بيان ضرورة الموت . ولا تتصوّروا انّي عازم ان اذهب بكم الى مقابر اجدادكم الذين انقرضوا قبل سنين متعدّدة حتّى يومنا هذا لكي اثبّت لكم بالقياسات المنطقيّة انكّم انتم ايضًا ستصيرون الى ما صاروا اليهِ . وانّهم انّما سبقوكم مدّة يسيرة الى القبر كما قد كانوا سبقوكم كذلك قليلاً الى الحيوة - انّ هذه الحقيقة يعلمها كلّ احد ويعتقد بها الجميع وهي لا تحتاج الى برهان او اثبات - ولو وُجد من يشكّ فيها لكفاهُ ان ينظر الى ذاتهِ فيجد انّ جسدهُ مركّب من العناصر المضادّة التي يحارب بعضها بعضًا ويجدّ بعضها في ابادة بعض اي في ابادة الحيوة وان يتأمّل قليلاً الخلائق المحدقة بهِ وهي تناديهِ بقضاء الموت المحتوم عليهِ *

قال الملفان الجليل مار اوغسطينس : انّ كلّ شيء يعبر ويزول . كذلك الانهر فانّها لا تزال منحدرة حتّى تنتهي الى البحر فتفنى فيهِ . والزهور تزهو على وجه الحقل ثمّ تذبل سريعًا وتجفّ . والاثمار تنمو وتنضج في الاشجار ثمّ تنتثر في الخريف . والنهار يطلع صباحًا ثمّ ينتهي عند المساء . فعلى هذا النحو نرى كلّ شيء يفنى ويضمحلّ على وجه الارض - تنفذ القوّة والصحّة والحيوة والاقتدار . ويزول الغنى الدنيويّ وبزوالهِ ينادينا انّنا نحن كذلك زائلون . تدبّ الايّام وتدرج الليالي وتنقضي الاسابيع وتعبر الاشهر والسنون وهي باجمعها لا تزال تنقّص حياتنا . اذ اننّا في كلّ خطوة نسعى الى الموت بسرعة - فمثلنا مثل المياه التي تجري منحدرة الى الابحر او اللهيب الذي يشبّ في طرفة عين طالبًا مركزهُ - بل الأَولى بي ان اقول ما قالهُ المعلّم ترتليانس وهو : انّ الموت في قبضة الله كالمنجل المسنون الباتر وانّهُ تعالى يحسم بهِ ويقطع ويحصد من هنا وهنا . لا يميّز بين الملك المتوّج الجالس على عرشهِ وبين العبد الذليل الذي

يخضع لهُ - واقول اخيرًا حسبنا ان نتذكَّر الحكم الرهيب الصادر من الله على ابينا الاوّل اي الحكم الذي بهِ جزم تبارك وتعالى على آدم وذرّيّتهِ باسرها بالموت كما يشهد الرسول بقولهِ : قد حُتِم على الناس ان يموتوا مرَّةً واحدة (عبر٩ : ٢٧) *

ثمّ انّ مار برنردس يقول : انّ الجسد لا ينفصل من النفس الّا بالموت مثلما النفس لا تنفصل من الله الّا بالخطيّة . فاذ انفصلت النفس باختيارها من الله فالعدل يقتضي ان تعاقَب بانفصالها من الجسد . ومؤدّى ذلك ان يضحي الانسان خاضعًا لسلطان الموت حالما يفعل الخطيّة . ولاسيّما من حيث انّ الجسد كثيرًا ما يكون هو الذي يغري النفس ويهوي بها الى الخطيّة . ولذلك فيستحقّ العقاب بان يعيدهُ الله الى حالتهِ الاولى وهي حالة التراب - فما من امر اكثر من الموت تأكيدًا او ثبوتًا او وضوحًا او بيانًا . وكلّ ما سواهُ فهو تحت الابهام . والموت وحدهُ لا يشوبهُ ريب اصلاً - قال في ما نحن في صددهِ مار اوغسطينس : اسأَلك يا هذا في طفلٍ وهو جنين في حشا امّهِ افتدري ماذا يكون من امرهِ . هل يولد ميلادًا ميمونًا ام لا . نقول انّ ذلك لامر مجهول . اذ من الممكن ان يولد الطفل . ولكن يمكن كذلك ان يموت وهو في مستودع امّهِ - ثمّ اذا وُلد الطفل ميلادًا ميمونًا هل يعيش عمرًا طويلا . من يستطيع ان يجاوب على هذا السؤال . ما من احد : اذ انّهُ يمكن ان يعيش المولود مديدًا كما يمكن انّهُ يموت عاجلاً - واذا وُلِد بيمنٍ وعاش طويلاً فهل يكون غنيًّا ام فقيرًا . انّ ذلك ايضًا امر مجهول لا يُعلَم . اذ من الممكن ان يوجد في حال السعة ومن الممكن ايضًا ان يوجد في حال العسر والذلّ - ثمّ انّي اسأَلك يا هذا عن هذا المولود عينهِ ايّ حالة مزمع ان يختار احالة الزيجة ام حالة العزوبة . هذا ايضًا ممّا يُجهَل ولا يقدر ان يعرفهُ امهر المعلّمين والحكماء - وفي الآخر اختتم سؤالاتي قائلاً : وهل يموت هذا المولود ام لا . انّ الجواب على ذلك لا اشكال فيهِ ولا ريب بتّة . فانّ هذا الطفل الذي الكلام عنهُ مجزوم عليهِ ان يموت مثل سائر

الناس . وهذا الجزم جزم شامل عامّ يطلق على كلّ من فاز بالحيوة من البشر فانّهُ يفقد الحيوة بالموت لا محالة *

فاذا فهمتم هذه الحقيقة جيّدًا وهي ضرورة ورود الموت على الناس قاطبة وايقنتم ان لا مفرّ منهُ بتّة اقول : انّ من يتفرّس جيّدًا في الموت لا بدّ لهُ من ان يستنتج هذه النتيجة وهي انّهُ يجب على كلّ انسان ان يستعدّ للموت — وهذه هي النصيحة الجليلة التي نصح بها اشعياء النبيّ حزقياء الملك اذ قال لهُ : اوصِ على بيتك لانّك تموت ولا تعيش (٣٨ : ١) — فلو كانت ضرورة ورود الموت المخوفة قابلة الاستثناء ايًّا كان ولم تكن عامّة مطلقة لما كنتُ اقضي اعظم العجب من اجتهادكم بكلّ وسعكم بان تفلتوا من الموت بكلّ الوسائل — ثمّ اقول فوق ذلك : لو انّكم من جملة الكفرة المنافقين الذين يذكر اشعياء النبيّ انهم لا يخشون من بعد الموت عقابًا ولا يرجون مكافاةً لزعمهم الواهي الكاذب انّهُ بالموت تفنى النفس والجسد جميعًا ويزول الانسان بكليّتهِ . لكان لكم بعض العذر في زعمكم مع المنافقين : فلنأكل ونشرب . لانّنا غدًا نموت (اشعياء ٢٢ : ١٣) — ولكن القوم الذين اخاطبهم الآن هم قوم يؤمنون ويعتقدون يقينًا انّ الموت منتظرهم لا محالة وانّ لا مهرب لهم من بين يديهِ وهم جماعة المسيحيّين الذين قد تعلّموا من فم الحقّ بالذات انّ وراء الموت حيوة اخرى لا نفاد لها وانّ حظّهم السرمديّ مناط بهذه الساعة ساعة الموت — فكيف يسوغ لهم ان يتفوّهوا والحالة هذه بمثل ما ذكرنا من الاقاويل الكفريّة — أيا مباركين دونكم هذه الحقائق فاصلحوا ظنونكم واحسنوا افكاركم . وليناجِ كلٌّ من المومنين نفسهُ بهذه المناجاة وهي : انّي سأموت حتمًا . ولا ريب في ذلك اصلاً . وهذه صحّتي ايّة كانت كلّما اجتهدتُ في حفظها فهي ستنقضي وتذهب على رغم رغبتي في احرازها واعتنائي بها — فما اغناني عن بذل الجهد في تمديد ايّام لا بدّ من نفادها . افلا يحقّ لي ان اصرف هذه الايّام في تجهيز نفسي واحسان الاستعداد

لاتعزّى بذلك عند زوال حياتي *

انّ الموت لمملوّ رهبة ورعبة وترتعد فرائصي كلّما امعنتُ النظر فيهِ . ومع ذلك فلا بدّ من ان يكون مصيري اليهِ . فالحكمة تقتضي ان التمس لنفسي ما يؤمّنها من الخوف الذي لا بدّ ان يعتريني ان كنتُ لا احسن الاستعداد للموت - على انّهُ اذا فصلني الموت من بين الاحياء فحالاً يبرز عليّ الحكم بالخلاص او بالهلاك الابديّ - فماذا يجب عليّ اداؤهُ منذ الآن فصاعداً الاّ ان اسير ما اقمتُ باقياً في الحيوة في طريق القداسة لكي يضحي موتي مقدّساً . فينبغي ان لا يزول من عقلي بتّةً هذا الفكر - فلو كانت هذه الحقيقة مرسومة رسماً بليغاً في اعطاف قلبي فهل كانت سيرتي على ما هي الآن . افما كنتُ اصلح شأني اصلاحاً تامّاً - يا للعزآء الذي يحصل في ساعة الموت للانسان اذا اورد على بالهِ الاعمال الصالحة التي عملها والاجر الذي اكتسبهُ في مدّة حياتهِ فهو حقيق ان يقول حينئذٍ : لقد انقضى سعيي وحضر يوم ذهاب كلّ خير زمنيّ . وحان اوان انتقالي من الارض وهانذا ماثلٌ بين يدي الله - انّي عالم يا ربّ ومعترف بانّي رجل خاطئ . فإن شئتَ ان تعاملني بشدّة عدلك فلا تجد فيَّ ما يجعلني اهلاً للمعونة التي ارجوها من كَرَمك واتجرّأ ان استمدّها من جودك - غير انّي ارى مساغاً من وجه ما لأؤمّل هذه المعونة من رحمتك . فلا تهملني في الساعة الاخيرة . اذ انّي لم اهمل حتّى الآن الاهتمام بخلاص نفسي - اي نعم انّي اهتمّ بهِ الاهتمام الشافي الوافي بالتأهّب للدقيقة الاخيرة المرهبة . ولكن لا تدع يا ربّ بغير مكافأة الاهتمام اليسير الذي قد صرفتهُ لذلك . وهذه المكافأة التي ارومها هي ان تسعفني الآن بقدرتك ورحمتك فيقوى فيّ الرجآء بان انال منك المعونة على الفوز بالخلاص وان اتمّ العمل الذي قد بدأتهُ فيّ انت يا ربّ بنعمتك وانا لم اتهاون فيهِ *

الجزء الثاني

قد بينّا في ما مضى ان لا فرار من الموت. وانّهُ لذلك يجب علينا ان نتأهّب ونستعدّ لهُ - والآن نأتي الى ما يلي ذلك فنقول: انّ ساعة الموت لهي تحت الابهام والارتياب. اذ انّهُ من الممكن ان يداهمنا الموت في كلّ زمان ومكان. ومن ثمَّ فيترتّب بل يجب علينا في كلّ زمان ومكان ان نستعدّ لورودهِ - وهذا هو الجزء الثاني من خطابنا مع محبّتكم *

على انّهُ في الحقيقة يا اخوتي ما من امرٍ يشوبهُ الريب والشكّ مثل ساعة الموت. وكما انّ ضرورة حلول الموت بكلّ منّا مقرّرة لدينا مؤكّدة لا محالة فعلى هذا القياس ساعة حلولهِ هي مُبهمة مجهولة عندنا - افترى الموت يدركنا في بحر هذه السنة ام في هذا الشهر. افي هذا الاسبوع ام في الغد أفي هذا اليوم ام بعد هنيهة فقط - ما من احد يستطيع الجواب على ذلك. اذ ليس من يدري بهِ ويعلمهُ *

ولكنّ الاباء القدّيسين يسألون في هذا الشأن السؤال الآتي وهو: لماذا اختار الله عزّ وجلّ ان تكون ساعة الموت غير معروفة لدينا - فيجيب الذهبي فمهُ في تفسير رسالة بولس الرسول الى اهل تسّلونيقي بما ملخّصهُ: انّ الله قد حتم بذلك لثلاث غايات. الاولى لتعزيتنا والثانية لصيانتنا والثالثة لكمالنا *

امّا انّ الله قصد بهذا اوّلاً تعزيتنا فمثل ذلك يفعل الطبيب الجرّاح اذا اقبل الى المريض ومعهُ الآلات المؤلمة التي ينبغي ان يستعملها في جسمهِ فانّهُ يسترها ويخفيها على المريض - ثمّ انّ المحكوم عليهِ بالموت قد جرت العادة ان يُمدّ على عينيهِ حجاب لئلّا يبصر ما قد أُحضر لتعذيبهِ ونزع حياتهِ *

وامّا انّ الله بذلك قصد ثانياً صيانتنا فلانّهُ لو كان الانسان يعلم انّهُ اذا اخطأ لم يفاجئهُ الموت بغتةً فما اكثر المساوئ التي كان يتهافت متدهوراً فيها. بل كان الشرّير يجد مجالاً ليقول في نفسهِ: انّي ساحصل على فسحة زمان

لاصرفها في التوبة والتكفير عن خطاياي. فعلامَ اليوم لا اتّبع اهوائي وشهواتي — فعدم معرفة اليوم الاخير من ايام حياتنا انّما هو الدوآء الجزيل الفائدة لنا وهو كاللجام الذي يمسكنا عن التدهور في الشرور *

وامّا انّ الله بذلك قصد كمالنا فلانّ من يعتقد يقينًا انّهُ في كلّ دقيقة يمكن ان تنقضي حياتهُ فلا يتهاون في ان يصرف كلّ دقائق حياتهِ في استحقاق الاجر الموعود لهُ من الله ولا يبرح مجدًّا مجتهدًا بنشاط مقدّس في ان يزيد حسنةً على حسنة وفضيلة على فضيلة لكي تكون ايّام حياتهِ مملوّة كما قال الكتاب المقدّس — وانّ مار اوغسطينس ينصّ على مثل هذا الكلام ويؤيّدهُ بقولهِ: انّ الله بكتمهِ عنّا يوم منتهى حياتنا قد خصّنا برحمة جليلة اذ انّهُ بذلك يلزمنا المواظبة على السهر والتيقّظ على نفوسنا بلا ملل — ولايضاح ذلك هلمّ نضرب مثلًا: فلنقدّر انّ لكلّ منكم عدوًّا فظّ الطباع جافي الخلق. فاذا علمتَ منهُ يا هذا انّهُ قد برز ليلقاك وهو قاصد قتلك. افلا تراقبهُ. لا جرم انك تمكث على حذرٍ منهُ ولا تزال تلحظ عينيهِ وحركاتهِ ولا تقصّر في بذل ما في مكنتك لتسلم منهُ — انّ بين اعدائكم ليس لكم يا اخوتي عدوّ قتّال مثل الموت. وسوف يأتي يوم فيهِ يبارزكم للحرب والقتل. ولكنّ الاسف انّ ذلك اليوم مجهول. وفي احدى دقائق ذلك اليوم عينهِ سوف يسطو الموت عليكم ويضربكم. الّا انّكم لا تدرون ايّ الدقائق هي تلك الدقيقة — على انّ الموت يأتي كاللصّ. واللصّ لا يأتي الّا متنكّرًا محاولًا اخفاءَ نفسهِ. ويختار الزمن والبرهة التي يراها اشدّ ملايمة لغرضهِ — فما هي النتيجة التي ينبغي لكم ان تستنتجوها من ذلك. اليس انّهُ يجب عليكم ان تكونوا من الموت على حذر واحتراس في كلّ حين وساعة — فهذا هو السبب الذي من اجلهِ لا نفتر من حثّكم على الخروج من حال الخطيّة وسخط الله بالتوبة اليهِ تعالى وعلى اخذ الاسرار بتواتر وعمل الاعمال الصالحة بكلّ نشاط لئلّا يجدكم الموت غير مستعدّين حاصلين في حالة الرذيلة *

وانّي أرى انّ ما قالهُ في هذا الشان المعلّم ترتليانس امتن ممّا سبق واشدّ تأثيرًا منهُ. قال: انّ الله جلّ شأنهُ شآء ان نوجد في حالة الانتظار المرهب وهي حالة من يرى انهُ معلّق بين الحيوة والموت وبين الزمان والابديّة وبين السمآء وجهنّم. وذلك لكي يوقظ ايماننا ويجعلهُ اشدّ نشاطًا واكثر اجتهادًا - فيريد منّا جلّ اسمهُ ان نواظب على اعمال الرويّة في هذه القضايا المحقّقة الجزيلة الاهميّة وهي: من الممكن ان يرد الموت في ايّ ساعة ودقيقة ويذهب بي - وها انّي قد شرعتُ بامرٍ ولعلّي لا آتي على آخرهِ. وهأنذا اقفل الى بيتي وادخلهُ فلعلّي لا اخرج منهُ الاّ محمولاً على ايدي من يشيّعني الى القبر - وها انّي الآن اهجع على مضجعي مستريحًا. ولكن لعلّ آخر هذا الهجوع يفضي بي الى الموت - وهل انا اصحّ مزاجًا واقوى بنيةً من هذا وذلك اللذين كنتُ اعرفهما واعاشرهما وقد كان رحيلهما من هذه الحيوة بغتةً - فمن عوّد نفسهُ على اعمال الرويّة في هذه الحقائق واكثر من ايرادها على بالهِ فهو يحسن الاجتهاد في كلّ ما يفعلهُ ويعتني جدًّا بما يختصّ بامر خلاص نفسهِ ويستعدّ على وقت لمثل هذا الخطر الذي يمكن ان يعرض لكلّ انسان فجأةً وهو موت الغفلة - وعلى هذا فابن الله يعظنا مكرّرًا علينا مرارًا متعدّدة هذه النصيحة وهي ان نكون مستعدّين - فلا يأمرنا فقط استعدّوا حين تشعرون الموت قد دنا. بل ان تكونوا مستعدّين حينئذٍ اي حاصلين في حالة الاستعداد - ومعنى ذلك ان تكونوا مستعدّين على الدوام. اذ انّ الموت يتبعكم في ايّ مكان كنتم وهو قريب منكم ولو انكم لا تدرون بهِ *

اعتبروا انّ الانسان لا يستمرّ حاصلاً في خطر الحرب طالما وُجِد في حال الجنديّة ولا النوتيّ يوجد ابدًا في خطر الغريق ما دام في البحر. امّا نحن فما دمنا في هذه الحيوة العابرة فنحن لا نزال على الدوام في خطر ان يدركنا الموت في ايّ وقت كان - ذلك هو من قواعد ديانتنا واركانها. وقد نادى بهِ السيّد

المسيح بقولهِ عن الموت انهُ يأتي في ساعة لا تظنّونها (لوقا ١٢ : ٤) بل اننّا نرى السيدّ المسيح قد اراد ان تكون هذه الحقيقة مرسومةً رسماً بليغاً في قلوبنا متمكّنة فيها اشدّ ما يكون. وقد كرّر ذكرها في مواضع شتّى. ولا يزال لذلك يرشدنا وينبّهنا تارةً بلسانهِ وتارةً على لسان رسلهِ قائلاً: اسهروا وصلّوا. ولا تدعوا قلوبكم تثقل من الشبع والسكر لئلاّ يوافيكم اليوم المخوف الذي انبأتكم عنهُ مرارًا انّهُ يفاجئكم بينما تكونون منغمسين في اللهو والمنكرات وانتم تخالون انّهُ بعيد عنكم بمراحل. كونوا متمنطقين باثوابكم متأهّبين للمسير لئلاّ يطرقكم بغتةً الامر بالرحيل بينما تكونون متغافلين عن ذلك مقصّرين فيهِ. لتكن احقاؤكم مشدودة وسُرُجكم موقدة وانتم متشبّهون باناس ينتظرون سيّدهم متى يرجع من العرس حتّى اذا جاءَ وقرع يفتحون لهُ للوقت (لوقا ١٢ : ٣٥) - فلو انّ العبدَ عرف وقت اتيان سيّدهِ فماذا كان يفعل. لا شكّ انّهُ كان يهيّي كلّ شيء بمزيد الاهتمام - ولكنّ العبد الكسلان الذي يُضلّ نفسهُ بالرجاء الكاذب اذ يقول في قلبهِ: انّ سيّدي يبطئ مجيئهُ (متى ٢٤ : ٤٨). فبئس المصاب الذي يصيبهُ - ولكم ان تعتبروا يا مباركين نصّ هذه الآية الانجيليّة عن العبد الرديّ انّهُ يقول هذا الكلام في قلبهِ وهو يعتقد بهِ في عقلهِ. وهذا الاعتقاد يُبني فيهِ الرجاءَ الكاذب الذي يجعلهُ ان يقول: انّ ما بقي من حياتي لبقيّة مديدة فلا حاجة لي الآن ان اهتمّ بالاستعداد للموت - ولكن ماذا الذي يصيب هذا العبد الكسلان اخيرًا. ها انّ ابن الله قد سبق الى الاخبار عنهُ بقولهِ: انّهُ تعالى سيفصلهُ من سائر العبيد ويدينهُ ويلقيهِ في سجن مظلم حيث لا يوجد الاّ البكاءَ وصرير الاسنان - وما لي أُسهب في ايراد الشهادات التي تحصى في هذا المعنى. فقد قال ايرمياءَ: انّ الموت يدخل علينا لا من الباب فقط بل من الشبّاك ايضًا. فكأنّهُ يقول: انّ الموت اذا لم يستطع ان يدركنا من جهة يفاجئنا من اخرى. وعلى هذا المنوال احد الانبياءَ يتوعّد الخطاة قائلاً: انّ الشمس تغرب عليهم في وقت الظهر نفسهِ. وانّ ظلمات

الموت تمتدّ على وجه الارض في وسط النهار - وبذلك يشير الى انّ الله يقضي على الخطاة في عنفوان اعمارهم وحداثة نشأتهم وانّهم يموتون بينما يفتكرون او يخالون انّ امامهم بسطة ممدودة بعيدة من الحيوة *

فهلمّ ايها الاخوة الاحبّاء نتأمّل هذا الامر برهةً من الزمان. أَوَلا يسوغ لي أن اكلّمكم بما في ضميري. وكيف يجوز لي ان لا اكشف لكم عمّا في خلدي. وليس مقصدي المبالغة في ما انا قائلهُ عن هذه الامور ولا نيّتي ان القي في انفسكم خوفًا باطلاً. بل انّي لا يحلّ لي ان اكتم عنكم الحقّ والاّ ابوح لكم بما في صدري - فاقول بغير تردّد ولا اضطراب: انّ الذين لا يدركهم الموت بغتةً من بين المومنين قاطبةً عددهم قليل نزر. والدليل الواضح المقنع على ذلك هو انّ موتنا لا يكون الاّ على احد هذه الانواع الثلاثة. وهي انّ من الناس من يموت موت الفجأة وعلى بغتة بحصر المعنى. كمن يموت مضروبًا بيد رجل قاتل او يسقط ميّتًا في حصار مدينة او يموت مجروحًا جرحًا مميتًا في معركة او غريقًا في البحر او مخنوقًا تحت ردم بيت او بناء او يموت على الفراش او على المائدة بمرض قتّال لساعتهِ قد اعتراهُ على غفلة - فكلّ هؤلاء الذين يأتيهم الموت على هذا النسق يموتون من غير الاستعداد القريب للقاء الموت - ومن الناس من يموت بدون هذه السرعة. ولكن موت هؤلاء ايضًا كانّهُ موت الفجأة. كمن يعتريهِ مرض السبات ويموت. او يصيبهُ مرض آخر يذهب بالوعي او وجع حادّ يشوّش العقل ويبرقعهُ او يمزّق الاحشاء فيمسي المريض باحد هذه الامراض في دقائق يسيرة مشرفًا على خطر الموت غائبًا عن عقلهِ تمامًا لا يستفيق ولا ينتبهُ لشيء بتّة. والحكم في هؤلاء مثل الحكم في الذين سبق الكلام عنهم اي انّهم كذلك يموتون بغير استعداد للموت - بقي الآخرون الذين يموتون عقب مرض مستطيل. فاقول فيهم ما قد اختبرتهُ بالتجربة الطويلة. وذلك انّ الموت يوافي المريض بغتةً في كلّ الاحوال. فانّ الجميع يبذلون مجهودهم في ان يخدعوا

المريض ويغشّوهُ . فالمرأة مثلاً لتعلّقها بزوجها ورغبتها في برءِهِ تظهر لهُ غيرة كاذبة بقولها لهُ عن الادوية انها تنجع فيهِ وتشفيهِ . والاصدقاء وان يعلموا انّ المريض غير قابل الشفاء يؤمّنونهُ بقولهم لهم انّ مرضهُ لا يخلو من رجاء الشفاء . والاولاد يهنّئونهُ على انهُ قد لاحت فيهِ علامات يستدلّون بها انّ حالتهُ في نجاح وتقدّم ومع نظرهم الى وجههِ موسوماً بسمة الموت يستنتجون من تلك الهيئة ما يحاولون ان يعزّوا بهِ اباهم . وفي اثناء ذلك تكون روحهُ قد قاربت فمهُ لتزهق — وبمثل هذه المعاملة يعاملهُ الاطبّاء الغاشّون وهم يبدون لهُ مودّة ذات وبال عليهِ — امّا المريض المنكود الحظّ الذي قد اتّفق الجميع من كلّ جهة على خدعهِ فيصدّق كلام الذين نبحث عنهم بكلّ سهولة . لانّ المريض مثل سائر الناس يحبّ الحيوة محبّة بليغة مفرطة — فان وُجِد من نوى ان يكلّم المريض بالصدق ويبيّن لهُ ما يجري من بذل المجهود في غشّهِ . قال لهُ اهل المريض : ايّاك من ان تحزنهُ والحذر الحذر من ان تكلّمهُ عن اخذ الاسرار لئلاّ يرعبهُ هذا الامر فتثقل حالتهُ — وفي اثناء ذلك فالموت يوافي مسرعاً ويقترب بل ها انهُ قد اقبل . فيضجّ الحاضرون ويهتفون قائلين بصوت آسف : ها هوذا يسلّم الروح . والعائلة باسرها تحدق بهِ وكلّهم يقولون بصوتٍ واحد : أَوَّهْ . حقّاً انهُ يموت — فما هذا المقال . انهم قبل هنيهة كانوا يَعِدونهُ بنيل الشفاء عمّا قريب . ولكن اما انهم لم يكونوا يقولون ما في ضميرهم . او لعلّهُ كان يظهر من حالتهِ حينئذٍ انهُ يُرجى لهُ الشفاء ثمّ حدث لهُ بغتةً ما قضى عليهِ الأَجَل — فالانسان المسيحيّ الذي قد عاش سنين متعدّدة في حال الخطيئة وغضب الله يموت وقد قضى حياتهُ كلّها او اكثرها مستعبداً للملكات السيئة وتشبّث بامور شتّى لم يبحث عنها البحث الشافي . يموت وقد استغنى بخراب بيوت كثيرٍ من المساكين بعد ان سلبهم اموالهم وغادرهم في اقصى حال من الفقر . يموت هذا الانسان المسيحيّ الذي كان يهدّئ نفسهُ المضطربة من جرّاء المآثم التي اقترفها بوعدهِ انهُ سيتوب

عند الموت – اي نعم يموت هذا الانسان. ولكن ما ظنّك باصدقائهِ واقربائهِ هل اتوهُ بمن نصح لهُ في امر خلاص نفسهِ. انهم حقًّا قد كانوا نووا ذلك. غير انّهم لم يزالوا يتأخّرون من يوم الى يوم ومن ساعة الى ساعة. وخافوا من ان يرعبوهُ باستحضار معلّم الاعتراف اليهِ. والآن فاذ قد غاب عن الحواسّ وفقد عقلهُ اصلاً فالزمان الملايم للتوبة والخلاص قد عبر وفات – يا لهُ من اعتذار باطل امام الله قولكم انّهُ قد فات الزمان الملايم للتوبة والخلاص. أَوَ لم يكن الزمان مناسبًا ملايمًا للتوبة حين كان خَدَمة البيعة ينبّهونهُ ان يكون على حذر. أَوَلم يكن الزمان مناسبًا للخلاص اذ كانت النعمة الالهيّة تحرّكهُ وتجتذبهُ الى التوبة. أَوَلم يكن الزمان مناسبًا للخلاص حيث كان الصديق الصدوق والواعظ الراغب في خلاصهِ يحثّهُ بكلّ غيرتهِ على الاقلاع عن غيّهِ والارعواء من شرّهِ – فيموت هذا الانسان المسيحيّ بلا اعتراف وخاليًا من كلّ عاطفة ينعطف بها الى الله. يموت ونفسهُ ملوّثة من كلّ جهة بادران الخطايا – افما يؤثّر فيكم يا مباركين هذا المنظر المرثيّ لهُ. انّي أُقرّ معترفًا انّ ذلك ممّا يوعبني فزعًا وروعًا فوق كلّ وصف – يا ما ارعب هذا المنظر منظر انسان قد حصل في النزع الاخير اذ يُقبل اليهِ الملاك الطالب النقمة ويخاطب النفس بصوت مرّ مزعج قائلاً لها: أَلا يا ايّتها النفس المرذولة اخرجي من هذا الجسد الذي قد اتّخذتِهِ لك الاهًا بمداراتك ايّاهُ. بل اخرجي من الجسد الذي تركتِهِ ان يعيش كالبهائم اخرجي منهُ. فانّ الذي يدعوك هو الله الذي قد توانيتِ عن عبادتهِ. ها هو ينتظركِ ولا يريد ان تبطئي. أَلا فاخرجي عاجلاً – فما ظنّكم يا مباركين بمن يموت هذا الموت. اسأل الله ان لا يريكم مثلهُ ابدًا. واذ ذاك فيجب علينا ان نستعدّ للموت اذ انّهُ من المؤكّد انّنا لابدّ لنا ان نموت باجمعنا لا محالة. ويجب ايضًا ان نكون على الدوام مستعدّين للموت اي في كلّ وقت اذ لا علم لنا بهِ في ايّ وقتٍ يأْتينا – ثمّ يجب علينا اخيرًا ان نبذل كلّ مجهودنا في الاستعداد

للموت من حيث انّ ما يتبعهُ اي ما ينتج منهُ لا يمكن اصلاحهُ اصلاً. وهذا هو الجزء الثالث من خطابنا مع محبّتكم *

الجزء الثالث

انّ النتائج التي يُنتجها الموت هي ابديّة. والاغلاط التي تحدث في ذلك لا اصلاح لها بتّة. وذلك من وجهين احدهما لانّ الانسان لا يموت الاّ دفعة واحدة. والثاني لانّ الحكم الذي يصدر على الخاطئ في ساعة مماتهِ لا يقبل التغيير ابدًا اصلاً – وهتان القضيّتان لا تحتاجان الى بيّنة او برهان بل يكفي ايرادهما واستشهاد ما اختبرناهُ بالتجربة وتعلّمناهُ من الايمان فيهما – فانّ الرسول الالهيّ بعد قولهِ انّهُ قد حُكم على كلّ انسان ان يموت اعقب ذلك بقولهِ: مرّةً واحدة – ولعمري انّ ذلك لا يقتضي منّا الاّ شهادة حواسّنا. فما هو الامر الذي يزيدنا حزنًا في فقدنا اصدقائنا واقربائنا. ذلك لانّنا بفقدهم نُحرَم مشاهدتهم فيما بعد – فان كان الانسان لا يموت الاّ مرّة واحدة. فلا مساغ لهُ ليرجو ان يربح بحيوة جديدة على الارض ما قد خسرهُ في حياتهِ الاولى. افلعلّهُ يستطيع بعد موتهِ ان يؤدّي في الحيوة الاخرى التي يقودهُ اليها الموت ما قد اهملهُ وتغافل عنهُ في هذه الحيوة ام لعلّهُ يستطيع هناك ان يصلح امرهُ بالتوبة ويرضي ربّهُ وبصالحهُ. هيهات ثمّ هيهات – انّ رجاءهُ من هذا الوجه مقطوع ابدًا. والدليل على ذلك قول الرسول بانّهُ بعد الموت تكون الدينونة. وهذا ما نعتقدهُ يا اخوتي نحن معشر المسيحيّين ونلتزم ان نؤمن بهِ – فما نتيجة ذلك. النتيجة هي انّهُ يجب علينا ان نجتهد بكلّ قوانا في ان نتأهّب ونستعدّ لان نحصل على ميتة صالحة – فانّك يا هذا ان مُتّ موتًا مقدّسًا فانت خالص الى الابد. وبالعكس فإن مُتّ موتًا سيّئًا تعيسًا فانت هالك هلاكًا مؤبّدًا – فالموت معلّق بهِ الخلاص او الهلاك الى

الابد. ومن ثمَّ فاذ كان الامر الذي ينبغي لي ان اطلبهُ فوق كلّ امر انمّا هو الخلاص والامر الذي ينبغي لي ان اخاف منهُ فوق كلّ امر هو الهلاك. فلا بدّ لي من ان افرغ كلّ مجهودي في ان اجعل ان يكون موتي سعيدًا صالحًا – غير انّ الموت لا يكون صالحًا الاّ اذا عشتُ عيشة صالحة. فانّ الشيء الواحد هو ثمرة الآخر. وهذا ما نتّفق على القول بهِ انا وانتم. فيجب علينا ان نجتذب كلّ ما يميل بنا الى الخطيّة ونروض انفسنا على الفضيلة ونؤدّي سائر فرائض الديانة المسيحيّة *

فان اعترضتم انّ هذه الرياضة هي عسرة صعبة تضادّ ميلنا الغريزيّ وينفر منها الانسان طبعًا. اجبتكم قائلاً: يسوغ لكم ان تتّخذوا الموت نفسهُ وسيلة لتهون عليكم مصاعب السيرة المسيحيّة – وذلك انّ ما يجعل السيرة المسيحيّة ثقيلة شاقّة علينا هو حبّنا لذواتنا وولوع قلوبنا بالعالم وترّهاتهِ وملذّاتهِ وزهوهِ. افتحبّون ان تتعلّموا كيف يكفر الانسان بنفسهِ ويرذل ذاتهُ ويزدري اشهى ما يوجد في العالم. عليكم ان تستشيروا الموت. فانّكم تجنون منهُ علمًا مفيدًا فعّالاً جدًّا. ويكفي ان اقول لكم ما قالهُ السيّد المسيح عن قبر لعازر: ارفعوا الحجر (يوحنا ١١ : ٣٩) – افتحوا هذه المقبرة وانظروا الى ايّ شيء صار الانسان الحائز على السلطة والاقتدار وما هي عظمتهُ. لقد زال وانمحق عزّهُ ولم يبقَ من ذلك الرجل المبجّل الاّ بقيّة شنيعة منتنة كريهة ترعاها الحشرات – ارفعوا الحجر عن قبر ذلك الرجل الغنيّ المتباهي يومًا بثروتهِ وكنوزهِ وتأمّلوا حالتهُ. ها لم يبقَ لهُ من كلّ ما ملكتهُ يدهُ من الاراضي والغلاّت الاّ سبعة اشبار من الارض. وهذا وحدهُ نصيبهُ من الآن فصاعدًا من مقتناهُ باسرهِ – ارفعوا الحجر عن قبر ذلك الشابّ الحدث السنّ الذي كان يرفّه جسدهُ ويتدلّل على ابويهِ واهل بيتهِ والتائه بحسن جمالهِ الفاني – الا فاتّعظوا في هذه مدرسة الموت وانظروا كيف انّ ذلك البهاء قد انمحى وزال والحسن استحال الى جيفة كريهة

ورمّة فظيعة. افهذا هو ما يستحقّ منكم يا ايها المسيحيّون مزيد الاعتبار. يا للاسف. وكيف تستصعبون رذل مثل هذهِ الاشياءَ الفانية الزائلة - ثمّ انّي ازيد على ذلك معترفًا معكم انّ العزلة عن العالم امر عسير وعمل الفضيلة يقتضي منّا ان نغصب نفوسنا ونسخّرها. ولكنّي اسألكم عن هذا الامر الذي نحن في صددهِ وهو الاحتراز من الخطر العظيم اي خطر الموت في حال الخطيّة والنجاة من العذابات المؤبّدة التي تلي الموت هل يوجد امر اعظم واهمّ منهُ - وما الذي تتكلّفونهُ لكي تسلموا من غرور الدنيا وتصلحوا سيرتكم. انمّا ينبغي لكم ان تصرفوا في ذلك بعض سنين تنقضي وتنتهي بكم عاجلاً. وبخلاف ذلك فان تماديتم في الطريق التي انتم فيها سائرون واستمرّيتم على سيرتكم الاولى وهي سيرة من يوالي العالم ويصبو الى مسرّاتهِ وملذّاتهِ فترمون انفسكم في خطر موت الهلاك المخلّد - فدونكم حقيقة الخطر الذي تلقون فيهِ النفس المخلوقة لحياة الابد. وهي ان ذهبت هالكة فلا تستطيعون ان تخلّصوها ابدًا ابدًا *

فهاأنذا اكرّر عليكم ايها الاخوة المباركون ما قلتهُ في مطلع موعظتي هذه وهو ان تحسنوا الاستعداد للموت. فان سألتموني الآن قائلين وكيف يتيسّر لنا ذلك. فانا اورد لكم نوعين من هذا الاستعداد احدهما عامّ والآخر خاصّ - امّا الاستعداد العامّ فاقول فيهِ: احذروا من ان تتمادوا مستمرّين على حال الخطيّة مدّة طويلة. تحرّزوا من ايسر الزلاّت. ادّوا فرائض دعوتكم بامانة واعملوا اعمال الخير ما استطعتم - وامّا الاستعداد الخاصّ فهو قائم في رياضات قد اعتاد المؤمنون المجدّون في امر خلاصهم ان يروضوا انفسهم عليها. فمنهم من يعيّن من كلّ سنةٍ ايّامًا فيها يعتزل عن العالم بهامّهِ وهمومهِ ويلازم الخلوة عاكفًا على التفكّر في ما يخصّ امر الخلاص فيصرف الزمان وهو يتامّل الحقائق الخلاصيّة الابديّة ويفكّر في حال نفسهِ نظرًا الى الله. ويبكي على ما قد زلّ بهِ. ويتّخذ لهُ الوسائل المفيدة التي تعينهُ على اصلاح سيرتهِ. ويزيل عن ضميرهِ كلّ

ريب ويختار لهُ مرشدًا تقيًا حاذقًا لينظم سيرتهُ وفق مشوراتهِ - ومنهم من يختار من كلّ شهر او اسبوع يومًا فيهِ يختلي بنفسهِ ويتأمّل في الموت ويحسن الاستعداد لورودهِ ويفحص ضميرهُ الفحص البليغ المدقّق عمّا صدر منهُ ويعترف عن ذلك اعترافًا جيّدًا كأنّهُ حينئذٍ مزمع المثول بين يدي الله ليؤدّي لهُ الحساب - ومنهم وهم اكثر الناس نشاطًا واجتهادًا في هذا الشان يحذون حذو القدّيسين اذ يوجّهون كلّ يوم باكرًا فكرهم الى المسآء وهم يتصوّرون انّهم لا يبلغون اليهِ والى الغد انّهم لا يشهدونهُ. وهذا الفكر الحميد يصونهم من كلّ خطر يعرض. بل هذا الفكر مثل المهماز يحثّهم على ادآء افعال الخير باحرّ النشاط - فمن كان لهُ مثل هذا الاستعداد فلا يموت ميتة البغتة من غير استعداد سابق بل انّما يموت موت الصدّيقين وبالموت يجوز من هذه الدنيا الى السعادة المؤبّدة *

الموعظة الثامنة والسبعون

في الصبر على التجاريب

الفاها بمناسبة ذكر قطع رأس يوحنّا المعمذان

فلمّا سمع يوحنّا في السجن باعمال المسيح ارسل اثنين من تلاميذهِ وقال لهُ أأنت هو الآتي ام ننتظر آخر (متى ١١ : ٢) *

حقًّا انّ ما يوردهُ اليوم الانجيل المقدّس لامر غريب يُقضى منهُ العجب. وذلك انّ مار يوحنّا المعمذان الذي لم يولَد احد اعظم منهُ في القداسة قد أُلقي في السجن بامر هيرودس المنافق - فها انّ الفضيلة تُقذَف في الظلمة وتوثَق بالسلاسل. والرذيلة في اثنآء ذلك تتبوّأ عرش السلطة والكرامة - وهذا هو الامر الذي حمل الآبآء القدّيسين على ان يوردوا الحجج الكثيرة لتبرئة تدابير العناية الآلهيّة من التهمة ويبيّنوا انّ احكام الله هي عادلة ذات حكمة - وكنتُ انا كذلك

اودّ ان اخاطبكم في ذلك . غير انّ نصّ الانجيل المذكور آنفًا يقدّم لي موضوعًا آخر اكثر فائدة واشدّ ضرورة لكم من ذلك . وهذا الموضوع الذي اريد ان ابحث عنهُ هو الصبر على البلايا الزمنيّة – ما من احد الآن حتّى بين الفضلآء من يضاهي القدّيس يوحنّا في الفضيلة . اذ ليس من هو مثلهُ بريّ من ايسر درن الخطيئة . وان الذين يُحسبون الآن اجزل برًّا ممّن سواهم هم الاقلّ اثمًا من غيرهم – واذ كان ذلك كذلك فلا ريب انّ الخطيّة تجعلنا جميعنا مستحقّين للبلايا التي تحيق بنا . ولذلك فلا نسهب الكلام في تبرير احكام الله في ابتلاء الابرار بالبلايا . بل الاولى بنا ان نبذل المجهود في ان نتّعظ بالبلايا التي بها الله الآن يعاقب الخطاة *

فهلمّ بنا يا مباركين نتأمّل بنور الايمان في مقاصد العناية الربّانيّة . فلنتيقّن بكلّ اليقين هذه القضيّة التي لا بدّ من ادراكها وتصديقها وهي من شأنها ان توعبنا عزآء فائقًا اعني القضيّة التي اعلنت بها يهوديث بروح الله لبيت فالو بقولها : انّ البلايا التي تأتينا من الله ليست عقابًا مرسلًا من حاكم يريد ابادتنا وهلاكنا بل هي مرسلة من اب يشآء ان يؤدّبنا بمحبّة ورحمة (يهوديث ٨ : ٢٧) – فلنعتقدنّ مع هذه الارملة انّ بلايا هذا الدهر هي عقاب مرسل من الربّ وهي اقلّ ممّا تستوجبهُ خطايانا وانّ الله بها يؤدّبنا نحن عبيدهُ لكي نتوب اليهِ . فلا نتصوّر الله قد ارسلها لهلاكنا – فاعتبروا معي يا مباركين في هذا الصدد هذين الامرين اللذين نتّخذهما اليوم موضوعًا لتعليمنا – اعلموا اذًا انّ العناية الالهيّة بهذه البلايا لها مقصدان احدهما يخصّ الزمان المستقبل والآخر يخصّ الزمان الماضي . امّا ما يخصّ الزمن المستقبل فهو توبة الخاطئ واصلاح سيرتهِ . وامّا مقصدهُ تعالى عن الزمن الماضي فهو الوفآء الذي بهِ الانسان يوفي للعدل الالهيّ عن خطاياهُ – فمن الامر المؤكّد ان لا وسيلة افضل فائدة لاجتذاب الخاطئ الى التوبة واصلاح سيرتهِ من الشدائد والبلايا الزمنيّة . وهذا ما نبحث عنهُ في

الجزء الأوّل من موعظتنا . ثمّ من المؤكّد كذلك ان هذه صنوف البؤس التي تعرض لنا في الدنيا هي الوسيلة الاقوى للوفآء عن الخطايا السابقة . وهذا ما نبيّنهُ في الجزء الثاني - فيجب على الجميع ان يفهموا جيّدًا هاتين الحقيقتين . فانّ الناس جميعًا بغير استثنآء في ايّ مقام كانوا وايّ مرتبة وُجدوا هم حاصلون في كدّ وضيق حسب كلام الحكيم نير ثقيل على بني آدم منذ يوم خروجهم من بطون امهاتهم الى يوم يُدفَنون ... من الجالس على العرش في المجد الى القاعد في التراب والرماد : (سيراخ ٤٠ : ١ و٣) - فما اكثركم احتياجًا الى التأمّل في ما نكلّمكم عنهُ اي حسن استعمال بلايا هذا الدهر . ويا لسعدي انا الراغب في نجاتكم من كلّ بليّة ولكنّي عاجز عن ذلك : يا لسعدي لو انّي اجعلكم بكلامي ان تجتنوا من الشدائد والمحن هُذين الخيرين العظيمين وهما الرجوع الى الله بالتوبة . والوفآء عن خطاياكم - فلنطلب انوار روح القدس الضروريّة لبلوغ هذا الغرض ولنطلبها بشفاعة العذرآء المجيدة الجليلة قائلين لها مع الملاك جبرائيل : السلام عليكِ يا مريم الخ *

الجزء الاوّل

اقول اوّلاً انهُ ان كانت البلايا تردّ الانسان الخاطئ عن الخطيّة وتجعلهُ ان يندم على انهُ فعلها فالانسان ليس لهُ ما يعتذر بهِ ويبرّر نفسهُ من حلول البلايا براسهِ - فانهُ لا يمكن ان يستعمل الله وسيلة اخرى اعظم قوّة واشدّ تأثيرًا لردّ الخاطئ عن الشرّ من هذه الوسيلة - على انّ اليُمن والاقبال مضرّ بقلب الانسان من ثلاثة اوجه . اي اوّلاً من حيث انّ اليمن يوطّد قلب الانسان على حبّ الدنيويّات . وثانيًا من حيث يُبعد عنهُ ذكر الله . وثالثًا من حيث يربّي فيهِ كلّ رذيلة - فكذلك البليّة تفيد الانسان على ثلاثة انواع .

فانها تفصل قلبهُ من حبّ الارضيّات. وتؤيّدهُ في عبادة الله وطاعتهِ. وتربّي فيهِ كلّ الفضائل وتنميها - الا فاحسنوا الاصغاء للنصائح الخلاصية التي تُقدَّم لكم بالشدائد واستفيدوا منها *

انّنا ولئن تاكّدنا انّ خيرات الدنيا باطلة فهذهِ الحقيقة لا تؤثّر فينا تأثيرًا قويًّا فعّالًا. وانما البلايا ترفع عن العقل حجاب العمى وتعتق القلب من حبّ الارضيّات - لقد علمنا باجمعنا بطلان الدنيا على وجه العموم. ونرى الذين يحبّونها كلّ الحبّ يتكلّمون بافصح العبارة عن خساستها وزوالها كانّهم يزدرونها حقًّا ويحتقرونها غير انّنا نراهم في مدّة السعد والنجاح مع القول بخساسة خيرات الدنيا يهيمون اليها ويتنعّمون بها - واذا اصابتنا البليّة فنشعر باطنًا بصواب هذه الحقائق التي كنّا نستغربها قبلًا. فانّنا اذ ذاك نتعلّم من التجربة بطلان الارضيّات وزوالها - اذا سمعنا في حالة الصحة من يقول لنا انّ العافية سريعة الزوال والعطب لأيسر علّة. وانّ الانسان بفقد هذا الكنز اي كنز العافية يمسي كلا شي امام الناس. فلا تؤثّر فينا هذه الحقيقة الّا قليلًا. واذا شاهدنا يجري في غيرنا هذا الامر فلا يرتفع عنّا تمامًا برقع الطغيان والخداع. ولكنّا اذا شاهدنا اقرباءنا ومعارفنا في حال المرض نزداد حينئذٍ حرصًا على عافيتنا. ثمّ اذا الجأنا المرض العسر الشفاء ان نلزم الفراش فاذ ذاك نعتقد هذه الحقيقة اعتقاد اليقين. وكانّنا نسمع في باطننا هاتفًا من السمآء يقول لنا ما قالهُ ناثان النبيّ لداود: انّك انت ذلك الرجل. فاذ قد نُزِعت الآن عنك عافيتك فقد اضحيتَ عاجزًا عن عشرة هذا العالم وارتشاف كاس ملذّاتهِ. ولذلك فتأمّل وتيقّن بطلان ما كنتَ متمتّعًا بهِ - ثمّ ان مكثتَ ملازمًا الفراش بمرض طويل فهو يدرّبك رويدًا رويدًا على جحد حطام الدنيا ورذلها واحتقار هذا العالم الذي يفتن الناس. ولا تحسب شيئًا ان ترى نفسك مهملًا منسيًا - فعلى هذا النحو نرى انّ الاسكندر الملك المظفَّر مع انّهُ لاشتغالهِ على الدوام بالحروب كان الموت

بازائهِ في كلّ حين لم يعِ انَّهُ انسان قابل الموت الاَّ لمَّا اوقعهُ المرض على الفراش - وانت كذلك اذ كنتَ محتميًا بحماية اقوام ذوي عزّة واقتدار وكنتَ تسمع نصّ تعليم المسيح بان لا نجعل بتّةً ثقتنا في ذي لحم ولا نعتمد على ذراع قابل الموت بل أن نثق بالعناية الالهيّة ونعتمد على يد ربّ الارباب القادرة على كلّ شيء فما اقلّ ما كان يؤثّر فيك هذا التعليم الجليل - واذ عاينتَ غيرك قد هووا من حال الثروة والسطوة قلتَ في قلبك عن نفسك: انا قلتُ عند اطمئناني لا اتقلقل الى الدهر (مزمور ٢٩: ٧) - ولكن بعد ذلك اذ شعرت من الرجل الذي كان يحميك ويعضدك انَّهُ قد بردت مودّتهُ وصرف عنك وجههُ واهملك وصار الى غيرك واتّخذهُ في مكانك. ولحظتَ من اصدقائك انهم قد نأوا عنك. فعند ذلك علمتَ وأيقنتَ بالاختبار صدق كلام ارمياء النبيّ انَّهُ ملعون الرجل الذي يتوكّل على الانسان ويجعل ذا اللحم ذراعهُ (أرميا ١٧: ٥) - كم مرّة سمعتَ نصائح الرسول القائل أَوصِ اغنياءَ هذه الدنيا الاَّ يستكبروا في هممهم ولا يتكلوا على الغنى الذي لا تكلان عليهِ (١ طيمثاوس ٦: ١٧) ولم تؤثّر فيك هذه الوصيّة لحصولك في حال الرخاء. ولانّ احوال تجارتك كانت تجري وفقًا لمرامك وهواك - ثمّ اذ ادركتك المحنة وسقطتَ من وظيفتك. او خسرتَ دعواك في المحكمة. او افلستَ ظلمًا بقضاءِ الحكم او بخيانة شركائك. فعند ذلك ايقنتَ انّ من يجعل رجاءَهُ في الخيرات الزائلة هو جاهل وسمعتَ باطنًا صوت النبيّ القائل لك: ان زاد غناك فلا تضع فيهِ قلبك (مزمور ١٦: ١١) - كم من الناس من كان سعيدًا ثمّ تكدّر صفوهُ بحدوث حادث طفيف. اذ انّ الانسان من سوء الحظّ يؤثّر فيهِ الشرّ اكثر ممّا يؤثّر فيهِ الخير - انّنا نرى ذلك الرجل الغنيّ المعتبر غائصًا في لجج الاكدار والشجون من جرّاء امرأة فاجرة او ابن شرّير عقوق. وهذه الحقائق كنّا قد سمعناها مرارًا ولكنّها لم تؤثّر فينا التأثير الفعّال لانّ السعد الدنيويّ الذي كنّا فيهِ لم يدعنا نتأمّلها حقّ التأمّل. ولولا الشدّة احاقت بنا لم

نكن نحققّها ونجني منها الفائدة لخلاصنا - انّ مار اوغسطينس في مناجاتهِ الله سبحانهُ يقول هكذا: أي نعم يا ربّ انّ عنايتك دبّرتني لتعتق قلبي من التعلّق بأباطيل العالم. وكذلك فعلتْ رحمتك المهتمّة بخلاص نفسي اذ جعلت المرارة في كلّ ما كان يهواهُ قلبي بجهالة مهلكة. وملأت اشواكًا الطريق التي من شأنها ان تصدّني عنك. ونزعتْ عنّي كلّ ما كان يميل بي الى حبّ الارضيّات - انّني بعد ان اختبرتُ الامورِ غدوتُ عالمًا بضعفي. ومن المؤكّد عندي انّني لو تسمح ان يعاملني الدهر بجفاء وغدر لمكثتُ على حالي المهلكة - فالويل لمن يسعى وراء العالم وشهواتهِ. فانّهُ يلبث متماديًا في خداعهِ ولا ينفكّ موثوقًا بقيودهِ *

ومن جهة اخرى فما من شيء اشدّ تأثيرًا واوفر قوّة من الشدّة لردّ الانسان الى الله ولتأييدهِ في عبادتهِ. وسبب ذلك انّ الشدّة اذا احاقت بنا انهضتنا واضطرّتنا الى الرجوع اليهِ تعالى. فانّ الانسان في ايّ حالةٍ كان لا يزال يروم ان يكون سعيدًا. وهذا الميل الغريزيّ الطبيعيّ لا يفارق الانسان ابدًا. فان لم يجد في العالم ما يسلو بهِ يتوجّه الى الله في التماسهِ - فلا يحصل الانسان في هذه الحال السعيدة التي فيها تؤثّر فيهِ حقائق الخلاص تأثيرًا قويًّا الّا اذا أُصيب بالبليّة والشدّة. فذلك الانسان ما دام في حال الاقبال مرفّهًا مسرورًا كان لا تؤثّر فيهِ الّا يسيرًا الحقائق التي تعلّمها بنور الايمان عن خيرات الحيوة الأخرى وسعادة القدّيسين وعذوبة عبادة الله. اذ انّ حواسّهُ كانت تلهيهِ عن تلك الحقائق وتجعلهُ عاجزًا عن التفرّس في الخيرات التي لا تعايَن وباولى حجّة تجعلهُ عاجزًا عن حبّها. فلمّا انكشف عن الحواسّ برقع الخديعة والمّت بهِ الشدائد. انتعشت فيهِ بذلك الحقائق الخلاصيّة فاستنار بنور الايمان وصار هذا الانسان الحيوانيّ الذي لم يكن يستطيع ان يفهم الامور المختصّة بالخيرات العتيدة غير المدركة قيمتها اذ حصل في الشدّة يدرك تلك الامور باقتناع ويستطيب الفضيلة ويصبو اليها هيامًا بعد ان كان يشمئزّ منها ويستكرهها. ذلك لانّهُ اذ ذاك يقابل سرعة

زوال الخيرات الارضيّة مع ثبات الخيرات العتيدة الباقية التي لا يقدر احد ان ينزعها منهُ فيشعر الذلك بعظمتها - وذلك الانسان فيما مضى اي قبل ان تداهمهُ المحنة قد كان سمع كثيرًا هذا التعليم الانجيليّ وهو انّ الله لا نظير لهُ بين الارباب في الجود والكرم والرحمة . ولم يكن يؤثّر فيهِ والآن اذ قد ابتُلي فصار يقابل الله مع العالم الذي قد انجلى لهُ ظلمهُ ودناوَهُ . فيرى بسهولةٍ ايّ الاثنين ينبغي لهُ ان يختار ويجد نير الربّ طيّبًا خفيفًا وشريعتهُ صوابًا ومجازاتهُ وافرة . فيهتف قائلاً : طوبى لمن يخاف الله ويعبدهُ . ولا خير في العالم غير هذا الخير . والامر المهمّ بل الاهمّ انّما هو امر خلاص النفس . ألا فارجعي يا نفسي الى راحتكِ *

وانّ النعمة الالهيّة تصحب هذه التأمّلات على الدوام وبذلك تتمّ توبة الانسان الى الله - فانهُ ما من احدٍ يبسط لنا يدهُ ويهمّ باسعافنا في وقت المحنة سوى الله . وهو تبارك اسمهُ يظهر حينئذٍ انعطافهُ للانسان الخاطئ ويسهّل لهُ الرجوع اليهِ ويجعل ان ينزل البلآء براسهِ في احوال قد دبّرت عنايتهُ اتّفاقها لاجل خلاص الخاطئ - ففي الساعة الميمونة التي فيها الشدّة تلهم الانسان بغض العالم يظهر الآب السمويّ لهُ وجهًا بهجًا ساطعًا باشعّة الرجآء ويفتح لهُ ملجأً في حضنهِ المقدّس وينبههُ ويشجّعهُ ويحثّهُ برفق ولطف حتى يخجل الخاطئ في نفسهِ اذ يشاهد ربّ المجد الذي كان قد اسخطهُ قد اقبل يطلبهُ بعد ان غدا مخذولاً مهملاً عند كلّ احد فينقاد الانسان حينئذٍ بكلّ سهولة لاجتذاب النعمة ايّاهُ - وكم من الذين قد خلّصتهم العناية الربّانيّة بواسطة خراب ديارهم - فمن كان حاصلاً على هذه الحال وهي حال الشدّة والبؤس لا يلتمس تسليةً الّا من الله وحدهُ ويعاهدهُ عزّ وجلّ انّهُ يمكث على عبادتهِ الى الابد ويبقى لا يحسب العالم شيئًا وقلبهُ يميل الى حبّ السماويّات . ويستفيق على غيّهِ ويتأسّف على ما سلف منهُ ويسكب راضيًا مع الابن الشاطر دموع الندامة بين يدَي الربّ الرحوم الذي يقبلهُ بمحبة فائقة ويغبط البليّة التي نجّتهُ من حبّ العالم . ونفسهُ لا تعود

تصبو الى الخيرات الارضيّة. ويعطي الويل للراغبين في النجاح الدنيويّ. كلّ ذلك طبقًا لما كان يطلبهُ النبيّ والملك داود من اجل الشعب اليهوديّ قائلاً: املأ وجوههم هوانًا. فيطلبوا اسمك يا ربّ (مزمور ٨٢: ١٧) - على انّ النبيّ كان يرى هذا الشعب العديم الوفآء يتناسى احسانات الله في حال الرفاهية والاقبال وكانوا بخلاف ذلك اذا اصابتهم البليّة يرجعون اليهِ تعالى ويعبدونهُ. ولهذا هتف بروح الغيرة على مجدهِ عزّ وجلّ وعلى خلاص اخوتهِ قائلاً في صلاتهِ: املأ وجوههم هوانًا. فيطلبوا اسمك يا ربّ - فدعوني يا مباركين ان اقول مثلهُ وبروحهِ عن جهالة محبّي العالم: يا ربّ ضيّق على مختاريك الذين تحبّهم. لا تعاملهم باللين والملاطفة. فانّهم ان تركتهم في حال السعد والهنا يستمرّون على حال المعصية والتمرّد. فاملأ وجوههم هوانًا فيطلبوا اسمك يا ربّ *

وما عدا ذلك فانّ الشدّة او البليّة من شأنها ان تربّي الفضائل. فمثلما النجاح من عادتهِ ان يصيّر الانسان متكبّرًا فظًا وقحًا محبًا للّهو قاسيًا على المساكين متغاضيًا عن عبادة الله. بعكس ذلك الشدّة تصيّر الانسان ورعًا مؤدّبًا وديعًا متّضعًا. وتعطف الى طلب الاختلآء واجتناب ندوات اهل العالم. وتميل بقلبهِ الى الرقّة والرأفة على البائسين. وتجعلهُ ان لا يجد راحة وتسلية الاّ في العبادة واداء فرائضها - انّي اعترف مصدّقًا معكم يا مباركين انّهُ قد يوجد من الناس من لا تصلح الشدّة سيرتهم. بل بالعكس انها تزيد قلوبهم صلابةً وشرًا. وهؤلاء الناس هم الذين اذا حصلوا في البليّة يجدّفون مع اللصّ الشرّير ويتمّمون امر رذلهم المؤبّد - فلا شيء احقّ بنا ان نقولهُ لهؤلاء ممّا قالهُ مار اوغسطينس لاهل قرطاجنة ابنآء رعيّتهِ اذ خاطبهم بقلب آسف وهو يرثي لحالهم هكذا: انّكم لقد حرمتم انفسكم من الخير الناجم من البلايا التي احدقت بكم لانّكم قد حصلتم في حال الشدّة والشدّة لا تردّكم عن الخطيئة. مع انّ الله قد ارسلها عليكم ابتغاء ان يجتذبكم الى السيرة المسيحيّة. فها قد ازددتم في الشرّ تعنّتًا - وربّما تزعمون انّهُ قد اصابكم

في الشدّة ما لم يصب قدّيسي الكنيسة المعظّمين . ولكن عوضاً من ان تتطهّروا في الاتون خرجتم منهُ وانتم شرٌّ مما كنتم سابقاً . فليس لكم ما تتبرّرون بهِ اذ لم تستفيدوا من الواسطة الجليلة الجزيلة الفاعليّة التي اختارها الله لخلاصكم - فايّاكم اسأل الآن هذا السؤال وهو : بايّ شيء تريدون ان يردّكم الله عن الشرّ . لماذا تُضرَبون ايضاً وتزدادون زيغاناً يقول الله على لسان اشعياء النبيّ (١ : ٥) . انّ ضربتي هذه يقول الله صيّرتكم اكثر معصية *

فبايّ وسيلة اردّكم الى طريق البرّ بعد ان جعلتم كلّ الوسائل التي اتّخذتها لذلك عنايتي باطلة - فانّي حين كنتُ ادعوكم وانتم في حال الرفه كنتم تقولون انّ زمن التوبة والعبادة لم يأتِ . وكنتم تستصعبون رذل العالم وملاذّهِ وترّهاتهِ وانتم في حال الثروة والسطوة والعافية وتحسبون انّ الانسان اذا جحد العالم كذلك انحدر الى القبر وانطمّ فيهِ وهو حيّ - فلقد تأسّفتُ يقول الربّ على جهلكم وحماقتكم . سعيتُ ان اسلمكم بتدبير عنايتي الابويّة . وهدمتُ كلّ ما بنيتموهُ من المقاصد الفارغة الباطلة . وقطعتُ رباطاتكم ونزعتُ عنكم بذهاب اموالكم مادّة رذائلكم . وحسمتُ عنكم اللذّات المحميّة بالامراض المستطيلة التي ارسلتها عليكم . فمن بعد ان دبّرتُ لخلاصكم كلّ هذه التدابير ولم تستفيدوا منها لم يبقَ لي وسيلة اخرى لاردّكم عن الشرّ - فيا انكم رغماً عن ذلك كلّهِ تحبّون العالم وهو قد اهملكم ويضطهدكم ويستحقّ منكم كلّ المقت - انّكم فيما مضى اي اذ كان العالم يعزّكم ويكرّمكم كان لكم ما تعتذرون بهِ وهو قولكم انّ العالم يستميلكم اليهِ والى محبّتهِ بما يظهر لكم من الاكرام ويمنحكم اياهُ من خيراتهِ . امّا الآن فقد زال ذلك باسرهِ . وصار العالم يؤذيكم رغماً عمّا اديّتموهُ على حبّهِ - فما بال هذا وتلك يرغبان في عشرة العالم وصداقتهِ بعد ان اضحيا اضحوكة لديهِ . ولِمَ لا يهتمّان بامر خلاصهما - فيا للعجب من امركم وهو انّ العالم يعاملكم مثل هذه المعاملة . وانتم مع ذلك تحبّونهُ وتلتمسون صداقتهُ وفخرهُ *

ألا يا مباركين فانتصحوا وانتهوا عن هذه الحماقة التي تجلب عليكم اعظم الوبال. لا تقاوموا مقاصد الآب السماويّ الذي يؤدّبكم ابتغاء ان يردّكم الى طريق الخلاص. بل قولوا لهُ في حين الشدّة مع النبيّ ارمياء: انّك ادّبتني فتأدّبتُ (٣١ : ١٨). انّك ضربتني بالشدّة فاستفادت منها نفسي واتّخذتُها وسيلةً للخلاص. لقد علمتُ مقصد عنايتك وتأكّدتُ انّك مهتمّ بخلاصي وباركتُ جودك الذي ازال عنّي برقع العمى وصيّرني مهانًا مرذولاً في نظر العالم لكي اعتصم بعبادتك انت وحدك. لقد التمستُك في حين التجربة وانت ادّبتني فتأدّبتُ - غير انّهُ لا يكفي ان ننتفع من الشدائد باتّخاذنا ايّاها واسطة للتوبة واصلاح السيرة. بل يجب علينا ايضًا ان نقبل البلايا كعقاب قد حدّهُ الله علينا لكي نفي بهِ عن خطايانا وهذا ما نبحث عنهُ في الجزء الثاني من خطابنا *

الجزء الثاني

انّ الخاطئ الذي يأبى الخضوع للبلايا المرسلة عليهِ من الله لكي يفي بها عن خطاياهُ السالفة يخطئ خطيئتين ضدّ العدل. احداهما من جهة الله والاخرى من جهة نفسهِ - امّا انّهُ يخطئ ضدّ العدل من جهة الله فلانّهُ لا يريد ان يفي ما هو ملتزم بهِ للعدل الالهيّ. وامّا انّهُ يخطئ ضدّ العدل من جهة نفسهِ فلانّهُ يحرمها التعزية التي لا يجد تعزيةً اعظم منها في حين الشدّة ولعلّهُ ايضًا لا يجد سواها - ولاثبات القضيّة الاولى اقول: انّهُ لمبدأ ثابت مقرّر لدى الجميع ولو انّ القليلين يفطنون لهُ وهو انّ من يرتكب الخطيئة ليس يلتزم فقط بالعود الى الله بالندامة. بل يجب عليهِ ايضًا ان يوفي عن الخطيئة التي ارتكبها للعدل الالهيّ امّا في هذه الحيوة وامّا في الآخرة - ذلك قد حتمهُ الله ولا بدّ من ادائهِ - والوفاء هنا ليس مقصورًا على القانون الذي يفرضهُ الكاهن في سرّ

الاعتراف او على ما يؤدّيهِ الخاطئ عن نفسهِ من القوانين الوفائيّة فقط. بل على ما قرّر المجمع التريدنتيّ المقدّس في الرأس التاسع من الجلسة الرابعة عشرة انّ الله بتنازلٍ ابويّ قد ارتضى انّ جميع البلايا الزمنيّة الواردة على الخطاة تفيدهم للوفاء عن خطاياهم الماضية اذا قبلوها بخضوع واحتملوها بصبر. فانّهُ تعالى يقبل ذلك منهم بجاه استحقاقات السيّد المسيح - فكيف لا يخطئ ضدّ العدل الالهيّ اذا لم يقبل الشدائد بخضوع. انّهُ يخطئ لا شكّ ضدّ العدل لانّهُ اراد ان يذوق ثمار خطيئتهِ وهو يابى الآن قبول العقاب الذي يعاقبهُ بهِ العدل الالهيّ. قد احبّ عذوبة الخطيئة وهو الآن يرذل مرارتها. لا يريد ان يعاقب نفسهُ بنفسهِ على الخطيئة ولا يرتضي ان يعاقبهُ الله عليها - فلعمري انّ هذا الرجل الاثيم يريد ان يفعل الاثم وان يذهب مع ذلك ناجيًا سالمًا من العقاب. افليست هذه الحال حال اهل هذا العالم - اننّا نشاهد في الاديرة اعمالاً وفائيّة كثيرة شتّى كالصمت والعزلة واجتناب التنزّهات والصوم والسهر الى غير ذلك من ضروب التقشّف. ولكن في العالم هل من يؤدّي شيئًا من هذه الاعمال الوفائيّة. كلاّ. بل انّ الاكثرين يبتغون التنعّم ولا يمسكون عن حواسّهم شيئًا ممّا تميل اليهِ شهواتهم - فايّاكم اسأل يا ايّها المسيحيّون المتوانون في وفاء ما يجب للعدل الالهيّ عن خطاياكم. افليس من الواجب ان تقبلوا بخضوع ما يوافيكم من البلايا من لدن الله. وذلك بدلاً عمّا ينقص لكم من اعمال التوبة القشفة الوفائيّة. اليس من الواجب حين تلمّ بكم احدى البلايا ان تقولوا: اننا لمستحقّون ذلك اذ اننّا لا نؤدّي شيئًا للوفاء عن خطايانا. هذا هو القانون الملايم لحالتنا لاننّا نستعفي من الصوم البيعيّ لضعف مزاجنا ومن الرياضات الروحيّة الخلاصيّة لعجزنا عنها - فان كنّا لا نقبل بخضوع وبمعزل عن تذمّر الشدائد التي يرسلها الله علينا. فايّ عذر لنا لنعتذر بهِ في عملنا هذا. افلا يحقّ لنا ان نقول عند ورود البليّة. انّ حظّنا لحظّ سعيد من حيث انّ الله الذي اسأنا اليهِ يكتفي

بهذه العقابات الزمنيّة. ويرتضي منّا في هذه الحيوة للوفاء عن خطايانا بالعذاب اليسير الهيّن عوضاً من العذابات القادحة المستطيلة لو أخّر معاقبتنا الى ما بعد مماتنا - فهذا ما كان يتأمّلهُ الملك والنبيّ داود وهذا ما كان يؤثّر في نفسهِ كلّ تأثير حتّى قال: انتَ كنتَ لهم يا الله غفوراً ومنتقماً في صنائعهم (مزمور ٩٨: ٨) - اي نعم انّك قد عاملتَ الخطاة بالرحمة حين عاقبتهم على مآثمهم - انّ مار اوغسطينس في تفسير هذه الآية يسأل قائلاً. كيف توجد الرحمة في انتقام الله من الخطاة. ويجيب هكذا: انّ الله يظهر رأفتهُ لا حين يغفر الخطايا فقط بل حين يعاقب ايضاً عليها. فانّ العقاب الشديد المُعَدّ للخاطئ بكلّ حقّ يبدّلهُ الله بعقاب يسير - فمثل الله تعالى في هذا مثل رجل حكيم لهُ دين على بعض الناس. فاذ يراهُ متوانياً في وفاء الدين يلزمهُ ولعلّهُ يغتصبهُ ببعض العنف على ادائهِ لئلّا يستمرّ المديون على الامتناع من الوفاء فيزداد دينهُ على مدى الايّام ويؤول بهِ ذلك الى خراب بيتهِ. فاي نعم يا الله انّك غفور في انتقامك من الخطاة *

غير انّ كثيرين يتمنّون لو اصابتهم نائبة غير التي نابتهم. وفي رأيهم هؤلاء انّهم كانوا يحتملون عفواً ايّ بليّة كانت غير التي اراد الله ان تلمّ بهم وكانوا يرتضون ان يمارسوا كلّ انواع التقشّف الشديدة - انني لستُ اطيل الكلام في اثبات ما قد تحقّق بالتجربة اي انّ الانسان يستعظم المصيبة المحيقة بهِ في حاضر الوقت ويحتسبها اكبر من سواها ممّا لا يشعر هو بهِ وهو ناجٍ سالم منهُ - وانّما اعتاض عن ذلك باثبات هذه القضيّة الاخرى وهي انّ رأي هؤلاء الذين اوردنا الساعة قولهم يضادّ عدل الله من وجهين احدهما اذ ينتحل الخاطئ لنفسهِ الحقّ الذي لله تعالى بتعيين نوع الوفاء الذي يقتضيهِ من الخاطئ. وها انهُ جلّ شأنهُ قد اعلن في الكتاب المقدّس انّهُ لايتخلّى عن حقّهِ هذا. ومن الجملة قد قال في سفر تثنية الاشتراع. لي هي النقمة وانا اجازي (٣٢: ٣٥) فكأنّهُ

سبحانهُ يقول: انّ هذا الحقّ هو حقّي المختصّ بعزّة ربوبيّتي بان انتقم من الخاطئ مثلما اشآء وكيفما ارى ذلك ملايمًا لتقويم مجدي ولي انا ربّ الارباب ان اختار الزمان الذي اريدهُ لذلك - فما بال الخاطئ كانمّا يريد ان يرسم لنفسهِ وفآءً آخر بدلاً من الوفآء الذي رسمهُ الله عزّ وجلّ. ينبغي للخاطئ ان يقول بروح الخضوع لله جلّ شأنهُ: انمّا الحقّ هو حقّك يا ربّ بان تأمر وتجزم. امّا انا المذنب فليس لي ان اختار لنفسي نوع العقاب الذي احبّهُ بل حسبي ان لا تعاقبني بالعقاب المؤبّد المخلّد الذي قد استحقّيتهُ انا بمآثمي. وانّي لمعترف انّك قد خوّلتني نعمة جزيلة اذ بدّلتَ لي العقاب السرمديّ بالعقاب الزمنيّ اي بالمحن الزمنيّة. والامر الوحيد الذي يعنيني انا هو ان اهتمّ بان اجعل ما اصابني من النوائب عقابًا لي عليها كفّارةً ووفآءً عنها ارضآءً لعزّتك - فهذا هو ما ينبغي لي ان أؤدّيهُ بقبولي هذه البلايا بالخضوع التامّ. وهذه الشدّة التي حلّت بي ليست شيئًا اخترتهُ انا ولا هي من جملة التقشّفات المشتهرة التي لا تخلو من محبّة الذات وروح المدح كما يحدث الامر كثيرًا. بل انّ شدّتي قائمة في اذلال النفس وخفض الشان. انّ شدّتي موسومة بسمة عنايتك وذلك ما يجعلها مقبولة شهيّة لديك - فلستُ اطلب منك الاّ ان تجعلني ان افي بها اي بالبلايا لعدلك الالهيّ الذي يرهب منهُ افضل القدّيسين واعظمهم - فبهذا الروح كان يقول مار اوغسطينس: اضربني يا ربّ واقطع واحرق ولا تلطف. ولكن فيما بعد عاملني بالرحمة ونجّني من العذاب الابديّ *

ثمّ انّ الخاطئ الذي يختار لنفسهِ الصليب والشدّة التي يريدها يخطئ من وجه آخر بحقّ العدل الالهيّ. اذ انّ ما يختارهُ من الشدائد لا يوازي غالبًا جسامة خطاياهُ وكثرتها - اعتبروا معي يا مباركين انّ ما يقتضيهِ العدل هو ان يكون الوفآء موازيًا للاهانة حسب قولهِ تعالى بان يكون العقاب على قدر الذنب - انّ اداء بعض الصلوات او توزيع بعض الصدقات لامرٌ سهل هيّن.

ولكن ينبغي ان تكون انواع الاماتة بحسب انواع الخطيئة - فعلى هذا النحو انّك انت يا هذا قد احببت الفخر والجاه العاليّ وانتفخ قلبك بروح الكبرياء واحتقرت الناس وحسدتهم وثلبت صيتهم. ولذلك فقد ابتلاك الله بان يصيبك الهوان ليكون العقاب بحسب الذنب. فالصيام او غيرهُ من التقشّفات ممّا تحرّيتهُ للوفاء عن ذنبك لم يوازِ العار الذي لحق بك - ولعلّ خطيئتك هي البخل وحبّ المال وقد استعملتَ الحلالَ والحرام طمعًا في ان تربو ثروتك وانفقتَ على ذلك كلّ همك. فها قد عاقبك الله بخسارة جسيمة في اموالك او بفقدها برمّتها. وعلى هذا النحو يردّك الله الى الفقر الذي كنتَ خرجتَ منهُ بالاثم. افليس من الصواب ان يُعذَّب الخاطئ بما اخطأ بهِ - ولعلّك تصرّفتَ بعافيتك تصرّفًا منكرًا بالتفنّق بالمأكل والمشرب او بالانغماسِ في ملاذّ اخرى اقبح من تلك فضربك الله بامراض وعاهات متّصلة. وهذا هو العقاب الذي كنتَ تستوجبهُ - ولعلّك اخيرًا اخطأت بانّك احببت اولادك حبًّا مفرطًا فعملتَ كلّ مجهودك في ان تخلّف لهم ميراثًا وافرًا وتهاونت عن حسن تربيتهم. ولذلك فقد اختطفهم الله من بين يديك اوسمح بان يتألّبوا عليك ويقاوموك - الاّ فاذعن ساجدًا لاحكام الله وقل مع النبيّ: عادل انت يا ربّ وحكمك مستقيم. انّي لاعترف انك عاملتني بانصاف وانّ كلّ عقاب غير الذي عاقبتني بهِ لم يكن مناسبًا وانّ حكمتك كانت تقتضي هذا العقاب *

هذا وانّ الخاطئ الذي في شدائدهِ يأبى الخضوع لله يخطئ بحقّ العدل من جهة نفسهِ ايضًا. فانّهُ يحرم نفسهُ التعزية الحقيقيّة الوحيدة الباقية لها في حال البليّة وهي علمهُ بانّهُ بخضوعهِ وصبرهِ يفي عن خطاياهُ - فاين يلتمس التعزية. العلّهُ يجدها عند اقربائهِ واصدقائهِ. بل انهم كثيرًا ما يعجزون عن التنفيس عن كربهِ. وكم من بليّة لا يستطيع خيرة الناس ان يجدوا لها دواء. وكم من النوائب تصوّرنا مذنبين امام من لا يحبّوننا الاّ من اجل خير انفسهم

وفائدتهم – وما اكثر الاكدار التي تاتينا من جرّآء جفاء قلوب اقربائنا او خيانة اصدقائنا . كم من البلايا تدركنا . والضرورة تلجئنا الى كتمها في قلوبنا من غير ان نظهرها للناس . إمّا لياقةً وإمّا صيانةً لشأننا وصيتنا – كم وكم من الذين قضوا اجلهم من جرّآء حزن مستطيل افنى حياتهم رويدًا رويدًا . ولم يدرِ بهِ احد – وهل يرجو الانسان في حال شدّتهِ العزآء من عقلهِ وذكائهِ . والحالة انهُ قد ثبت بالتجربة انّ الذين يعتدّون انفسهم ذوي عقل حاذق ثاقب يظهرون عند حلول النائبة اشدّ فظاظة وغلاظة ممّن سواهم . بل انّ توقّد ذكائهم يزيدهم ألمًا على ألمٍ اذ لا يقنعون بالتفكّر في ما هم عليهِ في حاضر الوقت من البلآء بل يتوغّلون في التفكّر في ما يمكن ان يعرض لهم في المستقبل وعقولهم تصوّر لهم بافظع نوع امورًا لعلّها لا تحدث – فاين يلتمس الخاطئ العزآء في شدّتهِ . العلّهُ يلتمس ذلك في التذمّر على الله جلّ شأنهُ – انّ من الناس من يتبلّغ في شدّتهِ بسمّ التنانين والافاعي . ولكن من كانت حالهُ هذه الحال فعذابهُ يشبه عذاب المرذولين المغضوب عليهم . فانّ حالة الهالكين قائمة في انّهم مع علمهم بان حكم الله المبرَم عليهم لا يتغيّر لا يزالون يقاومونهُ . وقد تحقّقوا ان مقاومتهم ايّاهُ لا تفيدهم شيئًا – وهل يحسب عزآء يقول مار برنردس ما يتمنّاهُ الانسان في شدّتهِ ولا يكون ابدًا – ويتّفق لهؤلآء احيانًا ان يقطعوا رجاءهم ويسلّموا انفسهم للرجز والحدّة اذ لا عنان يضبطهم ويستدعون الموت الى اغاثتهم كما فعل شاول المنكود الحظّ اذ عجز عن احتمال تعيير اعدائهِ المنتصرين عليهِ وفقدان تاج المملكة وتوبيخ ضميرهِ لهُ فالتفتَ الى احد عبيدهِ وقال لهُ : قف عليّ واقتلني (سموئيل ١ : ٩) – امّا الانسان المسيحيّ فبخلاف ذلك . فانّهُ يكتم احزانهُ في مخدع قلبهِ ولا يبثّها الّا امام صورة سيّدنا يسوع المسيح المصلوب ويضع تحت قدميهِ المقدّستين كلّ حزازات نفسهِ المكلومة وهو يضبطها عن كلّ تذمّر ولو في الباطن وبذلك يعلّمنا انّ من كان لهُ هذا روح الانجيل فهو متّصف بالفطنة والشجاعة كما

قال الحكيم: الصبور يتدبّر بكثرة الفطنة (امثال ١٤: ٢٩) - فلنختمنّ هذه الموعظة بكلام يهوديث المورد في مطلعها (يهوديث ٨: ٢٧) وذلك انهُ يجب عليكم يا مباركين ان تحسبوا انّ الضربات التي تأتينا من قِبَل الربّ هي لتأديبنا نحن عبيدهُ وليست لاهلاكنا بل لخلاصنا - وتيقّنوا جيّدًا هذا المبدأ الانجيليّ واطبعوا في عقولكم هذه الحقيقة الدينيّة وهي انّ الله لا يرسل البلايا الاّ لتأديبنا وفائدتنا لكي نجني منها هذه الثمرة وهي ان لا ندع قلوبنا تتعلّق بالدنيا وحطامها وان نقبل هذه الشدائد بخضوع لكي نوفي بها عن خطايانا. فينبغي ان لا نتذمّر ولا نتشكّى من حلولها بنا بل يجب ان نبارك يد الاب الذي يؤدّبنا معتقدين ان جودهُ الابويّ الالهيّ يدبّرنا. وانّنا اذا صبرنا على المحن كما سبق القول نربح المجد الابديّ *

الموعظة التاسعة والسبعون

في الموت الصالح

انا ماكث معكم زمنًا يسيرًا ثم انطلق الى من ارسلني (يوحنا ٧: ٣٣) هذه هي الكلمات التي بها سبق السيّد المسيح واخبر تلاميذهُ عن موتهِ فيما بعد. ومع انهُ تعالى يتكلّم عن موتهِ الاليم بركون وشجاعة فهو مع ذلك كما قال بطرس بلوسيوس يفزع منهُ خائفًا - فكذلك شأننا نحن باجمعنا. فانّنا باسرنا نخاف من الموت. والذين ينظرون الى الموت بعين باردة ويستخفّونهُ فانّهم يفعلون ذلك عن عمى وسخف او عن كبرياء وجراءة - وهتان الخلّتان خليقتان بان يضحك منهما او يُرثى لهما. على انّ المعلّم بلوسيوس المذكور يقول انّ ابن الله نفسهُ اذ اراد ان يشير الى موت بطرس رئيس رسلهِ المغبوط عبّر عن موتهِ بقولهِ: وآخر يشدّ لك حقويك ويمضي بك الى حيث لا تشاء (يوحنا ٢١: ١٨) - وبولس الرسول

الجنديّ الانجيليّ والبطل الباسل قال عن نفسهِ انّهُ مع شوقهِ الى المجد السماويّ فوق كلّ وصف كان يستصعب الانفصال من هذا الجسد الفاني. وهذا نصّهُ بحروفهِ: اننا لسنا نحبّ ان نخلع هذا الجسد (٢ قورنثية ٥: ٤) — فالخوف من الموت ليس امرًا ينافي الكمال المسيحيّ. اذ انّ هامة الرسل وبولس معلّم الامم قد اضطربا وارتعدا منهُ. بل انّ ابن الله عينهُ قد خاف وفزع من الموت. غير انّهُ حسب قول مار اوغسطينس انّما تردّى ضعفنا ليشركنا في قوّتهِ. فمع انّهُ من وجه ما لا يمكن ان ننجو نحن الخطاة تمامًا من اوجاع الموت واهوالهِ فيوجد من المؤمنين من يخفي هذه الاوجاع ويسترها. وهذا هو التعليم العجيب الذي اريد ان أشرحهُ لكم في هذا الخطاب بعد التحيّة الملاكيّة *

انّ امورًا ثلاثة تجعل الموت مخوفًا مرهوبًا. اوّلها ما ينبغي للانسان ان يتركهُ بالموت. ثانيها ما يضطرّ الانسان ان يكابدهُ عند حلول الموت. والامر الثالث هو ما لا بدّ لنا ان نخشى منهُ عقب الموت. اي انّ الازمنة الثلاثة اي الماضي والحاضر والمستقبل تتّفق على تعذيب الانسان المشرف على الموت — امّا الزمن الماضي فيجعلهُ ان يكون مضطربًا مكتئبًا على مفارقة متاع الدنيا التي كان متمتّعًا بها والآن فهو ملزوم بان يتركها. واما الزمن الحاضر فيجعلهُ قلقًا معذّبًا بشدّة الاوجاع المحيطة بهِ. وامّا الزمن المستقبل فيملأهُ خوفًا ورهبة ورعبة من الهلاك المؤبّد — فلا ترجوا يا مباركين النجاة من هذه الاحزان والمخاوف والاوجاع التي تجتمع عليكم في ساعة الموت فقد سبقتُ ونبّهتكم انّ الموت هو عقاب وكلّ عقاب من باب الضرورة يورث ألمًا — ولكن مع انّ هذا الالم لا نجاة ولا مفرّ منهُ فلنا ان نخفّفهُ. وهذا ما ينبغي لكم ان تتعلّموهُ الآن. فتعلّموا اذًا اوّلاً بايّ استعداد تجعلون الحزن الذي يحصل فيكم من جرّآء حلول الموت ان يكون يسيرًا خفيفًا. وهذا ما نبحث عنهُ في الجزء الاوّل من خطابنا — ثمّ تعلّموا بايّ استعداد لكم ان تخفّفوا اوجاع الموت وهذا هو الجزء الثاني — واخيرًا تعلّموا بايّ استعداد

يمكنكم ان تخفّفوا الخوف من الموت. وهذا هو الجزء الثالث *

قال مار توما اللاهوتيّ انّ الحزن هو تألّم يصدر عن سلب خير نحبّهُ اذ يُخطَف من ايدينا قهرًا وجبرًا - ولشرح هذا التعريف اقول: لو انّ عبدًا خائنًا مدّ يدهُ الى مبلغ من اموالكم وذهب بهِ فانّ عظم حزنكم من جرّاء ذلك يقاس بقياس عظم المبلغ المسروق اوّلاً ثمّ بقياس تعلّق قلوبكم باموالكم - فان فهمتم ذلك فلقد ادركتم انهُ ان شئتم ان تخفّفوا عنكم الحزن الحاصل فيكم في ساعة الموت من قبل فقدان خيرات هذه الدنيا فينبغي ان تكونوا فيما مضى قد نزعتم من قلوبكم التعلّق بتلك الخيرات العابرة الزائلة - والاّ فيشتدّ حزنكم اذ يخطف الموت من بين ايديكم خيرات قد احببتموها محبّةً مفرطة - وبالعكس فان كنتم قد ازدريتم تلك الخيرات واحتقرتموها فما اكثر ما يسهل عليكم في وقت الموت تركها والتخلّي عنها - فهذه الحقيقة التي يجهلها كثيرون ينبغي لكم أيّها المباركون ان تنصتوا جيّدًا لبيانها وتتاملّوها بتأنٍّ وتروٍّ - وذلك ان قلع الشجرة الجسيمة القديمة التي قد تمكّنت أصولها وعروقها في قلب الارض لامرٌ صعبٌ جدًّا جدًّا حتّى ان اشدّ الرياح واقوى العواصف لا تستطيع استئصالها ولا يمكن قلعها الاّ بعناءٍ وجهد وكدّ شديد كثير - فالمقصود هو ان ابيّن لكم مع مار غريغوريوس الكبير بهذا المثل انهُ لا يمكن ان نزيل من قلوبنا بسهولة وبغير صعوبة ما قد احببناهُ بمحبّة مفرطة - مثال ذلك تصوّروا رجلاً كثير الغنى ملقًى على فراش الموت وقد ادنف. فبعد ان لطّف لهُ القول اقرباؤهُ اذ أرجوهُ الشفاء والعافية احدقوا بهِ واخبروهُ بالخبر المحزن المُؤلم بقولهم لهُ: آها لقد حان اوان موتك. وينبغي لك ان ترحل من هذه الدنيا - يا للاضطراب ويا للقلق المزعج الذي يستولي وقتئذٍ على قلبهِ الضعيف. فيلتفت اليهم ويقول: ما هذا الخبر. اهكذا تقطعون عنّي كلّ رجاء - فيجاوبونهُ: اي نعم لقد حان اجلك. وحضر آخر يوم من حياتك. ولم يبقَ لك على وجه الارض

الاّ هنيهات او ساعات قلائل - ولكن هذا المنكود الحظّ يريد ان يدبّر اموره وان يموت موت رجل حكيم فطن. فيبتدئ ان يوصي وصيّته الاخيرة قائلاً: انّي اهب نفسي لله. ولكن من اين يُعلم انّ الله يقبل هذه الهبة. ثمّ يقول: واهب جسدي للكنيسة. ولكن لو عرف خدَمة الكنيسة حال نفسهِ التعيسة لألجأهم الامر ان يلفوا جسدهُ خارجًا عن المقبرة المقدّسة - وماذا يكون من اموالهِ. انّهُ يوصي بها قائلاً: وانّي اهب كذا وكذا لفلان وفلان. وفي اثناءِ قولهِ هذا يتأسّف ويتحسّر كثيرًا: فانّ من كان متمتعًا متنعّماً بكنوزهِ التي جمعها بالاثم يلتاع قلبهُ حزناً وكمدًا اذ يرى نفسهُ مضطرًّا الى هجرها ويعلم انّها منتقلة من يدهِ الى ايدٍ غريبة - فالموت كما قال مار برنردس ليس يخلع الانسان من الدنيا فقط. بل يسلخهُ ايضًا. والفرق بين الامر الواحد والآخر يسوغ لك ان تفهمهُ من الفرق بين خلع الثياب وسلخ الجلدة - انك يا ايّها الاخ العزيز توصي قائلاً: انّي اهب كذا وكذا لفلان وفلان. ولكن على مَ هذا التأسّف ولِمَ هذه الحسرات. وما هذا الغمّ الشديد. تجيب قائلاً: وكيف لا احزن ولا ابكي آسفًا على مفارقة ما قد اكتسبتهُ بجدّ وعناءٍ مستطيل - فمهلاً: اوظننتَ انّ حياتك تدوم الى الابد. وهل انّ الله خلقك لتعيش في هذا العالم فقط. انك قد كنتَ تعلم انّك مخلوق للحيوة الاخرى. فكان ينبغي لك ان تستعدّ كلّ ايّام حياتك للآخرة - يقول ذلك المدنف: انّي اهب هذه الدار وهذا المتاع لفلان. فاين ذلك من كلامهِ قبل ذلك اذ قد صرف على جمع هذه الاموال المحرّمة سنين متعدّدة وكانت نفسهُ حينئذٍ تشبه العلقة. التي لا تشبع من مصّ الدم ولا تزال تصرخ قائلةً. هات هات (امثال ٣٠: ١٥). فالآن هذا المنكود الحظّ انّما هو مضطرّ جبرًا وكرهًا بان يوصي قائلاً: انّي اهب الشيء الفلانيّ لفلان. فما هذه الهبة. هي هبة ما هو مضطرّ الى تركهِ واعطاءِ ما قد ازمع الموت ان يسلبهُ منهُ وقلبهُ حريص عليهِ *

وليس كذلك الرجل الصالح. فانّ حالتهُ في الساعة الاخيرة تختلف جدًّا عن حالة الرجل الخاطئ - فانّهُ لا شيء يحزن قلب البارّ في ساعة الموت. نعم انّهُ كان ذا غنى ويسار. ولكنّهُ كان مع ذلك فقيرًا مسكينًا في قلبهِ - نعم انّ الدنيا كانت تتلألأ لهُ ببهآءها وزخرفها ونعيمها. ولكنهُ لم ينخدع لها لعلمهِ يقينًا باخطار خيرات الدنيا وبلآئها وبطلانها وخبثها وفسادها ومكرها. ولذلك فاذا طفق لألآء الدنيا الكاذب ان يزول امام عينيهِ واوشكت الخيرات الارضيّة التي كان يتمتّع بها كانّهُ لا يتمتّع بها كقول الرسول ان تذهب من بين يديهِ وابتدأ هذا الجسم البالي الذي حاربتهُ نفسهُ وقهرت شهواتهِ على الدوام ان ينحلّ بعد ان انحلهُ المرض الاخير واضحى كالثمرة الناضجة على الشجرة التي يهون قطفها وجنيها فيا ما اكثر ما يتعزّى ذلك الانسان البارّ بالافكار التي يردّدها حينئذٍ في بالهِ. وتتقوّى عزائمهُ اذ يحدّث نفسهُ قائلاً: انّي مائت ومبارح هذا العالم ومتخلٍّ عن خيراتهِ الكاذبة التي كانت نفسي تحتقرها وهي حقيقة بان تزدريها كلّ نفس مسيحيّة. انّي لم اركن اليها ما اقمتُ حاصلاً عليها ولا التذّت بها نفسي. فهل اطلب التمتّع بها ولعلّي لا يسوغ لي الحصول على ذلك - نعم انني مائت اي انّني منذ الآن فصاعدًا لا اعود اتعب في هذا المنفى الارضيّ. ولا يصيبني كدر من الاكدار المشحونة بها هذه الحيوة. انني مائت اي انّي سأنجو ممّا كان يغمّني ايّام حياتي كلّها. وهو وجودي في خطر ان اغيظ عزّتك يا ربّ - فلعمري انّ النفس المتعبّدة لله عبادة حقيقيّة راسخة لا تشتهي المكث في حال معها يمكن انها تسقط سقطات كثيرة فظيعة لا تستطيع النهوض منها الاّ بالاجتهاد البليغ واغتصاب الذات - فهذه الاعتبارات الخلاصيّة تجعل الرجل المؤمن البارّ ان يسأم العالم ويكرههُ. وان لا ينخدع لحطام الدنيا وملاذها - فيا لسعد من كانت هذه الحال المقدّسة حالتهُ ويا هنيئًا لهُ - ان نفسي تطرب سرورًا لما ذكرهُ الكتاب المقدّس عن يعقوب ابي الآباء اذ خارت قواهُ ودنا اجلهُ. فانّهُ استحضر بنيهِ

حول سريرهِ وبعد ان افرد لكلّ منهم ما اراد من الخيرات والبركات بذل لهم نصائح جليلة مقدّسة ليعملوا بها في مدّة حياتهم باسرها. وكان في اثناء ذلك هادئ النفس ساكن الجنان دليلاً على ما كان حاصلاً عليهِ من الأمان والطمانينة الباطنة - ومما يروق لي ويوليني عزاءً جزيلاً كلام طوبيا البارّ في ساعة مماتهِ اذ استدعى ابنهُ الوحيد وقرّر عليهِ نصائح سامية ذات حكمة وفطنة. وفي اثناء ذلك لم تخرج من فيهِ لفظة تشير الى انّهُ شملهُ اخفّ حزن او كآبة من جرّاء مفارقتهِ الحيوة السعيدة التي كان متمتعًا بها او من جرّاء مبارحتهِ امرأتهُ الفاضلة او ابنهُ الوحيد العزيز عليهِ - وهذا ما نشاهدهُ في ايّامنا ايضًا اي اننا نشاهد بعض الناس يموتون موتًا يدعونا الى ان نغبطهم ونتمنّى لو اننا نفوز بمثل موتهم. اي اننا نشاهد من يموت من المسيحيّين وهو خاضع لحكم الموت مسلّم لهُ وراضٍ من صميم قلبهِ ان يتخلّى عن كلّ ما كان يمتلكهُ على وجه الارض. ولو انّ الطبع البشريّ يأبى الخضوع تمامًا لذلك القضآء *

فان اعترض معترض وقال: انّ بين الصدّيقين ايضًا من يضطرب لدنوّ الموت ويتحسّر ويبكي وينتحب ويتأسّف على فراق الاحبّآء والاولاد والاعيال. فاجيب انّ الصدّيقين ايضًا في الساعة الاخيرة من حياتهم يحزنون ويسكبون الدموع. ولكن ذلك لا ينافي هدوّ النفس وركونها. بل انّما هو ميل طبيعيّ صادر من قلب خاضع بالنعمة لارادة المولى - فمع سكب الدموع والحسرات والزفرات وضيق النفس والكرب يخضع القلب لجزمهِ عزّ وجلّ. ولا يبتغي تغيير حكمهِ وقضائهِ - بلّ انّ هذا المؤمن الصدّيق عند انحدار الدموع من عينيهِ يلتفت الى اقربائهِ واصدقائهِ ويعزّيهم ويحثّهم على اتّباع مثلهِ بالخضوع والتسليم للامر الربّانيّ - انّي متأكّد يا مباركين انّ جميع من يضمّهم هذا المحفل يتمنّون ان تكون آخرتهم على هذه الحالة الموصوفة الساعة. ولكن ينبغي ان نحسن الاستعداد في مدّة حياتنا لنؤهّل للحصول على مثل هذه الحال. ويجب علينا ان يكون لنا

سطوة على قلوبنا لكي نخمد فيها نيران الشهوات التي تضطرم فيها ونحارب الاهوآء التي تهيّج فينا هيجانًا منكرًا وتميل بنا الى حبّ هذا العالم الكاذب. هذا ما نبهّنا عليهِ النبيّ والمرتّل بقولهِ: ان زاد غناكم فلا تضعوا فيهِ قلوبكم (مزمور ٦١ : ١١) - فكانّهُ يقول: ان ارتفعتم الى المناصب العالية وتمتّعتم بملاذّ الدنيا وامتلكتم كلّ مجد العالم وغناهُ فلا تدعوا قلوبكم تتعلّق بهِ. ولا توثقوا انفسكم باوثاق يعسر عليكم فيما بعد حلّها - اعتبروا جيّدًا يا مباركين في كلام المرتّل الالهيّ. فانّهُ لا يأمركم بان ترفضوا كلّ ما تملكونهُ او ان تنبذوا عنكم كلّ اهتمام بما لكم من الاراضي والديار والاعيال. ولا يوجب عليكم ان كنتم ذوي مناصب شريفة او وظائف مفيدة ان تتنزّلوا عنها وتدعوا غيركم يصير اليها. ولا يقول ان تخرجوا من العالم وتستوطنوا الاقفار وتختفوا في بطون المغائر. كلاّ - بل انّ الملك والنبيّ يرتضي بان تبقوا لانفسكم ما لكم من خيرات الدنيا وبهائها. بل يأذن لكم ان تعتنوا باستنمائها بالوسائل المحلّلة اللائقة. وانّما يفرض عليكم بامر الله الاّ تحبّوا العالم ولا تدعوا قلوبكم تتعلّق بفخرهِ واموالهِ. وانّكم بتجريد قلوبكم من حبّ العالم الزائل الكاذب وخيراتهِ تكفون نفوسكم في هذه الحيوة هموماً ومشقّات كثيرة وتحصلون كذلك على السعادة مدّة هذه الحيوة الحاضرة - وما عدا انّي اريد ان اكفيكم في ساعة الموت كلّ حزن اريد كذلك ان اكفيكم وقتئذٍ على قدر الامكان كلّ الاوجاع. وهذا هو الجزء الثاني من خطابي *

الجزء الثاني

ما اكرب النظر الى انسان قد اشرف على الموت ولم يبقَ لهُ من الحيوة الاّ الشعور باوجاع الموت على جليّتها - فمن جهة كانّ حمّى شديدة تحرق جسمهُ

وتذيبهُ . وضيق النفس يكاد يخنقهُ . وبالاجمال فكلّ من اعضائهِ يحسّ بابرح العذاب - ومن الجهة الاخرى فانّهُ ملتزم ان يأخذ ادوية كريهة مرّة او ان يتأذى بقطع بعض اعضاء جسمهِ او شقهِ او تشريحهِ بالآلات الحديديّة او بكيّ النار - والقائمون بمداراتهِ يزيدونهُ اذى وضجرًا وباظهار محبّة لا تخلو من الجفاء يكثرون عليهِ الاوجاع من غير ان يزيلوا عنهُ المرض . وباطلاً تحاول الطبيعة بكلّ عزمها ان تدفع ما يؤذيها بل كلّما افرغت المجهود في ذلك اشتدّت الاوجاع - فليكن يا ربّ عدلك مباركًا اذ رسمتَ وجزمت على الانسان الخاطئ ان يكون خروجهُ من هذا العالم على هذا النحو اي كما دخل فيهِ بالوجع وعاش فيهِ بالاوجاع ينبغي كذلك ان يحدث موتهُ اي ارتحالهُ عنهُ بالآلام - فحُسن حظّ الانسان البارّ في حين الموت ليس ان ينجو من هذه الاوجاع بل ان لا يشعر بها الّا يسيرًا وان يجد في نفسهِ من حسن الاستعداد ما تخفّ بهِ عليهِ اوجاع الموت - انّ حال الصدّيق وحال الخاطئ في الساعة الاخيرة . وان ظهرا واحدًا من جهة الجسد فيختلفان جدًّا من جهة النفس - وعلى هذا النحو يختلف فعل الاوجاع الملمّة بهما حينئذٍ وتاثيرها فيهما - وذلك لانّ قوّة الحسّ والشعور بالالم مركوزة في النفس وتصدر منها . فكلّما زادت النفس ثباتًا وشجاعةً خفّ فيها الحسّ وقلّ الشعور . بل انّ شجاعة النفس مع كونها روحيّة تمتدّ الى الحواسّ فتهبها عونًا وقوّةً تنالها من الله عينهِ - ولنا في ذلك مثال جليل في الشهداء القدّيسين . فانهم اذ كان الملوك الطغاة يأمرون بتعذيبهم ويصلبون بعضهم ويمزّقون لحوم بعض ويرضّضون اعضاء آخرين ويغطّسون منهم جماعةً في خلقينات ملآنة زيتًا مغليًا ويذيقون قومًا منهم اصناف العذابات المختلفة . فالشهداء القدّيسون في اثناء ذلك كلّهِ كانوا يهزأون بمعذّبيهم والسكينة تلوح على وجوههم وتفيض من خواطرهم . بل انهم لشدّة سرورهم كانوا يترنّمون بتراتيل روحيّة حمدًا لربّهم وتمجيدًا لاسمهِ وتكبيرًا لعظائمهِ تعالى الذي على حبّهِ رضوا

بالموت من غير أن يتلفّظوا بكلمة تشير الى انهم متألّمون من العذابات التي كانوا يكابدونها - وسبب ذلك ليس الاّ أنّ النفس كانت تزداد قوّة كلّما كان الجسد يزداد ضعفًا. وقوّة الروح كانت تقوّي الجسد. وقطرة واحدة من النعمة الالهيّة التي كانت انفسهم مرتوية بها كانت كأنّما تسكرهم وتختطفهم عن الحواسّ. فكانوا يتعذّبون وهم لا يشعرون بالالم - ذلك فعل الصبر المسيحيّ. ذلك تأثير النعمة الالهيّة التي منها ينشأ الصبر. وبهذه النعمة يقتحم البارّ مرائر الحيوة راضيًا مسرورًا - فالبارّ في ساعة موتهِ يعتبر نفسهُ ذبيحة لله يقرّبها اكرامًا لمجدهِ تعالى والسرير المضطجع عليهِ المذبح الذي تقرّب عليهِ هذه الذبيحة. فيتواضع ويحني رأسهُ تحت يد من يضربهُ - وتارةً يحسب نفسهُ خاطئًا مجرمًا يريد الله معاقبتهُ وترغب رحمتهُ عزّ وجلّ في ان تطهّرهُ وتنقّيهُ بالضربات. ولستُ اعني بالانسان البارّ احد القدّيسين المعظّمين المنزّهين من كلّ شائبة غير المثقّلين بوقر للعدل الالهيّ - وطورًا يجعل المريض التائب نفسهُ قاضيًا ديّانًا لنفسهِ. فيبارك الحاكم الالهيّ الذي يعاقبهُ ويعتقد انّهُ تعالى انّما يضربهُ ليغفر لهُ ويوسعهُ تأديبًا الآن لكي يكفيهُ العقاب المخلّد. ولذلك فيناجي الله قائلاً. لقد اخطأتُ يا ربّ ولكنّك مع بغضك الخطيئة لا تزال تحبّ الخاطئ - ومرّة اخرى يعتبر الله من حيث هو خالقهُ الذي جبلهُ فيحقّ لهُ ان يتصرّف بعمل يديهِ كما يشاء. ولذلك فيقول باطنًا: لقد احبّ الاهي كذلك. وهكذا رسم خالقي. فلتكن يا ربّ مشيئتك لا مشيئتي - وحينًا آخر يلتفت الى سيّدنا يسوع المسيح ويتفرّس بعقلهِ فيهِ وهو مصلوب فيخجل ثمّ يتشدّد عزمًا ويخاطبهُ قائلاً: لقد تألّمتَ قبلي يا مخلّصي وقد تألّمتَ اكثر منّي بما لا حدّ لهُ. فاتمنّى ان اموت مثلك مصلوبًا. ويا لسعدي ان ملكتُ معك في مجدك - فهذه الاعتبارات المقدّسة تدرّع الانسان المشرف على الموت قوّةً عجيبة فيعود ليس كانّهُ قد عُدِم الحسّ او قد فقد الشعور بالاوجاع. كلاّ. بل انّهُ مع تألّمهِ وحسّهِ حقًّا بها وهي ملمّة بهِ يضحي كما

تأكّد من التجربة والاختبار لا يشعر بها الاّ يسيرًا لا من حيث حصول نفسهِ على حسن الاستعداد للموت فقط بل من حيث الحالة التي توجد فيها حواسّ جسدهِ ايضًا - على انّ الانسان الذي قد راض نفسهُ مدّة سنين متعدّدة على ضبط حواسّ جسدهِ وقهرها وقمعها بالكدّ والصوم وسائر الاعمال القشفيّة. واعتاد منذ زمان حداثتهِ على كبح الاهوآء الجسديّة يشبه جنديًّا باسلاً لا يتداخلهُ الهلع والاضطراب اذ ينزل الى حومة الحرب وقد قدحت شرارتها - ومن ثمّ فشتّان ما بين هذا المريض البارّ الذي نتكلّم عنهُ وبين اهل العالم واصحابهِ المنغمسين في الشهوات المتهمكين في الملاهي الذين انفقوا اكثر حياتهم على رغد العيش والتنعّم فانهم اذ لم يغتصبوا نفوسهم في شيء ولا ضبطوا اهوآءهم عمّا كانت تصبو اليهِ من الملاذّ وصدّتهم محبة الذات عن الاعمال القشفيّة التي يوردها الانجيل. ولم يتعوّدوا الخضوع لاحكام العناية الربّانية وتدابيرها. فاوّل ما يفاجئهم المرض المميت يحسّون بما يذيقهم ايّاهُ من الاذى والمرارة ويرون ان لا بدّ من ارتشاف هذه الكأس الصعبة وتشتدّ وطأتهُ عليهم في كلّ يوم بل في كل دقيقة. وحينئذٍ تثور الطبيعة بملء احتدادها اذ تشعر بألم الموت كما قال الحكيم - فترى اولئك القوم يموجون ويضطربون ويقلقون وتتشوّش عقولهم وتنزعج مخيّلتهم وتفشل قلوبهم. فلا يستطيعون راحة او هدوًا. ولا يعلمون الى ايّ جهة يتوجّهون او من اين يلتمسون العلاج لدائهم. اذ انّ مرضهم اقوى من جميع الادوية البشريّة. وبعد ان اختبروها اي اخذوها باسرها لم يستفيدوا شيئًا منها - ثمّ انك ان حدّثتهم عن الامور الالهيّة فلا يدركون كنهها اذ انّ انفسهم قد شغلتها واستغرقتها الاوجاع. وان حثثتهم على الخضوع للاحكام العلويّة واخذتَ تحرّكهم على الندامة فهم ينفرون من مجرّد ذكر الندامة - افلعلّك تنتظر ان تهبط عليهم النعمة الالهيّة وتقوّيهم. ولكن كيف تستعذب القلوب الكثيفة هذه الامور السماويّة - هذا وانّ الله سبحانهُ من عادتهِ ان لا يمنح هذه مواهبهُ السنيّة الجليلة الاّ للّذين قد تأهّبوا

لقبوها . ومن ثمَّ فيتباعد الله عنهم كما تباعدوا هم عنهُ - فما عسى ان تكون حالهم . انها حال من اهملهُ الله وغادرهُ يكابد الاذى والألم - وإن استزدتم فاقول في هؤلاءِ انهم يزدادون اثماً على اثمٍ بتذمرهم على الخدَمة القائمين بمداراتهم وعلى الاصدقاءِ الذين يسلونهم بل على الله عينهِ . واذ انهُ ما من احد يرضى احتمال هذه المعاملة فالمريض الذي هذا شأنهُ يمسي مهملاً متروكاً من الله ومن الناس جميعاً - فاذ كان ذلك كذلك افليس الاجدر بنا يا مباركين ان نستعدَّ للموت بسيرة صالحة مسيحيَّة اذ اننا بهذا الاستعداد يسوغ لنا ان نلطّف اوجاع الموت ونخفّف احزانهُ وأذاهُ - وهذا كافٍ لبيان الجزئين الاوّلين من خطابنا . والآن فسبيلكم ان تتعلموا ما يجعلكم ان تخفّفوا على انفسكم الخوف من الموت وهذا هو مضمون الجزء الثالث من الخطاب *

الجزء الثالث

فاعلموا يا اخوتي انَّ الانسان اذا اشرف على الموت يخاف من امرين . اوّلها خطاياهُ السالفة . والثاني دينونة الله لهُ حالاً من بعد الموت - فانَّ الانسان الخاطئ من ساعة اشرافهِ على الموت يحصل في هذه الحالة البائسة وهي انهُ على ما قال مار اوغسطينس تفارقهُ الخيرات الارضيَّة التي قد احبَّها وتصحبهُ الخطايا التي قد فعلها - ثمَّ يستتلي القديس نفسهُ مخاطباً هؤلاءِ الجهلاءِ هكذا : انكم لقد اخطأتم بتكثيركم اموالكم التي جمعتموها بالوسائل المحرَّمة . فينبغي لكم الآن ان تتركوا هذه الاموال وبدلاً منها يصحبكم البخل اي الحرص على المال وترافقكم الخطايا التي بها جمعتم هذه الاموال . وهذه الاموال التي احببتموها بكل شره بعد هنيهات يسيرة تُنزَع منكم نزعاً - وكذلك لا تعودون بعد برهة وجيزة تتمتعون بمشاهدة الاشخاص الذين قد كلفت قلوبكم بحبّهم المحرَّم وبدلاً من ذلك

فما فرط منكم من المآثم والمنكرات بسبب ذلك هو الذي يمكث معكم ويستمرّ فيكم دائمًا ويوبّخكم ويوليكم مرارةً وانزعاجًا ويمزّق نفوسكم تمزيقًا - فهذا هو الامر الذي يوعب قلبي خوفًا ورعبًا اي ما يعرض للانسان الخاطئ المشرف على الموت - لا شكّ انّهُ يستطيع حتّى النفس الاخير من حياتهِ ان يلتمس طريقة الخلاص بالتوبة ولا ريب انّهُ قادر ان يتطهّر من ادران خطاياهُ باسرها بمياه الندامة الحقيقيّة - غير انّ ما يزيدهُ خوفًا وارتعادًا هو انّ الموت يدركهُ غالبًا على غفلة . فان اراد ان يعدّ نفسهُ لاخذ الاسرار الالهيّة وطفق يبحث عن حال باطنهِ وخفايا ضميرهِ فانّهُ يجد هناك لجّة مظلمة حالكة لا تدعهُ ان يبصر شيئًا . وان اخذ في التوجّه الى الله ورام الالتجآء الى مراحمهِ فلا يجد في هذا الشوق ما يؤثّر في قلبهِ ومن جهة اخرى فهو عالم انّهُ غير مستحقّ للغفران والصفح - وبينما هو كذلك تشتدّ بهِ هذه الافكار المقلقة وتضايقهُ حتّى يدنو الموت منهُ ويحضرهُ فلا بدّ لهُ سوآء كان مستعدًّا ام غير مستعدّ من المثول بين يدي الله يسمع قضاءهُ الاخير - وما حقيقة هذا القضآء بل كيف يجري . انّ قضآء الله يجري بغاية الضبط فانّ الله لن يدع ذنبًا بغير عقاب يناسبهُ . ويجري هذا القضآء بغاية الشدّة ايضًا ولا يُرجَى تغييرهُ بتّة ونتيجتهُ امّا هي السعادة الابديّة او التعاسة الابديّة كذلك - يومئذٍ يلتزم الانسان ان يؤدّي حسابًا عن كلّ النعم التي نالها عبثًا باطلاً . وعن الاسرار الالهيّة التي اخذها بغير استحقاق بل بالنفاق . وينبغي لهُ اذ ذاك ان يسمع القضآء الاخير ويرضى بهِ - انّ الانسان ليودّ لو امكنهُ ان يرجع الى ايّام حياتهِ العابرة او ان يولد ثانيةً ليسلك على الارض سلوكًا جديدًا . او ان يعود الى منهاج البرّ الذي كان يسير فيهِ ثمّ حاد عنهُ . او ان ينزل ثانيةً الى ميدان الجهاد ليكتسب بالسعي والاجتهاد الاكليل الذي كان معدًّا لهُ - وانّما ذلك كلّهُ عبارة عن تشوّقات باطلة لا فائدة منها بل شأنها ان تزعجهُ وتقلقهُ وتزجّهُ في القنوط واليأس - وتبتدئ حينئذ دودة الضمير ان تنخسهُ وتوبّخهُ

امرّ التوبيخ: فيشجب هو نفسهُ قبل ان يشجبهُ العدل الالهيّ - هذه يا مباركين هي حالة الانسان الشرّير في ساعة الموت اجاركم الله وايّانا منها *

واماّ الانسان البارّ فانّهُ في تلك الساعة الاخيرة يحصل على الهدوّ والسكون من كلّ جهة ويجد في ذكر افعالهِ السابقة التعزية الراهنة الحقيقيّة - واسمعوا ما قالهُ في هذا الصدد بولس الرسول في رسالتهِ الى تلميذهِ طيمثاوس. قال: اعلم ايّها العزيز طيمثاوس انهُ قد خارت قواي وحضرت ساعة زوالي. ولكنّي ارى انّني ساموت بغير خوف بل ساموت بسرور وابتهاج - على انّهُ وان يكن لا يمكن للانسان ان يؤدّي لله كلّ ما هو مفروض عليهِ اداؤهُ لهُ دون ان يخرم منهُ شيئًا. ولكنيّ قد جاهدتُ جهادًا حسنًا وقضيتُ سعيي وحفظتُ الايمان وحُفظ لي منذ الآن اكليل البرّ الذي يهبهُ لي في ذلك اليوم الربّ الديّان العادل (٢ طيمثاوس ٤: ٦ الخ) - ومن ثمّ فلستُ اسأل الله ان يطيل حياتي بل اسألهُ ان يمنّ عليّ بان اقف امام منبر عدلهِ مطمأنًّا آمنًا - ولعمري ايّ شيء كان خليقًا بان يقلق الرسول بعد ان صرف حياتهُ في الصلوة والصوم وافعال المحبّة والتواضع والصبر المسيحيّ. وانفق عمرهُ باسرهِ اعلاءً لمجدهِ عزّ وجلّ. والقى نفسهُ في اخطار شتّى كثيرة - فهنيئًا لمن يستطيع ان يقول بالصدق مع هذا الرسول قد حُفظ لي اكليل البرّ. فكان الرسول يقول: انني استودع نفسي لله واجعل رجائي مبنيًا على رحمتهِ بل اتجاسر واتمنى ان يخرج حكمهُ العادل فيّ. فانيّ عازم ان اقدّم لهُ الاستحقاقات التي اكتسبتها لنفسي بنعمتهِ وارجو منهُ الميراث الذي قد استحقّهُ لي بدمهِ الزكيّ *

ولعلّ قائلاً يقول: يظهر من هذا الكلام انّ الابرار لا يلحقهم خوف في ساعة الموت. واذ ذاك فكيف نرى كثيرًا من الابرار يستحوذ عليهم الخوف في ساعة الموت - فنجيب: انّهُ قد يتفق احيانًا للابرار المتلألئين بالفضيلة والقداسة ان يخافوا في ساعة الموت ويرتعبوا خشيةً من حكم الله وقضائهِ الاخير - وقد

اخبر الكتاب المعروف ببستان الرهبان عن القدّيس ارسانيوس انهُ حين خروج نفسهِ نظر اليهِ الاخوة وهو يبكي فسألوهُ: أفتخاف انت ايضاً يا ابانا. فاجاب انّ الخوف يلازمني منذ يوم ترهبتُ حتى الآن. وعلى هذا النحو قضى نحبهُ - وذكر الكتاب المقول عنهُ عن الراهب اغاثون أنّهُ اذ دنت وفاتهُ اقام ثلاثة ايّام وعيناهُ محدقتان لا تتحرّكان. فسألهُ الاخوة قائلين: يا ابانا اغاثون اين انتَ. فقال: انا ماثل بين يدي الله ليحاكمني. فقالوا لهُ: افتخاف يا ابانا. اجاب: انّي قد اجتهدتُ ما استطعتُ بان احفظ الوصايا. ولكنّي بشر. فمن اين لي لاعرف هل ارضى عملي لله ام لا. قالوا لهُ: افلستَ واثقاً بانّ عملك ارضى الله. قال: انّي لا اثق حتى القى الله. لانّ حكم الناس شيء وحكم الله شيء آخر - ومن ثَمَّ فانّي اعلن قائلاً بانّ عدم الخوف في تلك الساعة هو ضرب من الجراءة. اذ انّ الحكيم يقول انّهُ ما من احد يعرف الانسان اهو مستحقّ للبغضة ام للمحبة - وما عدا ذلك ففيما بين الابرار القدّيسين قليل عدد الذين في مدّة حياتهم ما حادوا بتّة عن طريق البرّ - والحالة انّ من يسقط سقطة واحدة في كلّ مدّة حياتهِ كلّها ويرتكب الخطيّة المميتة مرّة واحدة فقط فذلك سبب كافٍ لان يجعلهُ قلقاً مضطرباً في ساعة الموت. ولكنّي اقول عن هذا انّهُ مع وجودهِ في حال الاضطراب والخوف يجد في باطنهِ هدوّاً واماناً مّا تتعزّى بهِ نفسهُ وتتقوّى - فقد كان داود النبيّ يخاف من احكام الله. وعند تأمّلهِ اياها كان يصرخ قائلاً: اقشعرّ لحمي من خوفك. ومن حكوماتك جزعتُ (مز ١١٨: ١٢٠) - غير انّهُ مع هذا الخوف كان يتمنّى الموت ويطلبهُ من الله ويرجو بهِ الحصول على المجد الابدي. ولهذا كان يقول: متى اجيء واظهر لوجه الله (مز ٤١:) - ثمّ انّي اقرّ مصدّقاً انّهُ قد يوجد من هو متخوّف موسوس فيغلب فيهِ في الساعة الاخيرة الخوف على الاتّكال - فلو انّي صادفتُ مريضاً على هذه الحال لاجتهدتُ بازالة خوفهِ واضطرابهِ وتعزية نفسهِ بقولي لهُ: ايّها الاخ العزيز

هوذا يدعوك الله اليهِ وقد دنا خلاصك . فان طفق يجيبني بحسرة قائلاً : وما يكون من امري بعد الخطايا التي ارتكبتُها . لقلتُ لهُ : اي نعم انّك خاطئ ونحن باجمعنا خطاة ايضًا . لكنّي اعلم انك قد ندمتَ على خطاياك واعترفتَ بها . وانّك الآن ايضًا تبغضها وتمقتها . فعلامَ تخاف - الستَ تعلم انّ الندامة الحقيقيّة تمحو كلّ الخطايا . انّي اعرّفك من قِبَل الله انّ خطاياك مغفورة لك . ولستُ اقول هذا الكلام كانّي قد أُوتيتُ فيهِ وحيًا علويًّا يؤكّدهُ لي تأكيدًا تامًّا مطلقًا . لكنّي بمعزل عن هذا الوحي والتأكيد اعلم ذلك علمًا كافيًا لتهدئة الضمير - وان عاد المريض وقال : استُ اعلم يا ابي هل اعترافاتي السالفة هي تامّة الشروط حسنة . اذ انّ اغلب الناس ينخدعون من هذا القبيل . لاجبتهُ : نعم في الحقيقة انّ كثيرين من الناس ينخدعون من هذا الوجه لا من حيث الخداع يجوز عليهم بلا علمهم بل من حيث انهم يريدون ان ينخدعوا - امّا انت فلم تقصد هذا اصلاً . بل انّك قد قصدتَ وشئتَ الرجوع الى الله رجوعًا حقيقيًا . افما كان مرادك ان تستفيد من الاسرار المقدّسة اذ تقدّمتَ اليها . افما استعملتَ او على الاقلّ افما شئتَ ان تستعمل كلّ الوسائل التي عرفتَ انّها ضروريّة لبلوغ هذا الغرض - فاذ انّك قد فعلتَ هذا كلّهُ . فكن واثقًا مطمئنًّا بانّ ارادتك هذه الحسنة تضمن خلاصك . ولا يطلب منك الله فوق ما هو في طاقتك - انّك قد فحصتَ ضميرك الفحص الشافي . وحرّكتَ قلبك على قدر قوّتك مع عون النعمة الالهيّة الى الندامة الحقيقيّة . ثمّ تقدّمتَ كذلك الى منبر سرّ التوبة . وقصدتهُ مرارًا واظهرتَ نفسك للكاهن على ما تعلمهُ من حالها . ثمّ قبلتَ بخضوع ما فرضهُ عليك واديّتهُ بالتمام - فمن كانت هذه حالتهُ وهو لاينكفّ مع ذلك من الخوف والاضطراب فهو يهين بذلك جودة الله وصلاحهُ - فان قلتَ : ولعلّ فيّ خطيّة تخفى عليّ وهي مجهولة لديّ . وذلك سبب قلقي . فاقول لك : انكّ بعد ان افرغتَ مجهودك في الفحص المدقّق عن خطاياك

يجب عليك ان تعتقد إمّا انّك نسيتَ منها شيئاً وإمّا انّك لم تنسَ . فان كنت نسيتَ بعد ذلك كلّهِ شيئاً من خطاياك بل معظمها فاعلم انّ الله قد غفرها لك . وينبغي لك ان تتأكّد انّهُ قد غفرها لك كما لو انّك ذكرتها في سرّ الاعتراف من حيث نويتَ ان تقرّرها باجمعها وبذلتَ في ذلك كلّ مجهودك - اجل انّ المثول بين يديِ الآله الديّان العادل والوقوف امام عرشهِ امرٌ مرعب مرهب لمن كان من الخطاة غير مستعدّ لذلك الموقف المخوف . امّا انت فقد استعدّيت لذلك منذ زمن مديد بافعال التوبة وسائر الاعمال الصالحة - فارفع نظرك الى الآله الذي قد بذل نفسهُ وحياتهُ من اجل خلاص نفسك . استودع نفسك الى هذا المخلّص الرؤوف . وهو يبسط يديهِ المقدّستين ليحتضنك بمحبّة ورحمة . انظر الى رأسهِ المكلّل بالشوك . تفرّس في جنبهِ الاقدس المطعون بالحربة . تامّل جسدهُ الممزّق بالسياط . أليس لك في هذه كلّها عربون محبّة الله لك ورحمتهُ غير المتناهية - ومن هم الذين يعاملهم بهذه الرحمة التي لا حدّ لها الّا الذين يلتمسونهُ بقلب مستقيم - فاقبل يا اخي قبلتهُ الالهيّة وهي قبلة السلام المؤبّد - دونكم أيّها المباركون هذه الاعتبارات التي تؤيّد رجاءكم في ساعة الموت . وتجعلكم ان تختبروا حينئذٍ انّ موت الصدّيقين يكون كريماً . وانكم تحصلون عليهِ ان عشتم عيش الصدّيقين . وبعد ان تكونوا كما قال صاحب المزامير قد زرعتم بالبكاء تحصدون بالفرح وجاهدتم مع السيد المسيح تتكلّلون معهُ باكليل المجد الابديّ . آمين ☆

الموعظة الثمانون

في المجيء الثاني

اذا جاءَ ابن الانسان في مجدهِ ... فحينئذٍ يجلس على كرسيّ مجدهِ ويجتمع امامهُ كلّ الامم (متى ٢٥ : ٣١) ☆

متى يأتي يا مباركين هذا الديّان الرهيب . انّي لا استطيع ان اجيبكم

عن هذا السؤال . اذ انّ ذلك يغيب عنّي اصلاً . بل انّ استقصاء البحث عنهُ هو ضربٌ من الجرآءة . فقد سبق الله وقال صريحًا : انّ ذلك اليوم لا يعلمهُ احدٌ الاّ هو وابوهُ - فلندعنّ عنّا هذا البحث الباطل على ما يقول مار اوغسطينس . ولا نفتكرنّ الاّ بان نحسن سيرتنا . فانّ هذا الملفان عينهُ يقول : ايّ فائدة لنا من معرفة يوم اتيان السيّد المسيح . بل الاحرى بنا ان نعيش عيشة من قد تأكّد انّ الديّان الالهيّ آتٍ . واذ ذاك فلا خوف علينا اذا اتى - فالامر الذي اعلمهُ ويسوغ لي ان اقولهُ بكلّ تأكيد هو هذا . اي انّ ديّان الاحياء والاموات سيأتي . واننا سنراهُ في يوم مجيئهِ محفوفًا بالمجد الملايم لعزّتهِ . وهذه الحقيقة هي من جملة قواعد ايماننا الاصليّة التي لا يجوز لنا الارتياب فيها . وقد اثبتها مخلّصنا بكلام جليّ بيّن . بل قد ايّدها بالقسم اذا قال : الحقّ اقول لكم انّ السماء والارض تزولان وكلامي لا يزول (مرقس ١٣ : ٣١) - ولكن كيف يأتي ابن الانسان . ولماذا يأتي . فاقول انّهُ سيأتي متردّيًا بالعزّة والاقتدار متسلّحًا بسيف عدلهِ . وهذا مضمون نصّهِ عزّ وجلّ اذ قال انّهُ اذا اتى ابن الانسان في مجدهِ . فيجلس على كرسيّ مجدهِ . فبقولهِ اذا اتى في مجدهِ يعني اقتدارهُ وبقولهِ يجلس على الكرسيّ يشير الى عدلهِ - ولماذا يأتي ابن الله بهذه الهيئة الرهيبة المهيبة . انّهُ يأتي لكي يصلح جرمَين اجرم بهما البشر من بعد اتيانهِ المرّة الاولى في سرّ التجسّد . فانّهُ في المرّة الاولى اتى الى العالم اتيان الاتّضاع . فاتّخذ العالم من اتّضاعهِ وتذلّلهِ سببًا لاحتقار هذا المخلّص الالهيّ - وكذلك في المرّة الاولى انّهُ اتى ليدرّ نعمهُ على البشر فاتّخذ العالم من مراحمهِ سببًا ليسيء الى هذا الاله الجزيل الصبر والجود - فمن الواجب اذًا في جيئتهِ الثانية ان يصلح هٰذين الجرمين اللذين اجرم بهما البشر وينتقم منهم اذ احتقروهُ سبحانهُ وتمرّدوا عليهِ . وهو يجري انتقامهُ باظهارهِ امام اعين الجميع اولاً كلّ عظمة اقتدارهِ . وثانيًا شدّة عدلهِ - وايّ نتيجة نستنتج من ذلك . انّ النتيجة التي نستنتجها هي انّهُ يجب علينا الآن قبل

ان يوافي ذلك اليوم المرهوب ان نخشى هذا الديّان الجزيل الاقتدار والشديد العدل خشية تحقّ لمن هو مسيحيّ وان نخافهُ خوفًا فعّالاً عمليًا - اللهمّ اجعلني بحولك ان ارسم في نفوس هؤلآء اخوتي هذا الخوف الخلاصيّ الذي هو بدء الحكمة. وان اطبعهُ في اعطاف قلوبهم طبعًا بليغًا - ولبلوغ هذا الأرب فانا محتاج الى نعمتك فاستمدّها بشفاعة والدتك مريم البتول الجزيلة الغبطة *

اذا شئنا ان نتصوّر حقّ التصوّر اقتدار ربّنا ينبغي لنا ان نتأمّل عظمة مجد اليوم الاخير الذي فيهِ يجتمع كلّ ذي جسد امام سيّد العالمين وهم ينتظرون صدور الحكم الباتّ على كلّ منهم - ففي ذلك اليوم يظهر الله اقتدارهُ المتّسع غير المحدود واقتدارهُ المطلق غير المعلّق بشيء واقتدارهُ السامي الذي لا نظير لهُ ولا شبيه - ومن ثمَّ فانّهُ تعالى يُظهر يومئذٍ اقتدارًا يعلو ويسمو على كلّ اقتدار عالميّ - وذلك انّ الاقتدار العالميّ تلابسهُ طبعًا ثلاث شوائب جوهريّة. فانّ الاقتدار العالميّ اوّلاً محدود في اتّساعهِ. وثانيًا هو متعلّق بآخر. وثالثًا يقابلهُ اقتدار آخر يشبههُ او هو اقوى منهُ - امّا الاقتدار الالهيّ فهو اقتدار ذلك الذي هو ضابط كلّ شيء ضرورةً. وهو اقتدار متّسع لا حدّ لهُ اذ يمتدّ الى جميع البريّة ويضبطها تحت حوزتهِ - وكما انّ يد الله اخرجت الاشيآء باسرها من العدم الى الوجود فكذلك هذه يدهُ الخالقة كلّ شيء لها سلطان واقتدار ان تعدم الاشيآء المخلوقة نظامها وان تلاشيها - فما ارهب هذا المنظر وما اعجبهُ وهو منظر ظهور الله في مجدهِ كلّهِ - نعم يا مباركين انهُ تعالى شانهُ سياتي لا لكي يواري مجدهُ ثانيةً في ظلمات التناسي والاهانة. كلاّ. فانهُ قد انقضى ظهورهُ المرّة الاولى في وقت التجسّد - امّا في هذه المرّة الثانية فيتلألأ كلّ ضيآء ذلك المجد الذي كان سابقًا مستترًا تحت حجاب الجسد الذي تردّى بهِ ابن الله اذ انهُ يأتي لاصلاح ما أُلحق بهِ من الاهانة والاحتقار - حينئذٍ الخلائق باسرها تضطرّ الى ان تقوم بخدمتهِ. وستكون علامات في الشمس

والقمر والنجوم ويكون على الارض ضيق الامم من ضجيج البحر والامواج (لوقا ٢١ : ٢٥) - تصوّروا معي يا مباركين هذه الحوادث والعلامات المخيفة - انّ الكتاب المقدّس يذكر عن البحر انّهُ لرجزهِ المفرط تشتدّ امواجهُ وترتفع الى العلوّ فيُسمع ضجيج هذه المياه في اقصى الارض. وعن الشمس انّها تنكسف. والقمر انّهُ يقطر دماً. والنجوم انّها تضطرب. واقوى عمد السماءَ تتزلزل الى ان تظهر نار آكلة تفني ما بقي من العالم. بل انّ الانسان نفسهُ ينهض حينئذٍ ليحارب نفسهُ. والبشر يندفعون الى طلب الانتقام من انفسهم من قِبَل الرب كما نصّ الانجيل المقدّس بقولهِ: تقوم امّة على امّة ومملكة على مملكة (٢١ : ١٠) - هذه هي الايّام التي ستكون وهذه هي العلامات والآيات التي ستحدث بامر الله القادر على كلّ شيء. هكذا قد اراد الله جلّ شأنهُ. فمن يتجاسر او يقدر ان يقاوم ارادتهُ - وانّهُ في ذلك اليوم سيظهر قدرة مطلقة غير متعلّقة بشيء. ولذلك فيرسل ملائكتهُ اي خدَمتهُ الامينين الذي يسمون طبعاً على سائر الخلائق ويخضعون مع ذلك ضرورةً اتمّ خضوع لخالقهم كانّهُ تعالت جلالتهُ لا يليق بشأن عزّتهِ ان ينادي هو نفسهُ باوامرهِ - واذ كان الموت والحيوة جميعاً تحت سلطانهِ. فاذ يشاءَ ان يستحضر امام منبرهِ جميع الذين يشملهم العالم من الخلائق الناطقة احياءً كانوا ام امواتاً فيصدر بذلك امرهُ العالي. فينطق الملاك المأمور لفظة واحدة. وهذه اللفظة الصادرة عن امر الله ينحدر صوتها الى اعماق القبور وتنعش الرميم الحقير فيشعر بقوّة قدرة الله الحيّ - فلعمركم انّهُ ذلك الالَه الذي عينهُ لا تزال تعاين الخلائق المدفونة في ظلمات الموت ولا يدري بها احد. هو ذلك الالَه الذي كما قال الرسول يرى الاشياءَ الكائنة وغير الكائنة - وانّ ذلك الصوت يأمر الناس قاطبةً ان قوموا وانهضوا فهكذا يأمركم ربّي وربكم - ويسير الصوت عينهُ على اجنحة الرياح وتخضع لسطوتهِ كلّ المياه. فينفتح البحر لساعتهِ قعرهُ ويقذف منهُ كلّ ما كان قد ابتلعهُ - قوموا وانهضوا هكذا يأمركم ربّ الارض باسرها.

فتفتح الارض احشاءها . وتأخذ البرّية ان تولد ميلادًا جديدًا ويعود كلّ شيء الى ما كان عليهِ قبلاً - وهذا العمل العجيب لا يقتضي ان يصرف فيهِ سنين متعدّدة . لان قدرتهُ تعالى ليست متعلّقة بالزمان ولا بالمكان . بل تكفي على ما قال الرسول دقيقة واحدة (١ قورنث ١٥ : ٥١) في بغتة وفي طرفة مع الصوت الملاكيّ يجتمع الجميع من ابعد اقاصي الارض بسرعة لمحة العين وظهور البرق - ثمّ انّ الله سيظهر حينئذٍ قدرة لا نظير لها - وما ظنكم يا مباركين بقدرة المحفل العظيم الذي يلتئم امام منبر الديّان الرهيب يومئذٍ . ولكن اين ذلك من قدرة العزّة غير المتناهية . وماذا يُحسَب بازاء العزّة الالهيّة اقتدار ارباب الامر الذين كانت الارض تتزلزل من سطوتهم فيومئذٍ لا فرق البتّة بينهم وبين اخسّ الناس وانّ حالهم وحال عامّة الناس اذ ذاك يكون واحدًا . اذ في ذلك اليوم لا فرق ولا تمييز بين الغنيّ والفقير والعبد والسيّد والشعب والملك وهم لا يظهرون حينئذٍ بزيّهم القديم اي زيّ السطوة والابّهة بزيّ ملوك معظّمين مظفّرين او علماء متكبّرين . بل يظهرون بزيّ البشر فقط ولا يبقى لهم شيء من كلّ ما ملكوهُ . وبالاجمال فالجميع من بني البشر يظهرون بحال واحدة - فلا يخرجون من مقابرهم لكي يعودوا الى سلطانهم الاوّل بل يُساقون ليحاكموا . ولا يجوز لهم ان ينقلوا دعواهم الى محكمة اخرى . فانّهُ ستبطل حينئذٍ كلّ سلطنة وكلّ حكم الى ابد الابدين - قوموا تعالوا الى الدينونة . يا لهُ من منظر بهيّ عظيم منظر ربّ السماء والارض اذ يجلس على سحابة وهو يتلألأ نورًا ويملك هو وحدهُ وهو وحدهُ يامر بسلطانهِ القدير فتصغي لصوتهِ الخلائق باسرها وتخضع لاوامرهِ وتبادر الى العمل بها . فالذين كانوا يتفاخرون بالعظمة والابّهة العالميّة ينظرون على ما قال البشير الى ما آل بهم تكبّرهم الى اقصى حال من الخزي والخجل فيتمنّون ويطلبون العود الى العدم *

ان الشهوات آلات تعميهم ونجاح احوالهم يلهيهم واللذّات المهلكة تفتنهم .

امّا حينئذٍ فسيذعنون لما لا يريدون الآن ان يذعنوا لهُ ويوقنون انهُ ليس من سلطان مطلق الاّ السلطان الوحيد الذي يخضعون لهُ اذ ذاك والذي منهُ وحدهُ كان ينبغي لهم ان يخافوا . وابن الله يحدق فيهم نظرهُ فيضطربون ويرتعدون لشدّة ما يتداخلهم من الخوف كما قال الحكيم ويأخذهم الذهول والتحيّر ويشملهم الياس - ذكر الكتاب المقدّس عن الاسرائيليّين انهم استحوذ عليهم الخوف حين ظهر لهم ربّ الجيوش وكلّمهم من بين البروق والرعود . فصرخوا وطلبوا من موسى ان لا يكلّمهم الربّ لأنّهم لا يطيقون احتمال حضورهِ - فكذلك الديّان العادل حين يظهر بعظمتهِ وجلالتهِ يبهت منهُ عظمآء الارض ويرتعدون ويضحون كانّهم لا يعقلون لمّا يدركهم من الضعف والعجز فيحاولون الابتعاد من منظرهِ الذي يزعجهم . وينادون الجبال ان تتساقط عليهم والآكام ان تغطّيهم وتحجبهم عن نظر الله - ولكن باطلاً يتمنّون ذلك ويطلبونهُ . ومن ذا الذي يستطيع ان ينجّيهم من يد الله الطالب الانتقام . فانهُ يحضر لكي يجعل كلّ شيء خاضعاً لسلطتهِ ويلزم الجميع بالطاعة لقوّة كلمتهِ . فمن يستطيع ان يغيثهم او يساعدهم او يريهم ملجأ يجدون فيهِ النجاة - قال مار اوغسطينس انّ السيّد المسيح ياتي في ذلك اليوم بملء مجد لاهوتهِ كما انهُ سابقًا قد اختفى تحت حجاب ناسوتنا . فاذ كان جلّ شأنهُ في حال ترديهِ ضعفنا جعل بكلمة واحدة ان يسقط اعداؤهُ على الارض بقولهِ لهم حين بدء آلامهِ : انا هو . فماذا يحدث اذا لاح في مقدّمة الجيش السماويّ بكلّ عزّتهِ وقدرتهِ . انهُ ليرفع صوتهُ بصيحة ارهب من اصوات الرعود ويكرّر كلامهُ السابق قائلاً : انا هو . انا هو الذي اهنتموهُ وكفرتم بهِ وصلبتموهُ . انا هو - فيا لهُ من خوف مرهب ويا لهُ من رعب هائل - فلنرتعد نحن كذلك يا مباركين ولنخف لاننا في جملة اعدآء الربّ الذين كلامنا عنهم - يا ايّها الاغنياء ما هذا الهمّ الذي يجعلكم جبنآء . ومن هم الارباب الذين تهابونهم . يا ما اكثر الوسائل التي لكم لتنجوا من ايديهم ويا ما اكثر النواحي والجهات التي

لا تنفذ اليها اوامرهم ولا يبلغ اليها خدامهم واعوانهم الذين تخافونهم . يا ما اكثر السادة الذين فوقهم . وايّ واحدٍ منهم ليس مضطرًّا مثلكم الى ان يخضع لسلطة ربّ الارباب المالك في السماوات - ولستُ بذلك اريد ان ازيل عنكم الخوف وامحوهُ تمامًا . وانّما مرادي ان اغيّر موضوع خوفكم . فانّ الخوف يفيدنا حقًّا . ولكن لا كلّ خوف . بل الخوف من الربّ - ولستُ اقصد ان ادعوكم الى روح التمرّد والمقاومة لنصّ الكتاب المقدّس بانّهُ في العالم يوجد سادة ذوو مقام ومرتبة ويجب عليكم ان تكرّموهم وتحترموهم . ولكنّهُ من اقبح الحمق ان يخضع الانسان لسلطة بشريّة تزول بزوال الزمان وان يأبى الخضوع والطاعة لله الذي لهُ السلطة الازليّة السرمديّة على كلّ شيء - فالذي يحقّ لنا ان نخاف منهُ يا مباركين هو الله الذي عرّفنا عنهُ ابنهُ في الانجيل المقدّس . ولذلك فاقول لكم قاطبةً باسمهِ : خافوا منهُ خافوا ان تجلبوا على رؤوسكم غضب من خلق اجسادكم ونفوسكم وهو قادر ان يهلكها . من هذا خافوا - لانّ سلطتهُ مطلقة على ايّ حال كان . فان لم يضرّ بكم في الحيوة الحاضرة فلا شكّ ان يدهُ القادرة على كلّ شيء تدرككم في الحيوة الاخرى - فمن منكم اذا تبصّر في هذه الحقيقة وهي انّ من يرتكب الخطيئة يسيء الى الله العظيم الشأن القادر على ان يضرب الكبار والصغار ذلك الذي من هيبتهِ يخلع الملوك التيجان عن رؤوسهم ويضعونها عند قدميهِ وهم صاغرون . ذلك الذي اذا امر امرًا تمثل بين يديهِ الشعوب قاطبةً لتسمعهُ . وذلك الذي اذا نهض تتزلزل من جلالهِ الارض كانّها تتأهّب للرجوع الى العدم . فمن هذا الاله خافوا لا من اجل عظمة اقتدارهِ غير المتناهي فقط بل من اجل شدّة عدلهِ ايضًا . وهذا ما نبحث عنهُ في الجزء الثاني من موعظتنا *

الجزء الثاني

انّ الآباء القدّيسين اذ ارادوا الاستقصآء عن السبب الذي من اجلهِ يستحضر الله الملأ باسرهم امام منبرهِ في يوم الدين العامّ بعد ان يكون قد دان كلاً منهم على حدة بالدينونة الخصوصيّة عقب وفاتهم يذكرون هذا السبب وهو انّ الله يريد ان يظهر جهارًا امام العالم باسرهِ عدلهُ . وبذلك اي بواسطة الحكم العلنيّ المحتفل امام الملأ كلّهم يردّ الى عدلهِ كلّ المجد الذي ينبغي لهُ - فانّهُ في مدّة هذه الحيوة الحاضرة يظهر من حال العدل الالهيّ كانّهُ موثوق وحكمهُ غير نافذ . ومن هذا يتّخذ الاشرار جراءَة لارتكاب المآثم ويطمعون في رحمتهِ تعالى راجين منهُ ان لا ينتقم منهم . او يتّخذون من ذلك سببًا للكفر والتجديف عليهِ اذ يرونهُ صابرًا محتملاً كلّ هذه الشرور وربّما يستنتجون ايضًا انّهُ لا وجود للعناية الربّانيّة - فبعد ان اتى السيّد المسيح المرّة الاولى اتيان النعمة والرحمة ينبغي ان يأتي المرّة الثانية اتيان العدل المشتهر لكي يحكم ويؤيّد علانيةً وجهارًا ما يحكم بهِ على الخطاة . وينبغي ان يعترف العالم باسرهِ باستقامة حكمهِ وشدّتهِ - ولكي يجري هذا الحكم فيجب اوّلاً ان يكشف الله خفايا الضمائر . ثانيًا ان يغضب باشدّ الغضب اذ يشاهد كثرة قبائح البشر . ثالثًا ان يبرز الحكم بالهلاك المؤبّد على الاشرار . وهذا ما ينبغي ان نبحث عنهُ الآن *

فاوّلاً ينبغي ان يكشف الله حينئذٍ خفايا الضمائر . ولكي تفهموا ذلك ارى ان اورد على محبّتكم خبرًا من سفر اشعيآء النبيّ : انّ حزقيآء الملك لمّا مرض واشرف على الموت صرخ الى الربّ قائلاً : ربعي قد انقلع وانتقل عنّي مثل خيمة الراعي لفّيتُ حياتي كالحائك (اشعيا ٣٨ : ١٢) - فاعتبروا معي قوّة هذه العبارة وهي ربعي قد انقلع ولفّيتُ حياتي . وذلك يصوّر لنا حالة ضمائرنا الآن فانّها قد اضحت ملفوفة تشبه ظلمات متكاثفة لا تستطيع العين البشريّة

ان تخرقها وفي ضمن هذه الضمائر تستتر اضرى البهائم وافظعها اي الخطايا الشنيعة التي لا يحصى عددها ولا تستقصى انواعها. وهي خطايا العقل وخطايا القلب وخطايا الحواسّ ولا تستطيع عين غير عين الله ان تنفذ الى هذه اللجّة المظلمة الحالكة - ربعي قد انقلع وانتقل عني مثل خيمة الراعي. لفّيتُ حياتي كالحائك. فالآن لا تظهر خفايا ضمير كلّ واحد المنطوية. ولا يسوغ لنا ان نميّز كنهها ولا ان نعرف ما هي عليهِ باطنًا. فاذا نُشِرت . ظهر كلّ شيء للبيان كما هو - فهذا ما يعملهُ الله في آخر الزمان: اي انهُ يكشف عن الضمائر المنطوية. وحينئذٍ على ما يقول مار امبروسيوس تنجلي كلّ الشرور المختفية قبلًا لا على وجه العموم والاجمال فقط حسب قول مار باسيليوس الكبير بل بالتفصيل حتى ايسر اعراضها - وقد توعّد الله بذلك الخطاة مرارًا كثيرة بقولهِ على لسان ناحوم النبيّ: هانذا أُظهر عورتك للشعوب وفضيحتك للممالك (ناحوم ٣: ٥) - فكانهُ تعالى يقول: انّني ساكشف عظم قبح خطيئتك لجميع الشعوب واريهم كلّ مكر الضمير المخادع المرائي الذي كان يطوي اكبر الآثام تحت رداء عبادة كاذبة - الا يا اخي ردّد على بالك ذكر ما تدنّستَ بهِ في باطن قلبك وخفتَ من ان يطّلع عليهِ احد. اريد بذلك تلك الادناس التي كلّ مرّة تذكرها يستولي عليك باطنًا الخزي والخجل. وتلك الفظائع التي تودّ لو انّ ظلمات النسيان غشيتها الى الابد. وتلك المقاصد الخبيثة مع التظاهر بزيّ الاستقامة الكاذبة. وتلك الخيانات الشيطانيّة والاشراك الجهنميّة التي نصبتها. والحيل الابليسيّة التي دلّستها على البرّ. والفواحش التي يفرّ العقل من تصوّرها ويابى اللسان ذكرها - انك عارف بذلك كلّهِ ويعلمهُ الله ايضًا على جليتهِ. ولكنهُ لا يكتفي بان يعلمهُ هو فقط. بل سيظهرهُ بحيث لا يدع احدًا من الذين عاشوا قبلك او يعيشون الآن معك او سيعيشون بعدك يجهل منهُ شيئًا. وبكشف هذه المساوئ يظهر عورتك للشعوب وفضيحتك للممالك *

ثمّ لنعتبر ثانيًا انّ شدّة عدل الله تثير في قلبهِ عزّ وجلّ غضبًا شديدًا

على الخطاة. وعن ذلك قال بلسان ناحوم النبيّ: من يقف امام غضبي (١:٦) — ألا فامعنوا النظر في هذه الآية. فمن ذا يحتمل غضب آلهٍ قد أُهين وآله يلقي الرهبة والرعبة في القلوب ولا مهرب منهُ لاحد. اذ ينبغي للجميع ان يقفوا امامهُ وينتصبوا بين يديهِ — اذا غضب احد الملوك على واحدٍ من رعيتّهِ وكان ذلك الواحد غائبًا بعيدًا عن الملك فلا يؤثّر فيهِ غضبهُ ولو كان شديدًا بليغًا الاّ يسيرًا. امّا اذا اضطُرّ العبد المغضوب عليهِ ان يقف امام وجه مولاهُ فيرتعد لكلّ لحظة من طرفهِ ويشتدّ ارتعابهُ ويُعدَم كلّ حركة — فمن ذا يقف امام الله الساخط الغضبان المملوّ من الغيظ. ليس من غيظ اشدّ من غيظ الصديق على الصديق الخائن او غيظ الاب على ابنهِ الذي اهانهُ. او غيظ العريس على عروسهِ البغيّ. فانهُ كلّما كانت اوثاق المحبّة اشدّ وامكن كان الغيظ اعظم وانكى — فيا ما امرّ التوبيخ الذي يوبّخنا بهِ مخلّصنا الالهيّ اذ يرينا صليبهُ المقدّس الذي قد هدرنا نحن كلّ ثمنهِ ويظهر لنا جراحاتهِ ويحاسبنا على سفك دمهِ — ما اشدّ الغيظ والغضب الذي بهِ ينظر الى الخطاة الذين من اجل خلاصهم قد تكلّف كلّ ما قاساهُ مدّة حياتهِ على الارض ليعدّ لهم الميراث السماويّ المخلّد. فانهُ ليكفر بهم. كما كفروا بهِ ويهينهم كما اهانوهُ وينساهم كما نسوهُ — كلاّ. بل انّهُ تعالى سيذكرهم وهذا الذكر يزيدهُ غضبًا عليهم مدى الابد. فمن يقف امام غضبهِ *

انّ الكتاب المقدّس يشبّه الله الساخط على الخطاة في يوم الدين بالاسد الذي يزأر. فيرتعد لزئيرهِ كلّ الذين حولهُ. وانّ الاسد يسطو على عدوّهِ بعد ان يوقعهُ على الارض فيمزّقهُ وينتقم منهُ بطيب نفس — فما هذا التغيير في الله جلّ شأنهُ. واين ذلك الالهَ الكريم الذي كان يفيض نعمهُ بجود وسخاء — اين ذلك الالهَ الجزيل الصبر الطويل الاناة الذي كان ينتظر الخطاة مدّة سنين متعدّدة ويجدّ في طلبهم ليخلّص نفوسهم الضالّة — اين ذلك الالهَ آله كلّ عزاء الذي كان يبذل كلّ منحهِ ويفرغ كلّ عذوبتهِ لاجتذاب القلوب — انّما انتم يا ايّها

الخطاة العصاة المتمرّدون قد غيّرتموهُ بمساوئكم وخيانتكم. بل الاولى بي ان اقول انهُ لابثٌ على الدوام كما كان قبلاً. فانّ ذلك الآله الجزيل الجود والسخاء كان ايضًا الاله العادل. غير ان جودهُ اذ ذاك كان يغلب على عدلهِ. وهذا الآله الذي يظهر لنا شدّة عدلهِ هو الآله الجواد بل الجود بالذات. ولكن الآن عدلهُ يغلب على جودهِ - فلانكم احتقرتم هذا الجواد واهنتموهُ اذ كان يطلبكم ويدعوكم ويحتملكم. فهو الآن يحتقركم ويهينكم ويهملكم ويطردكم ويوجّه جودهُ الى غيركم - انظروا هذا الجمع الغفير جمع المختارين فانّهُ عليهم يدرّ غزارة مراحمهِ. امّا انتم فلا تنتظروا منهُ الاّ الحكم بالهلاك وهذا الحكم لا يقبل التغيير ويسجّلهُ عدلهُ وينطق بهِ لسانهُ والعالم كلّهُ يسمعهُ وتذعن لهُ قوّات الجحيم *

فاصغوا يا ايها المؤمنون لهذا الحكم. وما دمتم في حالة فيها يمكنكم الاستفادة من تأمّلهِ فاعملوا فيهِ الرويّة مليًا - انّهُ تعالى بهذا الحكم يفصل الخطاة ويقطعهم من امامهِ ويبعدهم عنهُ. سيقول لهم حينئذٍ ما عرّفنا بهِ متّى البشير اي اذهبوا عنّي - واهًا يا سيّدنا ما هذا الانفصال والتباعد عنك انت غايتنا الوحيدة ومصدر كلّ قوامنا ومركز كلّ راحتنا. وموضوع كلّ اشواقنا - اذهبوا عنّي يقول الربّ. لانكم ضللتم عن هذه الغاية التي كنتُ ادعوكم اليها وتركتم خالقكم وفضّلتم ارباح زائلة ولذّات دنسة على السعادة العظمى المؤبّدة المعدّة لكم في السماء. فاذهبوا عنّي - ثمّ انّ هذا الحكم الاخير تصحبهُ اللعنة. فانهُ تعالى يزجر الخطاة قائلاً لهم: اذهبوا عنّي يا ملاعين أنّكم تعلمون انّ ينبوع كلّ خير هو بركة الله. فينبوع كلّ شرّ هو لعنتهُ تعالى. ألا فاذهبوا عنّي يا ملاعين. ملاعين من قِبَل ابي الذي برذلكم. ملاعين منّي انا الذي اعطاني ابي سلطانًا لأدينكم. ملاعين من جميع الناس صدّيقين كانوا ام خطاة - وهذا الحكم يكون حكمًا شاملاً جامعًا. فانّ ضربات الله في الحكم الاوّل اي في الدينونة الخصوصيّة لا تصيب الاّ النفس وحدها اذ على النفس فقط يبرز الحكم. امّا في الدينونة

الاخيرة فحكم الله يشمل الانسان كلّهُ اي النفس والجسد - اذهبوا الى النار المعدّة لابليس وجنودهِ توغّلوا في وسط النيران الآكلة بهذا الجسد الذي نعّمتموهُ بالملاهي والملاذّ. بهذا الجسد الذي افسد الروح واغواها ورآء الشهوات المستهجنة. انحدروا بجسد الخطية في لجّة العذاب السرمديّ. فكما انهُ قد اشترك في الاثم فكذلك ينبغي ان يشترك في العذاب - وهذا الحكم يكون غير قابل التغيير. اذهبوا الى النار المؤبّدة - اهكذا يا ربّ تهمل عمل يديك. اما خلقتهم على صورتك وجعلتهم بنيك بالذخيرة. اي نعم يقول الربّ. انّما انا اهملهم لأنّهم هم انفسهم اهانوا هذا العمل الجليل الكريم عمل يديَّ وافسدوهُ. بحيث ارى فيهِ الآن السمة التي كان متّسماً بها حين خرج من يديّ لانّهم قد محوا الصورة الالهيّة التي كانت تميّزهم على اجلّ وجه من سائر المخلوقات. فهم بعد ان كانوا ابناءَ محبوبين اضحوا عبيدًا متمرّدين واعدآء الدّآء. ولذلك فقد رذلتهم رذلاً لا رجعة فيهِ - ولكن كيف لا تأسف يا ايّها الاب الجزيل اللطف على دموعهم وزفراتهم. وكيف لا تعطف يا من هو جزيل الانعطاف على طلباتهم. وكيف لا ترأف يا ايّها الرؤوف على كربهم وتوجّعهم وخوفهم ويأسهم. كيف لا يؤثّر ذلك كلّهُ في قلبك الالهيّ - انّهم عبثًا يبكون ويتنهّدون. فكما صلبت قلوبهم عليّ فكذلك صلب قلبي عليهم - فتمّم اذًا يا ايّها الديّان القادر على كلّ شيءٍ عملك واضربهم بكلّ عنف. فامحقهم وردّهم الى العدم اذ كنتَ لا تشآء ان تخلّصهم. فهذا هو الرجآء الاخير الذي بقي لهم. فيجيب الربّ الآله قائلاً: هيهات ثمّ هيهات. انّي خلقتُهم لمجدي اي امّا لمجد رحمتي وامّا لمجد عدلي فحيث احتقروا رحمتي فلا بدّ لهم من ان يمجّدوا عدلي الى الابد - ثمّ انّ الحكم الاخير سيكون حكماً نافذًا بلا مهلة ولا تأخير. فانّ الفعل الذي بهِ يريد الله شيئًا ويخرجهُ من القوّة الى الفعل هو شيءٌ واحد. فكذلك قال الله ليكن النور وكان النور حالاً. فحين يقول اذهبوا عنّي يا ملاعين الى النار. ففي تلك اللحظة عينها تنفتح جهنّم تحت ارجلهم وتبتلعهم -

آهاً يا اخوتي ليتكم تفهمون جيّداً الكلمات الاخيرة التي بها يختم الانجيل المقدّس خبر هذه الدينونة المرعبة وهي هذه : فيذهب هؤلآء الى العذاب الدائم اي انهم يهوون في تلك اللجج العميقة في دركات النيران المضطرمة ولا يخرجون منها ابداً — فيا ما اكرب الساعة التي فيها يتحوّل السيّد المسيح عنهم متوارياً ويشعرون بيد غير منظورة تدفعهم وتزجهم في جهنّم . وهم في اثناء ذلك يشاهدون الصدّيقين فوق رؤوسهم يرقون الى السمآء — فمن يقدر ان يصف شدّة حسراتهم ورجزهم ويأسهم . لا يستطيع ذلك الاّ من اختبرهُ · اجاركم الله من هذه الخبرة *

فيجب ان نستنتج من خطابنا هذا ما ذكرناهُ في مطلعهِ وهو مخافة الله — فاطبع يا ربّ هذه المخافة في نفسي طبعاً بليغاً . اجعل هذه المخافة الخلاصيّة ان تنفذ الى كلّ جسدي بجميع اعضائهِ وعظامهِ والى كلّ لحمي — قد ذُكر عن مار هيرونمس انهُ كان يتصوّر في نفسهِ على الدوام صوت البوق الاخير الذي يدعو الاحيآء والاموات الى الدينونة . فليكن كذلك هذا الخوف ملازماً لي في كلّ مكان وزمان في معاشرتي لهذا العالم وفي قضآء اموري ومحادثاتي وجميع صروف حياتي — انعم عليّ يا ربّ الاّ ينتزع منّي هذا الخوف لاجل اي خليقة كانت . امنحني خوفاً لا يشوبهُ يأس او قنوط . واجعلهُ خوفاً حيّاً قويّاً فعّالاً . كذلك اريد ان اخاف من احكامك لاستعدّ لنيل بركاتك واحظى بك في الابديّة السعيدة آمين *

الموعظة الحادية والثمانون

في الذين يؤخّرون توبتهم

تطلبونني وتموتون بخطيّتكم (يوحنّا ٨ : ٢١)

لعمري انّ هذا الوعيد الالهيّ لمملوّ رهبةً ورعبة — وقد وجّه بهِ ربّنا يسوع

المسيح الى الشعب اليهوديّ العزيز عليهِ والمحبوب لديهِ الذي قد أُفيضت عليهِ النعم الالهيّة الغزيرة – فكانهُ يخاطبهم قائلاً: ايها الشعب الخائن الكافر ما اكثر ما صنعتهُ معك سابقًا واصنعهُ الآن ايضًا من اجلك اذ قد انحدرتُ من السماء الى الارض لابذل لك تعاليمي من بعد ان اثبتّها وايّدتها بالعجائب والآيات المتعدّدة. وكم صرفتُ من الزمان وانا اجدّ في طلبكم وخلاصكم. وانتم لا تزالون تقاومونني بعناد ومكر – فهانا اذا منذ الآن انبئكم وانذركم بانّهُ سيأتي يوم فيهِ تطلبونني فلا تجدونني وتتوبون ومع ذلك فتموتون في حال الخطيّة – غير انّي اسألكم يا مباركين عن السبب الذي من اجلهِ هؤلاء القوم لا يجدون الله مع انّهم يطلبونهُ. ولاسيّما انّ الله نفسهُ قد قال للجميع: اطلبوا تجدوا. وكيف يحدث انّهم يموتون بخطاياهم وهم تائبون عنها ومن المعلوم انّ التوبة تمحو جميع الخطايا – فما معنى هذا الكلام المبهم. وما هذا السرّ. انّ تفسيرهُ وايضاحهُ ليس بامر عسير – فاعلموا انّ هلاكهم مع توبتهم سببهُ هو هذا. وذلك انّ اشواقهم الاشدّ حرارةً لا تصدر من صميم القلب بل هي اشواق ظاهرة مصدرها من الفم فقط. وانّ طلبهم الله عزّ وجلّ ليس طلبًا صادقًا حقيقيًا بل هو طلب خياليّ مقصور على الخارج فقط. وتوبتهم هي توبة كاذبه. ومن ثمّ فمع طلبهم الله يموتون بحال الخطيئة *

فيا ايّها الاخوة المباركون انّي اوجّه الآن اليكم مع السيّد المسيح وباسمهِ هذه الكلمات عينها. فاعلموا انّ هذه العاقبة عينها تصيب المؤمنين الذين يتصوّرون انفسهم انّهم تائبون وهم ينظرون ساعة الموت ليهتمّوا بالتوبة. واذا حدّثناهم الآن عن امر رجوعهم الى الله بالتوبة فهم يجاوبون انّهُ لم يأتِ بعد اوان ذلك وانّهُ باقٍ لهم من الحياة سنين شتّى. وانّهُ يكفيهم ان يتوفّوا في حال النعمة. ولا خوف عليهم اصلاً مع عزمهم ان يعتنوا بالتوبة وخلاص النفس عند دنوّ اجلهم – امّا انا فقد قصدتُ ان اورد اليوم البراهين الباترة المقنعة

لابيّن انّ اتكال هؤلآء القوم على التوبة التي ينوون تأديتها في ساعة الموت لباطل. حيث انّ التوبة بهذه الصفة تكون في الغالب ناقصة . ولقد انخدع بهذه العلّة جماعة كبيرة من الناس فأخروا توبتهم الى ساعة الموت حتّى أنّهم ماتوا بالحقيقة في خطيئتهم - فترون انّ الموضوع الذي نتكلّم اليوم عنهُ هو موضوع جزيل الاهميّة حقيق بان تتأمّلوهُ بحسن النظر والاعتبار . ومن ثمّ ففي بسطهِ على مسامعكم والبحث عن اقسامهِ لا نلتمس مضامين سامية رفيعة من شأنها ان توهن قوّة المعنى . بل نبحث عن هذه المسألة بحثًا بسيطًا ساذجًا ذا تأثير - وهاكم فحوى خطابي . انني اوّلًا اورد لكم ما اثبتهُ الآبآء القدّيسون في هذا المعنى . ثانيًا ابحث عن استعداد الخاطئ حين اشرافهِ على الموت . ثالثًا ننظر الى معاملة الله في الساعة الاخيرة لمن كان كذلك - ومن هذه كلّها استنتج ثلاث نتائج منها نستدلّ ونتأكّد انّ هؤلآء الخطاة غالبًا لا يتوبون الاّ توبة خياليّة كاذبة . وانّ اكثرهم يموتون كما عاشوا اي في حال غضب الله وحال الاصرار على الخطيّة . وذلك ممّا يسوقهم لا محالة الى الهلاك - اي نعم ايّها المباركون انّ الموضوع الذي كلامنا عنهُ ليس موضوعًا ينبغي لهُ زخرف الفصاحة البشريّة وطلاوتها . فليس من مقصدي الآن ان اطرب خواطركم بل ان اؤثّر في قلوبكم واطبع فيها خوفًا ورعبًا مقدّسًا خلاصيًّا لكي تنتبهوا وتنهضوا من هذا الرقاد السيّئ الموبق . ولكنّنا لبلوغ هذا الارب نحتاج باجمعنا الى انوار روح القدس . فلنستمدّها بشفاعة مريم البكر المثلّثة الغبطة *

انّني اعلم جيّدًا يا ايّها المباركون انّ روح القدس يهبّ حيث يشآء وانّهُ كما قال مار لاون الكبير لا يجوز لنا ان نجعل لرحمة الله حدودًا او نقدّر لها زمانًا معيّنًا دون غيرهِ . وانّني عالم ايضًا بما قالهُ مار قبريانس الشهيد بانّ التوبة الحقيقيّة اذا وُجدت لا تُحسَب اصلًا انّها متأخّرة اذ انّ باب الغفران والصفح كما يقرّر هذا القدّيس نفسهُ مفتوح على الدوام لجميع الذين يريدون بارادة صادقة فعّالة ان يقدّموا التوبة عن خطاياهم - واعتقد متيقّنًا انّ من

الناس من يفوز بالخلاص وهو لم يشرع بالتوبة الاَّ في ساعة الموت فقط على ما قالهُ مار قبريانس نفسهُ - ولا يغيب عنّي ما ذُكر في المجمع النيقاويّ المقدّس من انّ اباَء المجمع رأوا من الواجب ان يخفّفوا شدّة تدابير الكنيسة في قديم الزمان اذ كانت تأبى اعطاَء الحلّة للمومنين الذي في مدّة حياتهم جحدوا الايمان المقدّس ولم يرجعوا الى التوبة عمّا فرط منهم الاَّ في ساعة مماتهم . وبمثل هذه المعاملة كانت الكنيسة قديمًا تعامل ايضًا الذين كانوا يؤخّرون توبتهم الى ساعة الموت اي انّها كانت تنكر عليهم الحلّة - فاباَء المجمع المقدّس المذكور استصوبوا ان لا يُمسَك عن اولئك التائبين هذا العون الجزيل الضرورة اي عون الحلّة في حين خروجهم من هذا العالم وولوجهم ابواب الابديّة - غير انّ هؤلاَء الآباء القدّيسين بتدبيرهم هذا لم يعنوا ولم يريدوا ان نعتقد انّ تدبير الكنيسة القديم لم يكن مؤسّسًا على اساس وثيق مكين . على انّ الكنيسة في القرون الاولى قد اظهرت التشديد لكي تضبط المؤمنين وتجعلهم اشدّاَء قبالة اضطهادات الطغاة الباغين . وبهذا التشديد كانت تبيّن جسامة الاثم الذي يأثم بهِ المسيحيّون الذين يجحدون الايمان خوفًا او هربًا من العذابات القادحة . وتوضح عظم خطيّة المؤمنين الاردياَء الذين يدنّسون قداسة ديانتهم بفساد سيرتهم واهانتهم ايّاها باستمرارهم في حال الخطيئة - ولقد تمسّكت البيعة قديمًا بهذا التشديد اذ كانت قائمةً عليها من كلّ جهة الحرب العوان . فقد كان واجبًا كلّ الوجوب ان يعظم بهذا التدبير الشديد قدر البيعة عند المؤمنين ويجلّ لديهم اعتبارها - غير انّهُ ولئن كانت البيعة لم تغيّر في شأن اولئك الخطاة رأيها ومذهبها . فلمّا حصلت بعد ذلك على راحة وهدوّ من تلك العواصف وفازت بالسلامة من تلك الاضطهادات لطّفت ذلك التشديد القديم مع اولادها فصارت تشركهم عند ساعة موتهم في اسرارها الالهيّة اذا طلبوها واظهروا انّهم مستعدّون لأخذها ولو انّهم كانوا استمرّوا مدّة حياتهم في حال الاثم غير تائبين عنهُ . فهي لا تيأس

من خلاصهم بل تعتني بكلّ نشاط بمساعدتهم واسعافهم ليؤدّوا هذا الامر الجليل الذي كانوا ملتزمين بتأديتهِ سابقًا وليس امرًا غير ممكن على الاطلاق انّهم يؤدّونهُ حينئذٍ جيّدًا - فكلّ من زعم على الاطلاق عن هؤلآء الخطاة الذين يؤخّرون توبتهم الى ساعة الموت انّ توبتهم كاذبة فهو يخالف تعليم الكنيسة - ولكنّني مع ذلك ارى انهُ لا بدّ لنا من ان ننظر الى هذا الامر على الوجه الادبيّ وبحسب مجرى الاحوال في غالب الاوقات فاقول: يعسر ويقلّ جدًّا ان يموت الانسان بتوبة صادقة حقيقيّة بعد ان صرف حياتهُ بلا توبة - فلا نجعل اعتمادنا على ما تتصوّرهُ خواطرنا. بل لنستخبرنّ في هذا الشأن الآبآء القدّيسين - انّ القدّيس اوغسطينس يورد لنا في ذلك اربعة قياسات عقليّة بها يمكننا ان نعلم ايّ الناس يخرجون من هذا العالم في حال النعمة وايّهم يُحسب خلاصهم من بعد موتهم تحت الريب والشكّ العظيم *

القياس الاوّل: انّ الانسان المسيحيّ اذا توفّي وهو حاصل على البرّ الذي اقتناهُ في سرّ المعموديّة فهو يخرج من هذا العالم آمنًا مطمأنًّا *

القياس الثاني: وانّ المسيحيّ اذا صان نفسهُ في مدّة حياتهِ من الكبائر وعاش عيشًا مستقيمًا خاليًا من الزلل في الغالب ونهض بالتوبة من كلّ سقطة سقط بها فهو على قول القدّيس اوغسطينس اذا اظهر في ساعة الموت علامات التقوى والعبادة المقبولة وتوفّي وقد اخذ الاسرار خليقٌ بان يُظَنّ انّ الله امدّهُ بنعمتهِ وعاملهُ برحمتهِ *

القياس الثالث: وانّ المسيحيّ اذا قضى سنين مستطيلة في حال المآثم ثمّ تاب عنها توبة نصوحًا وهو في حال الصحّة الكاملة اذ كان يمكنهُ ان يعتبر امور الخلاص جيّدًا ويتأمّلها ومكث بقيّة حياتهِ ثابتًا على هذه الحالة واظهر امارات ذلك حين موتهِ ففيهِ يقول القدّيس المذكور انّهُ يموت موتًا سالمًا *

القياس الرابع: ولكن الخاطئ الذي لا يتّجه الى الله الاّ حين شعورهِ بانّ

مرضًا شديدًا قد الم به وفي رؤيتهِ الموت قد اقترب منهُ فماذا ينبغي ان يحكم فيهِ . فيجيب القدّيس اوغسطينس قائلاً : انّي لستُ ادري ولا اعرف ماذا ينبغي ان يُحكَم في مَن هذا شأنهُ . وانّما الامر الوحيد الذي اعلمهُ هو انّ خلاص هذا الخاطئ هو في خطر جسيم - نعم انّ الكاهن قد منحهُ الحلّة وانّ الكاهن ملتزم بمنح الحلّة لمن يطلبها او لمن يظهر الندامة على خطاياهُ ببعض الاشارات . غير انّهُ ان سألتموني عن هذه الحلّة هل قبلها الله وايدّها اجبتكم انّي ارى ذلك تحت الشكّ العظيم - نعم قد جاز لي ان اسمع اعترافهُ واحرّضهُ واحثّهُ على ان يرجو الخلاص وان اتلو عليهِ صورة الحلّة . ولكنّي اجهل على الاطلاق هل انّ السرّ اصدر فيهِ مفعولهُ ام هل كانت ندامتهُ حقيقيّة صادقة - وان استفهمتموني عن هؤلآء هل انّهم يهلكون اجبتكم قائلاً : ليس لي ان احكم في ذلك . او ان اقول انّهم لعلّهم يخلصون . فانّي اجهل هذا الامر تمامًا . وحاشاي ان اقول او ان اذهب في شانهِ مذهبًا اتمسّك بهِ او ان اعد احدًا بوعدٍ تامّ في هذا الصدد . فانّي لستُ اريد ان اخدع احدًا ولا ان اخدع نفسي - هذه خلاصة ما نطق بهِ هذا القدّيس المعظّم بعد فحصهِ عن هذا الامر بكلّ التروّي وبغاية الجدّ . وبعد ذلك فلا يرى دموع اولئك الخطاة ذات اعتبار ولا اعتماد على تنهّداتهم . ولا يجد فيهم من الدلائل ما ينفي الخوف من انّهم ذهبوا هالكين . لا بل انّ عبارتهُ تشير الى انّ دموعهم باسرها باطلة وانّ توبتهم غالبًا تفضي الى الهلاك المؤبّد - وهذا الرأي كان رأي سائر اساقفة افريقية على عهد مار اوغسطينس . وها انّي اورد لكم ما ذكرهُ عنهم . وذلك انّهُ اذ كان يُحكَم بالموت على بعض المسيحيّين الاثمة كان اولئك الاساقفة يطلبون بكلّ الاجتهاد من الحكّام ان يطلقوا اولئك المحكومين . فخالج الشكّ قلب مكاريوس والي افريقية اذ رأى الاساقفة يطلبون ذلك بكلّ لجاجة فخاطبهم هكذا : انكم تظنّون انّ ولايتكم الروحيّة تقتضي منكم ان تشفعوا في هؤلآء المحكوم عليهم ويسوءكم اذا رددتُ

طلبتكم. غير أنّي لستُ ادري كيف يليق ما تطلبونهُ بديانتكم التي تثنون على قداستها. لانهُ كيف يمكن لديانة مقدّسة ان ترضى بالمآثم. اليس العدل وخير الجمهور يقتضيان معاقبة الاثمة - فحقًّا انّ ما قالهُ هذا الحاكم هو من الصواب. ولكنّ مار اوغسطينس يقول انّ عمل هؤلآء الاساقفة كان ممدوحًا من حيث قيامهم بواجبات مقامهم الروحيّ والاهتمام بخلاص النفوس لانّهم كانوا يعلمون يقينًا انّ اولئك المنكودي الحظّ اذ قد حُكِم عليهم بالموت لم يكن قد بقي لهم من الزمن لاداَء التوبة ونيل الخلاص الاّ برهة قليلة وانّهم في خطر مبين عظيم ان تنقضي حياتهم بموت رديّ بهِ يجوزون من العذاب الزمنيّ الى العذاب الجهنّميّ المخلّد - الى هنا ما قالهُ مار اوغسطينس - فلنطبّق هذا التعليم على الموضوع الذي نبحث عنهُ. فنقول: انّ المرض المميت الذي يعتري الانسان الخاطئ انمّا يعتريهِ جبرًا بغير اختيارهِ كما انّ عقاب الموت ينزل بالمجرم المحكوم بهِ عليهِ جبرًا واغتصابًا. فكلاهما مؤثمان وكلاهما يساقان الى الموت رغمًا وقهرًا. الواحد بحكم البشر والآخر بحكم الله - وقد عاش الاثنان في حال الخطأ ولم يبقَ لهما لتأدية فعل الندامة على ما فعلا واكتساب النعمة الاّ برهة وجيزة. وهما يخافان من العذاب المعدّ لهما: هذا من العذاب الزمنيّ وذلك من العذاب السرمديّ. وبالاجمال فكلّ حزنهما وتوجّعهما وتألمهما متّجه الى العذاب المعدّ لهما الذي قد استغرق افكارهما باسرها. وانّهما مع تناولهما الاسرار الالهيّة يموتان غير مطمأنّين - ولكي تحسنوا الحكم في ذلك. فاعتبروا معي انهُ اذا وُجِد امران احدهما مقترن بالآخر وشئنا ان نعلم ايّهما يحرّك قلبنا او يصدر فينا حزنًا فسبيلنا ان نميّز الواحد من الاخر وننظر الى ايهما يميل قلبنا - فبكلّ الاسف انّي ارى من هذا الاعتبار دليلاً على الخاطئ الذي لا يؤدّي التوبة الاّ في ساعة الموت. فانهُ طالما كان العذاب بعيدًا عنهُ كان يرغب في الخطيئة ويُسَرّ ويلتذّ بها. فلمّا رأى العذاب قد دنا واقترب فقد شملهُ الحزن والاكتئاب - فما سبب هذا التوجّع. هل هو الخطيئة. قد يمكن ان يكون

الامر كذلك . ولكنّ عندي دلائل كثيرة تحثّني على القول بخلاف ذلك . على انّ هذه الخطيئة التي يندم الانسان الآن عليها او يظهر انهُ يؤدّي التوبة عنها قد كانت خطيئة على حدّ السوآء فيما مضى ايضاً اذ كان ذلك الانسان يرى الموت بعذاباتهِ بعيدًا ومع هذا فكان الانسان نفسهُ يرتكبها بهدوّ ولذّة ويستمرّ لابثًا فيها من غير قلق ولا اضطراب مدّة مديدة من الشهور والسنين - فماذا الذي يخاف منهُ هذا الانسان في الساعة الاخيرة من حياتهِ : يجيب مار اوغسطينس قائلاً : انّ الذي يخاف منهُ هو النار المؤبّدة لا الخطيئة التي ارتكبها - فعلى هذا النحو كانت توبة فرعون الشقيّ . فانهُ مع مكثهِ متمرّدًا عاصياً على الله كان يتوسّل الى موسى وهارون ان يدفعا عنهُ نقمات الله - وقال مار قبريانس انّهُ لا يحسَب اهلاً لاخذ الاسرار الالهيّة ومستحقّاً لنيل الغفران من لا يطلب ذلك الاّ في مرضهِ الاخير حين دنوّ الموت من باب منزلهِ ولم يفكّر مدّة حياتهِ في موتهِ وفي وجوب الاستعداد لهُ - وقال مار امبروسيوس عن هؤلآء الخطاة : انّ خطاياهم هي التي تفارقهم في ساعة موتهم لا انّهم هم يفارقون حينئذٍ خطاياهم - ومثل ذلك قال ايضاً مار هيرونمس ومار برنردس وعليهِ لفيف الآبآء القدّيسين الشرقيّين ولاسيّما الذهبي الفم والعسجديّ النطق *

فيا ايّها الاخ العزيز انّي اناشدك بالمسيح ان تعمل الرويّة في هذا الامر المهمّ وهو انهُ اذا الجأتك الضرورة الى ان ترفع دعواك الى المحكمة افلا تستشير اوّلاً ارباب الخبرة الماهرين في الدعاوي . فاذا حكموا قاطبةً في انّ الدعوى التي تريد رفعها هي عليك افتتقدّم بعد ذلك الى المحكمة وتعرّض بنفسك الى خطر ان تخرج من المحكمة وقد خسرتَ دعواك . وهل تأبى نصيحة من يريد ان يصلح امرك . او لا تسبق وتكلّم خصمك بما يؤول الى مصالحتهِ - فيا لجزيل تعاميك ويا ما اعظم جهالتك والحالة هذه - فها انّ جميع الذين قاموا في الكنيسة من الآبآء المتلألئين في الفضيلة والملافنة البارعين الحاذقين في امر الخلاص قد

اتّفقوا قاطبةً وحكموا بفم واحد انّ من يؤخّر الاعتناء بخلاص نفسهِ الى ساعة الموت فهو يغرّر بنفسهِ ويخاطر بخلاصهِ لا محالة. وانت مع ذلك مقيم على الخطيئة مستمرّ فيها تؤخّر توبتك من يوم الى يوم كانّ ملاكًا من السماء قد عاهدك بانّك لا يصيبك ما يصيب الاكثرين الذين شأنهم كشأنك *

فلنختمنّ هذا الجزء الأوّل من خطابنا ولنقبل الى ايراد شهادة جليلة اشدّ تاثيرًا واكثر اقناعًا من التي سبقت. وذلك أنّنا نُتْبع شهادة الآباء القدّيسين بشهادتكم انتم اي نستشهدكم عمّا عاينتموهُ انتم واختبرتموهُ بالتجربة. فنسألكم قائلين: كم من المرضى الذين رأيتموهم او سمعتم عنهم انّهم في حال المرض وخطر فقد الحيوة وكانوا في اثناء ذلك يقصدون المقاصد الحميدة الخلاصيّة بل مقاصد الكمال والقداسة. ولكنّهم اذ خفّ وهان وجعهم تناقص خوفهم. ثمّ اذ اخذوا بالعافية رويدًا رويدًا حتّى عادت عليهم صحّتهم الاولى فلم يبقَ شيء من عملهم ومن توبتهم ومن مقاصدهم تلك. بل انّهم يصيرون الى ما كانوا عليهِ فيما سبق اي انّهم يعودون الى اللهو وينصبّون الى التنعّم ويعكفون على عوائدهم الرديّة القديمة - وإنّ من الناس من يعجب من هذا الامر وتأخذ الحيرة بسببهِ. امّا انا فلستُ اعجب من هذا التغيير - والاولى ان اقول: انّ هؤلاء حين حصول خطر الموت نفسهِ لم يتغيّروا بل انّهم قد وُجدوا على ما كانوا عليهِ قبلاً وعلى ما هم عليهِ الآن ايضًا. ومع كلّ مقاصدهم الحميدة وندامتهم الظاهرة لو انّ الله كان يقبضهم اليهِ بالموت لكانوا هلكوا الى الابد - فما سبب ذلك كلّهِ. هلمّوا نبحث عنهُ ونحكم فيهِ لا اعتمادًا على شواهد الآباء القدّيسين فقط. بل ايضًا استنادًا الى تأهّب نفس الخاطئ عند موتهِ - فاسألكم ايّها الاخوة المباركون: ايّ شيء هي التوبة. انّ المجمع التريدنتيّ المقدّس يعلّم قائلاً: انّ التوبة هي توجّع القلب وبغض الخطيئة - والحال انّ هذا التوجّع وهذا البغض لا بدّ لهما من خمسة شروط ليجوز القبول امام الله وليكون لهما

استحقاق . فينبغي اولاً ان يكون الحزن اي التوجّع والبغض حقيقيَّين. ثانيًا ان يكونا عامَّين. ثالثًا ان يكونا فائقَين على الطبيعة رابعًا ان يكونا ساميَين فوق كلّ حزن وبغض غيرهما. خامسًا ان يكونا فعّالَين من جهة الزمن المستقبل ومقترنَين بعزم صادق عزم الاحتراز من العود الى الخطيئة وبالاجتهاد في حفظ البرّ والنعمة - فبعد تقرير هذه المبادئ هلمّ بنا الى الرجل الخاطئ ننظر الى استعدادهِ في ساعة موتهِ كيف هو - نجد انّهُ موثوق منذ زمن مديد بوثاق الملكات الرديّة. فهو ملتزم لكي تكون ندامتهُ حقيقيّة ان يقطع الوثاقات المرتبط بها منذ حداثة سنّهِ ويكفر بما احبّهُ قبلاً باشدّ محبّة ويمقتهُ - نجد انهُ غريق في حمأة شهوات الحواسّ. معتاد في اعمالهِ باسرها على طلب ما يستلذّ بهِ الجسد واتّباع ملاهي الدنيا. فلكي تكون ندامتهُ فائقة الطبيعة لا بدّ لهُ ان يرتفع فوق ما في نفسهِ ويتجرّد عن كلّ ما وُجِد حتى الآن في مقاصدهِ واشواقهِ ممّا هو ارضيّ هيوليّ. وينبغي انّ السبب الذي يحرّكهُ الى التوبة في تلك الساعة يعلو على ما كان سابقًا محرّكًا لهُ في اعمالهِ كلّها - نجد انّهُ قد امتلكتهُ الشهوات الواحدة بعد الاخرى وساقتهُ الى جميع انواع الخطايا مرارًا متعدّدة. فلكي تكون ندامتهُ عامة ينبغي ان يغلب حال نفسهِ تمامًا اي ان يتّخذ لهُ قلبًا جديدًا وروحًا جديدة فيجلّ ما كان يحتقرهُ ويحتقر ما كان يجلّهُ ويحبّ ما كان يبغضهُ ويبغض ما كان يحبّهُ - نجد انّهُ كان راغبًا في الامور البشريّة متتبعًا لها غير مبالٍ بالامور الالهيّة. وبالنتيجة فلكي تكون ندامتهُ مطلقة تفوق كلّ حزن ينبغي ان يبطل فيهِ وينقطع اصلاً كلّ ميل وزيغان. والاحرى بي ان اقول عن هذا الانسان الذي تسلّطت عليهِ سابقًا الاميال المحرّمة انّهُ ينبغي لهُ رغمًا عنها ان يندم على خطاياهُ السالفة متوجّعًا توجّعًا يفوق لا من حيث القوّة الحسّيّة بل باختيار الارادة كلّ توجّع آخر باطن وكلّ حزن يصيب الانسان في هذه الدنيا من جرّاء محنها - نجد اخيرًا انّهُ انسان ضعيف قد كان معتادًا على السقوط في الخطيّة بغير ادنى

صعوبة وعند ورود اخفّ تجربة . فلكي تكون ندامتهُ فعّالةً ينبغي ان يتدرّع القوّة الالهيّة ويعزم عزماً ثابتاً يمكّنهُ من مقاومة هجمات جهنّم والعالم والطبيعة الفاسدة مهما كانت شديدة - فاسالكم يا مباركين هل يسوغ حينئذٍ للانسان الحاصل في مثل هذا الحال حال المرض المؤلم المكرب وقد اختلّت قواهُ الباطنة واشتدّت عليهِ اوجاع الجسد وذهبت بوعيهِ هل يسوغ لهُ ان يعتبر متأمّلاً الاسباب التي تجتذب قلبهُ الى الندامة الكاملة التي وصفنا شروطها - افلا يقتضي هذا الامر العظيم الجليل من الانسان ان يستعدّ لهُ الاستعداد الطويل . فان توهّمتم يا اخوتي انّ الانسان الخاطئ يسوغ لهُ في طرفة عين ان يتوب عمّا كان منخدعاً بهِ فانّكم لضالّون - وكيف يستطيع في هنيهة من الزمان ان يستأصل من نفسهِ ملكات قد انغرست فيها منذ اربعين سنة مثلاً . وهل يمكنهُ في لحظة عين ان يحيط فهماً بالحقائق الخلاصيّة التي لم يفكر فيها قبلاً كما يجب . وكيف يسوغ لهُ في برهة من الزمان ان يرسم في نفسهِ هذه الحقائق ويطبعها طبعاً بليغاً يؤثّر فيها ويحرّكها وينهضها ويشدّد عزائمها . فتريد منذ الآن فصاعداً ان تفضّل الله وخلاصها هي على كلّ شيء كانت تحبّهُ وترغبهُ حتّى الآن وتريد ذلك بارادة تامّة ثابتة غير قابلة ان تتزعزع - فحقّاً انّ مثل هذا التغيير لضرب من عجائب الله الباهرة المذهلة النادرة *

ثمّ انّي الآن اريد ان ابيّن لكم صعوبة هذا الامر من حيث ما يخصّكم انتم . وذلك اذا حرّضتكم على الرجوع الى الله بتوبة صادقة من غير تأخير ولا ابطاء فانّكم تستغربون كلامي وتستخفّون بي قائلين : انّ هذا الامر يقتضي لهُ حسن التفكّر والاهتمام وينبغي لقضائهِ الاجتهاد البليغ - ثمّ انّ بين الذين يسمعون كلامي هذا قوماً يظنّون انّ هذا الامر غير مستطاع لديهم . افليس ذلك كذلك . افليس هذا هو سبب تاخيركم التوبة من وقت الى آخر وربّما الى ساعة الموت نفسها - والحالة انكم حاصلون الآن على الصحّة الكاملة ولا مانع

يصدّ عقولكم عن التأمّل في امركم ولكم فسحة الزمان لقضائهِ ثمّ جميع الوسائل التي تحتاجون اليها لذلك. هذا وانّ وثاق الاثم لم يشتدّ بعد فيكم كما سيشتدّ مع تمادي الزمان - فكيف تكون حالتكم اذا دنا الموت منكم وشعرتم باوجاعهِ. حينئذٍ لا يبقى فيكم من نور العقل الاّ شعاع يسير يشبه سراجاً قد اوشك ان ينطفئ - وماذا تكون ساعتئذٍ حالكم اذا احدق بكم اهلكم واقرباؤكم ومنهم من يزيدكم حزناً باظهار حزنهِ عليكم. ومنهم من يقلقكم اذ يكلّمكم عن تدبير اشغالكم العالميّة فترتبكون وتزدادون همّاً - ماذا تكون حالكم قبل ان يقضي عليكم الموت بساعات قلائل اذ تلتزمون عند دنوّ النزع ان تعترفوا اعترافاً عامّاً - انّكم ستقضون ذلك بالعجلة لضيق الوقت وبغير فحص الضمير المدقّق بل يثقل لسانكم فتعترفون ببعض العلامات والاشارات الخارجة - ماذا تكون حالكم اذا وهنت حواسكم كلّها وتمكّنت منكم احدى ملكاتكم الرديّة واثّرت فيكم حينئذٍ اكثر ممّا في السابق. فلا تتكلّمون ولا تعملون شيئاً الاّ انقياداً لحركتها. مع انّكم ترون انّ ذلك مخالف لتأثيرات النعمة وحركتها - افهذه هي التوبة التي عليها تعتمدون وتريدون ان يكون خلاصكم متعلّقاً بها - وا اسفاه واحسرتاه. فانّهُ ان كان اعتمادكم للفوز بالخلاص متوقّفاً على هذا الرجاء فلقد يئستُ من خلاصكم - ولا تعتذروا قائلين: اننا في ذلك الحين سنجد معلّم اعتراف غيوراً ماهراً يسعفنا. فاجيب قائلاً: اي نعم. انّ راكب البحر يحتاج الى نوتيّ ماهر يدبّر السفينة اذا اشتدّت العواصف والمريض يحتاج الى طبيب حاذق في صناعة الطبّ. فكذلك المؤمن المريض مفتقر الى كاهن فاضل ذي خبرة ليعينهُ في ساعة موتهِ - ولكن يا للاسف انّهُ يحدث حينئذٍ ما قد حدث الف مرّة ويتّفق كلّ يوم اي انّ الكاهن يتكلّم والمريض لا يسمع. الكاهن يفرغ كلّ مجهودهِ وجدّهِ بايراد اقوى ما تتضمّنهُ الكتب ممّا هو جدير بان يوقظ المريض من سباتهِ وينهضهُ من رقادهِ وينبّههُ من غفلتهِ. ولكنّهُ كانّما يكلّم المريض

بلغة لا يفهمها . يصيح الكاهن في اذنَي المريض قائلاً : أطلب يا اخي من الله ان يرحمك . وقل يا ربّ ارحم اغفر . والمريض لا يجيب بلفظة كأنّهُ أصمّ وفاقد الحواسّ — وما سبب هذا السكوت . سببهُ هو انّ الانسان المدنف اذا بلغ الى هذا الضعف تبطل فيهِ القوى . ولا تستطيع النفس ان تأتي بعمل ما عدا تصوّرات خفيفة صادرة من القوّة الذاكرة والمخيّلة — والانسان حينئذٍ لا يدرك الاّ ما ادركهُ في مدّة حياتهِ . ولا يؤثّر في نفسهِ الاّ ما اثّر فيها في زمن صحّتهِ . فيا للاسف — اتريدون ان تحرّكوا وتوقظوا وتنعشوا كلّ قوى ذلك المريض . اذكروا لهُ ما كان يتصوّرهُ في خاطرهِ من اباطيل الدنيا . كلّموا مثلاً هذا الرجل الشريف عن مناصبهِ ومراتبهِ المفخّمة . فيصغي لكم . وكلّموا ذلك الغنيّ عن مدخول حقولهِ واراضيهِ فيسمع . اذكروا لهذا الرجل المحبّ اللذّات الجسديّة شيئاً عن موضوع شهواتهِ وقبائحهِ فيفهم . وحدّثوا تلك المرأة عن الاباطيل التي كانت تسعي وراءها فتجيبكم — ولكن ان فاتحتم هؤلاء قاطبةً في امر خلاص نفوسهم ومغفرة خطاياهم والندامة عليها والمخافة من احكام الله والاتّكال على رحمتهِ والحيوة الاخرى والاستعداد الواجب لاخذ الاسرار الالهيّة فآذانهم مسدودة صمّاء والسنتهم معقودة خرساء وقلوبهم مقفلة متصلّبة — ومن ثمَّ فما اجلّ النصيحة التي يبذلها لنا الآباء الروحيّون مرشدوا النفوس وما اجزلها فائدة اذ ترغّبنا في ان نستمرّ منذ حداثة سنّنا على محبّة الله والثقة بهِ وندامة القلب والانسحاق . فيسهل علينا اداء هذهِ الافعال في كلّ زمانٍ ولاسيّما في ساعة الموت — وهذه هي حالة الابرار في ساعة مماتهم . فاننا نراهم وهم مدنفون قبيل وفاتهم بهنيهة يسيرة ينتبهون بغتةً ويتدرّعون قوّة جديدة — فاوّل ما تُعرَض عليهم صورة السيّد المسيح المصلوب وحالما يسمعون عن الله جلّت اسماؤهُ كلمةً واحدة لم يبقَ للكاهن حاجة ليحثّهم او ليحرّكهم الى فعل المحبّة او غير ذلك من افعال الفضائل . فانّهم فيما مضى قد راضوا انفسهم على الفضيلة واستكملوا الاستعداد الحسن .

فالقلب الحاصل على مثل هذا الاستعداد لا يفتقر اصلاً الى من يحرّكهُ ويحرّضهُ. ثمّ انّ الخاطئ وان فاق في ساعة موتهِ على شقاوة حالهِ وبقي فيهِ من النور ما يقدر ان يفهم بهِ الحقائق الابديّة ويُدرك جسامة الخطر الموجود هو فيهِ. فلا تزداد بذلك توبتهُ طمأنينة . لانّ هذهِ الافكار لو وُجدت فيهِ سابقًا لعادت عليهِ بجزيل الفائدة ولكنّها الآن تزيدهُ اضطرابًا وقلقًا ويأسًا . لانّهُ حاصل في حال الخوف الذي قد استولى عليهِ ويتصوّر الله عزّ وجلّ ديّانًا قد حكم عليهِ . ويرى ان لا رجاء لهُ للمغفرة ولا منجى من الخلود في دركات الجحيم - فعلى هذا النمط نرى قائين الشقيّ مع علمهِ بعظمة خطيتهِ يتصوّر في كلّ زمان ومكان الديّان المرهوب امامهُ وهو اي قائين سجّل على نفسهِ قضيّة الهلاك قبل ان ينطق بها الله . فقال : ذنبي اعظم من ان يُغفَر (تكوين ٤ : ١٣) - ولندعنَّ جانبًا يا مباركين البحث عن حال الانسان الخاطئ في ساعة الموت . لانّهُ كيف ما كانت حالهُ وكيف ما كان استعدادهُ فمن المؤكّد المقرّر الثابت على الدوام انّ الزمان الملايم لاصلاح شؤون الضمير وتدبيرها ليس هو الزمان الذي فيهِ يدعونا الله لاداء الحساب عنهُ - وهل يكون الزمان المناسب لالقاء البذار هو الزمان الذي يصير فيهِ الحصاد . وهل يجدر بالرجل النوتيّ ان يبادر ويفتكر فيما تحتاج اليهِ سفينتهُ عندما تحيق بها عواصف الرياح . وعندما يكون الاعداء قد أحاطوا باحدى المدن وشرعوا بمحاصرتها أيُحسَب ذلك الوقت مناسبًا لتحصين المدينة . واذا جلس القضاة لابراز الحكم فهل تكون تلك الساعة مناسبة لايراد الحجج اثباتًا للدعوى - فكيف يكون ذلك الزمان مناسبًا للتوبة وهو الزمان الذي فيهِ اوجاع الموت تكتنفك وشدائد الجحيم تصادفك (مز ١١٤ : ٣) - لعمري انّ الانسان الحاصل في مثل هذه الحالة المخطرة يحتاج الى عون الهيّ غير اعتيادي . غير انّي اقول : انّ هذا العون يمسكهُ الله غالبًا عن الخطاة المؤخّرين توبتهم الى ساعة الموت - وهذه هي الحجّة الثالثة التي من اجلها اقول عن توبة هؤلاء

الخطاة انها تحت شكٍّ عظيم. فاحسنوا الاصغاء لاستماع الجزء الثالث والاخير من خطابنا هذا ✲

الجزء الثالث

فاقول حقًّا انهُ لا يوجد قلب انسان ولو كان صلبًا جافيًا الى الغاية لا يستطيع الله ان يحرّكهُ ويؤثّر فيهِ متى ما شآء ان يفرغ فيهِ كلّ قوّة نعمتهِ — الاّ انهُ تعالى لا يشآء في كلّ حين ان ينتصر على القلوب بنعم قويّة منتصرة — ولكي نعود الى ما نحن في صددهِ ونسوق خطابنا نقول: من الامر المؤكَّد انّ الله لا يمنح هذه النعم الفعّالة لجميع الذين يتوفّون. والاّ لوجب ان نقول عنهم قاطبةً انهم قد خلصوا. فمنهم اي من الذين يموتون من ينال هذه النعمة. ومنهم من لا ينالها — واذ كان الامر كذلك فاسألكم يا اخوتي الاحبّاء قائلاً: من هم الذين يمسك الله عنهم هذه النعم الفعّالة المنتصرة. أيمسكها عن اصدقائهِ ام عن اعدائهِ. أيمسكها عن الابرار الذين استمرّوا في خدمتهِ من عنفوان عمرهم الى حين شيخوختهم. ام عن الخطاة الذين قد تعتّقوا في الاثم. ايسدّ اذنيهِ عن صراخ الذين خدموهُ بامانة. ام يذكر الذين استمرّوا متباعدين عنهُ دائمًا — فان قلنا هذا اي الامر الثاني واثبتناهُ ينبغي ان نقول ايضًا هذا. وهو انّ السيرة السيّئة تكون استعدادًا للموت الصالح وانها اجزل فائدة واشدّ فاعليّة من السيرة المقدّسة. وبالنتيجة انّ الخطية تكون للخلاص وسيلة آمن واثبت من الافعال الصالحة — ثمّ ازيد على ذلك واقول: انّ الله ولو يمنح الخاطئ ايضًا النعم القويّة التي يتفضّل بها على النفس الامينة المواظبة منذ زمان مديد على الخير. فانّ هذه النعم التي من شأنها ان تؤثّر في قلب الصدّيق من اجل حسن عقلهِ وقلبهِ وتأهّبهِ لقبول ادنى حركة الهيّة بسهولة. فهي تذهب باطلاً سُدًى في قلب مَن

قد صار الشرّ لديهِ كشيء غريزيّ طبيعيّ - وبالنتيجة فلخلاص انسان هذه صفتهُ عند ساعة موتهِ ينبغي انّ الله يخصّهُ بنعمة افضل من النعمة المتقدّم ذكرها . وذلك بان ينتدبهُ اليهِ انتداب الابرار الصدّيقين - افترى انّ الانسان الذي بملكاتهِ الرديّة وتعمّقهِ في الخطيّة حصل على حالة يحتاج فيها الى عون وافر نادر الوجود يفيض الله عليهِ كنوزهُ بسخاء افضل ممّا يجود بهِ تبارك وتعالى على مَن بثباتهِ في اعمال الفضائل والسيرة المقدّسة قد حصل على حال يقبل فيهِ بسهولة كلّ تأثير النعم الالهيّة - فمن اجل هذا السبب اذ حضر بين يدي مار برنردس شابّ كان يؤخّر توبتهُ نصحهُ القدّيس هذه النصيحة الجزيلة الاعتبار وهو يخاطبهُ قائلاً : انّي اخاف جدًّا جدًّا من انهُ اذا لبثتَ على هذه الحالة متباطئًا من زمان الى زمان . تقرع الباب اخيرًا فيأتيك من داخل الجواب المعهود وهو انّني لا اعرفكم - فبادر واجعل أن يعرفك الله سريعًا بمعرفة الانتخاب معرفةً توصلك الى الخلاص . واحذر من انهُ يعرفك معرفةً تسوقهُ الى مجازاتك على ابطائك . ثمّ يعرفك اخيرًا معرفة تلزمهُ ان يدفعك الى العذاب - افليس الله نفسهُ قد توعّدك بذلك على لسان الحكيم قائلاً : دعوتكم فابيتم ورذلتُم مشورتي المقدّمة لكم منّي او من خدّامي (امثال ١ : ٢٤) - فلأنّكم احتقرتموني في زمان حياتكم . احتقركم انا ايضًا في زمن وفاتكم . ولانكم رذلتم شريعتي في زمان حياتكم . ارذلكم انا كذلك في مماتكم . واقسّي عليكم قلبي كما قسّيتم قلوبكم عليّ . ولا يكفي انّي لا انتدبكم حينئذٍ ولا اعينكم . بل انّي سأتباعد عنكم هاربًا . واغادركم مهملاً اياكم . واعاملكم معاملة من يهزأ بعدوّهِ حين يراهُ تحت قدميهِ ساقطًا - انّ هذا الكلام يا اخوتي قد خرج من فم الحقّ عينهِ وهو يكلّم الخطاة الذين قصدهم ان يوافقوا بين ميتة صالحة وحياة طالحة . وهم يعدون انفسهم بجرأة موبقة بأنّ النعمة الالهيّة تبذل لهم دائمًا إمدادها ولا تزال قارعة ابواب قلوبهم لتدخلها وتخلّصها - اعلموا يا ايها المومنون انّ النعمة اذ كنّا لا ننتهز فرصتها لا تنتظرهي ايضًا زماننا -

فيا ايّها الاخ العزيز ها انني اختم معك خطابي بما قد قالهُ السيّد المسيح في انجيلهِ المقدّس: انّ النور معكم زمانًا يسيرًا بعد. وعقب ذلك لن يبقى لحياتكم من النور الاّ شعاع واحد. فاستفيدوا منهُ ما دام هو معكم. فسيروا مع النور ما دام لكم النور. لئلاّ يدركم الظلام الليليّ. ذلك الذي لا يستطيع احد فيهِ عملاً (يوحنا ١٢ : ٢٥ الخ) – هل فهمتم كلامي يا مباركين بانّهُ لن يبقى لحياتكم الاّ شعاع واحد من النور – فلعلَّهُ يوجد في هذا المحفل جماعة من الخطاة الذين قد مضى من عمرهم خمسون او ستّون سنة. ولا يُعلَم كم قد بقي لهم من الحيوة. وآخرون كثيرون لم يبلغوا هذا المقدار من السنين. وهم مع ذلك قريبون من الموت كالاوّلين على حدٍّ سوى. وذلك امّا لانّهُ من الممكن ان يموتوا في ايّ وقتٍ كان. وامّا لانَّ عافيتهم قد اختلّت بفجورهم ومنكراتهم الماضية والحاضرة. واخيرًا يوجد جماعة غفيرة يتوهّمون انّ الزمان الباقي من حياتهم لمستطيل وها انّهم قد قربوا من حدودها – اجل انّ الباقي من العمر لقليل يسير جدًّا. فنصلح الزمان الماضي بالتوبة ولنصرف الزمان الباقي في عمل الفضيلة. ولا نضيّع شيئًا من هذا الزمان القصير المعرَّض للريب على كلّ حال. سيروا مع النور ما دام لكم النور – فيا ما ارهب حالكم ويا ما اشقاها اذا ما فاجأكم الموت بغتةً وغمركم بلجج ظلماتهِ قبل ان تحسنوا الاستعداد لهُ. هل يمكنكم ان تسيروا والنور غائب عنكم. هل تستطيعون عملاً حينما يمسك الله عونهُ عنكم. سيروا ما دام لكم النور لئلاّ يدركم الظلام – والحال انّ الموت لا يزال متقدّمًا الينا متقرّبًا. ولعلّهُ قد رفع يدهُ ليضربنا او قد انتصب امامنا بوجههِ المرعب والقى في قلب الخاطئ القلق واليأس وسدّ عليهِ كلّ طرائق التوبة. أجل سيأتي الليل حيث لا يستطيع احد عملاً – فأختتم كلامي معكم يا مباركين مكرّرًا عليكم هذه الحقائق المرهبة المخيفة: خافوا من حلول الموت بلا توبة حقيقيّة. فانّ ذلك هو الموت في حال غضب الله. وهو يفضي بالانسان الى الهلاك الابديّ لا

محالة - تأمّلوا ذلك وردّدوهُ في عقولكم كثيرًا . انّ حياة الخطاة هي شرّيرة حقًّا . الاّ انّ موتهم كما قال الملك والنبيّ . يكون شرًّا من حياتهم الشرّيرة . على انّ الحيوة الشرّيرة ليست هي شرًّا لا دواء لهُ . وأمّا موتهم فهو شرّ غاية ما يكون اذ لا خلاص منهُ اصلاً - ألا يا مباركين تداركوا الآن الشرّ الممكن ان يوافيكم . وأعدّوا نفوسكم للميتة الصالحة بتوبة غير متأخّرة لكي تستطيعوا بالميتة المقدّسة ان تبلغوا السعادة الابديّة آمين ☼

الموعظة الثانية والثمانون

في ميلاد سيّدنا يسوع المسيح

قال الملاك للرعاة : لا تخافوا لانّي ها انا ابشّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب . لانّهُ وُلد لكم اليوم مخلّص الذي هو المسيح الربّ في مدينة داود . وهذه علامة لكم انّكم تجدون طفلاً ملفوفًا مضجعًا في مذود (لوقا ٢ : ١٠ الخ) ☼

حين تأمّل مار برنردس هذه الآية الانجيليّة واعتبر فيها قال متعجّبًا منذهلاً : انّ هذه العلامة التي بها عُرف مخلّص العالم توجب مزيد الاستغراب . ولذلك فقد نفر منها كثيرون في العالم . فقوم ضادّوها باعتقادهم . وقوم قاوموها بسيرتهم - قلتُ اوّلاً انّ قومًا من الناس جحدوا هذا السرّ باعتقادهم . لانهُ ماعدا اليهود الذين ينتظرون مسيحًا متّصفًا بمجد عاليّ يقيم بقوّة السلاح مملكة اسرائيل يوجد ما بين المسيحيّين ايضًا قوم يشكّون في انحطاط سيّدنا يسوع المسيح الى كلّ هذا الهوان . وربمًا يتّصلون الى حدّ الكفر اذ يشكّون في الايمان بل يفقدونهُ ايضًا باطنًا زاعمين انّهُ ممّا يشين عزّة الله انّهُ يتنازل الى حال الشقاء والذلّ البشريّ . وبهذه الحجّة التي تنشئها كبرياؤهم يرذلون العلامة التي اشار اليها الملاك - وقلتُ ثانيًا انّ قومًا من المسيحيّين يقاومون هذه العلامة بسيرتهم . وهم الذين يخضعون حقًّا

للايمان ويوقنون بهذا السرّ. لكنهم حين ينبغي لهم ان يستنتجوا من هذا السرّ النتائج التي تنتج ضرورة من هذا المبدأ وهي النتائج التي تخصّ السيرة وتطبيقها على سيرة المخلص الالهيّ. يزعمون انّ تنازل ابن الله الى هذا الحدّ من التواضع لا يدلّ على انهُ تعالى يطلب منّا ان نسلك في هذه الطريق الضيّقة. وبهذه الحجّة يريد المومن الشرير ان يعدم هذا السرّ كلّ فاعليتهِ ويلاشي قوّة هذه العلامة التي بدونها ليس لنا مخلص — فلنشرع في دحض هاتين الضلالتين باثبات قضيّتين عكسها — يزعم هؤلآء الكفرة انهُ لامرٌ يتجاوز حدود المقول ان يتنازل الله الى الرقاد على مذود. أمّا انا فاقول. انّ الله اذ رام ان ياتي الى العالم ليخلّصهُ من اسر الخطيّة فقد لاق بهِ ما صنعهُ لكي يتمّ مقصودهُ الجليل العظيم — ثمّ يزعم المؤمن الضالّ انّنا من تواضع السيّد المسيح في المذود نستنتج نتائج صعبة تفوق الحدّ ونوجب واجبات شديدة لا تلايم الضعف البشريّ. امّا انا فاقول من هذا المبدا اي من تواضع السيّد المسيح في المذود كلّ نتيجة يستنتجها المؤمن وكلّ فريضة نفرضها هيهات ان تحسب انها شديدة تجاوز الحدّ الذي حدّهُ هذا المثل الالهيّ *

الجزء الاوّل

لقد ضلّ شعب اليهود بظنّهم في المسيح الذي كانوا يتشوّقون مجيئهُ انهُ كان عتيدًا ان يرفع عنهم رقّ العبوديّة ويخلّصهم من سلطة السادة والملوك الغربآء. لانّهم كانوا في حال عبوديّة اخرى اشدّ بؤسًا من العبوديّة المادّيّة وهي عبوديّة الخطيّة. وكان قصد الله ان يحرّرهم منها بواسطة تجسّد ابنهِ الازليّ. حسب قول الملاك: انهُ يخلّص شعبهُ من خطاياهم (متى ١: ٢١) — فلم يكن يكفي لاتمام هذا المقصود ان يفي ابن الله المتجسّد عن الخطيّة باهراق دمهِ الزكيّ على

جبل الجلجلة . بل كان ينبغي ايضاً ان يصوننا منها اعني من الخطيّة في المستقبل بازالة العلل التي تربّي الخطيّة فينا - وكان ينبغي ان يستأصل من قلوبنا الاهوآء الرديّة المتسلّطة عليها فيكبح فينا روح الكبريآء والبخل وحبّ حطام الدنيا واللذّات اللحميّة اذ انّها جرثومة الشرور باسرها في الانسان وبالاجمال فكان ينبغي ان يصلح قلب الانسان - وهذا المقصد الالهيّ كان يستوجب ان يصنع السيّد المسيح كلّ ما صنع . وذلك اوّلاً لانّ خباثة الانسان كانت تقتضي مثالاً منزّهًا من كلّ ملامةٍ . ومثالاً يفحم كلّ الالسنة - وثانيًا . لانّ عظمة الدآء البالغة كانت تقتضي دوآء قويًّا في الغاية - من الامر الغريب العجيب انّ الانسان لا يذعن للحقائق الجليلة الجليّة اذا لم يشفعها مثال يثبّتها او يؤيّدها . ومن ثمّ تجد الانسان اذا اطّلع على شرائع السياسة المدنيّة . ورسوم السيرة المستكملة يقرّ معترفًا بحكمتها ودقّتها ويمدح محاسن سموّ كمالها . لكنّهُ يريد المثال في واضع الشريعة ومعلّم السيرة ليعمل بها ويقفو آثارها . على ان اشتراع الشريعة المتقنة ووضع رسوم السيرة المقدّسة امر هيّن سهل . وكذلك الحثّ على احتقار الغنى ورذل الفخفخة اذا عُرِضت علينا شناعة الكبريآء والبخل . الاّ انّ هذا ليس بكافٍ بل لا بدّ من المثال . وذلك بانّ واضعي الشرائع والرسوم ينبغي لهم ان يحفظوها قبل كلّ احد - فهذا هو التدبير الذي اختار الله بتنازل مذهل مدهش ان يتمسّك بهِ لكي يصلح قلب الانسان - على انهُ جلّت حكمتهُ لمّا رأى انّ الشريعة الطبيعيّة والحكمة البشريّة قد عجزتا عن شفاء جرح الخطيّة . اخّر زمانًا مديدًا سرّ التجسّد الالهيّ لهذا الغرض فقط كما زعم الاباء القدّيسون . وهو ان يستطيع الانسان بتمادي هذهِ المدّة المستطيلة ان يتأكّد شدّة احتياجهِ الى الهٍ مخلّص - فاقبل اخيرًا هذا المخلّص لكي يتمّ مقصودهُ الالهيّ ويبلغ مامولهُ . واتّخذ وسائل تخالف كلّ حكمة بشريّة وتضادّها . لانّهُ شرع اوّلاً ان يصنع . ثمّ عقب ذلك علّم - واذ كان ينبغي لهُ تعالى أن يستأصل من قلب الانسان

الكبرياء والبخل وحبّ حطام الدنيا واللذّات اللحمية. فلم يُقبل اولاً على البشر يبكتهم على هذهِ الشرور. لانّ الانبياء والعلماء كانوا قد سبقوا الى مثل ذلك. وكان قد ثبت بالتجربة المستطيلة انّ اجلّ التعاليم واكملها لا تفي بذلك اذا لم تكن مقترنة بالمثال - اي نعم يا مباركين انّ اقوى الادوية وافضلها تاثيرًا وفعلاً لمعالجة داء الخطيّة هو مثال ربّنا وهو لا يحتمل ادنى اعتذار لانهُ مثال مؤسّس على القدرة والحكمة. وهما تبيّنان لنا كلّ قوّة هذا المثل *

قلتُ اوّلاً انّ هذا المثال الالهيّ مؤسّس على القدرة - على انهُ اذا اخذ انسان فقير خامل الاصل ليس في قدرتهِ ان يختار الحال التي يهواها ان يطعن في العظمة الدنيويّة والفخر العالميّ. نرى غالبًا انّ روح الانتقام او الحسد يسوقانهِ الى ذلك. فكأنهُ يريد الارتفاع على العظماء. او لعلّهُ يتفوّه بمثل ذلك الكلام لغمّهِ وكربهِ على انهُ لم يفز من الدنيا وحطامها بما قد طلبهُ منها باطلاً - غير انّ ربّ العالمين ملك السماء والارض الذي منهُ كلّ العظماء يستمدّون شرفهم وقدرتهم الذي لهُ ان يختار ويخصّص لنفسهِ افخر حال من الغبطة العالميّة واسماها واهناها حين ظهورهِ على الارض نراهُ متعرّيًا من عظمتهِ وقد اختار لنفسهِ ان يولد فقيرًا حقيرًا وفي اثناء ذلك نسمع الملائكة يسبّحونهُ ويعظّمونهُ بتراتيلهم ونعاين نجمةً جديدة ظهرت لتخبر بمولدهِ الشعوب الشاسعين - افليس من الامر المؤكّد الواضح انهُ قد اختار هذه الحال بارادتهِ *

ثانيًا قلتُ عن هذا المثال الالهيّ انهُ مؤسّس لا على القدرة فقط بل على الحكمة ايضًا - لانهُ لا يمكن ان يقال عنهُ ما يقال عن بعض الذين يزدرون العظمة العالميّة. وهو انهم اناس كثيفوا العقول وعديموا الخبرة. لا يميّزون الامور - ففي مثال الاله المتجسّد نرى الهًا عارفًا ان يميّز الخير من الشرّ وديّانًا عادلاً في قضائهِ وحكمهُ يفوق كلّ حكم - فحقًّا لا شيء غير مثالك الالهيّ يا سيّدي خليق بان يلزم العالم ليعلن عن نفسهِ انهُ ضالّ في حكمهِ واعتبارهِ

الفخر والثروة الارضيّة - قال القديس برنردس مبرهنًا هكذا : إمّا انّ العالم ضالّ. وامّا انّ المسيح مضِلّ - أمّا السيّد المسيح فهو الحكمة بالذات . ومن المحال ان ينغشّ او يَغُشّ. فماذا ينتج . ينتج هذا وهو انّ العالم ضالّ ومغشوش - وان سألتم قائلين : أليس انّ الله كان يستطيع ان يختار لنفسهِ حالاً اقلّ شقآء من التي اختارها . افما كان يكفيهِ ان يرذل العظمة ويختار لنفسهِ حال الاعتدال . ليعلّمنا ان نكتفي نحن كذلك بحال الاعتدال . فعلامَ اختار حال الشقآء البليغ - فاجيبكم بما من شانهِ ان يمنع عقولكم . فاعلموا يا مباركين انّ عظم المرض الذي كنّا معترين بهِ كان يقتضي مثل هذا الدوآء - قلتُ عظم مرضنا . اعني شهوات الانسان الجامحة التي كانت قد افسدت كلّ احوال هذا العالم - قال الانبا بيدا . انّ السيّد المسيح لم ياتِ الى العالم لكي يغيّر هيئتهُ وترتيبهُ . بل انّما اتى لكي يغير النفوس . لم يأتِ تعالى لكي يغيّر تدابير العناية الالهيّة . بل اتى لكي يُصلح القلوب ويردّ كلّ شيء الى حال النظام *

فالسيّد المسيح يواضع العظمآء برذلهِ العظمة التي اظهر بمثالهِ الالهي بطلانها وخطرها . وايّ واحد من ذوي الثروة والسطوة لا يحقّ لهُ ان يرتعب ويخشى اذا تفرّس بعين الايمان في حالتهِ هو وقابلها مع حال ابن الله الذي تواضع ولاشى نفسهُ - غير انّهُ جلّ شأنهُ يعلّم ايضًا الصغار والمساكين وجوب ادآء الاكرام والخضوع للعظمآء فانّهُ جلّت عزّتهُ اخضع نفسهُ للملوك قبل مولدهِ . وذلك في اصعب فصول السنة . لانهُ اتّباعًا لامر اغسطس قيصر احبّ ان يولد في بيت لحم . وبهذا رذل روح التمرّد وعدم الطاعة في المرؤوسين - ثمّ انّهُ تعالى يواضع الاغنيآء وذلك بارسالهِ ملاكًا يخبر بميلادهِ لا الاغنيآء . بل الرعاة الفقرآء - وينشّط ايضًا المساكين على التعب بارسالهِ ملاكهُ الى رعاة حارسين ساهرين . لا الى الفقرآء البطّالين - وبمثالهِ اعني بهِ بولادهِ وهو طفل لا يجد من يرضى ان يأويهُ في منزلهِ ويسعفهُ في احتياجهِ فالجأتهُ الضرورة ان يبيت في مذود ويرقد

على تبن وليس لهُ ما يقيهِ من البرد. فبمثالهِ هذا يعلّم المساكين ان يحتملوا العسر بالصبر بلا تذمّر ومن غير ضجر - ويواضع ايضًا معلّمي الشريعة العارفين بمكان مولدهِ. لانهُ جلّت احكامهُ لم يشركهم في معرفة هذا السرّ الالهيّ. وكذلك رذل العلم الذي ينفخ القلب ويميل بهِ الى التمرّد - وعزى الصغار والساذجين بكشفهِ لهم الاسرار السامية التي يكتمها عن العلماء. وبذلك يشير الى انَّ سذاجة المؤمن هي افضل من علم الفلسفة المملوّ نخخة - وقد ارعب السيّد المسيح كذلك بمثالهِ هذا سعداء هذا الدهر. وبذل للمساكين دواءً مناسبًا لحالتهم. فانّ الحاصلين بتدبير العناية الالهيّة او بظلم الناس على حال الشقاء لهم ما يتعزّون بهِ اذ يشاهدون ابن الله قد اختار لنفسهِ شقاءً اعظم من شقائهم - هذا ما كان ينبغي ان يفعلهُ السيّد المسيح الذي اتى لا لكي يغيّر حالة كلٍّ من طبقات الناس بل انّما اتى ليصلحها - فلم يصنع تبارك وتعالى في ما صنعهُ شيئًا غير ضروريّ لبلوغ هذا الغرض. بل لو جاز لقلتُ انهُ لم يصنع ما يكفي لهذا المقصود. اذ اننا نرى الناس بعد ان صنع كلّ ما صنع يرغبون بحرصٍ وهيام ان يصيروا اغنياء عظماء ويترفّهوا ويتنعّموا على وجه الارض - ولستُ اعني بكلامي هذا الامم الذين لا يعرفون الربّ يسوع. ولا المؤمن المنافق الذي يستخفّ باسرار ايماننا. بل اياكم اخاطب يا ايّها المسيحيّون الذين قد اقبلتم الى المذود لتسجدوا مع الرعاة لله تعالى - افلعلّهُ سبحانهُ ادّى ما لم يكن ضروريًّا لبلوغ مرامهِ. وهو ان يشفي كبرياء الانسان ويخمد في قلبهِ محبّة الغنى والتنعّم التي لا تقنع ابدًا - اجيبوني عن ذلك انتم يا ارباب البيوت الذين ترون كلّ يوم عائلات المومنين في قلقٍ واضطراب من جرّاء الحسد والبغضة والخصام التي تتولّد من محبّة المال - اجيبوني انتم يا رعاة شعب الله وقضاتهُ يا ايها الذين ترون من يفتخر بانهُ من تلاميذ الآله الذي قد اختار لنفسهِ الفقر والذلّ ثائرًا بثورة البغضاء ساعيًا في ثلم الصيت وعاملاً على خراب ديار القريب وقد اتّخذ الكذب

والحلفان بالباطل وسائر صنوف الحيل الخبيثة لا ليهرب فقط من الفقر الذي قد سجد لهُ بسجودهِ للربّ الالهِ . بل لئلاّ يفقد خيرًا هو غير محتاج اليهِ - وكيف كان الامر يكون لو ظهر ابن الله على الارض في حال المجد العالميّ وحال الغنى وحال ملك جالس على منبر الابهّة والعظمة - فلو اختار ابن الله لنفسهِ مثل هذه الحال لازدادت بمثلهِ اهوآء الانسان طموحًا . وما الذي كان يصير من امرنا نحن لو امكننا ان نقول : انّ الالهَ الذي نعبدهُ كان معظّمًا على الارض . غنيًّا مقتدرًا ذا سلطة وسطوة عالميّة . افما كنّا نقول انّهُ يحقّ لنا ان نقتدي بمثلهِ وهو لدينا بمثابة الشريعة . اوما كنّا نجد في الهنا ما يربّي فينا الشهوات الرديّة - فاعترف يا ايّها الانسان يقول القدّيس لأون المعظّم واقرّ بجراحاتك المثخنة التي الزمت الله ان يتكلّف كلّ هذا التكلّف . فلو لم يتواضع ابن الله هكذا ويلاشي نفسهُ لاصلاح شرورنا لكان قلب الأنسان يفسد - ومع هذا كلّهِ فلم يصلح الدآء بمثل هذا الدوآء - قال القدّيس برنردس في ما نحن الآن في صددهِ : انّني لم اكن عالمًا بعظم شرّي وشقائي . غير انّني لمّا تأمّلتُ سرّ التجسّد الالهيّ أفقتُ على سوء حالي وبمشاهدتي عظمة الدوآء عرفتُ جيّدًا عظم خطر مرضي - فالويل لي ان شككّتُ في ما قد اقتبلهُ ابن الله من انواع الذلّ لمداواة تكبّري - لقد عاملني حقًّا جلّ شانهُ بغزير لطفهِ وجودهِ الواسع اذ ارتضى ان يتواضع لاجلي . وقد كان شرّ قلبي يقتضي ذلك . فان كان عقلي الضعيف يستغرب تجسّد الله واضطجاع عزّتهِ في مذود . فيجب ان انسب ذلك الى تفاقم شرّي - قال القدّيس هيرونمس عند تأمّلهِ هذا السرّ الاقدس : يجب ان يكون ابن الله لديَّ عزيزًا ومحبوبًا بقدر ما قد تواضع من أجلي - وقال ترتليانس : ان كنتُ لا اخجل من ذلّ ربّي . فلقد ظفرتُ بالخلاص . وان تقدّمتُ الى مذودهِ بسذاجة الرعاة وسجدتُ للالهَ الذي صار طفلاً فلقد خلصتُ . وان كنتُ بعد السجود لعزّتهِ افرغ جهدي في الاقتدآء بهِ فانا خالص .

وهذه هي النتيجة التي ينبغي ان نستنتجها من سرّ التجسّد الالهيّ . وهذا ما نبحث عنهُ في الجزء الثاني من موعظتنا *

الجزء الثاني

لقد طالما تشكّى العالم من شدّة تعليم الانجيل المقدّس وهو لا يدري ولا يدرك انّ السيّد المسيح الذي اسَّس ايماننا قد اختار لنفسهِ حالاً يسوّغ لهُ ان يقتضي منّا كلّ ما يشآء – انّي اقرّ معترفاً انّ ابن الله لو شآء ان يختار لنفسهِ حال العظمة ويقتضي منّا مع ذلك ألّا نترك قلوبنا تصبو الى محبّة الارضيّات . لكان يسوغ لهُ ان يطلب منّا ذلك بقوّة سلطان ربوبيّتهِ المطلق على خلائقهِ باسرها . ولكنّ الطبع البشريّ كان يستصعب هذا الامر الشديد ويستثقلهُ – فالآن بعد ان اعطانا بنفسهِ مثالاً في ما يطلبهُ منّا فلا حجّة لنا للاعتذار وللتشكّي ممّا يطلبهُ منّا الانجيل المقدّس مهما كان عسرًا مستصعبًا – ولعمري بايّ عذرٍ يعتذر الانسان الى الله الذي من اجل خلاصهِ اي خلاص الانسان قد ادّى اكثر جدًّا ممّا يطلب تعالى اداءهُ من الانسان نفسهِ ليخلص – هذا ما استنتجهُ الرسول من هذا سرّ تجسّد ابن الله الاقدس بقولهِ . انّ مخلّصنا قد اظهر تودّدهُ وحنوّهُ وعلّمنا جميعنا ان نكفر بالنفاق والشهوات العالميّة ونعيش في هذا العالم بالعفاف والعدل والبرّ (طيطس ٢ : ١١ و ١٢) – فكأنّ الرسول يقول : انّ السيّد المسيح قد اظهر جزيل جودهِ وكرمهِ اذ تنازل الى ان يعلّمنا هو بنفسهِ وبمثلهِ – وعلى ايّ شيء يتوقّف هذا السرّ الالهيّ . انّهُ متوقّف على ثلاثة اشيآء . وهي انّ مثلهُ الالهيّ يقتضي منّا جميعنا ان نكفر بكلّ نفاق وبكلّ الشهوات العالميّة . فنعيش بالعفاف والعدل والبرّ . هذه هي العلامات الثلاث التي بها يسوغ لنا ان نعلم هل بلغنا ثلاث درجات الكمال الذي يقتضيهِ منّا الانجيل

المقدّس. والفرائض الثلاث التي لا يجوز لنا ان نقصّر فيها بعد حدوث التجسّد الالهي *

فيجب اولاً ان نعيش بالعفاف. والعفاف هو الذي يصون الانسان من جهة نفسهِ. وذلك انهُ ايَّة كانت حالة الفقر ام الغنى لا يحلّ لهُ ان يدع قلبهُ يهوى رغد العيش ويحبّهُ *

ثانياً يجب عليهِ ان يعيش بالعدل. وهذا ما يصون الانسان من جهة القريب ويلزمهُ ألاّ يضرّ احداً لغاية المحافظة على الخيرات الزمنيَّة واستكثارها *

ثالثاً يجب عليهِ ان يعيش بالتقوى. وهذا ما يصون الانسان من جهة الله. فلا ينصدّ الانسان من اجل المهامّ الدنيويّة عن الله. بل انمّا يجب عليهِ ان يستفيد ممَّا في العالم للقيام بخدمة الله وعمل خلاص نفسهِ *

فانظروا الآن كيف انّ يسوع المولود والموضوع في المذود لهُ حقّ ان يطلب هذهِ الامور الثلاثة من كلّ من يؤمن بهِ ويخضع لهُ — قال الرسول: لنعش بالعفاف اي بالقناعة. فيجب عليكم يا أيها المؤمنون ان تضبطوا رغبتكم الزائدة في طلب الخيرات الارضيّة من ان تتعدّى حدود الاعتدال — انّ سفر قصص الرسل قد عرّفكم في هذا الشأن شدّة الكنيسة وعادة المسيحيّين في الدهور الاوائل. كان كلٌّ من المسيحيّين يرذل امواله لا بالروح فقط. بل بالفعل كذلك وياتي بها ويضعها عند ارجل الرسل — وقد تداول هذا المذهب بين المومنين زماناً مستطيلاً. وهو انّ اغنياء العالم وعظماءهُ لا يستطيعون الخلاص ان لم يعتزلوا الغنى والعظمة. كأنَّ حالتهم ينفيها الانجيل المقدّس كما زعم ترتليانس — ولكنّ الكنيسة التي يهديها روح القدس قدّمت لاولادها وسيلة بها تخفّ شدّة هذا رذل الاموال ولو انّ هذه الوسيلة ليست في الحقيقة اقلّ صعوبة من الاولى. كما تؤيّد ذلك التجربة — وما هي هذه الوسيلة التي تقدّمها الكنيسة للاغنياء والعظماء. انّها قائمة في صيانة القلب من محبّة الغنى. فيجب على الانسان

في حال الغنى ان يكون مسكينًا فقيرًا بالروح وان يعتدّ حظّ الذين اختاروا الفقر حظًّا سعيدًا . فلا يجعل سعادتهُ في الاقبال والنجاح العالي . ولا يحسد حال اهل العالم الذين يصرفون ايامهم في اللهو والتنعّم . ولا يحتقر المساكين الخالين من خيرات هذا الدهر . ولا يدع نفسهُ تشتهي هذه الخيرات العابرة وتُعنى باحرازها . ولا يتباهى اذا ملكها او يضطرب اذا اوشك ان يفقدها . ولا يحزن حزنًا شديدًا اذا خسرها — فهذا فحوى كلام الرسول اذ يريد منَّا ان نعيش في هذا العالم بالعفاف والقناعة وان نحتسب انفسنا غرباء في العالم ونتصرّف بما فيهِ كأنّنا لا نتمتّع بهِ — انّ السيّد المسيح المولود لهُ الحقّ ان يطلب منّا ذلك كلّهُ . افيمكنكم يا ايّها المؤمنون ان تأبوا ان تتجرّدوا بالروح من الارضيات وانتم تعلمون انّ الذي يطلب منّا ذلك هو الهنا . وترونهُ متعرّيًا لا بالروح فقط بل بالفعل ايضًا من كلّ خيرات الارض . وحاصلاً في الضرورة القصوى وهو مُهمَل لا يلتفت اليهِ احد . وليس لهُ سرير يضطجع عليهِ الاّ المذود — تأمّلوا انّ الذي يطلب هذا منكم هو الهٌ لم يحبّ ان يظهر في العالم محفوفًا بالمجد العاليّ . بل احبّ ان يظهر راقدًا على التبن — تأمّلوا انّهُ ممّا يخالف اللياقة والصواب جدًّا جدًّا ان يرغب في العظمة والثروة من كان معبودهُ الهٌ قد اخلى نفسهُ وان يجعل هناءَهُ وراحتهُ في ما رذلهُ تعالى وان يطلب الفخر وهو يعبد ربًّا يولد في احقر حال — انّ المسيح الربّ يأذن لكم ان تتمتّعوا بخيراتكم ولا يطلب منكم الاّ هذا الامر وهو ان يكون تعلّق قلوبكم بها داخل الحدود . اي يريد ان تعيشوا في هذه الدنيا بعفافٍ وقناعة — فلو انّهُ تعالى كان يبيح لكم ان تحبّوا الغنى والجاه . لكان ينبغي لكم ان تجلببوا باثواب الخجل والخزي اذا وجدتم نفوسكم اكثر غنى واوفر مجدًا من الهكم . وكان ينبغي ان يصير لديكم مثال ابن الله هذه الخيرات الدنيوية مبغوضة — اي نعم يا مباركين لو كان الانسان المسيحي صادقًا في ايمانهِ لما كان ينفر في العالم الاّ من حال السعة والتنعّم والفخر

الدنيويّ - لا جرمَ سيقوم عليكم اهل نينوى والكفرة الذين بحسب مذهبهم يحتسبون حالة الفقر حالة العار وحالة الغنى يعدّونها نعمةً من السماء - نعم انّهم سينهضون علينا نحن الحاصلين بنور الايمان على معرفة الحقّ. ويبكّتوننا في يوم الدين قائلين عنّا للسيّد المسيح: انظر الى سيرة تلاميذك كيف كانت. فما الفرق بينهم وبيننا. هل كانوا اقلّ بخلاً وتكبّرًا منّا ام اقلّ رغبة للغنى والمجد العالميّ. هل استعملوا لبلوغ مآربهم وسائل اقلّ مكرًا وظلمًا ممّا استعملنا. فبأيّ شيء يتبيّن أنّهم مسيحيّون الاّ من حيث عرفوا الانجيل ولم يتدرّبوا بحسبهِ. بل اهانوهُ بسيرتهم الرديّة وجعلونا ان نشكّ في حقيقة ديانتهم - هذا ما سيقولونهُ ضدّنا في يوم الدينونة. امّا نحن فماذا نقول لتبرير نفوسنا *

ثمّ انّ الرسول بعد قولهِ: لنعش في هذا الدهر بالعفاف والقناعة يقول: لنعش بالعدل. فهذا ما يريد الرسول ان نتعلّمهُ من يسوع المولود والموضوع في المذود. فالعدل هو الذي يضبطنا ويصوننا في تعلّقنا بخيرات الارض نظرًا الى القريب. فلا يدعنا ان نضرّهُ اذ نجدّ في اكتسابها او نحافظ عليها. ويجعلنا ان نتلقّى بالصبر ما يفعلهُ الناس بنا خلافًا للحقّ - هذا ما يطلبهُ السيّد المسيح منّا من كرسيّ مذودهِ وهذا ما يقتضيهِ منّا مثالهُ الالهيّ - قال التلميذ الحبيب عن مخلّصنا انهُ جآء الى خاصّتهِ وخاصّتهُ لم تقبلهُ (يوحنا ١ : ١١). فهذا الربّ المتعالي ربّ السمآء والارض لم يقبلهُ الشعب الذي كان الله قد افرزهُ من بقيّة الشعوب. ومن اجلهِ صنع الآيات والمعجزات المدهشة الباهرة. واختار في ديارهم محلاً ليولَد فيهِ. وقبل ظهورهِ بدهور وسنين كثيرة ارسل انبيآء اخبروهم بمجيئهِ - فاذ كان يحقّ ان ينتظر قدومهُ العالم باسرهِ ويحسن الاستعداد لقبولهِ. فها انّ شعبهُ المختار يتغاضى عنهُ وينظر اليهِ كما الى غريب. فما من احد يقبلهُ في منزلهِ. بل هو وحدهُ يُطرَد من هناك. وهو وحدهُ ربّ الاماكن كلّها - افليس انّكم جميعكم يا مباركين تؤمنون بهذه كلّها. فكيف تستغربون بعد ان عاينتم هذا

المثال الالهي ما يريدهُ منكم الانجيل المقدّس - اي نعم انكم تحتملون بالصبر ما يفعلهُ بكم الناس ظلمًا وخلافًا للعدل - اتعلمون من هو الآله الذي تتذمّرون امامهُ من معاملة الناس. قال ترتليانس عن السيّد المسيح. انهُ بمثلهِ الالهيّ قد حلّ عقد كلّ المشاكل. وسدّ افواه كلّ من يتشكّى من ظلم الناس وشرّهم - فهلمّوا وقولوا ما شئتم على من يضطهدكم او يضرّكم. صوّروا باشنع الالوان وصفوا بكلّ ما يمكنكم من الفصاحة والمبالغة خبث اعدائكم وجورهم وقساوة قلوبهم. انّي اسلّم لكم اليوم كلّ شيء. واعترف انّ الناس هم كما ذكرتم اي انهم لا يقدّرونكم حقّ القدر وقد فضّلوا عليكم ظلمًا من لا يقابلكم في شرف الاصل وجليل الاخلاق وسابغ الفطنة وانّ المناصب التي عُزلتم منها لا يستطيع ان يتولّاها احد مثلكم. فهذا وما يشاكلهُ اسلّم بهِ لكم. ولو انّ لي ما اقولهُ في الردّ عليكم اذ انّ الغرض يعميكم. وان حكم الانسان في دعوى نفسهِ لا يكون حكمًا صوابًا عادلاً. فاضرب عن تفنيد شيءٍ ممّا قلتموهُ واسلّم لكم انّ ما اصابكم يخالف كلّ عدل وصواب. وانّكم محقّون في دعواكم بقضاء محاكم العالم باسرها - ولكنّي اسالكم هل في محكمة سيّدنا يسوع المسيح يُحكَم بمثل هذا الحكم. وماذا تشهدون وتتعلّمون في مثالهِ الالهي. هل كان يعوزهُ تعالى شيء مّا برفعهُ فوق الجميع - فان كان قصدكم اخذ ثار فمهلاً. فانهُ تعالى هو الذي ياخذ الثار حقًّا. انّ مثال يسوع يحلّ عقد كلّ المشاكل. وان زعمتم مثل بعض الجهلة انّ من اصعب الامور التي لا تطاق ان يهمل الرجل اقرباؤهُ وينهض عليهِ خاصّتهُ. فلو كان من يخاصمنا ويجتهد في خراب بيوتنا غريبًا عنّا لسكتنا واحتملناهُ. ولكن ان يضطهد الاخ اخاهُ ويقوم العبد او الخادم على سيّدهِ ومولاهُ ويعمل على ضررهِ بعد ان عاملهُ بمحبّة ورحمة. فمن ذا يحتمل ذلك - انّي اسلّم ايضًا هذا واقرّ بانّ الامر صعب جدًّا جدًّا. ولستُ اسأَل هل اعطيتَ يا هذا سببًا لمثل هذه المعاملة بقلّة تدبيرك وعدم فطنتك او فظاظة اخلاقك. ولكنّي بدلاً من ذلك اطلب منك هذا فقط وهو ان تشخص بنظرك الى

سيّدنا يسوع المسيح المولود من اجلك . فان وُجِدت مثلهُ سبحانهُ ملقًى على التبن . فاشكُ عند ذلك ألمك من جرّاء شقاء حالك . مع انهُ جلّ شانهُ في حالتهِ تلك لا يشكو من احدٍ – وهل يليق بك اذ ترى يسوع الموضوع على التبن في المذود صابرًا وتتأمل ركون قلبهِ وهدوّ نفسهِ في هذه الحال ام هل يجوز لك ان تحتدّ بفظاظة واحتدام لا من اجل حصولك في الضرورة القصوى . فانك لم تصر الى هذه الحالة . بل تفعل ذلك لانّ الناس فضّلوا عليك غيرك او من اجل كلمة فهمتها على غير حقّها . او من جرّاء عبوسة لحظتها في وجه صاحبك . او من اجل تقصير شيءٍ مّا كان يجب ان يؤدّى لك . او لانهُ ما افتقدوك في اليوم الفلانيّ او لانّهم انكروا عليك شيئًا طفيفًا طلبتهُ منهم . افمن جرّاء ذلك كلّهِ يحمى قلبك بالغيظ والغضب . ولستَ تكتفي بان لا تحتمل ذلك كلّهُ بالصبر بل تريد ان تنتقم فعلاً وتتذمّر على قريبك بمرارة وتسوّد شأنهُ بالثلب والتهمة وتجعلهُ اضحوكة . انّك لا عذر لك لتعتذر بهِ في هذا كلّهِ امام الله – فلا تزعمنّ بعد ذلك انهُ يعسر جدًّا على الانسان ان يضبط نفسهُ في مثل هذه الاحوال . كلّا . بل بخلاف ذلك قل : انّ من يومن بيسوع الذي قد أُهين ويسجد لربّ والهٍ قد وُلد في مذود واهملتهُ خاصّتهُ وهو مع ذلك لا يشكو من احد . فهيهات ان يربّي في قلبهِ روح الكبرياء او ان يتباهى بالكرامات العالميّة ان كان ايمانهُ بتلك الحقائق ايمانًا صادقًا – فوا اسفًا على العالم اذ يجهل هذا التعليم الانجيليّ . ويا حسرة على المسيحيّين الذين لا يلتمسون العزاء في شدائدهم بتأمّل حقائق الايمان – انّني اعلم انّ كثيرين يستلذّون بصورة السيّد المسيح ان تنصَب امامهم لكي يتعزّوا بها . غير انّي اعلم كذلك جزيل الفائدة التي يجنيها المؤمنون من الاصغاء لهذه الحقائق السامية – قد رأيتُ ضعفاء في الفضيلة نظيركم . فلمّا التفتوا الى السيّد المسيح وشكوا اليهِ من ضيم الناس ورداءتهم نسبوا الى انفسهم هم كلّ حدّة قلوبهم وخجلوا من سورة غضبهم واقبلوا على انفسهم يلومونها على قلّة

الصبر واعترفوا انّ مثال الاهنا المولود في مذود يقتضي من كلّ مؤمن ان يتدرّع بالصبر في حال الشدّة - ثالثًا يقول الرسول انّ سرّ تجسّد ابن الله وميلادهِ يلزمنا ان نعيش بالتقوى. وهذه الفضيلة ترشد الانسان وتنظم سيرتهُ نظرًا الى الله - فلا يحلّ ان تصيّر خيرات الارض الرجل المؤمن متغاضيًا عن واجبات ديانتهِ مقصّرًا فيها او ان تجعلهُ يتصرّف بعطايا الله تصرّفًا يخالف بهِ شريعتهُ المقدّسة بل انّما يجب عليهِ ان يوجّه كلّ شيءٍ الى مجد من قد نال منهُ كلّ شيء - فهذا هو الامر الثالث الذي علّمنا ايّاهُ ابن الله من منبر مذودهِ. لانّهُ نزع عن نفسهِ كلّ مجدهِ وعزّتهِ لكي يكرّم بذلك اباهُ ويمجّدهُ. ورام ان ينادي الملائكة عنهُ. انّهُ احبّ ان يتواضع واخلى نفسهُ من اجل هذ االغرض بقولهم: المجد لله في العلا - فاتّخذوا لكم يا مباركين من ذلك تعليمًا مفيدًا لانفسكم. واعلموا انّ الله لا يريد منكم ان تزايلوا اموالكم. اذ انّهُ تعالى لا يدعو الجميع الى هذا الكمال. بل انّما يريد منكم هذا فقط. وهو ان تحسنوا التصرّف بها ولا تستعملوها في ما يربّي الشهوات التي تميل بالانسان الى الفخر والتنعّم العالمي والشراهة والملاهي - يريد ان يعلم المساكين انّكم اغنياء. وان تصرفوا هذه الخيرات في ما يؤول لمجد الله - الاّ انّ الامر في الدنيا يجري بخلاف ذلك. لاننّا نرى من يستخدم الفضيلة لاجل الارباح الزمنيّة كما قال الرسول - فتعلّموا الآن يا مباركين ما يجب عليكم فعلهُ. طوباكم اذا احبّ الله ان يقبل خيراتكم وانعابكم. طوباكم ان كنتم اكرمتموهُ تعالى من مالكم كما قال الحكيم (امثال ٣: ٩) اسأل الله انّكم تنصرفون من ههنا وقد اذعنتم لهذه الحقائق الخلاصيّة. وان تعودوا الى منازلكم من المذود مع الرعاة ممجّدين اسمهُ القدوس على ما اقتبستموهُ من مثالهِ في هذا السرّ الالهيّ - ليجعلكم الله ان تؤدّوا بالعمل ما قد تعلّمتموهُ من هذا المعلّم السماويّ فتسيروا معهُ في طريق صبرهِ وتواضعهِ واهاناتهِ لكي تستحقّوا بهذا ان تشاهدوهُ في مجدهِ الى ابد الدهور آمين *

فهرست المجلّد الثاني

وجه

الموعظة الثانية والاربعون في بيان عظمة الخطيّة المميتة من سقطة آدم وعقابها ٥
الموعظة الثالثة والاربعون في انّ الدينونة العامّة تظهر لنا عظم الخطيّة ١٥
الموعظة الرابعة والاربعون في انّ عذاب جهنّم يظهر لنا عظمة الخطيّة المميتة ٢٦
الموعظة الخامسة والاربعون في الفردوس السماويّ وفي بيان شرّ الخطيّة المميتة اذ تخسّرنا هذا النعيم الابديّ ٣٤
الموعظة السادسة والاربعون في انّ عذاب المطهر يرينا عظم الخطيّة ٤٤
الموعظة السابعة والاربعون في شرّ الخطيّة العرضيّة ٥٥
الموعظة الثامنة والاربعون في حماقة من يؤخّر توبتهُ الى ساعة الموت ٦٥
الموعظة التاسعة والاربعون في ضرورة الصلوة ومنفعتها ٨١
الموعظة الخمسون في الشروط الواجب اقترانها بالصلوة لكي تكون فاعلة نافعة ٩٢
الموعظة الحادية والخمسون في الاحتشام الواجب في الكنائس ٩٩
الموعظة الثانية والخمسون في سرّ المعموذيّة ١٠٩
الموعظة الثالثة والخمسون في سرّ التثبيت ١١٩
الموعظة الرابعة والخمسون في ما يظهر لنا السيّد المسيح من المحبّة في سرّ الاوخرستيا ١٢٧
الموعظة الخامسة والخمسون في الاستعداد الذي يجب على المسيحي قبل تناول القربان المقدّس ١٣٥
الموعظة السادسة والخمسون في تناول القربان المقدّس بتكاثر ١٤٥
الموعظة السابعة والخمسون في جسامة اثم من يتناول القربان المقدّس

وجه

في حال الخطيّة المميتة ١٥٥
الموعظة الثامنة والخمسون في جلال نعمة سرّ الاعتراف ١٦٢
الموعظة التاسعة والخمسون في عظم شرّ من يخفي الخطيّة متعمّدًا في الاعتراف ١٧٠
الموعظة الستّون في الندامة الضروريّة في سرّ الاعتراف ١٨٢
الموعظة الحادية والستّون في عزم الاقلاع الضروريّ في سرّ الاعتراف ١٩٤
الموعظة الثانية والستّون في العزم الضروري للمعترف على ان يهرب من اسباب الخطيّة ٢٠٧
الموعظة الثالثة والستون في انّهُ يجب ان لا نؤخّر الاعتراف بعد سقوطنا في الخطيّة ٢١٩
الموعظه الرابعة والستون في علامات الندامة الحقيقيّة ٢٣٢
الموعظة الخامسة والستون في ضلال الذين يرتكبون الخطيّة بحجة أنّهم سيعترفون بها ٢٤٥
الموعظة السادسة والستّون في وجوب افعال التوبة الوفائيّة بعد بعد ارتكاب الخطيّة ٢٥٩
الموعظة السابعة والستّون في الصوم ٢٦٩
الموعظة الثامنة والستّون في الغفرانات البيعيّة ٢٧٩
الموعظة التاسعة والستّون في جسامة خطر الذين يرتجعون الى الخطيّة بعد الاعتراف بها ٢٨٨
الموعظة السبعون في سرّ مشحة المرضى ٢٩٩
الموعظة الحادية والسبعون في سرّ الكهنوت المقدّس ٣٠٨
الموعظة الثانية والسبعون في سرّ الزيجة ٣١٨
الموعظة الثالثة والسبعون في عظمة خطيّة الزنا ٣٢٧

وجه

الموعظة الرابعة والسبعون في الاتّكال على شفاعة المغبوطة مريم العذرآء ٣٣٦
الموعظة الخامسة والسبعون في العبادة التي يجب ان نكرم بها القدّيسين
ولاسيّما الملاك الحارس ٣٤٤
الموعظة السادسة والسبعون في وجوب استعداد المومن للموت ٣٥٤
الموعظة السابعة والسبعون في الموت ٣٦٤
الموعظة الثامنة والسبعون في الصبر على التجارب ٣٨١
الموعظة التاسعة والسبعون في الموت الصالح ٣٩٦
الموعظة الثمانون في المجيء الثاني ٤١١
الموعظة الحادية والثمانون في الذين يؤخّرون توبتهم ٤٢٣
الموعظة الثانية والثمانون في ميلاد سيّدنا يسوع المسيح ٤٤٠

ܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ

ܕܡܠܦܢܐ ܓܘܪܓܝܣ ܒܪ ܐܢܛܘܢ ܕܒܝܬ ܟܝܪܐܙ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

ܟܠ ܐܢܫ ܕܫܐܠ ܠܗ ܠܟܬܒܐ ܗܢܐ ܡܢ ܒܝܬ ܐܘܨܪܐ
ܐܘ ܦܫܛ ܐܝܕܗ ܘܣܡ ܗܘܐ ܡܫܬܡܠ ܒܝܬ ܟܬܒ̈ܐ
ܘܗܘܕܥܐ ܡܢ ܒܢ̈ܝ ܡܠܦܢܐ ܘܣܦܪܐ ܕܢܣܒܗ ܢܗܠ ܐܘ
ܠܒܝܬ ܠܗ ܣܦܪܐ ܟܠ ܢܣܒܗ ܗܘܐ ܠܗ ܣܦܪܐ ܒܝܬ
ܟܬܒ̈ܘܗܝ ܒܝܫܐ ܕܗܘܦ ܠܗ ܠܕܘܟܬܗ܀

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

LE

CHRÉTIEN

INSTRUIT DANS SA

PAR LE PÈRE

PAUL SEGNER

DE LA COMPAGNIE DE JÉSUS

TRADUCTION ANCIENNE REVUE ET CORRIGÉE

SECOND VOLUME

MOSSOUL

IMPRIMERIE DES PÈRES DOMINICAINS

1893

Religion: Translation from Latin
Beth Mardutho Library